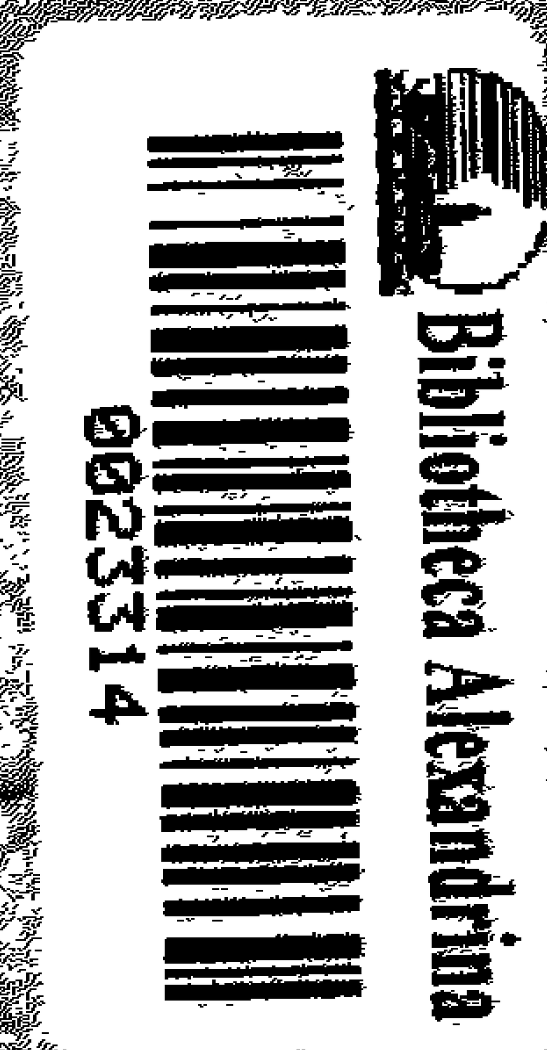
اللواء علي أبو نوّار

حين تلاشت العرب

مذكرات في السياسة العربية
(١٩٤٨-١٩٦٤)



دار الساقي

حين تلاشت العرب

المؤلّف

- علي أبو نوار ـ من مواليد مدينة السلط الأردنية سنة ١٩٢٥.
- درس وتخرج من مدرسة السلط الثانوية.
- انخرط في سلك الخدمة العسكريّة سنة ١٩٤٣.
- تخرّج من الكلية العسكرية البريطانية في فلسطين في أوائل ١٩٤٤.
- عمل في حاميات الجيش الأردني ثمّ في المدفعية ثمّ في المشاة، وأجرى دورات دراسة عسكرية عديدة في الجيش البريطاني.
- عمل مدرّباً وكبيراً للمدربين في الجيش العربي الأردني حتى بداية ١٩٤٨.
- أشغل منصب ركن في اللواء الثالث سنة ١٩٤٨، وحارب في فلسطين.
- أشغل منصب ركن في قيادة الفرقة الأولى في فلسطين.
- تخرّج من كلية أركان الحرب في بريطانيا سنة ١٩٥٠.
- عمل ملحقاً عسكرياً في باريس.
- كان مؤسساً في حركة ضباط الجيش السريّة للانتفاض على الوجود والنفوذ البريطانيين في الأردن.
- عاد إلى عمان من باريس ليقود الحركة العسكرية لتحرير الجيش من القيادة البريطانية تنفيذاً لقرار الملك حسين.
- أشغل منصب قائد الجبهة في الضفة الغربية ثمّ مديراً لهيئة الأركان في قيادة الجيش.
- أشغل منصب رئيس هيئة أركان حرب الجيش الأردني سنة ١٩٥٦.
- ساهم، وبشكل رئيسي، في التعاون العسكري والسياسي بين الأردن وسوريا ومصر.
- ساهم في إنهاء المعاهدة البريطانية مع الأردن وجلاء قواتها (١٩٥٧).
- ساهم في قرار اتفاقية التضامن العربي بين الأردن ومصر وسوريا والسعودية (١٩٥٧).
- حوكم بتهمة الانقلاب على النظام وأمضى سبع سنوات في مصر وسوريا منفياً (١٩٥٧).
- عاد إلى الأردن سنة ١٩٦٤.
- عمل مستشاراً سياسياً للملك حسين سنة ١٩٧١.
- عمل سفيراً مقيماً في باريس وممثّلاً للأردن في اليونسكو وسفيراً غير مقيم في بروكسل.
- يعمل الآن عضواً في مجلس الأعيان الأردني منذ نهاية ١٩٨٩.

اللواء علي أبو نوّار

حين تلاشت العرب

مذكرات في السياسة العربية

(١٩٤٨-١٩٦٤)



دار الساقي

الطبعة الأولى: ١٩٩٠

ISBN 1 85516 811 1

Dar Al Saqi, 26 Westbourne Grove, London W2 5RH

تمهيد

يعاتبني الأصدقاء لأنني لم أكتب مذكّراتي عن حقبة عشتها تعتبر من أهم مراحل التكوين العربي الحديث وبدايات الصراع العربي للحصول على الحريّة وحماية الوطن الفلسطيني من الصهيونية ، كنت أقول لهم ذلك تاريخ أسدلت عليه أستار كثيفة بفعل مرور الزمن وتراكم الأحداث ويكاد يصبح في طيّ النسيان .

وكلّ سنة تمضي تأخذ معها قسطاً من آمال قديمة وتعقبها سنة من دون بشائر جديدة ، وهكذا ينتهي جيل وما حمله من هموم وعنايات كي يعقبه جيل تولد معه عنايات مختلفة وتصوّرات للمستقبل بعيدة بعض البُعد أو كلّه عن تصور مَن سبقوه.

وهكذا تمضي الأيام لتتّسع الشقّة بين كل مرحلة من تاريخنا وبين مرحلة تتبّعها ، بين الرؤية في عمر جيل والرؤية في جيل يعقبه ، وكذلك بين الشعب الذي حاول تشكيل حياته وصنع مستقبله في حين من الزمن ، وبين الشعب نفسه الذي يتجدّد كي يستقبل حياة صُنعت له من رؤية لا يملك المشاركة فيها .

والأمّة وقد أُثخنت جراحاً من أعدائها واستكانت لِما يُراد لها وقد فقدت الإرادة إلاّ لتتوجه لغير مصلحتها، حيث صارت الذهنية العربية غريبة عن آمالها الأصيلة فاستمرأت الاستسلام للتجزئة في كل ما تملك ، عقلها ، إرادتها ، وطنها ومستقبلها .

يعاتبني الأصدقاء فأسألهم وهل في الجيل الجديد قُرّاءٌ لجيلنا يدفعهم الشوق للمعرفة ولوصل ما انقطع من طموحات أمّتنا ؟ أم أنّهم يرون فينا نماذج غريبة عن عصرهم يسخرون منها ويصفوننا بأوصاف الجهل والسذاجة ؟

وجيل العصر والعلم هذا يرانا بأيّ منظار يا تُرى ؟ . منظار ما يرانا به الأجنبي الذي صارعناه أم منظار التاريخ العربي والولاء له ولاستمرار ما ينتظره منهم؟

تلك أسئلة جعلتني وربّما غيري يتقاعس عن سرد الوقائع العربية وتحليلاتها

والإشارة إلى أخطاء وقعنا فيها ونجاحات حقّقناها ، لتكون إضافة إلى مخزون ذاكرة أمّتنا ، تساعدها ، وعلى تتابع الأجيال، الاستفادة منها.

في أيام شبابنا كانت الأفكار تثير خيالاتنا والمبادىء تملك ضمائرنا ولم تتساوَ معها عمليات الحياة ؛ ولكنّنا الآن في عصر السرعة وأخبار الإثارة وأسواق المال وهدر كثير من قيم احترمناها . فالكتاب تناقص قرّاؤه والأفكار السقيمة زاحمت الأفكار الصحيحة المجدية للمستقبل ، لأن الكتاب مستهلِكٌ للوقت والأفكارَ الجدّية تُثقل الناظر إليها بالمسؤولية والمطروح المقبول هو ما لا يُشغل الضمير والعقل بل يُشغل الوقت بالكسب والمتعة .

لقد أصاب أمتنا التغيير والتطوّر وهذا شيء طبيعيّ ، فالتغيير طبيعيّ والجمود موات ، ولكن ما يجدر فحصه وتبيُّنه هو طبيعة التغيير والتطوّر . هل هو تغيير في النمط أو الأسلوب أم هو تغيير بالفكر المّتصل بحياة الأمة ؟ .

هل هو تغيير بالوسائل أم تغيير في المبادىء ؟ وكذلك التطوّر الذي أصابنا ولا أقول أصبناه ، هل هذا التطور في القشور ونسمّيه عندئذ تقليداً ضاراً أم أنه في الجوهر وبما لا يتناقض مع مبدأ سلامة وصحة الأمة وعندئذ نسمّيه إبداعاً .

إذا اعتبرنا الفكر والسياسة عائقين لتقدّم أمتنا كما يعتقد بعض الجيلُ الجديد وأن التقنية هي المنطلق الوحيد ، كما يقولون ، فإنهم يرتوون من منابع غير عربية مفاهيم واجتهادات خاطئة أصلاً . إذ بغير الفكر والسياسة لا قوة ولا سيادة ترسمان النهج التقني على أسس سليمة . وما نراه في وطننا العربي من الوسائل والأدوات التقنية العالمية لا تخرج عن كونها وسائل مستهلكة ومتجدّدة تزداد كلفتها كل يوم . ذلك لأن السياسة المرهونة لإرادة الغير لم تسمح بوضع منهاج تقني يقتبس ويبدع من ذات أبناء الأمة من جيل العلم ، وعلى العكس تكرّست جهود التقنيين العرب على الشراء وطُبّعت لغياب السياسات العربية للاستهلاك .

هذا السياق يعيدنا إلى أهمية الأفكار وتكوين السياسات في الأمة انطلاقاً من نقطة سيادتها على قدرها أولاً وقبل كل شيء آخر . وهذا يعيدنا إلى أن الأجيال الجديدة لا تملك إن أرادت وطناً وتقدماً على أرض الوطن إلاّ بالاتصال بتراثها وتاريخها ليكون البناء على أسس قومية سليمة .

لست أدري إن كنت أخاطب الجيل الجديد بمنطقه وهأنذا أحاول .

أقول إننا لم نترك لأبنائنا ما يريحهم ويعفيهم من مشاقّ تحملناها بالرضى،

بل تركنا لهم تركة ثقيلة دون اختيار منّا . فقد غلبنا أعداء أمتنا من استعمار قديم واستعمار جديد وصهيونية ، جميعها متحالفة على قهرنا وإبقائنا نعاني نقائص وأمراض وهزائم داخلية فضلاً عن الهزائم التي ألحقها بنا الأعداء من الخارج . والهزائم الداخلية هي أخطر ما يصيب أبناءنا ، وانصرافهم عن الهمّ والمتاعب في جهاد النفس سوف يذهب بأغلى ما تملكه الأمة وهو الأمن الذي يتهدده الأعداء كل يوم .

لعلّ ما سبق وذكرته في هذا التمهيد هو ما أثار الرغبة في نفسي لكتابة هذه المذكرات .

فأنا على ثقة من أنّ الشباب على مختلف مشاربهم في الوطن العربي ، تثيرهم الانتفاضة في فلسطين وتجعل الدم يغلي في عروقهم دون أن يعيدوا المسائل إلى أصولها ليعرفوا أنّ انحسار الأمة العربية كلها عن مسؤولياتها جعلت أطفال الحجارة يتصدّون إلى ما حبُست الجيوش والجحافل العربية عن محاربته .

كيف ولماذا هما أسُّ المسألة العربية التي إن لم تعالج بالفكر والمبدأ والمسؤولية القومية ستجد الأمة نفسها ، وفي مختلف أوطانها ، شعباً يتلو شعباً يضعون أطفالهم في مذبحة الحجارة .

عندما تتجزّأ القضية العربية ويحرّم الحديث والعمل للوحدة العربية في أوطاننا وتتكرّس القطرية والإقليمية ، فنحن نخدم أهداف الأعداء ونسّهل لهم التصرف بمصيرنا حيث لن نفيد من ثروة هنا وقوة بشرية هناك حكمَ الأجنبي عليهما بالافتراق .

عندما تفتر الحمية القومية وتُطفأ نار حماستها سهل على الأعداء التهام أوطاننا بطريقة أو أخرى .

وإذا تصوّر العرب أن فلسطين هي نهاية مآسينا وسلّم البعض بها أرضاً وشعباً ، فليعلم الجميع أنّ التسليم بقطعة من أرض الوطن سابقة تسهل التسليم بقطعة أخرى .

القطرية في التفكير العربي هي قبول برغبة بالضعف ، أما الإقليمية فهي طريقة تبدو عملية لوحدة أقطار على السطح . ولكن كيف يُحدّد الإقليم فهو أمر لم يمعن العرب النظر فيه . فإذا كان المقصود بالوحدة الإقليمية تجميع مصادر قوة تدفع الأخطار عن الأرض والشعب فلا بدّ من مقياس للقوة الإقليمية وقدرتها .

الأمن العربي ليس موضوعاً اعتباطياً أو استشارياً أو موضع استخدام الذكاء للتبرير . الأمن العربي أخطر تحدّ يواجهنا هذه الأيام ، وتوفيره لا يكون بتجمّع قوة من

نوع واحد من القوى البشرية دون حساب مقوماتها وواجباتها ، كما أنه ليس بتجميع نوع واحد من الثروة دون المقومات الأخرى.

وإقامة تجمعات إقليمية يفتقر أي منها إلى التكامل ، يفقد الأمة تكافل قدراتها ويدخلها في صراعات داخلية مهما ظهر من بوادر حُسن النية وإعلانها. فمصلحة الأمة ومجابهتها للمصالح الخارجية الكبرى ستحمل التجمعات العربية على مصارعة بعضها، كما وستستغلّ القوى الخارجية فرص ابتزازها والخلاص بأكبر المغانم منها.

من يفكر من العرب أن الاستعمار انتهى فهو منكر لوجوده في أوطاننا بنفوذ صارخ يصُمّ الآذان ، ومن يعتقد منهم أن للاستعمار صداقة فهو لا يرى ولا يفقه مهما تعاظم أمره .

وليس أمامنا إلاّ أن نتّسع لبعضنا فنتقاسم الغُنْمَ والغُرْمَ ، ونرتبط بمصير واحد كي ننجو بأوطاننا واستقلال إرادتنا والاستئثار بثرواتنا.

والآن وقد وقفت على أبواب الشيخوخة تتنازعني حماسة لم تنطفىء جذوتها وحكمة تسدّد نظرتي ورؤيتي لأحداث الماضي واحتمالات المستقبل، وجدت نفسي أكتب لعلّي أفي غرضاً وفاءً لجيلي من أبناء العروبة ، ولعلي أشحذ في بعض الجيل الجديد همّته .

بدأت حياتي ممتلئاً بالإيمان بالإسلام ديناً وتراثاً، وبالعروبة هوية ووجوداً. وبحكم القدر صِرت ضابطاً وشهدت حرب ١٩٤٨ ، ثم اختلطتُ بالأحداث الأردنية والعربية وراقبتُ ما يدور في الوطن الكبير . ولو عاد الشباب إليّ كما يتمنّى أحد الشعراء لما اخترت طريقاً غير طريقي الذي سلكته غير آسف إلاّ لما أراه من التيه الذي نعيش فيه .

وإذا كنت أتمنّى شيئاً فهو أن أرى أمّتي متّحدة وحرّة ، وقد وضعت نفسها في حلبة السباق العالمي على طريق التقدم والازدهار واحترام الإنسان .

وبسم الله ابتدىء .

علي أبو نوار

مقــــدمة

كان أوّل وعيي في قرية صويلح ، حيث امتلك والدي منزلاً اعتدنا على الاصطياف فيه ، ثم أصبح مقامنا لعدة سنوات ، إذ تناسب موقعها مع أعمال والدي . أذكر أنه كان يصدّر كميات كبيرة من الحبوب إلى القدس ويستورد بضائع مختلفة منها ومن دمشق .

فنشأتُ بين الشراكسة أخوالي والشيشان ، وبين عشائر اللوزيين والعساف والسكر وقلة من أهالي السلط الذين سكنوا صويلح ، وعائلة عقله القطامي الزعيم الدرزي الذي لجأ إلى الأردن بعد ثورة سوريا على فرنسا سنة ١٩٢٥ .

أدخلني والدي الكُتّاب عندما بلغت الخامسة ، ودرّسني مع أبناء صويلح شيخ مصريّ علّمنا القراءة وحُسن الخط كما حفّظنا بعض سور القرآن . وبعد سنة افتتحت وزارة المعارف مدرسة حكومية فالتحقت بالصف الأول فيها .

في صويلح كان بيتنا وبيت عمّي عبد الرزاق وبيت أحمد الحمود العربيات لا تخلو من الزوار من صويلح والسلط والعشائر المجاورة لصويلح ، وكان أكثرهم زيارة عبد الله اللوزي وعبد ربه الكايد العسّاف إذ كانا من أصدقاء والدي وأصدقاء أحمد الحمود .

وقد جرت العادة أن يسهر السلطيون في صويلح في بيت أحدهم ، وكثيراً ما حضرتُ من تلك الأمسيات في بيتنا ، فأستمع إلى أحاديث الرجال التي تناولت مسائل كثيرة من تاريخ القدماء من أفذاذ الفتوحات الإسلامية إلى سير القبائل العربية وأصولها ورواية القصائد البدوية . ولم تخل أمسيات السمر من الأحاديث عن السياسة التي كان عقله القطامي مجيداً في بحثها ، وكثيراً ما يتبادلون كتباً تاريخية عن أحداث عربية ويتناقشون فيها . ومعظم الوقت كان يقضي في الكلام على الثورة العربية الكبرى والملك حسين بن علي وأنجاله الأمير عبد الله والملك فيصل والملك علي ، وظروف

الحكم العثماني لسوريا والعراق والحجاز ووعد بلفور وجمال باشا وإعدام الزعماء السوريين في بيروت ثم غدر بريطانيا للعرب .

أذكر تلك السهرات وكأنها بالأمس ، كما أذكر زيارات لهم إلى اللوزيين في مضاربهم القريبة لقضاء النهار في ضيافة أبي قبلان .

لما أنهيت الصف الثالث ، وهو أعلى صفوف مدرسة صويلح ، انتقل والدي بنا إلى مدينتنا السلط لأتمّ الدراسة فيها ، وسرعان ما اندمجت بأقاربي من عشيرة العطيات وانسجمت مع زملائي في الصف الرابع الابتدائي حيث أحرزت المرتبة الأولى في جميع المواد . ولم أكن كثير المذاكرة ولكن كثير الجدال مع الطلاب حول الدروس ومواضيعها . ولمّا كان الطلاب في السلط ميّالين للشجار والمشاكسة انقلبت بين عشية وضحاها إلى المشاركة في ميولهم مودّعاً الوداعة التي ألفتها في صويلح .

في صويلح كبر عقلي على سنّي نتيجة الاستماع إلى أحاديث الكبار والتي كانت تثير خيالي وعاطفتي ، أما في السلط فإن تلك الأحاديث ، وعلى مدى سني الدراسة ، تطوّرت إلى أحداث وخطب وطنية ومظاهرات تعقبها أحياناً مصادمات خفيفة مع الشرطة .

أول الخطب والمظاهرات ، التي شهدتها واشترك فيها كل الشعب ، كانت عند مصرع المغفور له الملك غازي إذ اتهم العرب بريطانيا بتدبير الحادث . كان يوم حزن عظيم في السلط وكل الأردن على الملك الشاب الذي لم ينضبط بالحدود التي أرادتها السلطة البريطانية المستبدّة في العراق . في هذا اليوم تكلّم الخطباء عن الاستعمار وفلسطين وسوريا والأردن ومصر ، فكان مناسبة لإثارة الآلام وشحذ الآمال .

وثاني المناسبات كانت عندما وصل جثمان الشهيد علي العبويني من جبال نابلس ليدفن في السلط . لقد سار العبويني مع جملة من أبناء السلط بقيادة أحمد النجداوي لمحاربة الاستعمار البريطاني بالمشاركة في الثورة الفلسطينية ، وتبعه إلى الاستشهاد أحمد النعمان العطيات ثم عبد الرحمن علي النجداوي ، ولا تزال رموسهم ظاهرة في السلط عنواناً على وحدة الكفاح العربي. وكان من الشهداء من عمان جمال الجقّه رحمهم الله جميعاً ورحم الشهداء من أبناء فلسطين البررة.

ثالث المظاهرات والخطب سنة ١٩٤١ عندما قمعت بريطانيا الثورة العراقية المعروفة بثورة رشيد عالي الكيلاني بقوات بريطانية وهندية ، واتهمت بريطانيا رشيد عالي بالثورة على النظام الملكي ، ولم تكن إلّا تهمة زور وبُهتان ـ وسآتي بالحديث عنها في ما بعد . وتتالت المناسبات في السّلط أمّ الوطن وعاصمة الوطنية في تلك

الأيام. وقد درج الأساتذة على تذكير الطلاب بأن أمتنا العربية مُستعمَرَة ومُستعبَدَة ومُجزّأة، وأن على عاتق جيلنا تقع مسؤولية التحرير والتوحيد. كان الأساتذة يخرجون عن منهاج الدروس أحياناً للمحاضرة عن دور عمر المختار وثورة ليبيا والأمير عبد القادر الجزائري ، وثورة الجزائر والشريف حسين بن علي والثورة العربية الكبرى في المشرق والحاج أمين الحسيني وثورة فلسطين ، السودان وحربهم مع الإنجليز وثورات العراق . وتفاوت الأساتذة في أسلوبهم وانفعالاتهم وشمولية تحليل بعضهم للأحداث أو قصرها على وقائع محدودة . وكان التفاوت شديداً بين الأساتذة صبحي أبو غنيمه ، الذي يثير انفعالنا حتى البكاء ، وبين الأستاذ صبحي حجاب إلى الأستاذ حسني فريز ، أطال الله عمره ومنحه كل ما يرضيه ، والذي أدين له بفضل خاص لفهمي التاريخ لفرط إجادته في تحليلاته للأزمة العربية وعلاقاتها مع الأحداث التاريخية العالمية والاستنتاجات والحلول لمغاضل أمتنا ، كل ذلك بأسلوب سهل عامر بالمعلومات مع حلاوة التعبير .

عشقت التاريخ مرتبطاً بسيرة الإنسانية ، ومأساة أمتنا العربية وتعديتها إلى المآسي التي أصابت أمماً أخرى . حزنت وتعذّبت لمعرفتي أسباب ضعفنا وتراجعنا من أمة عظيمة إلى شعوب مستضعفة ، عبثت بها القوى الأجنبية . وتكرّست في وجداني كراهية للاستبداد سواء أكان دولياً أو طبقياً . أصبح الفقير من ملايين الفقراء المصريين موضوعاً يؤرقني، كما عشت مأساة الشعب الهندي ونضاله الطويل ، وأحسست بشقاء الأطفال والأمهات البائسات في مرحلة الثورة الصناعية في أوروبا ، هكذا درّسنا الأستاذ حسني فريز .

إلى جانب هذه المشاعر المأساوية كان يتعاظم الفخر والأمل باستذكار انتفاضات أمتنا وتضحيات بعض رجالها وصمودهم بما يشبه سيرة أبطال الأساطير . كما شغفت بسيرة الأمم التي ثارت على الظلم ، وأعجبت بأقوال وأعمال قادة الفكر والحركة في العالم مثل ڤولتير وجان جاك روسو وصُناع الماجناكارتا وغاندي وتيتو والعلماء المخترعين الذي أسّسوا حضارة القرن العشرين .

ومع أن ميلي كان أكاديمياً إلاّ أن شخصيات عسكرية ، قديمة وحديثة ، استحوذت على اهتمامي مثل هانيبال والإسكندر المقدوني وبونابارت وروممل وزوخروف .

أمّا الشخصيات التاريخية فقد نالت حصتها من دراستنا في حصص المدرسة ، وكان لحمورابي وسقراط وجستنيان حظّ كبير من حصص التاريخ .

كان أستاذنا الجليل يشرح لنا الرسالات السماوية، وعلى الأخص المسيحية والإسلام ، كما يشرح لنا الديانات الأخرى ومنها البوذية والزرادشتية بما يفتح أذهاننا على الفلسفات التي قامت عليها تلك الديانات .

من هذه الشروح ترسّخ في ذهني الاحترام لحملة الرسالات لما تحمّلوه من شقاء وعناء . واستقر في فؤادي الاعتزاز الأعظم بنبيّنا محمد ﷺ وسكن عقلي عظمة التعاليم الإسلامية والتقدير لحملة رايتها من صحابة الرسول العظيم وقادة الفتوحات الإسلامية .

كانت الرسالة الإسلامية دليلاً عظيماً لما يمكن للعقيدة والإيمان أن تفعلاه في أمة ممزّقة ومتخلّفة ضلّ هديها بالجاهلية المفرطة ، لتصبح أمة الثورة على الظلم والعبودية والحرب على الجهل والجهالة وانطلاق العقل على طريق الإبداع .

ورجال الرسالة الذين حملوا الكتاب من صحابة الرسول وحفظوه وتفاسيره ، مثلهم مثل قادة وجنود الفتح، كانوا بالنسبة لي وللتلاميذ جميعاً أساتذة العالم في إنارة الطريق لاكتشاف آفاق الحياة.

أبو بكر وعمر وعلي وعثمان وأبو عبيدة وخالد وسعد وقتيبة ومحمد بن مسلم وطارق ، كانوا من أعمدة الرسالة وقادة الرأي والجند الذين تفرّدوا في التاريخ بصفات إنسانية وقدرات قيادية لا تضاهيهم فيها أيّة مجموعة في أيّ من الأمم.

وأستاذنا حسني فريز ملأ عقولنا بفهم الإسلام كحركة من أعظم حركات التاريخ التي غيّرت في مسيرة الإنسانية واتجاهاتها إلى الأفضل . كما أضاف الأستاذ حسن البرقاوي إلى فهمنا عظمة الإعجاز في لغة القرآن وسُموّ التعاليم التي بشّر بها الدين الحنيف لتصلح حياة الإنسان وآخرته .

السّلط كانت مدرسة حياة ومدرستها مركز الإشعاع العلمي والوطني في الأردن ومصنع التأهيل لتكوين أجهزة الدولة . والطلاب من مختلف عواصم الأردن يفدون إلى السّلط لإكمال الصفوف الثانوية بعضهم مجدّ في المذاكرة والبعض مقتصد فيها ، ولكنّهم يمثّلون جيلاً تميّز بالبراءة والشعور بالكرامة وطيب المعشر والوطنية الصادقة.

ماذا عن طموحاتنا ؟ كان بعضنا يهوى الجندية والبعض رغب في إكمال دراسته في الجامعات ، وأنا من هذا الفريق أردت دراسة التاريخ أو القانون إلاّ أن رغبتي هذه عكستها الصدفة .

يقال إنّ الإنسان مسيّر لا مخيّر . لقد رشّحتني وزارة المعارف إلى بعثة إلى

الجامعة الأميريكية في بيروت لدراسة التاريخ ، إذ إني كنت مجيداً في هذه المادة ، واستُدعيت لمقابلة وكيل الوزارة لإبلاغي قرار البعثة. ورافقني الأستاذ حسن البرقاوي لزيارة الوكيل بتكليف من مدير مدرسة السّلط الأستاذ محمد أديب العامري .

وكيل الوزارة دعا الأستاذ البرقاوي للجلوس وأبقاني واقفاً ما يقارب الساعة، يطرح عليّ سؤالاً بين فترة وأخرى في حين يتحدّث إلى الأستاذ طيلة الوقت .

وحملت لهجة الوكيل الكثير من التعالي في أسئلته التي وجّهها إليّ مما أثار حفيظتي ، إذ لم أعتد هذا الأسلوب من أساتذتي الذين اعتبروا الطالب المتفوّق إنساناً ذا قيمة وليس مجرد ولد لا شأن له في حين أن شعوري بذاتي لم يكن متواضعاً أبداً . خرجت من مكتب الوكيل بوعد قاطع بالبعثة وفي نفسي تردّد في قبولها .

هذه الحادثة كانت سبباً لاستجابتي لبعض الزملاء الذين صادفتهم في سوق عمان وقد قدموا لحضور فحص مرشحي الضباط . اشتركت في الفحص واستُدعيت بعد أسبوعين لمقابلة قائد الجيش وأركانه ، وأعلمني مدير السجل حسام الدين المفتي أنني كنت الأوّل في فحص المعلومات .

هذه المقابلة مع قائد الجيش جلوب باشا ومعه عبد القادر باشا الجندي والزعيم برود هرست والقادة أحمد صدقي الجندي وسعيد العاملي وعمر العمري ، كانت بغرض معرفة لياقة المتقدّمين الجسمية واستشفاف صفاتهم القيادية ، وقد نجحت فيها رغم اعتراض برود هرست .

برود هرست بالغ الطول وجميل الهندام ويفضّل أن يكون الضباط طوالاً ، ولمّا كنت معتدل القامة وصفني بالقصر فضلاً عن الصلافة في إجاباتي على أسئلة قائد الجيش وأركانه .

هكذا أبدى رأيه لجلوب باشا بالإنجليزية ، ولكن الأغلبية وافقت فسقط اعتراضه. وهكذا انتسبت إلى الجيش العربي، خلافاً لرغبتي الأولى ورغبة والدي، في نهاية سنة ١٩٤٣ مع أحد عشر مرشح ضابط اختيروا في هذه الدفعة . وبعد فترة قصيرة من التدريب في معسكر المحطة بعمان نقُلنا جميعاً إلى معسكر الحامية الأولى في صرفند بفلسطين تمهيداً لإيفاد خمسة منّا إلى مدرسة تخريج الضباط البريطانيين في بيرسالم قرب صرفند ، وكان الموفدون هم محمود الروسان ، شوكت الخصاونه ، رزق الله حداد ، معن أبو نوار وعلي أبو نوار وذلك في بداية سنة ١٩٤٤ . وهذا الاختيار كان على أساس توفر أساسيات علمية وحُسن المعرفة باللغة الإنجليزية .

هذه المقدّمة طرحتها لأصوّر للقراء من الأجيال اللاحقة وباختصار بعضاً من بداية حياة جيلنا والبيئة الاجتماعية والظروف السياسية التي شكّلت مفاهيمنا واتجاهاتنا ، ولعلّها صور مماثلة لحياة هذا الجيل في كل أنحاء الوطن العربي مشرقه ومغربه .

وفي ما يلي نرى كيف وجد جيلنا هذا نفسه في مواجهة التحدّيات التي صارعها وصارعته،حتى بلغ الشيخوخة من عمره وهو ينظر بالإشفاق إلى أبنائه لما ورثوه من إحباطات وأعباء ثقيلة .

الفصل الأوّل

الجيش والخدمة

من أين أبدأ ؟ إنه لجدير بالذكر أنّ فترة التدريب في معسكر المحطة ومعسكر صرفند هي النقيض الكلي للفترة الدراسية . إذ إنها تدريبات رتيبة ، الغرض منها غرس روح الانضباط بإجراء حركات مراسيمية طوعاً لأوامر يطلقها المدرّب بصوت جهوري وقوي . هي تدريبات تتصل بالجسم وانتظام حركاته طويلة ومُضنية ومتكررة ، ولا تحتاج لإشغال العقل كثيراً . وما إن ينتهي النهار حتى يخلد المرشحون للراحة ، ليكرّروا في يومهم التالي التدريب دون أي فراغ يذكر لأي نوع من أنواع القراءة . ولعل أحسن وصف للمرشحين في هذه الفترة أنهم يدخلون في ماكينة ذات قوالب لا يخرجون منها إلاّ وقد غلبهم القالب وتكيّفوا به وهذه في اعتقادي بداية العسكرية .

أمّا في بيرسالم حيث مدرسة تدريب مرشحي الضباط فإن المجال أرحب لإظهار الصفات القيادية ، وإعمال الذهن بالإضافة إلى اللياقة الجسمانية . فالتدريس فيها نظري وعملي لمبادىء القتال وتدريب التلاميذ على مسؤوليات القيادة الصغرى والعيش في ظروف تماثل نوعاً ما ظروف القتال الحقيقي بما فيه من جهد ومسؤولية وخشونة .

كنا نحن المرشحين الأردنيين نبذل جهداً خاصاً للتساوي مع الأغلبية الساحقة من التلاميذ البريطانيين في بيرسالم ، ولكني وزملائي كنّا نشعر بصعوبة اللحاق بهم حيث إن أولئك ، وقبل التحاقهم بهذه المدرسة ، كانوا ضباط صفّ متفوقين في قطعاتهم العسكرية ، وخاض أغلبهم معارك عديدة في شمال أفريقيا وأوروبا وبعضهم كان ذا ثقافة جيدة ، إلى جانب ما يحملونه من أوسمة نالوها في المعارك . لذا فقد كانت مهمتنا أحياناً أصعب من معرفتنا وقدرتنا ، إلاّ أنّ هذه المدرسة أفادتنا بدرجة كبيرة بأن أهّلتنا للوقوف على بداية طريق الجندية . ومن هنا فإنني لم أجد حرجاً أو صعوبة في دراساتي اللاحقة في المدارس والكليات العسكرية البريطانية .

التدريبات الميدانية في هذه المدرسة هيأت لنا التعرّف على جزء صغير من

فلسطين ، حيث عرفنا منطقة جنوب القدس وضواحي بيرسالم وصرفند واللد والرملة ، وهي منطقة التدريبات عموماً ، عدا عن زيارتنا لمدينة يافا ، وإن لم تتح لنا فرصة الاختلاط بالفلسطينيين بحكم ضيق الوقت .

ومناطق التدريب كانت جبلية ووعرة جنوب القدس ، بينما هي أرض سهلية خضراء جميلة تغطيها جنائن البرتقال والليمون في مناطق صرفند وبيرسالم وما جاورها حتى حدود اللد والرملة . ومن برامج المدرسة أن تجري تمرينين بالقرب من مستوطنة يهودية اسمها بن شمن ، وقد أثار انتباهي ومحمود الروسان وشوكت الخصاونه ظاهرة غريبة وهي خروج أولاد مدرسة بن شمن وأساتذتهم يحملون عصياً ويُقلدوننا في تدريبات الانتشار والزحف والهجوم ، وعلى أرض محاذية للأرض التي نشغلها ، كان ما شاهدناه من الأولاد اليهود موضوع حديثنا ، ولكن العجب لم يطُل إذ فسرته الأحداث الفلسطينية في ما بعد . فبينما كان العرب معنيين بفرق الكشافة في فلسطين كانت الصهيونية تُعدّ الأولاد ليصبحوا مقاتلين .

ومع ثبوت الأدلة المستمرة وبالأخص دليل ١٩٦٧ على أن الإسرائيليين دائبون على تجهيز شعبهم كله صغاراً وكباراً للقتال ، فإن أمتنا العربية لم تخرج عن نظرتها الكلاسيكية لمقوّمات الصراع العربي الإسرائيلي بالاقتصار على الجيوش دون شمول الأمة كلها . ولنا حديث في ما بعد عن هذا الموضوع الحيوي الهام .

ما هي معلوماتنا عن الجيش الذي انخرطنا في سلكه ؟ سؤال وجيه لم تكن لدينا جميعاً إجابة مرضية عنه . ومن صرفند فهمنا بالاستنتاج أن قطعات من المشاة تسمّى الحامية الأولى تحرس المنشآت البريطانية في فلسطين ، ومثلها في العراق . يقود الأولى أحمد صدقي الجندي ويقود الثانية بهجت طباره . ويعلمنا زميلنا المرشح رزق الله حداد الذي خدم في قوات البادية أن اسمها اللواء الميكانيكي ، وأن قائده اسمه الزعيم لاش وقائد إحدى الكتائب التي أتى رزق الله منها هو القائد بدن وأنه لواء مسلح بالمدرعات والمدفعية، ومنتسبوه من أبناء القبائل الأردنية والسورية والعراقية والسعودية وقادته بريطانيون، وقلة من منتسبيه ضباط أو ضباط صف من المتعلمين الأردنيين يتولون الأعمال الإدارية.

إلّا أنه لم يحدث أن استمعنا ولو لمحاضرة واحدة عن جيشنا وتشكيلاته وقياداته ، ولم نكن في صرفند نشعر بأننا جزء من تكوينه ، إذ إن ضباط الحامية كانوا شبه عدائيين أو على الأقل متجاهلين للمرشحين في ما عدا الملازم فواز ماهر جزاه الله على عنايته بنا وتشجيعه لنا . عرفنا السبب في هذا التنكر في ما بعد ، وهو أن الأغلبية

من أولئك الضباط ينتمون أصلاً إلى الشرطة، وتدرجوا في المراتب إلى ملازم دون أي مؤهّل عسكري أو علمي ويتوجّسون خيفة من المرشحين المتعلمين الذين ابتدأوا بمرتبة مرشح الضابط دون المرور بالرتب الدنيا.

عندما تخرجنا من مدرسة التدريب البريطانية استدعانا قائد الحامية أحمد صدقي الجندي، وأثنى على ما بذلناه من جهد وأمّلنا بأن نتقدم لنصبح من كبار الضباط. وعلى أثر ذلك وزّعتنا قيادة الجيش على القطعات العسكرية، وكان نصيبي أن عُيّنت في قيادة الحامية الأولى ضابط ارتباط لها مع الجيش البريطاني، ثم نُقلت بعد شهرين إلى المدفعية في اللواء المسلح بإمرة كمال الحمود ورُفّعت إلى رتبة ملازم. وقد عُني كمال بتدريبي وزميلي نايف الحديد على مدافع الهاوتزر وتسلّمت قيادة فئة من أربعة مدافع.

التقيت في اللـواء المسلح بزميلي وصديقي قاسم الناصر وبعلي الحياري وعبد الله التل ومحمد علي الصايل من عشائر بني حسن، وثلاثتهم من قدماء الضباط بالنسبة لدفعتي، كما تعرّفت إلى غازي الحربي من حرب وخالد الخريشه وزعل الرحيل من بني صخر ومحمد ضيف الله من الحويطات وغيرهم.

كان الضباط البدو ينظرون إلينا نحن الجدد ولفترة قصيرة نظرتهم إلى الغرباء، ويصفوننا بالفلاحين أو المدنيين إلى أن عرفوا من مسالكنا وتصرفاتنا بأننا مثلهم أبنـاء عشائر وإن سكنّا بيت الحجر. ومع ذلك ظلّوا متأثرين بعقدة الأمّي قياساً للمتعلـم.

اجتهدت في تدريب فئة المدفعية نهاراً وليلاً حتى أوصلتها إلى درجة مقبولة من الكفاءة مع أن أفرادها كانوا شبه أميين. وكما هو معروف فإن سلاح المدفعية يتطلّب درجة من العلم بالرياضيات وقراءة الخرائط.

ولمّا كان الجيش ينوي التزوّد بمدفعية الميدان من عيار خمسة وعشرين رطلاً، اختارني كمال الحمود لأكون أول مبعوث لدراسة استعمالها في مدرسة المدفعية البريطانية في قاعدة الماظة من ضواحي القاهرة.

أثناء غيابي في مصر عيّنت قيادة الجيش الكابتن شوري قائداً للمدفعية وأصبح كمال الحمود مساعداً له، كما جاء من الجيش البريطاني وكيل ضابط اسمه بولوك مساعداً للتدريب. في هذه الفترة أخذت تصلنا أطقم من الضبّاط البريطانيين لتدريب وحدات اللواء المدرعة وإرساليات من الناقلات العسكرية وتجهيزات الورش وأطباء لبنانيون من الذين خدموا في السودان. وبدأت تتسرّب إلينا بعض أخبار من القادة

البريطانيين عن احتمال إرسال اللواء المسلح للاشتراك مع الجيش البريطاني في الحرب في جزيرة كريت اليونانية .

وتأكدت الأخبار بزيارة الجنرال باجيت قائد قوات الشرق الأوسط واستعراضه اللواء ، وحكم بعدم صلاحية وحداتنا لدخول حرب حديثة لضعف الاستعداد في نواحي الكفاءة في التدريب والتجهيزات والأسلحة . وفهمنا أن جلوب باشا أصيب بخيبة أمل كبيرة لضياع هذه الفرصة التي أراد أن يُظهر بها جدوى خدمته لبريطانيا .

كان حكم الجنرال باجيت صحيحاً لأن لواءنا المسلح كان ضعيفاً بدءاً بقيادته وقيادات كتائبه وسراياه . قائد اللواء الزعيم لاش كان ضابط بوليس في فلسطين أصلاً ، وقادة الكتائب البريطانيون كانوا من الذين لايصلحون لقيادات سرايا في الجيش البريطاني ، ويتبع هذا بالضرورة ضعف في إعداد قادة السرايا العرب بكفاءة تتناسب مع متطلبات الاشتراك في حرب أوروبية .

مادّة الجنود وضباط الصف والضباط كانت ممتازة لو توفّرت لهم أسباب التكوين الصحيح العسكري والمعنوي حسب مناهج حثيثة تدريباً وتجهيزاً ، وتوفير معلومات عن الحرب الدائرة واحتمالات اشتراكهم فيها والبلاد التي سيقاتلون على أراضيها وأهداف القتال بالنسبة لهم ومصلحتهم في القتال .

جلوب باشا لم يُعنَ كثيراً بهذا ، إذ كان همّه توفير مساهمة شخصية منه في الحرب وبأقل التكاليف على بريطانيا لكسب مجد شخصي . فكانت زيارة الجنرال باجيت إنقاذاً للأرواح وللسمعة العربية وتنبيهاً إلى ضرورات بذل الجهد الجدّي لرفع مستوى اللواء المسلح .

وهكذا بدأت قطعاتنا التدريب الجاد من الصفر وفقاً لبرامج محسنّة . وصدف أن الجنرال باجيت زار عمّان وقامت فئة من المدفعية بعرض رماية أمام سموّ أمير البلاد وبمعيّته الجنرال باجيت في غور الأردن. غادرت فئة المدفعية منطقة غزة ووصلت الغور في منتصف الليل، وفي الصباح أشار الجنرال إلى أهداف عشوائية فأصبناها جميعاً إصابات دقيقة بما فيها فوهة كهف صغير على بعد ستة آلاف متر.

تلقى الملازم هاشم الدباس والملازم علي أبو نوار تهنئة جميلة من سموّ الأمير عبد الله وأمرنا بتهنئة أفراد المدفعية، كما أثنى الجنرال باجيت على كفاءتنا على مسمع من سمو الأمير وجلوب باشا.

مع مرور الأيام والاختلاط اليومي زالت الحساسيات بين العدد القليل منّا أبناء الحضروباقي الضباط البدو وحلّت مكانها الصداقة والمودّة . فقد سلّمنا للبريطانيين

تفضيلهم أبناء البادية علينا مع فهم عميق لأسباب التفضيل السياسية ، وعملنا مع إخواننا بما يحملهم على فهمنا بأننا عرب مثلهم ومن جذور واحدة .

كثير من أفراد وضباط اللواء استقدمهم جلوب باشا من قبائل سوريا والعراق والسعودية وسيناء ، وقليل منهم من اليمن والأكثرية من قبائل بني صخر والحويطات وبني حسن الأردنية وقلة من الضباط والفنيين من المدن والقرى .

الانتماء عندهم ، في ما عدا عدد من الضباط من بني صخر وبني حسن والحويطات ، كان لقبائلهم أكثر منه لأوطانهم بحكم انعدام التعليم في مناطقهم وضعف الصلة بينهم وبين إدارات الحكومات العربية لبُعد منازلهم عن الحواضر وتغيّرها بسبب البحث عن الكلأ لمواشيهم. ففي تلك الفترة لم تكن الحكومات قد وضعت برامج لتحضير البدو وتوطينهم. ومن هنا كان الجيش العربي أول تنظيم يجمع أبناء قبائل من بلاد عربية عديدة، ممّا أذاع صيت جلوب باشا (أبو حنيك) في المشرق العربي وأعطاه أهمية خاصة في بريطانيا.

بالنسبة لنا أبناء الحضر كان الرئيس محمد علي الصايل والملازم خالد مجلّي الخريشه يعطيان صورة ابن القبيلة المتعلّم الواعي على حقائق أساسية منها الدولة والعروبة وأماني الأمة . ولهذا سبب واضح أن الأول كان خرّيج مدرسة السّلط الثانوية، مصنع الأفكار الوطنية في الأردن آنذاك، وأن الثاني كان قريب الشيخ حديثه الخريشه أحد مشاهير الزعماء القبليين في الأردن، والذي اعتبر ذو عناية سياسية أردنية وعربية.

وأبناء القبائل جميعهم حافظوا في مسالكهم على التقاليد العربية ، طابعهم البساطة والكرم والشهامة واحترام الكبير وتقديرهم للمنشأ والمحتد .

كان من السهل لأي متخصّص أن يرى الفرق بين اللواء المسلح والحاميتين ، اللتين كانتا في أغلبيتهما الساحقة من أبناء الحضر ، مع اختلاف الواجبات والأهداف لوجودهما ، عن اللواء المسلح .

اللواء المسلّح هو القوة الضاربة في الجيش العربي والحاميتان قوة الحراسة للمنشآت البريطانية في العراق وفلسطين . اللواء المسلّح تغلبُ عليه الحياة العشائرية بينما تغلبُ على الحاميتين الأنظمة العسكرية الصارمة .

في الحاميتين يدرك الجميع انتماءهم لدولة الأردن ويعلمون أنّ لهم حكومة ودستوراً ونظاماً ومعاهدة مع بريطانيا ، بينما يعلم منتسبو اللواء المسلّح أن الأول

والآخر في نظامهم هو جلوب باشا ؛ وهذا لا يعني أبداً أن منتسبي الحاميتين من الضباط يجهلون سلطة جلوب باشا عليهم التي تتجاوز سلطة قائد الجيش .

ما سبق رسمه من خطوط رئيسية أمر ضروري لمعرفة تكوين الجيش العربي الأردني كقوة عسكرية عربية كان لها دور أساسي بعد سنوات قليلة في الصراع العربي الصهيوني ، الذي كان وما زال المؤثر الرئيسي على الحياة العربية .

في اللواء المسلّح وفي فترة وجودنا في منطقة غزة انقطعت الصلة بيننا وبين من حولنا ، في ما عدا اتصال واحد من رئيس بلدية غزة السيد الشوّا الذي طلب إطلاق مدفع رمضان من الرئيس كمال الحمود .

أمرنا كمال الحمود أن يُطلق الضابط المناوب طلقة باتجاه البحر في موعد الإفطار، وهكذا كان، حتى فوجئنا بإهمال أحد الضباط في ضبط مسافة الإطلاق، فسقطت القنبلة في معسكر اللاجئين اليونان على ساحل البحر فقتلت امرأة وطفلتها ، وصادف الحادث وجود ملك اليونان الذي زار اللاجئين متفقداً أحوالهم .

وبدلاً من محاكمة الضابط المُهمِل اختار جلوب باشا أكبر رأس عربي في المدفعية وهو الرئيس كمال الحمود للمحاكمة . ولأول مرة شعر ضباط المدفعية بالظلم والخجل . الخجل من الحادثة والظلم الذي أصاب قائدهم المحبوب كمال الحمود ، خصوصاً عندما زارنا شقيقه الأستاذ ضيف الله الحمود يشحذ نخوتنا لعمل شيء . ولمّا كنّا لم نعرف قراراً نتخذه إلاّ الشهادة أمام المحكمة العسكرية ببراءة كمال ، أرشدنا الأستاذ ضيف الله إلى ضرورة اتصالنا برؤساء بلديات غزّة والقدس ونابلس ويافا ليرسلوا برقيات إلى سموّ الأمير عبد الله والاستنجاد به لحماية كمال الحمود . واستجابة للرأي تحركتُ إلى رئيس بلدية غزة ولقيت من السيد الشوّا الترحاب والتكريم ، واستعدّ ليقوم بالمهمة بنفسه والاتصال برؤساء البلديات وهكذا فعل فاستجابوا له . وفي هذه الأثناء كانت المحكمة وفي جلسة واحدة قد حكمت ودون قبول أي شهود على كمال الحمود بتنزيل رتبته إلى ملازم أول ونقله إلى منطقة البلقاء مساعداً لقائد الشرطة فيها .

ومن هنا بدأت متاعبي في الخدمة، إذ اعتبر الكابتن شوري وقائد اللواء زيارتي لرئيس بلدية غزة خروجاً عن الانضباط العسكري، خصوصاً بعد أن علموا باهتمام سموّ الأمير عبد الله بقضية كمال الحمود . وأعتقد أن ذلك الاهتمام كان سبباً في عدم محاكمتي وغضّ النظر عن شغب الملازم هاشم الدباس الذي أكثر الحديث في كل مجالس الضباط عن الظلم الذي حاق بكمال الحمود .

أصبح الاحتكاك والإساءة عملاً يومياً يمارسه الكابتن شوري معي ومع هاشم الدباس ، حتى بعد انتقال اللواء المسلح إلى شرق الأردن حيث ضبط هاشم سيارة الكابتن شوري محملة ببضائع قصد تهريبها والاتجار بها في القدس ، مما أدّى إلى إعادة شوري إلى الجيش البريطاني بدعوى محاكمته واحتجاز هاشم الدباس لمدة شهرين دون تهمة ، ونقلي من المدفعية إلى كتيبة المشاة الثالثة مع توصية مسبقة من قائد اللواء إلى قائد الكتيبة تحرّضه على الترصّد بي . وبالفعل افتعل قائد سرية المساندة مشاجرة معي وحوكمت أمام قائد اللواء ، وأوقعت عليّ عقوبة حسم الراتب لأربعة عشر يوماً والحجز في المعسكر لمدة شهرين .

سموّ الأمير عبد الله طلب كمال الحمود ليكون مرافقه العسكري بعد فترة قصيرة من عمله في قيادة شرطة السلط ، ثم أمر بفك حجز هاشم الدباس وألحقه بالديوان الأميري .

مكثت في الكتيبة الثالثة ، ووجدت في صحبة صديقي الملازم قاسم الناصر عزاءً عن الجو الكريه الذي أحاط بي في تلك الكتيبة ، إلى أن نُقلت إلى قيادة الحامية الأولى في حيفا .

كان سموّ الأمير عبد الله يتوق إلى معرفة أحوال الجيش ، ولكن وسائله اقتصرت على عبد القادر باشا الجندي وبعض الضباط الكبار العرب . كان عبد القادر ضابطاً في الجيش التركي وقاتل في فلسطين في مواجهة القوات البريطانية التي اجتازت قناة السويس ، ثم التحق بالثورة العربية الكبرى وانتظم في جيشها وانتهى ليكون من كبار ضباط الجيش العربي الأردني . من ضابط باسل في محاربة البريطانيين وضابط ممتلىء بآمال أمته العربية صار هذا الرجل إلى منصب كبير في الجيش ، ولكنه لا يملك معه أي مسؤولية ذات بال ، يماثله في ذلك الرعيل الأول راضي عناب وسعيد العاملي ، وإن كانوا بخلاف عبد القادر باشا أمضوا خدمتهم في الشرطة . وكانوا يشعرون بالكابوس البريطاني ويحلمون بالخلاص منه في يوم من الأيام ، وقد سبقهم إلى رفض وضع القيادة البريطانية وسيطرتها القائد محمد علي العجلوني ، وانتهى بسبب مشاكسته العلنية للإنجليز إلى العيش لاجئاً في دمشق لسنوات طويلة . العجلوني كان أحد ضباط الثورة العربية الكبرى ، وقد خاض معركة الشرف في ميسلون في مواجهة قوات فرنسا التي احتلت سوريا بعد إقامة دولة مستقلة في سوريا وعلى رأسها الملك فيصل بن الحسين قائد قوات الثورة في الشمال .

في الجيش العربي الأردني كان الضباط منذ البداية عرباً أردنيين وسوريين

وعراقيين وفلسطينيين ولبنانيين، جمعتهم الثورة العربية الكبرى في الجيش الذي قاده فيصل بن الحسين . ومن هنا سمّي بالجيش العربي ، إذ إنه فعلاً ، وحتى يومنا هذا ، يجمع رجالاً من الوطن العربي كله .

أولئك القدامى من الضباط العرب وجّههم جلوب باشا إلى أعمال الشرطة والإدارة ، ففقدوا صلتهم بالجندية وأفرغت قدراتهم في ما ليس له علاقة بالجيش ، وكل همه أن يبعد عن الجيش أفكارهم وطموحاتهم الوطنية والعربية .

لما تقدم فإنّ رغبة الأمير بالصلة ومعرفة أحوال الجيش اقتصرت ، وبحكم الأنظمة العسكرية ، على قائد الجيش والرعيل الأول من الضباط .

أوّل اتصال لسموّه مع صغار الضباط كان في بداية نقل كمال الحمود مرافقاً له ، إذ دعا ضباط المدفعية لتناول الشاي في قصر المصلي في الشونة . استقبلنا سموّه ببشاشة ولطف وقد أخذنا بمهابته وهو يرتدي الجبة البيضاء وغطت رأسه عمامة جميلة، فأدّينا له التحية العسكرية وقبّلنا يده ودعانا للجلوس قائلاً: أهلاً وسهلاً يا أولادي.

تبسّط سمو الأمير في حديثه إلينا حتى ارتاحت نفوسنا ، إذ لم نكن قابلناه من قبلُ ، وأمر بإحضار الشاي والحلويات ، ووصف لنا أحد الأطباق بأنها حلوى حجازية وأوصانا بتذوّقها. لم نكن نعرف الكثير إلاّ ما نسمعه من آبائنا أو أعمامنا عن الأمير، وكنّا في غاية الحرص والتأدّب في جلستنا وتناولنا الحلويات والاستماع إليه ، بينما يزيد في تبسّطه وإكرامه لنا وكأننا أولاده فعلاً .

وبالرغم من تواضع الأمير أحسسنا بعظمته تملأ المكان وتفرض الاحترام ، واسترسل في حديثه بالسؤال عن أحوالنا وتدريباتنا واستذكر تمرين المدفعية في الغور وبحضور الجنرال باجيت بالاستحسان . وأبدى تمنياته لنا ببلوغ أعلى درجات الكفاءة بالجهد ، ثم أعاد السؤال عن معنوياتنا وأحوالنا وكان لابد أن يجيب أحدنا فاستأذنت : وقلت : يا سيدي صاحب السموّ كل شيء يصير إلى الأفضل لو غاب عنّا الضباط الإنجليز .

سأل سموّ الأمير :

ـ ما اسمك؟

ـ علي أبو نوار سيّدي .

ـ من السّلط ؟

- نعم سيّدي.
- عبد الكريم أبو نوار عمّك؟
- نعم سيّدي.

قال الأمير هذا رأي ولكن قل لي ماذا لو أنهينا المعاهدة، من أين لنا المورد لتأمين حاجات الجيش؟ سكت وأصرّ على الإجابة فقلت، سيّدنا هذا الأمر يرجع إليكم.

قال الأمير: نعم هذه مسؤوليتنا، أنتم انتبهوا إلى كفاءة الجيش وعندما يقيّض الله الظرف يكون الخير إن شاء الله.

نعود إلى عملي في قيادة الحامية الأولى حيث كنت أركان حربها ومنها أرسلتني قيادة الجيش إلى دورة في مدرسة المشاة البريطانية في عكا، فوجدت ثلاثة ضباط مصريين مشاركين في الدورة فاجتزت الدورة بنجاح. وعدت إلى قيادة الحامية لأشرف على خطط الدفاع وتمارينها لمواجهة أي هجمات يهودية على المؤسسات والمنشآت البريطانية التي تحرسها سرايا الحامية.

لم يطل بي المقام حتى انتقلت إلى مركز تدريب الجيش في عمان قائداً للجناح الحربي، اكتسبت صداقة ضباط في الحامية أبرزهم محمد المعايطه وأنور الداوود وعزت حسن وقسيم محمد.

وفي مركز التدريب أشرفت على تدريب ضباط وضباط صف أوفدوا لدوراتها الحربية، وكذلك بعض سرايا المشاة.

وتولّيت في أواخر سنة ١٩٤٧ منصب كبير المدربين خلفاً للرئيس راضي الهنداوي، وكان آخر عملي في المركز تدريب ضباط الكتيبة الرابعة الحديثة التشكيل بقيادة القائد حابس المجالي، ثم نُقلت إلى اللواء الثالث لأشغل منصب أركان حرب اللواء في بداية ١٩٤٨.

الفصل الثاني

فلسطين والصدام مع الصهيونية

منذ الثورة العربية الكبرى وانكشاف الخديعة البريطانية بمعاهدة سايكس ـ بيكو ووعد بلفور والعرب مشغولون بأمرين : التجزئة التي فرضها الحلفاء على الأمة العربية والسيطرة عليها ومصير فلسطين .

وفي حمى النقمة العربية على بريطانيا وفرنسا ظهر أنّ المستعمرين مصمّمون على تنفيذ خططهم دون الالتفات إلى وعودهم للعرب بالوحدة والاستقلال . وقد ثار العرب في بقاع وانتفضوا في بقاع أخرى ، إلّا أنّ المستعمرين نجحوا في تقسيم وتجزئة الثورة العربية . وانطلاقاً من ذلك خلقوا دولاً صغيرة وكيانات إمّا متعادية أو متنافرة ، وانتهى قائد الثورة ليصبح أسيراً لبريطانيا ومنفيّاً عن وطنه إلى قبرص .

لم يكن للعرب قدرة تكافؤ مع الاستعمار ، وبالتجزئة تضاعفت قدرته على السيطرة ، ولكن الخطر الأكبر ظهر عندما فُضح أمر وعد بلفور .

وإذا كنّا في أيامنا هذه نذهب في شتى اجتهاداتنا التي تحكمها العاطفة القومية أو الدينية لتقصي الخطأ والصواب في علاقة العرب بالخلافة العثمانية وأثرها على مصير فلسطين . . . . . أو تحالف الثورة العربية مع بريطانيا ، فإننا نغفل حقائق أساسية لتلك المرحلة :

أوّلها : أنّ الدولة العثمانية كانت تواجه هزيمة حتمية في الحرب .

ثانياً : أن ثورة داخلية على الخلافة كانت تكوّنت بعد هزيمة معركة فلسطين الأولى في السويس .

ثالثاً : أن قادة الثورة الأتراك كانوا فريقاً من القادة الذين تشبّعوا بالروح القومية .

رابعاً : أن الخلافة العثمانية لم تكن قادرة على مجاراة ذلك العصر بما ينفع الأتراك أو العرب للأسباب التي لا تحتاج للسرد .

لقد فشل العرب في محاولاتهم بإقناع الخلافة باللامركزية مما خلق المناخ لدعوة قومية عربية متوازية مع الدعوة الطورانية فثار الصراع . والصراع في ظل تلك الظروف لا ترسم حدوده الأماني الدينية أو القومية بل ترسمه مقتضيات واقعية وعملية . والأمم تدخل التجارب ، تصيب أو تخطىء تنتصر أو تنهزم ، ولكن الأمة الحيّة هي التي تختزن في ذاكرتها أسباب نجاحها أو إخفاقها وتستفيد من تلك الذاكرة .

والأمة العربية ، شأنها شأن كل أمة ، عانت ولا تزال تعاني التجزئة والضعف والفشل ، يجدر بها أن تقوي ذاكرتها وتختزن فيها الدروس . إن الخلافة العثمانية التي قاومت الصهيونية واستيطانها كانت أضعف من أن تتساوى مع أعدائها بسبب الانحلال والفساد والاستسلام للمستعمر الألماني الحليف . وكذلك فإن الثورة العربية كانت أضعف من أن تحارب حليفها المخادع بعد انكشاف أمره .

الضعف في حالة الخلافة كان أساسه وسببه الخلافة ذاتها التي حكمت على الأتراك والعرب بالتخلّف والتسيّب ، وضياع أي مقوّم حقيقي لنظام قادر على مواجهة الأحداث العالمية والمطامع الاستعمارية .

والضعف في حالة الثورة العربية الفتية أنها لم تجد في المشرق الثائر القوة العسكرية الكافية والمؤهّلة لمواجهة الغدر البريطاني والفرنسي .

والسؤال الذي قد يورده البعض . هل كان يمكن للعرب أن يظلّوا عثمانيين بعد احتلال أوطانهم وانكفاء الأتراك لمعالجة احتلال الأناضول من اليونان وحلفائها ؟

هنالك إجابات عملية وواضحة في مصر وشمال أفريقيا التي سلخها الاستعمار عن الخلافة ، وظل الجدال فيها عن الخطأ والصواب دونما حيلة تزيل الخطأ أو تؤكّد الصواب .

ومع أننا لا ننكر أنّ الخلافة العثمانية حفظت الإسلام ودفعت عنه شرور الأوروبيين حتى أبواب ڤيينا ، ولكننا في الوقت نفسه نرى أن العرب لم يكن لهم أي دور في الفساد الذي مارسه الخلفاء ، ممّا أدّى إلى الضعف واستجلاب المطامع الاستعمارية للسيطرة على الوطن العربي .

وعلى خلاف ذلك ، فإن الثورة العربية الكبرى حالفت المستعمر الغربي بمواثيق في ظروف انحسار القوة التركية العسكرية وتراجعها . ولو أرادت الثورة أن تحارب هذا المهاجم لما قامت لها قائمة .

ثم إنّ الثورة العربية الكبرى قادها الملك الحسين بن علي بدعوة من زعماء سوريا والعراق، وخاض تجربة قومية حتى نهايتها في قبرص، يحفزه الانتصار للعرب الذين أعملت فيهم الآستانة كل ضروب العسف والظلم، ويدفعه حلم إقامة الدولة العربية الكبيرة المستقلة في ظروف حتمية الهزيمة العثمانية.

أسوق هذا لأن بعض أبناء جلدتنا يرون في الثورة العربية خروجاً على الوحدة الإسلامية ، في حين لم تكن هنالك وحدة إسلامية بل غطرسة تركية جاهلة ومهملة لأسباب منعة الشعب التركي والعربي على السواء ، وكذلك إمعان في تسليط الأتراك على العرب .

لا نغالي في الملامة على الأتراك بسبب ارتكابات أواخر الخلفاء ، بحيث ننسى فضلهم على الأمة الإسلامية ، وكذلك لا نغالي بتحميل الثورة العربية ملامة لأنها عجزت عن مقاومة القوة الاستعمارية ، بل لا بدّ أن نذكر أن الشعب التركي كان أقوى من الخلافة لتقرير مصيره ، بينما لم يظهر من الشعب العربي قوة تكافؤ مع المستعمر ، سواء بانضوائها تحت علم الثورة أو بالاستقلال عنها .

وهذا أمر طبيعي لأن العرب لم يكونوا يملكون حتى البنادق إلا ما زودهم به الحليف الغادر، بينما كانت تركيا تملك جيشاً وسلاحاً حاربت بهما القوى الغازية وباستقلال كامل عن الخلافة وبقيادة القادة الطورانيين . ذلك لأن الخلافة العثمانية لم تكن في مسيرتها مساوية بين الأتراك والعرب ، الأمر الذي ركّز الإدارة والمال والقوات في العنصر التركي وحرم العرب من مقوّمات القوة حتى في عهود الانسجام العربي التركي .

فالثورة العربية كانت مولوداً طبيعياً لكل الظروف العثمانية والعربية والدولية . وكذلك كان إخفاقها في تحقيق الحرية والوحدة الذي سبّبه الضعف العربي ، ولكنها كانت من أمجد التجارب العربية الحديثة .

الثورة العربية خلقتها ضرورات التخلّص من العسف التركي والتخلف المفروض منه ، بالإضافة إلى العواطف المتأجّجة عند القيادات العربية في المشرق العربي للتحرر وتكوين الدولة العربية القومية. أولئك القادة وعلى علوّ مكانتهم وأنسابهم وجدوا في شريف مكة الحسين بن علي القائد التاريخي المؤهّل لإقامة الثورة وقيادتها، ومن هنا اتجهوا إليه وكان باستجابته ملبّياً لنداء الأمل العظيم.

ومن الناحية الأخرى ، فإن بريطانيا التي تحالفت مع الحسين بن علي وجدت ومعها فرنسا أن هذا الرجل ، وما يمثّله من قدسية الثورة وإجماع العرب على مبايعته ،

سيكون العقبة الكأداء على طريق مآربهم . وجدوا أنه ما دام يتحرَّك في المحيط العربي فستتعثّر مخططاتهم المرسومة لتجزئة المشرق والسيطرة عليه ثم تنفيذ وعد بلفور للصهيونية . وهكذا حكموا عليه بالنفي جزاءً على صلابته وعناده في رفض المساومة على الحق العربي .

مهما تتابعت الثورات العربية وتعاظم أمر رجالها في المشرق فستظلّ الثورة العربية الكبرى أمّ الثورات وينبوع مبادئها ، وسيظل الحسين بن علي مثال التضحية لها جميعاً وعلَماً عالياً من أعلام الحرية ، وسيظل أعوانه وجنده من قبائل وحضر أمثولة للكفاح على طريق المعاناة العربية الطويل .

ومن هنا تبرز آثار الثورة العربية هذه على الحركات العربية التي أعقبتها ، بحيث نجدها وعلى اختلاف عناوينها وشعاراتها مُشبعة ممّا اختزنته الأمة من تراث تلك الثورة مهما حاول المنكرون إسدال الستار عليها أو تشويهها .

فالحرية والوحدة ظلّا نسيج الفكر العربي وشعلة الأمل والاتجاه عند أمتنا ، كما ظلّ الدرس الذي لا ينسى في مخزون الذاكرة العربية بأن اكتمال الإرادة العربية صافية من كل أثر أجنبي هو السبيل السوي لبلوغ مقاصدنا.

وكي تظل أمانينا في مأمن من الطعن واستغلال الأعداء فلا مناص من اقتفاء أثر الحسين بن علي في العناد وصيرورة المبدأ والقيادة تكويناً واحداً لا ينفصم.

لقد وجد المستعمِر بدائل يتلاعب بها في المنطقة العربية ، تتمثّل في دعاة التعقّل ومصانعة القوة الأجنبية . فالرفض الذي تميّز به الحسين بن علي لم يجد في الأمة بمثقّفيها وعسكرييها الأنصار على النطاق الشامل ، فبرزت حركات بعضها عن جهالة وبعضها عن طموح حرّكه المستعمر لمنافسة قيادة أبناء الحسين . فأصبح الاجتهاد في إنقاذ ما يمكن إنقاذه يحكم ذهنية الثورة في تلك الحقبة التي كان الجهل والتنافس القبلي سلاحاً صالحاً بيد بريطانيا لإضعاف الثورة والضرب في جذورها في الحجاز وسوريا .

هذا ، في حين هبّت قوات الثورة في سوريا لمواجهة الفرنسيين الغزاة بقيادة قائد الجيش يوسف العظمة وخاضت معركة من أجل الشرف ، كانت نتيجتها معروفة قبل القتال ولكنها عمّدت الاستقلال بدم الشهداء الذي أنار طريق النضال للشعب السوري حتى يوم تحريره من الاستعمار الفرنسي .

فثورة سنة ١٩٢٥ التي اندلعت في سوريا بقيادة الحركة الوطنية ، وكان أبرز

رموزها سلطان باشا الأطرش ، لم تلبث أن قضى عليها الفرنسيون ولكنها أنجبت زعماء المقاومة السورية الذين حملوا عبء النضال حتى سنة ١٩٤٥.

في أيام ما بعد الثورة السورية أصبحت عمان محط الكثيرين من رجال الثورة الذين اضطروا إلى الخروج من سوريا بحثاً عن الأمن ، ومنهم سلطان باشا الأطرش وأركانه من زعماء الدروز وآخرون من زعماء دمشق ، بينما أودعت فرنسا عدداً كبيراً غيرهم في السجون .

أذكر زيارة لعبد الرحمن الشهبندر ونسيب البكري للملك عبد الله ، وقد جاءا لطرح الأوضاع في سوريا ، وكان أن دعتهم السّلط لحفل عظيم . وخطب الضيفان في الجمهور الكبير الذي حضر من المحافظة كلها ، زعماء قبائل ، وأعيان السلط وطلاب الثانوية ينشدون أناشيد وطنية .

رسخ في ذاكرتي من تلك الأيام دعوة الزعيمين إلى الوحدة بين سوريا والأردن ، وكان أحدهما يدلّل على أهمية الثورة العربية الكبرى وضرورة الأخذ بها نبراساً ودليلاً على أن قيادة الوحدة لا يقيدها حجم القطر ، وأن الأم والبنت بالتالي وحدة لا تفصلهما الاعتبارات المادية والقياسات الجدلية .

لقد شدّدت فرنسا القبضة على سوريا وسلبتها من أدنى درجات الاستقلال والإرادة الوطنية كما فعلت بريطانيا في فلسطين .

ذهبت بريطانيا في فلسطين إلى حدّ الحكم المباشر وإلى أدنى درجات الإدارة المدنية ، ووضعت قوانين وأنظمة أمنية واقتصادية تمكّنها من استقدام المهاجرين اليهود أفواجاً متتالية ، كما سمحت للوكالة اليهودية أن تكون دولة داخل دولة تملك حرية النشاط السياسي والتنظيمي بين اليهود وإدارة شؤونهم ، عدا عن تملّك الأراضي التي باعها بعض ضعاف الإيمان من الفلسطينيين واللبنانيين الذين كانوا يملكون أراضي واسعة على الساحل والسهل الداخلي .

الفلسطينيون لم يستكينوا ولم يتوقفوا عن العمل السياسي على الصعيدين العربي والدولي ، وصعّدوا المقاومة بدءاً بالمظاهرات العنيفة وأعمال الاغتيال حتى صاروا إلى الثورة المسلحة سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ . وتنادى العرب لمساندة الثورة على ضعفهم ، وهبّ شباب من الأردن والعراق وسوريا للانضمام إلى الثورة المسلحة وكان منهم شهداء .

الثورة الفلسطينية التي واجهت قوة الاحتلال البريطاني تسلّحت ببنادق معظمها

قديم وذخيرتها قليلة ، وجنود الثورة كانوا محدودي العدد لندرة السلاح . واستمرار النضال كان وقوده الرئيسي الشعب الفلسطيني وتصميمه على المقاومة للحفاظ على الأرض أمام الهجمة الصهيونية التي سُخّرت بريطانيا لحمايتها .

ولمّا كانت سنة ١٩٣٩ تنذر أوروبا بالحرب العالمية ، فإن بريطانيا حرصت على سلامة سيطرتها على مصر وفلسطين للحفاظ على خطوط مواصلاتها إلى الهند والمشرق الأقصى ، وكان أن أعملت قوتها بوحشية بالغة في الشعب الفلسطيني حتى قضت على ثورته من جهة وأطفأت غليان الشعب المصري من جهة أخرى .

زعيم فلسطين ، الحاج أمين الحسيني ، لجأ إلى لبنان والشام ثم بغداد بعد حل المجلس الإسلامي سنة ١٩٣٧ ، إثر اغتيال المستر أندروز واعتقال معظم أعضاء الهيئة العربية التي يرأسها الحاج أمين .

والعراق كان يحكمه اتجاهان : أحدهما يرى التحالف مع بريطانيا والثاني يرى الاستقلال عنها ، وأبرز رجال الاتجاهين كانا نوري السعيد ورشيد عالي الكيلاني ، ولكنَّ الفريقين يجتهدان ضمن دائرة خدمة النظام الملكي وتكريسه .

ولما كانت قوات المحور منتصرة في أوروبا في بداية الحرب العالمية الثانية ، ازداد ميل اتجاه الاستقلاليين للتمرد على بريطانيا وانتهاز فرصة اعتبروها مواتية للاتفاق مع ألمانيا ، إذا لم تستجب بريطانيا لأهداف الحكومة العراقية التي كان يرأسها رشيد عالي الكيلاني ، الذي أصبح محوراً أساسياً لمعظم الشعب العراقي وقادة الجيش .

فلمّا أعلنت الحكومة العراقية الثورة على بريطانيا لجأ نوري السعيد مع الوصيّ على العرش الأمير عبد الإله إلى الأردن ليعلنا أن الثورة كانت على النظام الملكي ، في حين نصّبت الحكومة وصياً هاشمياً على العرش بدلاً من الأمير عبد الإله . وتحركت بريطانيا بقواتها من البصرة ؛ وهي خليط من بريطانيين وهنود ، بالإضافة إلى قوات صغيرة تحركت من فلسطين إلى الحبانية ، لتنهي الأمور إلى عودة السيطرة البريطانية وتحكيم نوري السعيد الذي أصبح مع الأيام معتمداً أساسياً في سياسة بريطانيا في الشرق الأوسط حتى سنة ١٩٥٨ .

لقد عرفتُ رشيد عالي سنة ١٩٥٧ في القاهرة فترة لجوئي إليها ، ودارت بيننا أحاديث استمرت أياماً وأشهراً خرجت منها بقناعة لا تتزعزع بأن رشيد إن أخطأ في تقديراته لقدرة العراق على انتزاع حريته من السيطرة البريطانية ، فإنه لم يرتكب خطأً كان بحق النظام الملكي ولم يتصوّر دولة في العراق بدون الهاشميين .

رشيد لم يكن يقبل بالتصاق نوري السعيد ببريطانيا واعتبر الملك غير مسؤول البتة عن اتجاهات فريق نوري السعيد المناقضة ، وكان مؤمناً بأن العراق كان مؤهلاً لحكم نفسه وخدمة القضايا العربية الاستقلالية عن بريطانيا وفرنسا .

الحاج أمين الحسيني أيّد الثورة العراقية لأسباب فلسطينية وعربية ولكنه لم يكن المحرّك الأساسي فيها ، إلاّ أن اتصال رشيد عالي بألمانيا من ناحية واتصال الحاج أمين بموسوليني سابقاً عن طريق شكيب أرسلان دمغت الثورة العراقية بأنها من صنع ألمانيا .

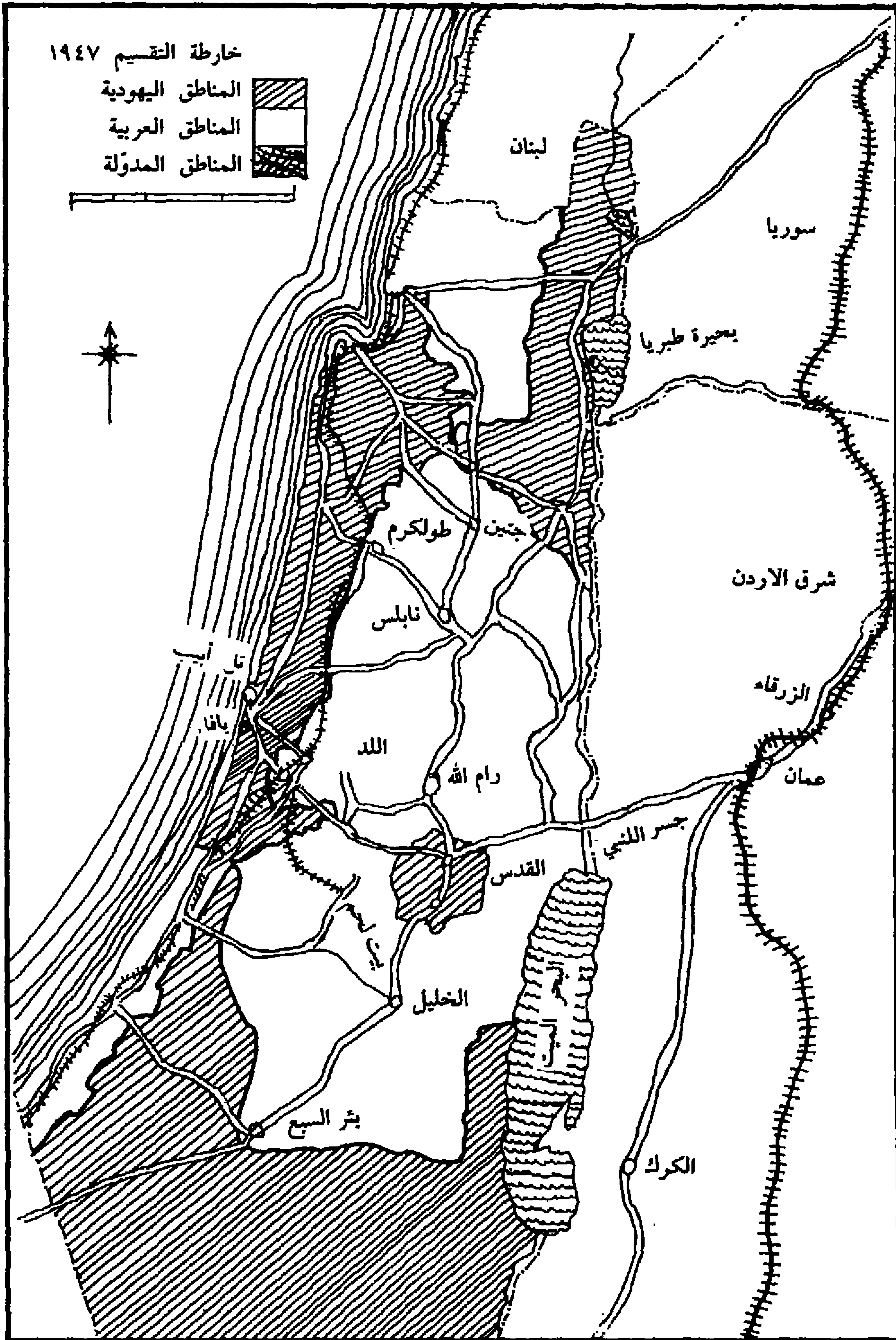
ومن الطبيعي أن تُمعن بريطانيا باتهام الثورة العراقية لتخرجها عن إطارها الوطني بعد القضاء عليها وتضعها في إطار التبعية لألمانيا . وهنا ينطبق المثل القائل « ولأم المخفق الهبل » .

هذه كانت صورة عامة للوضع العربي في المشرق عندما أنهت بريطانيا انتدابها لفلسطين ، بعد أن مكّنت اليهود فيها أن ينظّموا أنفسهم ويتسلّحوا إلى درجة الثورة والمطالبة بجلاء بريطانيا ، في حين طبّقوا على العرب قوانين وإجراءات حرمتهم من كل أسباب القوة للدفاع عن أنفسهم .

أراد الفلسطينيون تعويض ما فاتهم ، فتكوّن الجهاد المقدّس على عَجَلٍ بقيادة عبد القادر الحسيني وكذلك كوّن العرب جيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي ، ولم يكن الوقت كافياً لتكوين أيّهما بما يتكافأ مع الاستعدادات العسكرية اليهودية التي كانت لها كل فرص التدريب والتجهيز منذ الحرب العالمية الثانية .

فضلاً عن ذلك فإن القيادة السياسية اليهودية المتمثّلة في الوكالة اليهودية والقيادات الأخرى الصهيونية في فلسطين والعالم كله لم يكن لها أنداد فلسطينية ، خصوصاً بعد انحلال الهيئة العربية العليا . ولم تكن القيادات البلدية في كل مدينة موحّدة في قيادة عليا فعّالة . لذا واجه الفلسطينيون قوة يهودية منظّمة على الساحة الفلسطينية تدعمها الصهيونية العالمية ، دون قوة كافية ودون وحدة عسكرية أو سياسية تكفل الصمود الفلسطيني أمام الغزوة الصهيونية .

ففي حيفا ، مثلاً تألّفت المقاومة العربية ممّا يقارب ستين مناضلاً بقيادة الملازم محمد الحنيطي ، يعززهم أربعة مدربين من الجيش العربي في مواجهة مئات المسلّحين من اليهود المدربين والذين يستندون إلى نظام عسكري يهودي مترابط حيثما تواجد السكان اليهود . كان الحنيطي يقاتل تحت ضغط شديد من التفوق اليهودي وضغط آخر من اللجنة العربية في حيفا برئاسة رشيد الحاج ابراهيم ، حتى استشهد


خارطة التقسيم ١٩٤٧
المناطق اليهودية
المناطق العربية
المناطق المدوّلة
لبنان
سوريا
بحيرة طبريا
طولكرم
جنين
شرق الاردن
نابلس
تل أبيب
يافا
الزرقاء
اللد
رام الله
عمان
جسر اللنبي
القدس
الخليل
بئر السبع
الكرك

خريطة رقم (١)

بين عكا وحيفا ونُقل جثمانه إلى عمان . وهكذا كانت بداية سقوط حيفا .

وفي يافا لم يكن الوضع أفضل من حيفا . وكذلك اللد والرملة والتي كان يشغل ساحتها الواسعة عدد بسيط من المناضلين من قادتهم حسن سلامة الذي استشهد في معركة غير متكافئة الأطراف ، وبعد ذلك تسقط يافا ويعمل اليهود على إرهاب أهلها بالقتل المتعمَّد الجماعي ممّا يدفع أهلها إلى الخروج منها لاجئين كما حدث في حيفا .

اللد والرملة يرابط فيهما ما يقارب المئتين من المناضلين بقيادة المهندس كاظم بدوي ، ومثلهم من المناضلين الأردنيين الذين اندفعوا من شرق الأردن إليهما وإلى منطقة باب الواد .

أمّا منطقة القدس فقد تجلّت المقاومة الفلسطينية العربية فيها بأحسن صورها الممكنة ، وقد توفّرت لها قوات أكبر عدداً وأحسن تسليحاً مما توفّر لحيفا ويافا . فقد تركّزت في المدينة وخارجها سرايا الجهاد المقدّس بقيادة عبد القادر الحسيني بالإضافة إلى مجاهدين عراقيين وسوريين وأردنيين وبعض المصريين . ومن جملة هذه القوات سريّة أردنية جهّزها حمدي وإبراهيم منكو بالسلاح والمال رحمهما الله وأدام ذكرهما الطيب .

جيش الإنقاذ لم يُثبت كفاءته في المعركة الرئيسية التي خاضها في مشمار هاعيمك ، فمُني بخسارة فادحة كان لها أسوأ الأثر المعنوي على عرب فلسطين . إلاّ أن قوات الجهاد المقدّس قاتلت وبضراوة داخل أسوار القدس القديمة وخارجها إلى أن استشهد عبد القادر الحسيني في القسطل بجوار القدس .

الجهاد المقدّس استقلّت سراياه كل بمفردها بعد عبد القادر ، وغطّت منطقة كبيرة جنوب القدس بالإضافة إلى الأحياء العربية في القدس القديمة والشيخ جراح . ولمّا لم تكن قادرة على المحافظة على تلك المناطق بسبب الضعف في العدد والعدّة أمام قوات يهودية تفوقها ، فإنها اضطرت للتخلي عن حيّ الشيخ جراح وأخذت تتراجع هي والقوات العربية الأخرى أمام الهجمات اليهودية داخل أسوار المدينة القديمة .

كان جيش الهاجناه وعصابات يهودية مختلفة ، منها عصبة شترن وتسفاي ليئومي بالإضافة إلى حرس المدن والقرى ، أكبر من أن تواجهها القوات الفلسطينية وجيش الإنقاذ والمناضلين العرب الذين لم تجمع جهودهم قيادة واحدة لأهداف عسكرية واضحة . هذا فضلاً عن تدفّق الأسلحة على اليهود من الكتلتين الشرقية والغربية

ومساندة الأموال الصهيونية والمتعاطفين معها في العالم .

كان اليهود يحاربون كدولة ذات قيادة سياسية وقيادة عسكرية ، بينما يحارب الفلسطينيون بقوات موزّعة دون قيادة مهما كان شكلها وبأي مستوى وطني .

أهل القدس الذين رأوا استيلاء قوات الهاجناه وعصابات شترن على أحيائهم الجديدة ، وقد أوشكوا أن يجهزوا على القدس القديمة في الربع الأول من سنة ١٩٤٨ ، لم يتوقفوا لحظة عن مناشدة جلالة المغفور له الملك عبد الله لإنقاذها .

في هذه الظروف الحالكة يحاول وزير الخارجية البريطانية وضع حلول للمشكلة الفلسطينية يطرحها على العرب ، في حين تنسحب القوات البريطانية من فلسطين لتتسلّم القوات اليهودية معظم مواقعها الرئيسية .

والجامعة العربية تتّخذ قراراً بدخول القوات العسكرية العربية لتحرير فلسطين . هذا ما أعلنته الإذاعات العربية . وتعلن أيضاً أن القادة العرب أوكلوا القيادة العامة للجيوش العربية إلى جلالة الملك عبد الله ـ ملك الأردن .

وبحكم أنّ القوات الأردنية المسمّاة بالحامية الأولى قد أُمرت ومعها بعض سرايا من اللواء المسلح بالخروج من فلسطين ، تبعاً لانسحاب القوات البريطانية التي تواجدت القوات الأردنية معها طبقاً للمعاهدة الأردنية البريطانية ، فقد عادت سرايا اللواء المسلّح وتجمعت مع سرايا الحامية في منطقة نابلس والقدس ومركزها رام الله .

في تلك الأثناء كانت قوة بقيادة عبد الله التل تنقل الذخائر للجيش الأردني من مستودعات بريطانية في منطقة وادي الصرار، وتوزّع جزءاً منها على المناضلين العرب على طريق مسيرة القافلة إلى عمان.

نصبت قوات كفار عصيون ، وهي مستعمرة يهودية ، كميناً واشتبكت مع حرس قافلة الذخيرة ، فاستدعى عبد الله التل سرية أردنية في الخليل ونظّم هجوماً على المستعمرة مع الرئيس حكمت مهيار واحتل المستعمرة ، وقد أبلى الملازمان قاسم الناصر ومحمد السحيم أحسن البلاء واستبسل الجنود . وكانت خسائر السرية طفيفة وجرح الملازم محمد سحيم جرحاً بالغاً .

في تلك الأثناء أيضاً اشتبك الملازم محمد عقله الربابعه مع كمين يهودي استقرّ في معسكر الرام البريطاني الأصل ، وصادف مرور القائد أحمد صدقي الجندي وأعطوا القوات اليهودية درساً شديداً واستشهد الملازم الربابعه .

في عمان كان الجوّ بالغ التوتر لما يصلها من لاجئين من يافا ومناطق القدس

الجديدة الذين ملأوا الفنادق ومعظمهم من الموسرين ، والأردنيون ينتظرون انطلاق الجيش العربي الأردني إلى فلسطين في يوم انتهاء الانتداب .

وقيادة الجيش مشغولة بتشكيلات الفرقة الأولى العسكرية وتجهيز كتائبها وإكمال ملاكها من الضباط بنقلهم من الوحدات الأخرى ، في حين وصل جحفل اللواء العراقي إلى منطقة البويضة بين المفرق وإربد .

كنتُ نُقِلت إلى قيادة اللواء الثالث من مركز تدريب الجيش ، كما نُقل محمود الروسان إلى قيادة الكتيبة الرابعة ونُقل معن أبو نوار إلى قيادة اللواء الأول وكلاهما من مركز التدريب أيضاً .

حادثة لا بدّ من إيرادها لدلالاتها العميقة: حينما أراد جلوب باشا اختتام دورة ضباط الكتيبة الرابعة في مركز التدريب وقُبيل انتقالي ومحمود الروسان ومعن أبو نوار إلى الفرقة الأولى ، في كلمته التي كانت بجملتها وتفصيلها سياسية قال إنه يخشى على الجيوش العربية أن تُقاتل بعضها عوضاً عن قتالها لليهود .

علّقت على قوله بأن هذا دليل على نوايا بريطانيا لإيقاع الخلاف بين العرب ، وأن في قوله تثبيطاً للعزائم ولم ندخل أرض فلسطين بقواتنا بعد . أجابني أنت مندفع بعاطفتك وسوف تظهر الأيام صحّة قولي أو قولك .

هذا النقاش القصير سبّبَ تساؤلات كثيرة عند حابس المجالي وضباطه وملأ نفوسهم بالشك في ما يرمي إليه قائد الجيش ، ولم يطل الزمن بهؤلاء الضباط وغيرهم حتى أصبح شكّهم يقيناً بسوء ما تضمره بريطانيا لفلسطين والعرب ، إلاّ أن حماسة الضباط والجند وإيمانهم بقدسية هدفهم قُبيل مواجهة القوات اليهودية جعلاهم يستهزئون بمقولة قائد الجيش ونوايا بريطانيا وخططها .

اعتقد الجميع بأن الإرادة العربية هي الغالبة وأنّ النصر في فلسطين أمر لا يحتاج حتى إلى النقاش .

هذه الفرقة الأولى تألّفت من أربع كتائب مشاة وبعض السرايا من الحامية الأولى، تسندها سريتان من المصفحات (المدرعات) وبطاريتا مدفعية (٢٥) رطلاً وبطارية مورتر (٤,٢) بوصة كانت قوة محمولة قادرة على الحركة السريعة ولكنها لم تكن بالقوة الكبيرة. وقد تألّفت من هذه القوة ثلاثة ألوية: اثنان منها اللواء الأول والثالث، كل منهما كتيبتا مشاة مسنودة واللواء الرابع من بضع سرايا الحاميات التي لم تكن مسنودة أو مدربة بالقدر الكافي.

قُبيل تحرك الفرقة إلى فلسطين افتعل اليهود اشتباكاً مع فئة من الكتيبة الرابعة على جسر الشيخ حسين، ويظهر أن اليهود قد عزّزوا حاميتهم تلك ممّا اضطر القائد حابس المجالي إلى أن يرسل باقي السرية مع مدافع المورتر إلى مكان الاشتباك ، خلافاً لرغبة قائد اللواء القائمقام إشتون الذي أمر بإخفاء أمر الاشتباك على حابس المتواجد مع كتيبته في المفرق . ولم يكن تنفيذ أمر قائد اللواء ممكناً حيث كان حجم القوات اليهودية متفوقاً ، ولم يكن من المصلحة أن تبدأ القوات الحقيقية للجيش الأردني حربها بهزيمة ولو صغيرة . أبلغتُ حابس المجالي بالموضوع إذ لم تكن فئة جسر المجامع قادرة على الاتصال مع قيادتها في المفرق إلاّ بواسطة قيادة اللواء في معسكر إربد .

كانت النتيجة أن قهرت التعزيزات من الكتيبة الرابعة ، التي أرسلها حابس ، القوة اليهودية وكبّدتها خسائر فادحة وأخرست أسلحتها تماماً .

هذا ونحن لا نزال في شرق الأردن ولم ندخل المعركة في فلسطين بعد، وتثور الشكوك بين قائد اللواء من جهة وبين القائد حابس المجالي وبيني من جهة أخرى .

في صباح اليوم التالي يصل قائد اللواء الأول القائمقام جولدي إلى جسر المجامع بسيارته ، وقد علّق عليها علماً أبيض ، ويجتاز جسر المجامع إلى الناحية اليهودية ويعود في المساء ، ولا يعلم أحد من الضباط العرب المهمة التي أوكلت إليه من اتصاله بالقيادة اليهودية التي سمحت له بدخول منطقتها .

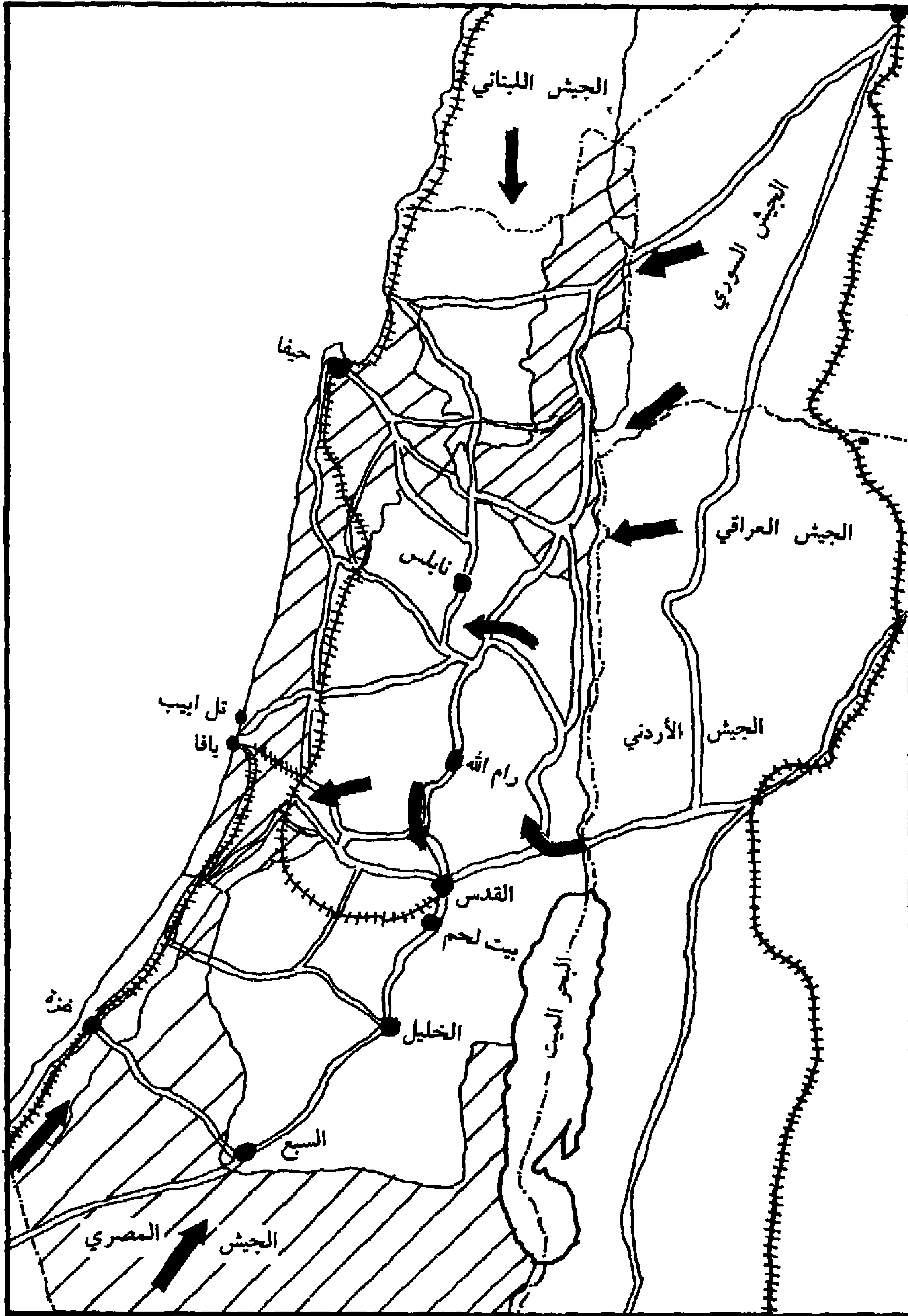
تبيّن لنا في ما بعد ما يفسّر الاحتمال الوحيد ، وهو أن القائمقام جولدي أبلغ اليهود خطة الجيش العراقي ودخول قواته إلى فلسطين عن طريق جسر المجامع ، ممّا أدى إلى حشد قوات كبيرة في منطقة كوكب الهواء والتي خاضت فيها القوات العراقية معركة باسلة دون حساب للحشود التي تمّت حديثاً نتيجة اتصال جولدي ، مما أدّى إلى خسائر في الأرواح وتغيير خطة دخول القوات العراقية إلى أرض فلسطين .

ما دمنا نتكلّم عن أول معركة للجيش العراقي ، فلا بدّ وأن أذكر أنني كنت على رأس مستقبلي أرتاله وهي قادمة إلى البويضة قرب إربد وشاهدت مقدار انتظام تلك الأرتال وسرعة انتشارها في المنطقة وقدرة الضباط على السيطرة . وبالرغم من طول المسافات التي قطعوها كانوا خفافاً في حركتهم يعلو الاستبشار وجوههم ويستقبلون تحياتنا لهم بحرارة أخوية بالغة .

أقمنا لقائد الجحفل وأركانه وكتيبة كاملة حفل غذاء في قيادة اللواء في

المفرق ، وسعدنا في ذلك اليوم نحن ضباط اللواء أن نرى جيشاً عربياً ليس فيه ضابط أجنبي واحد .

ملأ العراقيون يومها عيوننا وسكنوا قلوبنا ، واستمرّت الصلات بين ضباطنا وضباطهم وكأننا فرقة واحدة ، منذ ذلك اليوم وحتى رحيل قواتهم عن أرض فلسطين بعد اتفاقية الهدنة مباشرة وفي ظروف عصيبة وغير محبّبة وليتهم ما رحلوا .



محاور دخول الجيوش العربية إلى فلسطين سنة ١٩٤٨.

خريطة رقم (٢)

الفصل الثالث

دخول القوات العربية

في مساء اليوم الرابع عشر من أيار تحرّكت الفرقة الأولى الأردنية وانتشرت في فلسطين انتشاراً واسعاً في منطقة نابلس ـ رام الله ـ القدس دون دخول القدس .

ودخلت القوات السورية منطقة بيسان كما دخلت القوات المصرية متخطّية مستعمرات عديدة في جنوب فلسطين، وقد أشغلت منطقة غزة والخليل وبيت لحم، وهي مناطق وصلتها قوات الضابط المصري المشهور أحمد عبد العزيز الذي استشهد في معركة جنوب القدس . كانت قواته خليط من المناضلين العسكريين ومسلحين من شباب حركة الإخوان المسلمين المصريين الذين أبلوا أحسن بلاء في جهادهم بالرغم من ضآلة أعدادهم وخِفّة سلاحهم . والقوات العراقية تحولت عن محورها المقرّر بعد معركة كوكب الهوا إلى منطقة نابلس لتحلّ محل اللواء الأردني الذي عاد إلى منطقة القدس .

كان اللواء الثالث الأردني منتشراً شرق القدس وشماله في ما عدا سرية من الكتيبة الرابعة تركّزت في باب الواد في منطقة كان يرابط فيها هارون بن جازي مع عدد من المناضلين من الحويطات ، اقتصرت مهمتهم على التعرّض لقوافل اليهود المتّجهة من الساحل إلى مدينة القدس وقطع الطريق عليها والاشتباك معها ولكن دون فعالية حاسمة .

ولكن سريّة الكتيبة الرابعة عزلت القدس عن باقي المناطق التي تحتلها القوات اليهودية ، ممّا أدّى إلى بداية قتال جدي بين الجيش الأردني والقوات اليهودية ، وبالتالي انتقال الكتيبة الرابعة كاملة تتبعها الكتيبة الثانية لمحاصرة القدس من الغرب في منطقة باب الواد.

القدس معزولة عن المناطق اليهودية من الغرب ويجد اليهود صعوبة بالغة في تزويد سكانها اليهود بالغذاء وتزويد القوات بالذخائر، ولكن القدس القديمة تكاد

تسقط وأهلها يستغيثون بالملك عبد الله والجيش الأردني يرابط في مشرقها وشمالها والقيادة البريطانية تأبى إدخال الجيش لتخليصها بحجة أن القدس ستدوّل ولا حاجة للقتال فيها . ويسقط حي الشيخ جراح وتتصل القدس الجديدة بجامعة هداسا وبريطانيا ترى اليهود يتقدّمون للإجهاز على القدس دون اعتبار لقرار التدويل ، ومع ذلك تأمر قائد الجيش الأردني بعدم التدخّل .

الملك عبد الله يلحّ على قائد الجيش وقائد الجيش يحتجّ بأن القدس ستكون نهاية الجيش الأردني بسبب جهل أبناء البادية بحروب المدن ، وبسبب أن القدس ستشغل كل الجيش الصغير عن أية مهمة من مهماته في فلسطين ممّا يجعل منطقة اللد والرملة ورام الله مفتوحة للقوات اليهودية .

وأخيراً وفي ساعة اليأس يُصدر الملك عبد الله إنذاره المعروف لجلوب باشا: إمّا أن يدخل الجيش القدس أو أذهب بنفسي لقيادة الجيش في فلسطين.

وفي حوالي الساعة العاشرة من ليلة الإنذار يطلب قائد الفرقة ، قائد اللواء الثالث ، وعلي أبو نوار وقائد الكتيبة الثانية والميجور يونج وعبد الله التل ، قائد الكتيبة السادسة ، للاجتماع في مكتب قائد اللواء الرابع القائمقام أحمد صدقي الجندي في رام الله .

يبدأ الزعيم لاش قائد الفرقة بإبلاغنا قرار الملك عبد الله ، ويبدي تحفظاته وقائد الجيش على القرار وبطريقة فجّة وغير مؤدّبة . ثم يُصدر أمره إلى القائد عبد الله التل بدخول المدينة القديمة بسريّة واحدة مبدئياً لصدّ اليهود المهاجمين فيها ، وكذلك يأمر بتشكيل قوة من سريتين من سرايا الحامية (اللواء الرابع) وأسلحة مساندة (مدافع ستة رطل وسرية مدرعات ومدافع هاون) بقيادة القائد سليد قائد الكتيبة الثانية من اللواء الثالث لتحرير الشيخ جراح وتعيين الميجور يونج مساعداً لسليد، ولكنه يعتذر لأنه ليس ضابطاً في الجيش البريطاني، كما أنه يرتبط بالجيش الأردني بعقد خدمة. تطوعتُ لمساعدة سليد ووافق العقيد إشتون قائد اللواء الثالث.

عبد الله التل أدخل كتيبته سرية بعد أخرى داخل السور واشتبك مع القوات اليهودية فور دخوله . وتجمّعت قوة الشيخ جراح في شعفاط وتقدّمنا عند الفجر نحو هدفنا واشتبكنا مع اليهود مع مطلع الشمس ولم تمضِ ساعتان إلاّ وكنّا نلامس عمارات الشيخ جراح . عندها أُصيب القائد سليد . وأثناء تحميله في سيارة الإسعاف لنقله إلى مستشفى الميدان ، ولم يكن يعلم أن إصابته بسيطة ، أخذ يبكي ويرجوني أن أبقيه مكانه وأن أدفنه في القدس .

القائد سليد ، خلافاً للأغلبية الساحقة من الضباط البريطانيين في الجيش العربي الذين عرفتهم ، كان مخلصاً في مودّته للعرب ومعتزاً بوحدته التي يقودها ومحباً لضباطها وأفرادها .

بعد ترحيل قائد الحملة إلى المستشفى كلفتُ الوكيل القائد محمد المعايطه بتولي القيادة بصفته الأكبر رتبة ولكوني أدنى رتبة من واحد من قادة السرايا ، ولكنه اعتذر بقوله « أنا قائد سلاح المدفعية المساند وأنت قادر على إتمام المهمّة وليس من المناسب التفكير في هذه المسألة في منتصف الطريق إلى الهدف وأنا أقبل بقيادتك » . ما إن انتهى محمد المعايطه من كلامه حتى أصابته رصاصة من رشاش يهودي فبادرني قائلاً « الجرح باللحم هاك منديلي واربط عضدي واتركني » .

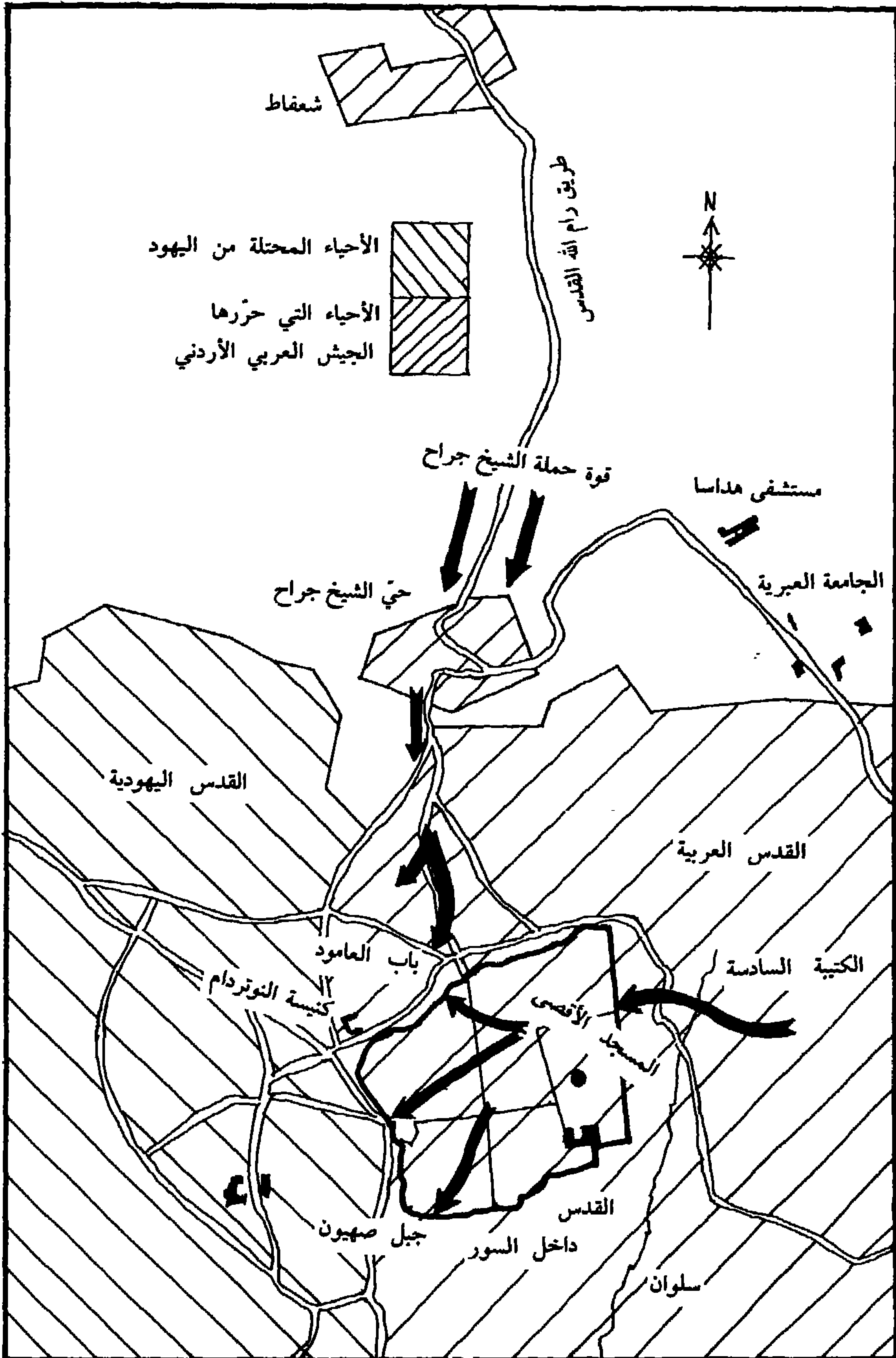
قُدتُ الحملة واستولت قواتنا بهجوم صاعق على حي الشيخ جراح ومنطقة مركز البوليس ، ولم تمضِ ساعتان من الغارة حتى انتشرنا وبدأنا نركز مواقع الفئات والسرايا ومدافع المورتر والمدافع المضادة للدبابات . وتابعت قواتنا مطاردة اليهود الفارين بالرشاشات وقنابل المدرعات .

ولكن فوجئنا بالنيران تنطلق من مستشفى هداسا والجامعة العبرية اللتين خلفناهما وراء ظهورنا ، حيث كانت الأوامر الصادرة إلينا تقضي بعدم معالجتهما كونهما مؤسّستان طبية وعلمية . قتلت هذه النيران اثنين من جنودي وجرحت أربعة فطلبت إلى الملازم حيدر مصطفى التصدي لمصادر النيران بمدافعه المضادة للدبابات .

امتطى حيدر مدفعاً منها واتخذ موقعاً مكشوفاً وعالج مصادر النار بنفسه حتى أخرسها وإلى أن رفع شاغلو هاتين القلعتين الأعلام البيضاء . كان حيدر يوجّه ويطلق المدفع تحت رماية كثيفة موجهة إليه وأنا أراقبه وأتمنى له السلامة ،وضرب مثلاً في برود الأعصاب والشجاعة .

في تلك الساعة مرّ أمامي الملازم محمد نجيب ضابط ملاحظة المدفعية على ظهر مدرعة تسير بسرعة عظيمة ، فصرخت بالجند أن يوقفوه إذ أدركت أنه لا يعرف حدود خطوطنا الأمامية . ولكن محمد نجيب لم يلتفت لمحاولاتنا لإيقافه حتى وصل منطقة خطرة ، فأصابت مدرعته طلقة مدفع كما أصيب شخصياً إصابات عديدة من رشاش . وفي الليل أرسلنا رافعة مع دورية مشاة واستعدنا المدرعة وجثث طاقمها .

حيّا الله محمد المعايطه وحمدان صبيح وحيدر مصطفى وأديب عمر وأحمد الفياض ويونس الحاج موسى والجند من بدو وحضر لِما أبلوه في ذلك اليوم ، ورحم



محورا اقتحام الجيش العربي الأردني لحيّ الشيخ جراح والقدس داخل السوّر

خريطة رقم (٣)

الله الشهداء الملازم سند ناصر ومحمد نجيب والجنديين اللذين استشهدا وهما يحملان الذخائر إلى الأمام تحت نيران العدو من هداسا خلفهما .

في ختام معركة الشيخ جراح أرسلت إلينا قيادة الفرقة ضابطاً ليبلغنا أمراً بعدم إطلاق النار على هداسا والجامعة العبرية ، ويستفسر عن الذي أصدر أمر الإطلاق خلافاً للأوامر وأن القنصل الأمريكي قدّم احتجاجاً بسبب ذلك . لم يُكمل الضابط كلامه حتى بدأت النار تطلق على مراكزنا من جديد فأوعزت إلى الملازم حيدر مصطفى بإخراس مصادر النار ففعل ، وعاد الضابط ليروي شهادته إلى قائد الفرقة .

وبينما كانت قواتنا تركّز مواقعها الدفاعية أرسلت قيادة الفرقة قائداً بريطانياً جديداً مع مهمة إضافية، وهي الوصول إلى باب العامود بالمدرعات والتصدي لقوة يهودية احتلت كنيسة النوتردام وعطّلت بعض حركات الكتيبة السادسة على السور القديم وداخله .

نسيت اسم هذا الضابط إذ لم أعرفه من قبلُ ، وفهمت في ما بعد بأنه من ضباط قوة حدود شرق الأردن المنحلة وقد التحق بالجيش العربي حديثاً .

ركبت وإياه مدرعتين من مدرعات سرية حمدان صبيح واتجهنا نحو باب العامود يتقدّمنا حمدان وتبعتنا السرية ، وما إن وصلنا المنطقة المواجهة لحي مشيرم حتى انصبّت علينا نيران الرشاشات وكأنها وابل من المطر ، وحمدان يظهر رأسه من فوهة المدرعة لا يبالي حتى وصلنا منطقة القنصلية البريطانية ، وأخذت المدرعات تتعرض واحدة بعد أخرى للنوتردام وتبحث عن مصادر النار من تلك القلعة الهائلة وجرسياتها وتصيبها واحدة بعد أخرى إلى أن تحررت وحدات الكتيبة السادسة على السور ومكّنت تحصيناتها وعدنا إلى الشيخ جراح .

كلف هذا القائد الملازم حيدر مصطفى باستدعاء الضباط القادة ليتعرّف عليهم ويصدر تعليماته فحضروا وأحطنا به إحاطة السوار بالمعصم . الرئيس سليمان مسعود ، الملازم محمد العمري الملازم حمدان صبيح ، الملازم أديب عمر ، الملازم علي أبو نوار ، وقائد المدفعية الوكيل القائد محمد المعايطة .

وفي لحظة سقط القائد على الأرض إثر انفجار قنبلة مورتر على بُعد أمتار منّا، وبسبب إصابة بالغة في صدره أرسلناه إلى المستشفى. وبعد ساعتين وصل الرئيس صادق الشرع من قيادة الفرقة ليقود قوة الشيخ جراح ويطلب مني العودة إلى قيادة اللواء الثالث لضرورة إشغالي عملي فيها، وقد شملت مسؤوليتها القدس وباب الواد بعد دخولنا إلى الشيخ جراح. ولمّا كانت قيادة الفرقة بحاجة للرئيس صادق الشرع فقد

استدعته وعيّنت مكانه الوكيل القائد عبد الحليم الساكت.

انتهت معركة الشيخ جراح ولكن معركة القدس القديمة داخل السور كانت مستمرة . وبنجاح أعاد القائد عبد الله التل تجميع قوات المناضلين على مختلف أقاليمهم العربية من فلسطينيين وأردنيين وعراقيين ونسّق نشاطهم مع أعمال الكتيبة السادسة . وكان عبد الله التل ذا كياسة ودبلوماسية تمكّن بهما من كسب ودّ واحترام المناضلين وأهل القدس بمختلف دياناتهم وأعراقهم من عرب مسلمين ومسيحيين وأرمن ويونان وسريان .

أخذ عبد الله التل يزداد أهمية تتناسب مع أهمية وقدسية القدس ، واتّسع نطاق عمله ليشمل التنسيق مع القوات المصرية جنوب القدس وكذلك السرية الليبية التي ضمتها القوات المصرية .

وفي الوقت نفسه كانت معارك باب الواد تزداد اضطراماً وهجمات اليهود على الكتيبة الرابعة تتعاظم عدداً وعدة ، ممّا جعل القيادة تحرك الكتيبة الثانية وتركزها إلى يسار الكتيبة الرابعة بقيادة.وكيل القائد سليد الذي شفي من إصابته ، مع العلم بأن باب الواد كانت تكفيه الكتيبة الرابعة التي أحكمت الحصار على القدس من الناحية الغربية وأصبح اليهود في القدس يعانون النقص من الإمدادات التموينية والعسكرية .

سبق هذا أن أُمرت الكتيبة الثالثة من اللواء الأول بالهجوم على حي مشيرم ، ونقلت قيادة قوات القدس جميعها إلى قائد اللواء الأول القائمقام جولدي الذي سبق ذكره . وانقطعت مسؤولية قيادة اللواء الثالث عن القدس .

هجوم الكتيبة الثالثة كان يواجهه منطقة مفتوحة تقع بين الشيخ جراح ومشيرم ، وهذا الحي يتصدّره صف عمارات متصلة ومشرفة على المنطقة المفتوحة ولا يمكن وصف العملية بأقل من أنها انتحاريّة . ضباط الكتيبة الثالثة المأخوذون بالحماس واستعجال دورهم في القتال لم يعطوا أنفسهم فرصة للتفكير واقتراح هجوم جانبي من طرف منطقة بوليس الشيخ جراح يسمح لهم بحرية الحركة والتغلغل خلف قلعة مشيرم تلك .

استماتت الضباط والجنود في هجومهم بالرغم من تساقط القتلى والجرحى بالعشرات وكلهم من أبناء البادية: بني صخر والحويطات بشكل رئيسي وسعوديون وسوريون وعراقيون، وبالرغم من مساندة وتغطية قوة الشيخ جراح للهجوم بالنيران إلاّ أن الكتيبة لم تتمكن من الوصول إلى أهدافها ، واكتفت باحتلال العمارات الملاصقة لحي مشيرم والسيطرة على المنطقة المفتوحة التي ظلت أرضاً حراماً . وبلغ الالتصاق

في بعض الأماكن أن لا يفصل بين القوات الأردنية واليهودية إلا بضعة أمتار وخصوصاً في منطقة بوابة مندلبوم .

معركة الكتيبة الثالثة ملحمة بطولية نادرة وتوجتها معركة كنيسة النوتردام التي خاضتها سرية من الكتيبة الثالثة بقيادة غازي الحربي .

الذين يعرفون مدينة القدس قادرون على تصوّر بطولة غازي الحربي وضباطه وجنوده : كنيسة النوتردام قلعة عظيمة حصينة بالغة الارتفاع ، تشرف على باب العامود وتصلهما طريق معبدة تتسع عند ساحة باب العامود ثم تضيق تدريجياً حتى تصل سعتها ستة أمتار على الأكثر . على يمين الطريق عمارة القنصلية البريطانية ومقاهٍ تعلوها شقق للسكن . إذا نظرت إلى الكنيسة من أضيق قسم في الطريق أو من قطعة الأرض غير المعمورة هُيّىء لك أنك تطاول جرسيات الكنيسة بنظرك حتى تتّصل بالسماء . وأمام الكنيسة حديقة مسوّرة ومسيّجة بالأسلاك ومقسّمة إلى مدرجات تتصاعد في الارتفاع ويفصل بين أجزاء الحديقة سلاسل من الحجر يسميها الفلاحون جسوراً . وبنيان الكنيسة من الحجر الصّلد الكبير القطع لا تؤثّر فيه المدافع تأثيراً فعالاً .

الملازم غازي الحربي كلّم جنده وقد جمعهم في الشارع الذي يفصل القنصلية البريطانية عن المقاهي وقال : قادة فئاتكم شافوا القلعة وإحنا والله لها ولا بدّ نوصلها ولو بواحد . الشهادة الشهادة ، عيالي غاره والله يعيننا .

انطلقت السرية عدواً وعلى الشارع المكشوف من النوتردام تغطيها نيران من سور القدس وبضع مدرعات اصطفّت وثبتت خلف السرية في ساحة باب العامود .

الذين شهدوا الانطلاقة رووا ثمّ روى لي غازي نفسه عندما زرته في القدس تفاصيل ما حدث .

سقط من السرية ثلاثون تقريباً قتلى وجرحى عند منتصف المسافة ، وسقط أربعون تقريباً عند السور وهم يحاولون تسلّقه وتجاوزه ، وسقط مثلهم في الحدائق وأرضية الكنيسة الداخلية وغازي لا يتوقف ولا يتردّد.

السرية تحتل الأرضية فينتقل اليهود إلى الطبقات الأعلى من الكنيسة ويقاتلون بإلقاء القنابل وإطلاق الرشاشات على السرية ، وغازي يدفع جنوده إلى الصعود إلى الطبقات العليا والجرسيات وتزداد خسائره حتى حلّ الليل .

أرسل غازي يطلب ذخيرة وطعاماً ويأتيه الردّ بالأمر بالانسحاب ، ويرفض غازي قائلاً لا بدّ من الاستيلاء على الهدف . قيادة اللواء الأول تصرّ على الانسحاب وتعتذر عن التزويد والتعزيز فينسحب غازي باكياً وحاقداً .

للحديث عن هذا الفارس من قبيلة حرب بقيّة لا بدّ من أدائه وفاء له وهدية لأولاده .

قبلت القيادة أن تنفذ أمر الملك عبد الله وقراره للقدس ، ولكن بما يفشل القصد وبخطة عسكرية لا يرسمها حتى الهواة . خطة تضمن التجميد لجهد الجيش وبخسائر فادحة ، لأنه لو اتجه هجوم الكتيبة اتجاهاً آخر لسقطت مشيرم وتوالى سقوط الأحياء التي يسيطر عليها اليهود . لم يفعلوا هذا . ولو عززوا غازي الحربي بسرية أخرى تحت جنح الليل لسقطت النوتردام وأصبحت أحياء كثيرة تحت السيطرة الكاملة خلف مشيرم والنوتردام . أو لو هجمت الكتيبة واحتلت جبل المكبر من الناحية الجنوبية من القدس لاختلّ نظام الدفاع اليهودي كله في القدس الجديدة .

فقدت الكتيبة الثالثة أكثر من ثلاثمئة جندي وضابط بين شهيد وجريح ثمناً للعبث البريطاني بإرادة الأردن وتصميم الملك على استعادة القدس كلّها .

اختصر في كتابتي لأنني لو استغرقت في التفاصيل كثيراً لوصلت صفحاتي إلى المئات ، ولكن معركة الكتيبة الثالثة تستحق الاستطراد لأنها حتى وبالخطة الفاشلة لو ألحقتها القيادة البريطانية بهجوم آخر لسقطت مشيرم وتوالت الأحياء بالسقوط في أيدينا ، حيث إن القوات اليهودية كان قد أصابها الإعياء والنقص في الذخائر فضلاً عن حالة اليهود المدنيين الذين دبّ فيهم الذعر وبدأوا يتزاحمون في الرحيل إلى خارج المدينة ، ونقص في المؤن التي قطعها حصار الكتيبة الرابعة وهزائم القوات اليهودية في منطقة باب الواد .

قد يردّ بريطاني من القيادة على هذا القول إن الجيش لم يكن قادراً على توفير قوة لمتابعة الهجوم وهذا غير صحيح ، لأننا لم نكن في الحقيقة مهدّدين بأي اختراق يهودي على خطوطنا في القدس أو خارجها ، وكان الأولى أن تدفع الكتيبة الأولى من اللواء الأول لإكمال مهمة الكتيبة الثالثة بدلاً من إشغالها في أهداف ثانوية مثل النبي صمويل والرادار شمال القدس أو الكتيبة الثانية المجمّدة في باب الواد.

فالمحاولات العديدة لزحزحة الكتيبة الرابعة عن مواقعها في باب الواد لم تُفلح قيد أنملة ، بالرغم من مئات القتلى اليهود في كل معركة من أجل ما تصوروه من مصير محتوم لسقوط القدس في حوزة الجيش الأردني . والكتيبة الثانية كانت خالية من الاشتباكات الجدّية .

في إحدى جلسات لجنة الهدنة المشتركة سنة ١٩٤٩ سألني نظيري الكولونيل موشي ديان مستغرباً . ما الذي منعكم من هجوم ثانٍ في مشيرم ؟ لو فعلتم لكانت

القدس كلها لكم وقد كنّا ننتظر نهاية المعركة في اليوم التالي .

نعود إلى اللواء الثالث في باب الواد . وكما ذكرنا كانت كتيبتا اللواء الثالث ترابطان بقوةٍ في المنطقة، وتسيطران على المضيق المؤدي إلى القدس والسهل المواجه لعمواس واللطرون غرباً وحتى مستعمرة سوسين جنوباً.

كانت الهجمات اليهودية تزداد حجماً وقوة مضطردة في كل مرّة ، وكانت الكتيبة الرابعة تعدّ قتلى اليهود بالمئات بعد كل معركة وعلى حدود الفئات الدفاعية المتقدّمة . وفي الصباح الباكر ترى الكتيبة الرابعة الأرتال اليهودية منسحبة وقد أعياها التعب تجر قتلاها باتجاه الجنوب . كان العقيد حابس المجالي ومحمود الروسان يتوسّلان بالسماح للكتيبة الرابعة لمطاردة المنهزمين ، ولكن العقيد اشتن قائد اللواء يرفض رفضاً قطعياً بحجة أن هذا تبديد للجهد .

عرضت عليه أكثر من مرة أن يكلف سرية المدرعات التي يقودها حمدان صبيح البليوي للإجهاز على القوات المنسحبة ، فيردّ بأنه لا يستغني عن احتياط اللواء في حين أن قيادة اللواء لم تهدّد من اليهود إلاّ مرتين واحدة قُبيل الهدنة الأولى والثانية قُبيل الهدنة الثانية .

يمكن للقارىء أن يتصوّر صبر حابس المجالي وكتيبته ، وكذلك صبر الكتيبة الثانية وأركان حربها عكاش الزبن الذي تجاوز قائده ليلحّ على قائد اللواء بما طالب به حابس المجالي مراراً . ولكن دون جدوى .

قائد المدفعية محمد المعايطة خرج عن الطوق وخالف الأوامر وأعمل مدفعيته بأرتال المنسحبين، فوجه إليه قائد الفرقة إنذاراً حاداً بحجة أنه يبدّد قنابله المحدودة، ولكنه عاود وقصف المناطق الحرجية جنوب مدينة القدس وشمال قوات اللواء الثالث والتي احتشدت باليهود ، فكانت الطامة الكبرى التي لم يتحملها قائد الجيش إذ نقل المعايطه على وجه السرعة إلى عمانوبدون قيادة أو عمل . لقد عزّ على قائد الجيش أن يعمل محمد المعايطة بما يؤدي إلى استسلام اليهود في القدس .

في تلك الأثناء كانت الكتيبة الأولى قد احتلت النبي صمويل والرادار وقد خاض الملازم سلامة عتيق معركة باسلة بسريته في الرادار ، إذ أصابته شظية فتحت بطنه وفاضت أمعاؤه ، وعندما أراد جنده أن يرسلوه إلى المستشفى أعاد أمعاءه بيده وشدّ بيد على طرفي الجرح وبدأ يزحف نحو قمة الرادار على كوع وورك قائلاً: المستشفى بعد الوصول إلى القمة.

وبالرغم من محاولات القيادة البريطانية لتخفيف الضغط على القوات اليهودية فإن حالة تلك القوات في القدس كانت سيّئة جداً، لأنهم واجهوا داخل المدينة عناداً لم ينتظروه من المقاتلين الأردنيين ، كما واجهوا في باب الواد الكتيبة الرابعة التي سدّت منافذ القدس على الإمدادات والتعزيزات الضرورية بالإضافة إلى قطع المياه عنها . ولم يجد اليهود وسيلة إلاّ استعمال الدواب لنقل النزر اليسير من حاجات العسكريين والمدنيين اليهود المحصورين في المدينة .

ومن أمثلة تخفيف الضغط توجيه الكتيبة الأولى إلى أهداف تكفيها سرية واحدة ، وقد قامت سرية سلامة عتيق بواجب الكتيبة كلّها . كان الأولى لو كانت الخطط جدية لقهر اليهود أن تتولى تلك الكتيبة الهجوم على منطقة مستعمرة الخمسة والقسطل والواقعة على الطريق الرئيسي بين القدس وباب الواد . لو حدث هذا لسقطت القدس وكل القرى جنوبها بما يخلي اللواء الثالث واللواء الأول في ما عدا كتيبة واحدة تبقى في القدس وتتجه باقي القوات إلى مناجزة اليهود في منطقة صرفند ومنطقة يافا .

إلاّ أن تضخيم البريطانيين لحجم القوات اليهودية بمجموعها كانت مثار الجدال الذي لم يملك العرب دليلاً على صحة أو كذب المعلومات البريطانية . ومن المؤسف أن الدول العربية جميعها لم تكن معنية بتشكيل أجهزة استخبارات عن الاستعدادات اليهودية قبل انتهاء الانتداب ، كما أن الفلسطينيين لم يكن بين صفوفهم قادة عسكريون بالمعنى الصحيح للعناية بهذا الأمر . وقد مرّ وقت غير قصير حتى وصل الضباط الأردنيون والعراقيون إلى تقديرات قريبة من الدقة عن القوات اليهودية وتشكيلاتها وتسليحها .

لقد جمّد اليهود حركات قواتهم في مدينة القدس في ما عدا إطلاق النار من مراكزهم لعجزهم عن القيام بأي هجوم كان ، إلاّ أنهم ركّزوا جهدهم على باب الواد بهجوم ليلي شاغل الكتيبة الثانية بالنار واندفع بقوة تقدر بثلاثة آلاف على الكتيبة الرابعة ، واشتعلت معركة تعتبر من أشد المعارك على الساحة الفلسطينية كلها حتى ذلك التاريخ ، مع العلم أن معظم المعارك اقتصرت على الجبهة الأردنية .

دفع اليهود قوتين : إحداهما تقدّر بسرية لتتغلغل تسللاً بين سرايا الكتيبة الرابعة وتشتبك مع من يصادفها من الكتيبة ، والثانية تقدّر بفئة تسلّلت خلف الأولى لتصل إلى مركز ضابط ملاحظة وتوجيه نيران المدفعية الذي يشغله المرشح الضابط محمود المعايطة وأربعة جنود وضابط صفّ على قمة مرتفع يتوسط الكتيبة .

القوة الرئيسية وتقدّر بلواء مشاة توجّهت بهجوم جبهوي قاومها الملازم محمد المحاسنة ، قائد دورية أمامية أرسلت للإنذار على بعد ثلاثمئة متر من خط الكتيبة الأمامي وعاد إلى الكتيبة ليبلغها تقديراته عن حجم القوة المهاجمة؛ وقادة الفئات الأمامية يضبطون نيرانها إلى أن اقترب المهاجمون إلى مسافة مئة متر ، ثمّ يصدرون أوامرهم بإطلاق كل الأسلحة لتفتك في طلائع المهاجمين فتكاً ذريعاً ثم تأتي موجة أخرى وتصل المعركة ذروتها عند الأسلاك الشائكة إلى حد الاشتباك بالسلاح الأبيض والأيدي ، والموجات اليهودية تتتالى وجثث قتلاهم تتزايد . وكان للرئيس عزت حسن دور حاسم في إدارة الدفاع الأمامي واستعمال الرشاشات المتوسطة .

محمود المعايطة يأمر المدفعية بإطلاق قنابلها على مسافة قريبة من الأسلاك الشائكة لتمزّق الطلائع وتشتتهم ، إلى أن فوجىء بالفئة التي أرسلت لمهاجمة مركزه تندفع مع نار كثيفة من الرشاشات والبنادق ، فيضطر ورفاقه لإخلاء مركزه إذ كانت قوة الفئة عشرة أمثال زمرته ولكن محمود لم يبتعد أكثر من مئة متر فاختبأ وزمرته متربصين .

ضابط يهودي يتقن اللغة العربية وهو ضابط مدفعي يتناول جهاز اللاسلكي الذي تركه محمود ، ويبدأ بإصدار الأمر للمدفعية على مسافة تصيب قلب الكتيبة الرابعة . ضابط موقع المدفعية يستغرب الصوت الجديد فيتوقّف ولكن المعايطة يستحثّ جنوده فيتحركون دون عون حتى بلغوا المركز وباغتوا اليهود بالقنابل وأسلحتهم الخفيفة ، فيصيبون منهم ويهرب الباقون ويباشر محمود توجيه المدفعية على الأسلاك الشائكة ويمشط الأرض جنوبها وغربها على مدى مئتي متر ، فيصيب الحشد اليهودي وتفتك القنابل فيه وعند الفجر ينسحب المهاجمون .

في الليلة نفسها تهاجم قوة محمولة على ناقلات مدرعة ركّبت عليها قاذفات لهب يصاحبها المشاة مخفر بوليس اللطرون الذي تشغله فئة مشاة من الكتيبة الرابعة بقيادة الملازم عبد المجيد المعايطة . هذه الفئة كانت تُعيق تحركات القوات اليهودية القادمة من اتجاه صرفند إلى نقطة مضخّة المياه التي تزود القدس الغربية بالمياه والتي عطّلها الجيش الأردني .

اشتبكت فئة المخفر بالأسلحة الخفيفة والرشاشات مع القوة المهاجمة التي استماتت لاقتحام المخفر دون فائدة ، وتمكنت الفئة من إبادة القوة المهاجمة وأسر الناقلات المدرعة والتي تبيّن أن أطقمها كانوا من رجال ونساء ، واستشهد الملازم عبد المجيد المعايطة بعد أن أدار معركة ناجحة إلى أبعد الحدود وفي آخر دقائق المعركة .

لأول مرة طلب حابس المجالي نجدة من قيادة اللواء ، فوجّهنا الملازم رفيفان خالد مع سرية لمساعدة سرية كامل عبد القادر في القضاء على السرية التي تسلّلت خلف كامل عبد القادر .

عند بداية الشروق ، انطلقت حظائر من الخطوط الأمامية لتعدّ القتلى اليهود ، فجمعوا ثمانمئة هوية وأسلحتهم . في تلك الساعة كنت وصلت إلى الكتيبة الرابعة بتكليف من قائد اللواء لأرى وأجمع الصورة كاملة للمعركة .

وجدت حابس ومحمود الروسان وعزت حسن ومحمود المعايطة ، وشرحوا لي تفاصيل القتال الذي دار ، ورأينا جميعاً القوة اليهودية المنسحبة على بعد ميل منّا ، وجرى جدال بين حابس وقائد اللواء على الهاتف حول مطاردة المنسحبين وقد أنهكهم التعب بحيث لا يقدرون على المشي السريع .

قائد اللواء رفض السماح بالمطاردة ورفض السماح بإشغال المدفعية للفتك بهم بحجة محدودية مخزوننا من القنابل ، وكذلك رفض اقتراحي وقد كان الأمثل أن نطلق سرية المدرعات بقيادة حمدان البليوي لكي يفنيهم .

وهكذا أفلت من قبضتنا ما يقارب ألفي جندي وضابط يهودي دونما سبب إلاّ تمكينهم من مهاجمتنا من جديد . لقد تحمّلت الكتيبة الرابعة وقادتها قسطاً وافراً من القتال ولا بدّ من ذكر بقيتهم ، الرئيس عبد الله السالم والرئيس صالح الفاخوري ، كما تحمّل الضباط والأفراد مسؤوليات الدفاع بشرف وصبر طوال فترة الحرب .

بعد هذه المعركة رأت قيادة اللواء أن تتبادل الكتيبتان الرابعة والثانية مواقعهما ، وقد سعُد ضباط الكتيبة الثانية بهذا الإجراء طمعاً في شرف مناجزة العدو ، وقد كان لهم هذا الشرف في آخر معارك باب الواد .

نعود إلى مدينة القدس التي ذكرنا أنّ عبد الله التل كان قد وحّد فيها جهد المناضلين كافة مع كتيبته السادسة لتدافع عنها داخل السور وحتى قرب دار الحكومة على جبل المكبر . كانت المناوشات بالنار مستمرة بين اليهود في مشيرم والنوتردام وبين الكتيبة الثالثة في حي المصرارة وباب العامود ليلاً ونهاراً ولكن دون حركة قوات من الجانبين، بينما الكتيبة السادسة تتقدّم في الحي اليهودي بسرية يقودها محمود الموسى ومن معه من فرقة التدمير الفلسطينية . أحسّ اليهود بالخطر المتّجه نحو الحي اليهودي فأخذوا يحاولون تعزيز قواتهم فيه بهجمات على السور ومحاولات فتح ثغرة فيه، ولكن محمود الموسى لم يعط نفسه وسريته فرصة نوم أو راحة ليلاً ونهاراً معرضاً نفسه في كل لحظة للشهادة ، ضارباً مثلاً نادراً في الشجاعة والصبر

لجنوده حتى احتل الحيّ اليهودي ضحى يوم ٢٨ / ٥ / ١٩٤٨ وأسر حاميتها التي أنهكها الإعياء والخسائر في الأعداد .

لقد خاض محمود معركة الصبر بين مهاجم يتلقى النار من كل زقاق وبيت ومخبأ وبين المدافع المستترة خلف استحكامات اليهود، وبذا تطهّرت المدينة المقدّسة والمصرارة وحي الشيخ جراح من المعتدين .

منذ هذا اليوم لم يجرؤ اليهود على القيام بأي عمل داخل أوخارج القدس ، في ما عدا أعمال القنص التي تعرضت لها السيارات والمدنيون في القدس العربية ، وقد تصدّى لها غازي الحربي بما تستحقه من عقاب .

وفي باب الواد كان كل شيء هادئاً ، فاستغلت الكتيبتان الثانية والرابعة الفرصة لتقوية استحكاماتها والالتفات إلى الأمور الإدارية وتعويض الخسائر .

كانت خسائر الجيش العربي بين شهداء وجرحى جسيمة ، وإن كانت لا تعادل شيئاً من خسائر القوات اليهودية .

الهدنة الأولى

في يوم ١١ / ٦ / ١٩٤٨ نفّذت القوات المتحاربة على طول الجبهات قرار الهدنة الذي أصدره مجلس الأمن ، وكان صدمة عنيفة تلقاها ضباط وأفراد الجيش العربي بحنق وغضب شديدين . كان تقدير الجيش لهذه الهدنة بأنها انفراج لإسرائيل التي كانت تواجه وضعاً عسكرياً صعباً ، على الرغم من التأييد السياسي العالمي .

ومهما كان الأمر من حركات الجيوش العربية التي لم تعالج قضية الحرب مع اليهود بما تقتضيه الحرب من ضرورات استراتيجية ، فإن استمرار القتال كان سيعني تسليم الصهيونية بأنها عاجزة عن السيطرة عسكرياً على ميادين القتال . وفي ما عدا مواجهتها للقوات السورية شمال فلسطين ، فإنها أخفقت في مواجهة الجيش العربي إخفاقاً كاملاً ، وكذلك في مواجهة الجيشين العراقي والمصري .

هذه الهدنة كانت فرصة لتلتقط القوات اليهودية أنفاسها وتزاوج بين ما حصلت عليه من أسلحة شرقية وغربية وبين وحداتها ، وكذلك انتظام المتطوعين الجدد من يهود العالم ضباطاً وأفراداً في القوات المقاتلة .

لو لم تكن الهدنة الأولى فرصة إسرائيلية بحتة ، وهو موضوع ثانٍ جدير بالدرس ، كأن تنتهزها القوات العربية للتنسيق بينها وجمع وتوحيد احتياطيها في

الميدان لمعركة فاصلة في قلب فلسطين ، لكانت النتائج بعد انتهاء فترة الهدنة قاصمة وحاسمة لمصلحة العرب .

وفي حال انتفاء تلك الإمكانية ، فإن استمرار القتال كان سيمكّن القوات العربية من الاحتفاظ بالقدرة على المبادرة مع تفرقها وانعدام التنسيق بينها .

فالقوات اليهودية التي بالغ البريطانيون وغيرهم في تفوقها تعداداً وسلاحاً لم تكن في الحقيقة بالأهمية التي شاعت ، كما وأنها لم تكن متجانسة أو متمكنة من أساليب القتال . كان سلاحها خفيفاً وتدريباتها ضعيفة وقياداتها ضعيفة الكفاءة . ومن هنا فإن تفوقها العددي في كل معركة لم يكن مجدياً.

كان المثل واضحاً في المعارك التي خاضها الجيش العربي ، سواء داخل المدن أو خارجها في الحالتين التي أخذ الجيش العربي دور الهجوم والدفاع .

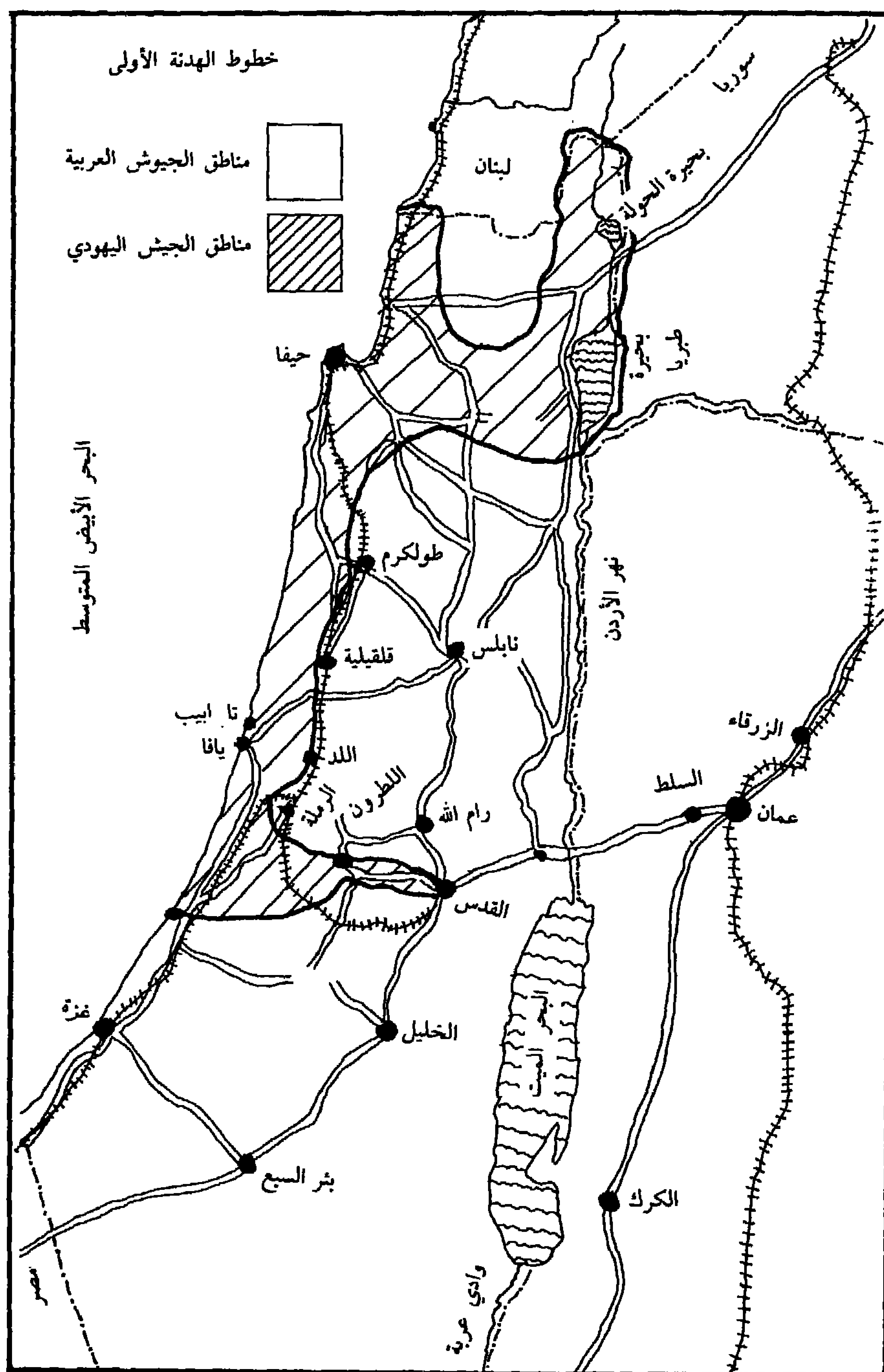
كانت القوات اليهودية مثلها مثل التلميذ الذي يحاول ملاكمةالبطل ويسقط على الأرض بعد كل لكمة يتلقاها . وفي نهاية الجولة الأولى قبل الهدنة أصبح الوضع في القدس ميئوساً منه بالنسبة لليهود ، فالجيش الأردني يحاصرها من الغرب والقدس القديمة قد صارت في قبضته ، والمعارك في باب الواد وفي المدينة قد استنزفت منه القوة والجلد .

وعلى الجبهة العراقية لم يتمكّن اليهود من إحراز أي نجاح ، بل ولم يحاولوا الدخول في معركة جدية مع الجيش العراقي ، إذ لم يكونوا قادرين على توفير جهد عسكري إضافي لقتال العراقيين ، فقد انصبّ معظم جهدهم على منطقة القدس وعلى المدينة نفسها .

ويصدق القول أيضاً على الجبهة المصرية التي انحصر القتال فيها على اشتباكات إشغال ، في ما عدا المعارك الجزئية التي خاضها الجيش المصري أثناء تقدّمه من جنوب فلسطين إلى مواقعه على خط المجدل ـ الفالوجة ـ بيت جبرين .

وقد ثبت من سير تقدم القوات العربية والخطوط التي انتشرت عليها أن الجامعة العربية قصدت الحفاظ على بعض الأراضي التي أعطاها تقسيم فلسطين لسنة ١٩٤٧ للعرب، ولكن دون التغلغل في فلسطين للوصول إلى المدن والأراضي كافة المبينة في التقسيم.

كان الفلسطينيون قد رفضوا ذلك التقسيم ، وكذلك دول الجامعة العربية ، حتى رأوا أن الصهيونية قد تمادت باحتلال مناطق تجاوزت التقسيم في ما عدا النقب ،


خطوط الهدنة الأولى
مناطق الجيوش العربية
مناطق الجيش اليهودي
لبنان
سوريا
بحيرة الحولة
بحيرة طبريا
حيفا
البحر الأبيض المتوسط
نهر الأردن
طولكرم
نابلس
قلقيلية
تل ابيب
يافا
اللد
الرملة
اللطرون
رام الله
الزرقاء
السلط
عمان
القدس
البحر الميت
غزة
الخليل
بئر السبع
الكرك
وادي عربة
مصر

خريطة رقم (٤)

وطردت السكان العرب وارتكبت جرائم تسبّبت في إثارة الذعر بين أهل المدن والقرى العُزّل من أي سلاح أو تنظيم . أصيبت فلسطين والفلسطينيون بكارثة لم يحسب لها حساب ، جعلت دول الجامعة تكتفي بما تصوّرته مقبولاً عند الفلسطينيين الذين فقدوا الأمل .

كانت سياسة دخول القوات العربية كلها حجماً وكيفية وحدوداً مقيدة بما ارتأته بريطانيا وأوضحته لدول الجامعة على أساس الممكن دون الاصطدام بالقوى العظمى ، وبالتالي قيام الدولة اليهودية دونما وضوح في مصير المنطقة العـربية إلاّ إيحاءات بانضمامها إلى المملكة الأردنية الهاشمية كانت بالتالي تفترض أن اليهود سيسلمون بها .

الدولة المنتدبة بريطانيا ، بحكم وعدها للصهيونية ، وأمريكا والاتحاد السوفيتي المتعاطفتان مع إقامة الدولة اليهودية ، وكذلك دول أوروبا الشيوعية والاستعمارية كانت ترى النزاع في فلسطين من زاوية تحقيق الهدف الصهيوني بإقامة دولة إسرائيل في فلسطين ، ولم يكن يعنيها مصير عرب فلسطين أو أرض فلسطين وما يتبقى منها للعرب .

وفي هذه الظروف المتاحة لليهود لم يكونوا يعتبرون أن للعرب حقاً في أرض في فلسطين طالما وأنهم قادرون على الاستيلاء على أي بقعة فيها . حتى مدينة القدس التي تمّ إجماع الأمم على أن تظلّ دولية كاد اليهود أن يُجهزوا عليها كاملة لولا أن الملك عبد الله اعتبر رفض قيادة الجيش الأردني دخولها قضية جدّية في علاقة الأردن ببريطانيا.

بريطانيا وقادة الجيش العربي البريطانيون يحترمون قرار تدويل القدس ، واليهود لا يعترفون بأي قرارٍ ويُسارعون إلى احتلالها ومحاولة الاستحواذ بها بسرعة لا مثيل لها .

دول الجامعة لم تكن ترضى بالوحدة بين المملكة الأردنية وفلسطين العربية بعد تقسيم ١٩٤٧ ، وعلى فرض أنها قبلت وفي ظل الاندفاع اليهودي لإلغاء خطوط ذلك التقسيم بواقع الاحتلال لكثير من الأراضي خارج الحدود اليهودية المعلنة ، فكيف يمكن للقوات الأردنية أن تحفظ تلك المنطقة الشاسعة دون كفاية في القوات العسكرية ودون ضوابط دولية للجشع الصهيوني .

الجيوش العربية لم تكن مؤهلة ، بحكم سياسة الحرب المقرّرة في الجامعة العربية ، وبحكم قياداتها المفرقة وبحكم استراتيجية تحركاتها أن تحمي حدود

التقسيم ، فكيف لدولها أن تقبل أو ترفض توحيد تلك الأراضي العربية مع الأردن .

والعالم الغربي كله ، بكتلتيه الغربية والشرقية ، لم يكن رادعاً لإسرائيل كي تتوقف عند حدّ، وبريطانيا تولّت عمليات الضغط على العرب مُحتجّةً بأمريكا، كما تولت لعبة النفاق إلى جانب الضغط واستعمال النفوذ على العرب بحكم نفوذها وسيطرتها على المشرق ومصر . أعمال بريطانيا أنتجت سياسة خرقاء غير متماسكة عند دول الجامعة ، فابتعدت عن النظرة الجدية لحقيقة المعضلة وعظم مسؤولياتها بما جعل اليهود على ضعفهم يخرجون من الصراع بالانتصار الأول المستند إلى التوسع في الاحتلال، والمستند إلى إقناع الدول العظمى والدول المتعاطفة مع الصهيونية بأن العرب ليسوا على قدر إعلاناتهم أو على قدر ما يزعمونه من إخلاص لفلسطين.

ولكن الأمة العربية صدّقت قادتها حتى انكشفت الحقيقة . الحقيقة هي أن مصر والأردن والعراق ، التي كانت تملك قوات عسكرية متفاوتة الأحجام ، كانت واقعة تحت نفوذ بريطاني بالغ التأثير . ومصر أكبر دولة عربية لم تغامر بعلاقتها مع بريطانيا من أجل فلسطين ، والعراق ثاني أكبر دولة عربية لم تخرج مع غناها واستغنائها عن إرادة بريطانيا . ولكن القاهرة وبغداد لا تريان عظم الكارثة وهول المصيبة التي شرّدت ما يقرب من مليون عربي فهما بعيدتان . والقدس تكاد تسقط كليّاً والأردن الصغير المعتمد في ٨٠ ٪ من موازنته الكلية على بريطانيا يتحمّل المغامرة وحده في الخروج على الإرادة البريطانية والدولية لينقذ المدينة المقدّسة من الاحتلال اليهودي .

لماذا ؟ لأن عمان لا ترى الكارثة فحسب ولكنها تلامسها وتندمج فيها وكأن ما أصاب الفلسطينيين أصابها . والملك عبد الله الذي لم يكن يعجب كثيراً من الملوك والرؤساء العرب ، لسبب أو آخر ، كان في الحقيقة رجل تاريخ لا يوازيه أحد من الآخرين ورجل عروبة ودين . وكذلك الأردنيون يعيشون كل الحوادث الفلسطينية منذ ١٩٢٤ حتى يومنا هذا يوماً بيوم .

دول الجامعة العربية أوكلت بإعلان صوري قيادة الجيوش العربية إلى الملك عبد الله ، ولكنه لم يكن يملك تحريك فئة عراقية أو مصرية أو سورية متراً واحداً . ولو أن الدول العربية كانت جادّة في أمر القيادة هذه لكانت أعطته فرصة توليه شخصياً أمر الحرب ، ولكانت أعطته من دوافع الثقة والقوة ليضرب عرض الحائط كل المناورات البريطانية التي خضعت لها كل العواصم. لو صحّ ذلك لكانت الجيوش العربية وهي متفوّقة على القوات اليهودية قادرة على انتزاع النصر وإثبات أن إسرائيل لم توجد لتبقى .

قد يخالفني أحد في ما أصدره من حكم ويعود إلى المغالطات التي ألبست الملك عبد الله اتهامات من كل نوع ، وكأن الإخفاق في فلسطين قد اختص به مع أن النتائج أثبتت أن القيادة البريطانية للجيش الأردني ، التي سيّرت الجيش الأردني لمقتضيات الأهداف البريطانية في الأيام الأربعة الأولى بعد ٥/١٥، لم تكن تنوي دخول معركة واحدة غرب خط انتشارها الأول لولا أن الملك أجبرهم بالتهديد على تغيير الخطط ، ومع ذلك فقد غالطوه ولم يتركوا فرصة تفوت لإحباط أهدافه بالرغم من متابعته لحركات الجيش وتصويبها بقدر ما يستطيع .

العلاقات العربية بعد الهدنة الأولى

إن أي اعتقاد في تلك الأيام بتواؤم الخطط الأردنية والخطط البريطانية ، في ما يتعلّق بسير القتال ، كان وهماً لا يستند إلاّ إلى تصورات حكمت القادة العرب بالعجز عن مقاومة الأهداف البريطانية .

ما كان يجدر بالقادة العرب أن يفعلوه قبل ١٥ /٥ هو توجيه القوات العربية بقيادة واحدة إلى لقاء مخطط داخل مثلث اللطرون ـ الرملة ـ طولكرم لتجبر القوات اليهودية على معركة فاصلة بدل انتشارها من غزة إلى سمخ وبيسان .

وكان يجدر بها أن تدخل الحرب بالحجم الذي انتهت إليه كل قوة عند إعلان الهدنة الثانية ، لأن القوات العربية دخلت فلسطين بأجزاء صغيرة من جيوشها في بداية الأمر ثم بدأت تتعاظم مع الوقت .

القوات المصرية بدأت بلواءين ثم انتهت إلى خمسة ألوية .

القوات العراقية بدأت بجحفل لواء وانتهت إلى خمسة جحافل .

القوات الأردنية بدأت بأربع كتائب وانتهت إلى فرقة من عشر كتائب بعد خروج الجيش العراقي من فلسطين .

القوات السورية يصعب البحث فيها لأنها تكوّنت ، وعلى ضعف شديد ، بعد خروج المستعمر الفرنسي ، ولم تكن منظّمة أو مجهزة بما يجعلها صالحة لمواجهة جدّية .

القوات المصرية والعراقية كانت قادرة على البدء بقوة ، بعكس القوات الأردنية التي يحكمها ما تتمكن الحكومة الأردنية من الحصول عليه من مال وسلاح من بريطانيا في ظروف انعدام التكافل العربي .

ومع أنه لا يمكن أن نرى حاكماً عربياً لا يتمنى من كل قلبه تحرير فلسطين إلاّ

أن مجموع إرادتهم لم تكن تتوازن مع أمانيهم . وكذلك فإن تصورات خاطئة سيطرت على تصرفاتهم وسياستهم تجاه بعضهم البعض . فضعف تصوّرهم للصراع العربي اليهودي بمجمل صوره أتاح السبيل لاستمرار أسباب فرقتهم وتوجيه أجهزتهم الدعائية لتبرئة الذات وتوجيه اللوم على الغير .

التصوّرات الخاطئة لصداقاتهم وخصوماتهم أصبحت تأخذ شكل الحقائق الثابتة . كان العرب جميعاً وقبل حرب فلسطين يعتقدون أن حكم العائلة الهاشمية في العراق والأردن يجعل من البلدين محوراً وحلفاً مضافاً إلى المعاهدات التي تصل البلدين ببريطانيا ، وكأنما بريطانيا ليست موجودة في مصر وبمعاهدة وليست موجودة في السعودية وحتى في سوريا بحكم أن بريطانيا طردت المستعمر الفرنسي منها .

وفاتهم أن يعلموا بأن العراق لم يكن في الحقيقة ذا عناية هامة بالأردن ، لأن بريطانيا حكمت على العراق بتمييع العلاقة بأكثر ممّا تمكنت من الحكم على الملك عبد الله في هذا السبيل . فالملك عبد الله كان يرى في نفسه عميد العائلة الهاشمية وعليه مسؤولية أدبية نحو أبنائه في العراق ، ويرى في نفسه وريثاً لمسؤولية الثورة العربية الكبرى التي يريد البريطانيون إطفاء جذورها .

السعودية ومن قبيل تصوّر مُبالغ فيه للعداء الهاشمي للعائلة المالكة السعودية ، كانت ترى في تصريحات الملك عبد الله أحياناً خطراً جسيماً .

أما سوريا فإنها كانت ولفترة طويلة تؤرقها دعوة الملك عبد الله لدولة الهلال الخصيب ، ولم تكن هنالك إمكانية لإيقاف دعوته التي يؤمن بها ، إذ كان حلمه دائماً بإقامة الدولة العربية التي قامت الثورة العربية الكبرى من أجلها .

وهكذا كان وضع دول المشرق ممّا أدّى إلى قيام محوري بغداد ـ عمان ودمشق ـ الرياض ـ القاهرة . وإن دلّ هذا الوضع على شيء فإنما يدلّ على تمزق أفرزته مخاوف من دعوة للوحدة العربية لم تسمح ظروف السيطرة الأجنبية لقيامها بين المتآلفين أو المتخاصمين .

ومع ذلك فإن القادة العرب، والملك عبد الله في مقدمتهم، كانوا يرون في مصر الدولة العربية الكبرى ويتمنون لو أن ملكها كان صالحاً . فمصر بالرغم من كل أسباب ضعفها كانت مركز الثقل العربي كما أنها كانت مركز الاهتمام البريطاني . هي المركز العربي كونها البلد الأكبر مساحة والأعظم سكاناً ، فضلاً عن أنها تمثل القاعدة الحضارية العربية والإسلامية . وبالنسبة لبريطانيا هي نقطة الوصل الحساسة على خطوط مواصلاتها ، وأرض تجمع احتياطي الجيش البريطاني في المشرق مكاناً وسطاً

في إمبراطوريتها الممتدة على البحر المتوسط وأفريقا وآسيا ومناطق النفط في الشرق الأوسط .

ولم تكن أهمية مصر لبريطانيا تشفع لها لتحظى بمعاملة متكافئة مع المستعمر هذا ، بل وعلى العكس فإن السياسة البريطانية درجت على اعتبار أن مصر مصدر خطر على الإمبراطورية بمقدار ما هي ضرورة حيوية .

ومن هنا ولكثرة انتفاضات الشعب المصري على السيطرة البريطانية ، فإن البريطانيين ساسة وعسكريين حكمهم عامل الشك والخوف والكراهية في علاقاتهم مع المصريين . ومع أن مصر ترتبط بمعاهدة مع بريطانيا ، فقد درجت الأخيرة على تشويه سمعة مصر والمصريين دونما وازع أخلاقي بأي درجة من الدرجات .

تركّزت الحملة على مصر منذ بداية التحرك العسكري العربي إلى فلسطين من قبل قائد الجيش جلوب باشا وضباطه البريطانيين وعلى مختلف الأصعدة الأردنية ، الأمر الذي زاد من تحيّز الأردنيين للمصريين .

في الجيش العربي كانت حملة التشكيك بالجيش المصري برنامجاً يومياً وأسطوانة ممجوجة لا تجد عند الضباط الأردنيين إلاّ إثارة الكراهية نحو البريطانيين .

التركيز البريطاني على الإساءة لمصر بلغ حداً مستهجناً ورخيصاً . إنِ احتل اليهود قرية فالسبب مصر وإنْ هاجمتنا إسرائيل فالسبب مصر وإنْ نقصت ذخيرة مدافعنا فاللوم يقع على مصر .

نحن الأردنيين كنا نتمنى أن يخفّف الجيش المصري الضغط اليهودي عنّا بأن يتصادم مع العدو، ولكننا عرب أقحاح يؤذينا الطعن في أشقائنا المصريين عندما يرد من الأجنبي ، ونعتبر الحطّ من قيمة مصر مسّاً بكرامتنا ومحاولة للتفرقة بين العرب لمصلحة الاستعمار واليهود الغزاة .

كانت متابعات الملك عبد الله لحركات الجيش مثار ضيق للقادة البريطانيين ، وما إن وصلتنا أخبار إغارة جوية يهودية على عمان حتى وجد قائد الفرقة فرصة للتشفّي قائلاً :

هِه خلي أبو طلال يدبّر أمره الآن . يا ترى هل سيطلب منّا الهجوم على اليهود ؟

قلت له : لاش بك . أبو طلال يعرف الحرب والقتال عندما كُنتَ مجرد ملازم في البوليس الفلسطيني وأنت بقولك هذا تعتدي على كرامتنا ويُحسن بك أن تقف عند حدّك . أجاب بعد سكوت أنا آسف كنت أمزح .

معايشة الملك عبد الله والأردنيين لبريطانيا كانت على النقيض تماماً عمّا صورته العواصم العربية للشعب العربي ، والتي تجاهلت أن ضعف الموارد الأردنية وضعت أيدينا في قيود بريطانية تمرّد الملك عليها أكثر من مرة كما تمرّد الجيش عليها أيضاً أكثر من مرة في حرب ١٩٤٨ .

وفي الوقت نفسه فإن الأردن كان قطب الرحى في هذه الحرب ، ولا تفعل دول الجامعة العربية شيئاً يعين الأردن على فك قيوده وإطلاق يده حتى تزداد قوة جيشه ويملك كامل حريته في إدارة الحرب . فالأسافين التي دقّها الاستعمار كحدود جغرافية وهويات إقليمية مكّنت المستعمر من تسخير العقل السياسي العربي وأنظمة الحكم ، ممّا أدّى إلى التفكك العربي في أول امتحان واجهته الأمة في فلسطين ، وبالتالي إلى تشتت الأهداف أمام عدو حكم أهدافه ووسائله .

حكومة مصر لم تكن اتجاهاتها العربية واضحة واهتماماتها بالقضية الفلسطينية كانت من قبيل الاحتفاظ بزعامة المنطقة العربية والجامعة العربية، كما أن وعي الشعب المصري على النزاع العربي اليهودي لم يكن بالغا درجة الشعور بالمسؤولية القومية . وبالنسبة لمصر فإن وحدة السودان ومصر طغت على كل طموح آخر ولم تكن ترى في الكيان اليهودي المزمع إقامته خطراً كبيراً .

وحكومة العراق المتمثلة بمدرسة نوري السعيد كانت تتظاهر بالانتصار للقضية الفلسطينية مراعاة لحرارة المشاعر الشعبية العراقية ، ولكنها رهنت نفسها لحاجات السياسة البريطانية . ولذا فإن الأردن كان محروماً من السند الرئيسي في حرب فلسطين والمتمثل بالدعم المالي والعسكري العراقيين .

سوريّا كان لها وضع مختلف عن مصر والعراق ، فهو متميّز بالوعي على الخطر الصهيوني وبالحرص على سلامة الوطن الفلسطيني ، إلاّ أن قدرة سوريا العسكرية لم تكن تتكافأ مع إخلاص حكومتها . فقد حصلت سوريا على استقلالها سنة ١٩٤٥ نتيجة لدخول القوات البريطانية في حرب لطرد القوات الفرنسية التابعة لحكومة فيشي من سوريا ولبنان ، في وقت بلغت فيه انتفاضة الشعب السوري الأعزل من السلاح ذروته في مواجهة المستعمر الفرنسي .

كانت القوات السورية ضعيفة في عددها وعدتها ومختلطة مع القوات اللبنانية وخاضعة للقيادة الفرنسية حتى الاستقلال ، إلاّ أن سوريا لم تكد تلتقط أنفاسها من أعمال المستعمر ولم تكد تستقر فيها حكومة وطنية حتى قررت بريطانيا إنهاء الانتداب على فلسطين.

صارت دمشق مركز تجميع قيادة جيش الإنقاذ وتوفير ما يمكن من ضرورات القتال للجهاد المقدس ، فتواجد فيها عدد من الضباط المتطوعين العرب لتنظيم ما يمكن من جهد عربي لمقاومة القوات اليهودية قبل ١٥ أيار ١٩٤٨ . ومع أن الضباط المتطوعين من مختلف البلاد العربية ، وعلى رأسهم إسماعيل صفوت باشا من العراق ، كانوا على قدر من المقدرة العسكرية ، إلّا أنهم كانوا يتعاملون مع أفراد متطوعين مدنيين لا يتكامل مع أعدادهم مورد للمال والسلاح يكفل فعالية قتال مؤثرة . ولكن الأمر الملفت للنظر، أنّ هؤلاء المتطوعين جاءوا إلى دمشق من مختلف البلاد العربية ضباطاً وأفراداً، وتمثلت فيهم روح الوحدة العربية أكثر من تمثلها في الحكومات العربية.

والجيش السوري كما وصفت سابقاً كان ضعيفاً وغير مؤهل ، إذ لم تكن الحكومة تملك الوقت الكافي بعد الاستقلال لتكوينه بما يتناسب مع أي مهمة تخرج عن نطاق مهمات الأمن الداخلي . لذا فإن عدداً كبيراً من الضباط برتبة الملازم انخرطوا في جيش الإنقاذ .

الحكومة السوريّة ومن قبيل الدفاع عن نفسها من دعوة الملك عبد الله إلى دولة سوريا الكبرى ، ابتعدت عن الأردن وانحازت إلى معسكر يضمّها إلى مصر والسعودية سياسياً ، ولذا فإن القوات السورية حرمت من دخول فلسطين لتكون مع الأردن جبهة عسكرية تضم حتماً وبالتبعية جيش الإنقاذ .

كانت الحكومة السورية تتقي مطالبة الأردن بالوحدة بدلاً من الحوار عليها أو طرح مشروع وحدة من طرفها ، وظلّت المشكلة قائمة بين البلدين . مشكلة بين ما يطرحه الملك عبد الله من ضرورة إحياء الثورة العربية الكبرى على أساس أنه المنطلق القومي وما تطرحه سوريا بأنها الوطن الأم للأردن ولبنان . هي مشكلة الحجم وحقه في مضاهاة الثورة العربية التي ورثها الأردن وبين الحقين ضاع الحق العربي حتى أيامنا هذه .

والجامعة العربية لم تكن إلّا تكويناً يعكس المتناقضات العربية مما جعلها تقبل إرسال كتيبة سعودية واحدة إلى مصر لتشترك في الحرب بدلاً من إرسالها إلى الأردن ، حيث تفرض أي استراتيجية سليمة جمع معظم الحشد العربي على الأرض الأردنية في ما عدا القوات المصرية .

والدعاوى التي تذرّع بها الحكام العرب بأن بريطانيا تسيطر على الأردن ممّا يجعلهم يبتعدون عنه ، لا تخرج في أعظم تقدير لها عن كونها صادرة من بلاد تسيطر

عليها بريطانيا وأمريكا مهما اختلفت مظاهر السيطرة ، وفي التقدير الصحيح فهي هروب العاجز عن إسناد الحجّة والفعل .

أتمنّى أن لا يُفهم كلامي على غير الإيمان القومي والتقويم الواقعي لأوضاع القدرة العربية والقيود التي فرضها الأجنبي عليها في كل وطن عربي . كما أتمنّى أن لا يُفهم من سياقي للحقائق التي تدحض الدعاوى السياسية العقيمة بأنني أوثر الأردن بمفاخر تنبع من تفكير إقليمي .

فللأردن حقّ أضاعه العرب في الأربعينات والخمسينات ، وأمانة البحث عن الحقيقة تقتضي أن أقول إن نصف مليون أردني بقيادة الملك عبد الله ، وبالرغم من القيود البريطانية ، شرّفوا أنفسهم في ميدان القتال مع أقل الادّعاء والكلام . نحن كنّا سنة ١٩٤٨ وسنظل عرباً أقحاحاً لا نبخل بتضحية مهما عزّت ولا نحجب عن أعيننا ما يقتضيه الواجب القومي .

في حرب ١٩٤٨ ، والتي كانت مناسبة في بعض العواصم العربية للنيل منّا تورية لقصورهم ، لم نهزم في معركة وفتكنا بالعدو كما لم يفعل غيرنا . ونتائج الحرب التي تحمّلنا عبئها الأعظم تشهد أننا ، وعلى صغر شعبنا وضيق مواردنا وانعدام أي تعاطف عربي معنا ، حفظنا وبالقتال ما فشل غيرنا في الحفاظ على مثله من أرض ومقدّسات .

قبل الهدنة الأولى تركّزت عمليات القوات اليهودية على الجيش العربي ، ولسبب واضح هو الصراع على مدينة القدس ومنطقتها . أمّا منطقة الجيش العراقي فقد كانت هادئة تقريباً في ما عدا بعض اشتباكات صغيرة ، مع أن القوات العراقية كانت تزداد حجماً وبشكل سريع فضلاً عن كتائب الحرس الوطني الفلسطيني التي أحسن الجيش العراقي تدريبها لتتشكّل منها وحدات ساترة في الأمام . واستقرت القوات العراقية على خطوطها بقوة ، تنتظر أي هجوم يهودي لتجهز عليه دونما أي هجوم ذي أهمية استراتيجية من جانبها على الأراضي المواجهة لها .

وكذلك كان شأن القوات المصرية على خط المجدل إلى بيت جبرين ، وفي ما عدا عمليات تأديب للمستعمرات الصغيرة التي تركتها القوات المصرية خلف ظهرها واشتباكات في منطقة بيت لحم تكتيكية لم تجرِ معارك تُضطر القوات اليهودية إلى إعطاء الجبهة المصرية أولوية خاصة . فالجبهة بحكم مواقعها بعيدة جداً عن مناطق الكثافة السكانية اليهودية وفي المنطقة التي تكاد تكون عربية ٩٩,٩٪، بخلاف المنطقة العراقية التي تواجه منطقة حيوية يهودية تشغلها الكثافة السكانية العظمى من

اليهود، وتبعد عن الساحل في بعض المواقع عشرة كيلومترات إلى خمسة عشر كيلومتراً وعلى مقربة من الطريق الساحلي الذي يصل حيفا بتل أبيب.

قائد القوات العراقية مصطفى راغب باشا استقال وعاد إلى العراق معلّلاً سبب استقالته لضباطه بكلمة مختصرة، لا يمكنني أن أرى اللحم العربي يُشوى ولا أملك إلّا أن أتفرج. هذه الجملة تعبّر بشكل أكثر وضوحاً من الشعار الذي أطلقه أهالي نابلس (ماكو أوامر).

لعلّ الضباط العراقيين كانوا أكثر تأهيلاً عسكرياً من كل الضباط العرب بمن فيهم المصريون وهم حتماً بالِغو الكفاءة والشجاعة . فإذا ما عقدنا مقارنة للكفاءة العسكرية القيادية تقدّم الضباط العراقيون وتلاهم المصريون ثم الأردنيون ، إلّا أن الجنود وضباط الصف الأردنيين وجميعهم من المحترفين كانوا يتفوّقون على أمثالهم في الجيش العراقي والمصري بدرجات من حيث الدّربة وسرعة البديهة والفعالية القتالية.

لَوْ كان الجيشان العراقي والأردني بقيادة ضابط عراقي يخضعان لقيادة الملك عبد الله السياسية لتغيّر وجه الحرب ونتائجها ولتغيرت صورة القضية الفلسطينية ، ولكن لَوْ الصغيرة هذه كانت السر العظيم الذي عجزت الإرادة العربية عنه كما عجزت عن لَوْ الكبيرة في اتباع استراتيجية سليمة في الجهد الحربي كله.

الضباط الأردنيون كانوا يتحدثون في ما بينهم عن لَوْ الصغرى ولَوْ الكبرى يوماً أيام الهدنة الأولى ، حتى زار الجبهة جلالة الملك عبد الله يصحبه سعيد باشا المفتي وبعض الوزراء وقائد الفرقة لاش باشا . زار جلالته القدس أولاً وتحدث إلى عبدالله التلّ وضباطه وشكرهم على حسن أداءْ واجبهم في المدينة المقدسة ، ثم وقف في بيت عور التحتا عند قيادة اللواء الثالث حيث استقبلناه مع قائد اللواء أشتون، فانتحى سعيد باشا المفتي بي جانبا ليسألني « كيف الأحوال » ؟ لأجيبه لن تكون بخير طالما البريطانيون يتولون القيادة . فيلتفت جلالة الملك وكأنما قد ضاق صدره من بضع كلمات بدأ بها أشتون حديثه عن وضعية اللواء ، أين حابس ، أريد حابس ، قائد الفرقة وقائد اللواء وكأنما تلقيا لطمة لم ينبسا بشفة ، فتقدمت إلى جلالته لأدله على الطريق إلى حابس ، من عبد الله التل إلى حابس المجالي القائدين العربيين في الجيش الأردني ومن القدس إلى باب الواد .

أشرق وجه الملك عبد الله عند استقبال حابس وضباطه والجنود في خنادقهم يهتفون لجلالته ولفلسطين .

انتهت الزيارة الملكية دون الالفتات إلى ضابط بريطاني فما كان من أشتون إلاّ أن يخاطب حمدان صبيح البليوي قائلاً : الملك يريد بني حضر وهو ما يريد بني بدو . قائد اللواء ينتهز الفرصة للانتقام بخلق فتنة بين أبناء البادية وأبناء الحضر .

علت وجه حمدان صبيح صفرة وزاغ بصره وأخذ يضرب لحيته، فأدركته لأعيد صحوه إليه : يا حمدان الملك لا يريد لاش ولا أشتون ولكنه يريد العرب ، وحابس المجالي هو القائد العربي الوحيد في اللواء فهل فهمت ؟

احتضنني وقبّلني ، يا علي كثّر خيرك والله داويت وجعي ، ليش هذا اللعين قصدني من دون الناس كلهم ، لعنة الله عليه ، مو كافينا أعمالهم السيئة حتى يُكرّهوننا ببعض .

الفتنة التي حاولها أشتون لم تعش لحظات ولكنها أصبحت حديث الجميع في قيادة اللواء، وعند أول فرصة لاحت انتقم منه بنو بدو وبنو حضر كما سيرد بعد حين.

انتهت الهدنة الأولى في ١٩٤٨/٧/٩ والقدس هادئة إلا من أعمال القناصة وتحرشات غازي الحربي باليهود في منطقة المتحف رغم الأوامر المتتابعة الصادرة إليه من قائد الكتيبة القائد نيسومن وجواب غازي لا يتغيّر : الله اكبر ، أشوف اليهود وأسكت ، لعن الله أبوهم وأبو الإنجليز الخوانين . وكذلك منطقة باب الواد هادئة نسبياً فالكتيبتان الثانية والرابعة في مواقعهما ، والكتيبة الأولى انتشرت على خط طويل على يمين قيادة اللواء من بيت صفافا حتى لامست منطقة القوات العراقية .

استئناف الحرب بعد الهدنة الأولى

كما يمكن أن يتصور القارىء ، كانت الهدنة فرصة لليهود في فلسطين وللصهيونية العالمية وأنصارها كافة ، من أمريكان ودول أوروبا الغربية والشرقية والاتحاد السوفييتي، لإمداد الجيش اليهودي بالمتطوعين واستيراد السلاح بكميات كبيرة . هذا بالإضافة إلى إتاحة الوقت لإعادة تنظيم هذه القوات في تشكيلات عسكرية منتظمة زادت القدرة اليهودية إلى درجة لا يُستهان بها.

بالمقابل ازداد الحشد العراقي بما أوصل قواته إلى خمسة جحافل ألوية ، ودأب الأردن على تشكيل كتائب جديدة بحيث اكتملت واحدة منها تدريباً وتجهيزاً في فترة الهدنة وهي الكتيبة الخامسة ، وبذلك بلغ عدد كتائب الجيش العربي ست كتائب مشاة مسنودة تكمل لواءين .

ومع أننا لا نعلم بالدقّة عن ازدياد الجيش المصري ، ولكن التقدير يجعله قريباً

من خمسة ألوية مسنودة ، بينما لا نعرف الكثير عن الجيش السوري الذي خرج من المعركة نهائياً .

أُرسلت سرية المشاة الخامسة بقيادة الرئيس أديب القاسم ، بعد إعلان الهدنة الأولى ، إلى مدينتي اللد والرملة لتعزيز قوات المناضلين الفلسطينيين ، والبالغة مئة مناضل بقيادة المهندس كاظم بدوي وقوات المناضلين الأردنيين البالغة ما ينيف عن مئة من المتطوعين من أبناء القبائل البدوية ، وأبرز قادتهم الشيخ فضيل الشهوان .

وأرسلت قيادة الفرقة الملازم الأول برومج ، يساعده الملازم الأول نايف الحديد ، على رأس دورية مقاتلة مهمتها استطلاعية لتجوب المنطقة بين اللد والرملة وبين جمزو وسلبيت والبرج وبير ماعين ومراقبة الحركات اليهودية . هذه القوة تشكلت من فئة مدرعات وفئة مشاة قوية ، وقد خرجت عن مهمتها الاستطلاعية ، فهاجمت مستعمرة بن شمن وقضت على قوة الدفاع فيها وتعرضت لقوافل تسير بين صرفند ومنطقة القباب ممّا حرم على القوات اليهودية من أي حركة في تلك المنطقة .

اعتبرت قيادة الفرقة أن هذا التصرف خروج على أوامرها ، وكلّفت قائد اللواء الثالث القائمقام أشتون باستدعاء القوة وإلغاء مهمتها وتوبيخ قائدها ومساعده ، وتهديد الملازم البريطاني برومج بإعادته إلى الجيش البريطاني لمحاكمته .

إن ما قام به برومج ونايف الحديد كان عملاً عسكرياً صحيحاً ، ولو سمح لهما بالاستمرار فيه لكان ذا تأثير على الخطط اليهودية المقبلة ، والتي سيأتي ذكرها في سياق الحديث عن اللد والرملة واللطرون .

من الملاحظ أن القارىء لا يجد في مذكراتي عن الحرب تسجيلاً للوقائع الحربية عن كل المعارك التي خاضها الجيش العربي ، كما لا يجد تفصيلاً كافياً لكل معركة . وقصدتُ من هذا الاختصار أن أتعرّض للحركات العسكرية ذات العلاقة باستراتيجية الحرب ونتائجها ولي في ذلك عُذر ، إبعاد القارىء المدني عن الملل من قراءة مسائل تهمّه ولكنه غير خبير بها ، أو في أماكن القتال الذي دار وهي في كثير من الحالات أسماء قرى لا يعرفها إلّا الفلسطينيون والعسكريون الذين حاربوا .

من أهم الأسئلة التي طُرحت سنة ١٩٤٨ كانت سقوط اللد والرملة بعد انتهاء الهدنة الأولى والتي أعتَبِرُها مأساةً ، أدّى إليها توافق الأهداف اليهودية مع التواطؤ البريطاني والذي يظهر جلياً واضحاً في سير الأحداث والحركات العسكرية التي رافقت سقوط المدينتين .

من المعروف أن الجيش اليهودي والجيش الأردني التزما بوقف إطلاق النار في مدينة القدس وضواحيها وفي باب الواد . ومن المعروف أيضاً أن عناية هيئة الأمم المتحدة ، وخصوصاً بعض الدول الأعضاء من الغرب ومنها أمريكا وبريطانيا وفرنسا ، كانت تضغط باستمرار على الجيش العربي وقيادته لغرض ضبط النيران في مدينة القدس بشكل خاص . ولمّا كان الملازم غازي الحربي متمرداً على هذه السياسة ، فقد نقلته القيادة وسريته إلى شمال الجبهة الأردنية وعلى مقربة من الطرف الجنوبي من القوات العراقية .

وضباط الجيش الأردنيون لم يكونوا يعلمون الهدف من تهدئة القتال في مدينة القدس ، والذي كان يمكن أن يكون لصالح العرب لو تجدّد فيها القتال ، وخصوصاً أن قوة الجيش ازدادت بالكتيبة الخامسة المشكّلة حديثاً واقتراب الانتهاء من تشكيل الكتيبة السابعة .

هذه الزيادة كانت تُعطي الجيش الأردني ثلاث كتائب مشاة قادرة على التحرّك في أي اتجاه ، على اعتبار أن الكتيبة الأولى كانت منتشرة في شمال القدس بدون أي مهمة تتجاوز الحاجة إلى أكثر من سرية واحدة .

سقوط اللد والرملة

في صباح يوم ٩ / ٧ / ١٩٤٨ تحرّكت قوة يهودية قوامها لواء قادم من شمال المدينتين ولواء آخر من جنوبهما باتجاههما. بدأ هجوم قوات اللواءين الرئيسية على مدينتي اللد والرملة يوم ١٩٤٨/٧/١٠، واللّتين يرابط فيهما مئتا مناضل أردني وفلسطيني وسرية المشاة الخامسة ، وتقاتل هذه القوة المهاجمين على طرف سكة الحديد وتضطر جميعها إلى التراجع إلى منطقة مركز بوليس اللد والتجمع فيها أمام التفوق العددي اليهودي العظيم . وقد تفوّق كل من كاظم بدوي والشيخ فضيل الشهوان وقائد إحدى فئات السرية الخامسة سليمان الشرمان في مواجهة الهجوم وبتوجيه قائد السرية أديب القاسم ، بحيث أعاقوا الاحتلال معظم ساعات النهار وتمكن اليهود في آخر النهار من احتلال المدينتين في ما عدا منطقة مركز البوليس المذكور .

جلوب باشا أصدر الأوامر التالية صباح يوم الهجوم اليهودي :

١ - انسحاب السرية الخامسة ليلاً عن طريق دير طريف .
٢ - تبديل كتيبة المشاة الأولى في شمال القدس بالكتيبة الخامسة .
٣ - تحريك الكتيبة الأولى للانتشار ما بين قرية صفا شمال قيادة اللواء الثالث وقبية .

٤ - مهاجمة دير طريف وطرد القوات اليهودية منها لتسهيل انسحاب السرية الخامسة من مدينة اللد . وكان اليهود احتلوا دير طريف أثناء التقدّم على المدينتين لحماية جناح هجومهم الأيسر من أي تدخل من الجيش العربي .

الرئيس أديب القاسم اختار طريقاً آخر للانسحاب لسريته وللمناضلين بأن تسلّل ليلة ١١ / ٧ من اللد متجهاً إلى شمال قرية جمزو وبرفيليا إلى مثلث بيت سيرا ، حيث أمره قائد اللواء الثالث بالتمركز على المثلث وحمايته ، مُعزّزاً بذلك حماية قيادة اللواء .

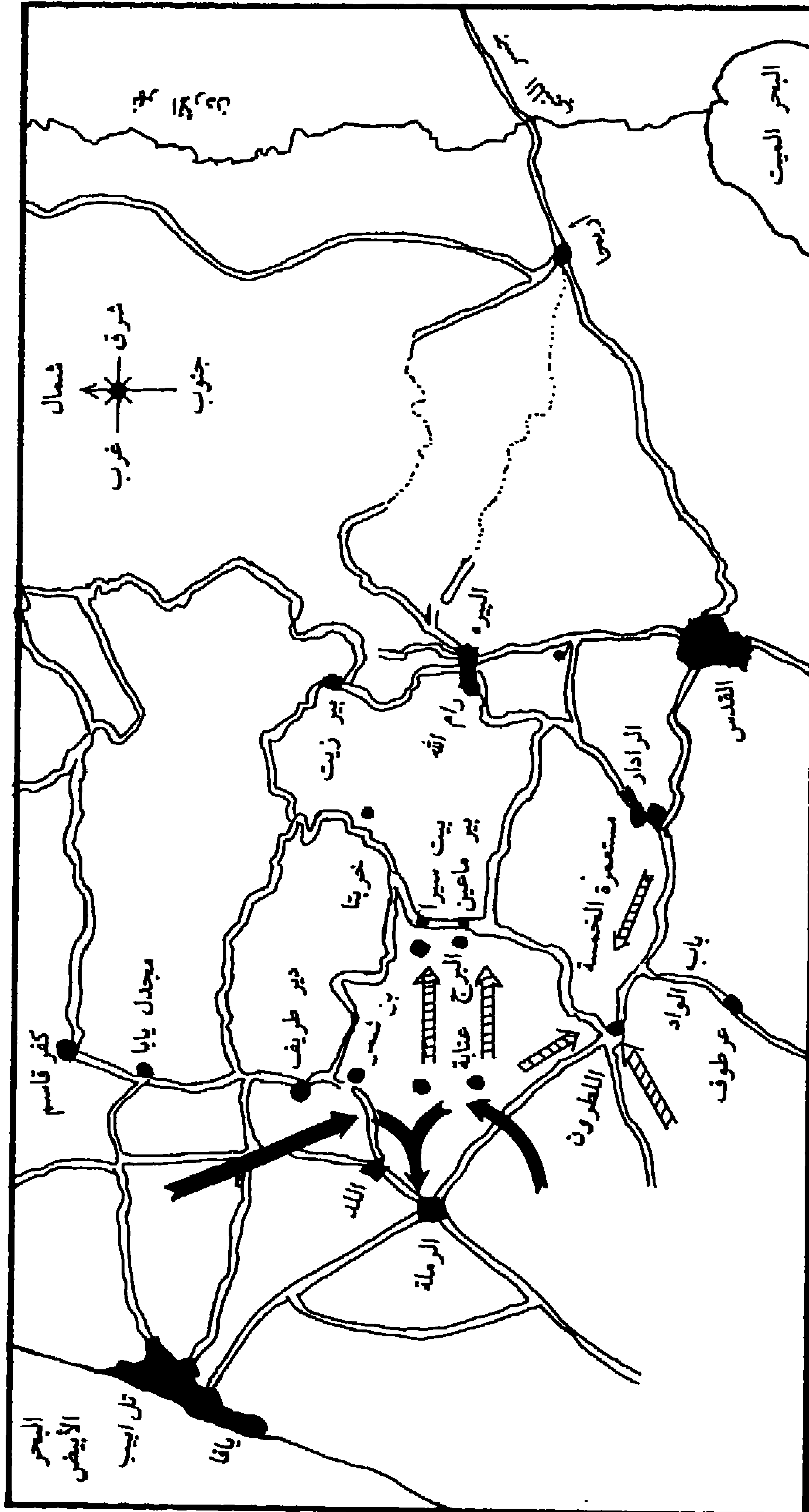
الكتيبة الأولى اختارت سرية مشاة يقودها الملازم عبد الله فلاح لمهاجمة دير طريف التي أشغلتها سرية يهودية متخندقة . تقدّم عبدالله جنوده من قبية حتى اقترب من دير طريف من ناحيتها الشرقية ، وبعد الكشف نظّم سريته للهجوم بإغارة خاطفة اختلط فيها الجنود الأردنيون باليهود في قتال شرس انتهى بانتصار عبد الله وجنوده ومقتل معظم السرية اليهودية وفرار عدد قليل منهم . وفي آخر لحظة من القتال أصابته رصاصة وسقط شهيداً مع عدد من جنوده .

كان عبد الله أسود اللونِ ، أبيض الفِعَال . ولستُ أدري إن كان من المناسب أن أروي ممازحة زملائه له قُبيل دخولنا فلسطين بقولهم له : أنتَ يا هالعبد متُحمِّس ، مالك ومال الحرب . الحرب يخوضها الحُرّ . فيجيب عبد الله : عند الواقعة فِعل الرجل يظهر من هو الحُرّ . رحمه الله فقد شرّف الأحرار بشجاعته وإخلاصه .

هكذا سقطت اللد والرملة ، وأخذت القوات اليهودية تنتشر شمالاً وشرقاً في المناطق الخالية إلاّ من أهل القرى ، وهذا ما صادفه غازي الحربي وهو يمرّ بجوار قرية المدية ، حيث شاهد سرية يهودية تحفر الخنادق على إحدى التلال ، فسأل أحد القرويين عن هوية أولئك فأجابه بأنهم جنود يهود . أوقف غازي السرية عن السير إلى مركزها الموفدة إليه جنوب القوات العراقية ، وأمر جنده بالهبوط من السيارات وإخفاء أنفسهم وسياراتهم شرق الطريق ، ثم سار في وادٍ منحنٍ يوصله إلى جوار القوة اليهودية وأغار عليها .

غازي الحربي بطل من فرسان العرب اعتبر هذه المهمة نزُهة بالنسبة لغارته على كنيسة النوتردام في القدس ، وما إن انقضّ على القوة اليهودية حتى فتك وجنوده بهم وأبادهم عن بكرة أبيهم-وألقى بجثثهم في بئر مهجور واستمر في طريقه إلى مركزه الجديد .

في اليوم التالي ادّعى اليهود أن غازي الحربي سكب البنزين على الجثث في



خريطة رقم (٥) الهجوم اليهودي على اللد والرملة وشرقهما.

محاور التقدم على اللد والرملة.

محاور التقدم على خط البرج وبير ماعين ثم على مواقع الجيش العربي في اللطرون وباب الواد يوم الهدنة الثانية.

البئر وأحرقها ، فنقلته قيادة الجيش إلى الزرقاء ليقبع في بيته دون قيادة أو مسؤولية . اعتبر غازي أمر جلوب باشا هذا خيانة فاستقال فوراً وعاد إلى قبيلته حرب في السعودية ، وظل هنالك حتى عيّنه الملك سعود قائداً للحرس الملكي في الرياض .

سرية المناضلين الفلسطينية وقائدها كاظم بدوي تمركزت في منطقة بدرس ، واتفق مع الجيش الأردني على الالتحاق بإمرة الجيش ومُنح رتبة رئيس فخري . أما المناضلون الأردنيون فعادوا إلى المواقع الخلفيّة وتوزعوا بين القدس وباب الواد .

القوات اليهودية اندفعت وبسرعة تفتك في أبناء المدينة الشبان وتُرعب الأطفال والنساء ليخرجوا لا يلوون على شيء إلاّ السلامة . لا يحملون خبزاً أو ماء حتى سقط عدد من النساء خوفاً وظمأً وإعياءً . والأطفال الصغار ينال منهم الحر كما تجهد أذرع أمهاتهم من حملهم ، ولا يلبثن أن يكتشفن أن الأطفال ذهبوا في نومة أبدية فتصيبهن نوبات الغضب واليأس والهلوسة مع البكاء .

ويكون سباق بين الخارجين على عجل من اللد والرملة والغزاة يلاحقونهم بالرصاص حتى بلغ المهاجرون مثلّث بيت سيرا ، فوج يتبع فوجاً .

كان اليوم الثاني عشر من تموز يوماً كريهاً ارتفعت فيه حرارة الطقس ارتفاعاً شديداً ، وغدا لون السماء رمادياً قاتماً ، وسكن الهواء حتى يكاد الاستنشاق ثقيلاً . وغطّى وجوه الجنود الكدر والغيظ وهم يقدمون الماء للعطشى من الأطفال والنساء والشيوخ المتعبين . وقد كنت من بين الذين يساعدون أفواج اللاجئين في ركوب حافلات الجيش لنقلهم إلى منطقة رام الله ، نتلقى البركة من امرأة والشتائم من أخرى بين هرج وبكاء النساء والأطفال وكأننا في صبيحة يوم الحشر .

دموع الجنود النشطين في حركتهم لمساعدة اللاجئين والألم يرسم وجوههم وقد هالتهم فداحة الكارثة المتمثلة فيمن تركوا لوحشية العدو الغازي ، أضافت إلى الصورة كآبة تزيدها صرخات النساء المفجعة وعويلهن في ندب أولادهن وبيوتهن .

تقلّصت الدنيا والحياة في ذلك اليوم لتنحصر في مثلث بيت سيرا وتمثل التعاسة والأسى بما لا تكفي الكلمات لوصف الفاجعة التي ملأت سماء وهواء وأرض مثلث بيت سيرا ، وكأن وجه الله الغاضب أطل عليها نذيراً .

ليس من سَمِعَ كمن رأى . العرب سمعوا ولكنهم لم يروا ، والجيوش ربما سمعت يومها ولكنها لم تشهد حرائر العرب وقد فقدن الوعي على الحياة وذهبن في هلوسة ترتفع حتى السماء ، لا يقدرن على النهوض بعد أن أجهدهن الضرب في الأرض

الخشنة . أقدامهن مُقرّحة وأيديهن خاوية وأذرعهن أدركها الكلل من التناوب على حمل الصغار ، وليس فيهن إلاّ ألسنة لا تسكُت ورؤوس أفزعها الرُّعب، يستمطرن غضب الله على الدنيا ويصبُبْن لعناتهن على من حولهن تارة ويَدْعنّ بالرضا على من يركبهن الحافلات تارة أخرى .

هذا وقيادة الجيش وعلى انتظار ما حدث تجمع الخبز والطعام في رام الله لتوزيعه على القادمين ، في حين استنفر المواطنون في رام الله والقدس ونابلس بدافع خسارة المدينتين « اللد والرملة » وشكوكهم في نوايا القيادة البريطانية . وفي عمان ثار الجدل بين الحكومة وجلوب باشا الذي ما فتىء يسوِّغ عدم الدفاع عن اللد والرملة لطول خطوط الجيش وصغر حجمه ونقص الذخيرة ، وهي الأسطوانة التي عاش ومات وهو يكررها دون أن يتمكّن من إقناع أحد بدءاً بالملك عبد الله وانتهاءً بأصغر جندي في الجيش.

جلوب باشا يقول في مذكراته إنه قال لرئيس الوزراء توفيق باشا أبو الهدى ثلاث مرات ، وفي مناسبات مختلفة أثناء الهدنة الأولى ، إنـه لن يكون قادراً على الدفاع عن اللد والرملة وإن رئيس الوزراء وافقه في نهاية المطاف على ذلك ، ولكن توفيق باشا كان قد انتقل إلى رحمة الله ولا يملك أحد أن يصدق جلوب باشا في ما أورده . فضلاً عن ذلك فإن أحداً لم يكن يرى المدينتين مهدّدتين أثناء الهدنة الأولى ، إلاّ أن جلوب باشا الذي اكتفى بإرسال سرية مشاة واحدة للتظاهر بها إلى اللد والرملة في حين نشر الكتيبة الأولى بين اللواء الثالث والجيش العراقي ، بدون أي مهمة كانت، كان بلا شك يعلم شيئاً . ومنطقة انتشار الكتيبة الأولى تفصلها عن العدو مسافة كبيرة كما لا يهدد جناح الجيش العراقي الأيسر أي تحركات يهودية .

لو أن جلوب باشا ركّز الكتيبة الأولى بإسناد معقول مع السرية الخامسة وسرية أخرى من سرايا الحاميات في اللد والرملة لما تمكّن العدو من دخول المدينتين ، فضلاً عن أن إشغالهما يغلق الفجوة بين الجيشين العراقي والأردني بفعالية أكبر ويُقصّر خطوط الجيش الأردني بكيلو مترات عديدة .

القيادة البريطانية أُجبرت بقرار جلالة الملك عبد الله على دخول الجيش مدينة القدس واحتلال القسم القديم منها ، ثم احتالت للتوقف في القدس بعملية الكتيبة الثالثة المُبتسرة وبمخادعة مفضوحة خطّطت لضياع مدينتين مهمتين تمهيداً لكارثة أخرى .

في المملكة شرق النهر، وفي ما عُرف، في ما بعد، بالضفة الشرقية، دُمغت

بريطانيا ومُنفِّذ سياستها جلوب باشا بالتواطؤ مع الأهداف اليهودية . والملك وحكومته أدركوا أن ما حدث كارثة تنذر بخطر أعظم ، فاتسعت شقة الخلاف مع قائد الجيش الذي كان يؤكد إخلاصه وولاءه للملك ولم يستطع تكوين أي قناعة .

ليس هذا فحسب ، ولكن الاندفاع اليهودي الذي لم تُجد أمامه أية مقاومة عاد واحتلت قواته دير طريف بعد أن أُمرت سرية الشهيد عبد الله فلاح بالانسحاب وكذلك بيت نبالا والحديثة وبن شمن وجمزو وعنابة وبرفيليا خلال يومي ١١ و ١٢ / ٧ / ١٩٤٨ ، وسلبيت وعجنجول وجميعها قرى تقع شرق وجنوب شرق اللد والرملة . وهكذا أصبحت الطريق بين بيت سيرا وباب الواد وهي طريق مواصلات اللواء الثالث مع كتائبها مهدّدة بالقطع .

قبل احتلال المدينتين كان باستطاعة جلوب باشا أن يدفع الكتيبة الأولى وسرية غازي الحربي وبعض سرايا الكتيبة الخامسة ، إذا احتاج الأمر للقضاء على القوة المهاجمة بدل بعثرة الجهد العسكري دون مبرّر .

وبعد احتلال اللد والرملة كان بإمكان قائد الجيش أن يعيد انتشار قواته بما يوقف اليهود عند حد احتلال المدينتين ، وذلك بالتمركز على خط مواجهة محاذٍ لليهود ، ولكن القيادة البريطانية لم تحرك ساكناً واندفع اليهود وبدون أي عائق حتى وصلوا بقواتهم إلى قرية البرج وبير ماعين يوم ١٦ / ٧ ، وهدّدت بالإشراف المباشر على طريق بيت سير ـ باب الواد وهو خط المواصلات للكتيبتين الثانية والرابعة . وتحركت قوات يهودية نحو خراب اللحم من الشرق وأخذت تتغلغل حتى هدّدت الطريق الترابية الخلفية الموصلة بين قيادة اللواء . والكتيبتين ، وبهذا أصبح الطوق اليهودي شبه كامل على اللواء كله وجعل الطريق إلى رام الله شبه مفتوحة أمام اليهود .

وفجأة تمرّدت الكتيبة الأولى وطردت قائدها البريطاني وتبعها تمرّد قيادة اللواء الثالث على قائد اللوء. قائد الفرقة أعاد قائد الكتيبة الأولى مع خطة هجوم على محور دير طريف بيت نبالا لاستعادة ثقة الكتيبة ولكن دون هدف واضح : مجرد هجوم بسرية مشاة هدأت فورة الدم بانتصار ساحق على سرية يهودية .

أمّا ما حدث في قيادة اللواء فكان غريباً ، إذ حاول قائد اللواء أن يتكلّم مع جنوده وضباطه ولا يجد فيهم من يحدثه أو يحيّيه ، فيلجأ إليّ ليشرح أن ما حدث كان طبيعياً وأنه يريد أن أجمع ضباط وأفراد القيادة وسرية المدرعات وفئة القيادة والمشغل وفئة اللاسلكي ليشرح لهم الوضع العسكري .

جادلته وجادلني في جدوى الكلام بعد الكارثة وما ننتظره من تطويق يهودي

كامل للواء وانفتاح طريق رام الله للعدو . ويطرح خطته لانسحاب الكتيبتين من باب الواد للدفاع عن رام الله عند أول هجوم يهودي، بما في ذلك من تدمير مدافع الهاون والمدافع المضادة للدبابات وبطارية مدفعية الميدان قبل الانسحاب.

يقول أشتون : لا قبل لنا وحدنا بمحاربة ثلاثمئة ألف يهودي يواجهوننا ومن خلفهم البحر المفتوح لإمدادهم بالسلاح والذخيرة من كل العالم ، ولا بد من إنقاذ الجيش الأردني ليحارب في معركة أخرى على جبهة أقصر ، «أن من واجبه أن يُفهم قيادة اللواء بما سيكون لعلّهم يفهمون المشكلة وإنني أريد إنقاذهم وإن وحدات اللواء . ويضرب أشتون مثلاً انسحاب القوات البريطانية في دنكرك في الحرب العالمية الأولى وما إلى ذلك من ضرورات الحرب .

قلت له : سيرفض الضباط والجنود جميعاً خطتك وسيصرّون على القتال ، والأوْلى بنا أن نطرد اليهود من خط البرج وبير ماعين وعجنجول قبل أن يُحكم اليهود الطوق ونحن قادرون على ذلك . إلاّ أنه أصر على التحدث إلى أفراد قيادة اللواء في حين لا يعلم حابس المجالي في الكتيبة الرابعة وعكاش الزبن في الكتيبة الثانية شيئاً عمّا تنويه القيادة البريطانية .

جمعت قيادة اللواء ووقف القائد على سلسلة من الأحجار ، وما إن فاه بأول جملة حتى هجم عليه الجنود وأشهروا أسلحتهم بوجهه ، وولى أشتون هارباً إلى سيارته متجهاً إلى قيادة الفرقة في رام الله .

طلبتُ من الضباط أن يعودوا وجنودهم إلى مراكزهم ، وكلمتُ حابس المجالي وأوضحت له خطة قائد اللواء للتخلي عن باب الواد ، وأنها تنطوي على جريمة جديدة . وكذلك كلّمت محمود الروسان أركان حربه ، حابس قال : نموت في باب الواد ولا ننسحب متراً واحداً . فطلبت إليه أن يسلّم الكتيبة إلى عزت حسن ويأتي لقيادة اللواء ، فرفض أن يترك كتيبته قائلاً ، أنا مع ضباطي وجنودي وأنت تتولى تنسيق العمليات في قيادة اللواء ، ثم كلّمت عكاش الزبن وشرحت له الوضع وبدوره كرّر لي استحالة الانسحاب .

أخذ الملازم محمد علي الأمين يكدّس صناديق الذخيرة على خنادق فئة اللاسلكي ومشاغل اللواء وفئة الدفاع في قيادة اللواء ويصبح نحن لها ، وأديب عمر وكاظم موسى ينتقلون من خندق إلى خندق، وأنا وحمدان البليوي نتباحث في أحسن إمكانية لاستخدام سرية المدرعات لصد الهجوم المُنتظر على قيادتنا من البرج وبير ماعين والتي قدّرنا أنها ستكون بقوة كتيبة مشاة مسنودة بالمدفعية . هذا بينما أرسلنا فئة

مدرعات لتتمركز بين بيت سيرا وفئة المدفعية لتلقي الصدمة عنها وستر الطريق الموصل بين بيت سيرا وبير ماعين .

صار العصر والشمس مالت نحو الغرب، وإذا بجلوب باشا وقائد الفرقة لاش وقائد اللواء يصلون إلينا . يتفحّص جلوب الوجوه ويُمعن النظر في حمدان البليوى وفيّ فلا يجد ترحيباً . ويبادرني قائلاً : ماذا ترى يا علي ؟

قلت نجمع سريتين مشاة وسرية مدرعات حمدان وبإسناد مدافع مضادة من اللواء ونهاجم البرج فجر الغد . قال : لا ، نُهاجم الآن . قلت : كيف والشمس في عيوننا عند مغيب الشمس . ولكنه أصرّ على الهجوم فوراً قائلاً: لا أضمن أن لا يهاجم اليهود قيادتكم هذه الليلة . ناقشته أن تجمّع قوة الهجوم الليلة باكراً في منطقة صفا وبيت سيرا سيدفع عن اللواء فضلاً عن أن العدو سيُصاب بخسارة ونلاحقه فجراً وهو منُهك قبل أن يعيد تنظيم قواته ، ولكن جلوب باشا أصدر أمره لقائد اللواء بتنفيذ العملية .

في خلال ساعتين كانت سريتان من الكتيبة الثانية بقيادة رفيفان خالد ومحمد كساب وسرية مدرعات اللواء بقيادة حمدان صبيح ، وفئة مدافع ستة رطل بقيادة حيدر مصطفى والذي اختاره الميجور لوكت قائد الحملة مساعداً له تنتظم لهجوم سريع على قريتي البرج وبير ماعين .

هذا وقد حدّد قائد اللواء لقائد فئة مدفعية الميدان ستين طلقة فقط لإسناد الهجوم .

قرية البرج بُنيت على تلة عالية وقد تلاصقت بيوتها وضاقت الدروب فيها بحيث لا تسمح للسيارات بالمرور داخلها ، وتشرف على منطقة سهلية من حولها إشرافاً كاملاً ، وظهرت اسماً على مسمّى ، وعلى تلة جنوبها تشكل طرف السرج المنخفض تقع قرية بيرماعين التي لا تضاهي البرج بمناعة موقعها .

تقدّمت القوة وفي مواجهة البرج ثم انحرفت سرية المدرعات جنوباً لتتوسط السهل بين القريتين ، فتسلّط نيرانها على القوة اليهودية المتمركزة في البرج وتسكت نيران المتمركزين في بير ماعين . وسرعان ما بلغ المشاة أطراف البرج ليتلقوا نيران كثيفة من الأسحلة الخفيفة ومدافع المورتر والمدفعية تصيب العشرات بمقاتل أو جروح إلى أن تمكّن حمدان صبيح من تدمير مدافع المورتر والتغلّب على المقاومة المواجهة له .

لم يتوقف رفيفان ومحمد كساب وجنودهما بالرغم من كثرة الإصابات ، وأعمل حيدر مصطفى مدافعه المضادة للدبابات في تحصينات الرشاشات المعادية ، وسرعان ما تسلّق مشاتنا قرية البرج وطردوا المحتلين ليتولى أمرهم حمدان صبيح من الخلف ولسان حالهم يقول أنج سعد فقد هلك سعيد ، وسقطت القريتان بيد قوتنا المهاجمة ولكن بعدد كبير من الجرحى والقتلى .

وكانت خسائر العدو أضعاف خسائرنا حيث انفرط عقدهم وأصابتهم الفوضى وغدوا فريسة لقواتنا التي استبسلت وأيّما استبسال ، فأطفأوا ما أشعلته كارثة اللد والرملة في قلوبهم من غليل ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى حديث المدينتين .

إن هجوم سريتين من المشاة وسرية مدرعات وإسناد مدفعية أوقفت على ستين طلقة على قوة تقارب الكتيبتين متخندقة يعتبر عملاً عسكرياً نادراً ومثلاً على شجاعة فريدةوإيمان مطلق بالجهاد . الضباط وضباط الصف والجنود لم توقفهم جروح عن المثابرة طالما لم توقعهم وتحجزهم عن الحراك .

مثل يجدر بالجند أن يذكروه عندما أُصيب سائق مدرعة حمدان صُبيح برصاصة أطارت عينه اليمنى ولم يعد يملك وعيه كاملاً وحمدان يركله في ظهره لفقدانه القدرة على التحرك في الاتجاهات التي يأمره بها ، السائق لا يرى وحمدان لا يرحمه وما علم بإصابة سائقه ، وقُبيل انتهاء المعركة بالنصر تنفجر قنبلة مورتر في مقتل من المدرعة يحمل أفراد السرية المجاورين حمدان وسائقه وقد أصيب حمدان بكسور في ضلوعه ورجليه وهو يصيح آتوني بالسائق كي أذبحه حتى أبلغوه بأمر السائق .

صدر أمر غريب من قائد اللواء للقوة بمغادرة البرج وبيرماعين وعودة القطعات إلى كتائبها في باب الواد وقد قاربت الساعة العاشرة ليلاً فانسحبت تحمل جرحاها وقتلاها . وامتلأت أرض قيادة اللواء بالجرحى وبدأ الدكتور سعيد النجار وثلاثة من ممرضيه بالإسعافات الأولية وتحويلهم إلى مستشفى الميدان .

إذا كانت معركة البرج لم يستثمرها القائد أشتون بدفع الكتيبة الأولى فوراً للانطلاق خلف القوات اليهودية المهزومة لإبادتهم وسد طريق العودة عليهم إلى اللد والرملة على الأقل ، فإن العسكرية كانت تقضي ببقاء قوتنا في قريتي البرج وبير ماعين وإعادة تشكيل خطوطنا بين البرج وباب الواد .

كان واضحاً أن القوات اليهودية ، التي استحال عليها زحزحة الكتيبتين في باب الواد ، قد أُعيد تنظيمها لتهاجم اللد والرملة ثم التقدم لتطويق الكتيبتين والتقدم نحو رام الله . وكان واضحاً أن منطقة القتال في باب الواد قد خلت من قوات يهودية ذات

بالٍ ، وبالتالي فلم يكن مبرِّر للانسحاب من البرج وبيرماعين وعودة السريتين إلى باب الواد .

إنه لمن دواعي الاستنتاج بأن جلوب باشا وأعوانه لم يتوقّعوا نجاحاً للهجوم الذي لم تتوفر له أصلاً فرصة الوقت المناسب فضلاً عن غياب التكافؤ بين حجم القوة الأردنية المهاجمة والقوة اليهودية المدافعة . وكانت نتيجة المعركة مذهلة لقائد اللواء نفسه الذي كان يكلّم نفسه بقوله : لا أعرف كيف فعلوها . . لا أعرف كيف فعلوها .

بعد منتصف الليل سمعنا أصوات رشاشات في البرج بينما كنّا نستلم في قيادة اللواء التقارير عن القتلى والمفقودين من الكتيبة الثانية التي عادت إليها سريّتاها واستغربنا ذلك . ولم تطل استفساراتنا إذ تحققنا أن اليهود عادوا من جديد لاحتلال البرج وبير ماعين ليواجهوا ضابط صف وسبعة جنود تجاهلوا أمر الانسحاب وقاتلوا القوات اليهودية العائدة حتى استشهدوا جميعاً .

ولما كان انسحاب قواتنا من البرج ليلاً فقد تركوا بعض الجرحى المصابين في أول مراحل الهجوم عند سفح القرية ، وكلف الملازم حيدر مصطفى مع حظيرة من الجنود ومدرعة خفيفة في صباح اليوم التالي للبحث عنهم .

وقد أثبت هذا الضابط رباطة جأش نادرة ، إذ جمع الجرحى تحت وابل من النار صبته القوة اليهودية ، وليس له ما يحميه إلاّ تلك المدرعة الخفيفة التي أعطبها اليهود في نهاية الأمر ولم يترك حيدر مصاباً واحداً في أرض المعركة إلاّ وأعاده معه .

معركة البرج شأنها شأن معركة النوتردام تظهر وكأنها معركة محدودة الموقع والهدف ، ولكنها في الحقيقة ذات أهمية تتعدّى التصوّر البسيط . فبينما هذه تمثل هزيمة يهودية كان بالإمكان استثمارها حتى إلى استعادة مدينتي اللد والرملة ، مثلما مثلت معركة النوتردام وميشيرم إمكانية إسقاط القدس كلها في أيدينا لو عزّزنا ذلك الهجوم باندفاعة ثانية .

ومع ذلك ، فإن ضحايا البرج وبيرماعين كانت ثمناً لإنقاذ اللواء من طوق يهودي مؤكد ودفعاً عن منطقة رام الله من الاحتلال .

ولم يمر الانسحاب من البرج وبيرماعين دون آثار ، لأنه أصبح الحديث الدائم اليومي بين الضباط والأفراد ، وكان الإجماع بأن القيادة البريطانية أرادت انسحاب اللواء لفتح مضيق باب الواد إلى القدس تحت ضغط الطوق اليهودي المنتظر دون محاولة كسر الطوق .

دير طريف
الرملة
(١)
بدرس
دير قديس
بن شمن
اللد
خربتا المصباح
حمزو
الرملة
(٣)
صفا
(٢)
البرج
رام الله
عنابة
(٤)
بيت سيرا
بير ماعين
سلبيت
عجنجول
بيت نوبا

(١) هجوم الجيش العربي على دير طريف بعد احتلال الرملة واللد مباشرةً.
(٢) الهجوم اليهودي المتّجه نحو صفا.
(٣) هجوم الجيش العربي المعاكس لهجوم اليهود على صفا.

خريطة رقم (٦)

ويظهر أن اليهود تصوروا وجود قوات أردنية لم يعرفوا بها نتيجة لهجوم الجيش وطردهم من البرج وماعين وقد هزتهم الهجمة وأفقدتهم قوة الزخم والمعنويات، فاكتفوا بالقعود في القريتين.

نأتي هنا لمناقشة منطق القيادة البريطانية الذي عبّر عنه قائد اللواء قبل هروبه من وجه غضبة أفراد قيادة اللواء.

ملخّص الطرح هو أنه لا مناص من الانسحاب من باب الواد والتمركز في خط مستقيم بين بيت عور الفوقا وخراب اللحم وذلك لغرضين:

أولاً: إنقاذ اللواء بأفراده وأسلحته الخفيفة من أسر مؤكّد أمام الاندفاع اليهودي العظيم من اللد والرملة، والذي يمثل احتياط القوات اليهودية كلها على طول مناطق القتال العربية.

ويقدر قائد اللواء أن هذه القوات تبلغ ثلاثين ألف جندي من مجموع الجيش اليهودي البالغ مئة وعشرين ألفاً نظاميين وثلاثمئة ألف بين نظامي وحرس مستعمرات.

ثانياً: إن تقصير الخط الأردني بالتخلي عن الجيب الذي يحتلّه اللواء الثالث الأردني في باب الواد، سيعطي الجيش الأردني قدرة انتشار مكثّفة على الخط الجديد ويمكّنه من فعالية دفاعه بشكل أكبر.

المنطق الذي تسوقه القيادة البريطانية سليم عسكرياً إذا صحّت معطياته، ولكن سير الحرب كذّب كل المعطيات تلك. إذ لو صحّ أن القوات اليهودية النظامية بلغت مئة وعشرين ألفاً لأغرقتنا بهجوم مركّز واحد في باب الواد ومحور رام الله وحتى مدينة القدس ولمسحتنا من على خريطة فلسطين. ذلك لأن تلك القوات اليهودية كان يمكن لها أن تشاغل القوات العراقية والمصرية بنصفها، وتفرقنا بالنصف وتبيد قواتنا غرب القدس ورام الله إبادة كاملة.

ولكن على العكس من ذلك فإن القوات اليهودية لم تستطع إلاّ أن تُجمّد جهدها في باب الواد والقدس والجبهة المصرية نسبياً وتحشد احتياطها كله على محورين:

أ - محور اللد والرملة بقوة أقصاها لواءين اندفع ما يقارب الكتيبة منها إلى البرج وبيرماعين وما يقارب كتيبة إلى كولا وبيت نبالا ودير طريف، وباقي اللواءين للاندفاع باتجاه رام الله.

ب - محور جنين - نابلس على الجبهة العراقية بقوة لواءين اندفع منها كتيبتان بالهجوم

على جنين، واحتفظ بباقي القوة للاندفاع نحو نابلس إذا نجحوا في معركة جنين.

في هجوم الجيش العربي مُنيت القوة اليهودية بهزيمة في البرج وبيرماعين، وأصيبت بصدمة عنيفه أحبطت كل خططها. وفي اليوم نفسه تصدّى لواء عراقي بقيادة العقيد عمر علي وبعض سرايا الحرس الوطني لقوة الهجوم اليهودية على جنين ومزقتها تمزيقاً.

وهكذا انتهت أسطورة المئة ألف نظامي والثلاثمئة ألف يهودي التي حاول القادة البريطانيون أن يهزمونا بها كلامياً قبل أن نقاتل.

وإذا أردنا الاستدلال على قدرة القيادة اليهودية من عملياتها على جبهتي الجيش الأردني والعراقي، فإننا نتبيّن بأنها قيادة ذات ميزة واحدة، وهي نقل القوات من جبهة إلى أخرى وفي ذهنها وضوح كامل بأن الجيوش العربية لن تتخطى مواقعها في حين تسمح لنفسها التخطي أينما استطاعت ذلك.

هذه ميزة أُعطيت لليهود بينما استمرت السياسة العربية على حرمان القوات العربية من الاستفادة منها بأن تعتبر فلسطين كلّها أرض معركة. ذلك القرار السياسي كان يجدر بالقادة العرب أن يشطبوه بعد أن احتل اليهود معظم الجليل وكادوا يكملون احتلال القدس.

إذا بحثنا عن ميزة للقيادة العسكرية اليهودية نجدها في وحدة القيادة وفي استثمارها انعدام التنسيق والتعاون بين الجيوش العربية، واستغلالها مرابطة معظم هذه الجيوش على خطوط لا تتجاوزها ممّا أتاح للقوات اليهودية حرية نقل تشكيلاتها من جبهة إلى أخرى دون معوقات عربية.

وبالمقارنة مع القيادة اليهودية فإن القيادة العراقية والمصرية كانتا متميّزتين علماً بالحرب وأصولها ومقدرة في إدارة المعارك. وإذا تمكّنا من تناسي القيادة البريطانية للجيش الأردني، فإن الضباط العرب كانوا أكثر من الكفؤ للقادة اليهود الذين واجهوهم في الميدان. هذا فضلاً عمّا أثبتته التجربة بأن الجندي في الجيش العربي الأردني، بغضّ النظر عن القطر الذي أتى منه، تميّز وبصورة لا تحتمل النقاش على الجندي اليهودي.

في هذه الأثناء كانت قوة صغيرة مؤلفة من الملازم قاسم الناصر تتمركز في مركز بوليس عرطوف قرب بيت جبرين، وهو مكان معزول عن كل قوات الجيش العربي. أخذت القوات اليهودية تضيّق عليها الخناق بتطويقها من ثلاث جهات هي: الشمال

والغرب والجنوب بينما تدفع القوة عن نفسها بالنار ليلاً ونهاراً كي لا يكتمل الطوق فيأسرها العدو . ومضى أسبوع من المقاومة بحيث لـم يبـقَ لديهم إلاّ القليل من الذخيرة والمؤن ، فأرسل قاسم الناصر برقية إلى قيادة اللواء الرابع (وهي قيادة لبعض سرايا الحاميات) يطلب فيها ذخيرة ومؤناً ، فكان ردّ القيادة عليه الأمر بالانسحاب إلى الخليل فأجابها قاسم الناصر بأنه مصمّم على الاحتفاظ بمركزه .

وبالصدفة التقط لاسلكي قيادة اللواء الثالث هذه البرقيات وحملها إليّ ، وبعد إلحاح أقنعت قائد اللواء بإرسال دورية مقاتلة من الكتيبة الرابعة مع دليل من عمواس لتحمل إلى عرطوف حمولة ثلاثة بغال من الذخيرة والمؤن الناشفة .

اختارت الكتيبة الملازم محمد المحاسنة لقيادة الدورية ، وبعد ساعتين من حركة اصطدام بالقوات الإسرائيلية المتمركزة بين خلدة وسوسين واخترقها ، إلاّ أنه واجه قوات أخرى في العمق وقاتلها وأيقن أن الوصول إلى عرطوف يتطلب قوة أقلّها سرية مشاة مع إسناد مورتر ، فعاد آسفاً واخترق الخط اليهودي في طريق العودة .

تدخلتُ في الأمر وأبلغتُ باسم قيادة اللواء ، الملازم قاسم الناصر استحالة وصول النجدة إليه ، في حين ضيّق اليهود عليه الطوق وكانوا على وشك الهجوم على المركز لاحتلاله .

قرّر قاسم الانسحاب تحت تلك الظروف الصعبة ليلاً ، وتسلّل هو وفئته بعد أن أتلف كل ما يمكن أن يفيد العدو ، فوصل إلى الخليل ثم نُقل إلى مدينة القدس بعد يوم واحد .

المعركة الأخيرة

هذه المعركة كانت شاملة لمنطقة الجيش العربي يوم ١٨ / ٧ / ١٩٤٨ .

بدأت بتحرّك سرية يهودية باتجاه قرية صفا الواقعة شمال بيت سيرا في الصباح الباكر ، ففاجأتها دورية من مدرعات قيادة اللواء عددها ثلاث مدرعات وأعملت في السرية رشاشاتها ، وعلى مسافة قريبة ، فأبادت معظمها وفرّ الباقون .

أخذت القوات اليهودية تطلق ناراً كثيفة من عجنجول ومنطقة القباب على الكتيبة الثانية ومخفر بوليس اللطرون ، ونيران المدفعية على الكتيبتين الثانية والرابعة من الغرب والجنوب ، ونيراناً مكثفة على خطوط التماس على طول الجبهة في القدس .

ثم قامت قوة يهودية بهجوم على بعض العمارات في منطقة مندلبوم واحتلت إحداها وهي في المنطقة الحرام ، فقاد الملازم عبد الكريم الدباس مفرزة واستعاد العمارة بهجوم معاكس استبسل الدباس فيها بالرغم من جرح كبير في ظهره . ولما كانت العمارة متوسطة بين عمارات أخرى يشغلها العدو فقد أصبح من الصعوبة بمكان البقاء فيها ، فأرسل عبد الله التل فئة قاسم الناصر ليعزّز مفرزة الدباس .

قاد قاسم فئته المتعبة ، والتي وصلت القدس بعد خروجها من عرطوف بغارة خاطفة ، وسط نيران كثيفة من عمارات قريبة ، وسَقط قتلى وجرحى من الفئة وجُرح قاسم في رأسه .

التقى الجريحان عبد الكريم الدباس ، وقد ملأ الأرض بدمائه في إحدى الغرف وسلاحه بيده يرقب العدو من إحدى النوافذ ، وقاسم يدفع بعض ضباط صفه لحمل الجرحى قرب العمارة حتى أتى الليل .

هنا تتبدّى الفروسية وحقوق الزمالة ، إذ رأى قاسم أن حياة عبد الكريم في خطر من النزيف ، فيقترح ويلحّ عليَّ نقله تحت ستار الظلام إلى مركز عسكري خلفيّ يتولّى إسعافه وإيصاله إلى المستشفى وعبد الكريم يردّ عليه : أنا لن أتحرّك وأنا قادر على البقاء أمّا أنت فجرحك في رأسك والأولى أن تنتقل إلى المستشفى . وهكذا لا يطيع أحدهما الآخر حتى طلع الصبح فتصدّت هذه المرّة قوات أردنية أخرى للعمارات التي يشغلها اليهود حتى أخرسوا نيرانهم ، ويُحمل الضابطان وهما في حالة من الضعف والإعياء إلى المستشفى عبر ممرّ امتلأ بالركام والغبار حيث لجأت القوات الأردنية إلى نسف العمارة تلك وأخرى كانت مصدر إزعاج كبير .

في منطقة مركز بوليس اللطرون ودير تتمركز فئة مشاة مسنودة بمدفعين عيار ٦ رطل ، أحدهما على ظهر المركز ، وقسم مورتر ٣ بوصة ورشاشين متوسطين بقيادة وكيل الضابط عبد الله الشويعر ، وتتمركز سرية مشاة في الخرائب المجاورة لدير اللطرون .

رأت هذه القوة أنّ حركة كبيرة لمشاة العدو تتّجه من ناحية سلبيت وقوة أخرى قادمة من القباب وثالثة من ناحية خلدة ، هذا بينما تشاغل الكتيبة الرابعة قوة رابعة متقدّمة من ناحية أبو غوش.

تبيّن أن الهجوم الرئيسي على قوات الكتيبة الثانية وأن ما تواجهه الكتيبة الرابعة حركة خداع ، حيث إن القوات التي نزلت من سلبيت للهجوم على خرائب دير اللطرون ومركز البوليس والالتفاف عليها تقدّر بكتيبتين بينما تقدّر الكتيبة القادمة من

خلدة بكتيبة ، وكانت أكثر القوات تقدّماً هي المهاجمة لمركز البوليس وفي طليعتها ست دبابات وعدد من ناقلات الجنود المدرعة ، وقد بادرت بإطلاق مدافع الدبابات على المركز أثناء الحركة ومن خلفها المشاة .

هذه هي المرة الأولى التي تظهر الدبابات على الجبهات العربية وكانت مدافعها مؤثّرة ، بحيث إنها فتحت في جدران المركز ثقوباً كبيرة وجعلت عمارة المركز تهتز مع كل طلقة .

وجّهت المدفعية بإشراف محمود المعايطة ومساعده عبد الرزاق الشريف نيرانها على القوات القادمة من القباب وسلبيت ، وأثارت غباراً كثيفاً حول الدبابات المهاجمة ، كما أثّرت على قوات المشاة تأثيراً فعالاً . ولكن الدبابات تقدّمت لتتجاوز الغبار حتى صارت على مرمى قسم المدافع المضادة للدبابات ، فأخذت هذه المدافع تركّز رماية صائبة أعطبت عدداً منها ، كما عمل قسم المورتر على رماية المدرعات ناقلات المشاة وسرايا المشاة خلفها ، وأجاد قسم الرشاشات المتوسطة في رمايته على المشاة خلف المدرعات بفعالية كبيرة .

دبابات العدو انتبهت إلى المدفع المضاد فوق سطح المركز فسلّطت عليه رماية كثيفة ، فأصابت طلقة درع المدفع واخترقته واقتطعت بعده فخذ الوكيل عبد الله الشويعر وحملته في الهواء ليسقط في بهو المركز ، فحل محلّه عريف استمر يطلق المدفع على الدبابات .

يظهر أن قائد الحملة اليهودية فقد الأمل ، فأمر قواته بالانسحاب تحت وابل من نيران المدفعية وأسلحة الكتيبة الثانية .

هذه القوات اليهودية المهاجمة من سلبيت والقباب كانت قادمة من اللد والرملة ، وهي احتياطي الجيش اليهودي على الجبهة الأردنية . وهذا يعني أن المدينتين لم يكن يشغلهما إلاّ حراسات بسيطة ، وكان بالإمكان توفير جهد عسكري من الكتيبة الأولى وسرية غازي الحربي لمهاجمة اللد والرملة واستعادتهما . ولكن الخطط التي شرحها قائد اللواء أشتون والتي ذكرتها كانت ترمي إلى الجلاء عن منطقة باب الواد واللطرون إلى خط عند بيت عور الفوقا ، ممّا يعطي اليهود منطقة إضافية فوق منطقة اللد والرملة بحجّة إنقاذ اللواء الثالث من الحصار والإبادة .

كان الفضل في إفشال خطة القيادة البريطانية لتمرّد قيادة اللواء الثالث والكتيبة الأولى وبطارية المدفعية المساندة للواء ، والذي أدّى إلى هروب قائد اللواء والكتيبة وشعور جلوب باشا أن وجود القيادة البريطانية كلّها أصبح مهدداً بالزوال من الأردن .

الهدنة الثانية

الهدنة الثانية كانت في القدس استمراراً للهدنة الأولى وإن لم يتوقف إطلاق النار في المدينة ، بالرغم من جهد القيادة البريطانية والكونت برنادوت أن يسود السكون مدينة القدس في الهدنة الأولى . ولكن وقف الحركات العسكرية في المدينة وأطرافها أدّى إلى اطمئنان اليهود لتجميد الوضع هناك ، ممّا أتاح لهم حرية التحرك على مدينتي اللد والرملة وعلى محور جنين في الجبهة العراقية قبل الهدنة الثانية .

بدأت الأخبار تتحدّث عن الهدنة الثانية وتصوّر الجميع في الناحية العربية أن الوضع سيتحول من الأعمال العسكرية إلى العمل السياسي ، في حين أن اليهود كانت لهم خطط أخرى تكتيكية واستراتيجية تهدف إلى الاستيلاء على مزيد من الأراضي العربية بطريقتين :

١ ـ ملء الأراضي التي لا تتواجد فيها قوات عربية على طول خط الهدنة.

٢ ـ الهجوم على القوات المصرية لاحتلال جنوب فلسطين حتى خليج العقبة.

وقد تزامنت فترة الهدنة الأولى وفترة ما بين الهدنتين مع جملة مسعورة من القيادة البريطانية للجيش الأردني على مصر وعلى الفلسطينيين تتركّز على نقطتين:

١ ـ أن الحكومة المصرية صادرت شحنة من قنابل المدفعية في أحد الموانىء المصرية حيث توقفت الباخرة الناقلة، ممّا أدى إلى إضعاف قدرة الجيش الأردني ، وذلك لتمكين اليهود من قهر الجيش الأردني على حد تعبير القادة البريطانيين.

٢ ـ أن الفلسطينيين يجحدون أعمال الجيش الأردني ويريدون استمرار الحرب حتى آخر جندي أردني بينما هم قاعدون.

ولمّا كان الضباط الأردنيـون يرفضون هذه الحملة ولا يتأثّرون بها ، وعلى العكس يظهر بعضهم الامتعاض والاشمئزاز من هذه الدعاوى ويردّون عليها بحقائق دامغة ـ أصبح الضباط البريطانيون يحسّون بأن الأردنيين ليسوا بالبساطة التي تصوّروها .

هنا بدأت الأحاديث عن الجولة الثانية والتي أخذ البريطانيون يطرحونها على الضباط الأردنيين وعلى بعض الشخصيات الفلسطينية المقربة منهم ، والذين أصبحوا محلّ شبهة عند الضباط العرب سواء من الأردنيين أو العراقيين.

قصّة القنابل قد تكون حقيقة ولكننا لا نعلم في ما إذا كانت مشحونة لمصر أو

للأردن حتى يومنا هذا . وقصّة الرغبة الفلسطينية في استمرار القتال لم تكن تختلف عن رغبة الأردنيين في قليل أو كثير .

والجولة الثانية التي يروّج لها البريطانيون كان مذاقها عند الضباط كمذاق نكتة سمجة ممقوتة .

الجيش الأردني ، والذي وصفته كما كان في أوائل الأربعينات ، تحوّل ببدوه وحضره إلى تكوين جديد بفهمه وإرادته وأمانيه . فلم يعد أبناء البادية منهم مجرد أفراد مسلحين جمعتهم ونظّمتهم بريطانيا لأغراضها في المنطقة ، بل صاروا يردّون ويحلّلون الأمور والقضايا متأثرين بثلاثة عوامل :

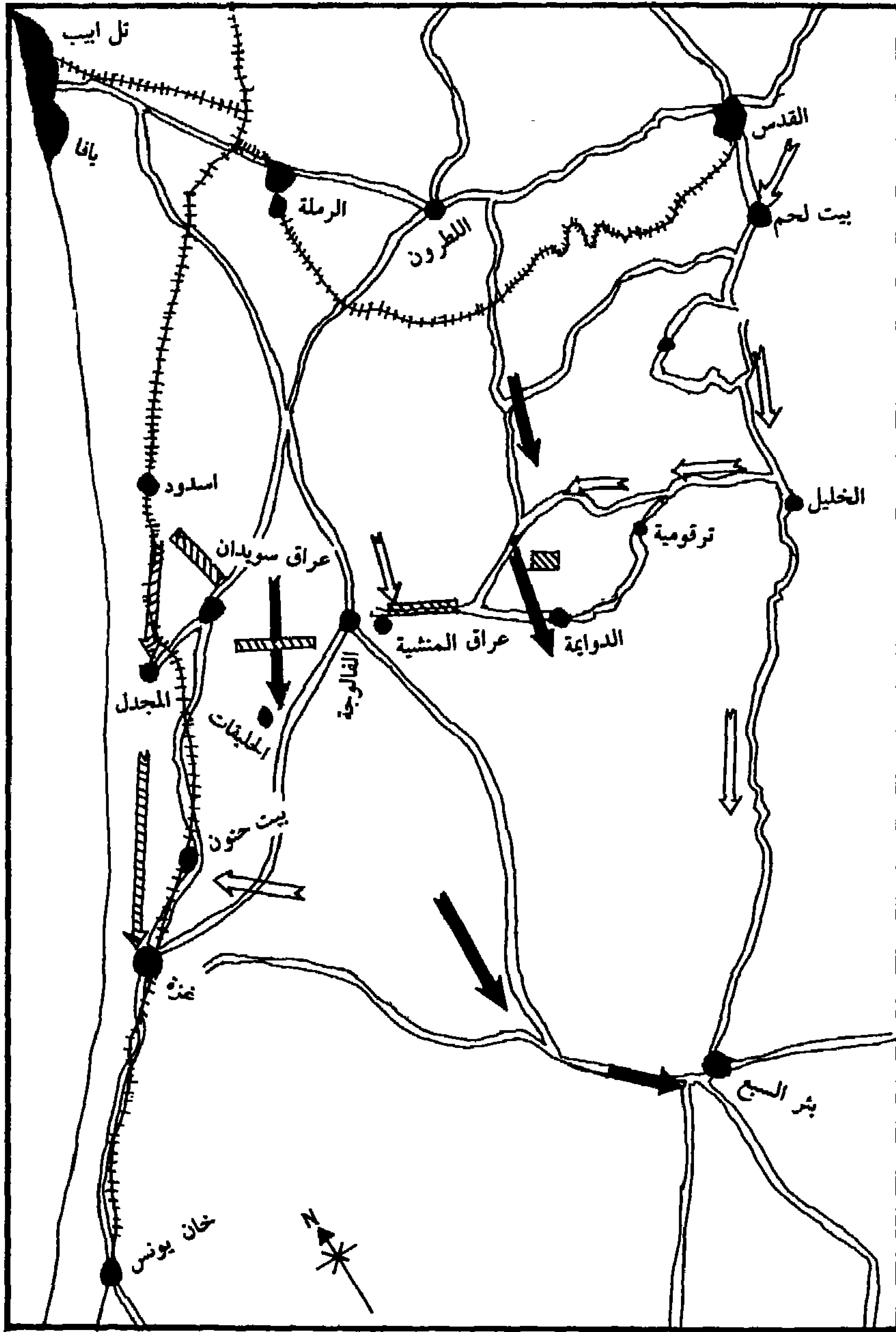
١ ـ أنهم في مواجهة عدو دينهم وعدو العرب .
٢ ـ أن البريطانيين ليسوا الملائكة الذين تصوروا بل شياطين غرباء متسلّطون .
٣ ـ أن البريطانيين سيّروا الحرب ممّا يعطي الغلبة لليهود .

ومن هذه القناعات كان التمرّد في الكتيبة الأولى ومن أفراد قيادة اللواء قبل تمرّد أبناء الحضر في المدفعية وجميعها من قطعات اللواء الثالث .

ومن هذه القناعات أيضاً لم تتوقف القطعات في مدينة القدس عن القنص وتعكير الهدنة الأولى وما تبعها من هدنة غير معلنة في المدينة بفعل النقمة والعصيان اللّذين أبرزا الملازم غازي الحربي كمحرك رئيسي لخرق الهدنة في القدس ، ممّا حمل قيادة الجيش لنقله وسريته إلى شمال الجبهة الأردنية وملاصقته الجبهة العراقية . غازي الحربي وهو متوجّه إلى منطقته الجديدة رأى على يسار الطريق قوة تحفر الخنادق فسأل القرويين عن تلك القوة وعلم أنها يهودية . لم يتقيّد بالهدنة المفروضة وأنزل سريته وهاجم القوة اليهودية وأبادها عن آخرها وألقى بجثثهم في بئر مهجور واستمر على طريقه إلى موقعه الجديد . ولم يمضِ أسبوع حتى أمرت القيادة بنقله وبمفرده إلى الزرقاء في الضفة الشرقية حيث استقال من الخدمة احتجاجاً على منعه من القتال .

الهجوم اليهودي على القوات المصرية

قبل الهدنة الثانية ، والوضع كما وصفنا من توقّف الزحف اليهودي عند قرى البرج وبيرماعين وعجنجول في منطقة باب الواد وشمالها وهدوء في القدس والجبهة العراقية ، وقد أخذت الأحاديث تنتشر عن استمرار الهدنة الثانية ، بدأنا نسمع من باب الواد أصداء المدفعية من بعيد من الجبهة المصرية طوال الليل . ولم تلبث الأخبار أن



خريطة رقم (٧)

- مراكز الجيش المصري.
- محاور هجوم القوات اليهودية.
- محاور انسحاب الجيش المصري.
- محاور حركات الجيش الأردني جنوب وغرب الخليل.

وصلت لتعلن هجوم القوات اليهودية على الجبهة المصرية .

كان الخط المصري يمتدّ من أسدود على البحر إلى عراق سويدان فالفالوجة إلى بيت جبرين مع تواجد رمزي في الخليل وبيت لحم ، وكنّا نقدّر وحتى اليوم القوات المصرية بفرقة مشاة مع أسلحتها المساندة بالإضافة إلى الاحتياطي وحراسات في بير السبع وغزة والتي كانت مناطق إدارية للجيش .

هذا الخط لم تكن تضاريسه الجغرافية صعبة مثل منطقة القدس ورام الله حيث يقع على الأطراف الشمالية لصحراء النقب . وقد أشغلت القوات المصرية هذا الخط بما يترك فراغات كبيرة بين الوحدات لعدم كفاية القوات لملئها بالكامل ، كما لم يكن لتلك القوات احتياطيّ يُذكر لصد أي خرق في الخط بفعالية .

استغلّ اليهود فترة الهدوء التي صادفت الهدنة الثانية ، وفي الجو السائد عن تلك الهدنة فاجأت قواتهم الجيش المصري بهجوم على ثلاثة محاور وعلى مرحلتين : المرحلة الأولى بدأت يوم ١٥/١٠/١٩٤٨ بهجوم رئيسي على المواقع في عراق المنشية ومُني بفشل ذريع . وفي المرحلة الثانية تحوّلوا إلى اتجاهين أولهما باتجاه عراق سويدان حيث نجح الهجوم واستمر باتجاه الحليقات يوم ٢٠ / ١٠ / ١٩٤٨ ، ووصل إلى بيت حنون ليهدّد خط المواصلات الوحيد بين القوات المصرية وغزة من ناحية وبير السبع من ناحية أخرى ، واستولى اليهود على بير السبع يوم ٢١ / ١٠ وعلى بيت حنون يوم ٢٢ / ١٠ . وهكذا حوصرت القوات المصرية التي تواجدت بين بيت جبرين والفالوجة وتجمعت في الفالوجة . أمّا القوات التي كانت في أسدود وعراق سويدان فإنها تراجعت على طريق أسدود ـ غزة الساحلي ، وتمكّنت من الإفلات من الحصار وباشتباكات على طول الطريق .

أعلنت الهدنة الثانية في ٢٢ / ١٠ / ١٩٤٨ والقوات المصرية في الفالوجة تقاوم الهجمات اليهودية ، بينما تحاول القوات المصرية التأثير على سير العمليات بتقدّم بطيء من غزة بما انسحب إليها وما كان فيها من احتياط صغير ولكنّها لم تفلح إلّا بوقف التقدّم اليهودي نحو غزة .

وظلّت قوات الفالوجة بقيادة الميرالاي طه وأركان حربه جمال عبد الناصر تُقاوم هجمات اليهود المستمرة بضراوة وبسالة كي لا تقع في الأسر ، بينما الجبهات العربية الأخرى هادئة هدوءاً يكاد يكون كاملاً .

الجامعة العربية ، كعادتها التي أصبحت معروفة ، جاءت متأخّرة لتعقد اجتماعاً على مستوى رؤساء الحكومات في عمان لبحث الوسيلة لتخليص قوات الفالوجة

ولكنها لم تصل إلى خطة ناجزة ، وعملت السياسة مرة ثانية لتجعل من الردّ العسكري العربي على الحصار مهزلة مؤلمة .

ولكن سوريا والأردن والعراق اعتبرت الهدنة قائمة ، ولذا فعندما بحث رؤساء الحكومات العربية مسألة نجدة القوات المصرية اتّجه التفكير إلى إرسال قوات أردنية وعراقية إلى منطقة بيت لحم والخليل كمحاولة لتخفيف الضغط على الفالوجة .

في كل دول العالم ، المعروف أنْ يكون بعض السياسيين الذين يصلون إلى سدّة الحكم رجالاً دخلوا حروباً ، أو درسوا حروباً على الأقل ، لكي يتمكّنوا من فهم الحرب إلى جانب فهم السلم ، وكي يقدّروا معنى التحالف العسكري بما يقتضيه من ضرورات التعاون واعتبار سلامة قوات الدول المتحالفة أمراً مشتركاً وكذلك سلامة أراضيها وقواتها .

من هنا، فإن أي ضعف يصيب جبهة أحد الجيوش يعوّضه جيش آخر على ساحته بعمليات مؤثّرة تعرّض جبهة العدو المقابل له للخطر بما يفسد خطة العدو على الجبهة التي أصيبت .

ولمّا كانت الهدنة الثانية تمثّل في كل خطوات بحثها في مجلس الأمن تسهيلاً لليهود وتخديراً للعرب، ولّما لم يتوقف اليهود عن مهاجمة الجيش المصري بعد إعلان الهدنة فقد حقّ للدول العربية أن تعتبر الهدنة منقوضة ، خصوصاً وأن الهدنة لم تفرض مجزّأة بين اليهود وبين كل جيش عربي منفرداً بل جاءت بقرار واحد يشمل كل القوات المتحاربة في فلسطين .

لذا ، فإن السياسيين المجتمعين في عمان لم تجمعهم وحدة هدف ، كما لم تجمعهم وحدة نظرة في العمل المطلوب .

لو تحرّك الجيش الأردني باتجاه اللّد والرملة وقد خُفّفت قوات اليهود من تلك المنطقة ، وتحرك الجيش العراقي باتجاه البحر وقد خُفّفت قوات اليهود أمامه أيضاً لتوفير الحشد للهجوم على الجيش المصري لاضطرّت القوات اليهودية للتراجع من جنوب فلسطين ، ولكانت الهدنة تفرض مرة ثانية ولكن بتحقيق مصلحة عربية أفضل .

اختلاف الأهداف والجهل في أمور الحرب عند بعض السّاسة المجتمعين في عمان أدّى إلى فقدان جنوب فلسطين وحتى خليج العقبة .

لستُ أقصد ملامة لدولة دون أخرى. فما حدث على الجبهة المصرية سبق وأن حدث على الجبهة الأردنية عندما كان القتال محتدماً فيها ، بينما لم يتحرّك الجيش

المصري والجيش العراقي بـأدنى فعـالية لتخفيف الضغط عن الجيش الأردني .

وأخيراً وبعد مداخلات سياسية قَبِل اليهود وقف إطلاق النار في ١٩٤٩/١/٧، والتقى بعدها اليهود والمصريون في رودس ووقّع الوفدان اتفاقية الهدنة الدائمة في ١٩٤٩/٢/٢٤ ، والتي أعطت اليهود منطقة الجيش المصري في ما عدا الشريط الساحلي المعروف بقطاع غزة وجزء من منطقة النقب التي أخليت من أي وجود مصري . فحاول الجيش العربي إشغال هذا الجزء من النقب بقوة صغيرة جداً.

وفي الوقت نفسه بدأ اللبنانيون والسوريون مفاوضات الهدنة الدائمة على الحدود الفلسطينية اللبنانية والفلسطينية السورية، كما تشكّل وفد أردني للتفاوض مع اليهود في رودس.

تألفّ الوفد الأردني من القائمقام أحمد صدقي الجندي رئيساً ، ووكيل القائد محمد المعايطة عضواً ، ووكيل القائد الهنداوي والرئيس علي أبو نوار مستشارين عسكريين، والسيد رياض المفلح والقاضي عبد الله نصير مستشارين قانونيين والملازم فتحي ياسين سكرتيراً للوفد .

وبالمقابل تألّف الوفد اليهودي من شيلواح وكيل وزارة الخارجية رئيساً والكولونيل موشي ديان عضواً ومعهما بعض المستشارين .

مفاوضات الهدنة الدائمة

مثّل الدكتور رالف بنش هيئة الأمم المتحدة مع طاقم كبير من المستشارين العسكريين والقانونيين، وكان أول اجتماع للوفدين بحضور الدكتور بنش في ١٩٤٩/٣/٣ .

إن أهم ما في هذه المفاوضات، التي أصبحت نسياً منسياً، هو فهم الذهنية اليهودية في مقابل الذهنية العربية ، وهذا أمر على درجة عظيمة من الأهمية يجدر حفظه في الذاكرة العربية ما دام الصراع قائماً .

ما إن قبل الأردن دعوة الأمم المتّحدة للاشتراك في مباحثات الهدنة الدائمة حتى أشعرت حكومة نوري السعيد الحكومة الأردنية بنيّة سحب القوات العراقية من فلسطين مع إصرار على القرار وتخطيط لسرعة الانسحاب . وافقت الحكومة الأردنية على القرار العراقي على أن تبدأ القوات العراقية انسحابها في ١٣ / ٣ / ١٩٤٩ ، على

أمل أن تنجح مفاوضات رودس في اتفاقية هدنة دائمة لجبهة الجيش الأردني واعتبار الاتفاقية سارية المفعول على الجبهة العراقية .

اقترح الدكتور بنش أن يوقّع الطرفان اتفاقية وقف إطلاق النار قبل البحث في الهدنة الدائمة ، في حين أن قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار كان سارياً ومطبقاً من الطرفين. كانت حجة بنش أنّ قرار مجلس الأمن لا يسدّ مسدّ الاتفاق وقد وافق الوفد اليهودي على رأيه.

واتّضحت الصورة للوفد الأردني عندما وافق على توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار ، إذ أعلن الوفد اليهودي أنه لا يقبل توكيلاً من الجيش العراقي للجيش الأردني يؤدي إلى شمول الاتفاقية مع الأردن للجبهة العراقية ، سواء لوقف إطلاق النار أو الهدنة الدائمة .

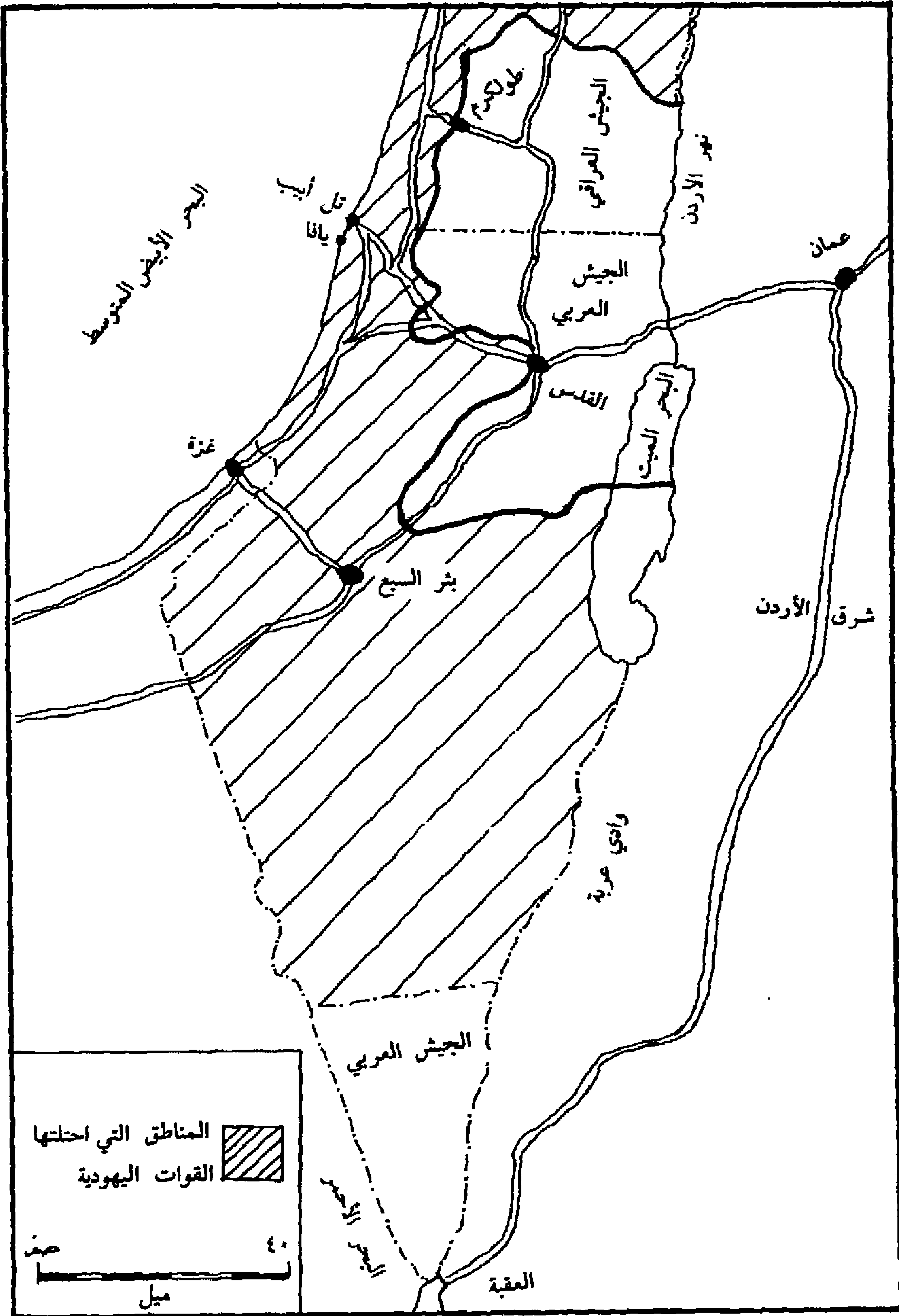
ولمّا كان العراق يرفض التفاوض مع اليهود مع إصراره على سحب قوته في تاريخ محدّد من فلسطين، فقد عنى ذلك ترك منطقة الجيش العراقي دون حماية عسكرية ودون مسؤولية قانونية.

حكومة نوري السعيد طرحت موضوع الشرف والشمم مقترنة مع التخلّي عن المسؤولية بمَا داعب الشعور بالكبرياء عند الشعب والجيش العراقي .

الوفد المفاوض في رودس كان على اتصال مستمرّ مع عمان، يستلم الاقتراحات للنفاذ من هذا المأزق ، بينما يماطل اليهود توقيع أي اتفاقية بحجة أنّ العراق يجب أن يفاوض عن الجبهة العراقية .

أمّا على أرض فلسطين فقد أعلنت عمان تكراراً أن حشوداً يهودية غير طبيعية تتواجد جنوب بير السبع وباتجاه وادي عربه، فوجّهت احتجاجاً قوياً إلى الدكتور بنش عندما اندفعت القوات اليهودية وهاجمت مراكز الجيش الأردني الصغيرة على منتصف المسافة بين بير السبع وخليج العقبة بقوات متفرقة بلغت كتيبة مشاة مسنودة بالمدرعات ، بينما تبلغ القوة الأردنية سرية واحدة من المشاة . واستمر اندفاع القوة الإسرائيلية حتى وصلت المرشرش على خليج العقبة ، وما سمّاه اليهود في ما بعد بإيلات .

كلّ هذا حدث والجنرال رايلي الأمريكي، رئيس مراقبي الهدنة في فلسطين، ينكر وجود التحركات، ولم يعترف بوجودها إلّا بعد أن أوشكت القوات اليهودية أن تصل إلى خليج العقبة وأصبح الأمر واقعاً.



الوضعية العسكرية في بداية أبحاث الهدنة الدائمة في رودس

خريطة رقم (٨)

كبرياء نوري السعيد، الذي نفخها وكوّنها سادته البريطانيون ومن خلفهم الصهيونية، التقت مع تجاهل الجنرال رايلي لتؤدي إلى احتلال اليهود للنقب وفصل مصر جغرافياً من المشرق العربي.

وهنا أبلغ الدكتور بنش مرغماً مجلس الأمن بالخرق اليهودي للهدنة التي فرضها المجلس، ووجّه إنذاراً للوفد اليهودي علناً يطلب فيه سحب قواتهم من النقب.

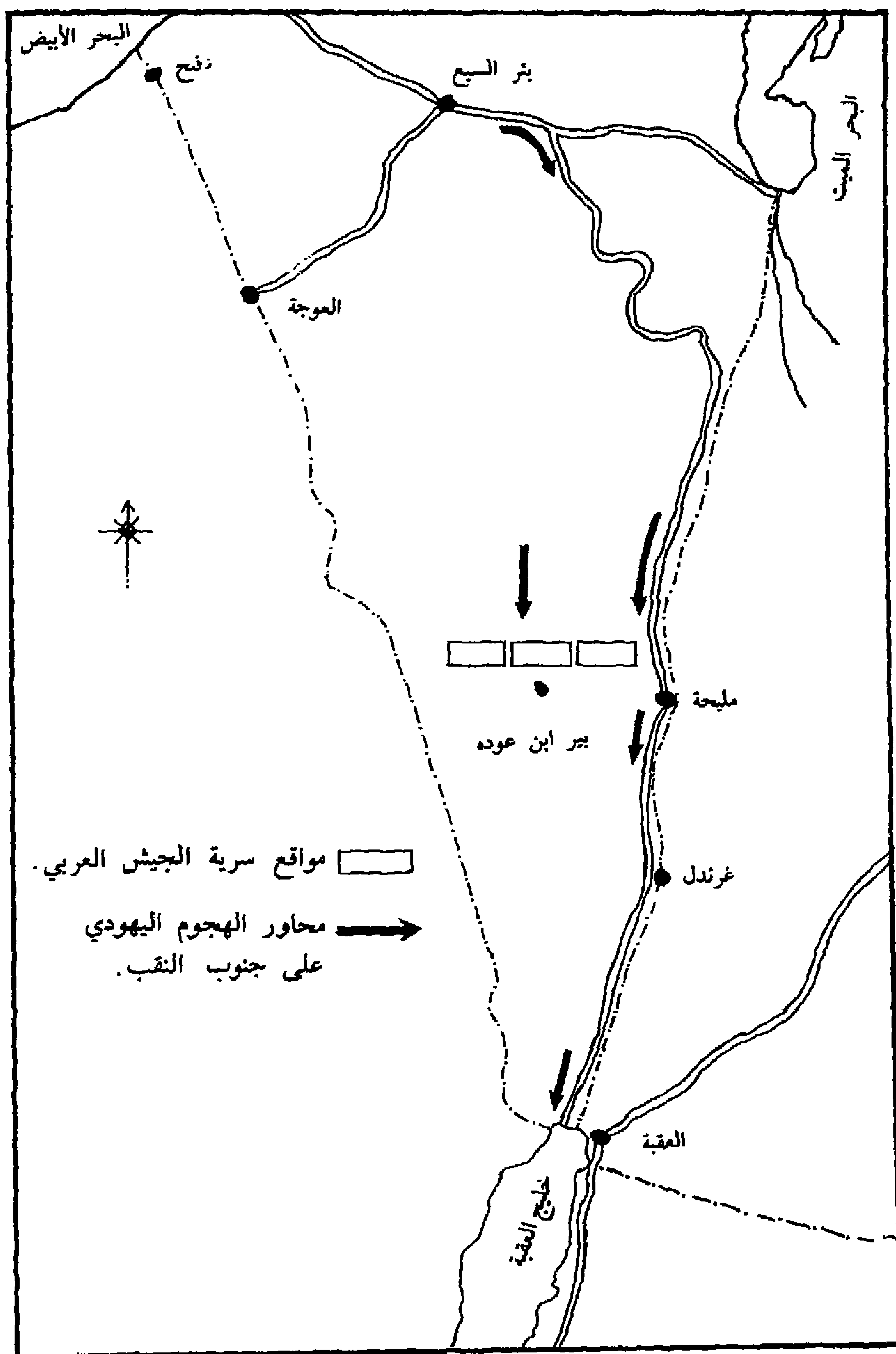
كان اليهود يتصرّفون مع الدكتور رالف وأعوانه تصرّف السادة مع الأتباع. وبعد أن كنّا نتصرف في بداية الجلسات بقوة الموقف والتصلّب، اللذين فرضناهما في ميدان القتال، أصبحنا وبحكم الخذلان الذي أصابنا من الحكومة العراقية كالأيتام على مأدبة اللئام.

المشكلة تمثّلت لنا بما جرى من احتلال النقب وما ألمح إليه الوفد اليهودي من عدم اعترافه بإحلال قوات أردنية محل القوات العراقية إذا رحلت، واعتبر أنّ من حق القوات اليهودية أخذ منطقة السامرة ما لم يحضر وفد عراقي للتفاوض، في حين أن الجيش العربي غير قادر على حماية المنطقة الأردنية والعراقية لوحده. وأخيراً اضطر الوفد الأردني لتوقيع اتفاقية وقف إطلاق النار للجبهة الأردنية وحدها يوم ١٩٤٩/٣/١١.

عندما اتّضحت نوايا اليهود أرسلني رئيس الوفد إلى عمّان لإطلاع وزير الدفاع فوزي الملقي على الوضعية كما نلمسها في رودس مستعجلاً موافقة العراق على التفاوض في رودس، فحالت الأحوال الجوية دون وصول طائرة هيئة الأمم الصغيرة إلى مطار عمّان فعدنا إلى قبرص، ونزلت في قبرص وعلى آخر قطرة من الوقود الذي استنفد في محاولات الطيار للخروج من عاصفة بين بيروت وقبرص في الذهاب والإياب.

كان الطيار الهولندي الأصل يريد النزول في حيفا ولكني ردعته بقوة، وطلبت إليه النزول قسرياً على الشواطىء التركية إن تعذر عليه العودة إلى قبرص. وعندما هبطت الطائرة بسلام في قبرص كان الطيار منهكاً إلى أبعد الحدود وقد بلّل العرق كل ملابسه.

وفي اليوم التالي وصلت بيروت واستقلّيت سيارة لاستحالة وصول الطائرة إلى عمان ووصلت مكتب وزير الدفاع صباح يوم ١٩٤٩/٣/١٤. اتّصل الوزير فوزي الملقي بجلالة الملك، الذي كان يقيم في الشونة شتاءً، وأمر بذهابنا لمقابلته ليستمع إليّ شخصياً.


البحر الأبيض
رفح
بئر السبع
البحر الميت
العوجة
مليحة
بير ابن عوده
غرندل
العقبة
خليج العقبة
مواقع سرية الجيش العربي.
محاور الهجوم اليهودي
على جنوب النقب.

خريطة رقم (٩)

كانت هذه ثالث مرة تتيح لي الصدف للتشرّف بمقابلة الملك عبد الله، وكان جلساؤه يومئذ سعيد باشا المفتي والشيخ محمد أمين الشنقيطي وصبري الطباع. رحّب جلالته بالوزير وبي وأمرنا بالجلوس. وبادرني قائلاً:

هات يا علي والله إني أقدِّر ما واجهه الوفد من صعوبات . ولكننا لسنا أحسن حالاً منكم .

شرحت لجلالته الموقف بتركيز واختصار ، منذ باشرنا المحادثات حتى مغادرتي رودس . وذكرت له ضرورة اشتراك وفد عراقي بمفاوضات الهدنة .

قال جلالته : ـ إمّا أن يشترك العراقيون أو يبقون قواتهم لنلقى مصيراً واحداً . حتى هذه اللحظة لم يستجيبوا لنا . فوزي باشا خذ علي معك إلى أريحا ليسمعوا منه مدى خطورة الوضع . السفير الراوي ورئيس الأركان العراقي موجودان الآن في فندق القصر الأبيض .

نهضنا للذهاب فقال جلالته: اجلسوا الآن فقد حان وقت الغداء وبعدها تتحركون.

في تلك اللحظة وصل جلوب باشا . وبعد أدائه التحية استأذن جلالته في حديث خاص فأخذه جلالته إلى غرفة وأغلق بابها ، بعد دقائق أخذت الأصوات تصلنا من الغرفة ولكنها أصوات غير مفهومة الكلمات . وفجأة خرج جلالة الملك وقد احتقن وجهه وكسته سحابة من الغضب والأسى وانفجر قائلاً :

« قلت له قبل نزول اليهود إلى خليج العقبة أن يرسل قوة كافية للدفاع عن النقب ، فأرسل سرية وقلّل من احتمال غزو اليهود للنقب . الآن ذكّرته بهذا القصور فيجيبني بأن المصريين أثناء المفاوضات في رودس حرّضوا اليهود على أخذ النقب حتى لا يأخذها الملك عبد الله » .

« قلت له لا أصدّق . حتى لو كان ما تقوله صحيحاً فإن واجبك أن ترسل قوة كافية . ولكن من نقل إليك كلام المصريين وهم في رودس وأنت في عمّان ؟ » .

« هل تعرفون بماذا ردّ عليّ ؟ سألني الملعون : هل مضى وقت طويل على زيارتكم لقبرص؟».

«كان الله في عوننا. اليهود من جهة وقرار العراق من جهة وفوق هذا الإنجليز. هيا يا فوزي باشا خذ علي معك وأرجو لكما التوفيق».

وصلنا أريحا واستقبلنا السفير العراقي وقد أعلمه جلالة الملك هاتفياً عن مقدمنا . فجلسنا وكان رئيس الأركان العراقي حاضراً وهو الفريق نوري محمود .

وضعت السفير والفريق في الصورة بأدقّ ما يمكن أن تكون عليه حراجة الموقف وبشاعة ما نتوقّعه . ثم استأنف فوزي الملقي باشا الكلام ولم يترك طريقة لاستثارة همّة السفير والفريق . وقد عرفنا عن فوزي قدرته الكلامية والدبلوماسية .واستحثّهما على الاتصال ببغداد وإقناع نوري السعيد برأي الأردن متمثلاً بجلالة الملك والحكومة .

كانا كمن يسمع ولا يريد أن يفهم . وأجاب السفير « هذا قرار الحكومة وأنا لا أسمح لنفسي بمراجعة قرارها وتجاوز حدودي » .

توجّهت إلى رئيس الأركان قائلاً: سيدي إذا تركتنا القوات العراقية في هذا الموقف فكأنك شخصياً تدعو اليهود لاحتلال أراضٍ دون الالتفات إلى أدنى حدود الواجب ، على الأقل تجاه شهدائكم إن كنت لا تأبه للكارثة التي ستصيب ما تبقّى من شعب فلسطين .

غضب رئيس الأركان قائلاً : أنت من أنت حتى تخاطبني بهذه الاتهامات ؟ هل نسيت أنك تخاطب رئيس أركان الجيش العراقي ؟

قلت له : « أنا أحد مبعوثي جلالة الملك إليكما وبهذا أخاطبك ، وغضبك لن يخليك من مسؤوليتك » .

ساد صمت ثم عاد للكلام : اسمع يا علي عندي اقتراح عسكري بحت إذا قبلتموه نفّذنا فوراً . الجيش الأردني ينتشر على طول الجبهة الأردنية العراقية ، والقوات العراقية تكون احتياط الجبهة وبهذا نطمئن على سلامة الموقف العسكري .

قلت له : وقرار انسحاب القوات العراقية إلى العراق ؟
قال : إذا وافقتم على الاقتراح ننفّذه ثم نبحث كل ما عدا ذلك .

تصوّرت أن رئيس الأركان يريد الوصول إلى القرار العراقي بالموافقة الأردنية وإخلاء الجيش العراقي من المسؤولية عن الجبهة ثم يعود إلى تنفيذ الانسحاب.

قلت له: عندي اقتراح بديل.
قال : هل أنت مفوّض على صغر رتبتك ؟
قلت : سأحصل على موافقة جلالة الملك قبل حلول المساء إن قبلت اقتراحي .

١) نقرر حجم الاحتياط المطلوب ونأخذه من الجيشين .
٢) نضع هذا الاحتياط بإمرة قائد عراقي مع أركان عراقيين وأردنيين أو :
٣) يستلم الجيش العراقي إلى الجبهتين ويكون الجيش الأردني الموجود في فلسطين احتياطاً وبإمرة قائد عراقي .

هل تقبل ؟

أجاب : أنا تعليماتي من نوري باشا محدودة ولا أستطيع التغيير فيها .

عاد فوزي باشا وأنا معه نحمل خفَّي حُنين وبلغنا قصر المُصلّى في الشونة فوجدنا جلالة الملك بانتظارنا . أبلغنا جلالة الملك بالتفاصيل وعندما ذكرت له اقتراحي قال : أوافق ، ولمّا أبلغناه ردّ الفريق ، قال : إنا لله وإنّا إليه راجعون ، يظهر أن شهية العراق مفتوحة على سوريا كما سمعت أكثر من شهيتها للحفاظ على ما في اليد في فلسطين . يا علي عُد إلى جماعتك وتجمّلوا بالصبر ، والصبر في هذا أصعب عليكم من القتال وعلينا هنا الواجب الأصعب .

استبقى جلالته سعيد باشا المفتي وفوزي الملقي ، وطلب إلى صبري الطباع أن يوصلني بسيارته إلى عمان .

عندما قاربنا الوصول إلى السلط بادرني صبري سائلاً إن كنت فهمت ما قصده جلوب باشا بذكره قبرص لجلالة الملك ، فأجبته يقصد نفيه كما نفى الإنجليز الحسين الكبير ولم نتبادل كلاماً بعدها حتى أوصلني إلى بيت عمي في عمان .

صباح اليوم التالي عدت إلى رودس وأبلغت الوفد بما سمعت ورأيت وأبلغته نصيحة جلالة الملك بالصبر . وفي اليوم نفسه عقد الدكتور ينش جلسة لبحث شكوى تقدّم بها الوفد الأردني لخرق إسرائيل اتفاقية وقف إطلاق النار باحتلالها منطقة عين جدي جنوب البحر الميت يوم ١٣ / ١ / ١٩٤٩ .

الكولونيل ديان أنهى الجدال حول هذه الشكوى ومطالبة الدكتور ينش بإخلاء منطقة عن جدي المحتلة ، البالغة أربعة كيلومترات مربعة تقريباً ، بأن أعلن أنه مستعدّ لإقفال المفاوضات والعودة لاستئناف الحرب إذا أصرّ الأردن على استعادة عين جدي فانفضّت الجلسة .

استبقى الدكتور ينش القائمقام أحمد صدقي ليبلغه أن اليهود أحاطوه علماً بأن انسحاب القوات العراقية دون اتفاقية وقف إطلاق النار يوم ١٣ / ١ يعطي اليهود حق التصرف في منطقة السامرة .

وهكذا أصبح وضع القوات العراقية حاسماً ، فإما أن تبقى حتى يقبل اليهود باتفاقية هدنة تشتمل المنطقة العراقية ، وإما أن تنسحب فيواجه الأردن وحده حرباً لا قبل له بها .

ظواهر الأمور لا تدلّ على بواطنها وإلّا لما واجه الأردن هذا الوضع الخطير . فكون العراق والأردن ملكيتين على رأسهما ملكان هاشميان أعطى العرب قناعة بأنهما دولتان متكافلتان على الأقل . وتاريخ العراق الحديث ونزعته إلى الحرية شعباً وحكومة ، فضلاً عن حماسة العراق للقضية الفلسطينية ، تضيف قناعة أخرى تناقضت كلياً مع سياسة نوري السعيد التي أفصحت عن نفسها في فلسطين في أوائل سنة ١٩٤٩ .

وهذا الوضع العراقي يكشف بما لا يقبل الشك والالتباس بأن بريطانيا بعد سنة ١٩٤١ خلقت تكويناً سياسياً جديداً ملتزماً بالإرادة البريطانية التزاماً لا رجعة فيه . وكما ثبت في السنين اللاحقة فإن العراق تمكّن منه حكم فئة قليلة من أبنائه يحملون مفاهيم مدرسة غريبة عن العراق والعرب ، كان المعلم الأول فيها تلميذ بريطانيا النجيب نوري السعيد .

الحديث عن العراق في فلسطين وخارج فلسطين حديث ذو شجون ، سنأتي عليه في ما بعد من بحث القضية العربية بمجملها .

لنعد إلى جلالة الملك في عمان والذي عالج القضية الحرجة بإلحاح على العراق لتأجيل انسحاب قواته لفترة قصيرة ، بالإضافة إلى اتصالات مكثّفة مع لندن وواشنطن لتضغطا على اليهود بقبول عقد اتفاقية هدنة دائمة شاملة للجبهتين الأردنية والعراقية .

وأخيراً قبل نوري السعيد تأجيل سحب قواته ، ولكن لندن وواشنطن ماطلتا إلى أن وصل قائد القدس عبد الله التل إلى ما يريده اليهود ثمناً للاتفاق .

كان عبد الله التل في القدس يجتمع مع القائد اليهودي في الجانب الآخر ، كلما وقعت حادثة مهمة على خطوط التماس في القدس وضواحيها . واتصل به ممثل هيئة الأمم طالباً اجتماعاً بين عبد الله التل والقائد اليهودي ، وحضر الاجتماع السياسي اليهودي ساسون ليطرحوا مطالب يهودية شرطاً لا بد منه لقبولهم شمول الهدنة الدائمة للمنطقة العراقية . تمثّلت المطالب بالتنازل عن شريط على طول الجبهة العراقية بحجة أن عمق دولتهم في تلك المنطقة قصير جداً ، يتراوح بين ١٢ ـ ١٨ كيلو متراً ، وأن هذا التنازل حيوي لضمان أمن الدولة .

نقل عبد الله التل المطالب هذه إلى جلالة الملك والحكومة وقائد الجيش ، فوجّه رئيس الوزراء كتاباً إلى قائد الجيش ملخّصه :

١ ـ إذا انسحب الجيش العراقي فهل يمكن للجيش الأردني الدفاع عن كامل المنطقة بكفاءة ؟

٢ ـ إذا انسحب الجيش العراقي واستأنف اليهود الحرب فهل يمكن أن يخسر الجيش الأردني أراضي أقل مساحة أو أكبر من الأراضي التي يساوم اليهود للحصول عليها ؟

أجاب قائد الجيش « بعدم القدرة على الدفاع عن الجبهتين لوحده ، وأن استئناف الحرب سيعطي اليهود فرصة الاستيلاء على أراضٍ أوسع مما يطالبون به ثمناً لاتفاقية الهدنة » .

يمكننا وبلا طول اجتهاد أن نعتبر إجابة قائد الجيش صحيحة ودقيقة للأسباب التالية : ـ

١ ـ وصل حجم الجيش الأردني حتى تلك الأيام تسع كتائب مشاة وثلاث سرايا مدرعات وثلاث بطاريات مدفعية .

٢ ـ قوات الميدان الأردنية هذه بالكاد تكون كافية للدفاع عن الخط بين رنتيس وبيت لحم ، ولا يمكنها حتماً توفير الحماية عن باقي المنطقة الممتدة من بيت لحم إلى الظاهرية جنوب الخليل .

٣ ـ القوات العراقية الموجودة على الساحة الفلسطينية كانت خمسة جحافل ألوية مع الإسناد الكامل مضافاً إليها قوة سلاح الجو العراقي.

٤ ـ في حالة استمرار وجود الجيش العراقي يمكن للجيش الأردني أن يحرك قواته بين رنتيس والظاهرية اعتماداً، على الأقل، على انشغال قوات كبيرة يهودية على الجبهة العراقية.

٥ ـ إذا انتشر الجيش الأردني على جبهة الجيش العراقي بعد انسحاب الأخير يصبح الوضع كما يلي :

أ) إما أن ينتشر الجيش بمفارز صغيرة على طول خطوط الجيشين مع إبقاء لواء كامل في منطقة القدس وباب الواد أو :

ب) أن يتّخذ ثلاث مناطق حيوية بين غرب نابلس ـ باب الواد ـ القدس ـ بيت لحم ،

تاركاً مناطق واسعة دون أي إشغال بين كل منطقة وأخرى وإخلاء منطقة الخليل من أي قوات تذكر .

في الحالة الأولى مخاطرة كاملة لما تبقّى من أرض فلسطين كلها .

وفي الحالة الثانية توفير إمكانية قتال للجيش الأردني من أجل إعاقة احتلال اليهود للمدن الرئيسية نابلس ، القدس ، بيت لحم وما وراءها حتى النهر انتظاراً لما سيكون من أمر الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة ؟

وفي حقيقة الأمر ، لا تتعدّى المحاولة هذه إلاّ أن تكون معارك انتحارية من أجل الشرف وليس من أجل الحفاظ على الأرض .

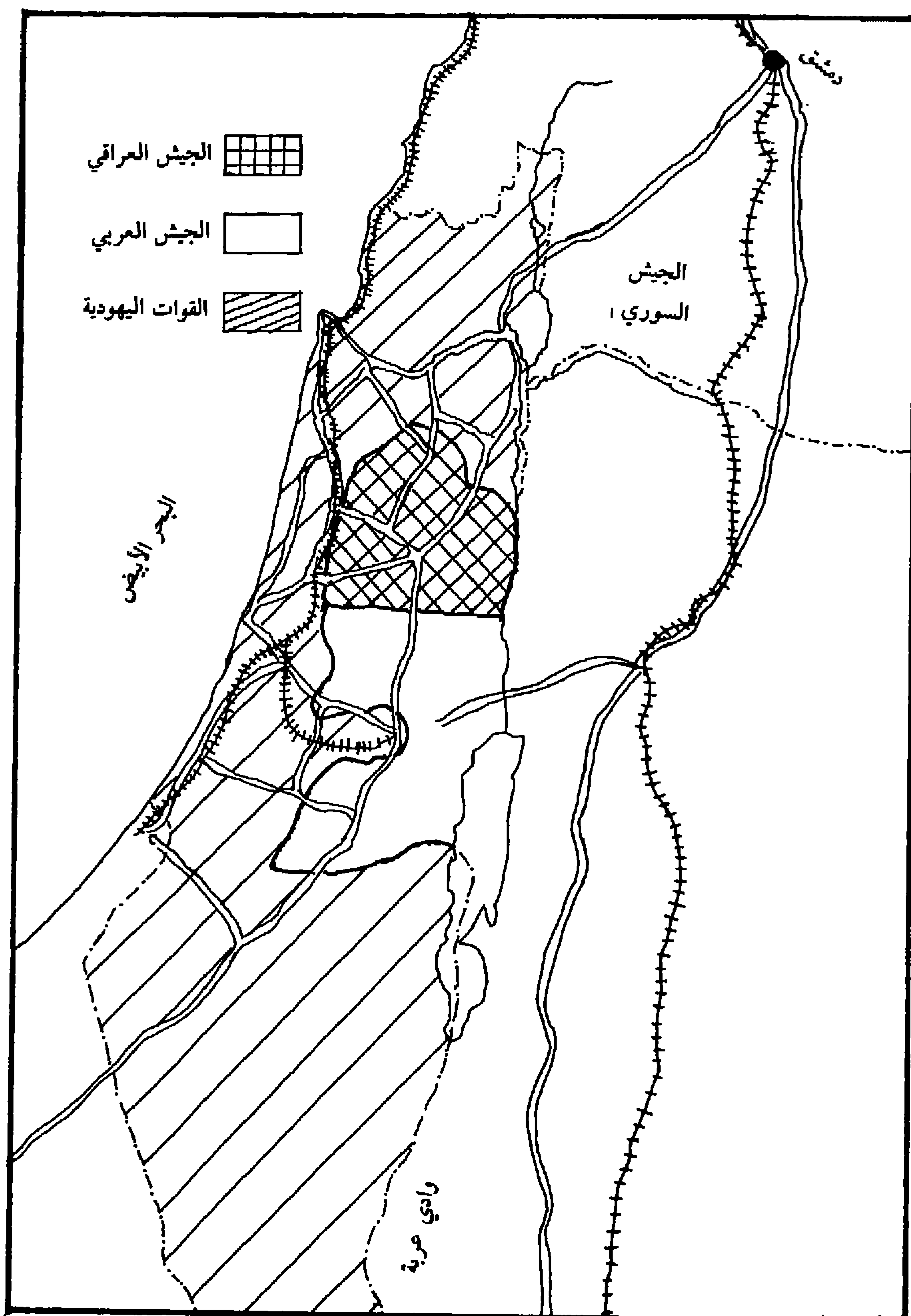
قبلت الحكومة الأردنية في ظل الظروف تلك التنازل عمّا سمّي بأراضي المثلث ، ووقّعت مع وفد يهودي اجتمع معها في الشونة اتفاقية كاملة مستندة إلى تفويض العراق للأردن عن طريق الأمم المتحدة للمفاوضة على الجبهة العراقية . واستدعي أحمد صدقي الجندي إلى عمان ليحضر المباحثات ثم ليعود إلى رودس بالاتفاقية موقّعة من الوزراء وممثل عن الجيش لتجري صياغتها بطريقة هيئة الأمم ، ويوقع عليها رئيس الوفد أحمد صدقي الجندي ومعه عضو الوفد الوكيل القائد محمد المعايطة يوم ٣ / ٤ / ١٩٤٩ .

كان الجيش العراقي قد بدأ بتسليم مراكزه للجيش الأردني ، الذي أكمل انتشاره عليها بقوة تقارب لواء مشاة يوم ١٣ / ٤ / ١٩٤٩ .

الوضع العام بعد الهدنة الدائمة

تلقى الشعب في الضفتين صدمة التنازل عن أراضي المثلث بالذهول لأول وهلة ، ثم ثار الشعور بالغضب ، فقامت مظاهرات شملت عواصم الضفتين تشجب قرار الحكومة الأردنية وقد أذكى نقمة الشعب إذاعة القاهرة التي ركّزت حملتها على الملك عبد الله .

ولكن الحكومة الأردنية قابلت الحملات بالصمت ولم تعطِ الشعب تفسيراً لقرارها، ممّا جعل الرأي العام يميل إلى تصديق الدعايات والشائعات. فقناعة الحكومة بصحة قرارها بالتنازل عن أراضي المثلث لتلافي كارثة جديدة أغنتها عن انحاء اللاّئمة على قرار الحكومة العراقية بسحب جيشها حفاظاً على علاقة القربى بين العراق والأردن. هذا فضلاً عن أن الأردن لم يكن قد تمرّس بعد على استخدام وسائل الإعلام التي أتقنتها مصر إلى حد بعيد.



الوضعية العسكرية عند توقيع اتفاقية الهدنة الدائمة

خريطة رقم (١٠)

فقبل حرب فلسطين كان المجتمع الأردني الصغير بعيداً عن الإشكالات الداخلية ، ولم تصادفه أحداث تثيره إلاّ ما أثّر به من أحداث عربية وقعت بين العرب والمستعمر البرّيطاني في فلسطين ومصر والعراق والمستعمر الفرنسي في سوريا .

كان الشعب متعايشاً مع الحكم برضى وسلامة فلا يتسبّب الحكم بما يسيء ، كما لا يتطلّب الشعب ما يحرج الحكم . ولمّا كان أثر السيطرة البريطانية في الأردن لا يلامس الشعب بوجود ظاهر ، فإن النقمة الأردنية على بريطانيا نتجت عن أعمالها الاستعمارية في فلسطين أولاً وفي مصر والعراق ثانياً .

وقياساً على ما عاناه الشعب الفلسطيني فإن الشعب الأردني كان ينعم بالرضا والاستقرار ، فضلاً عن ثقة عظيمة بالملك عبد الله في ما عدا نفر من خريجي الجامعات الذين طرحوا قضية الوزارات كمطلب وطني . ذلك أن رؤساء الوزارات حتى ذلك الحين كانوا سوريين أو لبنانيين أو فلسطينيين ، بحكم أن الإمارة ومن ثمّ المملكة الأردنية الهاشمية كانت إحدى نتائج الثورة العربية الكبرى التي جمعت رجالاً من كل البلدان العربية . هؤلاء صادفهم الحظ بأن كانوا متعلّمين بدرجة عالية وذوي خبرة في الحكم لم يبلغها الشبان الأردنيون فتوالوا على الحكم بالضرورة، وكانوا قادرين على التعايش مع الوجود البريطاني ، فاتهمهم الشباب بأنهم متعاونون مع بريطانيا وأن الضرورة الوطنية الأردنية تقضي باستبعاد أولئك من الوزارات والمناصب الكبرى في الجيش .

هذه الآراء المطروحة لم تكن تتعامل بأي عمق كان مع الشعب الأردني ، بعكس تعامل أي مشكلة تقع في فلسطين بين العرب والبريطانيين والتي كانت مثل الحياة السياسية والانفعال في الأردن .

حرب فلسطين غيّرت كل العنايات العامة في الأردن على صعيد الحكم والشعب والجيش ، فقد كانت كالنار المشتعلة بالهشيم لم تترك بيتاً في الحضر أو البادية إلاّ والتهب بها ، وبسرعة اختزلت الزمن وكأن الحرب في شرق الأردن كما هي في فلسطين .

أصبح الوعي على القضية الفلسطينية ومن ورائها القضية العربية يأخذ أبعاداً حقيقية في الحياة الأردنية ، وغدت أخبار الحرب وبدون العلم بسياساتها الخبز اليومي الذي يتناوله الشعب أياً كان مصدر الأخبار .

ولمّا كانت الحرب في فلسطين علماً محصوراً بسياستها ونتائجها بالحكومات العربية ، وكان الأردن عملياً قطب الرحى في هذه الحرب ، فمن الطبيعي أن يجهل

الشعب الأردني كثيراً من حقائق الحرب . ولكن حقيقة واحدة لم تكن خافية على أحد وهي حشود اللاجئين التي وصلت إلى الأردن في حالة تملأ النفوس بالأسى والألم .

لم يكن الأردنيون ولا الشعوب العربية الأخرى تعلم المهمة المنوطة بجيوشها ، ولذا فقد أفجعتهم نتائج الحرب التي تمثلت واضحة في فقدان الأراضي وتشريد الشعب الفلسطيني . الأمة العربية في المشرق أدركت أن بريطانيا مكّنت اليهود من فرص عظيمة للسيطرة على فلسطين ، وأن إنهاء انتدابها فجأة مع ما رافقه من ظهور القوة الإسرائيلية العسكرية كان مؤامرة عظيمة لخلق إسرائيل .

الأردنيون والعرب لم يعلموا حقيقة سير الحرب وما وراءها من سياسات عجز عربية أو ممالأة للمستعمر البريطاني .

كانت بعض الحكومات العربية تعتقد واهمة أن العلاقة الأردنية البريطانية ستكون عاملاً أساسياً في إنجاح إنقاذ خطة التقسيم لسنة ١٩٤٧ ، وما علمت تلك الحكومات أن الملك عبد الله الذي يعتمد كلياً في إدامة الجيش الأردني على الإنجليز تصادم مع بريطانيا منذ الأسبوع الأول لدخول القوات العربية إلى فلسطين . والملك عبد الله كان أول من أدرك الخديعة البريطانية وحاول جهده تجميد آثارها ، ولم تكن بريطانيا تتصوّر أنه سيخرج على إرادتها في ظروف عملت فيها جاهدة لتحقيق الحلم الصهيوني في غفلة عربية وتحت ستار من النفاق الاستعماري للعرب . كانت بريطانيا صهيونية في عقلها وعواطفها وأعمالها ، ولكنها تبغي استمرار وجودها المستغل في المنطقة العربية متسترة بعملية النفاق المفضوحة .

ولم يكن الشعب العربي قادراً على تصوّر عجز حكوماته التي ارتبطت جميعها بالغرب المنحاز للصهيونية ، كما لم تكن الحكومات قادرة على تصوّر حجم المؤامرة الصهيونية ـ الغربية .

في هذه الظروف القاتمة كانت الصحافة والإذاعة المصريتين تمثّل مصدر المعلومات الأول للأمة العربية . وبالرغم من معرفة العرب جميعاً بسوء النظام في مصر وفساد ملك مصر ، إلاّ أن قوة الدعاية جعلت حتى الشعب المصري يتصوّر الكارثة في فلسطين وقد تركزت مسؤولياتها في عمان .

الحكومة الأردنية كانت متواضعة من ناحية معرفتها لحجمها وطاقتها والحرص على انسجامها مع الدول العربية ومصر على وجه الخصوص وحذرة في علاقتها مع بريطانيا ، علماً منها بأن الملك عبد الله غامر بهذه العلاقة إلى درجة لا يجوز تجاوزها متجمّلة بالصبر مع العراق الذي أحرجها حرجاً وصل إلى درجة اليأس .

وقد ساهمت سوريا أيضاً في تجريم الأردن ، كما أسهمت السعودية وبطريقتها التقليدية الصامتة في تحريض مصر وسوريا للنيل من سمعة الملك عبد الله الذي لم ينصفه إلّا الأردنيون والفلسطينيون .

الأردنيون كانوا حتى وإن غضبوا يعرفون حدود طاقة بلدهم الصغير في معالجة قضية هي فوق قدراتهم ، ويعرفون أنهم سكبوا دماء أبنائهم في فلسطين وتمنّوا لو سكبوا المزيد . والفلسطينيون على مختلف هيئاتهم السياسية وزعاماتهم الإقليمية ومع عمق جراح شعبهم ووطنهم أدركوا حقائق الصراع وعمقه في فلسطين ، وتنادوا إلى مؤتمر عُقد في أريحا بعد الهدنة الأولى واتخذوا قراراً بدعوة الأردن لقبول الوحدة مع ما تبقى من فلسطين في حوزة الجيش الأردني يوم ١ / ١٢ / ١٩٤٨ ، وقرّرت الحكومة الأردنية قبول القرار الفلسطيني يوم ١٣ / ١٢ / ١٩٤٨ .

الفصل الرابع

الوحدة الأردنية الفلسطينية والمملكة الأردنية الهاشمية

قامت قيامة الدولة العربية واتهمت الملك عبد الله بالتوسّع على حساب فلسطين وإجبار الفلسطينيين على يد عملائه (كذا) وعملاء بريطانيا (كذا) لقبول الضم ، متجاهلة أن المؤتمرين في أريحا جمعوا في ما بينهم التقليديين من الساسة إلى أكثر المتطرفين قومية .

كان الفلسطينيون وقد عجزت الدول العربية في تحرير وطنهم ، كما لازمتهم المخاوف من مخاطر إسرائيلية في المستقبل ، يرون في الأردن الحماية الممكنة . وقد قدّروا رغم كل الاختلاطات في الموقف العربي أن مستقبل القضية الفلسطينية أكثر ارتباطاً عملياً مع الأردن إلى جانب ارتباطها القومي بالأمة العربية .

بالنسبة للأردنيين كانت الوحدة بين الضفتين أمراً واقعاً لم ينفعلوا له، كحدث سياسي ، بمقدار ما نظروا إليه بعاطفة الأخوة الغامرة التي سادت في فترة استقبال اللاجئين .

الصحف الأردنية وإذاعة القدس بدأت بالردّ على الصحف المصرية والإذاعات المصرية والعربية لتفنيد الاتهمات المستمرة ، فإذا الشعب عندنا يشهد مرحلة صراع عربي إعلامي يكاد يبعد الأذهان عن الخطر الصهيوني. ولكن الإعلام المصري كان متفوّقاً وله بريق يتجاوز الإعلام الأردني .

ففي حين وجدت الحكومات العربية مخرجاً لخيبتها لم يحاول الأردنيون غضّ الطرف عن نقائصهم ، وبدأت هذه النقائص تتعاظم في رؤيتهم سنة بعد سنة كلّما وقع صدام مسلح على الحدود بين الجيش الأردني واليهود .

الأردنيون والفلسطينيون أخذوا ينظرون إلى مقتضيات المستقبل للتكافؤ مع العدو، وأخذت تتبلور في الأذهان صورة الوطن المستقل عن بريطانيا والمتضامن مع العرب، بالرغم من مغالاة الدول العربية في الابتعاد دعوة أو دعاية.

الأردنيون أخذوا على أنفسهم التقاعس عن نجدة القوات المصرية عندما انفرد بها الجيش اليهودي ، في حين لم تحرك الحكومة المصرية ساكناً عندما كان الجيش الأردني يتحمّل العبء الرئيسي من الحرب بسبب قرار الملك عبدالله بدخول مدينة القدس . وهم لم يبالغوا في الملامة على العراق البريء من أعمال نوري السعيد ، ولم يحملوا الجيش السوري مسؤولية لا قبل له بها بعد أن انكشفت حقائق الحرب للناس .

الأردنيون أخذوا أنفسهم بالقصور عن الدفاع عن اللد والرملة، بالرغم من أن القيادة البريطانية المسؤولة أحكمت عملية خذلان المدينتين، واعتبروا أن السيطرة البريطانية على الجيش أساس ضعف وطني لا بدّ من معالجته.

وبعد الوحدة بين الضفتين أخذت طلائع الفلسطينيين والأردنيين تعمل ليل نهار على الصعيد الشعبي ، وسرعان ما أصبح الشعب واحداً في نظرته وعمله على مبدأ تحرير الوطن السليب .

ظلت الدول العربية منكرة لهذه الوحدة إلى أيامنا هذه بالرغم من كل التطورات التي شهدتها ساحة الصراع العربي الإسرائيلي، في ما عدا الفلسطينيين لم تكن حكومة عربية واحدة تعطي هذه الوحدة قيمتها في ما عداهم لم ترَ الدول العربية في هذه الوحدة إلا مغنماً أردنياً .

الوحدة بحدّ ذاتها مغنم يضمن امتداداً للصراع مع الصهيونية عبر الأردن إلى الوطن العربي ، وإضافة إلى قوة الاستمرار في سيادة القضية الفلسطينية على كل قضية .

الأردن كان له مغنم شرف امتلائه بالحق العربي الفلسطيني وجوداً وفكراً، بما يتسامى به هذا الحق من حقائق تفوق كل الهرطقات السياسية التي حكمت مرحلة ما بعد الهدنة الدائمة.

ولكن الأردن كان يعاني وما زال معضلة كبرى تتمثّل في ضعف الموارد الاقتصادية التي حرمته من التكافؤ مع العدو الصهيوني ، فالثروات قليلة المردود نسبة إلى الدول العربية البترولية ومصادر المياه قليلة تتأثر بكثرة الأمطار أو قلتها . وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الضفة الغربية أقل موارد من الضفة الشرقية وما لجأ إلى الضفتين من مئات آلاف اللاجئين ، ندرك حقيقة الظروف التي حكمت أمانيه وحدّت من طموحاته . ومع ذلك فإن تجانس المجتمع العربي في الضفتين وغياب الإشكالات العرقية أو الدينية في هذا المجتمع أعطى الأردن ميزة الوحدة الوطنية في الدولة .

ولما أجريت الانتخابات النيابية قرر البرلمان بالإجماع الكامل قيام المملكة الأردنية الهاشمية من الضفتين ـ وذلك بالاختيار المحض من جميع ممثلي الشعب بمختلف انتماءاتهم الدينية والسياسية.

وفي هذه الأثناء ما بين الاتفاق على الهدنة الدائمة وإعلان الوحدة دستورياً حصلت اتصالات عديدة مع اليهود في لوزان مثلت وفود الدول العربية جبهة واحدة ، كما حصلت اتصالات مصرية يهودية وأردنية يهودية لبحث إمكانيات التسوية للصراع العربي الإسرائيلي سلمياً .

المصريون والأردنيون بالاتفاق أو بالصدفة أصرّوا على استعادة جنوب فلسطين للمحافظة على التّماس العربي في آسيا وأفريقيا ، وفشلت كل المحاولات اليهودية للاحتيال على هذا المطلب حتى اكتشفت الأردن أن المطامع اليهودية لا تتوقف عند حدود الهدنة وإنما تتعداها حتى نهر الأردن .

اليهود كانوا في الأبحاث كافة يعطون للتسوية مع مصر أولوية قصوى باعتبارها الدولة العربية ذات الوزن العسكري والثقل الدولي ، وفي الوقت نفسه يحاولون إيهام الأردن والعالم أنهم أقرب للتنازل عن أراضٍ للأردن ثمناً للتسوية . إلاّ أنهم وبعد محادثات عديدة كشفوا للأردن عن حقيقة نواياهم التي تتلخص بقبول وحدة الضفتين مقابل توقيع معاهدة سلام منفرد مع الأردن .

وفي تلك الظروف التي استبدّ بها غياب تكافل الدول العربية وجد الأردن نفسه في عنق الزجاجـة. من ناحية كانت مطامع الدولة اليهودية تصل إلى اعتبار الضفة الغربية أرض إسرائيل التي ينتهزون فرصة مواتية لاحتلالها. ومن ناحية أخرى، كان الجيش الاردني مقيداً ، حجماً وتسليحاً ، أو حتى وجوداً بالمساعدات البريطانية التي فرضت على الأردن وضعاً سياسياً حرجاً ووضعاً عسكرياً أكبر حرجاً .

والدول العربية بالرغم من دعاوى بعضها كانت تدرك أهمية أن يملك الأردن جيشاً قوياً . فبدلاً من تقديم العون وجدوا في العلاقة الأردنية البريطانية ألهية سياسية وموطن طعن في الدولة الأردنية ورأسها .

ولكن دولة واحدة غنية وجدت في هذا الوضع الأردني إشكالاً كبيراً وهذه الدولة هي المملكة العربية السعودية . فمن جهة تشجع الهجمة الدعائية على الأردن إلى أبعد الحدود ، ومن جهة أخرى تؤرقها العلاقة الأردنية البريطانية . ولو علمت الحكومة السعودية حقيقة تلك العلاقة بعد حرب فلسطين لارتاحت . إلاّ أن الملك عبد الله ، وبالرغم من صعوبة وضعه وتعاظم مسؤوليته الجديدة بعد الحرب ، لم يكن

بطبعه متواضعاً ، كما لم يكن مستعداً لقبول الادعاءات العربية وعلى الأخص من السعودية . فأخذ يدلي بتصريحات زادت من مخاوفها وشدة التصاقها بمصر ثم سوريا بالدرجة الثانية ومحاولة تحريك الحاج أمين الحسيني للتأثير على اللاجئين وأهل الضفة الغربية .

لا ينكر أحد أن الحاج أمين الحسيني كان زعيماً كبيراً ، وكانت له جمهرة من الأتباع وأخرى من الخصوم ، إلّا أن شعورهم جميعاً بأن حماية ما تبقى من الأرض تأتي في المرتبة الأولى حملهم على أخذ الوحدة بين الضفتين مأخذ الجد المتناهي .

والكفاح الفلسطيني للخلاص من السيطرة البريطانية ومتعلقاتها القاضية بخلق دولة يهودية في فلسطين كان طويلاً ومريراً ، وأبرز رموزاً للشعب الفلسطيني . ولم يتصوّر أحد في الأردن أن هذه الرموز ستمحى من الأذهان بمجرد قيام الوحدة .

كان عقل جمهرة الحاج أمين مع الوحدة وعواطفهم متعلّقة بتاريخ الصراع مع بريطانيا وزعامة الحاج، بينما كانت الزعامات الفلسطينية التي تمثل التيار الآخر ترى أنه كان ديكتاتورياً وبعيداً عن فهم حقائق المشكلة الفلسطينية وحلولها كما يرونها. ومن الغريب أن بعض أهم المدافعين عن الحاج أمين في مواجهة خصومه كانوا أعظم إيماناً بالوحدة من غيرهم ، حتى وإن اعتبرتهم الحكومة الأردنية من المشاكسين السياسيين .

وفي كل الأحوال، كانت العلاقة مع بريطانيا في تلك الأيام قدراً، وكان الملك عبد الله أقدر من يتعايش مع هذا القدر الكريه لنفسه وللأردنيين .

كان الملك عبدالله يحاول كسب أكبر قدر من الحماية البريطانية في مواجهة الدولة اليهودية التي تعاظمت قوتها بسرعة ، ويحاول تحصيل أكبر قدر من المساعدات العسكرية مالاً وسلاحاً وتدريباً ، وفي الوقت نفسه يجاهد لتقليص النفوذ البريطاني إلى أدنى الحدود الممكنة .

لبريطانيون بعد رحيلهم عن فلسطين قصدوا إلى تشديد القبضة على مصر والأردن والعراق ، وسلكوا في هذا السبيل مسالك عديدة يؤدي جميعها إلى هدفين :

١ - التفريق بين هذه الدول .

٢ - إحكام سيطرتهم عليها إلى أقصى الحدود الممكنة .

ومع أن بريطانيا كانت مستغلة للثروات في مصر والعراق فلم يكن في الأردن ما

تستغله إلاّ الموقع الجغرافي والجيش ، وبالرغم من أن الأردن كان يتقاضى مساعدات بريطانية قبل الحرب إلاّ أن السيطرة البريطانية لم تكن مفضوحة في الأردن كما في البلاد الأخرى . وقد كان الأردن صغيراً بسكانه وليست فيه إشكالات سياسية في ما عدا شعوره الحادّ بالنسبة لوعد بلفور والهجرة اليهودية .

أمّا بعد الحرب وقيام دولة الوحدة انتقلت القضية الفلسطينية إلى الأردن بضفتيه ، ممّا خلق ظروفاً جديدة تجعل المهمة البريطانية في الأردن أكثر تعقيداً من مهمتها في العراق .

كانت بريطانيا معنية بكبح جماح الدولة الجديدة في اتجاه فلسطين ، وترويض الدولة والشعب على قبول الأمر الواقع تمهيداً لإغفال الصراع العربي اليهودي والاتجاه إلى مقاومة التسلّل الشيوعي الدولي كما وصفه رجالها وضباطها .

هذا الوضع الذي أرادته بريطانيا للأردن كان قد تحقّق لها كاملاً في العراق وإلى درجة كبيرة في مصر .

كنّا شعباً وجيشاً نعلم أن الحزب الشيوعي الفلسطيني موجود وعلى ضعف في قدرته وقلة في عدده ، ومع ذلك كانت القيادة البريطانية قد أنشأت دائرة للمباحث لمطاردة كل الوطنيين والقوميين على حساب الشيوعية والشيوعيين.

ومن الطبيعي أن ينتج عن حرب فلسطين كراهية بالغة للوجود البريطاني لم تكن حادّة قبل الحرب ، الأمر الذي جعل البريطانيين في الأردن يدركون ضرورة نظرة جديدة للشعب الأردني بضفتيه على أساس مختلف من التقدير والعمل بعد الحرب . ففي حين يحاولون التفريق بين فلسطيني وأردني،تزايد التقارب الأردني الفلسطيني على الصعيد الحكومي والشعبي. وفي حين يحاولون تشديد القبضة على أصحاب الرأي والنشاط القومي، تزايد انتشار الفكر القومي.

طبيعة الحكم في الأردن كانت عقبة تواجه محاولات البريطانيين ممارسة القمع ، إذ كان الملك عبد الله متميزاً في سعة صدره واستيعاب المعارضة ، وكان حب الجدال والنقاش من صفاته فضلاً عن شعوره بالأبوة للشعب .

سعة أفق الملك اتسعت لمن يختلفون معه وإن حالت ظروفه أحياناً دون الاتفاق معهم، وكان يأخذ مكان الحكم بين السلطة وبين معارضيها. والوزراء كانوا أيضاً بعيدين عن التعنت في معالجة قضايا المعارضة، وأبوابهم مفتوحة لكل فئات الشعب.

المعارضة كانت ترى الأمل في الاتحاد العربي بعيداً عن بريطانيا . والحكومة

بحكم ممارستها السياسية لم تكن ترى هذا الأمل قريب المنال ، ولعلّ هذا الموضوع كان موضوع الحياة السياسية الأردنية .

ولكن الإدارة الحكومية كانت قبل الوحدة نظيفة ، ولم يعرف عن رئيس الوزراء أو وزير أو مدير أثرى بل كانوا مثالاً للطهارة المسلكية خلافاً لبعض ما نشهده في أيامنا هذه .

كما أن الوزراء ورؤساءهم ، إلاّ في ما ندر ، ينطلقون في مسالكهم السياسية من خطّ وطني بعيد عن أي تبعية لرغبات البريطانيين أو انتهاز عند أي دولة عربية على حساب المصلحة الأردنية .

وكانت سياستهم واحدة منسجمة إلى أبعد الحدود مع سياسة الملك ، وقلّ أن تتصادم مع اتجاهات مجلس الأمة الذي كان يملك منح الثقة أو حجبها عن الحكومة . وجميع الرؤساء في ما عدا واحد منهم عرفوا باحترام الذات في تعاملهم مع البريطانيين .

البرلمان والأحزاب

بعد قرار الوحدة في مؤتمر أريحا وتعديل الدستور ليتلاءم مع الوضع الجديد صار البرلمان بمجلسيه مناصفة بين الضفتين ، ولكي تأخذ الوحدة الصفة القانونية صوّت البرلمان بمجلسيه على قرار المملكة الأردنية الهاشمية على الضفتين .

هذا الوضع جعل السلطة التنفيذية والتشريعية قسمة بين الشعبين المتّحدين ، وتأسست عليه المشاركة في المناصب الوزارية والوظائف الإدارية والجيش وقوات الشرطة. وأخذ أهل الضفة الغربية يعبّئون مناصب كثيرة تزداد وبسرعة في الإدارات والشرطة ، ولكنها انحصرت على عدد محدود منهم في الجيش بسبب قلة العسكريين من الفلسطينيين، وجُلُّهم من منتسبي قوة حدود شرق الأردن المنحلة مع انتهاء الانتداب البريطاني في فلسطين.

أخذ التكوين الجديد يأخذ شكله في جميع مناحي الحياة في الضفتين بعد أن امتلأت الحياة بالمضمون السياسي والوطني اللذين سبقا الوحدة . من هنا كانت طروحات المرشحين لانتخابات مجلس النواب في الضفتين تكاد تكون منسوخة عن بعضها ، حيث قضت الظروف الموضوعية بوحدة الهدف عند الشعب بكل فئاته .

التحرير لأرض فلسطين من الغزاة الأجانب الوافدين من كل الأرض، أصبح الهدف القومي الوحيد الذي بُنيت عليه الاجتهادات الوطنية كافة ، وكذلك إعادة

الأرض إلى أهلها وإعادة الأهل لأراضيهم أصبحت عنوان دولة الوحدة وعلمها واتجاه شعبها دون استثناءات كبرت أو صغرت .

التحرير هو المفهوم الوحيد الذي لا يقبل تحويراً أو تحريفاً ، وهو القناعة الأولى والأولوية التي لا يتقدمها هدف ، والطريق التاريخي الذي أملته ظروف الواقع المرّ على الأمة العربية وشعب الأردن أملاً وسلوكاً على جيل النكبة والأجيال اللاحقة .

من هذا المنطلق بدأت التفاعلات بين أبناء الضفتين وبينهم وبين أبناء الأمة العربية في الشرق والمغرب ، ممّا أدّى إلى انتشار حركات قومية ودينية لكل منهما ارتباطات في المشرق. ومن هذه الحركات البعث والقوميون العرب والإخوان المسلمون والتحريريون ، بالإضافة إلى الحزب الشيوعي الذي اختلف مع الحركات الأخرى في نظرته إلى الدولة اليهودية ومستقبلها في قلب الوطن العربي حتى زمن طويل .

أمّا الرجال الذين كانوا يشكّلون السطح السياسي وطبقة الحكم في الدولة ، فكانوا من جيل ومن شريحة اجتماعية لم يمنعها اتجاهها الوطني والقومي من توجّس الخوف على مستقبلهم من الحركات الجديدة وعلى الأخص من البعثيين والقوميين العرب . ذلك أنهم وجدوا في هذه الحركات الجديدة مراكز استقطاب شعبي وأساليب نشاط ديناميكية تنظيمية لا قبل لهم بمنافستها على المدى البعيد .

ولمّا كان البريطانيون لا يحتملون قيام تنظيمات حزبية قومية تهدّد بالتالي سياساتهم التي تعتمد تكريس التجزئة والتقسيم لأرض العرب ، فإنهم ذهبوا إلى دمغ هذه الحركات القومية بالشيوعية تكريهاً للشعب المتديّن فيها وإثارة لأصحاب الوجاهات والنفوذ التقليديين على مصالحهم .

كانت كلمة الاشتراكية توحي بطبيعتها للجمهور العام بالشيوعية ، وكانت الدعوة إلى العلمانية تفهم بأنها دعوة للإلحاد . ومن هنا كانت قسمة بين التقليديين والإخوان المسلمين في جهة والبعثيين والقوميين العرب في جهة أخرى .

ولكن هذه التقسيمات لم تكن قاطعة إلى درجة الاقتتال ، مع أنها فتحت أبواب تنافس عصبي بين المتحالفين في كلا الجبهتين مع استمرار التنافس بين كل أطراف الفريق المتحالف على اختلافها .

كانت حادثة عدوان إسرائيلي على قرية قبية أو التي وقعت في ما بعد كافية لإشعال جذور المشاعر الوطنية عند كل الفئات وكل الشعب والحكومة ، وإلى درجة إحراج الحكومة التي قصرت قدراتها العسكرية عن الانتقام .

فالشعب في الضفتين كان يتحرك بعفوية أحياناً ، وبتحريض الفئات الحزبية المنظّمة أحياناً ، وعند كل مشكلة تبرز مطالب التحرير والثأر ، وهما شعاران مقدّسان تبلورت لتحقيقهما أفكار عامة ولكن دون مناهج تفصيلية .

الإخوان المسلمون يدعون إلى الدولة الإسلامية ، والبعثيون والقوميون العرب يدعون إلى الوحدة العربية ، ولكنّ الشيوعيين لم يكن يهمهم لا هذا ولا ذاك ، وعلى العكس كانوا يدعون إلى التعايش مع اليهود في ظل الأممية ويشجبون الاتجاهات القومية والدينية ، ويصفونها بأنها حركات لن تثبت أمام التاريخ .

ولكن بالنتيجة وعلى الرغم من استنفار القوى التقليدية وعداء القيادة البريطانية ، فقد وصل إلى البرلمان عدد من الشبان القوميين الذين استبشرت بهم الحركة القومية خيراً ، كما وصل عدد محدود من الاتجاه الديني إلى مقاعد النيابة أيضاً .

ولست بصدد مناقشة النظرات القومية أو الدينية هنا ، إلّا من ناحية واحدة أرى الاتجاهين لم يعطياها التفكير الكافي في تكون النظرة السياسية العقائدية . البعثيون مثلاً قصّروا في إبراز الدين الإسلامي في الوجود العربي دولة وحضارة ، كما قصّروا في اعتبار التعاليم الإسلامية مرجعاً من مراجعهم التراثية . والإخوان المسلمون أنكروا العربية وجوداً وكياناً إنكاراً كاملاً لا يقرّه التاريخ ولا يقره كتاب الله ، واستقروا على عصبية فكرية وتفسير للدين بجانب كل تفسير عرفه المسلمون في قضايا أساسية تؤثر على المستقبل العربي .

من خالف هؤلاء بإنكار العروبة أوصلوه إلى درجة الكفر ، ومن خالف هؤلاء بأن الوحدة الإسلامية في دولة واحدة أبعد من أمل الوحدة العربية اتهموه بالخروج .

فإذا كان الناس في بداية الخمسينات يذكرون للبعثيين والقوميين بالخير نشاطهم الموحّد بين أبناء الضفتين بأنهم يذكرون للإخوان المسلمين المصريين تضحياتهم في فلسطين ، التي لم يشاركهم فيها أردني أو سوري أو عراقي من الإخوان المسلمين . ولكنهم في الأردن حملوا أنفسهم أجراً لم يجهدوا الأنفس أو يبذلوا الأرواح لأجله ، وهو أجر لا يجوز فيه التجيير من شعب إلى شعب أو من فئة إلى فئة من بلد آخر .

دعوة البعث للحرية لم يكن ليعارضها أحد لو اقتصرت على هذا العنوان ، ولكن ربط الحرية بالوحدة العربية كانت تثير مخاوف الاستعمار من ناحية ومخاوف الحكام العرب من ناحية أخرى . فإذا أضفنا إلى هذين المبدأين الدعوة للاشتراكية

كان من الطبيعي أن تدخل حركة البعث معركة من أطراف كثيرة في الأردن والوطن العربي .

التناقض في الأردن قام بين البعثيين وبريطانيا أولاً ، وبين البعثيين وبين فئات الحكم التقليدية وبينهم وبين الاتجاه الديني وبينهم وبين ما يمكن تسميتهم بالعائلات أو البيوت ذات الزعامة في محيطاتها .

فاقتران الحرية بالوحدة وبالاشتراكية جذبت أعداداً كبيرة من الشباب ذوي العناية بالتخلّص من الاستعمار وإعادة بناء الأمة العربية لتحتل مكاناً مجيداً بين الأمم ، كما انتزعت شباباً يفترض الواقع العام إلى أنهم ينتمون إلى طبقة متميزة بجاهها أو غناها. هذا وتجدر الإشارة إلى أن الأغلبية من منتمي البعث جاءوا من الطبقة الوسطى ودون الوسطى اقتصادياً واجتماعياً ، إلا ما ندر ، ولكنهم خريجو مدارس ثانوية أو جامعات . فالمحامون وأساتذة المدارس والطلبة وصغار الموظفين شكلوا قيادات قواعد البعث، بينما كان القوميون العرب يجمعون إليهم أصحاب التجارة والمال والمناصب الهامة ، ولا يعتبرون الاشتراكية هدفاً ممّا أثار جدلاً حول نشأتهم الفكرية .

لماذا الاشتراكية ؟ كان الموضوع الحاد الذي أثار الجدل عند خصوم البعث ، وذلك لأن أي مستهجن لمبدأي الحرية والوحدة العربية لم يكن يجرؤ على الطعن بهما ، وعلى العكس من ذلك كان الخصوم يتظاهرون بالرضا عن الحرية والوحدة ويعلنون الطعن بالاشتراكية ويصفونها بالشيوعية المقنّعة .

ولمّا كان حزب البعث منتشراً في الخمسينات في سوريا حيث بدأ ثم الأردن والعراق ، فإن القوة الوحيدة في الميدان التي أدركت خطر انتشاره منذ البداية كانت بريطانيا . ففي السنين الأولى من ظهور طلائع الحركة لم ترَ فئات الحكم فيهم أكثر من أفكار مراهقة لن يكتب لها الاستمرار على حد تعبيرهم . ومع مرور الوقت وجدوا في التحذيرات البريطانية في الأردن والعراق جدوى ومعنى ، فصار الأمر إلى الاعتراف بخطرهم وبدأت ملاحقاتهم من أجهزة الأمن وبنفس درجة ملاحقة الشيوعيين .

المتقدّمون من الشباب في السن من أهل الحظوة والذين تخرّجوا من الجامعات العربية وأخذوا مكانتهم في الحكومة أو البرلمان ، تعاطفوا مع البعثيين والقوميين العرب وبدرجة أقل مع الشيوعيين ، وبالتالي تشكّل لقاء على أهداف مرحلية تتمثّل في مقاومة النفوذ الأجنبي والسير على طريق الوحدة العربية مع شذوذ الشيوعيين عن هدف الوحدة .

في تلك المرحلة تمايزت الدول العربية بثرواتها ، ممّا خلف تمايزاً بين حالات مجتمعاتها اقتصادياً ، كما تمايزت في صناعاتها وإن كانت في معظمها صناعات بسيطة وبدائية ، كما اختلفت فيها كثافات السكان ولكنها جميعاً باستثناء السعودية والكويت كانت بلاداً زراعية .

العراق وسوريا وفلسطين كان فيهما إقطاع سياسي وزراعي واقتصادي ، بينما الأردن لم يكن فيه إقطاع بأي معنى علمي صحيح بسبب أن الأراضي لم تكن تستغل كلّها ولم تكن أجزاء عظيمة من الأراضي مسجّلة لواضعي اليد عليها ، وهي الأراضي القريبة من الصحراء التي أشغلتها القبائل البدوية .

في الأردن كانت وجاهات عشائرية محترمة ، ولكنها لا تملك الكثير ، والمعيشة عامة مضمونة الاستقرار للموظفين . أمّا الفلاحون فكان رزقهم يتّسع أو يضيق بما تمنّ به السماء من أمطار .

سمة الفقر كانت ظاهرة في مناطق عربية كثيرة من بلاد المشرق وأقلها وضوحاً في الأردن لقلة السكان ، إلى أن استوطنه مئات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين غالبيتهم من أصول فلاحية وعمالية ، ممّا أدّى إلى ضيق موارد الوطن بحاجات المجتمع الجديد .

الشيوعيون وبعدهم البعثيون حملوا مهمة دمغ الإقطاع ودعوة الناس إلى الاشتراكية ، وكانت لهم نجاحات محدودة في الضغط على ضمير المجتمع وبعض الحكومات للانتباه إلى مشكلة الفقراء ، وتنامي الوعي على الطبقية . كما برز التناقض مع الإقطاع وطبقة رأس المال في الشرق العربي خاصة في مصر وسوريا والعراق .

ولمّا كانت هزيمة ١٩٤٨ وقيام الدولة الصهيونية فاجعة حركت الفكر العربي نحو إيجاد الحلول لمواجهة الغزو الجديد ، فلم يكن عند أهل الفكر إلاّ بعث الدعوة إلى الوحدة كمطلب ملحّ لاستعادة الوطن السليب وضمان الحرية والأمن للأمة .

ومن هنا ارتبط مطلب الوحدة بالاشتراكية كي تؤدّيا إلى التكافل العربي ، وتكامل القوة السياسية والاقتصادية بين الأقطار العربية وتحقيق العدل الاجتماعي للإنسان العربي .

الأنظمة العربية ووراءها الاستعمار اتّخذت من الاتجاه الوحدوي موقفاً عدائياً واعتبرت الاشتراكية وليداً للشيوعية العالمية ، ولم تسمح لنفسها فرصة للتفكير بإيجابية في ما هو مطروح، غافلين وحتى يومنا هذا بأن الاستعمار الأجنبي لا يكفل للعرب أمناً.

لقد فاتهم أن استيعاب القضية العربية بحلول عربية على مستوى الأمة والأفراد يحفظ الأرض والثروة على مدى الأجيال القادمة ، وأن نكران هذه الحقيقة سيطيح بهم وبالدعاة الإصلاحيين بما يضيع حياة أكثر من جيل في تخبط الأمة في الانقلابات والثورات .

هذه الأنظمة العربية لم تكن ترى ولا تزال تتجاهل أن العدو الصهيوني سيكلفها جميعاً تضحيات، وعلى طول زمن، من أرواح أبناء الأمة ومن ثرواتها وأراضيها ما لا يمكن تقديره ، وبالتالي كل مقومات الوجود والهويـة إن لم يقبلوا بالوحدة .

وكلّما تقدّم الزمن يثبت أن الوحدة والاشتراكية مقترنة بديموقراطية الحكم ، هي الضمان الوحيد لحفاظ العرب على مجتمع متكافل متضامن قادر على الصمود في وجه التحديات العظمى التي تواجه الأمة .

فعدالة التوزيع واجب مقدّس حضّ عليه ديننا الحنيف ، والأرض ملك لمن يحرثها ويدافع عنها ، ولا يصلح حال يملك معه الأرض مستغل لجهد العشرات دون مستقبل لهم بينما يكنز هو المال لمتعته وأولاده من بعده . كما وأن نظاماً يتيح الاحتكار للكسب دون حدود أو الكسب الحرام على حساب الفقراء لا يكتب له النجاح ولا يستمر له البقاء .

وفي عصرنا هذا الذي تكدّست فيه أموال العرب في المصارف الأجنبية ، في حين تعاني الأمة كلها من قهر الأجنبي والصهيوني ، وتعاني بلاد عربية كثيرة من الافتقار إلى الاستثمارات لضمان العيش الكريم، في هذا العصر تبرز الحاجة الملحّة وبشكل صارخ إلى الاشتراكية والتكافل العربيين . لهذا كله وجدت دعوات الإصلاح أو الثورة استجابة عند الجماهير العربية بالإضافة إلى حنينها إلى توحيد الأمة وتأكيد سيادتها .

من هنا كانت الخمسينات تبرز التناقضات بين المجتمعات العربية من ناحية ونظريات الحكم فيها من ناحية أخرى، وكذلك تناقضات مصلحة الأمة مع مصلحة المستعمر المتعاون مع فئات عربية. أفكار الوحدة العربية أذكتها في الأردن الهزيمة العربية في فلسطين كما أذكتها في المشرق العربي كله، وقد سبق الهزيمة طروحات الهلال الخصيب وسوريا الكبرى وكان لرجال الرعيل الأول وفي مقدمتهم الملك عبد الله فضل في تذكير الناس. وقد يستغرب القارىء إن كان في الأردن وقبل كارثة فلسطين رجال ينادون بالوحدة والتخلص من الاستعمار قبل أن تظهر حركة القوميين السوريين أو البعثيين. وكانت المدارس تركز على توجيه الطلاب إلى الإيمان بالوحدة العربية.

لذا ، فإن شباب الأربعينات والخمسينات كانوا جاهزين لتلقي الحركات القومية وبرامجها والانضمام إليها أو التعاطف معها ، وكان حزب البعث يجد استجابة جعلته في مقدمة الأحزاب في الأردن والوطن العربي .

ماذا عن الجيش

كان الجيش بعيداً عن الحياة المدنية وخاصة سنتي ١٩٤٨ و ١٩٤٩ بحكم انشغاله بواجباته الدفاعية في الضفة الغربية ، إلّا أن تأثير نتيجة الحرب عليه كانت قاسية إلى أبعد الحدود .

لقد رأى الضباط والجنود كيف سلبت إسرائيل الأرض الفلسطينية وشاهدوا مأساة اللاجئين، وشهدوا أعمال القيادة البريطانية التي أساءت إلى العدد الأعظم من الجيش، واعتقدوا ببساطة وعفوية أن بريطانيا أساءت إلى العرب ومكنت اليهود من هدفهم، وأن الضباط البريطانيين في الجيش أدّوا الدور البريطاني في الحرب وخذلوا الجيش الذي يقودونه.

إلّا أن عدداً من الضباط الذين وعوا الحرب وإدارتها على الجبهات كلها وعلى الجبهة الأردنية بشكل خاص ، كانوا أقدر على تفسير المعطيات والنتائج سياسياً وعسكرياً ، ممّا جعلهم يشعرون بواجب إنهاء العلاقة الأردنية البريطانية . وبالرغم من قناعة كثير من الضباط بصحة الهدف إلّا أنهم فضّلوا الانضباط وترك العمل السياسي للسياسيين .

عدد محدود من الضباط شذّوا عن هذه القاعدة سنة ١٩٤٩ وأخذوا يدعون لهدف إنهاء السيطرة البريطانية على الجيش وفي مقدمتهم عبد الله التل ، علي أبو نوار، محمود الروسان ، محمود الموسى وقاسم الناصر ، ووجدت الدعوة حماساً عند ضباط المدفعية الذين لم تتجاوز رتبة أكبرهم الملازم ثان ، وفي مقدمتهم شاهر يوسف ومحمود المعايطة، وكان أولهما وثيق الصلة بي شخصياً، والثاني محل تقديري ومحبتي لما أبداه من بسالة في معارك باب الواد.

في ذلك الوقت كنت ركن العمليات الثاني في قيادة الفرقة ، إذ أُرسل سَلَفي الوكيل القائد صادق الشرع لدورة كلية الأركان في بريطانيا مع علي الحياري قائد كتيبة المشاة الخامسة . وكان عبد الله التل حاكماً عسكرياً لمدينة القدس وعلى صلة مستمرة بي بحكم العمل .

وكان عبد الله التل ذائع الصيت مقرّباً من جلالة الملك عبد الله بحكم أنه قائد

معركة القدس القديمة، وقد أحبه أهلُ القدس جميعاً لما تحـلّى به من دماثة خلق وسعة صدر كما أحـبه ضباط الجيش، واجتمع حوله عدد من مثقفي منطقة القدس يجتمعون أحياناً في قيادته للحديث عن الموضوع الوحيد المطروق آنـذاك. . . ما هو المستقبل؟

كان عبد الله التل يجأر في كل أحاديثه بالنقمة على بريطانيا وجلوب باشا والقادة البريطانيين بالرغم مما قد يسببه له ذلك من متاعب، أولاها كانت تنحيته عن قيادة كتيبته وتعيينه حاكماً عسكرياً للقدس وفي مرحلة لاحقة تعيينه متصرفاً للقدس مع فصله كلياً من الجيش .

وقد كان السند الوحيد له هو جلالة الملك الذي حاول إبقاءه في الجيش إلّا أن الحكومة تدخلت عند الملك لإنفاذ قرار قائد الجيش ، متّهمين عبد الله بالخروج على المسلك العسكري واستغلال وضعه في القدسلخلق بلبلة بين الأهالي وضباط الجيش .

نحن الضباط لم نكن نعلم عن مشكلة عبد الله مع الحكومة ، ولكننا نصحناه بالتستر وعدم الإفصاح عن رأيه علناً بضرورة طرد القيادة البريطانية ، كما شددنا عليه ألّا يحاول مع ضباط اقترحهم عليّ وعلى محمود الروسان لضمّهم إلى تكويننا الناشىء ، ولكنه لم يعمل بنصيحتنا .

مساء يوم اتصل بي الرئيس كاظم بدوي من رام الله وطلب مقابلتي خارج قيادة الفرقة ، فزرته في بيته وإذ هو يبادرني بالسؤال :

ما هي مشكلة عبد الله التل ؟

قلت له لا أعلم أن له مشكلة . أعلمني ما عندك .

فروى لي أنه كان في قيادة اللواء في نابلس في عمل فرأى خالد الصحن يجتمع بالزعيم جولدي قائد الفرقة اجتماعاً مطولاً خرج جولدي منه حانقاً ، ولما طلب منه كاظم بعض الوقت لبحث حاجات الحرس الوطني أمره بالركوب معه إلى رام الله للحديث على الطريق . وفجأة انفتح الزعيم جولدي بقوله : ماذا يريد عبدالله التل ؟ هل يعتقد أنه قادر على طرد البريطانيين من الجيش ؟ وماذا فعلت بريطانيا للأردن حتى يتنكر عبدالله التل لنا الخ . . إلخ؟

طلبت من كاظم بدوي أن يذهب على الفور إلى القدس ويبلغ عبد الله بما سمع ، كما اتّصلت به من قيادة الفرقة أعلمه بزيارة كاظم له .

في اليوم التالي افتقدنا عبد الله التل ، وعلمنا أنه ذهب إلى عمان ودخل المستشفى ، ثم فوجئنا بخبر وصوله إلى القاهرة وهكذا اطمأننت ومحمود الروسان ومحمود الموسى وقاسم الناصر أن السرّ ظل مكتوماً في ما يتعلق بالضباط جميعاً . وهكذا ذهب عبد الله بسبب انفراده بالقرار رغم نصائح زملائه الذين أعطوا لمهمتهم درجة من الخطورة استهان هو بها . بحيث استعجل الأمور وأخذها بدون رويَّة.

هذه الحادثة جعلت قيادة الجيش تهتمّ ولأول مرة بخلق جهاز صغير لمراقبة الضباط ، أخذ يكبر حتى غدا جهازاً كبيراً تواجد في معظم الكتائب والقيادات ويدار من دائرة الاستخبارات العسكرية ، وجهاز آخر سمّي في ما بعد بدائرة المباحث ولا أريد أن أسمي الضباط العرب الذين أوكل إليهم تنظيم حلقات التجسّس ، حيث إني فصلتهم من الخدمة عندما توليت قيادة الجيش سنة ١٩٥٦ .

في قيادة الفرقة في رام الله سعدت بمعرفة وكيل القائد العراقي مظفّر مجيد التك الذي كان ضابط ارتباط القوات العراقية ، إذ كان ضابطاً قديراً ويتمتع بروح عالية شأنه شأن كل الضباط العراقيين .

وقد رافقني مظفّر في زيارة رتّبها لي لقيادة القوات العراقية في نابلس ، حيث تعرفت إلى العقيد غازي الداغستاني، وجرى حديث طويل انتهى بإعجابي به وكفاءته العسكرية وسعة أفقه ومعلوماته . وتمنّيت لو كان غازي قائد الجيش العربي بدلاً من جلوب البريطاني .

قابلت كثيراً من الضباط في تلك الزيارة على خطوط الجبهة ظهرت آلامهم المحبوسة على صفحات وجوههم لعظم خيبة أملهم بنتائج الحرب . أكثرهم يقول: جئنا نطلب الموت وفرض علينا القعود . الله كريم .

الضباط العراقيون عسكريون بكل معنى الكلمة ، فيهم خشونة المقاتلين مع دُربة ودراية بأمور الحرب وفروسية في أخلاق وإيمان بالقدر يسوّغ لهم الموت . للواجب عندهم قدسية وللزمالة احترام وللقيادة إطاعة . العروبة متأصّلة في نفوسهم والإيمان بالدين متمكّن من قلوبهم ولا يعيبهم إن ابتلوا بنوري السعيد وزمرته . ولا يحملون وزر قصور مهما كان لأنهم أبرياء جاءوا إلينا ليموتوا أو يعودوا للعراق والعرب بنصر حالت دونهما تخاذلات الساسة في بغداد.

عدت إلى رام الله وقد حمّلتني زيارة بعض القطعات العراقية أحزان ضباطها وأشجان الأمل الضائع وأحلام المستقبل ، وجلست في غرفتي مع مظفر مجيد التك الذي بادرني بقوله : علي ، تعال نرسم خطة لاحتلال القدس . على الأقل يكون في

هذا تمرين عقلي. وهكذا كان، رسمنا ولكنْ تمرين عقلي لا أكثر، وكان هذا آخر عهدي بمظفر والجيش العراقي حتى سنة ١٩٥٦ .

ما دمنا نتحدّث عن الجيوش، نذكر ما أثاره الجيش السوري من اهتمام في البلاد العربية، إذ قام الزعيم حسني الزعيم بانقلاب على الرئيس شكري القوتلي وحكومته بترتيب علِمنا في ما بعد بأنه أمريكي. ثم قام العقيد سامي الحنّاوي بانقلاب وصف بأنه مرتبط ببريطانيا والعراق، وأخيراً كان انقلاب العقيد أديب الشيشكلي والذي نصّب نفسه رئيساً للجمهورية حتى سنة ١٩٥٥ وخرج منفياً إثر انتفاضة عسكرية وشعبية عليه وكان للبعثيين، ضباطاً وحزباً، دور واضح في إزاحته .

كان الرئيس الشيشكلي يتميّز عمّا سبقه من الضباط بفهم أوسع للسياسة وإدارة الدولة وأعمال العمران وتميّزت علاقاته العربية بالتوازن والانسجام، إلا أنه كان ديكتاتوراً يعتمد الضباط في ضبط الدولة ، ممّا أدّى إلى سيطرة الجيش على شؤون الدولة وإلى نزوع الشعب السوري تدريجياً عن محبته. وبدأت تظهر استغلالات الضباط لنفوذهم، كما عرف أن شقيقه كان يمارس أعمال فساد واستغلال تصل إلى حد تهريب المخدرات.

صحا الشعب السوري الذي تحمّس، بادىء ذي بدء، للانقلابات على ضياع حريته، والتقت رغبته مع رغبة مصر، فعاد الرئيس القوتلي إلى سوريا وانتخب رئيساً وشهدت سوريا معه عهداً زاهراً بالحرية والرخاء الاقتصادي. وللحديث عن سوريا مجال في فصول قادمة .

في شهر تشرين الثاني ١٩٤٩ انتخب محمود الروسان لدورة كلية الأركان التحضيرية في الجيش البريطاني في فايد بمصر. وفي كانون الأول أوفدنا إلى كلية الأركان في بريطانيا حيث قضينا فيها سنة من الدراسة الناجحة، وبهذا أصبح أربعة ضباط أردنيين يحملون مؤهلات ضباط الأركان هم: علي الحياري، وصادق الشرع ونحن الإثنان الجـدد.

كلية الأركان تهيِّيء ضباط الركن وقادة المستقبل وتدرس العلوم العسكرية التكتيكية والاستراتيجية، وبحكم أن بريطانيا متواجدة على إمبراطورية تمتد إلى آسيا وأفريقيا فقد كانت الدراسات تتناول استراتيجيات عسكرية واسعة مستندة إلى ما سموه الحفاظ على العالم الحر المتمثّل بالحلفاء الأوروبيين وأمريكا. ولمّا كانت الحربان الكورية والفيتنـامية قائمتين بالإضافة إلى الثورات الاستقلالية في المستعمرات، فقد

كانت التصورات السياسية البريطانية تحكم الدراسات العسكرية في كلياتها العسكرية المختلفة.

ولكن الهمّ البريطاني الأكبر تأتّى من ظهور الاتحاد السوفييتي كقوة عظيمة تحمَّلت العبء الأعظم من الحرب العالمية الثانية في أوروبا بما حملته إلى دول البلقان من نظم سياسية واقتصادية شيوعية، فضلاً عن الأحزاب الشيوعية في فرنسا وإيطاليا كقوى جديدة مؤثرة .

كان الحلفاء آنذاك يعتبرون احتمال قيام الحرب بينهم وبين الاتحاد السوفييتي بجدية كاملة ، واضطلعت أمريكا بالقيادة الفعلية السياسية والعسكرية في معسكر الحلفاء، وكانت الدعوة ضد الشيوعية في بريطانيا نفسها تنتهج نظريتين :

أولاهما: أن الديكتاتورية الشيوعية خطر مُدمِّر للحريات والديمقراطية ويجب قهرها بالحرب إذا احتاج الأمر .

ثانيتهما: أن الشيوعية عدوّة المسيحية والأديان وأن على المسيحية أن تقاومها وتقهرها .

وقد أجمل الفيلد مارشال مونتجمري أوجه الصراع بين الحلفاء وبين الكتلة الشرقية في محاضرة طويلة فصّل فيها النظرية الغربية وما تستند إليه من استعدادات في مناطق الكرة الأرضية . وذهب إلى حد إيضاح الحديث بالتفصيل عن العلاقات مع روسيا إبان الحرب وبعدها ، وشكوكه في القيادة الروسية التي جاوزت شكوك رئيس الوزراء تشرتشل ، خصوصاً في مؤتمر يالطه الذي وصفه بأنه فخ الخديعة الروسية الناجح والذي مرّ على تشرتشل وروزفلت بالرغم من نصائحه .

قال مونتجمري : « أنا كمسيحي مؤمن أرى أن العالم الحر عليه لضمان سيادته محاربة روسيا الآن قبل أن يتمكن السوفييت من تركيز سيطرتهم في دول البلقان وبحر البلطيق وقبل أن يتوسعوا بالتسلل إلى آسيا وأفريقيا » .

«إن المصالح البريطانية وطريقتها في الحياة تتعرّض مع مصالح أوروبا وأمريكا للخطر إذا ما تمكّن الروس من السيطرة على أسواقنا وموارد المواد الخام في العالم الذي يرفد صناعاتنا ، وبذا تصبح أوطاننا الحرة عرضة للهجوم وحضارتنا عرضة للاندثار . لذا ، فإن على مؤسساتنا العسكرية أن تعمل متناسقة مع الحلفاء وبخاصة أمريكا على صدّ هذا الوحش المخيف».

بعد المحاضرة ذهبنا إلى نادي الضباط لتناول الشاي على شرف الفيلد مارشال

مونتجمري ، وجلست ومحمود الروسان بجوار العقيد ناجي طالب من الجيش العراقي وزميلنا في الدراسة هذه . سألت جاري الضابط البريطاني عن رأيه في المحاضرة فأجاب بالحرف الواحد (He is crazy) أي أنه مجنون . علق العقيد ناجي باللغة العربية وكان عمدتنا وشيخنا سناً وعسكرية بقوله : « إن تحليل المحاضرة المبدئي يظهر مدى مايمكن أن نعانيه نحن العرب في سبيل استخلاص حريتنا من بريطانيا » .

ناجي طالب خريج كلية الأركان العراقية ومن ثم المدرّس فيها وزميلنا كان يكبرنا على الأقل بسبع سنوات وذا قدرة خاصة . كان قليل الكلام وإذا تكلّم أسمع بصوته الجهوري الكلية بكاملها ، وقد احترمه زملاؤه البريطانيون لتفوقه في الأبحاث والمناقشات .

إذا نطق ناجي برأيه في الإنجليز الذين يكرههم كان صوته مشكلة ، وكان ذا نكتة حاضرة نطرب لها والضابطان الباكستانيان أحمد وضياء (ليس ضياء الحقّ) وكذلك العقيد فريدون جام الإيراني .

وفي إحدى المحاضرات العامة وقد تزاحم الضباط في ممرّ ضيق كنت وأحمد الباكستاني قريبين من ناجي وإذا بصوت ناجي يرتفع : «أحمد، قل كيف يمكن أن أتعايش مع هؤلاء البريطانيين الملاعين؟».

كان الضباط البريطانيون يمرّون في الممرّ وببطء وهم يهمسون تعليقاتهم على قول ناجي ، وقد أمسك بي الضحك حتى شعرت بالألم في خاصرتي .

نحن الضباط الشرقيين عرباً وباكستانيين والإيراني جمعتنا مصائب مختلفة ولكنها تنبع من لندن وتنصبّ علينا في أوطاننا دون رحمة . لندن تريد استمرار سيطرتها علينا ونحن ننشد الحرية من سيطرتها ومع اختلافات في الصورة من وطن إلى آخـر، إلاّ أن الحصيلة في معاناتنا التي تصارحنا بها جميعاً كانت واحدة .

كان الضابطان الباكستانيان حذرين من مصارحة البريطانيين في وجهات نظرهم خلافاً للعراقي والأردنيّين والإيراني . محمود الروسان لم يكن يعرف حدوداً في هجومه على بريطانيا أمام الضباط البريطانيين. وكان أسلوبه مشبعاً بالكراهية والاحتقار دون إبراز الموضوعات ودون قبول أي نقاش مهما كان. يمكنني أن أصف محمود بأنه يتصرّف معهم وكأنه هو المستعمر المتغطرس . كان ينطلق من الاهوَن عقله وكان عليّ أن أفسّر بالموضوعية التي لم تخلُ من حدة في التعبير عن أسباب نقمتنا على بريطانيا .

فريدون جام والذي سبق وأن زار أمريكا ودرس في كلياتها العسكرية كان معجباً بالأمريكيين وداعية لهم . ونحن البقية الذين لم نعرف عن أمريكا الكثير سوى مساندتها للصهيونية لم تعجبنا آراؤه ، وقد كشفت أحاديثه عن اتجاه السياسة الإيرانية الحديثة وتبعيتها لأمريكا .

ناجي طالب يستحق الحديث لأنه حمل رأساً عامراً بالعلم والمعلومات واللقاء به كان فرصة لا تعوّض ، حيث إننا جميعاً كنّا نتحدث بعيداً عن جواسيس نوري السعيد وجلوب باشا . لهذا فإن آراءه كانت تعطينا صورة دقيقة عن العراق ، إذ لم يكن الضباط العراقيون الذين التقيناهم في فلسطين يملكون الحرية الكافية لإعلامنا بها .

كان ناجي داعية تأنٍ وعامل تهدئة لي ولمحمود الروسان ، يُبصرنا بعظم النفوذ في المنطقة وضآلة قدرات الأردن بأي حساب من الحسابات للتصدي لبريطانيا .

ذكر لنا أنّ مصر مع كبر حجمها ونضال شعبها والعراق بثرواته وحجمه عاجزان عن الخلاص ، فكيف يمكن للأردن أن ينقذ من الطوق .

كنت ومحمود نرى وجاهة نظرة ناجي وصدق وطنيته حينما ينفعل ويقول : « يا إخواني أنا حاربت الإنجليز سنة ١٩٤١ وأفضّل الموت على معايشتهم ولكن الأمنيات لا تتحقق بالانتحار » . وعندما يصل به الحد إلى اليأس في إيصال قناعته إلينا يصيح فينا قائلاً : يا أخي قولوا لي شنو أنتم وشِنو الأردن وشِنو شايفين أنفسكم ، إذا كنتم تريدون الانتحار في ستين داهية. ثم يعود ليطيّب خواطرنا ويتحدث في قضايا شبابية للخروج من الجد الذي استحوذ على كل ساعات لقاءاتنا.

ناجي وصل إلى تشكيل وزارة في العراق في ما بعد الثورة ، وقد التقيت به في زيارتي لبغداد سنة ١٩٥٦ . أما فريدون جام فانتهى ليكون رئيس هيئة أركان حرب الجيش الإيراني سنة ١٩٥٦ . ناجي كان من الطبقة المتوسطة بينما كان فريدون جام من أكبر أثرياء إيران ، وقد سبق له أن تزوج شقيقة الشاه ثم طلّقها لتعاظمها عليه .

في كلية الأركان طرحت للمناقشات مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط كواحدة من المناطق المتاخمة للاتحاد السوفييتي والمهدّدة بالتغلغل الشيوعي . ولأول مرة سمعنا بمشروع سمّاه البريطانيون حزام الدفاع عن الشرق الأوسط ويفترض تعاقد تركيا وإيران والعراق مع بريطانيا مبدئياًبحلف عسكري تنضمّ إليه في ما بعد سوريا والأردن ولبنان ومصر . هذا وقد تطرّق المارشال مونتجمري في محاضراته وباختصار إلى هذا الحزام كاستكمال لمخططات الدفاع في أوروبا وشمال أفريقيا وشرق آسيا .

كنّا نحن الضباط الثلاثة نُجهد أنفسنا كي نتكافأ مع الضباط البريطانيين في الكلية ولم يكن هذا سهلاً. فإذا أضفنا إلى ذلك همومنا القديمة وفوقها هموماً جديدة تفرضها علينا مخططات الحلفاء الغربيين لبلادنا المنكودة الحظ وأمتنا المغلوبة على أمرها وجدنا أنفسنا في التيه الذي لا نهاية لـه.

نحن نعلم أن الجندية لا تجيز العمل في السياسة ، وهذا مبدأ سليم لا يقبل الخلاف أو الاختلاف عليه ، ولكن الجندية هي سلاح الأمن والسيادة للوطن والشعب . وحينما يصادر الأجنبي هذه السيادة ، فإن الجندية تفرض أمانة مقاومة الأجنبي والدفاع عن شرف الأمة .

لا يحط أمر من شرف الوطن والجندية أكثر من قبول التسليم للسيطرة الأجنبية ، وكل قول يتعارض مع المبدأ هو طرح لخيانة الأمانة والمسؤولية ودعوة لقبولها ، وتحويل للجيش الوطني إلى مجموعة من المرتزقة تقبل بأي مستأجر لها .

والدولة التي تقبل بانحيازها النابع من إرادة الأمة الحرة في أية تجمعات إقليمية أو دولية يجب أن يحترمها شعبها وينصاع لأمرها جيشها . أما إذا فرضت على الدولة مشاريع تُجانب مصلحتها وكانت الدولة مغلوبة على أمرها ، فإن المسؤولية تنتقل من الحكم لتصبح حقاً للشعب والجيش، وعليهما واجب الدفاع عن الخيار الوطني.

لهذا فإنني ومحمود الروسان وناجي طالب وأمثالنا من الضباط في الوطن العربي كله لم نكن سياسيين وعلى العكس فقد كنّا من أفضل الضباط تقيداً بالنظم العسكرية ، ولكننا كنّا ذوي فهم متميِّز للقضايا الكبرى ، ويستند الفهم إلى وطنية وعروبة فاقت كل الاعتبارات التي تشدّق بها العاجزون .

في الجيش العربي الأردني الذي قاتل واستبسل وهو مكبَّل الإرادة وشهد ضباطه مدى التمزّق العربي الذي انفذه سلاح السيطرة البريطانية بالتنكر والخيانة للثورة العربية الكبرى وأعمال معاهدة سايكس بيكو ووعد بلفور ، وبالتالي تمكين كل الشرور الصهيونية من اغتصاب الأرض العربية ، في هذا الجيش كان يطلب إلينا أن لا نتجاوز حدود واجباتنا العسكرية . وبلادنا العربية والأردن من جملتها يخضعها المستعمرون لإرادتهم ويوقعون بنا الكارثة العظمى في فلسطين ويُقال لنا بعد هذا لا سياسة مع العسكرية .

فوق القيود المتمثِّلة بالمعاهدات غير المتكافئة بين الدول العربية وبريطانيا وفوق النفوذ الذي تمارسه في بلاد عربية وبدون معاهدات عدا الابتزاز وسلب الثروات ، فوق هذا كله نسمع في كلية الأركان عن المخطط الجديد .

مخطط حزام الدفاع يطرحونه ويدرسونه ويفرضونه دون اعتبار للمصلحة والرأي العربيين ، بما يفرض تحويل الصراع من عربي صهيوني إلى صراع مع الاتحاد السوفييتي الذي لا نعرفه .

هذا كله ونطالب نحن الضباط الأردنيين بالتوجه إلى الأهداف الغربية الجديدة والابتعاد عن السياسة .

كلّ من يعتقد أن الضباط العرب فضّلوا العمل السياسي على الجندية مخطىء في اعتقادنا ، فليس يسعد العسكري أكثر من إتقان مهنة الحرب لمواجهة أعداء الوطن . ولكن الظروف العربية المحزنة ، ومنها الظروف الأردنية والبالغة الإيلام والإحراج للضمير الوطني ، وجّهتنا نحن القلّة في الأردن ومثلنا في كل الدول العربية المصابة ، إلى واجبنا نحو ضرب أسس المصيبة والضعف متمثّلة بالوجود البريطاني الذي أثقل على صدر أمتنا وأوصلها إلى درجة الاختناق .

قالوا إننّا حزبيون ، وقالوا إننا ذوي أطماع سياسية ، وقد كذبوا ، وفي الحقيقة لم نحمل في نفوسنا إلاّ القناعة في ما اكتسبناه بكفاءاتنا في السلم والحرب . رُفّعنا أنا ومحمود الروسان ترفيعاً استثنائياً والحرب دائرة واكتسبنا أوسمةً تقديراً لأعمالنا . وكنّا في مقدمة الضباط من جيلنا أهمية وشرفاً كما كان إخواننا مثل محمود الموسى وقاسم الناصر ومحمود المعايطة من عداد ضباط الجيش الذين اكتسبوا شهرة في الجيش لبسالتهم المتميزة في قتال العدو .

فإذا كنّا نرفض النفوذ البريطاني وأهدافه وقيادته لجيشنا ، أصالة عن أنفسنا ونيابة عن كل ضباط جيشنا البواسل وجنوده الأبرار ووفاء لوطننا ودولتنا ، فإننا لم نكن سياسيين بالمعنى الذي قصدوا به التشهير بنا .

لو كانت لنا طموحات غير مشروعة لسلكنا مسالك السلامة والوصولية ، ولما عرّضنا أنفسنا لملاحقات دامت سنوات ونحن نحرص على سلامة سرّنا وخشية ضياع فرصة الأمل .

لو كنا كما قالوا ، ويقول البعض حتى يومنا هذا ، لما تصدّينا لمهمة كان الموت بين إنجاحها وفشلها واحتمالات الفشل الأكبر .

عدنا من بريطانيا وعيّن محمود الروسان ركناً للإدارة في اللواء الثاني ، كما عُيِّنت للمركز نفسه في اللواء الأول ، وقد لفت انتباهنا ما صار إليه الجيش من تميّز في التدريب ، وتغييرات في قيادات التشكيلات . فقد وصل إلى الجيش ضباط بريطانيون

جُدد من قائد الفرقة الأولى وقادة الألوية وأسلحة المدفعية والهندسة والمدرعات ومن ضباط أركان في القيادات تلك وقيادة الجيش وبعض قادة الكتائب . كان الضباط البريطانيون الجُدد يختلفون عن أسلافهم من حيث خبرتهم في ميادين القتال وقدراتهم على القيادة وأعمال الأركان، حيث إنهم كانوا يشغلون مناصب مماثلة لمناصبهم هذه في الجيش البريطاني وفي مسارح الحرب العالمية الثانية.

بهذه المقاييس كان جلوب باشا هو الوحيد ، من الضباط البريطانيين العظام ، الذي لا يملك مؤهّلات تتناسب مع مسؤوليته كقائد للجيش .

فوجئنا بهذه التغييرات التي تمّت في سنة واحدة والتي رفعت من سوية الجيش إلى المستوى الصحيح بالتسليح والتدريب ، وإنْ ظلّ حجمه صغيراً ودون ما تتطلبه حاجات الحدود مع الدولة اليهودية .

اندمجتُ في تمارين التدريب المستمرة للواء الأول بكلّيتي، وكنت أجد فيها متعة كبرى ، خصوصاً بعد إنهائي كلية الأركان واتساع أفق معلوماتي العسكرية التي حملت القادة البريطانيين على تقديري . وكانت الفرقة الأولى منظّمة على تشكيل جحفلي لأغراض التدريب والقتال ، ممّا أدّى إلى اختلاط ضباط الأسلحة المختلفة وتعارفهم وتعاونهم .

الفصل الخامس

اغتيال الملك عبد الله

يوم الجمعة في ٢٠ تموز ١٩٥١ فُجعَ الأردن باغتيال المغفور له الملك عبد الله في القدس وداخل المسجد الأقصى ، وكان للنبأ على الشعب والجيش وقع الصاعقة ، وامتلأت النفوس بالحزن والأسى ، وانتابت الناس الحيرة وثارت المخاوف على المستقبل .

كان الملك عبد الله رجلاً عظيماً في مملكة صغيرة ، تضيق بآماله وأحلامه التي حملها منذ الثورة العربية الكبرى ، وظلّ متمسّكاً بها حتى آخر يوم في حياته . جرّت عليه الآمال تلك خصومات وعداءات توطّدت من دعوته للوحدة في المشرق العربي ، الذي كانت التجزئة المستحكمة فيه بفعل السيطرة الأجنبية تشكل سداً مصطنعاً في وجه الوحدة ، ولكنّه سدّ منيع لم تقدر الأمة العربية على هدمه حتى أيامنا هذه .

كان الملك يرى في الوحدة تحريراً للأمة ، وكانت رؤيته صائبة ، خصوصاً في تلك الأيام التي حكم الأجنبي فيها كل مقدرات الأمة . وكان يريد إحياء الثورة العربية التي قضت على مسيرتها المؤامرة البريطانية الفرنسية .

عاش الملك عبد الله ولم يأبه يوماً لمتع الحياة وزخرفها ولم يجمع مالاً لنفسه وأولاده ، وكان كريماً على الفقراء إلى درجة حرمت أولاده من حاجات الحياة الضرورية أحياناً .

اكتفى بأحلامه عن الترف واستغنى بمبادئه عن متاع الدنيا . أحبّ شعبه واتّسع لفضائله ومتاعبه ، وكان وهو المملوء بشرف النسب والتاريخ يتواضع لشعبه كما يتواضع الأب لأسرته ، ولم يَبدُ منه قسوة فيه أوعنت بحقوقه .

لقد أمضى الملك عمره بين الأمرّين : مُرّ الضعف لصغر حجم وقدرات مملكته ومرّ الاضطرار للتعايش مع الأجنبي الذي غدر بالثورة التي قادها الحسين بن علي والده .

أسّس الأمارة ثم المملكة وأقام فيها حكماً فريداً من نوعه ، بما يجعل العلاقة بين الحاكم والشعب علاقة قناعة وتراحم .

وهو نفسه لم يقطع حبل صلة مع ذوي الكرامة والرأي ، فإن أغضب أحدهم يوماً قرّبه في يوم ثانٍ ، وإن أغضبوه سامحهم ولم يترك للبغضاء سبيلاً بينه وبين أحد .

كثيرون من العرب ومن الأجيال الأكثر حداثة لا يعرفون عن الملك عبدالله ما يعرفه الأردنيون ثم الفلسطينيون من بعد وممّن عايشوا فترة حياته . وإذا عرفوا فأكثره ما وصلهم من زبد المهاترات السياسية التي زامنت حرب ١٩٤٨ التي لا تثبت أمام الحقائق لو جرى تاريخ تلك المرحلة بتجرد وأمانة .

عاش الملك رجلاً عظيم الكرامة واسع العلم والمعرفة مؤمناً بالله وقدره ، لا يحسب للقدر حساباً وحتى لحظة اغتياله يرفض حراسة إيماناً منه بأنه لا ينفع حذر من قدر .

كيف اغتيل الملك؟

لا أقصد الكيفية الميكانيكية وإنما أقصد الدوافع والأسباب التي أدّت إلى اغتياله .

فالمعروف أن الاتهام وجّه إلى الحاج أمين الحسيني وعبد الله التل ، وأنهما المدبّران ومن ورائهما الحكومة المصرية .

هذه النظرية يمكن تصديقها ببساطة إذا أخذنا الخلاف بين الملك عبد الله والحاج أمين ، ومن ثَمَّ خروج عبد الله التلّ من الأردن في ظروف لا يعرفها كل الناس ومن ثم مهاجمته لجلالة الملك .

ولكنني لم أعتقد بهذا يوماً واحداً منذ علمت أن الاتهام ثبت على موسى عبد الله الحسيني كرأس مدبّر لعملية ترتيب الاغتيال .

الدكتور موسى وزوجته الألمانية كانا على علاقة وثيقة بجلوب باشا ولاش بك قائد الفرقة الأردنية في فلسطين وكان كثير اللقاء بهما . ولم يكن يمرّ أسبوع دون أن يزور قيادة الفرقة مع زوجته لتناول الشاي مع قائد الفرقة ومساعده البريطاني سنة ١٩٤٩ .

نحن الضباط العرب في قيادة الفرقة وأنا أكبرهم مسؤولية ، كنّا نرى بعض الفلسطينيين وعددهم لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة يزورون هذه القيادة ويتحدّثون مع

الزعيم لاش بين فترة وأخرى ، وغيرهم يلتقون بجلوب باشا في عمان أو في مدن الضفة الغربية وعلى سبيل المثال لا الحصر : أحمد الخليل ، جمال طوقان ، سليمان طوقان ، حافظ الحمد الله . تلك اللقاءات كانت مفتوحة ومعروفة للجميع شأنها شأن مقابلات بعض وجهاء الضفة الشرقية مع قائد الجيش ، كل لموضوع خاص أو عام أو إبداء رأي .

ولكن علاقة موسى الحسيني كانت تتّخذ طابع التكتّم والسرّية على الضباط العرب، فإذا زار قيادة الفرقة استقبله ضابط بريطاني وأدخله وزوجته إذا كانت برفقته، إلى مكتب القائد ليمضي وقتاً أطول من المعتاد في خلوته مع موسى .

وموسى الحسيني إذا صادفني أو أحد الضباط العرب أثناء دخوله أو خروجه من القيادة تجاهلنا . وكنّا نستغرب أن يرتبط أي من عائلة الحسيني بعلاقة مع القادة البريطانيين الذين لم يكفّوا يوماً عن مهاجمة الحاج أمين الحسيني .

يوم استشهاد الملك ، وعند سماعي الإذاعة تعلن وفاته ، عدت من عمان إلى قيادة اللواء في المفرق على عجل ، فصادفت على الطريق قادة الألوية والكتائب والأسلحة البريطانيين عائدين منجهة المفرق متسارعين إلى مراكز قياداتهم في الضفة الشرقية والضفة الغربية .

وصلت مكتبي ،وبعد ساعة تقريباً اتّصل بي العقيد جالاتلي قائد اللواء يطلب حضوري لمقابلته . سألته عن الضباط القادة الذين صادفتهم على الطريق فأجابني : آسف إن لم أدعُ الضباط العرب هذه المرّة إذ أردناها جمعة بريطانية بحتة على الغداء .

قلت له : غريب، أنا لم ألاحظ أنك دعوت أحداً ومكتبي مفتوح على مكتبك .

فقال : لقد دعوتهم من منزلي . كنت أنوي أن أدعو الضباط العرب يوم الجمعة القادم ولكن أظن ذلك مستحيلاً بالنسبة للحادث .

لاحظت أن قائد اللواء لم يتحدث عن الحادث أو يذكر جملة عزاء أو يظهر بادرة حزن . واستطرد يسألني : لا أخالك إلا وتعرف الكثير فمن برأيك سيكون الملك ؟

أجبته: طبعاً ولي العهد الأمير طلال.

قال : وما رأيك أنت ؟

قلت : إنه صاحب الحق الدستوري والدستور فوق كل الآراء .

قال : لماذا لا يكون الأمير نايف ؟

قلت : لأنه لا يجوز .

قال : ولكن الأمير نايف صديقك وستنفعك صلتك به .

قلت : نعم وأعتزّ بصداقته ولكن صداقتي لا تغيّر شيئاً من سلطة القانون .

قال : ولكن أعتقد أن السير اليك كركبرايد وجلوب باشا سيكون لرأيهما الأثر الأكبر فيمن سيكون الملك .

قلت : هل يمكن لرئيس هيئة أركان بريطانيا أن يخالف الدستور أو يغيره؟

قال : لا .

قلت : وكذلك دستورنا لا يغيّره الأردنيون فكيف بسفير أجنبي أو ضابط أجنبي .

قال : أراك انفعلت .

قلت : لأنك لا تحترم الدولة التي تعمل في جيشها وتبيح لنفسك الخوض في قضايانا الأساسية دون حقّ لك بذلك .

قال : آسف لم أقصد الإساءة إليك .

وانتهى الحديث مع قائد اللواء الذي أصرّ على بقائي لتناول الشاي ولكنني غادرت إلى مكتبي .

اتصلت مع محمود الروسان ووضعته في الصورة فاستهجن ما قاله قائد اللواء ، واتفقنا على استقصاء ما يجري في عمان واستمرار الاتصال .

في صباح اليوم التالي جاءني الملازم عبد الله قاعد ، وكان أركان حرب الكتيبة السابعة . جاء وهو حزين ليستفسر عمّا جرى وعمّا سيحدث ، فقلت له إنّ ما جرى معروف وسوف يكون ملكنا ولي العهد الأمير طلال . شكرته لعنايته وأمرته بالعودة إلى كتيبته .

ألحَّ على ذهني سؤال طوال النهار. لماذا لا أزور المقدّم علي الحياري قائد الكتيبة الخامسة من اللواء الأول وأتحدث إليه؟ فهو صديقي ومن بلدي، ولا بأس إن لم يأخذ شكوكي في حديث قائد اللواء على محملٍ جدّي .

زرته في بيته وتبادلنا العزاء، وما إن سمع بالحديث حتى فَغَرَ فاهُ دهشة وانزعاجاً ، وهو يقول هذه الأفكار ليست صادرة عن جالاتلي فهو كما تعلم لا يفقه في هذه الأمور شيئاً . وعندما ذكرت له أن كل القادة البريطانيين صادفوني على الطريق بين المفرق والزرقاء عائدين من منزل جالاتلي في أربد، استغرق في التفكير.

قال علي الحياري : كأنك تريد أن تقول لي إنهم بحثوا موضوع الولاية على

العرش وهم في منزل قائد اللواء في إربد . ولكنك خرجت من عمان فور سماعك الخبر والقادة غادروا منزل جالاتلي في إربد في الوقت نفسه تقريباً وصادفتهم في منتصف الطريق . هذا يعني أن الوقت لم يكن ليسعفهم لبحث الأفكار التي طرحها جالاتلي « فكّر معي » .

قلت له : لا يوجد إلاّ تفسير واحد هو أن الأفكار بحثت قبل استشهاد الملك .

القضية الدستورية

بعد انتهاء مراسم التشييع لجثمان الملك إلى مثواه الأخير والتي اشتركت فيها وفود من الدول العربية، والشعب ما زال يعاني الصدمة من المصيبة التي أصابته ، والجيش قد استنفر على الحدود الإسرائيلية وفي المعسكرات، بدأت الإشاعات تُروى همساً بين رجال السياسة في عمان.

إشاعة تقول إن بعض السياسيين يبحثون مع الأمير عبد الإلّه أمر تنصيبه ملكاً على الأردن ، وإشاعة تقول باحتمال تنصيب الأمير نايف بن عبد الله ملكاً ، باعتبار أن صاحب الحق الشرعي وولي العهد الأمير طلال بن عبد الله مريض وغير قادر على ممارسة مسؤولياته صحياً . كانت الإشاعات تزداد انتشاراً دون أن يصدر من الحكومة ما يبعث على الطمأنينة إلاّ تعيين الأمير نايف وصياً على العرش .

ما ذكر عن الأمير عبد الإلّه استحضر في ذاكرتي ما سمعناه عن جهود الملك عبد الله لإقامة الوحدة مع العراق ، وفكّرت أن الحديث عن الوحدة الآن هو استكمال لتلك الجهود .

كان جلالته يريد الوحدة مع العراق وقد طرح المشروع على الحكومة العراقية . ويروي عبد الرحمن باشا خليفة أن جلالته تباحث في البداية مع رئيس وزراء العراق صالح جبر ووصلا إلى اتفاق مبدئي . وكنّا نعلم أن جلالته زار العراق لاستكمال البحث في المشروع على أساس أن يكون هو ملك الدولة الموحّدة ومن بعده جلالة الملك فيصل وأن المشروع سينجح .

كنا نقدّر بأن الملك يتّجه بمشروعه إلى هدفين :

أولاهما : إيجاد الدولة القوية المكتفية لمواجهة التحدي الصهيوني دون الحاجة إلى المعونة البريطانية .

وثانيهما : الاتجاه إلى الوحدة مع سوريا .

وقبل أن يشهد الأردن والعراق نتائج المشروع اغتيل الملك وكثُرت الاجتهادات بعد أن هدأت الخواطر .

هنالك من قال إن المشروع كان بريطانياً ، وهنالك من قال إن بريطانيا كانت دائمـاً وأبداً تفضّل عراقاً لوحده وأردناً لوحده. وهذا القول أقرب إلى الحقيقة إذا درسنا الأهداف البريطانية وطول مداها في المنطقة وتأثير الصهيونية وأمريكا لمنع قيام أي وحدة عربية ، حتى وإن كانت موالية للغرب . والتصريح الثلاثي الذي تكافلت عليه أمريكا وبريطانيا وفرنسا كان الدافع إليه أصلاً ضماناً لبقاء إسرائيل وأمنها وضماناً لاستمرار العجز العربي حتى تظل الدول الاستعمارية مستأثرة بالنفوذ ومستغلّة للثروات والموقع الاستراتيجي العربيين .

ليس هذا فحسب ، ولكن انتقال القضية الفلسطينية لتشمل الأردن بحكم قيام المجتمع والكيان الجديدين بوحدة الضفتين عنى لكل قوى الأعداء أن أي وحدة مع المملكة الأردنية تدخل البلد المتّحد معها في بؤرة المسؤولية الفلسطينية .

لنعد إلى اغتيال الملك عبد الله الذي ظلّ أحجية مطروحة تعدّدت فيها الاجتهادات .

أحد تلك الاجتهادات كان توجيه التهمة إلى الحاج أمين الحسيني وعبد الله التل اللذين ساعدهما أو حرّضهما الملك فاروق ، وهو الاجتهاد الذي أعلن إعلامياً ونظرت فيه الحكومة الأردنية .

والاجتهاد الثاني الذي أصبح حديث الكثرة من المحلّلين في هذه الأيام والسياسيين الأردنيين ، ويلقي بالتهمة على بريطانيا بالرغم من أن البعض تحدثوا همساً بالاحتمال هذا سنة ١٩٥١ .

أصحاب هذه النظرية وأنا واحد منهم يستدلون بواقعة أساسية، هي ثبوت التهمة على الدكتور موسى الحسيني الذي دبّر عملية الاغتيال ، وقد وصفت علاقته بقيادة الجيش من البريطانيين وبعده فكراً وسياسة عن الحاج أمين الحسيني .

عبد الله التل بالرغم من مسايرته (لحملة) الدعاية المصرية على الملك عبد الله ، إلاّ أنه لم يكن يحمل حقداً على الملك ولا يوجد سبب واحد يوصله إلى درجة الاغتيال . ورحيله عن الأردن كان حنقاً على جلوب باشا وبعض أعضاء الحكومة الذين أفسدوا علاقته المتميّزة مع الملك . والسبب الذي اعتبره أكثر أهمية هو شعوره بأنه أصبح مهدداً بعد أن انكشفت نياته لمحاولة انقلاب في الجيش لطرد قادته البريطانيين .

إنني أذكر جلسات التخطيط معه ومع محمود الروسان في القدس لطرد أولئك القادة سنة ١٩٤٩ ، وحيرة عبد الله التل في أمر مواجهة الملك إذا نجحنا في عملنا وكيفية تبرير كتمان العملية عنه .

التقيت بعبد الله التل سنة ١٩٥٧ في القاهرة عندما لجأت إليها ، وتباحثت معه في التهمة التي وُجِّهت إليه وأقسم لي أنه بريء ولا علاقة له باغتيال جلالته.

بعد الاغتيال كنتُ أتـردد في العطل الأسبوعية على عمان كي أستطلع الأخبار ، إذ كنت معنياً بجدية متناهية بعودة الأمير طلال وتنصيبه ملكاً ، فرأيت الكولونيل والش أحد مساعدي جلوب باشا يتناول الغداء مع زوجة موسى الحسيني في زاوية من مطعم فندق نادي عمان . كنت جالساً مع عبد الحليم النمر نائب البرلمان عن السلط وشفيق أرشيدات نائب البرلمان عن إربد ، وكانت دهشتنا كبيرة في المرة الأولى التي صادفنا بها الضابط البريطاني مع زوجة الحسيني .

لفت شفيق أرشيدات نظرنا إلى الصدفة قائلاً : عجيب أن يكون ضابط بريطاني في الجيش العربي بصحبة زوجة موسى الحسيني الذي ثبتت عليه تهمة الاغتيال .

بعد أيام استدعاني جلوب باشا وحذّرني من اللقاء بالسياسيين المشاغبين ، على حدِّ تعبيره ، ويقصد شفيق وعبدالحليم، ويضيف أن خدم المطعم سمعوني أتعرّض بالإساءة لبريطانيا .

أجبت جلوب باشا بأن اجتماع ضابط في الجيش مع أصدقاء سياسيين لا يحمل أهمية وخطورة اهتمام أحد كبار ضباط الجيش البريطانيين بزوجة قاتل الملك. وانتهى الحديث.

ولمّا صادفت الكولونيل والش مرة ثانية بصحبة تلك السيدة استفسرت من موظفي الفندق، وعلمت أن هذا الضابط يزورها كل يوم تقريباً ويتناول الغداء أو العشاء معها.

عدت بذاكرتي إلى حديث قائد اللواء جالاتلي يوم الحادث المشؤوم، ورسخت في ذهني قناعة بأن بريطانيا رسمت للتخلص من الملك عبد الله قبل أن يتخلّص منها، ومنعاً لتنفيذ محاولته لتوحيد الأردن والعراق الكفيلة بالاستغناء عن بريطانيا وإحياء فكرة الوحدة في المشرق لمواجهة الغزو الصهيوني .

علمت وغيري من الضباط، بما لا يقبل الجدل، أن موسى الحسيني طلب من قائد معسكر المحطة، وقبل ساعة من إعدامه، أن يستدعي اللواء عبد القادر باشا

الجندي ليعترف له بكامل الحقيقة. اتّصل عبد القادر بجلوب باشا ليبلغه الخبر، وبدلاً من الاستجابة للطلب أمر جلوب قائد المعسكر بتنفيذ الإعدام فوراً بموسى الحسيني ورفاقه.

قائد السجن روى عجبه لهدوء الحسيني، فترة محاكمته والحكم عليه، وكأنه متّهم بجنحة حتى علم بجدية حكم الإعدام عليه فتغيّرت أوضاعه ونفسيته عمّا كان عليه قبلاً.

السؤال الذي يرد هنا هو: هل كان الكولونيل والش هو الذي يوحي لموسى بالطمأنينة عن طريق زوجته؟

قناعتي الوجدانية منذ تلك الأيام أن الإنجليز استعملوا موسى الحسيني ليسهّل ربط الجريمة بالحاج أمين وعبد الله التل. قناعتي في هذا ثابتة مثل قناعتي بمحاولة بريطانيا العبث بالدستور والعمل على تولية الملك لمن ليس له حق.

رغبة بريطانيا هذه أصبحت حديثاً يومياً عند الخاصّة في عمان بالرغم من تكتّم الحكومة التي يرأسها توفيق باشا أبو الهدى، ولم يلبث الأمر أن أدّى إلى خلاف مفضوح بين الحكومة من جهة وبين السفير البريطاني وقائد الجيش من جهة أخرى.

كما أدّى هذا الخلاف إلى شرخ بين الحكومة وبين بعض السياسيين الذين انحازوا للرغبة البريطانية، إلى درجة وصل الهمس بين الناس عن احتمال حدوث انقلاب عسكري بإيعاز من قائد الجيش.

توفيق باشا أبو الهدى رئيس الوزراء، من رجال الرعيل الأول ومن الذين أسهموا في تأسيس المملكة، كان رجل قانون وعُرِفَ بصلابته واستقامته واحترامه لذاته أكثر ممّا توحي به ضآلة جسمه وهدوئه.

هذا الرجل وقف أمام العاصفة ولم ينحنِ لها مستنداً إلى الدستور والقانون حتى أوصل الأمانة إلى صاحبها الملك طلال بن عبد الله في ما بعد.

لم يكن توفيق رجل إثارة ومع أنه قبل بالمظاهرات التي أقامها أهل عمان بالحافلات التي ملأوها وتجوّلوا بها في أحياء عمان هاتفين للأمير طلال، إلاّ أنه لم يستغلّها في مواجهة السياسة البريطانية.

أخبار عمان كانت تصلنا إلى المعسكرات ومنها أخبار الانقلاب العسكري المحتمل، فأثارت حفيظة عدد من الضباط، وتباحثت مع محمود الروسان وقاسم الناصر وإلى بعض ضباط المدفعية والمدرعات، منهم شاهر يوسف وأديب أبو نوار،

وإلى عبد الله قـاعد من الكتيبة السابعة وإلى سلامـة عتيق من الكتيبة التاسعة وإلى محمود الموسى، وقد وجـدت استجابـة للقيام بعمل عسكـري ننهي به السيطرة البريطانية على الجـيش وإعادة الأمـير طلال إلى الوطن ملكاً.

كانت القوة الرئيسية التي تصوّرتها للعمل متمـثّلة باللواء الأول مشاة وقادة كتـائبها كما يلي:

الكتيـبة الثالثة وقائدها الوكيل القائد جـراي، والكتيبة الخامسة وقائدها القائد علي الحياري والكتيبة السابعة وقائدها خـالد الصحن.

الكتيبة الثالثة أسقطتها من الحساب والكتيبة السابعة أسقطت قائدها من الحسـاب واعتمدت على أركان حربها، أمّا الكتيبة الخامسة فكانت القوة التي لا غنـى عنها ويعتمد الحساب على قناعة علي الحيـاري.

ضبـاط المدفعية كانوا عامـلاً مهمـاً، أمّا ضبـاط المدرعات فكان الاعتماد على ثلاثة منهم. أمـا محمود الروسان أركان حـرب اللواء الثاني فقد كـان قادراً على تحـريك كتيبة من عنده.

انتقلتُ إلى عمان وزرت العقيد حـابس المجالي قـائد الكتيبة الهاشمية في القصر الملكي، وسألته عمّـا يعرفه عن قصة الانقـلاب التي قيل إن كتيبته مرشحـة للقيام به وعن أمر تنصيب الأمـير نايف ملكاً.

قـال حـابس إنه لا يعلم عن انقلاب، ولكنه عرض عليّ أن أطرح استفساراتي على الأمـير نايف، وذهبنـا سوية إلى الأمير الذي رحّـب بمقدمي فبادره حابس: سـيدي، علي أبو نـوار عنده استفسارات.

وبطريقته الودّيـة المعروفة قـال لي: هـاتِ مـا عندك يـا علي.

قـلت: يـا سموّ الأمير الناس في هرجٍ ومرج والإشاعات كثُرت والضباط قلقون وينتظرون جميعاً عودة الأمـير طلال، ولكن يُقال إنك تـريد المُلك لنفسك.

قال الأمير: شوف يا علي، الأمير طلال أخي الكبير وسيدي وأفتديه بروحي. والله ما حلمت يوماً بالمُلك. ولكن كما تعلم ويعلم الجميع أنه مريض، وهنالك من يقول بأن لا شفاء له من مرضه. أنا لا أطمع بالملك ولكن إرادة الله هي التي تُسيِّر الجميع.

لم يخـامرني الشكّ بصدق الأمير نـايف وإن كنت انتظرت منه تأكيـداً بـأنه لن

يقبل بغير عودة الأمير طلال. غير أن معرفتي بالأمير نايف جعلتني لا أثقل عليه، فما إن أنهيت شرب الشاي حتى انصرفت ومعي حابس المجالي الذي ودّعته شاكراً له اهتمامه.

في المفرق، عاودت الحديث مع علي الحيارى، وطرحت عليه رأياً مفاده تدخّلنا باللواء الأول وأسلحته المساندة وحسم أمر البريطانيين وسيطرتهم. فطرح عليّ أسئلة عديدة، ماذا لو. . . . ماذا لو. . . وما هي النتائج؟ وكانت أسئلة وجيهة ولكنها بالتالي تحكم علينا بالجمود والسكينة.

كنّا نعلم أن الأمير طلال مريض ولكننا لم نقبل ولم نحبّ أن نقبل أنه مريض إلى الدرجة التي وُصفت. قلت لِعَلي إنه الضابط المرموق وبيده قيادة وعليه الواجب الأكبر مني ومن غيري لاتخاذ الموقف.

استغرقت مباحثاتي مع الحيارى جلسات عديدة حتى اقتنع برأيي، وفي نهاية المطاف وافق على المشاركة في تنفيذ العملية شريطة أن يصل الأمير طلال معسكر المفرق.

في هذه الأثناء طلب جلوب باشا جميع ضباط اللواء الأول وضباط الصف الكبار ليحاضرهم في قاعة سينما معسكر المفرق. وفي الموعد حضر وبدأ المحاضرة في هذا العدد الكبير عن مشروع حزام الدفاع لمواجهة الاتحاد السوفييتي والذي ترى بريطانيا تأليفه من دول المشرق العربي وتركيا وإيران وباكستان. وأخذ يمتدح فضائل حلف يقوم بين هذه الدول وبريطانيا وما سوف يتحقّق للعرب من مكاسب من الحلف. هذا الحلف هو نفسه الذي حاضر عنه الماريشال مونتجمري في كلية الأركان قبل سنة تقريباً، والذي كان أحد المواضيع التي ناقشها الضباط التلاميذ كمادة في المنهاج.

استفاض جلوب في شرحه للحلف ومزاياه وخطر الشيوعية الهدّامة وما إلى ذلك، لِما يقارب الساعة، وضمّن محاضرته ما فعلته الشيوعية في إيران. وذهب إلى ذكر ما سوف يكسبه الأردن من إرسال اللواء الأول مع قوة بريطانية وأخرى عراقية إذا تطلب الأمر للقضاء على الفتنة التي أثارها الشيوعيون في إيران ومعهم بعض أتباع الشيوعية وعلى رأسهم الدكتور مصدّق.

كنّا نعلم نحن ضباط اللواء مُسبقاً عن نية إرسالنا إلى إيران وعن إعطاء لوائنا أولوية التجهيز في كل متطلباتنا وإكمال أعدادنا من الضباط وضباط الصف.

وفي نهاية المحاضرة وكالمعتاد قال: من منكم يريد توجيه سؤال أو يطلب إيضاحاً عن المحاضرة؟

نهضتُ وقلت: أنا عندي تعليق. نحن العرب حاربنا الأتراك معكم في الحرب العالمية الأولى، وأخلّت بريطانيا بوعودها فنالنا منها الاستعمار بدل الاستقلال والتجزئة بدل الوحدة. وفي الحرب العالمية الثانية استعملتم أراضينا كقواعد وممرّات لجيوشكم واستفدتم من موارد النفط ما تسيّرون به تلك الجيوش وأساطيلكم البحرية والجوية. والأردن كان مستعداً لإرسال أبنائه للقتال معكم، فنالنا من بريطانيا أن مكّنت للصهيونية أن تسلب أرضنا وتقيم عليها دولة عدوانية. ولم تُبقِ بريطانيا للعرب سبيل قناعة بصداقتها، ولا يُلدَغُ المؤمن من جحر مرتين، ولكننا لُدِغنا والآن تريد بريطانيا أن تُدخلنا في حلف جديد ندفع جزاءً له خسارة جديدة.

نحن اللواء الأول ثلث القوة المقاتلة المدافعة عن أرضنا تريدوننا أن نذهب ونقاتل في إيران من أجل مصلحة بريطانيا. ولكن عندما نقاتل اليهود لم ترسل بريطانيا لنا لواءً من جيشها لمساعدتنا بالرغم من ارتباط الأردن معها بمعاهدة تحالف. وأكثر من ذلك أوقفت إمدادنا بالذخيرة الضرورية لتُشعرنا بالعجز أمام اليهود.

وفوق هذا كله، فإنّ ما تطرحه علينا لا علم لحكومتنا به، فما هو الغرض من إهمال الحكومة المسؤولة والتبشير في الجيش عن مشاريع دفاع الحلف الغربي.

نحن مشغولون كنّا وما نزال في أمر العدو المتربّص بنا وتجهيز أنفسنا لمواجهته، كما أننا مشغولون في التفكير في أمر عودة الأمير طلال ليحمل مسؤولياته الدستورية حتى تتوقف الشائعات التي سَمّمت الحياة الأردنية.

لما انتهيت من كلامي، صفّق الموجودون جميعاً وقد تغيّر لون جلوب، فالتفتَ إلى علي الحياري يسأله عن رأيه فأجابه كما ترى يا باشا هذا رأي الجميع.

ثم تحوّل إليّ قائلاً: إذا كان كل الضباط يرون رأيك فالأفضل أن نقلب الجيش إلى مؤسسة سياسية أو نُسرّحه.

تناول جلوب الغداء في نادي الضباط اللواء ولم يُطل حديثاً مع أحد خلافاً لعادته، ثم صافح الجميع مودّعاً ولم يتلفت إليّ، فأدركت أن لا بدّ من معركة قبل أن يجهز عليّ.

في المساء زارني الدكتور عوني حنون وانفرد بي في غرفتي ليقول: هل تعرف ماذا فعلت؟ أنت فجّرت كل العواطف المكبوتة عند الجميع، فإذا كنت تقدِّر ما قلت وتنوي عملاً فأنا جندي بأمرتك حتى الموت، أمّا إذا كنت تتباهى بإثارة قائد الجيش فالأولى أن تنزع البزّة وتعود إلى بيتك.

قلت له: ماذا تعرف عن الأمراض النفسية والعقلية كطبيب، أرجوك أن تُحاضرني وتُفهمني.

حاضرني الدكتور حنون بما يكفيني، ثم سألته، هل تعرف سويسرا؟ فأجاب أعرف سويسرا وفرنسا وبريطانيا كما أعرف الأردن.

هل أنت مستعدّ للذهاب سراً وعلى عجل للتأكّد من صحة مرض الأمير وخطورته، وإذا وجدته قادراً على مسؤولياته أن تنقله سراً من مشفاه بطائرة خاصة إلى المفرق إذا وافق؟

ردّ عوني بأنه مستعدّ وفوق ذلك فإنه وأطباء إسعاف الميدان الأول سيتكفَّلون بالنفقات كافة وأجر الطائرة ولا يحمّلون الضباط الآخرين شيئاً. فطلبت إليه أن يتقدّم بطلب إجازة شهر ويُصرّ عليها، وبالفعل سلّمني الاستدعاء صباح اليوم التالي فرفعه قائد اللواء إلى قيادة الجيش بصورة مستعجلة فوصلتنا الإجابة بالرفض بحجة احتمال حركة اللواء إلى إيران.

أصرّ عوني على الإجازة أو الاستقالة فأُعطي إجازة شهر وسافر إلى سويسرا في الأسبوع الأخير من آب ١٩٥١ وهو يحمل معه كلمة سرّ مني إلى سموّ الأمير. كانت كلمة السرّ عن قصة رواها سموّه إلى عدد من الضباط في حيفا سنة ١٩٤٥.

عوني حنون من قضاء جنين في الضفة الغربية التحق طبيباً عسكرياً بالجيش البريطاني وشهد عمليات حربية في شمال أفريقيا فاكتسب خبرة ميدانية متميّزة. معتدّ بنفسه وحماسه الوطني بالغ الحرارة وقدرته القيادية متفوِّقة.

استجاب أطباء إسعاف الميدان إلى ما ننوي عمله ووضعوا كل ما وفّروه من رواتبهم في يد عوني وفي مقدمتهم الدكتور فهيم ناصر من بيرزيت، والدكتور سالم شراب من غزة، والدكتور هاشم خرفان من السلط.

فوجئنا في الأسبوع الأول من أيلول بطلب من قيادة الجيش بتهيئة حرس شرف في مطار المفرق مع عدد محدود من الضباط ضم قائد اللواء وعلي الحياري وعلي أبو نوار وصالح الشرع، فنظمت الاستقبال مع علي الحياري وحضر من

عمان الأمير حسين بن طلال ورئيس الوزراء توفيق باشا أبو الهدى وعدد من الوزراء وجلوب باشا. ولأول مرة التقيت بالأمير حسين وهنّأته بسلامة عودة الوالد وكان ودوداً وعلى مُحيّاه دلائل الفرح العظيم.

لم يعرف أحد منا سرّ استقبال الأمير في مطار المفرق بدلاً من عمان، ولكننا قدّرنا السبب لاستبعاد الضجيج الجماهيري المنتظر لو كان الاستقبال في عمان، لأن الشعب كان ملتهب المشاعر بحب الأمير. ومع ذلك تسرّبت الأخبار فاحتشدت جموع عند مدخل القصر وقامت الاحتفالات العفوية في اليوم التالي ابتهاجاً بعودته.

فهمت في ما بعد، أن اتجاه الحكومة الحازم وحماس الشعب والجيش للأمير طلال أحبط النوايا البريطانية، كما وأن الأمير نايف لم يُشاطر البريطانيين حماسهم بالرغم من تحريض بعض الأردنيين له. إلاّ أن الأمير نايف أخذ عليه تردّده في رفض الرغبة البريطانية رفضاً قاطعاً.

وهكذا انتهت المشكلة وحُفِظَ الدستور من العبث البريطاني.

ولكن ماذا عن عوني حنون ومهمته؟

وصل إلى سويسرا واستقصى عن المصح الذي يقيم فيه الأمير طلال، وتمكّن من مقابلة سكرتير الأمير الذي وعده بلقاء بعد أن شرح له عوني أنّه يريد الاطمئنان على صحته.

وفي اليوم التالي فوجىء عوني بالبوليس السويسري يحققون معه لمعرفة سبب زيارته للمصحّ، فأفادهم بأنه ضابط في الجيش العربي وطبيب يقضي إجازته في أوروبا، وأنه يؤدي واجبه بالسؤال عن صحة ولي العهد. فقالوا له إن التعليمات في المصحّ تمنع الاتصال بالأمير وإن القنصلية البريطانية لا ترغب بإيصاله.

استمرّ عوني في قضاء إجازته وعاد بعد أن نصّب الأمير ملكاً ليفاجأ بما لم يكن ينتظره أحد.

تقرير يرفعه جلوب باشا إلى رئيس الوزراء يطلب إنهاء خدمة عوني للأسباب التالية:

١ ـ إنه يحرض الضباط على الاستقالة والالتحاق بالفدائيين في منطقة السويس لمحاربة البريطانيين.

٢ ـ انه داعية كراهية بين الضباط العرب والبريطانيين في الجيش العربي.

ويقرر مجلس الوزراء بتوصية من وزير الدفاع عبد الرزاق طوقان إعفاء عوني من الخدمة دون الاستفسار منه أو التحقيق معه.

هذا علماً بأن عوني بريء من التهمتين براءة تامة لا يشوبها الشكّ من قريب أو من بعيد، إذ إن أعمال الفدائيين المصريين في قناة السويس والتي كانت تتناولها الإذاعات والصحف كانت تثير العواطف في الأردن، ولكن ضباط الجيش لم يدر بخواطرهم أبداً أن يتطوّعوا لمساعدة المصريين. فمصر بالنسبة لضباطنا كانت إقليماً بعيداً يجهلون حقائق وضعه واتجاهات حركاته الوطنية لقلة الاختلاط الأردني المصري. هذا فضلاً عن انصراف التفكير الأردني كله بالدولة اليهودية الجديدة والمخاطر التي تحملها تلك الدولة معها على الأردن.

وفي ظهيرة يوم من أيلول تلك السنة اتّصل عوني بي هاتفياً من عمان ليروي قصته في كلمتين: أنا انتهيت، فانتبه لنفسك. وبعد إلحاح شديد، قبِلَ أن أزوره في فندق نادي عمان، وروى لي كامل الحكاية وأضاف أن وزير الدفاع لم يكن مستعداً لمجرد سماع دفاعه.

تركته واتجهت إلى رياض بك المفلح، وطلبت إليه أن يأخذني إلى عبد الرحمن باشا خليفه رئيس الديوان الملكي. وزرناه في منزله ورويت له قصة عوني والسبب الحقيقي لإنهاء خدمته فتأثّر بها وقال نحن كحكومة كنّا وإياكم في نفس المركب.

أرجوك أن ترسل لي عوني صباح الغد إلى الديوان للبحث في التفاصيل وسأشرح لجلالة الملك قضيته.

وهكذا كان،

استدعى جلالة الملك رئيس الوزراء توفيق باشا أبو الهدى، وهذا بدوره استدعى جلوب باشا وقد روى لي عبد الرحمن باشا بأن اللقاء كان صاخباً لشدة انفعال الملك.

ورفض جلوب إعادة عوني إلى خدمة الجيش، الأمر الذي دفع رئيس الوزراء ورئيس الديوان إلى التدخل لتهدئة جلالته وصرف النظر عن القضية التي خرجت عن كونها مسألة ضابط وتحولت إلى خلاف حاد بين الملك وقائد الجيش.

كان لعوني العزاء بتدخّل جلالته بالشدة التي وصفت له،ومع أنه كان يعشق الجندية اكتفى برضى الضمير وانتقل إلى لبنان ثم عمل طبيباً في الأرامكو في

السعودية. وظل عوني في ذاكرتي ألاحق أخباره وتنقلاته دون إمكانية للالتقاء به حتى سنة ١٩٥٦.

من هو جلوب باشا؟

لعل الأجيال الجديدة والتي تسمع هذا الاسم ترغب في معرفة شيء عن صاحبه الذي كان في الأربعينات والخمسينات حديث الأردنيين جميعاً والسياسيين العرب في المشرق العربي.

في الحرب العالمية الأولى كان جلوب ملازماً في سلاح الهندسة البريطاني مع القوات التي احتلت العراق، فتعلّم اللغة العربية كلاماً وقراءة ثم ولّته الإدارة البريطانية مسؤولية إنشاء وحدة من الهجانة البدو العراقيين لحفظ الأمن في الصحراء العراقية بين بغداد والحدود الأردنية والحدود السعودية. وفي فترة خدمته تلك واختلاطه بالقبائل أصبح ذا علم ومعرفة بها وبعاداتها وتقاليدها.

وفي سنة ١٩٣٠ انتقل جلوب من العراق إلى الأردن ليشكّل فيها ما سُمّي بقوة البادية، والتي كانت بدايتها فريق من الهجانة الأردنيين وغيرهم من بدو العراق وسوريا والسعودية، وارتبطت هذه القوة بقيادة الجيش العربي وعلى رأسها البريطاني بيك باشا إلى أن عاد هذا الأخير إلى بلاده فحلّ مكانه جلوب باشا سنة ١٩٣٩.

الجيش العربي آنذاك كان صغيراً جداً معظمه من الشرطة والدرك (الفرسان) وقوة البادية التي اهتم بها جلوب باشا وأخذ ينميها في بداية الحرب العالمية الثانية، ويخلق منها قوة منقولة تساوي لواء من المشاة مع ثلاث فئات من المدفعية وثلاث سرايا مدرعات خفيفة تصلح لدوريات الصحراء والاستكشاف.

ولما انتقلت الحرب إلى شمال أفريقيا أصبح الشرق الأوسط أحد المسارح العسكرية، وتكوّن فيها الجيش الثامن البريطاني والذي شملت مناطق تواجده مصر وفلسطين والأردن والعراق. وكانت قواعده الإدارية ومستودعاته في فلسطين والعراق تحتاج إلى حراسة وحماية، الأمر الذي حدا ببريطانيا إلى تكوين سرايا الحاميات الأردنية والتي بلغ عددها خمس عشرة سرية مشاة، شُكل منها حاميتان، الأولى في فلسطين والثانية في العراق.

قوة البادية أُطلق عليها اسم اللواء المسلّح الذي يقوده الزعيم لاش ويقود كتائبها ضباط بريطانيون، والحاميتان يقود كلًا منهما ضابط عربي هما القائمقام بهجت طبارة والقائد أحمد صدقي الجندي.

إلى هذا الحد يبدو الأمر طبيعياً ، ولكن الشاذ هو أن جلوب كان مسؤولاً عن الأمن العام في الأردن ويتغلغل في المدن والقرى والبادية بنفوذه، حتى يكاد أن يكون الحاكم المطلق في البادية وشريكاً غير ظاهر للحكومة الأردنية في الأرياف والعواصم.

كان جلوب يتقن الدعاية لنفسه في الأوساط البريطانية والعسكرية والسياسية خلافاً لسلفه، مما أكسبه، وفي ظروف الحرب، سمعة عند البريطانيين ترتقي بأهميته كشخص يجمع بين الحاجة العسكرية والسياسية لبريطانيا في ذلك الوقت.

فبالإضافة إلى وجوده الواضح في الأردن فإنه أخذ يمدّد هذا الوجود إلى القبائل العراقية المتاخمة للأردن وقبائل سوريا وقبائل السعودية وجنوب فلسطين وسيناء . وكان طريقه إلى ذلك هو استقدام بعض أبناء هذه القبائل للانخراط في خدمة الجيش العربي وخلق علاقات مع بعض زعماء تلك القبائل على المستوى الشخصي .

أراد جلوب باشا أن يبزّ لورنس ويتفوق عليه ، وقد فعل ذلك بجهوده المتواصلة التي استجابت بريطانيا لمساندتها في تلبية متطلباته .

ووصل جلوب في نهاية الأمر إلى أن يكون نظاماً متكاملاً مع أهداف السياسة البريطانية في المنطقة ولم يعد مجرد ضابط يقود تشكيلة عسكرية عربية. فهو المنفّذ للسياسة البريطانية وحامي مصالحها وهو المنسق لمسؤوليات المعاهدة البريطانية الأردنية، كما وأنه هو الذي تصله المعونة المالية البريطانية المقررة للجيش ويرسم أوجه صرفها.

ساعد جلوب باشا في كل نشاطاته ضباط بريطانيون، أمّا الضباط العرب حتى ذوي الرتب الكبيرة فلم يكونوا ذوي مسؤوليات تتصل بالقيادة أو التنظيم أو القرار بأمر ذي أهميّة . كان جلوب دولة داخل الدولة وتصل أذرعه للدول المجاورة وكان سياسياً أكثر مما كان قائداً عسكرياً .

جلوب باشا أحب العرب، هكذا قال الكثيرون، وأنا أوافقهم مع التحفّظ. هو أحب العرب طالما أنهم يستكينون في كل أوطانهم للسيطرة البريطانية وينكرون على أنفسهم حق السيادة والاستقلال . ولكنه يكره العرب إذا طالبوا بحريتهم أو ناهضوا وعد بلفور أو عملوا للوحدة العربية .

الكثيرون من البسطاء أو الذين اكتسبوا حظوة شخصية لدى جلوب دون كفاءة خاصة، عسكريين كانوا أو مدنيين، يخطئون في اعتقادهم أن جلوب كان مخلصاً للأردن أو للعرب . جلوب وضع نفسه في صف البريطانيين الذين سمّوا ببناة الإمبراطورية ، وبذا فإنه من غلاة حملة الأفكار الاستعمارية وإن تظاهر خلافاً لذلك . وليس أدلّ على

ما سبق من تصرفاته في أمر الحرب سنة ١٩٤٨ منذ بدايتها حتى نهايتها ومن سياساته التي هدفت إلى خلق إقليميات وعنصريات وطائفيات لا أساس لها في الجيش والشعب بغرض إضعاف الوحدة الوطنية والاتجاه القومي . وإذا كان جلوب بعد أن أُخرج من الأردن يتحدّث عن العرب بإيجابية فمرد ذلك أنه خرج من كل آماله في الأردن وفي بريطانيا خالي الوفاض ، وكان الرصيد الوحيد الذي حاول إحياءه هو المحيط الذي اشتهر به وهو المحيط العربي .

عندما كان جلوب يسيّر أمر الحرب سنة ١٩٤٨ حال دون الحفاظ على الأرض العربية في مواقع كثيرة ، وعندما فقد قيادته وجيشه واهتمام بريطانيا به انقلب ليتباكى على الحق العربي .

في الصراع العربي الإسرائيلي اعتبر العرب جميعاً أن جلوب سبة على الأردن وخطر على العروبة . هذا صحيح ، ولكنه فات العرب أن يدركوا أن قبول الأردن به ولكل ما يحمله من شرور كان اضطراراً لم يحسن العرب النظر فيه أو العمل لإزالته عن طريق التضامن مع الأردن . وعلى عكس ما تقتضيه طبيعة الصراع مع العدو والاستعمار استعاضوا عن الواجب بتشويه سمعة الأردن ، متناسين أن جلوب جزء من الوجود البريطاني الخانق في كل المشرق العربي والذي لا يترك الدول العربية دون سبّة مماثلة .

الأردن الصغير الفقير تركه العرب لمواجهة امتحان قاسٍ عجزت دولهم عن مواجهة مثله أو أقل منه مثل النعام الذي يخفي رأسه في الرمال .

وخلاصة القول إن جلوب أصبح في الأردن والمشرق العربي عنوان الاستعمار البريطاني . ففي الأربعينات وبداية الخمسينات كانت بعض الصحف والإذاعات العربية تقبل الوجود العسكري البريطاني في بلادها وتجد من جلوب مادة للتشهير غير المباشر بذلك الوجود مع كل الأذى الدعائي الذي يلحق بالأردن وملك الأردن وحكومته .

لو كان الأذى يلحق بالحكومة وحدها لوجدنا عزاءً بأن الخصومات بين الحكومات العربية والمكابرة في المغالطات أدّت إلى ذلك، ولكن الأذى انسحب على الأردنيين عموماً دون جريرة اختصوا بها أو تفردت حكومتهم بها .

كانت تحدث قصص كثيرة لبعض الأردنيين الذين يزورون دمشق بصورة خاصة ؛ وأذكر حادثة وقعت لي ومحمود الروسان ونحن عائدان من بريطانيا بعد إنهائنا كلية الأركان إذ استقلينا سيارة من بيروت إلى دمشق :

سألونا في الحدود عمّا نحمل معنا فاعلمناهم عن بندقية ومسدسين شخصيين اشتريناها من لندن وكأننا نطقنا كفراً ، إذ احتجزونا في نقطة الحدود وأطلقوا علينا لقب جواسيس جلوب . كانت المشكلة الرئيسية أن محمود يصطحب زوجته وطفلته رباح وكانت منهكة بسبب السفر الطويل وكأنها مرضت ولا تتوقف عن البكاء .

بعد جدل عنيف تلطّف ضابط الحدود وسمح لنا بالوصول إلى دمشق مخفورين بعد أن صادر الأسلحة وأجرى مكالمات عديدة مع رؤسائه . وفي الفندق الذي أنزلنا فيه خفيرنا أسرّ إلينا صاحبه بأن رجلاً من المباحث يراقبنا . وعند الظهيرة تمكنت من الاتصال بالضابط المسؤول وذهبت لمقابلته وحدي حتى يتمكّن محمود الروسان من العناية بزوجته وطفلته . كانت المقابلة مع هذا الضابط غريبة إذ أراد أن يتعالى عليّ ويتعاظم فلم يرد التحية بل أمرني بالجلوس ليحقق معي عن أسباب حوزتنا السلاح على الأراضي السوريّة وهل أرسلنا جلوب للتآمر؟

قلت له : تآمر بمسدسين وبندقية ؟ أنت ضابط برتبة رائد وتتصوّر هذا ؟ كنت أعتقد أنك ستعالج الموضوع بما تقتضيه أخوة السلاح والعروبة . نحن عائدون إلى الأردن ولن نتحرك من دمشق بدون سلاحنا مهما كلف الأمر .

قال الضابط: أنتم، ضباط جلوب، آخر مَنْ يتكلّم عن أخوة السلاح والعروبة ولن تأخذوا الأسلحة فقد صادرناها.

قلت له: إسمح لي بالاتصال من هاتفك مع أديب بك الشيشكلي رئيس الجمهورية لأطلب حكمه في الموضوع ولكنه استهجن طلبي ورفضه. فهدّدته بأنني سوف أتصل بالرئيس الشيشكلي من الفندق. وعندئذٍ ذهب إلى مكتب آخر مجاور وعاد بعد ربع ساعة ليأذن لنا بمغادرة دمشق، وتسليمنا أسلحتنا، مع حراسة حتى درعا.

ومن غريب الصدف أن هذا الضابط نفسه زارني بمعية الأستاذ محمد أديب العامري بعد أسبوعين من طرد القيادة البريطانية سنة ١٩٥٦ وأنا في قيادة قوات الضفة الغربية ، وقد أرتج عليه عندما وقع نظره عليّ وعرفني فتجاهلت الموضوع وكأني نسيته حتى تمالك نفسه .

قال : لقد حقق الأستاذ العامري أمنية أبديتها له وهي أن أتعرّف إليك . أكرمت أستاذي العامري بحفاوة خاصة ودعوته مع ضيفه لتناول الغداء مع ضباط قيادتي الذين امتلأت عينه بيقظتهم. فقلت لأخي الضابط السوري : هؤلاء إخوانكم في السلاح والعروبة .

كان جلوب هو سيف الفرقة بين الأردنيين وبعضهم حيثما استطاع وعنوان التفرقة بين الأردنيين والعرب ، لأنه كان بريطانياً مفرطاً في خدمة بلاده على الأرض العربية .

جلوب هذا انتهز فرصة عودة جلالة الملك لفترة علاج ثانية إلى سويسرا فأراد التخلّص مني بأن كتب تقريراً إلى رئيس الوزراء يتّهمني فيه بالاتصال بدولة عربية ويقصد سوريا ، وكذلك بالتحريض على انقلاب الجيش على قيادته البريطانية ويطلب بالتالي إنهاء خدمتي .

تدخّل سعيد باشا المفتي ومعه الوزير عبد الحليم النمر والشيخ محمد أمين الشنقيطي ومنعوا اتخاذ القرار المطلوب في مجلس الوزراء ، وأوصوا قائد الجيش بتقديم تقرير ثانٍ بعد شهرين من مراقبتي .

اتهام قائد الجيش بعلاقتي بسوريا كان محض اختلاق ، أمّا تأليب الضباط على القيادة البريطانية فقد كانت حقيقة معروفة عنّي عند معظم ضباط الجيش منذ المواجهة مع جلوب في سينما معسكر المفرق والتي سبق ذكرها ومنذ سنة ١٩٤٩ قبلها.

بعد شهرين من مراقبة ملحوظة من جهاز المباحث والاستخبارات العسكرية توصّل جلوب إلى حلّ لا يملك غيره وهو إيفادي ملحقاً عسكرياً في السفارة الأردنية في باريس . وعندما استفسرت من جلوب عن ماهية نقلي إلى بلد لا علاقة عسكرية بينه وبيننا أجابني بصراحة أنه ضاق بي ذرعاً ويريد إبعادي لعدد من السنوات لعلّي أصلح نظرتي للقضايا الأردنية البريطانية .

وفي أيار ١٩٥٢ كنت جاهزاً للسفر ولكنه أجّل سفري حتى حزيران ، إذ كان جلالة الملك يقضي فترة نقاهة في باريس وخشي جلوب أن ألتقي بجلالته .

في فرنسا

باريس عاصمة عالمية لا تساويها أخرى في جمالها ، كما وأن فرنسا بلد عظيم بتاريخه وتراثه وحضارته . والحياة في باريس تملأ الإنسان بمتعة العقل والنفس . ولكن الفرنسيين كانوا ، وأكاد أقول بلا استثناء ، منحازين إلى إسرائيل ، كما وأنهم أيضاً متشبثون بفهم استعماري تستحيل مناقشته ، وبالأخص بالنسبة لشمال أفريقيا . وقد صادف تواجدي في فرنسا فترة الغليان المغربي إثر نفي السلطان محمد الخامس وحركة الوطنيين التونسيين وفي ما بعد الثورة الجزائرية .

المنظّرون الفرنسيون غرسوا في أذهان شعبهم خرافة أرادوا الاعتقاد بها باعتبار الجزائر جزءاً من فرنسا ، فصلته عوامل التحركات الطبيعية الكبرى والتي أدّت إلى

وجـود البحر الأبيـض المتوسط . واعتقدوا أن الوجود الفرنسي في الجزائر أمر طبيعي لا يندرج تحت عنوان الاستعمار، ولذا كانت المستوطنات الفرنسية التي استولى سكانها على الأراضي الخصبة الشاسعة تاركين للعرب الجزائريين الجبال وبعض السفوح الجدباء والصحراء ، كما فرضوا على الجزائريين واجبات ثقيلة وحرموهم من أي حقوق موازية لتلك الواجبات .

التجهيل وفرض اللغة الفرنسية حرما الجزائريين من كل مقومات الهوية العربية ، ولم يحفظهم من الضياع إلاّ تمسكهم الشديد بالإسلام .

وبحكم الجهل المفروض على الجزائريين، احتكر الفرنسيون ومن هاجر من الإيطاليين واليهود إلى الجزائر ، كل عناصر الاقتصاد صناعة كانت أو تجارة وربطوها بإحكام بالاقتصاد الفرنسي . وكانوا ينظرون إلى الجزائريين نظرة احتقار وكأنهم من خليقة أخرى متخلّفة لا تصلح إلا لخدمة السادة الإفرنسيين وأتباعهم من الأوروبيين . واستقدمت فرنسا أعداداً ضخمة من الجزائريين زادت عن المليون ليقوموا في المصانع بالأعمال الخشنة، وفي المدن بالأعمال الوضيعة التي يترفع عنها العمال الفرنسيون وبأجور زهيدة .

ولذا ، فإن زيارة للأحياء التي سكنها الجزائريون في باريس كانت كافية لمعرفة شقائهم رجالاً ونساء وأطفالاً . ولا يمكن لأحد أن يصدّق أن فرنسا التي كانت تتباهى بين الأمم بثورتها وشعاراتها عن الحرية والمساواة تقبل لبني البشر حياة كالتي يعيشها الجزائريون في قلب عاصمة النور . ذلك لأن الروح الاستعمارية الفرنسية ظلّت متعايشة مع مبادىء الثورة الإفرنسية لتصبح معاناة الجزائريين وكل الشعوب المستعمرة هي الحقيقة الواضحة التي تترجمت على أرض الواقع . وما كانت أناشيد الحرية الفرنسية ومقولات أعلام الحضارة الإفرنسية إلاّ خدعة عظمى ومغالطة تاريخية كبرى .

آلة الاستعمار الفرنسي كانت مطحنة فولاذية كبرى تسحق الشعب الجزائري والبلاد المغربية والأفريقية ، والادعاءات بتحضير تلك الشعوب كانت زينة تزييف لا تخدع أحداً . والضمير الفرنسي الذي شحنته المظالم لتفجّر ثورته في الماضي تبلّد وفقد الحسّ عندما أصاب الفرنسيون غيرهم بظلم أشد وأقسى . فالاستعمار الفرنسي كان فريداً من نوعه حيث يسمح لنفسه بسلب أرض المستعمرات ويقطعها للفرنسيين ويستولي على كـل وسائل الإنتاج الزراعية والثروات المعدنية ذات الجدوى .

الفرنسيون يتماثلون مع البريطانيين والإيطاليين في ازدواج أخلاقياتهم، في الاحتفاظ بكل المكاسب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لمواطنهم في الوطن

والمستعمرة ويحرمون أهل المستعمرة من أدنى الحقوق الإنسانية .

والغريب أنهم يتبجّحون بمسؤولية لم يوكلها أحد إليهم، فيعلنون أنهم يعملون لرفع مستوى الشعوب المتأخّرة لتمكينها من القدرة على حكم نفسها، في حين أنهم يصادرون الحرية والثروة ويطيلون عمر الجهل لتلك الشعوب.

لهذه الأسباب وجدت نفسي في بيئة غريبة لا تتّفق ونظرتي للحياة ، فضلاً عن أني كنت خالياً من عمل يشغل وقتي ، وبدأت أفكّر في العودة إلى الأردن منذ السنة الأولى حيث تركت كل اهتماماتي العسكرية والوطنية .

وفي نهاية السنوات الأربع لم ألمس أي تغيير في الفكر أو الاتجاه السياسي الفرنسي إلى الأفضل ، بل وعلى النقيض تماماً أصبح التعايش معهم أو حتى الحديث مؤلماً بعد أن قامت الثورة الجزائرية .

وعندما صدر أمر نقلي إلى الأردن لم تمنحني الحكومة الفرنسية الوسام التقليدي الذي تمنحه لأي من الملحقين العسكريين عند انتهاء مهمته . وقد اعتقد الفرنسيون أن تصلّبي في قضية الجزائر وفلسطين، الذي أعترف بأنه كان بعيداً عن الدبلوماسية، لا يخوّلني ذلك التكريم.

كتبت إلى قائد الجيش أكثر من مرة أعلمه بأنه، في ما عدا بعض النشاطات الاستخبارية عن صفقات السلاح الإسرائيلية، فإن وقتي مهدور، فأجابني بأن تقاريري مهمة جداً للجيش وأني أقوم بخدمة جيدة. وكتبت له مرة أن مخصّصاتي غير كافية وأريد العودة فأرسل إليّ المدير المالي والذي كان متّجهاً في مهمة إلى لندن ومرّ بباريس فضاعف مخصّصاتي. فوجدت بالتالي أن لا مفر من إقحام جلالة الملك في موضوع نقلي والإلحاح عليه بعد أكثر من سنة من وصولي إلى باريس.

علمت أن قائد الجيش أرسل محمود الروسان ملحقاً عسكرياً بالسفارة في واشنطن ، مما أظهر بوضوح أن هنالك سياسة لإبعادنا عن الجيش إبعاداً كلياً . كان نفياً عن الوطن والخدمة الحقيقية إلى بلاد غبطنا عليها الكثيرون دون أن يعرفوا أسباب إبعادنا .

في بداية عملي في باريس قامت الثورة المصرية فأحدثت ضجة كبرى في أوروبا ، إذ إن الملك فاروق لم يكن حسن السمعة في أوروبا وأخبار فساده تزكم الأنوف .

والجالية العربية كلّها استبشرت بالثورة، وأخذت أخبارها مع الأيام تحتل

مساحات من الصحف الفرنسية والبريطانية بشكل خاص .

وكثرت التكهنات عن اتجاهات قادة الثورة إلى أن ظهرت أفكار عبد الناصر تتّضح شيئاً فشيئاً ، وساد الاعتقاد أن الضبـاط المصريين لم يكونوا مجرد حكام جدد بل ذوي اتجاه تحرري وعربي .

وسرعان ما استُبدل أعضاء السفارة المصرية بدبلوماسيين وعسكريين، كان أهمهم العقيد ثروت عكاشة والذي كان يدير أعمال السياسة مع الحكومة الفرنسية إلى جانب عمله العسكري . وكان ثروت فعّالاً ، أهدافه واضحة وطريقه إليها واضح أيضاً ، وقد اكتسب احترام الحكومة الفرنسية بالرغم من تناقض مصالحها مع مصالح مصر الثورة . واكتسب أيضاً تقدير الدبلوماسيين العرب لصراحته وإخلاصه لأهداف الثورة ، وكنت سعيداً أن توطّدت علاقتي به وأصبحنا أصدقاء حتى يومنا هذا .

تنحية الملك طلال

في صيف ١٩٥٢ اشتد المرض على الملك طلال بحيث استحال عليه الاستمرار في مسؤولياته ، فاضطرّت الحكومة إلى اتخاذ أصعب قرار واجهها . فعرضت أمر تنحية الملك على مجلس الأمة الذي اطّلع على التقارير الطبية ووصل إلى قناعة تبرّر تنحية الملك واتخاذ القرار بذلك في الحادي عشر من آب سنة ١٩٥٢ ، وكذلك القرار بإعلان ولي العهد الحسين بن طلال ملكاً .

ولمّا كان الملك حسين لم يبلغ السن القانونية بعد ، فقد أرسل إلى الكلية العسكرية البريطانية ساندهيرست وعينت الحكومة مجلس وصاية ينوب عن الملك مدة دراسته .

ولما بلغ الحسين الثامنة عشرة دعته الحكومة إلى عمان لتنصيبه ملكاً ، فأبلغني سفيرنا في لندن بالخبر وطلب إليّ الحضور إلى لندن لأرافق جلالة الملك لفترة مراسيم التنصيب والعودة معه إلى لندن ، وأنه قد أرسلت برقية إلى قائد الجيش لإعلامه بهذا الاختيار . ذكرت لفوزي باشا الملقى السفير خشيتي أن لا يوافق قائد الجيش ، ولكنه استبعد رأيي وأكد على ضرورة وصولي إلى لندن في صباح اليوم التالي . وفي مساء اليوم نفسه وصلتني صورة عن ردّ قائد الجيش على برقية السفير والتي يقول فيها : علي أبو نوار لا يمكن الاستغناء عنه في باريس لأهمية أعماله، وسوف يصاحب جلالة الملك في رحلته القائد فواز ماهر الموجود في لندن.

وكان مقدّراً لي أن ألتقي بالملك في باريس بالرغم من محاولة قائد الجيش

إبعادي عنه ، إذ كانت رحلة الملك بالسيارة إلى باريس لليلة واحدة ثم إلى لوزان ليصطحب جلالة الملكة الوالدة إلى عمان . ووصل الحسين إلى فندقه في باريس عصراً حيث كنت في استقباله ودعاني لتناول الشاي في صالونه حيث كان لي معه أول حديث .

بعد كلمات الترحيب والمجاملة قال فواز ماهر وعلى غير انتظار : يا جلالة الملك ، لعلّك لا تعرف سبب رفض جلوب باشا طلب السفير أن يرافقك علي أبو نوار . هو يعتبر علي ذا آراء خطيرة وأراد استبعاد سماعك لها واختارني لعلمه أنني بعيد عن مثل تلك الآراء .

القائد فواز كان ولا يزال صديقي ويعلم عن نقمتي على القيادة البريطانية وسياسة بريطانيا منذ ١٩٤٩ وكأنه أراد إثارة اهتمام جلالة الملك بصديقه ، وقد نجح في ذلك إذ أبدى الملك اهتماماً لم أكن أنتظره وهو في سن بداية الشباب وكنت أتصوّر أن فرحته بالتنصيب ملكاً تستحوذ على كل فكره .

فوجئت بالملك الشاب يستمع إليّ ويناقش باهتمام كبير ، ولم أكن أريد الإطالة لعلمي أنه قاد سيارته من لندن وتصوري أنه متعب ويحتاج إلى بعض الوقت للراحة . إلّا أنه أصرّ على استمرار الحديث الذي طال حتى ساعة متأخرة من الليل في حين أنه سيستأنف السفر في الساعة الرابعة صباحاً .

تناول الحديث بداية الناحية السياسية منذ الحرب العالمية الأولى والخديعة البريطانية التي تمثّلت بغدرها للثورة العربية الكبرى واتفاقية سايكس بيكو ووعد بلفور وما أدّت إليه تلك من تجزئة وإضعاف للأمة العربية ومن ثم إحكام السيطرة البريطانية والفرنسية على معظم الوطن العربي ، وأخيراً غرس الكيان الصهيوني في جسم الأمة العربية .

استأثرت حرب سنة ١٩٤٨ بأكبر جزء من التفصيل ، وكذلك نتائجها على الأردن وعلى الجيش العربي ومعنويات الشعب والجيش ، وضرورة إنقاذ الأردن بإخراجه من طوق النفوذ البريطاني واكتسابه سيادته .

تابع الملك حديثي بكل حواسه وناقشني واستفسر منّي عن بعض وقائع الحديث ممّا جعلني أتصوّر أنني أخاطب رجلاً ذا همّة وعناية . وأدركت أنه لم يسبق وتحدّث أحد إلى الملك في أي من المواضيع التي طرقناها إلى تلك الدرجة من العمق والخطورة . وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل استأذنت جلالته على أن أعود إليه

في الساعة الرابعة لوداعه ولكنه أعفاني بإصرار من العودة . وبعد ظهر اليوم التالي هاتفني جلالته من لوزان ليبلغني بأن للحديث بقية وأنه سيلقاني قريباً .

بعد ظهر يوم في النصف الأول من آب اتصل بي جلالة الملك يدعوني إلى حضور حفلة يقيمها على شرفه الضباط المتواجدون في مدارس عسكرية مختلفة في بريطانيا في نادي ضباط الجيش العربي في لندن بعد يومين ، وطلب إليّ الوصول مع أول طائرة . سألت جلالته إذا كنت أحتاج إلى إذن بسفري من قيادة الجيش ، فصرخ الملك مستغرباً السؤال وقال: إذا لم تصل غداً فسأجيء وآخذك بالقوة فلا تحتجّ بقائد الجيش .

وصلت إلى نادي الضباط في لندن وما هي إلاّ ساعة حتى حضر الملك ومعه فوزي باشا الملقى ، وأمر بحجز غرفة لي بجواره في فندق دورتشتر . وبعد جلسة قصيرة اصطحبني بسيارته إلى الفندق ليستأنف الحديث الذي دار في باريس لساعتين ، ثم ذهبنا لمشاهدة فيلم في إحدى دور السينما الكبيرة وعدنا إلى الفندق لتناول العشاء واستئناف الحديث .

وفي اليوم التالي كان احتفال الضباط بتخريج جلالته من الكلية العسكرية ، وقد حضرهاماية ونيف من الضباط بعضهم من البريطانيين في مكتب الاتصال التابع لقيادة الجيش ، وكذلك السفير وأعضاء السفارة حيث تناولنا العشاء واستمعنا إلى بعض الطرائف التي قصها السفير وإلى تعليقات من جلالته .

ثم جاء دور الملحق العسكري صالح الشرع الذي ألقى كلمة ترحيب جميلة بالملك وتهنئة رقيقة بمناسبة تخرجه ، تضمّنت افتخار الجيش بأن يكون قائده الأعلى ملماً بالأمور العسكرية فصفقنا له .

استأذنت جلالته بالكلام فأذن لي، وما إن تكلّمت دقيقتين حتى احمرّ وجه فوزي باشا وأخذ يعضّ شفته ويشير إلى الضباط البريطانيين على المائدة . لقد خشي فوزي باشا مغبة كلامي إذا نقله الضباط البريطانيون لجلوب باشا ، ولكني لم آخذ بإشارته واسترسلت حتى أكملت ما قصدت قوله . لم يكن غرضي نقل أفكار إلى جلالة الملك الذي توقّد فكره في ما نحن بصدده ، وأصبح شغله الشاغل ، وإنما قصدت أن استطلع ردّ فعل الضباط، وأغلبيتهم الساحقة لا تعلم شيئاً عما يدور في خلد الضباط الذين يحملون أمل تحرير الجيش والوطن.

لا أبالغ إذا قلت إن الاستجابة العفوية والعاطفية من الضباط فاقت كل تصوّراتي ، وقد سعدت أن يلمس جلالة الملك هذا الشعور الفياض ، ممّا أضاف إلى

تقديره لجدية مسؤوليته في تحقيق الأمنية الوطنية إلى جانب وثوقه بأن ضباط الجيش سيقفون إلى جانب قراره عندما يصدره .

عدنا إلى الفندق وبدأ جلالته الحديث بأن أبدى تأثره مما شاهد في الحفلة ، وسألني عمّا أريده من خطوات عملية لتحرير الجيش ، فاقترحت أن يعيدني إلى الأردن بالسرعة الممكنة لتنظيم العمل العسكري بما يكفل نجاح حركة الجيش فوعدني بذلك . وفي اليوم التالي عدت إلى باريس .

حاول جلالة الملك أكثر من مرة ، ما بين عودته إلى عمان لممارسة مسؤولياته في نهاية صيف ١٩٥٣ حتى نهاية ١٩٥٥ ، إعادتي عن طريق إقناع قائد الجيش بأن وجودي ومحمود الروسان بعيدين عن مراكز قيادية في الجيش هو استبعاد للكفاءات ولكن دون جدوى .

وصادف تولّيه المسؤولية اصطدامات واعتداءات اسرائيلية على القرى الواقعة قرب خط الهدنة ، وأبرزها العدوان على قرية قبية حيث ذبح الجنود الإسرائيليون النساء والشيوخ والأطفال وهدموا معظم بيوت القرية دون أن يتدخّل قائد اللواء الثالث لصدّ العدوان أو مقاومته ، ممّا أثار المشاعر في الملك والشعب والجيش بالغضب والاستنكار .

من حادثة قبية التي وقعت في منتصف تشرين الثاني ١٩٥٣ بدأ الملك يحسّ بتهاون القيادة في حماية الحدود ، وأخذت مناقشاته تتخذ شكلاً حاداً ومربكاً لقائد الجيش . وفي إحدى المناقشات صرّح قائد الجيش لجلالة الملك والمجتمعين بأنه لن يكون قادراً عن الدفاع عن الضفة الغربية وأن المعاهدة البريطانية الأردنية لا تلزم بريطانيا بمساعدة الأردن للدفاع عن أراضي غرب النهر .

وكنتيجة لقناعات الملك فإنه قرر مع رئيس وزرائه فتح مفاوضات مع بريطانيا لتعديل معاهدة الدفاع بين البلدين بقصد الوصول إلى هدفين : الأول ، إعادة جلوب باشا إلى بريطانيا بإنهاء خدمته في الأردن والبدء في تسليم القيادات العسكرية للضباط العرب . والثاني ، فصل قوات الشرطة والأمن عن قيادة الجيش وإلحاقها بوزارة الداخلية .

ومع أن التعديل الذي كان يؤمل أن يكون خطوة على طريق إنهاء السيطرة البريطانية تدريجياً ، إلاّ أنه يبقي المعاهدة في بنودها السياسية والعسكرية من حيث المبدأ .

وتشكّل الوفد من رئيس الوزراء ووزير الدفاع، وتعمّد الملك أن يتواجد في

الوقت نفسه في لندن لمساندة وفده وتعزيز إصراره على التعديل. الحكومة البريطانية قبلت زيارة الوفد ولكنها استهترت به في المفاوضات، إذ أوكلت التحدث باسمها إلى وكيل وزير الخارجية الذي رفض باسم حكومته كل المقترحات الأردنية جملة وتفصيلاً.

غادر الملك بريطانيا غاضباً ليزور باريس وليروي لي ما حدث ويبدي حنقاً بالغاً واستنكاراً لتصرف الحكومة البريطانية. وقد وصف لي الغطرسة التي واجهها رئيس الوزراء توفيق باشا من وكيل وزارة الخارجية وفي النهاية قال: كنت أودّ الوصول بالطريقة الودية إلى تفاهم لتعديل المعاهدة ولكن وبعدما حدث فليس من سبيل إلاّ المواجهةولا بدّ من ردّ اللطمة وأريدك أن تنتظر أمر العودة إلى عمان قريباً.

كان جلالة الملك يتحدّث عن الثورة المصرية، فدعوت الملحق العسكري في باريس ثروت عكاشة لمقابلته على غداء وارتاح الملك إلى ثروت، وفي المساء أعلمني بقراره بضرورة زيارة القاهرة وخلق علاقة مع قيادة الثورة المصرية. وفعلاً قام بزيارة القاهرة وعاد يحمل عن رجال الثورة انطباعاً جيداً، ووصفهم لي في اللقاء اللاحق بأنهم رجال أنقياء ومخلصون.

في أواخر سنة ١٩٥٤ كما أذكر، أبرقت إليّ قيادة الجيش تطلب مني الحضور إلى عمان فوراً لمقابلة جلالة الملك، فسافرت واستقبلني جلالته بحضور وزير البلاط ورئيس الديوان ثم أخذ يستفسر عن معلوماتي عن الثورة الجزائرية. ولمّا لم أكن على علم كامل بالثورة الحديثة العهد فقد أفدته بما أعرف ثم دعاني لوحدي لتناول الغداء معه.

بدأ الملك بحديثه عن الثورة الجزائرية وطلب إلي موافاته بما يستجدّ عليها معرباً عن اهتمامه والرغبة في مساعدتها إذا أتيحت الفرصة، وعن أمله بأن تكون المساعدة العربية جماعية عن طريق الجامعة العربية. وتحول بعدها إلى السبب الرئيسي لاستقدامي وهو رغبته في إيفادي بزيارة سريّة إلى عبد الناصر لبحث موضوعين:

الأول: الاستفسار عن اتجاه الحكومة المصرية بالنسبة لعودة فخامة شكري القوتلي إلى سوريا.

الثاني: مدى استعداد مصر لمساندة الأردن عندما نقوم بتحرير الجيش.

وصلت القاهرة عن طريق بيروت، واتصلت من الفندق الصغير الذي اخترته مع

ضابط سمّاه لي القائم بأعمال السفارة المصرية في عمان ، وكان هذا الضابط من مساعدي عبد الناصر واسمه علي أحمد .

في عمارة رئاسة الوزراء استقبلني علي أحمد وسكرتير الرئيس سامي شرف الذي أوصلني بدوره إلى رئيس الوزراء عبد الناصر .

موضوع سوريا والرئيس شكري القوتلي كان الحديث فيه سهلاً ، لأنّ عبد الناصر أبلغني بأنه يرى في عودة القوتلي ضماناً لاستقرار سوريا وأعرب عن احترامه للرجل وماضيه .

الموضوع الثاني استغرق بحثه طويلاً ، إذ سألني الرئيس عن نوع المساندة المطلوبة. فأجبته بأنها ذات شقين: الأول، هو تحرك القوات المصرية لتخفيف زخم أي عدوان إسرائيلي قد تحرّكه بريطانيا على الضفة الغربية، وثانيهما ، إمكانيات تعويض الأردن عن المساعدة المالية البريطانية من مصر وغيرها من الدول العربية .

قال عبد الناصر : إن احترامي لأفكار الملك حسين التحريرية ليس له حدود ، ولكن لنتحدث قبل بحث المساندة المصرية في مبدأ مصادمة الأردن مع بريطانيا وماذا ستوصل إليه .

نحن في مصر نعمل على جلاء القوات البريطانية البالغة ثمانين ألفاً يرابطون على طول قناة السويس ولا بد من إدخالهم في الحساب الأردني والمصري . بريطانيا لها في الأردن قواعد جوية وبريّة وهي قادرة على نقل فرقة مظليين من قناة السويس وإنزالهم في الأردن ، وعندئذ لا تدخل إسرائيل في الحساب وإنما يدخل مستقبل الأردن والملك حسين والجيش الأردني في الحساب .

يمكنني أن أتصوّر كارثة نعجز نحن في مصر كما يعجز العرب عن التخفيف من أثرها ، وكما تعلمون فإن نوري السعيد سوف يتدخل حتماً إلى جانب بريطانيا .

أما المعونة الماليّة فهي أمر يأتي في الدرجة العاشرة من الحسابات في مثل هذه المغامرة .

فنحن قمنا بالثورة على ملك فاسد مكروه من كل المصريين ولا يتمتع بأي احترام في العالم ، ومع ذلك فإننا كنّا نخشى التدخل البريطاني لمصحلة الملك فاروق، مع العلم أن مصر بلد كبير وشعبه بعشرات الملايين، يكون بالتالي سنداً عظيماً للجيش المصري والثورة . ولكن الأردن لا يملك الفرص التي اعتمدت عليها ثورتنا في مصر .

أنا أسمع عن ضباط أردنيين يناصبون بريطانيا العداء وسمعت باسمك شخصياً من مصادر أردنية ، ولكن لم أكن أعتقد أن قدراتكم وصلت إلى الدرجة التي يمكن لها أن تلبي أمنية التخلص من النفوذ البريطاني .

ناقشت الرئيس عبد الناصر في موضوع القوات البريطانية طويلاً وخلصت إلى أن ما يثير قلقنا هو إسرائيل . أما بريطانيا فلا يمكنها لو أخمدت الحركة الأردنية التي ستأخذ إلى جانب التحرك العسكري كل الجوانب الدستورية في إجراءاتها بحكم أن الملك نفسه يرأس الحركة ، لا يمكنها أن تزيد إلى نفوذها الحالي نفوذاً أكثر . ومع ذلك فإن جلالته لا ينتظر منكم إعلان حرب على بريطانيا .

حاول عبد الناصر أن يثبت وجهة نظره في خطأ التوقيت للحركة الأردنية ، وأنه حرصاً منه على الأردن وسلامته لا يؤيّد المصادمة مع بريطانيا قبل جلاء قواتها عن قناة السويس .

حسابات عبد الناصر ، رحمه الله ، كانت صحيحة بكل المعايير ، بحيث لا تترك مجالاً لأي جزء من المخاطرة ولم أكن أختلف معه بعقلي ، ولكننا في الأردن لم نكن نعلم إلى متى ستطول إقامة القوات البريطانية في منطقة قناة السويس ممّا يجعل أمر تحرّر الأردن مرهوناً بنجاح مصر في تحقيق الجلاء .

فضلاً عن ذلك فإن الملك حسين اعتبر الغطرسة التي أبدتها الحكومة البريطانية في مفاوضات لندن مع رئيس وزرائنا دليلاً على نيات بريطانيا على الإقامة في الأردن ما أقام عيب . والبرهان القاطع وضح في الاستهتار البريطاني برغبة الأردن في تعديل المعاهدة بما خيب حسن الظن وألحق بالأردن المهانة .

وكذلك فإن رهن مستقبل الجيش حجماً وتسليحاً بمقتضيات الحاجة البريطانية دون اعتبار إلى مسؤولية الأردن الوطنية والقومية في مواجهة إسرائيل، لا يضع الأردن في قيد الأسر الصهيوني والاستعماري فحسب ، ولكنه يتعدّى ذلك إلى ضياع كرامة الوجود وقدسية الأرض والقضية . وتجربة الأردن سنة ١٩٤٨ في فلسطين مع بريطانيا كانت تثقل الضمير الأردني ملكاً وحكومة وشعباً .

هذه الاعتبارات التي تمسّ الحياة الأردنية الفلسطينية في صميمها كانت تمثّل الامتحان الأكبر للأردن بمختلف درجات المسؤولية الرسمية والشعبية . فبينما دخل في حسابات الرئيس عبد الناصر ضرورة النجاح أساساً لا يجوز إغفاله في عملية التحرير والانعتاق من المعاهدة الجائرة ، كانت حسابات الملك تدخل من باب ضيق كعنق الزجاجة . هذا الباب كان لا بدّ من ولوجه بالإيمان الوطني وتحقيق الذات

ليتكافأ مع مطلب التحرير للأرض الفلسطينية بغض النظر عن المخاطرة .

هكذا كانت النظرة الأردنية . ولذا انقطع البحث مع مصر في هذا الموضوع بعد تلك المقابلة نهائياً مع بقاء تقديرنا واحترامنا لثورة مصر العربية واعتبارها حدثاً جليلاً في تاريخ العرب الحديث .

الفصل السادس

الثورة المصرية وحلف بغداد

الثورة المصرية قامت وهي تحمل معها مبادىء عمل مصري يتلخّص بإنهاء العهد الفاسد وإنصاف الطبقات الكادحة ، والخلاص من الوجود العسكري البريطاني وأوجه السيطرة السياسية والاقتصادية والأجنبية كافة. وتحمل أيضاً أفكاراً عامة أشار إليها عبد الناصر في كتابه فلسفة الثورة بالدائرة العربية والدائرة الإسلامية ، وهي تماثل إلى درجة ما كان شائعاً في الوطن العربي شرقي قناة السويس من نداءات للوحدة العربية والتقارب الإسلامي .

مصر كانت مركز الثقل في المشرق العربي كما كانت أهم منطقة استراتيجية للوصل بين الشرق والغرب ، وخصوصاً بعد فتح قناة السويس ، وكانت نقطة تضارب رئيسية بين مصالح الغرب الاستعماري وبين أمل شعوب المنطقة العربية بالاستقلال .

فهي قلب الحضارة والثقافة العربية والإسلامية من ناحية ، وهي شريان التجارة الأوروبية التي تصل بين دولها ودول شرق آسيا التي كانت مورد الموادّ الخام التي تنعش الصناعة الأوروبية واقتصادها .

ولمّا احتلت بريطانيا مصر قبل الحرب العالمية الأولى وسلختها عن الإمبراطورية العثمانية، سهل عليها دحر الجيش التركي عن فلسطين وسوريا والعراق في الحرب العالمية الأولى ، ليتسع مدى نفوذها وعمق قدرتها على السيطرة على جانبي قناة السويس وتأمين الاتصال الجغرافي لخطوط مواصلاتها البرية والبحرية مع الهند والشرق الأقصى .

ولمّا استخرج النفط في العراق استثمرته بريطانيا استثماراً احتكارياً، ممّا زاد من أهمية تمسكها بكامل المنطقة المشرقية العربية كميدان نفوذ واسع تترابط أجزاؤه بنظام سيطرة محكم على سياسة المنطقة وبترولها .

ولمّا أُحبطت الثورة العربية الكبرى ودخلت فرنسا سوريا ولبنان وانتدبت فلسطين

بما ألغى حقوق شعبها حتى في حكم ذاتي مرتبط ببريطانيا كما كان الحال في الأردن والعراق، صار العرب يتطلعون من مشرقهم بعين الأمل إلى مصر دولتهم الكبرى كما صاروا يتطلعون من مغربهم إليها أيضاً.

ولكن مصر كانت تزداد عليها القيود مع تقدّم الزمن إلى درجة فقدت معها الأمل بالاستقلال . ففضلاً عن السيطرة العسكرية تعاونت بريطانيا وفرنسا وبلجيكا على احتكار الاقتصاد المصري ، وأحياناً بالتعاون مع أصحاب الثروات الزراعية الكبرى من المصريين ، بما شغل الوطنيين المصريين بمتاعبهم الوطنية دون القدرة على الالتفات للعرب في المشرق والمغرب .

وإذا نظرنا إلى تركيبة الشعب المصري الطبقية نجد عائلة مالكة تتطلّع إلى أوروبا وتقتبس منها أسلوب الحياة ، حتى أصبحت غريبة عن الشعب الذي تحكمه وتلتف حولها فئة من ذوي الإقطاع السياسي والاقتصادي المتآلفة مع المستعمر والمستفيدة معه من شقاء الفلاح المصري ، بالدرجة الأولى ، وضيق العيش الذي تحكّم بالعمال والمثقفين وصغار الموظفين .

في مصر تقدّمت الحركة الأدبية وتعدّدت فيها المطابع والصحف وارتفع شأن الكتّاب والشعراء ، وساد الفكر فيها تيارات ثلاثة : الإسلامي والعربي والفرعوني . والتياران الأولان تناقضا مع الفرعوني الذي لم يجد إلا قلة من ذوي الفكر الضحل في مواجهة تعلق المصريين بالدين ، كما وأن التيار العربي لم تكن له جمهرة كبيرة وسنده الوحيد اللغة وهي لغة الإسلام .

الفتح الإسلامي ملأ مناطق كبيرة من مصر بالعرب الذين انتقلوا من الجزيرة وبلاد الشام إليها ، وقد وعوا على أصولهم العربية . فبينما يقول الكثيرون « نحن مصريون» يقول الكثيرون « نحن عرب » رجوعاً إلى جذورهم . وعزّز العروبة كثير من أعظم الشعراء مثل أحمد شوقي والكتاب مثل الرافعي ممّا جعل من مصر إمكانية انتماء عربي كبيرة .

ولمّا كانت مصر ملتقى لحضارات كثيرة قديمة وحديثة ومنطقة تجمع مصالح أجنبيّة مستغلة للفكر المصري ودافعة لتغريب مصر عن العروبة ، ظل الدين الإسلامي حافظاً للشعب من سياسة التغريب تلك وظلّ الجامع الأزهر ، كأكبر مؤسسة دينية وفكرية ، أهم مراكز الدفاع عن الهوية العربية .

الاستعمار البريطاني والاستغلال الطبقي كانا أعظم قيدين يشلّان مصر عن سلوك طريق قدرها لتصبح قوة مؤثرّة في مستقبل المنطقة العربية . فإذا كان الاستعمار

يحرم مصر من حريتها والاستقلال بثروتها ، فإن الاستغلال الطبقي قتل في الملايين من شعب مصر الأمل بغير الكفاف أو أقل من الكفاف من العيش .

الفقر كان سمة ظاهرة في الشعوب العربية في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، إلاّ أنه في مصر أصاب أكبر التجمعات البشرية في الوطن العربي كلّه . والفقر نفسه كان عاملاً أساسياً في ازدياد النمو السكاني ، خصوصاً في الريف حيث اعتبر الريفيّون كثرة الأولاد في العائلة عاملاً في زيادة الدخل .

نحن في جيلنا قرأنا وسمعنا ومنّا من رأى مظاهر فسق الملك فاروق والطبقة الحاكمة والإقطاعيين الذين استبدوا بثروات الوطن وجهد الشعب ، وكأنهم يملكون حقاً إلَهياً بالاستئثار بالمتع والبذخ وحرمان ملايين الفلاحين من عيش يكفل لهم أدنى درجات الكفاية والكرامة الإنسانية .

لم يكتفِ المستفيدون من سوء الحكم في مصر بامتيازاتهم عن طريق مصانعته ، بل ذهبوا إلى درجة الغلو في الاستهتار إلى تزيين فكرة الخلافة الإسلاميّة للملك فاروق ، وأصدر أحد علماء الأزهر شهادة زور ينسب فيها الملك إلى الرسول محمد ﷺ .

لقد وصل الإغراق في الجهالة عند تلك الفئات إلى إغفال حقيقة أن خلافة المسلمين تفترض في الخليفة الصلاح والأمانة في رعاية الأمة.

الشعب المصري تصدّى للإنجليز المحتلّين وللحكم الفاسد في ثورة أحمد عرابي وانتفاضاته بقيادة سعد زغلول، ودفع ثمناً غالياً في محاولات الاستقلال وإنهاء الفساد، إلاّ أن تحالف الحكم مع بريطانيا كان أقوى من المحاولات المصرية.

استقرت الأحوال في مصر، بعد سعد، على انتهازية في المعارضة تتحالف مع بريطانيا تارة لتقف في وجه الملك ثم يتحالف الملك تارة مع بريطانيا لإضعاف المعارضة .

وهكذا تمكّنت إدارة المندوب السامي من التربع على منصّة الحكم بين الملك والمعارضة لتقضي دائماً بما يرسخ النفوذ البريطاني. وفي مرحلة من الخلاف بين الملك والنحاس باشا زعيم الوفد طوّقت الدبابات البريطانية قصر الملك لترغمه على تعيين النحاس رئيساً للوزراء .

هكذا فقد الشعب المصري أمله في أن يُصلحٍ الملك أمره ، كما فقد أمله في أحزاب المعارضة وعلى رأسها حزب الوفد فوقع في التيه.

تلك كانت تجربة أجيال مصرية ، ولكن الأمم لا تستقر على حال ، كما وأن حركة الحياة لا تسمح بالركود وتأتي دائماً بما لا يكون في الحسبان . فجلاء بريطانيا عن فلسطين فجأة وبدون مقدّمات خلقت لمصر والمشرق مشكلة سبقت توقعات العرب ، قادة وشعوباً ، وهي خلق الدولة الصهيونية في فلسطين .

فوعد بلفور كان قائماً والهجرة اليهودية نشطت بعد الحرب العالمية الثانية ، وأعمال الإرهاب اليهودي بدأت باغتيالات لشخصيات بريطانية ولضباط بريطانيين وهجومات على المعسكرات والمؤسسات الإدراية .

ولم تكن بريطانيا عاجزة عن قمع الإرهاب اليهودي ، ومع ذلك قررت وعلى عجل إنهاء انتدابها على فلسطين ، في ظروف تمكّنت الصهيونية من تجهيز قوات مسلّحة وبناء تنظيمات سياسية تجعلهم يتفوقون على شعب فلسطين الأعزل من كل المقومات للدفاع عن وطنهم .

أدى ذلك إلى حرب ١٩٤٨ ، وأقحمت نتائجها الجيش المصري في أمور السياسة المصرية ، حتى قامت التنظيمات السريّة في الجيش لمواجهة فساد الحكم وعجزه عن إصلاح الأوضاع المتردّية في الوطن .

هذه المقدمة اختصار شديد لما يمكن قوله في أسباب الثورة المصرية وفي تفسير اتجاهاتها الفكرية .

الضباط المصريون الشباب شهدوا حالة شعبهم ووطنهم ، وعرفوا أسباب عجز مصر عن الانتصار على إسرائيل ، وردوا ذلك إلى فساد النظام كلّه وأن سبيل الإصلاح لا يكون بالدعوة وإنما بالثورة المسلّحة . وكان لرئيس الحركة في الجيش جمال عبد الناصر نظرات تتعدّى مجرّد تغيير الحكم إلى معالجة شقاء ملايين الفلاحين والفئات المعدمة من الشعب ، وذلك إلى جانب خلاص الوطن إلى سيادته واستقلاله.

وهكذا قامت الثورة لتنهي النظام الفاسد ، ولكن لتواجه القوى العظمى متمثّلة في بريطانيا وفرنسا والقوى المصرية المتعاونة مع الملكية .

الأمة العربية استقبلت ثورة مصر بالفرح والابتهاج ، لأنها رأت فيها بداية الخطوات التي تضع أكبر دولها على طريق التحرّر والقوة ،وخصوصاً في فترة المحاولات الغربية لإعادة تنظيم وجودها في المنطقة العربية وإقحامها في مخططات مواجهة الاتحاد السوفييتي .

قصدت أن أقرن الثورة المصرية وحلف بغداد تحت عنوان واحد ، لأنهما حدثا

في فترة متقاربة ولأن الصراع العربي ـ الاستعماري اتخذ شكلاً جديداً وتمثّلت فيه قوى جديدة في المنطقة .

الجماهير العربية كلها توجهت إلى مصر التي أصبحت تمثل أملها ، كما اتجهت الحكومات العربية بأغلبيتها نحو حكومة الثورة وبالأخص عندما اتّضحت معالم النزاع بين مصر والمستعمرين. ولما لم تكن ظروف الشعب المصري متماثلة في سوء أوضاعها الاجتماعية مع أي مجتمع عربي آخر فإن الحكومات العربية على اختلاف أنظمتها لم تسيء فهم الإصلاحات الاجتماعية في مصر.

ولكن المستعمر أخذ في تشويه أهداف الثورة ووصفها بالشيوعية بعد أن عقدت مصر صفقة السلاح مع الكتلة الشرقية ، وركّزت على دعاوى خلاصتها أن مصر تبغي تصدير ثورتها والسيطرة على الوطن العربي .

فأمريكا التي كانت تنافس دول الاستعمار القديم لم تكن معروفة بوجهها الحقيقي للعرب جميعاً ، إذ كان العرب مأخوذين بالدولة العظمى ذات الموارد الأعظم وما قدمته لأوروبا وشرق آسيا بعد الانتصار على ألمانيا واليابان . كما كان المثقفون العرب ، في ما عدا الشيوعيين ، يذكرون مبدأ مونرو ومقولة أن أمريكا لم تخسر حرباً ولم تكسب سلماً ، بمعنى أنها لم تخرج من الحروب بمغانم استعمارية .

وإذا ذكرنا إلى جانب ذلك أن أمريكا عارضت التدخل العسكري البريطاني لإحباط ثورة مصر ، فإنه من الطبيعي أن يتصوَّر العرب تصورات غير صحيحة عن أمريكا وأهدافها العالمية حتى حين .

مواقف بريطانيا وفرنسا لمساندة الصهيونية ودولة إسرائيل كانت ملموسة وواضحة للعرب ، في حين أن موقف أمريكا لم يكن بذلك الوضوح وإن كان أثره كبيراً في اتجاه بريطانيا لتغلب المصلحة الصهيونية . فرنسا وبريطانيا كانتا عدوّين معروفين وأمريكا تمثل المجهول للعرب ولكل دول العالم الثالث ، حتى بدأت بالتدخل الفعلي في شؤون دول الشرق الأقصى وأمريكا اللاتينية عن طريق القهر والانقلابات العسكرية واستغلال الثروات من قبل الشركات الأمريكية .

أصبح جلياً مع الاحتكاك المصري الأمريكي أن الأخيرة أرادت استدراج مصر إليها لتحل محل بريطانيا ، ولكن بما لا يؤثر على إسرائيل ، وأرادت أن تحول الثورة المصرية إلى ما يماثل ما صنعته من انقلابات في أنحاء أخرى من العالم ، في حين أن الثورة المصرية كانت عملاً وطنياً لم تدخل في صنعه يد أجنبية .

من هذا نفهم تردّد أمريكا في غيابها عن ساحة النشاط البريطاني في إلحاق دول عربية غير العراق في حلف بغداد . فقد قصدت أن تأخذ مكان بريطانيا في النفوذ في المنطقة ثم تفرض إرادتها في اتجاه الحلف ، بينما تحاول بريطانيا الاستعانة بأمريكا دون تسليمها القيادة والامتيازات .

دخلت العراق وتركيا وإيران وباكستان حلف بغداد إلى جانب بريطانيا ، وذلك استكمالاً لحلف الأطلسي في أوروبا وحلف السنتو في شرق آسيا باستثناء الهند، وبهذا اكتمل طوق الحلف الغربي غرب وجنوب الكتلة الشرقية ، وشملت الحرب الباردة منطقة الشرق الأوسط .

وهنا بدأت سياسة المحاور تحكم المشرق العربي وصارت مصر وسوريا والسعودية محوراً مواجهاً لحلف بغداد الذي تعاطفت معه الحكومة اللبنانية ، بينما وقف الأردن في الوسط بين المحورين . فبحكم المعاهدة بين الأردن والعراق والمعاهدة بينهما وبين بريطانيا وحاجة الأردن إلى المعونة المالية والعسكرية ، فإنها نظرياً أقرب إلى الحلف، ولكن رغبة الملك في الخلاص من السيطرة البريطانية واندفاع الرأي العام كله في معاداة الحلف جعلته يبدو أقرب إلى المحور الثاني .

ولـمّا كانت مصر وسوريا قد كسرتا قيد السلاح بالحصول عليه من الكتلة الشرقية وحصلتا على كميات من الأسلحة الثقيلة لم تعهده العراق والأردن من حليفتها بريطانيا ، فإن ميل الأردن إلى المحور العربي عاطفياً كان مرجّحاً . إلاّ أن بريطانيا كانت مصمّمة على إدخال الدول العربية جميعها في حلف بغداد فقرّرت البدء بالأردن في نهاية سنة ١٩٥٥ .

في الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩٥٥ اتخذ الملك قراراً غير قابل للنقاش بإعادتي من باريس ، وكلّف رئيس الوزراء سعيد باشا المفتي بتنفيذه . وقد حاول جلوب باشا إقناع رئيس الوزراء بالعدول عن القرار فلم يفلح ، وهكذا عدت إلى عمان في الفترة القصيرة التي سبقت معركة حلف بغداد .

كانت لي مقابلة مع جلوب باشا فور وصولي إلى عمّان وكانت فريدة من نوعها .

قال: أنا لم أكن أريدك في عمان أبداً ولكن جلالته أصرّ على عودتك فما أنت فاعل؟

قلت : لقد أمضيت أربع سنوات جالساً إلى المكتب في باريس وأنا مستعدّ لعمل الميدان وأريد قيادة كتيبة .

قال: هل تعتقدني مجنوناً لأعطيك كتيبة وأنا أعرف قصدك. إسمع يا علي، أنا لا أرى خيراً في عودتك ، ولكن إذا حاولت العبث في هذا البلد الذي أمضيت في بنائه ستاً وعشرين سنة فسوف أقصّ عمرك .

قلت : يا باشا ، هذا تهديد لا يليق بقائد الجيش ، فإن كانت عندك مآخذ على مسلكي العسكري فبوسعك تقديمي إلى مجلس عسكري لمحاكمتي .

قال : على كل حال فأنا حذرتك وقد اتفقت مع جلالة الملك لتعيينك كبيراً للمرافقين فالتحق بعملك الجديد .

قابلت جلالة الملك وقد بدا فرحاً بلقائي واستبقاني للغداء . وباشرت وظيفتي الجديدة وكانت لي زيارة إلى لبنان بمعيته تلبية لدعوة من الرئيس كميل شمعون .

كميل شمعون تعرّفت إليه سنة ١٩٤٩ عندما زار القدس بصفته رئيس لجنة إنقاذ القدس أو شيئاً من هذا القبيل ، وقد هيِّىء لي بأنه أحد السادة البريطانيين من حيث هيئته ولباسه وتصرفاته ، ولم أكن أعلم عنه شيئاً مسبقاً . وكانت حفاوة قيادة الجيش في فلسطين به بالغة وقد أثنى عليه قائد الفرقة ووصفه بالرجل المحترم وأنه صديق لبريطانيا .

في زيارة جلالة الملك الرسمية إلى لبنان كانت الحفاوة به بالغة وقد هُيِّئت له في جملة البرامج زيارة للكلية العسكرية ، وكان في الاستقبال العماد فؤاد شهاب قائد الجيش اللبناني الذي شرح باختصار مناهج التدريب في الكلية ومن ضمنها برنامج للرقص .

أخذتني الدهشة وتمالكت نفسي من الضحك بصعوبة . أن تكون كلية عسكرية عربية تعلّم الرقص بينما في بلدنا يرقص الضباط والجنود مذبوحين من الألم . ولكنني ومع ازدياد معرفتي بلبنان أدركت فوارق كثيرة بينه وبين الأردن سواء في الغايات والهموم أو في الاتجاهات .

ولقد حضرت جلسات البحث السياسي في تلك الزيارة واتضح لي أن كميل شمعون لا يخرج عن كونه أداةً مسيّرةً لخدمة سادته البريطانيين ، وأن القضايا العربية والقضية الفلسطينية بالنسبة له هي أحاديث صالونات الطبقة الراقية . وحتى يومنا هذا لا أدري من الذي عينه رئيساً للجنة إنقاذ القدس .

ولكنه لم يألُ جهداً في امتداح حلف بغداد وضرورة الالتصاق ببريطانيا ، وكأن

ذلك قدر من السماء لا تجوز مناقشته . ويمكنني الآن أن أسمّي تلك الزيارة سياحة لطيفة في بلد من أجمل بلاد العرب .

عدنا إلى عمان وإذ برئيس هيئة أركان حرب الإمبراطورية الجنرال تمبلر يزورنا ليطرح مشروع حلف بغداد على الأردن ، وكانت الحكومة الأردنية دعته تلبية لطلب من الحكومة البريطانية .

كنت أحد مستقبلي الجنرال في المطار دون أن أدري سبب زيارته وعلمت في ما بعد بأنه دعا الحكومة التي يرأسها سعيد باشا المفتي لانضمام الأردن إلى حلف بغداد ، كما انتشر الخبر في عمان وباقي العواصم انتشار النار بالهشيم .

استنفر الخبر الجماهير الشعبية ، وزاد في الاستنفار الدعوة المركّزة التي قامت بها وسائل الإعلام المصرية ، وهكذا قامت معركة بين محور حلف بغداد تمثّله العراق وبريطانيا في ناحية ومصر وسوريا والسعودية في ناحية أخرى . وكان وقود المعركة الأردنيون حكومة وشعباً .

سعيد باشا المفتي ووزراؤه لم يكونوا أدوات بيد مصر أو غيرها كما زعم خصومهم ، وهو بالذات كان رجل موقف . فإذا صدق الاتهام الذي وجّه إلى عدد من الوزراء بأنهم تقاضوا ثمناً من مصر ، وهو أمر مستبعد كما أقدر ، فإن سعيد باشا كان مثلاً في النزاهة والشرف .

عندما عجز تمبلر عن إقناع سعيد المفتي ظهر عرض للترغيب تعطي بريطانيا بموجبه للأردن إمكانية تشكيل مجموعة لواء مشاة وكتيبة دروع وباقي الأسلحة المساندةللواء ووحدات الخدمات ، ممّا يغطي نفقاتها المالية سنوياً .

في زيارة تمبلر القصيرة شهدت الأردن استنكاراً لم يسبق له مثيل من الشعب ، قابله ضغط من تمبلر وجلوب لم يسبق له مثيل أيضاً من بريطانيا على الأردن .

انتشر الجيش في العواصم جميعاً لقمع انتفاضة الشعب في وجه الحلف ، وأدّت الاشتباكات إلى مقتل عشرات المتظاهرين . وهكذا تلاقت كل الضغوط على جلالة الملك . العراق والأصحّ أن نقول نوري السعيد ، وقد ملأ سجونه بمقاومي حلف بغداد ، يريد الأردن في الحلف حتى لا يكون العراق البلد العربي الوحيد فيه . وبريطانيا لا تتحمل أن تفشل ، وقد أوفدت الجنرال تمبلر أمام استنكاف حكومة أردنية أو غضبة شعب صغير ، وجلوب باشا يعتبر أن قدره وسمعته العالية في بريطانيا في كف عفريت .

لجأ تمبلر للتأثير على الملك بطريقة همجية في جلسة في القصر وبحضور رئيس الوزراء وبعض الوزراء ورئيس الديوان الملكي ووزير البلاط . كنت والمرافقين الآخرين منذر عناب ومازن عجلوني نستمع للنقاش حتى فوجئنا بتمبلر يقول : جلالة الملك « إما أن توقّع حكومتك اتفاقية الحلف الآن فقط وإلا فإنك تخاطر بأمنك الداخلي والخارجي وبمستقبل عائلتك » .

خرج رئيس الديوان صائحاً بسعيد القهوجي « هات شاي » . فقلت له كيف تتحمّلون أن يهدّد هذا العلج رأس الدولة بما قاله وتحسبون أنفسكم رجال دولة ؟

قال بهجت : وماذا قال ، والله كلامه أحلى من السكّر وعاد إلى الجلسة . ولكن سعيد باشا ظل على إصراره برفض الحلف ، وقدّم استقالته ليخلفه هزاع باشا المجالي .

وما إن أعلنت الحكومة الجديدة سياستها حتى قامت القيامة في عمان وباقي المدن وحتى القرى الرئيسية ، وانشغل الجيش بكامله في أعمال القمع ومحاولة إعادة الهدوء ولكن دون جدوى .

كان هزاع يعتقد أن فورة الشعب ستهدأ ولكن تقديره كان خاطئاً . فذهبت الحكومة وقيادة الجيش تكيل التهم لمصر وأجهزة إعلامها كمسبب رئيسي للرفض الجماهيري للحلف . ولا شك بأن الإعلام المصري كان مؤثراً ، ولكن هذا لا ينفي أن الأردن ، بمثقفيه وذوي الغاية القومية من أحزاب وتكتلات على اختلاف اتجاهاتها ، كان يرى أن حلف بغداد قيد جديد أراده المستعمر لشل اتجاه التحرر والتحرير .

ثالث يوم من قيام وزارة هزاع باشا استدعاني وزير الدفاع فرحان باشا شبيلات ليبادرني بتهديد صريح بأن يضع الحديد في يدي إذا لم أنضبط عسكرياً وأترك السياسة لأهلها . فدار جدال عنيف وجد وزير الدفاع بنتيجته أن ينهي المقابلة وهو في حيرة من أمري .

وفي آخر يوم لوزارة هزاع باشا اختلى الجنرال تمبلر وجلوب باشا بهزاع باشا في مكتب وزير البلاط ، وأخذا يلحّان عليه بشدة تارة بامتداحه وتارة بالتلميح إلى آخر فرصة له بالحكم ويطالبانه بإطلاق يد قائد الجيش ليضرب الشعب ضربة قاصمة تؤدي إلى خضوعه .

هزاع باشا ، وأنا شاهد على الحديث إذ كان الباب مفتوحاً وأسمع كل كلمة ، بدأ بالاعتذار ثم بالرفض وأخيراً بالرفض الشديد قائلاً : لن أحمل مزيداً من الدم حتى

ولو قطرة واحدة . فأنا أردني وحياتي ومماتي هنا ، ولقد تجاوزت الحدود والآن اعتبر أن حلف بغداد لا مجال لنجاحه في بلدي .

خرج هزّاع ليجدني أمامه فسألني هل سمعت ؟ فأجبته ، نعم سمعت وإني أحترم رفضك وليتك لم تحاولها أبداً .

هكذا دفن الشعب الأردني حلف بغداد وعاد الجنرال تمبلر يحمل فشله معه وليواجه رؤساءه ولم تفده غطرسته . وفهمت بريطانيا أن زمن استعراض العضلات لقهر الشعوب والحكومات قد ولّى فلجأت إلى التآمر على وجود الأردن كدولة بالتعاون مع العراق .

ظهر هزاع باشا في البرلمان ليعلن إخفاقه ويناشد الذين عارضوه من النواب عن برنامج بديل لحلف بغداد ، وثار جدال طويل سياسي لاطائل من ورائه إلاّ تعميق الفجوة بين أنصار الحلف وأعدائه ، وأصبح التعصب لوجهات النظر أكثر حدة ، خصوصاً بعد أن أعلن الملك سعود والرئيس عبد الناصر والرئيس القوتلي استعداد بلادهم لتحمّل قيمة المعونة البريطانية للأردن .

في اعتقادي أن عرض الرؤساء الثلاثة جاء في غير وقته ، وكان الأفضل أن لو عرضوه قبل مجيء الجنرال تمبلر ودفعوه أو بعد انتهاء معركة الحلف بأشهر . هذا العرض رفع من آمال الأردن في ما يلي من الأحداث ، كما أنه بسبب علنيته حمل بريطانيا ونوري السعيد على ما لم يكن منتظراً .

فنوري السعيد لم ييأس.ولمّا كان هو المستشار الموثوق في المشرق العربي لبريطانيا فقد أعاد الحماسة لدى الحكومة البريطانية لمعاودة الكرّة في الأردن ، ولكن هذه المرة بمحاولة لضم الأردن إلى العراق وتحت شعار الوحدة العربية مع إقحام الجيش الأردني في العملية .

ونشط الأردنيون المتحمِّسون لحلف بغداد باتفاق مع نوري السعيد وبريطانيا ، لتأليب عدد من كبار الضباط الأردنيين على القيام بانقلاب لإزاحة الملك وإقامة حكومة تعلن الوحدة مع العراق .

وفي الوقت نفسه كان الملك يعاود معي أمر انتفاضة الجيش على القيادة البريطانية ، وكان الاتجاهان في سباق على الهدفين المتناقضين مع فارق أساسي هو أثر أي العملين سلباً أو إيجاباً على الساحة الأردنية والساحة العربية . لو كان العراق حراً طليقاً من قيد المعاهدة مع بريطانيا وقيد حلف بغداد لكانت الوحدة عملاً قومياً يستحق التضحية بالهوية العراقية والهوية الأردنية . أمّا إلحاق الأردن، وهو على وشك

التحرّر بالعراق وعن طريق التآمر مع الأجنبي، فلا يعني غير إثارة الاضطراب والسخط في الأردن ودخول الشعب الأردني وجيشه في اقتتال مع العراق.

والإيجابيات المطروحة لتلك الوحدة من استغناء الأردن عن المساعدة الأجنبية، اعتماداً على الثروة النفطية العراقية وقدرة الدولة الموحّدة على مواجهة إسرائيل، لم تكن إلا ذراً للرماد في العيون، لأن الثروة والجيش العراقيين كانا قد كرّسا لخدمة حلف بغداد.

وبالمقابل فإن تحرير الجيش العربي الأردني وإنهاء المعاهدة مع بريطانيا سيضعان الأردن في مكانه الصحيح من القضية العربية والفلسطينية وفي مواجهة القوى المعادية للعرب.

لقد علمت بالمؤامرة من قطبيها السياسيّين في الأردن وقد أخطأ أحدهما إذ حاول إشراكي بها، واجتمعت بدعوة منهما بالضباط الذين سخّرهم جلوب باشا للتعاون معهما، وأبلغت جلالة الملك أن الوقت حان ولم يعد مجال للانتظار.

لا أريد الاستفاضة في موضوع هذه المؤامرة وإن كنت أعتقد أن رؤوسها لم يكونوا ينطلقون من اجتهاد وطني بمقدار ما كانوا يتلقّون القناعة من بريطانيا ونوري السعيد، إذ لا يزال بعض الناس وهم قلة حتى يومنا هذا يناقشون مزايا حلف بغداد متجاهلين ما جلبه الحلف على الحكم في العراق.

في شهر شباط هدأت الحالة في الأردن وكان الجيش قد عاد إلى ثكناته، وقد تمكّنتْ من كثير من ضباطه وأفراده نقمة على القيادة البريطانية لما جرّتهم إليه من أسباب المصادمة مع الشعب، كما غلبت الحيرة على آخرين كثُر في سياسة تلك القيادة الأجنبية. وصادف أن وزّع مجهولون منشورات تحمل اسم الضباط الأحرار في عمان، وتحرّض على الثورة على بريطانيا، وقد وصل بعضها إلى أيدي بعض الضباط.

وهذا الاسم (الضباط الأحرار) لم يكن يطلق في الأردن على أي مجموعة من الضباط، ولكن تلك المناشير نشّطت استخبارات الجيش والمباحث لمعرفتهم. وكان جلوب باشا قد استدلّ على عدد من تنظيم الضباط الأردنيين بالتخمين والاستنتاج، وبدأ بأخذهم مرافقين له واحداً بعد الآخر أملاً في أن يصل إلى الحقيقة ولكنه فشل في ذلك. ووصلت قيادة الجيش إلى نتيجة مؤكّدة وهي أن المناشير صادرة عن الملحق العسكري المصري ولا وجود لشيء في الجيش اسمه الضباط الأحرار.

ومن ناحية أخرى، وبحكم شعوره بذاته واستبعاد أن يغامر أردني بالعلاقة مع

بريطانيا والمساعدة المالية التي لا بديل لها ، اختار جلوب أن يتصوّر أن أي وجود لضباط أردنيين في الجيش معارضين لتلك العلاقة لا تتجاوز أن تكون شلة من شباب عاجزة عن أداء أي دور مؤثر. كان جلوب يرى في شخصي، وأيّاً كان في الجيش مثلي، مشاغبين خطرهم ليس قريباً ، ولكنه مؤثر في معنويات الجيش على المدى البعيد .

كان نشاط الملحق العسكري المصري ومنشوراته تسبّب لي أرقاً كبيراً ، وكنت عاجزاً عن التوفيق بين ما تدعو إليه منشوراته وبين استبعاد عبد الناصر جدوى محاولة تحرير الجيش الأردني والتي كانت موضوع جدل في زيارتي له .

وذات يوم اتّصل بي مدير الطيران المدني وطلب مقابلتي ، فوافقت على أن يأتيني في مكتبي. وقد رغب أن تكون المقابلة في منزل في عمان . أطال المقدّمة وذكر علاقاته مع عبد الناصر وشكري القوتلي وصبحي أبو غنيمة ، ثم تقلّص حديثه ليدعوني إلى الاجتماع سراً في منزله مع الملحق العسكري المصري .

ساورني الشك فيه وفي كل قصصه واعتقدت أنه أحد عملاء المباحث الأردنية ، ولكنني تجاهلت الشك وأبلغته أني أرحّب بزيارة الملحق العسكري في مكتبي ولا أرى موجباً للسرّية . بعد يوم اتصل الملحق العسكري ، فضربت له موعداً واستقبلته بحفاوة ، وقلت له إن أبواب القصر الملكي مفتوحة لأعضاء السفارة المصريّة. وفي نهاية الزيارة أبدى رغبته في أن أردّ الزيارة له وقد فعلت .

مازن العجلوني والذي رغبت أن يصحبني في ردّ الزيارة اقترح أن نذهب بملابس مدنية ، ولكنني كنت واثقاً أن زيارتنا للملحق بالملابس العسكرية وبسيارة عسكرية ستصرف شكوك جلوب باشا الذي كانت عيونه منتشرة حول السفارة .

بادرني الملحق ، بعد الترحيب ، قائلاً : إن مصر تضع خبرة ثورتها تحت تصرفي في ما أنا بصدده ، وإنه في سبيل استمرار الحديث والتشاور يفضّل أن تكون اجتماعاتنا بترتيب يجريه مدير الطيران المدني . قلت للملحق إنني أستغرب ما يتحدّث عنه ، وما شأني وخبرة الثورة المصرية ؟ وكيف يتصوّر أنني بصدد عمل ما ؟

فقال الملحق : هل تريد أن تخفي عليّ وأنا أعلم أنّك تخطّط لطرد الإنجليز وأعلم عن زيارتك للرئيس عبد الناصر .

فقلت له وأنا أكابر نفسي : إسمع يا صلاح أنت تكتب المناشير وتصدّقها ، أنا ضابط منضبط في الجيش الأردني وأحذّرك من مغبة تدخلاتك في قضايا بلدنا ، إذ ستؤدي حتماً إلى إعادتك إلى مصر وهذا ما لا أرغبه . وإذا اتّصل بي رسولك مرة ثانية فسألقيه في السجن وأطلب إعادتك إلى مصر .

وقع كلامي على صلاح وقع الصاعقة وبدا مذهولاً لا يكاد يصدق أذنيه ، وبعد أن شربنا الشاي في هذا الجو المتوتّر ودّعناه، وما كدنا أن نصل إلى سيارتنا حتى عبّر مازن عن ضيقه بأسلوب مخاطبتي للملحق العسكري. فقلت له: إن سلامة حركتنا تتطلب هذا الموقف، إذ بينما نحن بصدد قضية وطن وحياة ضباطنا في خطر فإن الملحق العسكري يهتمّ بنجاحه في مهمته ولا يدخل في حسابه ما يدخل في حساباتنا، وسترى أن مدير الطيران المدني مدسوس على الملحق من السير كوكيل مدير المباحث العامة.

في الأسبوع الأخير من شباط سألني جلالة الملك عن سير حركة الضباط ، فأعلمته بأننا قادرون على السيطرة على الجيش في أية لحظة ، وعرضت أن يلتقي بهم إذا رغب في ذلك ، واتفقنا أن يكون الاجتماع في منزل محمد علي باشا العجلوني مساء اليوم الثاني . ولم يكن أمر ترتيب هذا اللقاء سهلاً دون أن يلفت النظر ، ولكني وضعت طريقة اعتقدت أنها ناجحة . وفي صباح اليوم الثاني أبلغني جلالته أن لا حاجة لذلك اللقاء وأن تأكيدي بمقدرتنا كافية لقناعته فألغينا الاجتماع .

كنت بدوري مقتنعاً بأن عدد الضباط الملتزمين قليل ، ولكني كنت أعلم أن أضعافهم سيلتحقون بالحركة منذ الساعة الأولى ، وقد سبق أن زارني كثير من الضباط سراً اعتقاداً منهم بأنني مصدر المناشير التي ذكرتها ليؤكّدوا لي استعدادهم للمشاركة ، وانتهوا من زياراتهم بالشكر على صدق وطنيتهم دون أن يصلوا إلى ما قصدوه من ارتباط .

سلامة عتيق مثلاً ومعه ضابطان آخران زاروني ليلاً وكان الناطق عنهم قال : سيدي أنت تعرفني وأنا جندي معك سنة ١٩٤٤. أقول لك إذا واجهت الإنجليز فستجدني معك . ولا أطلب منك دعوة ولا أطرح عليك سؤالاً . جئتك لاعتقادي أنه إذا كانت في جيشنا حركة فأنت منها وأعلم من غيرك بها والسلام عليك .

ولمعرفتي بالضباط الأردنيين الكبار كنت واثقاً أن لا أحد فيهم سيقاومنا ، وإن اكتفى أغلبهم بانتظار ما ستكون عليه النتائج ولكنهم في ساعة النجاح سيؤدون الواجبات التي يكلّفون بها . لهذا فإن الجيش سيكون عرباً في مواجهةماية ونيف من ضباط وضباط صف بريطانيين في اليوم الأول، وفي ما يلي سيصير الوضع مختلفاً بحيث يقف الأردن كلّه في مواجهة القواعد البريطانية المتواجدة في الأردن أو عدوان إسرائيلي أو كليهما .

دخل في اعتبارنا أنه يمكن لبريطانيا التذرع بالمعاهدة البريطانية الأردنية في إحدى حالتين :

١ ـ تمرد الجيش على قيادته وإنهاء فعاليتها دون سند دستوري .

٢ ـ انقسام الجيش وتحاربه بين موالٍ للوطن وموالٍ لبريطانيا .

الحالة الأولى تستحيل بحكم أن جلالة الملك هو رأس الحركة ويضمن الإجراءات الدستورية والتزام الحكومة بتنفيذها . والحالة الثانية لا يمكن أن تقوم بحكم أن الجيش منذ ١٩٤٨ ازداد وعيه على حقيقة العلاقة البريطانية الأردنية . ففي حين وعى الضباط الحضر على تاريخ تلك العلاقة منذ الثورة العربية الكبرى وخيانة بريطانيا لعهودها ، فقد وعى الضباط البدو على الاستهتار البريطاني في إدارة الحرب ١٩٤٨ وزيف ادعائهم بالإخلاص للأردن .

والضباط الأردنيون الذين اعتقد جلوب بولائهم له وبحكمتهم لرؤية المصلحة الأردنية بالارتباط مع بريطانيا كانوا يظهرون هذا الجانب بحكم الانضباط ومسايرة القيادة . والقلائل المعدودون على أصابع اليد الواحدة اندفعوا في المسايرة إلى الحد الذي لا رجوع عنه وصاروا معروفين بالولاء لكل شيء بريطاني ، ولكن هؤلاء الضباط لم يكونوا يحتلون في الجيش مراكز قيادية فضلاً عن أن النظرة العامة إليهم لم تكن مشرّفة .

الحضر منهم مشبوهون والبدو منهم لم يكونوا أردنيين وإنما من قبائل غير أردنية ، وقد ضاق الضباط البدو جميعهم ذرعاً بهم .

لم يكن أمام جلوب باشا إلاّ اللجوء إلى قاعدة سلاح الجو البريطاني في ماركا والأخرى في المفرق حيث يرابط فيهما سربان من المقاتلات وكتيبة مدرعات وما يقارب من كتيبة مشاة ، أمّا القوات الأكثر بُعداً في معان والعقبة فتألفت من سريّة من هندسة الميدان وكتيبة دبابات ضعيفة وبطارية مدفعية ميدان وكتيبة مشاة .

الجواب على هذا الاحتمال يتطلّب المفاجأة في توقيت حركة الجيش وشلّ حركة جلوب باشا وقادته وسرعة الإجراءات الدستورية ، بحيث تجد بريطانيا نفسها عاجزة عن ممارسة أي ردّ فعل دون أن توصم بعدوان مكشوف على حقوق السيادة الأردنية .

تبقى إمكانية ردّ فعل إسرائيلي بالاتفاق مع بريطانيا ، وهو الأمر الذي لم نجد له حلاً إلاّ مواجهته بالقوة العسكرية مهما كانت نتائجه .

ولذا ، فإن التخطيط للعمل العسكري كان يجب أن يكون محكماً إلى أدق تفاصيله ، بحيث يتلافى الأخطار التي قد تقوم في وجه الحركة في أول أيامها ولفترة حتى تتبيّن ردود الفعل البريطانية . وهذا ما كنت اعتبره مسؤوليتي الرئيسية . ويساعد على سلامة التخطيط أنني أعرف إمكانيات جلوب باشا وضباطه بينما أنه لم يكن يعلم عن الحركة وإمكانياتها شيئاً .

ومع ذلك فإن أي محاولة بهذا الحجم لم تكن تخلو من مخاطرة كبيرة ، ولكن جلالة الملك كان قد كرّس نفسه لتحمل نتائجها خلافاً لما كان سائداً من اعتقاد عند السياسيين ورجال الحكم في الأردن بأن السيطرة البريطانية قدر قابل للانتقاد من الكارهين له ولكنه راسخ لا يتزحزح.

هذا الاعتقاد شكّل لسنين طويلة الحاجز الكبير أمام الطموح الوطني وقد حان الوقت لإزالته .

ورجال الحكم كانوا بين اثنين ، منهم من يخشى مغبّة انحباس المعونة البريطانية والسطوة التي تملكها بريطانيا في المنطقة ، ومنهم من يرى في هذا الأجنبي صديقاً وقوة يحسن التسليم لها . ولكن لم يكن بينهم من هو مستعدّ لتجربة الاصطدام . ولذا ، فإن الحكومات عجزت عن تلبية مطلب جلالة الملك بفصل قوى الأمن العام عن الجيش ، مع أن التجربة لا تكلّف إلّا قراراً من مجلس الوزراء وهذا أمر من حقوق السيادة .

ومن هنا كانت قضية استقلال القرار الأردني عن بريطانيا موضوعاً يعجز المدنيون عن معالجته . فمن الوزراء من كان وبإخلاص صادق يهتمّ بحماية الملك من اندفاعاته الوطنية ، ومنهم من كان سعيداً بتلك العلاقة مع بريطانيا التي لا يتوفر فيها تكافؤ ومنهم المستسلم للقدر. وهذا الوصف ينطبق على الوزراء سواء من الضفة الشرقية أو الضفة الغربية.

وعلى سبيل المثال فإن سعيد باشا المفتي ، المعروف بكراهيته للنفوذ البريطاني وكراهية البريطانيين له ، اعتذر عن الاستجابة لرغبة الملك في تبادل الاعتراف والتمثيل الدبلوماسي مع الاتحاد السوفييتي سنة ١٩٥٥ . ولمّا سألته عن السبب أجاب : جلالة الملك مندفع وواجبي أن أحميه من الاحتمالات لأن ما يريده سيجعل بريطانيا تقوم ولا تقعد ، والأمر بالنسبة إليّ مجرد قرار مجلس الوزراء ولكنه بالنسبة للدولة في هذه الظروف يساوي إعلان عداء سافر لبريطانيا .

وموضوع الاعتراف هذا بالاتحاد السوفييتي الذي عنى به الملك كان محاولة لتخفيف الثقل البريطاني على إرادة الأردن ، مثله مثل فصل قوات الأمن العام عن قيادة الجيش . ففي حين كان العقلاء المخلصون من الحكم يرون استحالة مسايرة اندفاع الملك ، والانتهازيون يتقرّبون للإنجليز بالدّس على الملك أملاً في اقترابهم من الوزارة ، كان الضباط الواعون يرون في تلك الاندفاعات أمل المستقبل .

لقد عايشت هذه الظروف بعد عودتي من فرنسا وكان السؤال الكبير يراودني ، ماذا لو أحجمت أي حكومة تقليدية عن تنفيذ قرار الملك بإنهاء خدمة قائد الجيش وضباطه البريطانيين بعد أن نكون قد سيطرنا على الجيش .

لقد درجت العادة أن يكون رئيس الوزراء ومعظم الوزراء من أسماء معهودة لا تتغيّر وتشكيل وزارة من المعارضة سيجعل مشكلتنا مع بريطانيا مضاعفة ، وخصوصاً وأنها تعلم أن المعارضة تطالب بالانفكاك عن بريطانيا والانضمام إلى المعسكر العربي التحرّري ، مثل هذه الوزارة إذا قامت فسوف تكون السبب لتنازع المبادرة بين الملك والحركة الوطنية من جهة وبين بريطانيا من جهة أخرى .

من هنا كان لا بدّ من تكليف الحكومة القائمة وحملها على الاستجابة لقرار الملك ، ومع ذلك وعلى سبيل الاحتياط فإنني تحدثت مع عبد الحليم النمر ، في زيارة له في بيته ، وسألته عن استعداده لتشكيل حكومة تتكفل بالقرار إذا كلفه الملك ، في الساعة نفسها التي نسيطر فيها على الجيش.

قال عبد الحليم: أنا كنت أعرف أنه سيأتي يوم يتمّ فيه إعدامك شنقاً. والله إني أراك معلّقاً عند باب المسجد الحسيني في عمان، ولكني لم أعرف أن جلالة الملك سيخاطر بعرشه . نحن المعارضة نرفع أصواتنا في البرلمان ونحرّض الجماهير على التظاهر لمواجهة الخطط البريطانية لا أكثر ولا أقل ، ولكننا نعجز عن الاشتراك بمثل المغامرة التي تطرحها . إذا كنت تنشد مغامرين فعليك بحزب البعث والشيوعيين ، ومع ذلك فإنني أرجوك أن تلغي الفكرة من أساسها ولا تدفع بنفسك إلى التهلكة فأنت لاتعرف حجم المشكلة التي تطرحها عليّ .

قلت له : إن هلكت فلن أكون وحدي وسيهلك معي غازي ومحمد عربيات وهم أبناء عمّك .

قال : ليسا أعزّ منك فأولادنا كُثر ولكن ليس مثلك كثير .

ودّعته وهو يقول: إحرص يا علي فجلالة الملك أمانة في أعناقكم، فبقاؤه بقاء

للوطن. ما كان بعبد الحليم حاجة لأن يذكّرني ويزيد من حرصي ، ولكن وصفه للمعارضة وبالأخصّ الحزب الوطني الاشتراكي جعلني في حيرة كبيرة .

فحزب البعث والأكثر انتشاراً في الأردن لم يكن في تقديري يضمّ في صفوفه عدداً كافياً من الرجال الذيـن يصلحون لتشكيل وزارة ، أمّا الحزب الشيوعي فأمره يختلف تماماً .

فبينما يلقى الحزب الوطني الاشتراكي قبولاً معقولاً سيواجه البعثيون مقاومة عنيفة من الفئات السياسية الأخـرى، وأولى التهم التي ستلصق بهم أنهم جمهوريون، بينما الشيوعيون سيحوّلون المشكلة إلى عـداء عام لهم إذا قـامت لهم وزارة وبالتـالي سيستقرّ الأمر لمصلحـة بريطانيا.

هذه المشكلة العويصة وجد جلالة الملك الحلّ لها خلافاً لكل توقعاتي ، إذ أصاب العلّة في صميمها وبالوسيلة التي كنت أتحاشى مجرد التفكير فيها كما سنرى في مجرى الأحداث القادمة .

وبالرغم من القناعة التي أوصلني إليها عبد الحليم ، فقد فكّرت في الاجتماع إلى شفيق أرشيدات ، وهو أصلب رجال الحزب الوطني وأشدّهم بأساً ، غير أنني قدّرت أن شفيق سيستجيب شخصياً دون حزبه ولن يجدينا هذا كثيراً فتحوّلت إلى عبد الله الريماوي .

دعوت عبد الله الريماوي إلى منزل والدي في السلط ، فحضر ومعه عبد الله نعواس وسليمان الحديدي وحسني الخفش ، فطرحت عليه السؤال التالي :

ما هي إمكانية حزب البعث في تشكيل وزارة، وما هي إمكانيته في دفع الجماهير لخوض معركة ضد بريطانيا؟

قال عبد الله : نحن يمكننا أن نشترك في وزارة ولا يمكننا تشكيلها ، أمّا تحريك الجماهير فنحن نضمن ذلك ومستعدون لدفع شبابنا إلى التضحية بأرواحهم عند أول إشارة ، وسنقيم الدنيا ولا نقعدها في كل عاصمة وفي كل قرية .

وطلب عبد الله مني تحديد الفترة التي سنحتاج فيها إلى حركة الجماهير ، فقلت له: ربما بعد ستّة أشهر أو أكثر .

انتهز عبد الله هذه الفرصة وطلب مني أن أرجو جلالة الملك أن يتدخّل للسماح لنقابة المحامين الأردنيين بالسفر لحضور مؤتمر المحامين العرب في القاهرة ، إذ وضع رئيس الوزراء سمير باشا الحظر عليهم من السفر .

أوصلت رجاء عبد الله إلى جلالة الملك فكلّفني بإبلاغ سمير باشا رغبته بالسماح للمحامين بالسفر، وبعد مناقشة على الهاتف قبل وعلى مضض، فسافر المحامون وعلى مختلف اتجاهاتهم السياسية إلى القاهرة، فدُحضت ادعاءات الصحف والإذاعات المصرية والسورية التي دأبت على وصف الأردن بسجن للمثقفين وخاب أمل جلوب باشا الذي كان وراء الحظر على السفر.

قد يقول قائل لماذا حكومة معارضة ولماذا حركة جماهير؟

إذا عرف القائل أن تحرير الجيش من قيادته البريطانية يعني نسف السلطة البريطانية من أساسها. وإذا عرف أن بريطانيا تفهم من تحرير الجيش العربي الأردني نهاية سيطرتها على جزء مهمّ من حلقة نفوذها في المشرق العربي. وإذا عرف أن تحرّر الأردن سيعطي درساً لدول عربية أخرى صغيرة مثل الأردن أو أكبر لتحذو الطريق نفسه. وإذا عرف أن بريطانيا قد انفرط عقد سبَّحتها على حد التعبير الشعبي، وأن قوى التحرر العربي تعاظم شأنها في مواجهة الاستعمار. وإذا عرف أن إسرائيل يكون قد اكتمل الطوق العربي الحرّ حولها، وما لهذا من أثر في تطور الصراع العربي الصهيوني. وإذا عرف أخيراً أهمية الحشد الوطني العسكري والشعبي لردع بريطانيا عن القيام بأية محاولة حمقاء تواجه به الأردن كاملاً، عندئذ تتّضح له ضرورة الحشد، خصوصاً وأن عبد الناصر لم يتفق معنا على توقيت العمل إلا بعد جلاء القوات البريطانية عن قناة السويس.

ومن الناحية العربية لم نكن نتوقّع أكثر من السند الإعلامي والمباركة.

في ظل هذه الظروف كانت قيادة الجيش قد أعلمت كل أجهزتها الاستخبارية لاستقصاء أخبار الضباط الذين تشتبه بميولهم المعادية، وفي الوقت نفسه تعدّ لإنهاء الكيان الأردني لإلحاقه بحلف بغداد تحت علم الوحدة مع العراق.

الفصل السابع

القرار الفصل

كنت في مكتبي مساء يوم ٢٨ / شباط ١٩٥٦ ومعي الملازم منذر عناب والملازم مازن العجلوني ، وإذ بجلالة الملك يتّصل بي تلفونياً ويقول : هل أنت جاهز غداً صباحاً ؟

أجبته : أنا جاهز الآن فهل لجلالتكم أن تتفضّلوا بزيارة مكتبي؟

حضر جلالته ومعه الملازم الشريف زيد بن شاكر وقال لي : أنا قرّرت أن تكون العملية غداً ، وأريد تأكيداً منك أنك والإخوان الضباط قادرون وجاهزون للتنفيذ وأريد أن أستمع إلى خطتك .

أكّدت لجلالته بأننا قادرون وجاهزون ، وشرحت له موجزاً لخطة السيطرة على الجيش والدفاع عن قرار تحرير الجيش من القيادات البريطانية . وقال جلالته على بركة الله وتتولّى أنت قيادة الجيش .

ذكرت لجلالته أني فكّرت براضي باشا عناب قائداً للجيش إلى أن تستقرّ الأمور ، إذ إنني لا أريد تولية قيادة قوات الضفة الغربية لغيري في هذا الظرف الصعب ، لخشيتي أن تحاول إسرائيل عملاً ما يجهض انتفاضة الجيش .

قال جلالته : ولكن راضي باشا رجل أمن وليس عسكرياً ، فأمنت على ذلك ، وقلت سيكون معه علي الحيارى مديراً للعمليات ورئيساً للأركان . فوافق .

وعلى الفور أوفدت مازن العجلوني إلى الضفة الغربية لتبليغ شاهر أبو شحوت مهمة كتيبة المدفعية التي كان مساعداً لقائدها في النبي موسى ، وكذلك إلى عزت حسن قائد الكتيبة السادسة لإبلاغه بمهمته .

تركت جلالة الملك ومعه الملازم زيد بن شاكر وعلى موعد اللقاء في الساعة

التاسعة صباح اليوم التالي ، واتصلت مع جلوب باشا طالباً إليه أن لا يغادر عمان لحاجة ضرورية به .

جلوب باشا قال إنه مرتبط بموعد لإعطاء محاضرة في كتيبة المدرعات الثانية ، وإنه سيعود في الساعة الثانية عشرة ظهراً إلى مكتبه .

أخذت منذر معي لزيارة والده راضي عناب وطال الحديث حتى الساعة الثانية عشرة ، حتى اقتنع أخيراً بضرورة قبوله منصب رئيس هيئة أركان حرب الجيش العربي عندما تكلّفه الحكومة بذلك صباح الغد .

راضي باشا لم يكن مقتنعاً بنجاح العملية ويتوجّس مغبة ردّ الفعل البريطاني على الوطن ، ولكنه قبل وقد غلبت وطنيته على مخاوفه .

ثم تحرّكت إلى معسكر الزرقاء إلى منزل الرئيس أديب أبو نوار قائد أحدى سرايا الدبابات ومعي منذر عناب ، فوصلت في الساعة الواحدة ليلاً وطلبت إليه أن يذهب مشياً ويستدعي إليّ محمود المعايطة وأحمد زعرور وتركي الهنداوي وتوفيق الحياری فجاءوا في خلال خمس عشرة دقيقة.

بادرتهم بأن اليوم الذي طال انتظاره قد حان وقرّر جلالة الملك أن يتمّ عمل تحرير الجيش غداً صباحاً وإليكم خطتي :

١ ـ شاهر يوسف يتولّى قيادة كتيبة المدفعية الأولى ويمنع جسر اللنبي وجسر دامية من حركة أي وحدة من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية ، وقد أرسلت مازن العجلوني لتبليغه الليلة ولينتظر وصولي إلى الضفة الغربية مساء الغد .

٢ ـ عزت حسن يمنع أي حركة من كتائب اللواء الثالث إلى الضفة الشرقية باستخدام الكتيبة السادسة، وقد كلّف مازن العجلوني لتبليغه الليلة.

٣ ـ الحرس الملكي الذي يقوده مطلق عيد سيتولّى بالإضافة إلى حراسة القصر الملكي تخصيص سرية مدرعات لأي مهمة طارئة وسأتكفّل بهذا صباحاً .

٤ ـ محمود المعايطة وضباطه يحتجزون ضباط سلاح المدفعية البريطانيين في منازلهم ، ويتحرّك محمود بكتيبة مدفعية ميدان إلى مطار ماركا ليسد المدارج في المطار ويغلق المنافذ على معسكر الطيران الملكي البريطاني مع تسجيل الأهداف في المعسكر وقصفه في حالة أي محاولة لفتح المنافذ من قبل القوات المتواجدة داخله . وباقي سلاح المدفعية يسيطر على معسكر الزرقاء ويكون احتياطاً بإمرة محمود المعايطة .

٥ ـ تركي الهنداوي وأديب أبو نوار وضباط سلاح المدرعات يحتجزون الضباط البريطانيين في كتيبة الدبابات وكتيبة المدرعات ، ويضعون السلاح في حالة الإنذار الفوري للتحرك إلى وادي الأردن أو باتجاه القطرانة حسبما أرى أن الوضع يقتضي . وذلك لإسناد قوات الضفة الغربية أو قطع الطريق على القوات البريطانية في جنوب الأردن إذا اتجهت إلى الشمال .

إرسـال مشهور حديثة بسريته من كتيبة المدرعات الثانية لمساندة حرس القصور .

٦ ـ أحمد زعرور يبلّغ عصمت رمزي بمهمته وهي الاستيلاء على قيادة كتيبة الهندسة واعتقال قائدها البريطاني ، وتجهيز سرية لتلتحق بقوة المدرعات إذا اتجهت نحو القطرانة لنسف الجسور والعبارات جنوب القطرانة ، والصمود مع المدرعات في حالة أي تحرك للقوات البريطانية من الجنوب نحو الشمال .

٧ ـ أحمد زعرور يعتقل قائد لواء المشاة الثاني ويضع اللواء في حالة الإنذار الفوري كقوة احتياطية للجيش .

٨ ـ أديب عمر يسيطر على سلاح اللاسلكي .

٩ ـ غازي عربيات يسيطر على مكاتب القيادة ويتولّى أعمال الاستخبارات عن القوات البريطانية في الأردن .

١٠ ـ سلاح الجو الأردني يوضع بتصرف علي أبو نوار .

١١ ـ منذر عناب ومازن العجلوني وزيد بن شاكر يساعدون جلالة الملك في الاتصالات وتوفير المعلومات ومراقبة شؤون حماية منطقة القصور الملكية . ومازن العجلوني يتولّى تمرير أوامر جلالته لأي من القيادات في الضفتين وتمرير المعلومات إلى علي أبو نوار عن وضعية الضفة الشرقية بعد انتقال الأخير إلى الضفة الغربية .

١٢ ـ علي أبو نوار وبعد السيطرة على قوات الضفة الشرقية وتسفير جلوب باشا يتحرّك للسيطرة على قوات الضفة الغربية ويتولّى قيادتها .

بحثنا عن كلمة للرمز عن سيطرة الضباط على وحداتهم وعن وصول كتيبة المدفعية وسرية المدرعات إلى عمان ، فأبرز محمود المعايطة ولاعة سجاير من ولاعات الدعاية لإطارات دنلوب واقترح هذا الاسم .

أطلقنا على المرحلة الأولى اسم دنلوب واحد والمرحلة الثانية دنلوب إثنين.

اعترض الرئيس أحمد زعرور على ضيق الوقت فأصررت على التوقيت على أن يكون بدء الحركة الساعة التاسعة صباحاً ، وذكّرته بأن أي تأجيل سيكشف العملية ويفوّت فرصة المفاجأة التي اعتبرها عاملاً من العوامل الرئيسية للنجاح ، محمود المعايطة قطع النقاش بقوله : لو لم يتحرك أحد فسأذهب مع علي أبو نوار لأموت معه .

عدت في الساعة الثانية صباحاً إلى القصر وعكفت على تحضير قائمة القيادات الجديدة للجيش وكانت كما يلي :

١ ـ ترفيع الزعيم راضي عناب إلى رتبة أمير اللواء وتعيينه رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش العربي الأردني.

٢ ـ تعيين القائمقام علي الحيارى رئيساً للأركان ومديراً للعمليات الحربية .

٣ ـ تعيين القائد علي أبو نوار قائداً للواء المشاة الأول وقوات الضفة الغربية .

٤ ـ تعيين القائمقام محمود المعايطة قائداً لسلاح المدفعية .

٥ ـ استدعاء القائمقام راضي الهنداوي من لبنان وتعيينه قائداً للواء المشاة الثاني .

٦ ـ تعيين القائمقام فواز ماهر قائداً للواء المشاة الثالث بعد انفكاكه من قيادة قوات الجنوب في الضفة الغربية .

٧ ـ تعيين قادة عرب لكل الكتائب من جميع الأسلحة .

وفي الصباح الباكر اجتمعت إلى الرئيس مطلق عيد وأمرته أن يضع وحدة الحراسة الملكية في حالة الإنذار القصوى ، وأن لا يسمح لأية قوات أن تدخل منطقة القصور الملكية في ما عدا سرية المدرعات التي يقودها الرئيس مشهور حديثة .

في الساعة العاشرة من ذلك الصباح ٢٩ / ٢ / ١٩٥٦ وصل جلالة الملك إلى مكتبه وشرحت له ملخص الموقف وهو كالتالي :

١ ـ محمود المعايطة وضباطه سيطروا على سلاح المدفعية وهو متّجه إلى منطقة ماركا في مواجهة قاعدة سلاح الجو البريطاني .

٢ ـ تركي الهنداوي وأديب أبو نوار وضباط السلاح المدرع سيطروا على كتيبة الدبابات الثالثة . وستتم السيطرة على باقي السلاح فور إنهاء جلوب باشا محاضرته في إحدى كتائبها .

٣ ـ مشهور حديثة في طريقه إلى منطقة القصر الملكي .

٤ ـ الحراسات الملكية في حالة التأهب الكامل .

٥ ـ الطائرة التي ستقل جلوب باشا إلى قبرص جاهزة .

قال جلالته : توكلنا على الله ، بلّغ رئيس الوزراء أن يجمع مجلس الوزراء فوراً وإننا في طريقنا إليه .

تحرّك الموكب الملكي ومعنا رئيس الديوان السيد بهجت التلهوني والذي كان يجهل موضوع الزيارة وسببها .

اجتمع جلالته ورئيس الوزراء سمير باشا الرفاعي وأبلغه إرادته بإنهاء خدمات جلوب باشا ورئيس أركانه الزعيم هاتون ومدير المباحث السير كوجهيل وكل قادة الألوية والأسلحة البريطانيين، على أن يسافر جلوب باشا على طائرة إلى قبرص بعد ساعتين من إبلاغه.

حاول سمير باشا أن يثني جلالته عن عزمه محتجاً بأن هذا القرار سيجلب متاعب عظيمة على الأردن ، وأنه لا بدّ من مناقشة الموضوع ملياً ، إلّا أن جلالته نهض قائلاً : هذا قرار نهائي لا رجعةَ فيه . والتفت إليّ قائلاً : يا علي ، إبق مع دولة الرئيس ورئيس الديوان وإذا رأيت تراخياً فتولّ أنت التنفيذ.

دخلنا قاعة الاجتماعات حيث تواجد الوزراء فطرح الرئيس الموضوع على المجلس وساد صمت عميق ، إلى أن ضرب حسين باشا الخالدي يده على كفه الأخرى قائلاً ، هذا والله انقلاب .

فتوجّه الرئيس إلى رئيس الديوان الملكي يسأله عن معلوماته عن سبب هذا القرار ، فيجيبه رئيس الديوان علمي علمك يا دولة الرئيس وربما تجد الإجابة عند علي أبو نوار .

سألني رئيس الوزراء فأعلمته أن القرار أصبح عملياً في حكم النافذ في الجيش الذي أصبحت السيطرة عليه كاملة تقريباً ، وأن القادة البريطانيين محجوزون في بيوتهم في ما عدا جلوب باشا .

قال سمير باشا : هل تعرف أننا بهذا نواجه بريطانيا العظمى ؟ وهل تعرف أن للإنجليز قواعد لقوة جوية وقوات أرضية في الأردن وما يمكن أن تفعله تلك القوات ؟

قلت لسمير باشا : لقد اتخذت الحيطة لكلِ شيء ، فإذا كنت تريد إثباتاً

فأرجوك أن تصعد إلى سطح الرئاسة وسوف أريك وباتصال تليفوني واحد كيف نحرق قاعدة سلاح الجو البريطاني في ماركا .

نظر سمير باشا إلى وزرائه وكأن على رؤوسهم الطير حتى ارتفع صوت فلاح باشا المدادحة غاضباً ويقول : « يا رجال ، الشرف يقدّم لنا على صينيّة من ذهب ولا نجرؤ على قبوله . كيف يكون هذا ؟ علينا باتخاذ القرار فوراً ودون انتظار .

قال سمير باشا : إذن عليك استدعاء جلوب باشا فتناول فلاح المدادحة التليفون وطلب إلى قائد الجيش الحضور فوراً إلى الرئاسة .

وصل جلوب مع حرسه فخرجت من المجلس وأخذته إلى مكتب رئيس الوزراء وهو يسألني عن هذا الطلب وموضوعه ، فأجبته بأنه سيعلم كل شيء خلال دقائق من الحكومة . وإذ بسمير باشا ورئيس الديوان الملكي وفلاح باشا يدخلون ويسلّمون على قائد الجيش .

بدأ سمير باشا الحديث محاولاً أن يخفّف عن قائد الجيش الصدمة بدبلوماسيته المعروفة ، مبدياً أن جلالة الملك يرى أن فترة راحة ستكون مفيدة له ، وأنه كان قد مرّ بفترات راحة عاد بعدها لتشكيل حكومة .

هنا قاطعة جلوب باشا قائلاً : أنت سياسي تخرج من الحكم ثم تعود أمّا أنا فعسكري وإذا خرجت فليست لي عودة . وأضاف ، وأنا أعجب من هذا القرار المفاجىء الذي لم أعلم به مسبقاً ، وكان الواجب على الأقل أن أعرف أسباب القرار . كان جلوب باشا منفعلاً وكأنه تصوّر أن احتجاجه قد يفتح باب مفاوضة على القرار ، ولمّا ذكر له سمير باشا أنه إمّا أن ينفذ قرار الملك أو يستقيل ردّ عليه جلوب « أمر استقالتك عائد إليك » .

عندئذ تكلّم فلاح باشا بما قطع على قائد الجيش الطريق وقال له : «إسمع يا جلوب باشا. أنت أمضيت ستاً وعشرين سنة وأنت تمتطي هذا البلد (ملط) ، أي بدون سرج وحان وقت لتعود إلى بلادك ، وقد أعددنا طائرة لنقلك وعائلتك إلى قبرص خلال ساعتين من الآن ولا لزوم لإطالة المناقشة » .

تغيّرت لهجة جلوب وهو يظهر أسفه لأن البلد التي خدمها ستاً وعشرين سنة لا تمنحه لمغادرتها إلاّ ساعتين ، فتأثّر رئيس الوزراء ومنحه حتى صباح اليوم التالي دون أن يعلم أن هذا التأخير سبّب لنا متاعب كنا بغنى عنها وإن لم تسفر بالتالي عن شيء ذي بال .

وتحدّدت الساعة السابعة إلّا ربعاً من صباح اليوم التالي لمغادرة قائد الجيش وعائلته منزله إلى المطار وبرفقة وزير الدفاع فلاح باشا ورئيس الديوان بهجت بك لضمانة سلامته ، في ما إذا تسرّبت معلومات إلى الشعب عن هذه الأحداث .

استدعى وزير الدفاع المدادحة الزعيم راضي عناب وأبلغه أمام مجلس الوزراء أنه تقرّر ترفيعه إلى رتبة أمير اللواء وعيّن خلفاً لجلوب باشا رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش ، وغادرت الرئاسة معه وأعطيته قائمة التعيينات وأبلغته بأنني سأغادر إلى قيادة اللواء الأول وأستلم قيادة القوات في الضفة الغربية ، وطلبت إليه إجراء التعيينات التي سجلتها على ورقة في الليلة الماضية .

راضي باشا أصرّ أن أكون رئيس أركانه، ولكنني أقنعته أن العقيد على الحيارى متميّز الكفاءة وسيعينه على قيادة الجيش على أفضل وجه.

عدت إلى القصر لأبارك لجلالة الملك وأحيّي فيه الشجاعة وعلوّ الهمة والحماسة الوطنية، وودّعته وخرجت وإذ بشاهر أبو شحوت يصادفني عند درجات القصر سائلاً، ماذا حدث؟ . قلت له فاتك العيد يا شاهر، أين كنت؟

أمرته بالالتحاق فوراً بكتيبته واستلام قيادتها ، وأنه سيجدني في قيادة اللواء الأول لأي أمر ، وطلبت إليه إبلاغ الضباط والجنود أن الجيش تحرّر .

وصلت فندق سميراميس في القدس عند الغروب ، فاتصلت مع أركان حرب اللواء الأول الوكيل القائد معن أبو نوار وطلبت إليه أن يجمع ضباط وأفراد قيادة اللواء لأجدهم عند وصولي ففعل .

تحدّثت إليهم باختصار عمّا حدث وطلبت إليهم أن يكونوا جاهزين للعمل ليل نهار حتى تستقر الأمور . هذا وقد اتقدت حماستهم وتحرك كل إلى عمله . ثم توجّهت إلى منزل الزعيم جالاتلي وأبلغته أن خدمته كقائد للواء انتهت وأن عليه أن يلزم بيته ، ثم عدت إلى مكتبي واتصلت بأركان حرب اللواء الثالث القائد تركي حسين في نابلس هاتفياً وأبلغته ما حدث ، وأنني وحتى إشعار آخر قائد للقوات في الضفة الغربية وعليه أن يبلغ الزعيم جرين بذلك وأن يضعه تحت الحراسة في منزله ففعل وهو تغمره السعادة.

أمرت الملازم إبراهيم أيوب الركن الثالث للاستخبارات أن يراقب هواتف كل الضباط البريطانيين في الضفة الغربية ويبلغني فوراً بكل حديث .

عيّنت وكيل القائد معن أبو نوار قائداً للكتيبة السابعة بدلاً من القائد جريفيش ،

وعيّنت وكيل القائد قاسم أبو شريح قائداً للكتيبة الثالثة بدلاً من القائد جراي واستلما قيادتيهما في خلال ساعة .

اتصل بي مازن العجلوني وأبلغني أن أحد ضباط الكتيبة السابعة اتّصل مع جلوب باشا من تليفون في رام الله يتطوّع له لعمل أي شيء ، فأرسله لي معن أبو نوار مخفوراً فأعفيته من قيادة سريته واحتجزته في قيادة اللواء .

في الساعة الحادية عشرة أصدرت أمراً للقوات كافة في الضفة الغربية ووضعتها في حالة الإنذار الفوري ، ثم اتّصلت بمكتب رئيس مراقبي الهدنة الذي كان في جبل المكبّر وطلبته ولكنه كان نائماً .

أمرت خادمه أن يوقظه ويجلبه إلى الهاتف ، وبعد محاولات عديدة قبل الجنرال بيرنز أن يستيقظ ويحضر إلى التليفون ، فطلبت إليه أن يزورني في مكتبي فوراً فاستجاب بعد مماطلة منه وإصرار مني .

الجنرال بيرنز ضابط كندي وكان يقود فيلقاً في نهاية الحرب العالمية الثانية وله سجل حافل . دخل عليّ مكتبي وحيّاني فرحّبت به ولاحظت عليه الامتعاض ، وما كاد يجلس حتى سألني عن الزعيم جالاتلي فأعلمته أن قيادات الجيش منذ اليوم عربية وأنتهى أمر الوجود البريطاني فيه . ثم سألني عمّا لاحظه من تحركات غير طبيعية في الخطوط الأردنية التي مرّ بها ، فقلت له: إن هذا هو سبب استدعائي له.

قلت للجنرال: أريدك أن تذهب الآن إلى تل أبيب وتبلغهم أن أية حركة عسكرية منهم في الضفة الغربية ستقابل بحرب شاملة على الجبهات العربية الثلاث . وها أنت لاحظت في طريقك إليّ أننا نستعدّ للحرب ؛ وأرجو منك أن تعود إليّ وتبلغني عمّا تسمع من القيادة الإسرائيلية وعن انطباعاتك قبل الساعة الثامنة صباحاً .

عاد الجنرال بيرنز في الساعة التاسعة صباحاً وقد اجتمع مع جولدا مائير وموشي ديان ، وأنهما قالا له يظهر أن القادة الأردنيين رؤوسهم حامية .

نحن لا نحرّك ساكناً ونأمل أن لايبادئونا هم بالاعتداء ، ومن طرفنا فسنحافظ على الهدنة . قال الجنرال أيضاً : إن موشي ديان سأل عن اسم القائد الجديد للجيش وللجبهة ، ولكنه لم يتمكّن من الإجابة لجهله باسم قائد الجيش ونسيان اسمي بعد مغادرته مكتبي .

عملت وحدات الضفة الغربية كخلية نحل في تقوية مراكز دفاعها وتدريب

السرايا الأمامية ليل نهار لمواجهة أي صدام مع اليهود ، وكذلك مراجعة الخطط لكتائب الاحتياط وحسن أدائها .

كان مازن العجلوني دائم الاتصال بي وأحياناً يمرّر التليفون لجلالة الملك الذي كان يقظاً يتفقّد سير الأمور في قوات الضفتين . وفي حوالي الساعة الواحدة صباحاً ، وبعد انصراف الجنرال بيرنز ،طلبني جلالة الملك على الهاتف ليبلغني عن الإنذار الذي أرسله المستر إيدن رئيس وزراء بريطانيا وحمله سفيره ، والذي يطلب فيه عودة القادة البريطانيين إلى مراكزهم في الساعة التاسعة صباحاً .

سألت جلالته وماذا كان ردّكم فقال : يعني ماذا تتصوّر، رفضته ورفضت إنذاره وأمرته عن طريق رئيس الديوان بالخروج من القصر وأن يراعي هو ورئيسه في المستقبل أصول الدبلوماسية بين الدول .

وبعد الساعة الواحدة عاد مازن العجلوني ليخاطبني هاتفياً ويعلمني أن جلوب باشا هاتف السفير البريطاني وطلب إليه الالتقاء به في الساعة الخامسة والنصف في قاعدة السلاح الجوي البريطاني في ماركا ، فأشرت عليه أن يطلب من المدفعية إرسال جنود فئة مدفعية لتغلق الطريق عليه حتى ولو اشتبكت الفئة مع حرسه وبأي ثمن كان .

أصبح واضحاً أن جلوب باشا يريد التشاور مع السفير وقائد القاعدة البريطانية للقيام بعمل مضاد . وخَطَرَ لي أن مكالمة أحد قادة السرايا من الضفة الغربية ربما صوّرت له أن الجيش سيعلن ولاءه له إذا قاوم أو ينقسم الجيش على الأقل .

لقد تولّى مازن أمر منعه من الخروج من منزله قبل الموعد المحدّد بأن عزّز فئة المدفعية بفئة مدرعات من سرية مشهور حديثة ، عندما أبلغه توفيق القسوس بأن جلوب باشا يهدّد بالخروج بقوة السلاح ومعه سرية مشاة كاملة وذلك حوالي الساعة الخامسة صباحاً .

وما إن رأى جلوب الملازم ذوقان حنيف الشعلان قائد فئة المدرعات وقد أطل رأسه من فتحة المدرعة الأولى حتى صاح ، « جيت في وقتك يا ذوقان أبعد هؤلاء الكلاب عن طريقي » .

ردّ عليه ذوقان «إحفظ كلامك من الغلط وارجع إلى بيتك والا جعلتك انت وعسكرك هباء » .

ذوقان هذا شاب في بداية العمر ومن قبيلة الشعلان جنّده جلوب وهو غرّ وأدخله مدرسة الجيش ليقرأ ويكتب ثم اعتنى به مع غيره من أولاد العشائر حتى صار ضابطاً .

تصوّر جلوب أن حضور ذوقان انتصار له وما علم أنه كان منضماً إلى تنظيم ضباط سلاح المدرعات. فلما وجد الصدّ منه عاد إلى منزله وانتظر حتى وصل وزير الدفاع ورئيس الديوان في الساعة السابعة إلاّ ربعاً ونقلوه وعائلته إلى المطار العسكري حيث ذهب إلى بلاده .

هكذا زال كابوس الإمبراطورية عن الأردن وتلقّى الشعب خطاب جلالة الملك في يوم ٢ / ٣ / ١٩٥٦ بفرحة يصعب وصفها . كان يوم عيد وابتهاج عظيم لم يعكّره أي حادث ، وقد انطلقت الجماهير في كل عاصمة وقرية إلى الشوراع تتبادل التهنئة ، وتوزع الشراب والحلويات وهي ترقص وتهتف للوطن وللملك في حين كان الجيش مشغولاً بالاستعداد لأي طارىء في الضفة الشرقية وعلى حدود الهدنة.

توقعاتي بالنسبة للجيش كانت صحيحه تماماً ، إذ لم تبدأ طلائعه بالتحرك في معسكري الزرقاء وخو لأداء واجبها يوم ١ /٣ حتى التحق بها كل الضباط ووحداتهم في ما عدا ضابطين جرى التحفظ عليهما لبضعة أيام ، ممّا أثبت وحدة الجيش الوطني خلافاً لكل الذين اعتقدوا بما ظهر على السطح من ولاء للقيادة البريطانية .

وعندما زار جلالة الملك معسكر خو أُخذ بحماسة الجيش وفرحته لتحرره وانعتاقه ، وقد علت الهتافات مدوّية بحياته وتحرير فلسطين . حدثني جلالته وقد امتلأ قلبه بالعواطف الجياشة بعد زيارته للمعسكر وهو يكرّر قوله « أعاننا الله على تحقيق أماني جيشنا وأمتنا » .

كان الضباط البريطانيون معزولين عن وحداتهم ، ووجدت الحكومة البريطانية أنه لم تعد فائدة ترتجى من بقائهم أو بعضهم مستشارين للجيش ، حيث اقترحت القيادة العربية استبقاء ضابط كبير من كل سلاح مستشاراً لفترة من الزمن. ولم نكن بحاجة لأولئك المستشارين من الناحية العملية ، إلاّ أننا رأينا أن لا نقطع العلاقة نهائياً مع بريطانيا قبل أن نستكمل حاجاتنا للذخائر وقطع الغيار والتي كان جيشنا يفتقر إليها افتقاراً شديداً.

كنّا نعلم أن مستودعات الذخيرة لم تكن تحتوي ذخائر تزيد عن حاجة ثلاثة أيام قتال جدّي لأسلحة المدفعية والدروع ، وحاجة أسبوع أو عشرة أيام لتشكيلات المشاة والحرس الوطني .

ولمّا كانت ردة فعل بريطانيا الدبلوماسية والإعلامية عنيفة ، إلى درجة أن بريطانيا فقدت وقارها في حملتها الإعلامية ، أصابتنا مخاوف منع الذخائر عنّا في حين أن أسلحتنا جميعها بريطانية . فاقترحت على جلالة الملك فكرة المستشارين لعلّها

تبقي القناة مفتوحة ولو بدرجةٍ ضيقة من حسن النية ، فأمر بطرحها على الاجتماعات التي قامت بين قيادة الجيش والسفارة البريطانية لتصفية علاقات القادة البريطانيين مع الأردن .

بريطانيا أصرّت على سحب ضباطها ، لأن وجودهم كمستشارين لا يخدم غرضاً ولأن الأردن تصرّف منفرداً ودون تشاور معها في إزالة القيادة البريطانية للجيش ، وهكذا كان أن سحبتهم جميعاً على دفعتين على أن يتحمل الجيش الأردني بعض النفقات الإدارية البسيطة .

جلوب باشا يزعم في ما بعد أنه كان ضابطاً في الجيش الأردني وولاؤه لملك الأردن طالما وأن المعاهدة سارية، وأن الضباط البريطانيين معارون للجيش بطلب من الحكومة الأردنية . لو كان هذا الزعم صحيحاً لما أنكرت بريطانيا على توفيق باشا طلبه بتعديل المعاهدة ، وبالأخص في ما يتعلق بجلوب باشا وضباطه البريطانيين .

الحقيقة أن هؤلاء الضباط يحضرون من بريطانيا ويتولّون قيادات في الجيش الأردني ، والشيء الوحيد الذي تعلم به الحكومة هو الاستجابة لطلب قائد الجيش باستصدار إرادات ملكية لهم كي يصبح وضعهم قانونياً . ولكن عودة أيّ من هؤلاء الضباط إلى الجيش البريطاني لم يكن خاضعاً لاستصدار قرار حكومي أو إرادة ملكية بإعفائه من خدمته في الأردن.

مناقشة ادعاءات جلوب باشا بعد خروجه من الأردن وكذلك مزاعم المستر إيدن والتي تقول إنني كنت أسيطر على تفكير جلالة الملك أمر واجب وأنا أكتب مذكراتي ليكون التصوّر واضحاً للقراء ، سواء من عايش منهم تلك المرحلة أو لم يعايشها من الأجيال الحديثة .

الملك حسين لم يعطني سبباً للرجاء أو الإلحاح عليه ليقتنع بآرائي ، وعلى العكس فإنه فاجأني بدعوتي للالتقاء به في لندن بمناسبة احتفال الضباط بتخريجه كما أسلفت . وجلالة الملك أصرّ على استضافتي في فندقه وهو الذي استأنف حديثنا في باريس وهو الذي أعلن تبنّيه حركة تحرير الجيش ، ولم يسبق أن تحدثنا غير مرة واحدة في باريس قبل هذا اللقاء .

لو قال أحد إنني أحسنت طرح أفكاري الوطنية على جلالته في الاجتماع الأول في باريس لقلت إن هذا صحيح لأني اعتقدت بصحة أفكاري وصدقت بكل أقوالي . ولو قال إن الملك فاق سنّه في فهم المعضلة الوطنية الأردنية والقومية العربية لصدق .

ولو قـال إنه استجاب لما يفترض فيه من وعي على تـاريخ أسلافه وفروض مسؤوليتـه نحو وطنه وشعبه لصدق.

ولكن الدسيسة الظاهرة في مزاعم جلوب وإيدن يمكن فهمها ضمن سياق الإعلام البريطاني الذي فقد توازنه ، وضمن سياق السياسة البريطانية التي برزت سافرة عن وجهها الاستعماري ولمدة تجاوزت ثلاثة أشهر تقريباً حتى استبانت طريقاً جديداً للعودة للسيطرة على الأردن كما سنذكر في ما بعد .

أنا واثق من أن الملك كان سيصل إلى الأفكار نفسها بعد فترة قصيرة من ممارسة مسؤولياته ودون أن ألتقي به ، بحكم أن الظروف السائدة لم تكن لتسمح له باستمرار التعايش مع السياسة البريطانية . وكان يمكن في هذه الحالة أن يبحث جلالته عن ضباط في الجيش يرون رأيه وسأكون أولهم .

قصدت التركيز على هذه النقطة لا لمجرد الاهتمام بمحاولة الوقيعة بين جلالة الملك وبيني والتي أرادها جلوب وإيدن ، بل للاهتمـام بالإجابة على بعض الانتهازيين في وطني والذين لم يتوقفوا عن محاولات الدس على عمل عظيم والتخريب فيه . هؤلاء مثل العلق الذي يعيش طفيلياً على جسم الأمة ولا يحسنون إلاّ استغلال الظروف لمصالحهم الشخصية . وهم خدم صغار لاتصل أحلامهم إلى أبعد من طموحاتهم الشخصية الرخيصة ، ولا فرق عندهم سواء كان السيد أجنبياً أو عربياً .

أنا وبعض الضباط صرنا إلى مراكز القيادة في الجيش وأصبحنا معروفين للجميع ولا بأس أن يجتهد الناس في أمرنا ، وقد قضت الأحداث ببروزنا على السطح ولكننا لم نستولِ على مراكز القيادات لمجرد أننا رغبنا في ذلك ، فالرتب منحت لنا بحكم مؤهلاتنا وبإرادات ملكية تقديراً من جلالة الملك لما قمنا به من عمل مجيد في الحركة التي تولّى قيادتها . إلاّ أن ضباطاً كثيرين آخرين من المؤهلين دون اشتراك في انتفاضة الجيش منحوا رتباً جديدة وبتوصية مني ، وتسلّموا قيادة تشكيلات ووحدات كبيرة لأننا اعتبرنا وبحق أن جميع الضباط مخلصون لوطنهم وإن تجنّب بعضهم المخاطرة بمستقبلهم أو وجودهم .

كثيرون من الضباط أثبتوا شجاعتهم في ميدان القتال ولكنهم لم يعنوا بأمور تحرير جيشهم من الأجنبي ؛ ولم يكن ممكناً أن ندعوهم إلى تنظيمات الجيش السريّة خشية انكشافها ، فالشجاعة في القتال لا تتبعها بالضرورة شجاعة في الانتفاض على القيادة الأجنبية .

ومن هنا كانت الغالبية الكبرى من الضباط الذين انضموا إلى التنظيم من الضباط

الصغار السن والرتبة أو ضباط الصف المجهولين للناس ، وإن كانوا معروفين لي ولقادتهم ، فبماذا يجتهد الناس في أمرهم ؟

الاجتهاد الذي روّج له البريطانيون لا أهمية له ، لأنه صدر عن جرح أصابهم في الأردن الذي اعتقدوا أنه آخر معاقلهم في الشرق الأوسط ، ولكن الذين تلقفوا أقوال البريطانيين من أبناء وطننا ونسجوا حولها ما قدر عليهم خيالهم المريض، كان المشكلة التي ولدت بعد أسبوع من رحيل البريطانيين عن الجيش.

قالوا : الجيش أصبح خلية بعثية وعلي أبو نوار بعثي ، ولم يصدق ادعاؤهم لأنني لم أكن منتمياً إلى أي حزب يوماً في حياتي . وصدقوا بعض الشيء لأن عدداً قليلاً من الضباط كانوا بعثيين .

وقالوا : الشيوعية تغلغلت في الجيش وهو ادعاء لاصحة فيه إطلاقاً .

وقالوا : الجيش أصبح قادته من السلط . وهذا أيضاً غير صحيح كما يظهر تالياً في أسماء القادة الأردنيين .

وقال البعض : إن جلالة الملك حرّر الجيش بإرادة ملكية أصدرها إلى رئيس الوزراء واختار صديقه علي أبو نوار للقيادة ، وهذا الأخير ملأ القيادات بمريديه وأرادوا بهذا إثارة الضباط المريدين منهم وغير المريدين حسب زعمهم .

جلالة الملك أصدر إرادته فعلاً بإخراج القادة البريطانيين ، ولكن تلك الإرادة سبقها سنين من عمل الضباط بداية من سنة ١٩٤٩ ، وسنين من عمل الملك بداية من سنة ١٩٥٣ لتهيئة قوة الجيش الطليعية التي تجعل من إرادة جلالته أمراً نافذاً بالقوة العسكرية .

إذا أرادوا تمجيد جلالة الملك ، وليس هذا غرضهم فالأولى بهم أن يعطوا عمله أبعاده الحقيقية، وإلاّ كان تحرير الجيش بوصفهم عملاً روتينياً مثل إقالة وزارة. وليت الأمر كان بهذه البساطة .

أما موضوع المريدين فيصدق إذا كانوا يقصدون الضباط الذين استجابوا لنداء الواجب وعملوا لأدائه حين كان المتقولون يغطّون في أحلامهم الهانئة .

إن الفهم الصحيح لانتفاضة الجيش كان بوضعها في الصيغة والإطار الصحيحين ، بوصفها عملاً نقل الأردن من التبعيّة لبريطانيا إلى التحرر والاستقلال استجابة للضرورة الوطنية ومقتضيات الوحدة القومية العربية .

الأول من آذار سنة ١٩٥٦ يمثل صفحة مجد للأردن ملكاً وجيشاً وشعباً ، وذكرى تاريخية في سفر النضال العربي للتحرر والتحرير .

جماهير الشعب كلّها فهمت أن إرادتها قد استخلصت من قبضة الأجنبي ، وعبّرت عن هذا الفهم بطريقتها العفوية . واستقبال أهالي نابلس لجلالة الملك كان مثالاً واضحاً لصحْوة الأمل في التحرير وتعلّق الشعب بهذا الأمل .

في هذه الأثناء زارني بعض الضيوف في قيادتي ، وقد حرصت على ألا أستقبل أعداداً كبيرة من الناس، نواباً ووجهاء، لضيق وقتي وانشغالي مع القادة في ما يقوي الدفاع في الضفة الغربية ، وقد سهّل قائد الجيش راضي باشا ورئيس أركانه القائمقام علي الحيارى الحصول على كل طلباتي بأولوية عاجلة .

من الذين زاروني وزير سابق كان متحمساً لإلحاق الأردن بالعراق ، وعاد من جديد هذه المرة ليقنعني برأيه . قلت له : « أنت نجوت بجلدك في المرة الماضية لأنني رجوت جلالة الملك أن لا يعني نفسه حتى بمفاتحتك في الموضوع أو مؤاخذة الضباط شركائك ، والآن أنذرك بأن لا تفتح هذا الموضوع معي أو مع أحد من الضباط وإلّا وضعتك في السجن لتمثل أمام محكمة عسكرية. نحن لا نريد وحدة مع نوري السعيد ورهطه بل ونتمنى أن يزول نوري من العراق ويخلص العرب من شرّه .

وعدني الوزير السابق أن لا يعود لمثلها ، ورجاني أن أكتم سرّه ففعلت.

وزارني الصحفي جوزيف السوب الأمريكي ، وحضر المقابلة العاجلة الملازم الشريف زيد بن شاكر والذي حمل لي رسالة شفوية من جلالة الملك .

أول سؤال طرحه عليّ جوزيف السوب كان ، ومتى ستقوم بالخطوة التالية ؟

قلت : أي خطوة تقصد ؟

قال : إزاحة الملك .

قلت له : انتهت مقابلتك ويجدر بك اتقاء للأذى أن تغادر الأردن غداً . وطلبت من زيد بن شاكر أن يلاحق ترحيله من عمان .

جوزيف السوب هذا راح يمطرني في الجريدة التي يكتب إليها في أمريكا بتهم جزافاً، ولأطول من سنة، حتى بعد مغادرتي الأردن.

وزارني أستاذي محمد أديب العامري وصديقه الضابط السوري الذي سبق

ذكره، وسعدت بلقاء الأستاذ وبحديثه الوطني الممتع والذي تركز على تصوّره في أثر تحرير الجيش على القضية الفلسطينية والعربية.

أما الزائر الأكثر طرافة فكان نائب البرلمان عن رام الله والذي نجح نتيجة تزوير الانتخابات الأخيرة الذي قام به جلوب باشا . لقد صدمني هذا النائب بجهله ونظرته للأمور ، إذ بدأ حديثه بالتعبير عن محبته للجيش . إلى هنا كان كلامه مقبولاً ولكنه تعدّى ذلك إلى القول « أنا مع الجيش عندما يقوده جلوب باشا أو يقوده ضابط أردني » .

ثم أدهشني عندما قال : الجيش هو الشيء الوحيد الذي أؤمن به في هذا البلد ، أما السياسيون فكلهم شيوعيون والواجب أن تسجنوهم وتخلصوا البلد منهم . الشيوعيون خطرون . . . .

فخطر لي أن أدهشه بالمقابل وقلت له متظاهراً بالجدّيّة : يا أخي ، كيف تسمح لنفسك أن تعتدي عليّ وأنت في ضيافتي ؟

قال : معاذ الله، أنا أطلب الرضا ، كيف أعتدي عليك ؟

قلت : ألا تعلم بأنني شيوعي ؟

نهض النائب المحترم وسار نحو الباب دون استئذان وهو يلتفت وراءه وكأنه يخشى لسعة ثعبان . وكانت أول فرصة أضحك فيها منذ أشهر طويلة .

اللقاء مع الجيش السوري

في منتصف شهر آذار أرسل القائمقام علي الحيارى طائرة من سلاح الجو لتنقلني من قيادتي إلى عمان ، فكانت أول زيارة لي إلى قيادة الجيش بعد رحيل جلوب باشا .

استقبلني راضي باشا وأبلغني أنه اختارني لمصاحبته في زيارة إلى درعا على الحدود السورية للالتقاء برئيس هيئة أركان الجيش السوري بغرض التعارف وتحركنا على الفور .

كان الزعيم شوكت شقير وأركان قيادته في استقبالنا . وبعد السلام عليهم استعرض راضي باشا حرس الشرف ثم بناية قيادة الموقع ، حيث تفضّل الزعيم شقير بالترحيب بنا بحرارة أخوية صادقة . ثم تطرقنا إلى مواضيع الدفاع بشكل عام وضرورة التعاون الأردني السوري بموجب اتفاقية توافق عليها الحكومتان .

أعجبتني شخصية شقير وصراحته في طرح أفكاره وصدقه وإخلاصه للتضامن العربي ، وتلك بعض الصفات التي جعلته على رأس الجيش السوري مع أنه لبناني الأصل . كان شوكت خريج مدرسة الحرب الفرنسية ، والتي تساوي كلية الأركان البريطانية ، ومن الذين أسسوا جيش الاستقلال بعد الجلاء الفرنسي عن سوريًا .

كنّا في الجيش الأردني نجهل كل شيء عن الجيش السوري، وبالأخص قياداته وتشكيلاته فأفادتنا هذه الزيارة بأن عرفنا أن حجم القوات قد زاد كثيراً عن سنة ١٩٤٨، وأن تسليحه قد تحسّن، خاصة سلاحي المدفعية والدروع اللذين تعزّزا بأعداد وفيرة من الدبابات الروسية.

كانت الزيارة قيّمة من حيث تبادل المعلومات وتماثل الرؤية العامة للمسؤوليات العسكرية العربية في مواجهة إسرائيل .

كنت أريد الخوض في الاتفاقيات السورية المصرية والقيادة المشتركة التي أقامتها مصر وسوريا لمعرفة قيمة التعاون السوري المصري على أرض الواقع إذا وقع القتال مع إسرائيل ، ولكن الوقت لم يكن يسمح لإطالة الأبحاث في أول اجتماعاتنا .

وهكذا اختصرنا الجلسة 'متواعدين على لقاءات في المستقبل ، لأننا كنّا في حقيقة الأمر في حاجة إلى كل ساعة عمل في الجيش لاستكمال كثير من حاجاتنا التنظيمية والتعبويّة .

العودة للعمل

عدت في الليلة نفسها إلى قيادتي في الرام ، وفي الصباح تباحثت مع وكيل القائد معن أبو نوار في مواضيع تتعلق بالحرس الوطني في منطقة القدس ، إذ كان ملمّاً بتفاصيلها بحكم منصبه السابق في قيادة اللواء الأول . وخرجت بتصورات جديدة لتشكيل وتسليح وواجبات كتائب الحرس .

أفراد الحرس كانوا من أبناء المنطقة التي تشكّلت كتائبهم فيها ، وهم على درجة جيدة من التعليم تفوق أحياناً بعض جنود كتائب الجيش النظامي . لذا فإنهم مهيّأون لاستيعاب الأسلحة وحسن استعمالها ، كما وأن أحوالهم الصحية جيدة كونهم من أبناء القرى والعاملين في الأرض .

وقد زرت ووكيل القائد معن إحدى كتائب الحرس في الجيب وهي من الوحدات التابعة لقيادة اللواء الأول والمجاورة لكتيبته السابعة. فاتّضح لي أن عناية قائد الكتيبة بجنوده لم تكن كافية، فأمضيت نصف نهار أتفقد طعامهم ومنامهم وأسلحتهم. وقررت أن أعاقب الضباط وضباط صف الإدارة لأجعل منهم أمثولة لكل من يهمل واجباته في الحرس الوطني، وألحقت الكتيبة بإمرة معن أبو نوار ليصلح أمرها وبكامل صلاحيات قائد اللواء.

الضباط وضباط صف الإدارة لأجعل منهم أمثولة لكل من يهمل واجباته في الحرس الوطني ، وألحقت الكتيبة بإمرة معن أبو نوار ليصلح أمرها وبكامل صلاحيات قائد اللواء .

إلاّ أن موضوع الحرس الوطني أخذ يشغل جانباً هاماً من تفكيري . فطالما وأننا نجمع الشباب في كتائب وندربهم ونسلّحهم فلا أقل من أن نوصلهم إلى القدرة على القتال ، وإلاّ يكون الأمر مجرد دعاية فاسدة وظروف جيشنا لاتسمح بمثل هذا الترف أو دونه .

كتائب الحرس الوطني في منطقة نابلس كانت متميّزة عنها في منطقتي القدس والخليل تدريباً ، بسبب أن الجيش العراقي قد سبق الجيش الأردني في تشكيلها وتدريبها وإشراكها في المسؤوليات الدفاعية جنباً إلى جنب مع القوات العراقية .

لذا فقد عنيت بدراسة منطقتي القدس والخليل ، فوجدت أن القيادة البريطانية قد شكّلت نواة صغيرة على الأرض في مناطق عديدة على طول الخطوط ، واعتبرتها كتيبة على الورق مع ضعف في وسائل الاستنفار في حالة الحرب ونقص في التخزين للأسلحة والذخائر التي يحتاجها الاستنفار .

وفي أول زيارة لراضي باشا أوضحت له هذه المشكلة ، ورجوته أن يبحثها مع رئيس الأركان علي الحيارى وقائد الحرس الوطني صادق الشرع ، ضمن مفهوم المعاهدة البريطانية الأردنية التي كانت تشكل مظلة دفاع معنوية لم تعد قائمة .

وبالفعل بدأت قيادة الجيش تدرس أمر المتطلبات الإدارية المالية والمستودعات ، وتوفير الضباط وضباط الصف اللازمين لجعل هياكل الحرس الوطني متكاملة وقادرة على التكوين السريع .

في الأسبوعين الأولين كانت خطوط الهدنة هادئة إلى أن اتّصل بي تركي حسين من نابلس قائلاً إن الجنود اليهود أخذوا يقطعون خط الهدنة بمجموعات صغيرة ثم يعودون ، ويطلب مني تحديد سياسة لمواجهة هذه الاعتداءات .

أجبته بأن أي جندي إسرائيلي يقطع الخط يُرمى بالنار للقتل ، فعمّم تركي حسين هذا الأمر وأدّى إلى اشتباكات صغيرة يومية جاء بسببها الجنرال بيرنز ليبلغني شكوى الجانب اليهودي .

أطلعت الجنرال على حوادث قطع خطوط الهدنة كما مرّرها لي تركي حسين ،

وأبلغته بأنني لن أسمح للجنود اليهود أن يتنزّهوا داخل حدودي ، فاقتنع بوجهة نظري واعداً أن يبلغ الجانب الآخر بها .

لم تطل إقامتي في الضفة الغربية ، إذ استدعاني راضي باشا ليشاورني في أمرٍ قيادة الفرقة والألوية والأسلحة . وأجرى بعدها تعيين القائمقام علي الحياري قائداً لفرقة المشاة الأولى وتعييني رئيساً للأركان ، والقائمقام محمد المعايطة قائداً لسلاح المدفعية، وأرجأ التعيينات الأخرى إلى حين دوامي في القيادة خلال يومين من الاجتماع .

انتقلت إلى عمان واتفقت مع راضي باشا على قائمة القادة الجدد ، وأطلعنا عليها جلالة الملك الذي باركها ونفذت خلال أيام .

في هذه المرحلة من كتابتي يجدر بي أن أذكر أسماء الضباط الذين شكّلوا طليعة الجيش في حركته يوم ١ آذار ١٩٥٦ ،والذين كانوا أعضاء في التنظيم السرّي واشتركوا في تنفيذ قرار تحرير الجيش .

ضباط المشاة

القائد الركن علي أبو نوار ، قائد حركة الضباط .
القائد الركن محمود الروسان ، ملحق عسكري في واشنطن
القائد محمود الموسى
الرئيس أحمد زعرور
الرئيس قاسم الناصر ، كان معفى من الخدمة ومن مؤسسي الحركة
الرئيس سلامة عتيق
الملازم الأول مازن عجلوني
الملازم الأول عصام الجندي
الملازم الثاني الشريف زيد بن شاكر
الملازم الثاني غازي عربيات
الملازم الثاني عدنان صدقي القاسم
الملازم الثاني ياسين الساطي
الملازم الثاني سعيد السبع
الملازم الثاني محمد عربيات

ضباط المشاة من خارج التنظيم والتحقوا من اليوم الأول تلقائياً مع وحداتهم

القائد عزت حسن بعد اتصال شخصي مني
الوكيل القائد الركن تركي حسين
الرئيس علي مطلق الهباهبة
الرئيس سلامة عتيق

سلاح المدفعية

الرئيس شاهر يوسف تغيب يوم الحركة
الرئيس محمود المعايطة
الرئيس منذر عناب
الرئيس عبد الرحمن العرموطي
الرئيس إحسان الحلواني
الملازم عبد الرزاق الشريف
الملازم عزمي مهيار
الملازم فوزي أبو نوار
الملازم ضافي جميعان
الملازم عبد الحميد الدويك
الملازم مروان الجندي
الملازم سليم التل
الملازم محمد أبو دويله
الملازم عامر صادق
الملازم عبد الله الميّاس
الملازم توفيق القسوس
المرشح عبد المجيد القاسم
الملازم ساري الربضي
الملازم عبد القادر شومان
الملازم حسن جاد الله
الملازم نواف جرادات
الملازم موسى سويلم
والتحق بالحركة في اليوم الأول من خارج التنظيم :
الرئيس زهير عمر المعاني

الرئيس محمد الخصاونة
الملازم إبراهيم محادين
الملازم وليد التل

سلاح المدرعات

الرئيس تركي الهنداوي
الرئيس أديب أبو نوار
الرئيس مشهور حديثه
الملازم عبد الله قاعد
الملازم توفيق الحيارى
الملازم نذير الرشيد كان مجازاً
الملازم ذوقان حنيف
الملازم طراد نويصر
والتحق بالحركة في اليوم الأول من خارج التنظيم :
الوكيل القائد نايف الحديد
الرئيس مطلق عيد

سلاح الهندسة

الرئيس عصمت رمزي
الملازم موسى محمود
والتحق بالحركة في اليوم الأول من خارج التنظيم :
الرئيس خالد الطراونة
الملازم مطيع سعادات

سلاح اللاسلكي

الرئيس الأول أديب عمر
الرئيس خليل البورنو
الرئيس عبد الرزاق يونس
الملازم عبد الله عميرة
الملازم رمضان فرحات
الوكيل فخري أبو نوار

المشاغل الفنيّة

الملازم شوكت السبول
الملازم جعفر الشامي
الملازم عبد الكريم حيدر

الخدمات الطبية

الوكيل القائد عوني حنون	فصل من الخدمة سنة ١٩٥١
الرئيس فهيم ناصر	استقال من الخدمة سنة ١٩٥٣
الرئيس سالم شراب	استقال من الخدمة سنة ١٩٥٣

وكانت استقالتهما بسبب عدم رغبتهما في الاستمرار بعد فصل عوني حنون .

قيادة الجيش

الرئيس عبد الله الصعوب — مشاور عدلي الجيش

الضباط المتعاطفون مع حركة الضباط دون نشاط

القائمقام الركن علي الحيارى
القائمقام محمد المعايطة
القائمقام الركن راضي الهنداوي
القائمقام فواز ماهر

الضباط الذين قاموا بدور متميز صبيحة يوم الحركة

الرئيس محمود المعايطة
الرئيس إحسان الحلواني
الرئيس تركي الهنداوي
الرئيس أديب أبو نوار
الرئيس مشهور حديثه
الملازم مازن العجلوني
الملازم عبد الله قاعد
الملازم عزمي مهيار
الملازم فوزي أبو نوار
الملازم غازي عربيات
الملازم توفيق الحيارى

الوكيل القائد أديب عمر
الملازم توفيق القسوس
الملازم ذوقان حنيف
الملازم عدنان صدقي
الملازم ياسين السالمي

القادة الجدد

رئاسة هيئة أركان الحرب

أمير اللواء راضي عناب	رئيس هيئة أركان حرب الجيش العربي
الزعيم حابس المجالي	المساعد للإدارة
القائد الركن علي أبو نوار	رئيس الأركان
القائد اسكندر نجار	مدير العمليات الحربية
القائد كريم أوهان	مدير التدريب
القائد محمود الموسى	مدير للاستخبارات العسكرية
وكيل القائد جميل قعوار	مدير المرتب
وكيل القائد وحيد عبد الهادي	مدير التموين والنقل
وكيل القائد عيسى قسيس	مدير المالية
الرئيس عبد الله الصعوب	المشاور العدلي
القائد حكمت مهيار	مدير المباحث

الفرقة الأولى مشاة

القائمقام الركن علي الحياري	قائد الفرقة
القائمقام الركن راضي الهنداوي	قائد اللواء الثالث
القائمقام فواز ماهر	قائد اللواء الثاني
القائد عزت حسن	قائد اللواء الأول

سلاح المدفعية

القائمقام محمد المعايطة	قائد السلاح
الرئيس زهير المعاني	ركن العمليات
الرئيس شاهر يوسف	قائد كتيبة الميدان الأولى
الرئيس محمود المعايطة	قائد كتيبة الميدان الثانية
الرئيس منذر عناب	قائد كتيبة الميدان الثالثة

وكيل القائد أحمد إرسلان	قائد كتيبة مضادة الطائرات
الرئيس كمال طاهر	قائد بطارية المورتر ٢و٤ إنش

سلاح الدروع

الوكيل القائد نايف الحديد	قائد السلاح بالوكالة
الرئيس أديب أبو نوار	ركن عمليات السلاح
الوكيل القائد نايف الحديد	قائد كتيبة المدرعات الأولى
الرئيس مشهور حديثه	قائد كتيبة المدرعات الثانية
الرئيس تركي الهنداوي	قائد كتيبة الدبابات الثالثة

سلاح الهندسة

الرئيس عصمت رمزي	قائد كتيبة هندسة الميدان الأولى

سلاح اللاسلكي

الوكيل القائد أديب عمر	قائد السلاح
الوكيل القائد خليل بورنو	قائد كتيبة اللاسلكي الأولى
الرئيس عبد الرزاق يونس	قائد كتيبة اللاسلكي الثانية

مديرية التموين

القائد جبران حوّا	المدير

سلاح الهندسة الميكانيكية

المهندس الملازم الأول شوكت السّبول	قائد السلاح
المهندس الملازم الأول جعفر الشامي	قائد المشاغل المتوسطة

الخدمات الطبية

القائمقام رشيد طليع	مدير الخدمات
المقدم سعيد النجار	قائد المستشفى الرئيسي

الحرس الوطني

القائمقام الركن صادق الشرع	قائد الحرس الوطني العام

كان أول قرار اتخذه رئيس هيئة الأركان استناداً إلى توصيتي إعادة الرئيس قاسم

الناصر إلى الخدمة وتسليمه قيادة كتيبة مشاة تقديراً لشجاعته في حرب ١٩٤٨ ، وكونه مؤسساً في حركة الضباط منذ سنة ١٩٤٩ .

بعد استلامي منصبي الجديد في قيادة الجيش وجدت أن كثرة المسائل التي عالجها القائمقام علي الحيارى في فترة وجيزة من ناحية أسلوب العمل والتنسيق بين مختلف إدارات القيادة قد سهّلت لي السبيل للنظر في قضايا أساسية وكثيرة .

وكان حسن الحظ أن القائمقام صادق الشرع قائد الحرس الوطني والذي يعتبر من أكثر الضباط العظام كفاءة سريع الإدراك لكل الخطط التي ارتأيتها لجعل الحرس قوة فعّالة ، ومن ذلك تشكيل الكتائب التي كانت إعداداً على الورق مع برامج تدريب تتوازى مع الكفاءة المطلوبة للدفاع عن الضفة الغربية ووادي الأردن واللواء الشمالي شرق النهر. فدأب صادق على تزواج الضباط وضباط الصف والأفراد مع الأسلحة والمهمات والتنظيمات الإدارية بالتنسيق مع إدارات القيادة وقائد الفرقة وقادة الألوية.

وكان من أهم المهمات اختيار القادة والمدربين لكتائب الحرس وسراياها ، بحيث تُناط إلى ضباط ذوي خبرة تنظيمية وقتالية دون الإخلال بكفاءة الوحدات النظامية . ولم يكن هذا الأمر سهلاً لنقص أعداد الضباط في ملاك ألوية المشاة .

يُضاف إلى هذا تدبير الأموال اللازمة للصرف على عدد جديد من كتائب الحرس الوطني والتي كان السبيل الوحيد إليها الاقتصاد الشديد في النفقات العامة للجيش . ووقع اختياري على المقدم جبران حوّا ليشغل منصب مدير الإدارة واللوازم بدلاً من العقيد كريم أوهان ، الذي عينته ملحقاً عسكرياً في سفارتنا ببريطانيا ومسؤولاً عن مشتريات الجيش .

ومع الخطة لإحياء قوات الحرس الوطني بأكبر عدد من كتائبه كان قرار البدء بتكثيف إمكانيات إدامة مجموع القوات في الضفة الغربية ووادي الأردن ، والتي كلّفت جبران حوّا بدراستها فوضع خطة مثالية لتجهيز الجيش والحرس الوطني ضمن برنامج دقيق وفترات زمنيّة تتناسب مع الحاجة إلى جانب الإمكانات المالية .

كان راضي باشا ، بحكم أنه من سلك الأمن العام ، قد اختصّ باختياره إدارة كل قوات الشرطة والدرك وأعمالها الأمنية وعلاقتها مع الإدارة المدنية مثل وزارة الداخلية ودوائر العدلية .

وبهذا أعفى الأركان من كل القضايا المتعلقة بالأمن العام في ما عدا التزويد والتجهيز ، وكان هذا نعمة كبرى مكّنتنا أن نتفرّغ جميعاً لضرورات ومتطلبات الجيش وقدراته القتاليّة .

صارت القيادة العامّة وقيادات الفرقة والحرس الوطني والألوية والأسلحة تشكّل فريقاً منسجماً قادراً على سرعة التخطيط والتنفيذ ، واستبعدنا الروتين الذي درجت عليه القيادة البريطانية السابقة والتي كانت تتمتع في السلم بترف الحياة إلى جانب العمل .

ومع أن بعض القادة البريطانيين كانوا على درجة كبيرة من الخبرة ولم يكن تعويضهم بضباط أردنيين سهلاً ، إلاّ أن الضباط الأردنيين كانوا على علم كافٍ لممارسة أعمال قيادات عليا وقادرين على اكتساب الخبرة مع التجربة التي لم تتح لهم سابقاً .

كان علينا أن نثبت لأنفسنا بالتجربة بأننا على قدر مسؤولياتنا التي أُنيطت بنا . ويوماً بعد يوم، ازدادت ثقتنا بأنفسنا وبصحة اجتهاداتنا في التخطيط والتنفيذ .

ويجدر الذكر بأن إحساسنا بالمسؤولية المباشرة للدفاع عن وطننا فرض علينا العمل المتواصل والسهر الطويل ومساعدة الضباط الأقل معرفة ، بينما كان الضباط البريطانيون يعملون في غير أرضهم ولأهداف غير أردنية بالدرجة الأولى .

هنا تبرز قضية هامّة هي قضية الولاء عند القادة ، وهي أمر أساسي في تكوين ذهنية الجيش واتجاهه ، فبينما كان الضباط البريطانيون مرتبطين أساساً بالسياسة البريطانية في المنطقة كنّا مكرّسين للدفاع عن أرضنا وأرض العرب .

زيارة مصر

أردنا زيارة مصر لإبرام اتفاقية عسكرية ، وبارك جلالة الملك قصدنا، ولكن رئيس الوزراء سمير الرفاعي حاول منعنا فلم يفلح ، إذ لم يتمكن من إبداء أي سبب مقنع للعدول عن الزيارة .

كانت الزيارة في شهر نيسان ، فرحّبت القيادة في مصر بنا . وقد تألّف وفدنا من أمير اللواء راضي عناب والقائمقام الركن صادق الشرع والقائد الركن علي أبو نوار وضابط سكرتير للوفد .

وفي أول اجتماع مثل الجيش المصري اللواء محمد إبراهيم رئيس الأركان العامة ومدير العمليات الحربية وضابطان آخران . وكان راضي باشا في غمرة من حماس وأراد أن نبحث اتفاقية عسكرية ملزمة للجيشين بالدفاع المشترك . وفوجئنا أن اللواء محمد إبراهيم غير راغب بأكثر من اتفاقية تنسيق تفتح مجال التشاور بين الطرفين

في حالة وقوع حرب بين أحد الطرفين وإسرائيل دون التزام مسبق بدخول الطرف الآخر الحرب .

طال النقاش أكثر من ساعتين بين قائدنا واللواء محمد إبراهيم دون الوصول إلى نتيجة ، فرأيت أن أحسم الموضوع بتدخلي فقلت لمحمد إبراهيم:

لتحقيق ما تقترحه كان يمكننا أن نرسل إليكم ضابطاً واحداً ولا نترك أعمالنا ، ونحن بحاجة إلى كل ساعة من وقتنا في هذه الظروف . نحن جئنا يدفعنا واجبنا القومي وتصوّرنا أن مصر في عهد الثورة واتجاهها العربي ستقدّر قصدنا. فإما أن نبحث اتفاقاً ملزماً في حالة الحرب ويكون التشاور في كيفية تنفيذ الاتفاق ، وإلاّ فإننا لا نخرج عمّا تعوّدناه من أعمال اللجنة العسكرية للجامعة العربية ونحن لا نقبل ذلك .

أصرّ اللواء محمد إبراهيم على مبدأ التشاور، فجمعت أوراقي ونهضت ودعوت راضي باشا لمغادرة الاجتماع . وما إن بدأنا نودّع الإخوان المصريين وإذ باللواء عبد الحكيم عامر يدخل ، وقد أبلغه أحد الضباط بما جرى ، ليدعونا إلى مكتبه ويعتذر عن اللواء محمد إبراهيم بقوله : محمد إبراهيم ضابط قدير ولكنه لا يدرك المسائل العربية وارتباطات الثورة فأرجوكم أن تصبروا عليه.

وفي اليوم الثاني زرنا قاعدة الدروع وفي اليوم الثالث شهدنا تدريباً جوياً على الطائرات الروسية وتعرفنا على قائد سلاح الجو وبعض أركانه .

وكان راضي باشا قلقاً جداً من انقطاع البحث في الاتفاقية ليومين وسعيداً بما رآه من تسليح الجيش بالدروع والطائرات ، ووجدت صعوبة في حمله على الانتظار إلى حين انتهاء برامج الزيارات هذه . وظلّ يلحّ بالسؤال عن سبب ضعف الحماس الذي صادفناه لإبرام اتفاقية ، ولكني عجزت عن التفسير، أي تفسير أقتنع به.

في مساء اليوم الثالث زارني الملحق العسكري المصري في عمان ، والذي رافقنا في الزيارة ، ليبلغني أن الرئيس عبد الناصر يدعوني إلى بيته في منشيّة البكري لحديث منفرد. استغربت هذه الدعوة التي لا توجّه إلى راضي باشا، واعتذرت له بأنني لن أذهب لمقابلة الرئيس من وراء ظهر قائدي .

فألحّ الملحق العسكري بحجة أن الرئيس يريدك أنت لأنك القائد الفعلي للجيش . اعتذرت له قائلاً لن أقبل الدعوة إلاّ إذا أذن لي راضي باشا ، وسوف أستأذنه مع علمي أن هذا الوضع غير سليم عسكرياً وأدبياً .

وبالفعل أبلغت راضي باشا بأمر الدعوة ورأيي فيها، فألحّ عليّ بقبولها علّها

تساعد على فهم رئيس الأركان المصري أن التعاون العسكري الأردني المصري واجب لا مفرّ منه.

رافقني الملحق العسكري القائمقام صلاح مصطفى إلى منزل الرئيس، وبعد وقت قصير من تبادل الترحيب والمجاملة وتناول المرطبات حضر اللواء عبد الحكيم عامر وشارك في الحديث الودّي إلى أن بدأ الرئيس موضوعاً جدياً بقوله:

يا أخ علي، أريد أن أعبّر عن تقدير مصر وثورتها لجلالة الملك حسين والجيش الأردني واعتزازي شخصياً بالعمل العظيم الذي قمتم به لتحرير الجيش والذي فاق كل التوقّعات. وكذلك تقديري لزيارتكم مصر لتأكيد التضامن العسكري العربي. ونحن نعتبر الجيش الأردني سنداً مهماً للجيش المصري، كما أننا لن نتوانى أبداً عن الوقوف إلى جانب الأردن في أي معركة مع العدو.

أنتم تريدون إبرام اتفاقية عسكرية في حين أن الحكومة الأردنية تطلب منّا سحب الملحق العسكري صلاح مصطفى على أساس أنه شخص غير مرغوب فيه. هذان اتجاهان متعاكسان، يد ممدودة بالأخوة والأخرى مقبوضة بالجفاء، فهل كنت تعلم بأمر الملحق العسكري قبل الزيارة؟ وأبرز الرئيس ورقة من السفارة الأردنية موجهة لوزارة الخارجية المصرية تؤكّد قول الرئيس.

قلت: سيادة الرئيس، هذا الأمر يدهشني لأنه مفاجأة لم تخطر ببال، ولا ريب بأن هنالك خطأ ولا بدّ من تسويته غداً. وأودّ أن أؤكد لك أن الأردن عازم على قيام وضع عسكري مع مصر وسوريا يحفظ الحق العربي. ورغبة جلالة الملك في قيام هذا الوضع المنشود لاترقى إليها شائبة وكذلك رغبة قائد الجيش.

سألني الرئيس إذا كان راضي باشا يعلم بهذا اللقاء، فأجبته أنه على علم به وقد حبّذه دون حساسية لأنه وجد في هذه المناسبة فرصة لاستطلاع سبب تلكؤ رئيس الأركان المصري في تقدّم البحث في الاتفاقية بالرغم من تدخل عبد الحكيم. وبالمناسبة فإن راضي باشا رجل فاضل من الرعيل الأول، وقد صار إلى قيادة الجيش لأنه من أفضل الضباط الشيوخ بالرغم من كونه من ضباط الأمن العام. ونحن نكنّ له احتراماً كبيراً لصدق مشاعره الوطنية والقومية، وليتك دعوته بدلاً مني.

ظهر الحرج على الرئيس عبد الناصر، فنادى الملحق العسكري الجالس في الغرفة المجاورة يعاتبه على سوء نصيحته قائلاً له: «يا صلاح إلى متى ستظل فلاحاً». وكانت نكتة ضحكنا لها لانطباق الوصف فعلاً على صلاح.

وتابع الرئيس حديثه قائلاً : « إن الإرادة متطابقة عندنا وعندكم . وما دامت الأهداف واحدة فإنّ الاتفاقيات لا تخرج عن كونها تعبيراً عن الإرادة ، والنيات أهم من الورق . نحن الآن على طريق استيعاب الأسلحة الجديدة واستكمال حاجاتنا لنضمن قدرتنا للتصدي لإسرائيل وهذا يتطلب وقتاً وصبراً .

بالمناسبة ، أبلغني عبد الحكيم عن انطباعه عن الجيش الأردني في زيارته قبل أشهر ، ووصف كتيبة اللاسلكي التي شاهدها بمناسبة تسليمها علمها بأنها أحسن من كتيبة مشاة عندنا ، وهذا شيء يبعث الأمل والطمأنينة إلى كفاءة قواتكم .

غادرت منزل الرئيس قبل منتصف الليل بقليل ، وقصدت غرفة راضي باشا كي أعيد عليه مجمل الحديث مع عبد الناصر وانطباعاتي التي لخّصتها له في نقطتين :

أ ـ أن الرئيس عبد الناصر غير مطمئن على وحدة القرار الأردني ، ويفسّر ذلك تناقض مطلبنا بإبرام اتفاقية مع طلب الحكومة بسحب الملحق العسكري .

ب ـ أن عبد الناصر يكتفي بصدق النية الأردنية على مستوى جلالة الملك والجيش للتعاون العسكري ، ولكنه ربما يرغب تأجيل الارتباط باتفاقية إلى حين استكمال درجة من القدرة المصرية لمواجهة إسرائيل عسكرياً .

وقلت أيضاً بأن حدسي يُنبئني بأن عبد الناصر لا ينوي تشجيعنا على إثارة صدامات مع إسرائيل في المستقبل القريب ، بما يحمّل مصر تبعات قد تصل إلى درجة الحرب في وقت لم تبلغ فيه القوات المصرية الدرجة التي يتوخّاها .

ولمّا كان عبد الناصر عسكرياً متميزاً فإنني قدّرت تصوراته لاحتمالات التفجير على الجبهةالأردنية البالغة الحساسية خلافاً للجبهتين المصرية والسورية اللتين لم يكن التماس العربي الإسرائيلي فيهما مماثلاً للأردن. وكما قدّرت فإن المباحثات لم تتجاوز التنسيق الذي كان في حسابي العسكري لا يساوي شيئاً.

ومع ذلك فكان لابدّ من احترام ظروف مصر وتقديرات الرئيس عبد الناصر العملية في ما يتعلق بالتعاون ، كما كان من الأهمية بمكان معالجة التناقض الأردني احتراماً لدولتنا .

لذا تخلّيت عن برنامج زيارة وفدنا إلى القوات المصرية في سيناء في صباح اليوم التالي ، واستأذنت من راضي باشا بالسفر إلى عمان لمعالجة قضية الملحق العسكري لأنها تمسّ مصداقيتنا ، وحتى لا يظل في ذهن القيادة المصرية ذرة من الشك بجديتنا .

عدت إلى عمان واستفسرت من رئيس الوزراء عن طلب سحب الملحق العسكري ، وفوجئت بـادّعائـه بأنـه نفّذ تـوجيهات جـلالة الملك . ولما طـرحت الموضوع على جلالته استنكر الأمر ودعا رئيس الوزراء ليناقشه ليتبيّن أن التوجيه كان قبل خمسة أشهر ، ونتيجة لمداخلة صدرت من الملحق في حديث لجلالته أدلاه للسلك الدبلوماسي العربي في عمان وقبل تحرير الجيش العربي الأردني .

كنت حاضراً أثناء الحديث ، ولاحظت أن الملحق وهو بطبعه كما وصفه الرئيس عبد الناصر لا يحسن آداب المخاطبة قد تجاوز حدّه ومسؤوليته في سؤال طرحه بطريقة فجّة لم يقصد بها سوءاً ولكن المنطق خانه .

انفعل جلالة الملك ، ولفت نظر رئيس الوزراء إلى أن طلبه المتأخّر لا يفهم منه إلّا محاولة إحباط لمهمة الوفد العسكري والتشكيك في سلامة النية الأردنية ، وأمره بسحب الطلب فوراً وبهذا استقام الأمر .

عدت إلى القاهرة فدعا الرئيس عبد الناصر رئيس وفدنا لزيارته وقد بدا عليه السرور بسرعة الإجراء الملكي ، وكان لنا حديث طويل في تلك الجلسة أبدى فيها الرئيس عواطف غامرة للأردن وثناء على مواقف الملك حسين المشرفة ، وتأكيده أن المعسكر التحرري العربي قفز صعوداً بالوضع الأردني الجديد .

الرئيس عبد الناصر كان يهتم بالتفاصيل ، ولهذا فقد دعاني في مساء اليوم نفسه لزيارته في بيته ، وبادأني بقوله : نحن أخوة ولا يحكم علاقتنا إلا الصراحة ، فهل من مانع يحول دون إخباري بما حدث في زيارتك لعمان ؟

قلت لسيادته : أنا لم أسأل عن المانع من إبرام اتفاقية واكتفيت بأسباب اجتهدت فيها مع أهمية الموضوع . أمّا ما حدث في عمان فليس سراً إذ وقع خطأ ولكنه صحّح وهذه هي الحقيقة دون تفاصيل .

إنمـا أريد أن أجلب انتباهك إلى أمر يشغل بالي منذ لحظة عودتي واستماعي إلى وصف ظروف قواتكم في سيناء كما سمعتها من راضي باشا وصادق الشرع .

أفهماني أن القوات أمضت وقتاً طويلاً في مراكزها ، وأن ظروف الحياة قاسية إلى درجة أن الضباط والأفراد يطردون الذباب عن كل لقمة من طعامهم فضلاً عن الرتابة اليومية في برامج تلك القوات .

إنني أرى الحرب أهون على مثل تلك القوات من طول الاستمرار في

مواقعهم . هذا وضع يثير خيال الضباط وتساؤلاتهم عن الهدف الذي يحققونه في وضعهم ذلك ، وبالتالي قد يتصوّرون أشياء وتراودهم أفكار ليست في مصلحة الحكم .

قال الرئيس : هل تسمع يا عبد الحكيم ؟ كنا في عمان فنقلنا الأخ علي إلى سيناء وإلى موضوع في غاية الخطورة . قل يا علي ماذا تقترح ؟

قلت : تبدلون القطعات باستمرار وتجعلون وجودها متحركاً في تدريبات مرة إلى الأمام وأخرى إلى قرب القناة ، وتنظمون برامج إجازات وبرامج ووسائل ترفيه بفتح نوادٍ لمختلف الرتب ومجالات رياضية ومسابقات ومباريات إلى آخره على أرض سيناء .

قال الرئيس : خلاص انتهينا من موضوع عمان ، يا عبد الحكيم والله استفدنا من هذه الجلسة ، وعليك أن تباشر ما شرحه الأخ علي صباح الغد مع الشكر الجزيل له . هذه هي الأخوة أن يحمل أحدنا هموم الآخر .

عدنا إلى عمان وقد اكتسبنا تبادل الثقة ومعرفة بالجيش المصري إلى قدر جيد . أمّا أنا فصرت إلى فهم عبد الناصر وأسلوب تفكيره العسكري والعربي وكذلك عبد الحكيم عامر بصفته الرجل الثاني .

عبد الناصر كان انطباعي عنه وظل منذ أول لقاء لي به سنة ١٩٥٤ بأنه يتميّز بسعة الأفق وطول الصبر مع حنكة ودهاء . وكل حركة منه تتطلب من المراقب تمريناً ذهنياً للوصول إلى حقيقة ما يريد ، إلا في الأزمات الحادّة فهو الصراحة الصارخة والشجاعة البالغة ، ثقافته واسعة ومعرفته بالسياسة الدولية متفوقة ، وإن كانت بعض تقديراته تصبح قناعاته مهما اختلف معه الغير في التقدير، وشعوره بذاته وكرامته حاد وواضح إلى درجة النزق .

عبد الحكيم عامر فيه صفة الولاء النادرة وذو شهامة في الطبع وفروسية في الخلق ، لا يشذّ قوله عن رأيه ولا يخامر مسلكه أي تصنّع ، تحكمه سجيته ويسيّره ولاؤه ، قريب إلى القلب ومريح في التعامل . لم يكن أقدر العسكريين المصريين على القيادة ولكنه أقربهم إلى قلوب القادة والضباط وإلى كل من عرفه .

هذه انطباعات عامّة ومختصرة تكوّنت عندي من لقاءات قليلة لم يجرِ فيها استطلاع كامل لكيفية تفكير عبد الناصر في السياسة وطرق معالجته لشؤونها ، لأن الغرض من اللقاءات الأخيرة هذه كان مواضيع عسكرية بحتة .

قيادة الجيش

بعد زيارتنا لمصر عدنا إلى العمل المكثّف ، وقد أمطرتنا قيادات التشكيلات ببرامج التدريب لمختلف الأسلحة ودورات الضباط وإكمال النقص في أعداد الضباط في التشكيلات والوحدات ، كما نشطت أجهزة القيادة ، وخصوصاً مديرية المرتب ومديرية الإدارة واللوازم والعمليات الحربية والاستخبارات العسكرية في أعمالها .

كل هذه النشاطات كانت تتطلّب مني الدراسة ومن رئيس هيئة الأركان قرارات سريعة ، فتكدّست الدراسات على مكتبه ليطالعها ، وكنت أمضي الساعات معه لإيضاح القضايا العسكرية له وتبسيطها لاستخلاص القرار ، غير أنه كان متمهّلاً إلى درجة تثير القلق عندي وعند كل الضباط العظام .

ومع مرور الوقت تبيّن لنا أننا بين خيارين :

أ ـ أن يقبل رئيس هيئة الأركان بتحويل صلاحياته إلى رئيس الأركان ويكتفي بإدارة الأمن العام أو

ب ـ أن يُستبدل رئيس هيئة الأركان بضابط عسكري .

وكان الحلّ العملي هو التغيير مهما يحمله هذا الإجراء من إساءة لا يقصدها أحد لراضي باشا عناب الذي كان يتمتّع باحترامنا جميعاً .

واستتبع هذه الضرورة اجتماع عقده الملك مع وزير الدفاع والقادة ليستطلع رأيهم ، وكان رأي الأغلبية منسجماً مع رغبة الملك بتوليتي المنصب خلفاً لراضي باشا مع أن بعض القادة كانوا أرفع مني رتبة .

فحابس المجالي كان زعيماً وعلي الحياري وراضي الهنداوي وفواز ماهر وكريم أوهان كانوا برتبة قائمقام ، وهكذا رفّعت إلى رتبة أمير اللواء وتوليت قيادة الجيش في ٢٤ أيار ١٩٦٥ .

وعلى أثر ذلك نقلت القائمقام صادق الشرع إلى منصب رئيس الأركان فملأ بكفاءة ، منذ اليوم الأول لتسلّمه ، واجبه الجديد .

واستصدرت إرادة ملكية بترفيع الضباط القادة وعدد كبير من الضباط الذين أصبحوا يشغلون مراكز قيادة الكتائب في الأسلحة كافة.

عندما عُيِّنت قائداً للجيش كان رئيس الوزراء سعيد باشا المفتي ومحمد علي باشا العجلوني وزيراً للدفاع ، وقد أسعدني الحظ بوجودهما في الحكومة الجديدة لأكثر من

سبب ، لأنهما كانا من أكبر خصوم جلوب باشا ويتمتّعان بصفات محمودة ووطنية بالغة وحماس للتضامن العربي ، وقد سهّلا لقيادة الجيش كثيراً من المهمات العاجلة إدارياً ، كما شجّعاني على توثيق الصلة مع الجيشين السوري والمصري .

ومنذ البداية كانت أبحاث متفرقة وكثيرة جرت بين الملك وبيني، وتشكّلت بمجموعتها خطوات وطنية قرّرها جلالته . تحرير الجيش وتقويته وإقامة اتفاقيات عسكرية مع دول مجابهة إسرائيل وإنهاء المعاهدة الأردنية البريطانية .

تقوية الجيش كانت تتطلّب تعبئة أكبر عدد من كتائب الحرس الوطني والتركيز على تدريبها لتبلغ درجة من الكفاءة تقارب كتائب الجيش ثم قلبها إلى كتائب وألوية نظامية . وهذه النقلة تتطلّب ضباطاً وسلاحاً وأموالاً إضافية .

والجيش نفسه كان بأمسّ الحاجة إلى الدبابات والمدفعية المتوسّطة وبناء قوة جوية قادرة على تغطيته إلى درجة ما ، وموضوعَ سلاح الجو كان المشكلة الرئيسية التي تواجهنا بسب التكاليف المالية الكبيرة التي لم يكن توفيرها بسهولة .

فمنذ سنة ١٩٤٨ حصلت إسرائيل على أسلحة وفيرة عززت بها سلاح المدفعية والدروع ، كما صار سلاحها الجويبالنسبة للأردن مشكلة عويصة جداً .

هذا التفوق الإسرائيلي في الجو لم نكن نملك إزاءه إلّا التغيير في أساليب التدريب التي اعتدناها ، فجعلنا البرامج تتكيّف بحيث نتجه إلى العمليات الليلية كإحدى وسائل اتقاء الضربات الجوية . وكذلك عمليات انتشار النقليات ، وإتقان إخفاء المدفعية والأسلحة الأكثر تأثيراً مثل الدبابات والمدافع المضادة للدبابات والرشاشات المتوسطة .

ولتقليص حركة النقل بين الضفتين اعتمدنا تكديس الذخائر والمؤن والوقود ، ما يكفي أسبوعين على الأقل من القتال المستمر ، وذلك على أمل الحصول على الذخائر التي حاولت استيرادها من بريطانيا .

كما وأننا درسنا الحدود دراسة جديدة ، ووضعنا خططاً لتوزيع القوات بما يجعل مهمة الجيش الإسرائيلي أكثر صعوبة في أي عملية اختراق في جبهتنا . فبدلاً من نشر قواتنا في الضفة الغربية فئات صغيرة على الجبهة الطويلة وضعنا بعض سرايا الحرس الوطني لتكون ستـاراً ومراكز إنـذار للجيش ، الذي أخذ مواقع استراتيجية تساعده على الصعود ، وقوات احتياطية أقلّها كتيبة في مواقع متوسطة لتقوم بالهجوم المعاكس على القوات الإسرائيلية إذا اعتدت .

من الطبيعي أن الجيش الأردني بحجمه ومع عدد كتائب الحرس الوطني الذي تمليه القدرة المالية المتواضعة لم يكونوا قادرين على حماية كل الحدود من نهر الأردن شمالاً إلى جنين فالقدس فالخليل إلى جنوب البحر الميت ثم وادي عربة إلى العقبة .

ولذلك فإننا قسّمنا هذا الخط الطويل إلى مناطق متمايزة بالحيويّة . إذ اعتبرنا منطقة القدس من رام الله إلى جنوب بيت لحم حيوية أولى ، ومنطقة لواء السامرة ووادي الأردن منطقة حيوية ثانية ، ومنطقة الخليل منطقة ثالثة وباقي الخط من الخليل جنوباً منطقة رابعة .

هذه الدراسات والخطط كنّا نعكف على وضعها باشتراك ضباط أركان القيادة وقائد الفرقة وقادة الألوية المشاة وقادة الأسلحة المساندة وقائد الحرس الوطني . ولم نترك يوم عطلة رسمية حكومية أو دينية إلاّ وعملنا فيها باجتماعات متواصلة حتى صارت إلى صيغتها النهائية ، وكلّفت كل هيئات الأركان والقادة بتنفيذها إلى أدق تفاصيلها .

لم يكن الضباط الأردنيون قاصرين كما زعم جلوب باشا ، فقد أنجزنا من الأعمال في وقت قياسي ما كان البريطانيون يقضون أضعافه لإنجازها ، فضلاً عن أننا ملأنا ثغرات كبيرة إدارية وتعبوية تجاهلوها .

الآن ، وبعد ثلاث وثلاثين سنة ، أذكر الزعيم علي الحيارى وراضي الهنداوي وفواز ماهر وصادق الشرع وعزت حسن ومحمد المعايطة وعكاش الزين وأديب عمر وجبران حوّا ، ومناقشتهم التي اتّسمت بسعة الأفق وتوقّد الذهن ، بحيث لا تترك شاردة أو واردة في الشموليات وفي التفاصيل دون معالجتها بوعي على حجم المسؤولية وفهم عسكري سليم .

أذكر هذا لأن جلوب باشا كان يخطّط للضباط العرب أن يتولّوا القيادات عندما يصيرون في عمره دون حساب أنه أمضى سنين طويلة قبل تخطيطه هذا ، وهو قائد لهذا الجيش ، في حين أن قدراته العسكرية لا توازي أياً من الذين تسلّموا القيادات من الأردنيين .

ولست أريد التحامل على هذا الرجل ، ولذا فيجب القول إننا لم نكن نحمل لشخصه كراهية ولم نكن في الوقت نفسه قادرين أن ننسى أنه أحد أعمدة الإمبراطورية البريطانية في المنطقة . أخلاقه الشخصية كانت حميدة لاعيب فيها ، ولكن سياسته كانت أبعد ما تكون عن أمانينا الوطنية والقومية .

أثناء الدراسات وفترة الإعداد للجيش والحرس الوطني زرت بعض الوحدات

والتشكيلات في الضفتين بهدف ترسيخ الواقع الجديد في أذهان الضباط والأفراد ، وإعلان أن الجيش كله قوة حرّة بوطن حرّ دفعاً لتخرّصات مفادها أن ضباط الجيش بعضهم أحرار . وهذا رمز لم يرد عند التنظيم السري وإن استهوى بعض ضباط نتيجة الرغبة في المفاخرة المؤذية للمعنويات العامة .

ولمّا كان الأغلبية من الضباط البدو يتساءلون عن نظرة القيادة الجديدة إليهم ، فقد اجتمعت إلى عدد منهم فرادى ومجموعات للردّ على تساؤلاتهم والتأكيد بأننا نحترم خدمتهم ونذكر شجاعتهم وتضحياتهم في القتال . وأوضحت لهم ضرورة تعليم أبنائهم في المدارس وعلى كلفة الجيش حتى يؤهلوا أنفسهم لمتطلبات أسلحة الجيش العلمية إن رغبوا في أن يكونوا ضباط المستقبل . وبصراحة أفهمتهم أن هناك سقفاً لا يمكن أن يتجاوزوه في الرتب بسبب افتقارهم إلى العلم .

في تقديري ، معظم الضباط البدو المتقدمين بالرتب وهم غير متعلّمين كانوا يصلحون لقيادة سرايا دروع وكتائب مشاة . أمّا القيادات الأعلى والتي تفترض في الضابط القائد علماً بمختلف الأسلحة ودورها في الحرب والقدرة على استعمالها بمجموعات متكاملة فلم يكن يصلح لها إلا النادر منهم . فالشجاعة في الميدان أمر أساسي ولكن قيادة التشكيلات تفترض في القائد ما هو أكثر من الشجاعة .

حتى الضباط الذين أنهوا الدراسة الثانوية لم يكونوا يصلحون جميعاً لقيادة كتائب أو ألوية لافتقار بعضهم إلى صفة من صفات القائد الكفؤ . ومسؤولية القيادة في القتال عظيمة إذا علمنا أن أي خطأ جسيم قد يعرض آلاف الضباط والأفراد للخطر فضلاً عن تأثيره على الجهد العسكري بمجمله .

ولهذا ، ولمّا كان اختيار الضباط في بدايات تشكيل الجيش لا يخضع لاعتبارات الحرب الحديثة ، وجدنا أعداداً من الضباط الكبار الرتبة بحكم الترفيع حسب الأقدمية دون مؤهلات تتناسب مع رتبهم ، في حين أن ضباطاً يصغرونهم سناً ورتبة أكثر تأهيلاً واستعداداً للوصول إلى القيادة .

أنا لم أكن مستعداً لأخذ أي اعتبار في تشكيل القيادات إلا للمقدرة والمؤهلات ، مما أساء إلى عدد من الضباط دون قصد أو غرض إلا ضمان كفاءة الجيش . فلو كان الرئيس حمدان البليوي مثلاً أو الرئيس زعل رحيل وأمثالهما قادرين على الإحاطة والتمكن من استخدامات أسلحة الطيران والمدفعية والدروع والهندسة والخدمات في مساندة لواء مشاة لكانا من المفضّلين عندي لعظم شجاعتهما وتفانيهما في الميدان .

أما الرئيس رفيفان خالد والرئيس سلامة عتيق ، ومع أنهما لم يتجاوزا المقدرة على القراءة والكتابة ، فإنني عينت كلاً منهما قائداً لكتيبة مشاة في حين لم أعيّن ضباطاً متعلمين وفي الرتبة نفسها في قيادة مماثلة . ذلك لأن هذين الضابطين كانا موهوبين بشجاعة نادرة وحضور في القتال متميّز ، ومثابرة منقطعة النظير في العمل فضلاً عن تفوقهما على أقرانهما في معرفة أساليب القتال والقيادة .

لو كانت الشجاعة وحدها هي المقياس لكان غازي الحربي أو محمود الموسى من أوائل المرشحين لقيادة الجيش . فبعض الضباط ومنهم من ذكرت كانوا في عشقهم للقتال كالصحابة الفاتحين في صدر الإسلام . رحم الله من لاقى ربّه منهم وأطال عمر من ظل حيّاً .

زيارة الملك حسين إلى دمشق والرئيس القوتلي إلى عمان

وجّه الرئيس شكري القوتلي دعوة إلى الملك حسين لزيارة سوريا فلبّاها ، واستقبلته دمشق استقبال الفاتحين حكومة وشعباً ووجد التقدير الكبير والحفاوة البالغة من الرئيس شكري .

والتحقت بجلالته بعد يومين للمشاركة في أبحاث التعاون بين البلدين ، ولمست مدى حرارة استقبال دمشق لجلالته مما قاله لي وزير الدفاع السيد برمدا في حفل الغداء في بلودان .

قال: شعبنا يحبّ الملك حسين فقد كاد أن يحمله إلى القصر الجمهوري لتنصيبه ملكاً. قلت له ونحن الأردنيين نكن لفخامة الرئيس المحبة والإجلال.

في أوّل جلسة حضرتها طرح الرئيس القوتلي موضوع التعاون العسكري بين مصر وسوريا داعياً الأردن إلى تعزيز هذا التعاون ليتمّ إحكام الطوق بثلاثة جيوش متحالفة وموحّدة الجهد .

وتكلم الملك حسين مرحّباً بالفكرة ، واستفاض في الحديث عن مزايا هذا التعاون وضرورته لمواجهة إسرائيل. وقال: هذا هو هدفنا في الأردن، ونحن ندرك بحكم التصاقنا بحدود هدنة طويلة جداً، أن التفوق العربي على العدو يتطلّب بالضرورة وحدة الجهد الحربي بين الجيوش الثلاثة .

أثْنى الرئيس القوتلي على أقوال الملك حسين وذهب في شرح كيفية التعاون عن

طريق اتفاقية عسكرية مع سوريا ومصر وضم ضباط إلى القيادة المشتركة في دمشق .

فطلب مني جلالته إبداء الرأي العسكري فقلت : إن قرار جلالتكم وفخامة الرئيس عالج القضية العسكرية الملحّة ، وسوف ينفذه القادة في الجيوش الثلاثة ، ولكنني أرى أن تشكيل القيادة المشتركة يحتاج إلى وضوح في مهماتها ومسؤولياتها لأنها في وضعها الحالي لا تخدم غرضاً.

فما أعرفه عن القيادة المشتركة في دمشق يظهرها كإعلان سياسي أكثر من تنظيم عسكري وهذا ما لا نريده . وسأبحث هذا الأمر مع اللواء عبد الحكيم واللواء نظام الدين لنصل إلى ما هو أجدى .

أثار كلامي دهشة الرئيس القوتلي واستدار إلى اللواء نظام الدين يسأله رأيه . وازدادت دهشته عندما أيّد نظام الدين قولي ، وأضاف أن القيادة لافعاليّة لها ولا تخرج عن كونها هيئة ضباط ارتباط منعزلة عن الجيش السوري والمصري .

فأشار الملك أن أتشاور مع اللواء نظام الدين في التكوينات القيادية التي تحكم فعالية التعاون العسكري والبحث فيها مع اللواء عبد الحكيم عامر .

وخلص الحديث إلى موضوعات التعاون العسكري والسياسي والاقتصادي بين الملك حسين والرئيس القوتلي ، وبين الحكومتين أثناء زيارة الرئيس للأردن في الأسبوع الأخير من أيار ١٩٥٦ .

هذا وقد أعدّت الحكومة الأردنية برنامجاً حافلاً للرئيس تضمّن زيارة منطقة القدس والحدود الأردنية اليهودية والتي اصطحبه فيها الملك حسين . وأذكر خطبة القوتلي في أحد المراكز الأمامية بالضباط والجنود ، وقد اشتعلت كلماته بالعواطف الجياشة وهو يرى المدينة المقدّسة أمامه ، وقد بدت قبة الصخرة متوهّجة في وسط المدينة القديمة .

كانت الزيارتان أولى اللقاءات في دمشق وعمّان بين رأسي الدولتين الأردنية والسوريّة ، وكانت نتائجهما عظيمة على الصعيدين الرسمي والشعبي سياسياً واقتصادياً وعسكرياً . ولعلّ أهم إنجازات اللقاء كانت إلغاء الإجراءات على الحدود لانتقال المواطنين بين البلدين ، بمجرد إبراز الهوية دون النزول من وسائط النقل الخاصة والعامّة .

فإذا ما قارنّا صعوبات تنقّل المواطنين العرب بين أقطارهم في أيامنا هذه ، والإجراءات الأمنية المعقّدة التي تمارس على الحدود ، نجد أن الصلة العربية الشعبية

كانت متميّزة إلى درجة فقدان المقارنة معها في أيامنا هذه وبعد ثلاث وثلاثين سنة .

كان الحكم في البلدين مخلصاً في العزم على إزالة الحدود الجغرافية والنفسية ، بما يعزّز التضامن العربي ويعمقه ليصل إلى الشعب ، دون أي اعتبارات للنزعات الإقليمية التي كانت تسود الوطن العربي ودون أي تحسّبات لغير وحدة الهدف والمصير .

هذا القوتلي شيخ من قدامى المناضلين لاستقلال سوريا ، وهذا شاب هاشمي مناضل من صلب عبد الله بن الحسين وحفيد الحسين بن علي باعث النهضة العربية التقيا على طريق الخلاص من آثار الاستعمار وعلى صدق النية لتحرير فلسطين .

في يوم من أيام الزيارة طلب الزعيم شوكت شقير وأركان حربه والأستاذ صلاح البيطار وأحد زملائه الوزراء اللقاء بي والتقينا . طلب السادة المجتمعون معي أن أطرح على الملك مشروع وحدة بين سوريا والأردن يكون الحسين فيها ملكاً مدى الحياة على الدولة الموحّدة ،معبّرين عن إعجابهم به واعتقادهم أن هذا المشروع يحقق أماني الأمة .

ومع أنني فوجئت بهذا التكليف والفكرة معاً وجّهت إليهم سؤالين :

أ ـ هل يعلم فخامة الرئيس القوتلي بهذا الموضوع ؟
ب ـ لماذا تكون الملكية مشروطة بحياة الملك ؟

كان جواب صلاح البيطار أن الرئيس لا يدري بالمشروع لأنه بُحث بين الضباط في الجيش وبين حزب البعث وعدد من السياسيين السوريين، وأن المشروع يحمل ضمانة نجاح كبير في سوريا إذا وافق الملك . فإذا تمّت الموافقة فإن الأمر سيوضح أمام الرئيس القوتلي كقرار سياسي وعسكري تقتضي المصلحة القومية تنفيذه .

أما في ما يتعلّق بملكية موقوفة على حياة الملك حسين، فكان جواب صلاح البيطار وشوكت شقير أن الملك مثير للإعجاب والتقدير في اتجاهاته وأعماله الوطنية، ولكنهم لا يعرفون كيف يكون حال خلفه في ملكيةٍ دائمة.

أبديت لهم تحفّظين قدّرت أن الملك سيدخلهما في اعتباره :

أولهما ، أن الأمر سيبدو وكأنه مؤامرة على الرئيس القوتلي ضيف الملك .
وثانيهما ، أن فكرة الملك مدى الحياة لا تحمل معها حتى ضمانة التسليم العملي للملك نفسه بقيادة الوحدة .

لكنهم جميعاً ألحّوا باستمزاج جلالته واعتبروا أن تكليفهم لي بالوساطة مسؤولية لا يقبلون مني الاعتذار عنها .

نقلت إلى الملك رسالة السادة السوريين والنقاش الذي دار فعلّق على الموضوع قائلاً : لا يمكن أن أدخل في موضوع يكتمه الوزراء والضباط السوريون على رئيس جمهوريتهم ، لأنه يحمل معنى موافقتي على عمل لن يفسّره أحد إلاّ بالتآمر على ضيفي، وأنا قانع بالأردن المتضامن مع سوريا. لقد أزلنا كل الحواجز بيننا وبين سوريّا وخطونا خطوة عظيمة في تأكيد الأخوة العربية ، وهذا المكسب بالنسبة لي فوق ما يتوقّعه أحد ، وأرى أن المثابرة على التعاون مع سوريا دون إثارات سيكون فيها الخير العميم بينما هذا المشروع ، مع احترامي له ، قد يؤدي إلى إفساد ما أنجزناه. وأرجوك يا علي أن تبلغهم رأيي مع شكري واعتذاري .

أبلغت رسالة جلالته إلى السادة في اليوم التالي ، فتقبّلوها مع الأسف والإلحاح عليّ بمحاولة ثانية ولكنني اعتذرت ، إذ إني شعرت في دخيلة نفسي هاجساً يصدّني عن متابعة الموضوع دون وضوح في أي أسباب ترد إلى ذهني .

كان المشروع عظيماً ومحققاً لآمال كبيرة وكنت أعتقد أن إنجاحه ممكن ، وتساءلت كثيراً في ما إذا كانت وحدة سوريا والأردن تبرّر المحاولة كما طرحها السوريون ، كما تساءلت أيضاً عن صحة قرار الملك بالاعتذار . وفي زيارة لي إلى دمشق سألني السيد أكرم الحوراني ، الذي بدا متحمّساً للفكرة ، عن أسباب اعتذار الملك الحقيقية .

فقلت له إن الملك لم يفكر قبل الإجابة بل كان عفوياً في الردّ ، ولذا فإنني لم أناقشه في أسباب أخرى غير التي سمعتها في تلك اللحظة .

وسألت السيد أكرم الحوراني الذي لم أكن أعرفه من قبل وإن كنت أعرف عنه . سألته عن أصحاب الفكرة وعمّا إذا كان البعثيون ومن يتعاطف معهم من قادة الجيش أصحابها ، أم أن غيرهم من جمهرة السياسيين السوريين يناصرونها .

أكّد الحوراني أن الملك الحسين لفت أنظار الكثيرين من السياسيين على مختلف اتجاهاتهم والعسكريين أيضاً في عملية تحرير الجيش من القيادة البريطانية ، واعتبروا عمله دليل شجاعة واستعداد للتضحية في سبيل الحرية

وقال ، نحن نعرف إمكانيات الأردن ، ومن هنا نقدّر حجم المخاطرة التي تحمّلها ، ونرى فيه قائداً ذا عزم وهمة ومؤهلاً ليرأس دولة وحدة سورية أردنية . ومن



جلالة المغفور له
الحسين بن علي
قائد الثورة العربية الكبرى



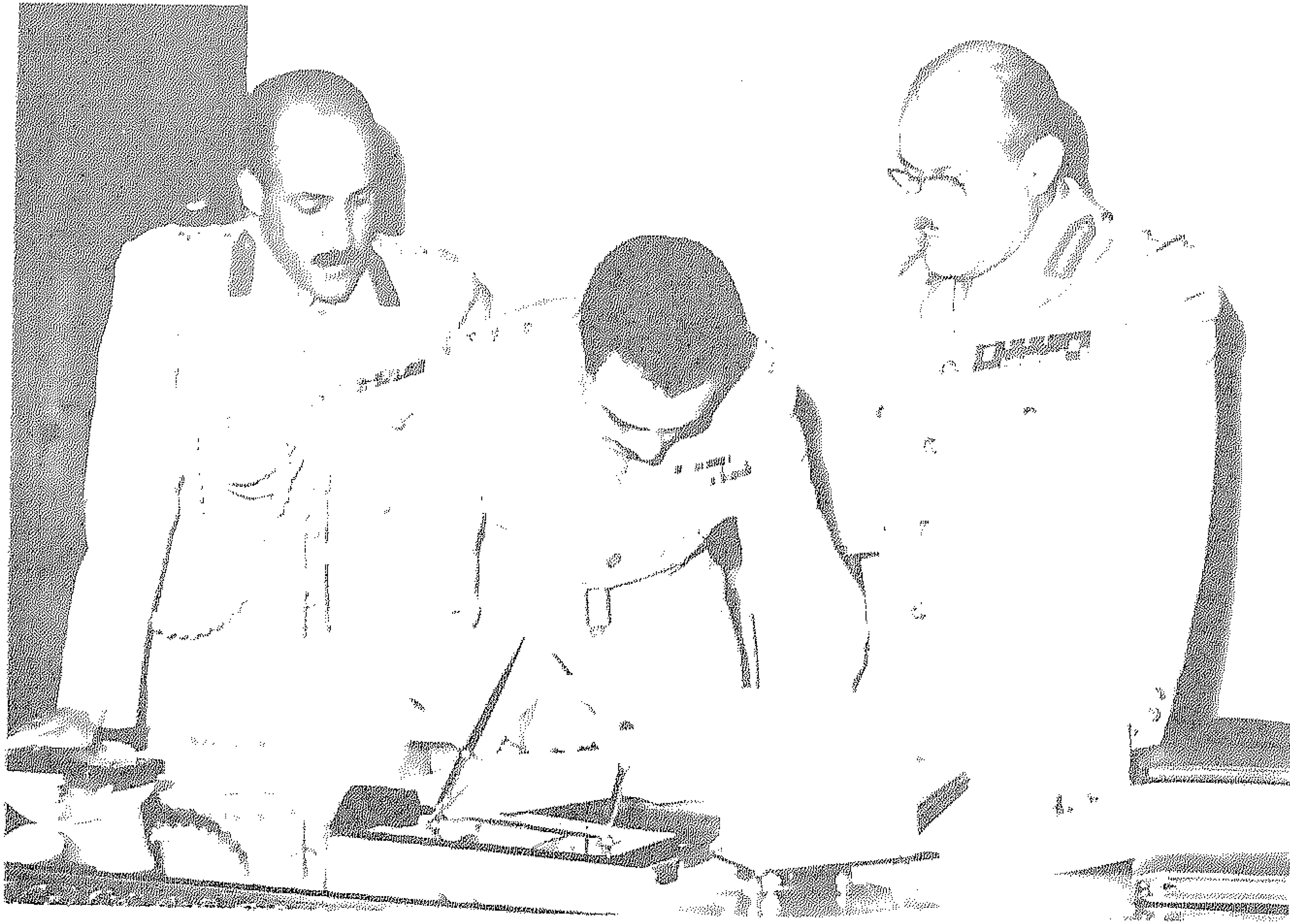
جلالة المغفور له
الملك عبد الله بن الحسين



جلالة الملك طلال بن عبد الله



المؤلف بعد تخرجه من الكلية
العسكرية البريطانية (١٩٤٣).



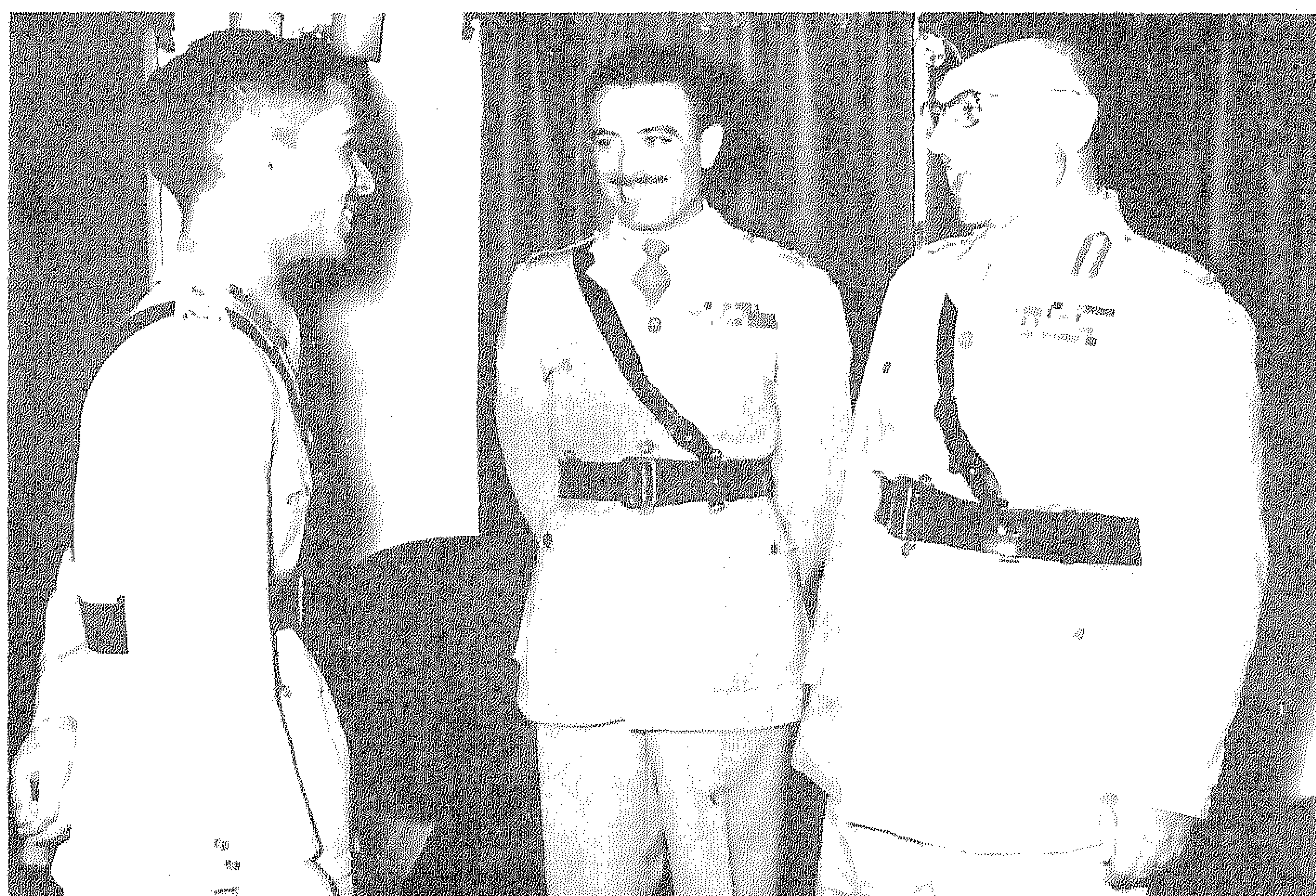
المؤلف يوقع اتفاقية التنسيق العسكرية مع اللواء محمد ابراهيم رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصري (١٩٥٦)



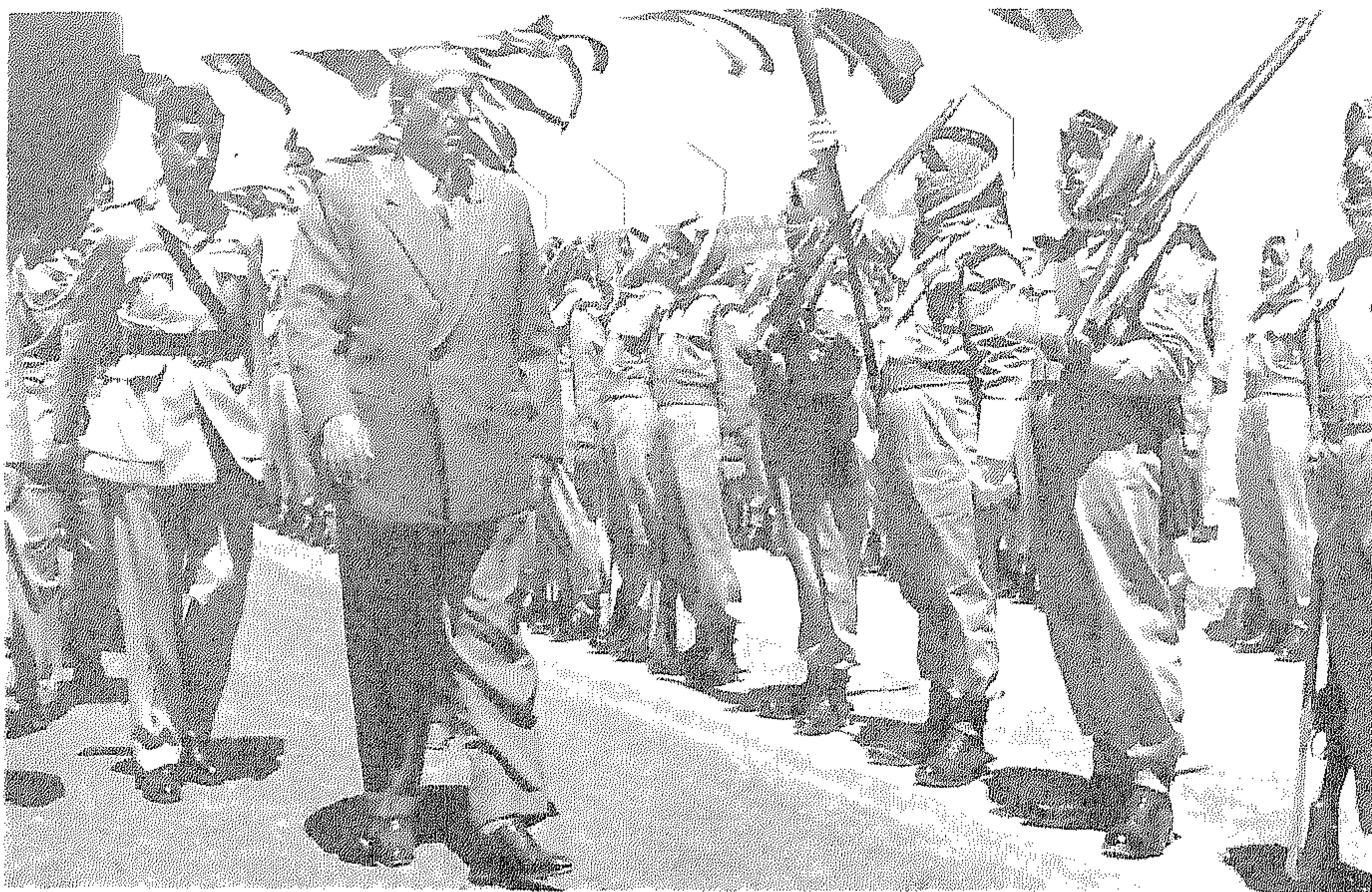
جلالة الملك حسين وفخامة الرئيس شكري القوتلي اثناء زيارته إلى عمان، والمؤلف (١٩٥٦)



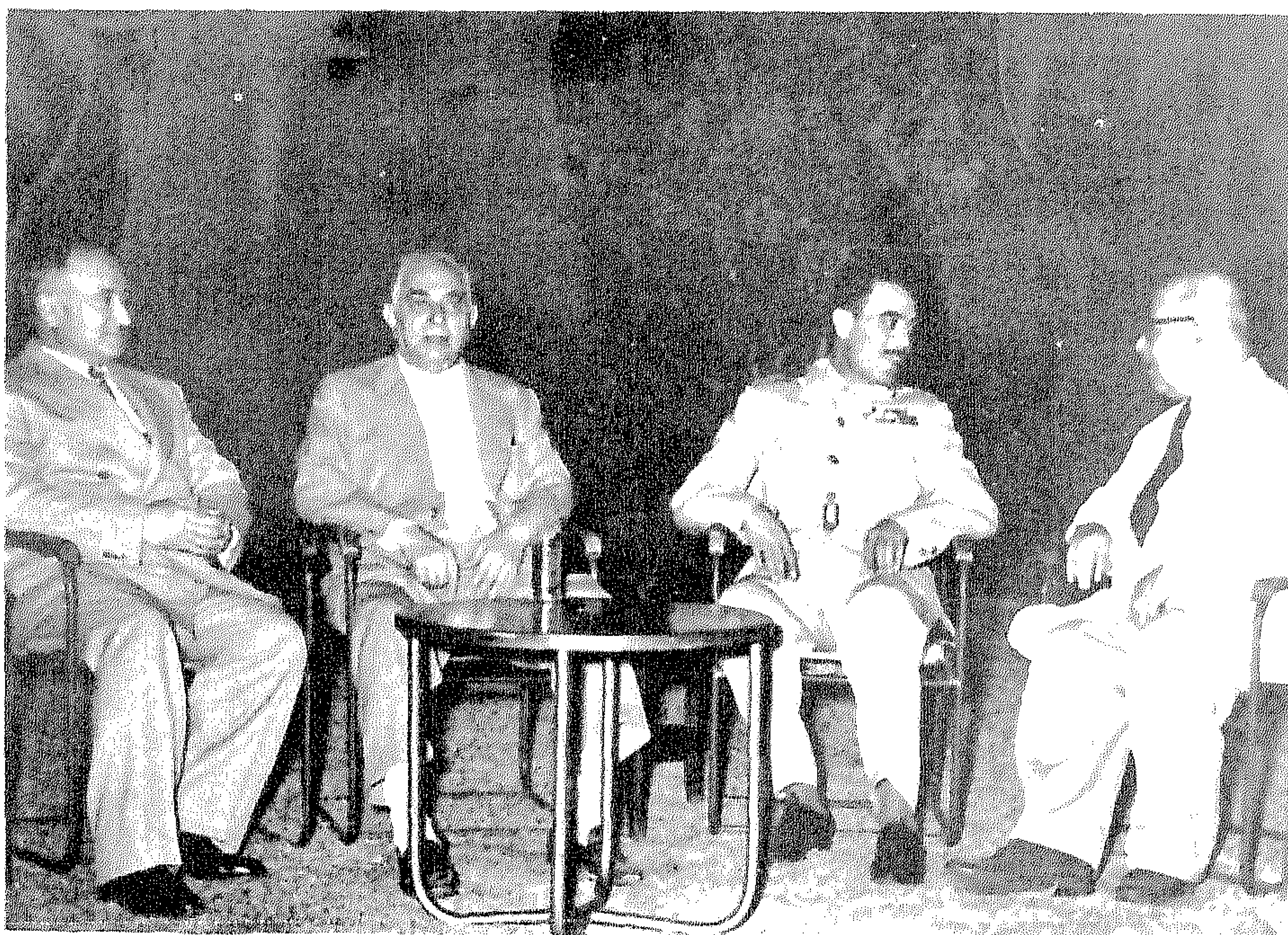
الصف الأمامي من اليمين: المؤلف، القائمقام ثروت عكاشة وقائد تشكيلة الدروع الفرنسية (١٩٥٣)



المؤلف مع جلالة الملك حسين واللواء راضي عناب بعد تحرير الجيش مباشرة (١٩٥٦)



الرئيس القوتلي يستعرض حرس شرف ومعه المؤلف



رئيس الوزراء نوري السعيد يتوسط المهيب صالح صائب والمؤلف (١٩٥٦) . ومعهم السيد جميل المدفعي .



المؤلف مع اللواء عبد الحيكم واللواء نظام الدين بعد توقيع الاتفاقية العسكرية الثلاثية في عمان قبيل العدوان الثلاثي.



المؤلف مع الرئيس عبد الناصر بعد الصلاة في الجامع الأزهر ويظهر خلفه السيد الوزير شفيق ارشيدات (١٩٥٧).



السيد الوزير زكريا محي الدين مع المؤلف في مناقشة للمعونة العربية (١٩٥٧).



جلالة الملك حسين بعد توقيعه إتفاقية التضامن العربي ومعه، من اليسار، دولة سليمان النابلسي والسادة صلاح طوقان وعبد الله الريماوي والمؤلف وكمال ناصر ومحمد المعايطة ومحمد سعيد الجندي (١٩٥٧).



وصول جلالة الملك حسين إلى القاهرة لاتفاقية التضامن العربي وفي استقباله سيادة الرئيس عبد الناصر ودولة السيد صبري العسلي (١٩٥٧).



سيادة الرئيس جمال عبد الناصر يسلّم على المؤلف في حفلة اتحاد المحامين العرب المقامة للوفد العراقي (١٩٦٣).

هذا المنطلق فإننا بحثنا هذا الأمر مع قادة حزبنا وعدد من قادة الجيش ، اعتقاداً منّا بأن الشعب السوري سوف يتلقى المشروع بالقبول الكبير . لعلّ استقبال دمشق للملك حسين عندما زارها دليل كافٍ على تقدير الشعب السوري له .

قال أيضاً ، وأنا شخصياً أرى في اعتذار الملك عن أمر يجري في غفلة من ضيفه صفة شرف عربية تُضاف على سبيل إعجابي به . أنت يا علي يجب أن تعلم أننا نحن السوريين أناس ليسوا بسطاء، وأحكامنا لا تأتي عن مجرد رغبة عابرة، ولو لم نكن مؤمنين بالوحدة لما بحثناها ولو لم نكن نرى في الملك حسين مزايا تؤهله لقيادة هذه الوحدة لما طرحناها عليه . نحن نحترم رئيسنا القوتلي ولكن الوحدة تتطلّب استمرارية القيادة لسنين طويلة ، والقوتلي بدأ سنّ الشيخوخة بينما الملك حسين في بداية الشباب ونرى فيه المستقبل .

أكرم الحوراني كثرت فيه الاجتهادات ، فمن قائل إنه مؤمن بمبادىء عربية مع تميّز في الحنكة والحكمة ، إلى قائل إنه سياسي بارع وذو نظرة ثاقبة يحسن اختيار الفرص لتحركاته ، ومن قائل إنه أبدع الانقلابات العسكرية في سوريا إلى ما هنالك .

في لقائي الأول الذي وصفته تصوّر لي السيد الحوراني بأنه ذو مبادىء ثابتة ولكنه عمليّ في تفكيره ، وفي لقاءاتي الكثيرة معه بعد لجوئي إلى سوريا ثم مصر صرت إلى معرفته بما يمكنني من وصفه . فهو عربي إيماناً وتصرفاً وأخلاقاً وهو سياسي عمليّ وشجاع ، وإحساسه بالكرامة الشخصية لا يطغى عليه إلاّ كرامة الأمة .

أكرم الحوراني في تصوري زعيم لم تتح له ظروف الستينات أن يُغني بفكره وعمله الجمهورية العربية المتحدة عندما قامت ، لأنها ظروف حكمت بإبراز العاديين من الرجال العسكريين والمدنيين على سطح المشاركة السورية في الوحدة بديلاً عن الزعامات الحقيقية القومية. هذا يسوقني في ما بعد إلى الوحدة وأفراحها ثم إلى الانفصال وجراحه ولكل حادث حديث .

يظل السؤال قائماً ، ماذا لو تحقّقت الوحدة بين الأردن وسوريا على الطريقة التي طرحها السوريون ؟ هل كانت ستنجح أم ستخفق؟

في اعتقادي بأنها كانت ستؤدي إلى استقرار في الحكم في سوريا وكانت تفتقر إليه ، وإلى انتظام في الجيش كان منعدماً لكثرة الانتماءات الحزبية والسياسية فيه . فسوريا في عهد الرئيس القوتلي كانت مزدهرة اقتصادياً ولكنها كانت نهباً لاتجاهات سياسية عديدة متناحرة قويّة وأضعفها جهاز الحكم وهيئة الدولة .

والوحدة لو قامت كانت ستؤدي إلى عودة الجيش السوري إلى مهمته الأساسية في الحفاظ على أرض الوطن وسيادة الدولة ، بدلاً من انسياقه إلى ازدياد في الانقسام الذي أصاب جسم مؤسسات الدولة بالضعف .

والأهم من ذلك كله تشكيل نواة الوحدة العربية في المشرق لتكون جاذباً للدول العربية الأخرى ، وتعزيزاً لقوة الصمود أمام إسرائيل وأعداء العرب .

بالنسبة للأردن تلك الوحدة المقترحة كانت تحقيق هدف التكامل الاقتصادي وأساس قوة عظيمة يمكن تشكيلها لتكفل التوازن مع العدو الإسرائيلي وانتعاش الأمل بتحرير فلسطين . تلك كانت الوسيلة الجدية الوحيدة لقومية المعركة الفلسطينية عملاً لا قولاً .

لكن المشروع المقترح لم تتكامل فيه عناصر القبول من الملك حسين ، لأن الأمر الطبيعي في مثل هذا الطرح المصيري يفترض قراراً من الحكومة السورية بالتفاوض مع الحكومة الأردنية استبعاداً لأية إشكالات داخلية في سوريا أو إساءة للعلاقات بين جلالة الملك وفخامة الرئيس.

لنعد إلى زيارة الرئيس القوتلي إلى الأردن وأبحاثه مع جلالة الملك وما تبادلاه من خطب ضمّناها سياسة الدولتين من مبادىء مؤسسة على نهج الوحدة وطريق التعاون لبلوغها ، انطلاقاً من واجب تحقيق أماني الأمة ومواجهة العدو الصهيوني . واستناداً إلى ذلك عكفت اللجان على وضع أسس التعاون الاقتصادي والثقافي ، كما نظم العسكريون اتفاقية عسكرية نموذجية توّجها جلالة الملك والرئيس القوتلي بتوقيعهما، ثم وقعها رئيسا الوزارتين توطئة لطرحها على مجلس الأمة في البلدين .

بريطانيا حاولت من خلال سفيرها الاستعانة بأحد رجال الدولة لإعاقة الاتفاقية العسكرية ، وكان فوزي الملقى وزير البلاط على علم بتلك المحاولة فأسرّها إليّ . فلما عرضنا الاتفاقية على جلالة الملك قبل الغداء في مستنبت الجبيهة قرب عمان ، وبحضور سعيد باشا المفتي رئيس الوزراء ، أثنى جلالته على الاتفاقية ، وكان سعيداً بما قرأه من بنود التعاون بين الجيشين . ولما حاول ذلك الرجل تأجيل الموافقة الملكية إلى حين عودته إلى الديوان الملكي امتعض جلالته من تلك المداخلة قائلاً له هذا ليس من شأنك فلا تتدخل . وخطا جلالته نحو الرئيس القوتلي قائلاً له : فخامة الرئيس دعنا نوقّع هذه الوثيقة التاريخية ونقدمها للحكومتين وللشعبين السوري والأردني ثمرة مباركة للقائنا ، فوقعاها .

تلك أيام لم يعِ العرب عليها في جميع أقطارهم كما وعيناها في الأردن والشيخ

الجليل يعانق الشاب العظيم والحضور تغالبهم دموع الفرح وبشائر الأمل الكبير . تلك أيام مثلى في لقاء الرضا والتراضي بين قائدين عربيين فلا قسر ولا تعالي ولا اعتبار إلاّ لمصلحة الأمة ، ولا تفاخر ولا تزاحم إلاّ بما يحقق القوة العربية .

واليوم وبعد ثلاث وثلاثين سنة من المشاركة في الأحداث العربية أو مراقبتها أذكر توقيع تلك الاتفاقية في حدائق الجبيهة كيوم فريد في حياتي ، شهدت فيه صدق القادة بأجلى صوره في أداء الأمانة القومية بحيث لا تشوبها ذرة من زخرف أو زيف .

رحم الله شكري القوتلي وأثابه على عظيم أعماله وأطال الله عمر الملك حسين وجزاه على إخلاصه وتضحياته لتحرير الوطن ووحدة الأمة .

التضامن السوري الأردني فتح الأبواب الواسعة للتعارف بين رجال السياسة في البلدين ، وكذلك أبواب التعاون بين الجيشين دون قيود أو حدود . أصبح التشاور بين قائدي الجيشين وأركانهما أمراً طبيعياً ، وكأنهما جيش واحد لا تمنعهم من التصارح أية حساسية ، فلا أسرار مكتومة ولا انتقادات ممنوعة .

كنا ندرك أن الجيش السوري يملك أسلحة أكثر فعالية من أسلحتنا في الطيران والدروع مثلاً ، وكان الجيش السوري يرى في الجيش العربي قوة متميزة في القيادة والتدريب والقدرة على سرعة الانتقال . كنا نتمنى لو مكنتنا قدرة الأردن المالية على تمنيع دفاعاتنا في المناطق الحيوية مثل القدس كما تمكن الجيش السوري في الجولان ولو ملكنا دبابات مثلهم ، كما تمنّوا لو كان الجيش السوري يملك فعالية جيشنا القتالية وسرعة حركته بما تمليه الظروف .

ولكن أمراً مهمّاً كان يختلف فيه الجيش السوري عن الأردني ، وهو موضوع حديث مستمر بيني وبين الزعيم شوكت شقير ثم أصبح موضوعاً حيوياً أثناء العدوان الثلاثي على مصر ، ذلك هو الانقسامات في الجيش السوري إلى انتماءات حزبية وشكليّة ركّزت عيونها على دمشق أكثر من تركيزها على كفاءة الجيش ، وكأنّما تحصينات الجولان تسمح للضباط القادة بترف العناية بالسياسة إلى جانب العناية بالجندية .

زيارة السعودية

في بداية شهر حزيران وجّه إليّ جلالة الملك سعود دعوة لزيارة المملكة العربية السعودية فاستأذنت من جلالة الملك حسين لتلبية الدعوة . فأرسل الملك سعود طائرته الخاصة لتنقلني والوفد العسكري المرافق إلى الرياض، كما رافقني الشيخ أحمد الكحيمي سفير السعودية في الأردن .

اصطحبت معي القائد محمود الموسى والقائد أديب القاسم قائد الحرس الوطني ، والرئيس قاسم الناصر والرئيس منذر عناب والملازم حسني شقم . وعند الوصول التقيت باللواء إبراهيم الطاسان رئيس أركان الجيش السعودي واللواء علي جميل رئيس التشريفات الملكية وأحد كبار موظفي وزارة الخارجية .

كان أول لقاء لي مع جلالة الملك سعود على العشاء في قصره وبحضور وزير الدفاع الأمير مشعل ، والمستشارين أبو الوليد القرقني وجمال الحسيني والشيخ يوسف ياسين ورئيس هيئة الأركان والشيخ أحمد الكحيمي السفير السعودي .

الملك سعود رحّب بي بحرارة للمسؤوليات الكبرى التي يضطلع بها الأردن في مواجهة إسرائيل وضرورة تعزيز الحرس الوطني . كان هذا نتيجة أبحاث السفير الكحيمي مع الملك كما فهمت في ما بعد ، وقد أبدى جلالته ضرورة مساندة الحرس الوطني من الدول العربية واستعداد السعودية لذلك .

أضاف الملك سعود قائلاً : « مشعل والإخوان سوف يتباحثون معكم في هذا الشأن فاعتبر نفسك في بلدك وبين إخوانك » .

طرحت على الإخوان السعوديين مبرّرات تعزيز الحرس الوطني ، مبيناً أن صمود الجيش الأردني إلى حين تحرك القوات العربية إلى ساحة القتال المؤثرة ، وبالأخص القوات المصرية والسورية والعراقية ، أمر ضروري .

وهذا لا يمكن ضمانه إلاّ بالحرس الوطني وبحجم خمس وأربعين كتيبة ، منها عشرون كتيبة قائمة باستمرار والكتائب الأخرى خاضعة لنظام نفير محكم .

وخلصت بالتالي إلى أن قائد الحرس الوطني القائمقام أديب القاسم مجهّز بكل تفاصيل حاجاتنا وبحسابات دقيقة لبحثها مع ضباط الأركان السعوديين .

في مساء اليوم التالي فاجأني الملك سعود بإبلاغي أنه طلب من الدول العربية إيفاد ممثلين عسكريين للمساهمة في أبحاثنا وأنهم سيصلون خلال يوم أو إثنين ، وبالفعل وصلوا من مصر والعراق وسوريا ولبنان وانعقدت الجلسات بحضور وزير الدفاع ومستشاري الملك .

الضباط الوافدون لهذا المؤتمر الذي سمّي بمؤتمر الرياض ، في ما عدا الضابط العراقي ، لم يكونوا يحيطون علماً كافياً بالجبهة الأردنية وحجم مسؤوليتها . الضباط جميعهم لم يكونوا يحملون في أذهانهم استراتيجية حرب عربية إسرائيلية .

كان الموضوع هو الحرس الوطني ولكنه تطلّب التوسع إلى أبحاث تربط مهمات

الدفاع الأردنية باستراتيجية عربية . وبالرغم من غياب أفكار كثيرة عن الصور العسكرية المختلفة للحرب المقبلة عند الضباط العرب ، إلّا أنهم كانوا من ضباط الأركان الأكفاء القادرين على استيعاب كل الطروحات بيسر .

لو قدّر الله لهذا الاجتماع أن يضمّ وزراء الدفاع ورؤساء هيئات الأركان العربية لكان فيه كسب عظيم للقضية العربية لما تطرقت إليه الأبحاث من قضايا عسكرية بحتة لا تختلط معها السياسة. فقد استغرق الموفدون في البحث والمناقشة الموضوعية، وقد أنستهم حرارة الموضوعات المطروحة اختلافات السياسة في العواصم التي ينتمون إليها

كنت أدير الجلسات في ما عدا الأبحاث التفصيلية لحاجات الحرس الوطني والتي عرضها العقيد أديب القاسم على خير وجه يساعده في الإعداد ضباط الوفد الأردني .

جمال الحسيني وأبو الوليد القرقني ويوسف ياسين زاروني سوية في حين كانت الوفود مجتمعة مع أديب القاسم ، فعرض الشيخ يوسف ياسين فكرة أثارت غضبي واستنكاري الشديد وقررت العودة فوراً إلى عمان ، إذ اقترح لجنة عربية للإشراف على الحرس الوطني . ولكن أبو الوليد القرقني (وهو أحد المحكومين بالإعدام من فرنسا) قرّع الشيخ يوسف ياسين بشدة . قال له : « أنت تكلم ضابطاً ثائراً على التبعيّة الأجنبية وعربياً ينشد نجدة العرب للدفاع عن القدس فاترك أحاديث التجار وإلا اتركنا معه واذهب » .

جمال الحسيني أخذ يعتذر لي وفرض الإثنان على الشيخ يوسف أن يعتذر بحرارة ، ولم يعد الشيخ يوسف يحضر أيّاً من الاجتماعات التالية .

كان أبو الوليد وجمال الحسيني وأحمد الكحيمي متحمسين للأردن وكأنهم ضباط في الجيش الأردني أو أعضاء في الحكومة الأردنية ، وقد عملوا في محاولات إقناع شديدة لبعض الضباط الموفدين للتأثير على حكوماتهم ليكون موضوع الحرس الوطني مسؤولية قومية .

هؤلاء والأمير مشعل والضباط الموفدون تأثروا وأيّما تأثّر بالحقائق التي وضعناها أمامهم والتي صورت عظم الثقل الدفاعي الذي تضطلع به المملكة الأردنية الهاشمية .

في بحث التكاليف المطلوبة للحرس الوطني وصلت التقديرات إلى سبعة ملايين دينار كحاجة سنوية في حالة الحرب ، وإلى أربعة ملايين ونصف المليون دينار

في حالة السلم . دعا الملك سعود ممثلي الدول الحضور إلى مساهمة حكوماتهم بهذه الكلفة إلى جانب السعودية ليتخذ الموضوع شكل التضامن العربي . ووعد الممثلون الضباط بنقل هذه الدعوة إلى الحكومات واعتذروا عن عدم صلاحياتهم لاتخاذ القرار .

وفي نهاية الأبحاث رتبت وزارة الدفاع للضيوف زيارة العمرة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، والتي سعدنا بها جميعاً تفاؤلاً ببركتها حيث غمرنا الخشوع وخاصة عند قبر نبيّنا العظيم وقبور صحابته الأجلاء رضي الله عنهم .

نسيت نفسي وقد تتابعت أطياف تاريخ فتح مكة المكرمة وانطلاق ألوية الرسالة العظمى إلى أقاصي الأرض لنشر الهدى والهداية . وفي الطريق إلى الفندق استغرقني التفكير في ما كنّا وما صرنا إليه أمة العرب والمسلمين وما أنا فيه من نشدان بضعة ملايين للدفاع عن المدينة المقدسة وما حولها .

عدت إلى عمان أحمل صكّاً بمئتين وخمسين ألف دينار من الملك سعود وسمّاها القسط الأول من حصة السعودية ، وقد شكرته لاهتمامه ، ولكني لم أعرف عن حصص الدول العربية وحصة السعودية وكيفية حسابها ، لأن الملك قال إنه سيتكفّل بكامل المبلغ إذا لم تدفع الدول الممثلة في المؤتمر حصصها .

لم أُثر موضوع الحصص بسبب الخجل وحده ، إذ قدّرت أن يتفاوض عليها الممثلون . وليس من الطبيعي أن أنزل إلى درجة الاستجداء وأنا القائد الذي يضطلع بأقدس مهمات جيوشهم ، ودولتي تتحمل أعظم قسط من نتائج النكبة الفلسطينية .

ذلك المبلغ كان أول وآخر ما وصلنا لفترة سنة كاملة، وكأنّما ينتظر مني أن أعاني من طرح درس جديد كل ربع سنة في الرياض أو غيرها على ملوك أو رؤساء وضباطهم من أجل ربع مليون. لقد أدركت أن التظاهر أساس في النظرة إلى دور الأردن وليس الحميّة القومية والمسؤولية الجدّيّة.

تماماً كما حدث بالإعلان الذي أصدره جمال عبد الناصر والقوتلي والملك سعود إبّان معركة حلف بغداد عن استعدادهم لدفع المعونة العربية إذا رفض الأردن الحلف . الأردن لم يرفض الحلف فحسب ولكنه دفنه في أرضه وفي مواجهة قوة عظمى باغية وحلفائها من العرب ، ولكن الاستعداد المعلن لدفع المعونة تبخّر في الهواء .

والأردن أنهى السيطرة البريطانية بمغامرة كان من الممكن أن تجهز على وجوده كدولة ، ولكن أصحاب الإعلان تظاهروا بربع مليون دينار دفعتها السعودية .

إذا صار الكلام عن فلسطين فجميعهم فداء لفلسطين وعندما تصل الأمور إلى الالتزام بالواجب لم نجد فيهم لفلسطين شيئاً ذا أهمية أو أثر . ومع ذلك فإن الحس القومي في الأردن والتصاقه القدري بالقضية الفلسطينية لم يسمح له بإغفال الأمل بالأمة العربية لأن الإغفال معناه التسليم لإسرائيل .

الشعب في الضفتين آمن بأن الأردن عندما يتحرّر من بريطانيا سيجد نصرة عارمة من العرب ، وكذلك الحكم بدءاً من قمته إلى أصغر مسؤول فيه . ولو عرف الأردنيون بقصة الربع مليون دينار لبلغت خيبة أملهم درجة اليأس وهو الذي يدفع كل أسبوع من دم أولاده في الاشتباكات المستمرة على الحدود مع إسرائيل . لذا فقد كتمنا صيحة في الأمة إشفاقاً على معنويات الصامدين في الخنادق من جنودنا والمشتعلة ضمائرهم إيماناً بوحدة العرب القومية .

كنّا نعلم أن معظم الدول العربية تنكر على الأردن وحدة الضفتين ، ولكننا نعلم أن تلك الوحدة كانت الحافظ الوحيد لقوة الدفاع عن الأرض ولم يكن عند أي فلسطيني أو أردني استعداد للتخلي عن تلك الوحدة.

فالجيش الأردني لم يكن محتلاً كما وأن الضفة الغربية لم تكن مغنماً خلافاً لما صورته الدعاية الجاهلة العربية لحقائق حرب ١٩٤٨ ونتائجها . والفلسطينيون لم يكونوا في الدولة الموحّدة رعايا مستعمرة ، بل كانوا أساساً في الوحدة وأشدّ اعتقاداً بها بحكم حدّة شعورهم القومي الذي ميّزته ضرورات البقاء في وجه الهجمة الصهيونية العاتية .

فإذا كانت العروبة في بعض الأقطار العربية أحلاماً جميلة وأمنيات ينشدونها ، فقد كانت قياساً للجدية الأردنية والفلسطينية في اعتناقها ترفاً لا تهيجه نار المواجهة اليومية مع إسرائيل.

ليس من يفصله عن أخيه أو أبيه أو أخته سلك شائك أو حدود هدنة مشتعلة بالنار مثل الذي يحيا مع أهله وأقاربه في أمن تفصله عن النار مسافة . وليس من يرى ابنه في مواجهة العدو ساعات الليل والنهار كمن تفصله مئات الكيلو مترات عن العدو نفسه .

لو كان الأمر مقتصراً على صراع أردني إسرائيلي فحسب لكان الحساب مختلفاً ، إلّا أن العدو كان الصهيونية وحلفاءها العظام ، وليس من حليف للأردن في المواجهة اليومية غير عرب نيام عن الصراع يهرفون بما لا يعرفون .

قال العرب : بريطانيا سلّحت اليهود ونزعت أصغر الأسلحة من الفلسطينيين كي

تقوم إسرائيل. هذا قول حق ولكن ما قولهم عندما أردنا أن نقيم خمساً وثلاثين كتيبة حرس وطني من الفلسطينيين وعشر كتائب من الأردنيين نحيلها جميعاً تدريجياً إلى قوات نظامية مكتملة القدرة. لقد قالوا عيباً إذا اعتبرنا حصيلة القول في مؤتمر الرياض والذي لم يكن يفيد بأي مقدار ما اجتمع ست دول من أجله، فقد جمع الفقراء من الشعب الأردني أكثر من ربع مليون دينار في يوم الحرس الوطني.

لقد تبرّعت بعض الفلاحات بأساورهن وخواتمهن وصغار التجار والموظفين، ومن المجدي أن نذكر أن بدوياً من بني حسن تبرّع بعباءته وهو يقول «والله لو عندي غيرها ما تأخّرت عن دفعه».

إذا قارنا حمدي منكو وإبراهيم منكو اللذين موّلا سرية لفترة الحرب كلها وهما من كبار التجار آنذاك ولا يقارن مالهم بمال أي الأغنياء في أيامنا هذه التي عرفت طفرة غنى عظيم؛ وقارنا صاحب العباءة من بني حسن والنساء ذوات الأساور وذوي التبرعات الصغيرة في مدن الضفتين بعد ثماني سنوات من الحرب بحصيلة مؤتمر الرياض، لعرفنا التقصير العربي المذهل والتصور العربي المفجع لمسألة الدفاع عن الأرض المقدسة في فلسطين.

هذا وصف تمنيت لو لم أطرحه لأنه يهدر كبريائي العربية مع أنه يصيب الحكومات دون الشعوب، ومصيبتنا نحن العرب كانت وستظل في حكوماتنا وخيرنا في شعوبنا التي كُبح جماحها. هذا الوصف لا محيص عنه لتعرف الأجيال الجديدة وتتعرّف على أسباب عجز جيلنا عن بلوغ الأماني، لتولد الأجيال وقد تراكمت الأعباء عليها سلفاً ولا يطالنا إلّا استفسارات جارحة نستحقها واتهامات لا نملك لها دفعاً.

بدأ بعض السياسيين وهم قلة في عمان يشكّكون في التضامن العربي، منهم من يصدر رأيه عن حرص ومنهم من يصدر عن عمالة للمستعمر وهؤلاء كانوا الأقلية. ولكن الملك أظهر التفاؤل قطعاً للطريق على كل مغرض، علماً بأن نتائج الرياض كانت أكثر إثارة للقلق والمخاوف منها باعثاً إلى الارتياح والأمل بعد انتهاء المعاهدة البريطانية التي كانت محور العمل الوطني الأردني في تلك المرحلة.

هنا لا يملك الإنسان من إكبار الإيمان بالأمة العربية الراسخ في ضمير الملك والأردنيين، واحترام الإرادة الصلبة التي لم تهزّها شكوك في معونة العرب مع ظهور أسباب كافية تؤكد الشك.

الملك حسين كان يرى الضمانة في التكافل العربي في تصريحات رؤساء دول

ثلاث متكرّرة وفي بديهية مساندتهم للأردن كي يظل رأس الحربة في مناجزة العدو على الحق العربي . وأنا كقائد للجيش العربي لم أكن أتصوّر وسيلة كبح للمطامع الصهيونية وتحرير للأرض المغتصبة إلاّ بجمع عناصر القوة العربية وتكاملها عسكرياً ومالياً .

أما مؤتمر الرياض الذي فاقت ظواهره نتائجه المتواضعة ، فقد اعتبرناه مع بعض المكابرة خطوة لا تحكم بالضرورة بتماثل خطوات المستقبل معها.

زيارة العراق

كلمني الملك حسين أن العراق عاتب لأنني تأخّرت عن زيارته ، وأبدى رغبة في انتهاز أول فرصة للقيام بتلك الزيارة، لا لأنه يرى فيها مصلحة تتحقق وإنما احتراماً لدولة العراق وابن عمه الملك فيصل الذي كان يكن له حبّاً عميقاً .

وتلبية لرغبة جلالته ذهبت إلى بغداد في ١٣ / حزيران ١٩٥٦ ، ومعي الزعيم راضي الهنداوي ووكيل القائد محمود المعايطة والرئيس غازي عربيات.

في مطار بغداد استقبلنا اللواء رفيق عارف رئيس هيئة الأركان ومجموعة من الضباط ، وبعد أن استعرضت حرس الشرف وتوجّهنا إلى السيارة وقعت لي مفاجأة أزعجتني أيّما إزعاج . تقدم إليّ ضابط بريطاني برتبة عقيد هو الملحق العسكري البريطاني وأدى التحية وتكلّم ليرحب بمقدمي . قلت أنا في بغداد ولست في لندن وليس لك مكان في استقبالي .

تأثر رفيق عارف وقال : « خطيّة ، يريد الترحيب بك » . فقلت له وأين الملحقون العسكريون العرب ؟ نحن خلصنا من البريطانيين في عمان لأجدهم في بغداد ؟

وهذه الحادثة التي بدت صغيرة « كانت مرتبطة » بحادثة أخرى تبعتها تفسر نهجاً سياسياً جديداً تولاّه نوري السعيد بالنسبة للأردنبالاتفاق مع بريطانيا . إلاّ أنه كان نهجاً مرفوضاً من أساسه وفجاً في أسلوبه .

استرحنا ذلك النهار حتى المساء لنحضر حفل عشاء أقامه وزير الدفاع نوري السعيد في بلدية بغداد حضره الوزراء والأعيان والنواب وبعض العسكريين . وفي اليوم التالي اجتمعنا مع هيئة الأركان وضباطه وبدأنا في المناقشات .

سياق الحديث دلني أن العراق يفكر في إرسال جحفل لواء واحد لنصرة

الأردن ، ولكنني رفضت وطالبت بفرقتين بسبب عدم جدوى جحفل اللواء في التأثير على الحرب . وأخيراً اتفقنا على فرقة واحدة واختلفنا على توقيت وصول الفرقة .

اللواء عارف يريد مني إنذاراً مسبقاً عن الحرب وكأنني أحكم توقيته وهذا غير وارد ، ويريد كذلك مهلة لتكديس الذخائر والوقود والمؤن على الحدود العراقية الأردنية وداخل الأردن بعد الإنذار . وهو مستعد فقط لإرسال ضباط استطلاع على جبهة الجيش الأردني وضباط إدارة لتعيين مواقع التكديس خلال أسبوعين من حديثنا هذا .

أنا أعرف كفاءة الجيش العراقي في ١٩٤٨ ، وقادر على تقدير التقدم الذي وصل إليه التجهيز للحركة السريعة . وفوق هذا أعرف أن الضباط العراقيين قادرون على إجراء التكديس متزامناً مع حركة القوات بحيث يتواجدون في الضفة الشرقية خلال أسبوعين من حديثنا .

كنت أكلم قائد الجيش العراقي في مناقشاتي ولم أكن أناقش سياسة نوري السعيد ، بينما كان اللواء عارف يُخضع التفكير العسكري والخطط لسياسة نوري .

أثناء تطرق اللواء عارف لتعاوننا مع سوريا ومصر ليعرف ماهيتها ويحطّ من أهميتها ، ويطالب باعتبار المعاهدة الأردنية العراقية متميزة ولها أولوية على اتفاقيات بيننا وبين مصر وسوريا، أوضحنا له عزمنا على التعاون العسكري مع سوريا ومصر، وقلنا له إننا عند وقوع الحرب سنرى على أرض الواقع أي الدول الثلاث أسرع وأعظم فعلاً ، ولذلك فإننا في الأردن لا نركن إلى الغيب والنيات فلسنا منجّمين .

أثار موضوع كيفية التنسيق بين الدول الأربع عسكرياً في حين أن العلاقات العراقية السورية والعراقية المصرية ليست على ما ينبغي ، فأوضحت له أن العلاقات بين الجيوش يجب ألا تحكمها سياسة الخلافات ، وأنا بصفتي قائد الجيش الأردني مسؤول عن قيادة أية قوات عربية تتواجد على أرض الأردن حربياً وعن تناسق حركات تلك القوات مع اعتبار وحيد لا اعتبار غيره وهو قتال العدو .

سبق وأن ذكرت جهل الجيش الأردني بالجيش السوري تنظيماً وتجهيزاً ، ولكني على أساس احتمال تواجد قطعات من الجيشين كنت أعلم أن الجيش العراقي أكبر حجماً ، ومن هنا فهو قادر على المساندة الأكبر لنا . وأعلم أيضاً أن الجيش العراقي متميّز في خبرته ودربته على الجيوش العربية كافة . وفوق ذلك كله فإن أي

قطعات عراقيةتتواجد بإمرتي سوف يتميّز بلاؤها في مواجهة العدو بحكم تكامل متطلبات القتال لها .

لهذا وبالرغم من التواء سياسة نوري السعيد فقد تجملتُ بالصبّر في أبحاثي مع قيادة الجيش العراقي ، إلى درجة أخرجتني عن طبيعتي حينما يساورني الشك في صدق مخاطبي وقد ساورني من أول جلسة .

تباحثت مع راضي الهنداوي وهو ضابط متأنٍ وتصعب إثارة انفعاله عن انطباعه عن أحاديث الجلسة ، فوجدته غير مقتنع بأن العراق جادّ في ما نحن بصدده ، ولكنه نصح بأن استمر في الجدال العقيم لعل الأمور تتّضح في الأيام التالية للزيارة .

في الجلسة التالية ازداد الأمر وضوحاً ، إذ استمر اللواء رفيق عارف في البحث على أساس جحفل لواء واحد مع استمراره بالإشارة إلى تناقض المعاهدة العراقية الأردنية مع أي اتفاقات مع سوريا ومصر . وبمعنى آخر يريدني أن أدير ظهري لتلك الدولتين وهما دولتا مواجهة مقابل أن يعزّزني بجحفل لواء واحد ربما ألحق به لواء آخر حسب سير الحرب .

هنا كان لا بدّ من موقف حازم وقد اتخذته بقولي : إذا كان مفهوم المعاهدة العراقية الأردنية عندكم هو ما تعرضه فنحن لا نريد هذه المعاهدة التي تفسرونها على هواكم . أنا جئت بدعوة حكومتكم وعندي من المهمات والواجبات ما يغنيني عن إضاعة الوقت ، وأنا هنا لأذكّركم بواجب قومي أهم من كل الاعتبارات السياسية ، فإما استجابة منكم لما هو مفروض فيكم وإلاّ فإن الاستمرار عبث وسنكتفي من الزيارة بالمجاملات .

مساء ذلك اليوم أقام وزير الدفاع نوري السعيد حفل عشاء في نادي الضباط حضره السلك الدبلوماسي كله ، وأخذني نوري السعيد إلى ركن جلسنا فيه واستدعى المهيب صالح صائب الجبوري وأحمد مختار بابان ، وكلاهما وزير في حكومة نوري السعيد ، ثم نادى مرافقه وطلب إليه دعوة السفراء والملحقين العسكريين البريطانيين والأمريكان ليشاركونا الجلسة فحضروا ونساءهم .

يقول نوري ، هؤلاء فيهم الخير والمساعدة والأردن حاجاته كثيرة ، أمّا العرب فلا تنتظر منهم شيئاً، إسمع مني أنا أكثر خبرة منك وأطول تجربة.

قلت له ، نوري باشا : بالرغم من كل ما تقوله فأنا أفضّل العرب وأستأذنك فإني تارك هذه الجلسة لأتحدث مع العرب .

اعترضني سفيرنا عبد الله زريقات يستفسر وكأن كارثة وقعت . فقلت له « لاتهتم فالأمر لا يخرج عن أني لم استظرف جلسة يحيط بي فيها الأجانب ويُستبعد عنها العرب » . والتقيت وأنا أسير مع سفيرنا بالزعيم ناجي طالب الذي سعدت برؤيته فدار بيننا حديث قصير قطعه اللواء عارف واللواء حسيب الربيعي .

قلت لعارف : طالما وأن أبحاثنا تعثَّرت فلا أقل من أن تهدي الزعيم ناجي للجيش الأردني.ولكن عارف استعدّ أن يهديني غيره فأصررت إمّا ناجي أو لا أحد. أردته لقدرته العسكرية الفذّة فلم أستطع الحصول على ضابط من الجيش العراقي .

في صباح اليوم التالي أخذنا إلى مكتب نوري السعيد في رئاسة الوزراء ليسمعنا الأسطوانة إياها . مقارنة بين الأجانب والعرب . فلما لم يفلح بإقناعي تحوّل إلى رغبته في مساعدة الأردن بأسلحة يوصلها إلينا خلال شهر بقيمة مليون دينار . وأصرّ أن أكتب إليه شخصياً وبغير الطريق الدبلوماسي إذا لم تصلني الأسلحة في المدة المقرّرة ، وأنه سيشتريها من بريطانيا في زيارته لها بعد غد .

حدث ليلتها أن أصابني التيار البارد من جهاز التبريد في غرفتي بعد عودتنا من جولة في طقس حار جداً ، فأصابني شلل نصفي . فطلب الزعيم راضي الهنداوي من مدير الاستخبارات العسكرية العراقي إرسال طبيب على وجه السرعة . وتكرّرت المكالمات ولم يصل الطبيب الموعود والضباط جلوس حولي يتناوبون الخروج إلى مدخل الفندق انتظاراً للطبيب حتى بعد منتصف الليل .

لاحظ مدير الفندق السويسري الجنسية وضعاً غير طبيعي وما إن علم بالأمر حتى جاء بزوجته التي كانت ممرّضة في وطنها ، فمزجت شاياً حاراً مع الروم في كأس كبيرة وجرّعتني إياه ثم غمرتني بالأغطية وأطفأت التبريد . صحوت وقد تبلّل الفراش من عرقي لأجدهم يغالبهم النعاس على الكراسي ، فطلبت مني السيدة تحريك ذراعي ورجلي ففعلت وقد مَنَّ الله عليّ بالشفاء ، له الحمد والشكر.

كان مقرراً أن نجتمع مع اللواء رفيق عارف وأركانه صباح ذلك اليوم فنهضت وغازي عربيات يحتج ومحمود المعايطة يزمجر ويلعن . وذهبنا للاجتماع فلم نجد عند المدخل من يستقبلنا حتى جاء الرئيس أول صالح مهدي عماش راكضاً إذ فوجىء بوصولنا قائلاً : « أنا آسف إن لم أحضر إليكم اليوم فقد أُبلغت أن هذا اليوم راحة » .

أخذنا صالح مهدي إلى قاعة الاجتماعات ، وما هي إلاّ دقائق حتى حضر رفيق عارف ومدير العمليات ومدير الاستخبارات العسكرية متظاهرين بأنهم كانوا في اجتماع

وقد سرقهم الوقت . عجبت كيف يتفق هذا التظاهر مع قول صالح مهدي ولكني تظاهرت بعدم الفهم والاكتراث .

بدأ رفيق عارف يتحدّث عن اهتمام نوري باشا بمهمة الوفد الأردني وعنايته بقدرة الجيش الأردني في الدفاع عن الأرض ، وأن العراق سيحمل حقه من المسؤولية تجاه الأرض العربية، ولكن نوري باشا يتساءل عن إمكانية الاعتماد الأردني على العراق بحكم المعاهدة وإغفال سوريا ومصر.

وذهب إلى القول هذه أفكار للبحث إلى جانب بحث حاجة الأردن من القوات العراقية والتي يمكن إعادة النظر في حجمها على ذلك الأساس .

هنا انفجر غازي عربيات في وجهه قائلاً : قائد الجيش الأردني الذي تزعمون أنكم ستساندونه أصيب ليلة أمس بشلل نصفي وتمنّيتم أن يموت دون إسعافه بطبيب ، من يصدّق أنكم ستسعفون الجيش الأردني حتى لو فني عن آخره ، نحن لا نصدّق أحداً فيكم .

أخذ رفيق عارف يلوم مدير الاستخبارات العسكرية والمدير يلقي اللوم على الطبيب والمستشفى العسكري ، وكانت تمثيلية أطفال مضحكة لا تليق بالعراق وجيشه وإن لاءمت نوري السعيد ورفيق عارف.

أنهيت الجلسة بقولي « إذا كانت الحكومة العراقية تحترم جيشها وشعبها وواجبهما القومي فسنراكم في عمان، وإلّا فلا بدّ من الاعتراف بأننا فشلنا في ما جئنا من أجله » . نهضنا وأبلغناهم بأننا مسافرون غداً صباحاً .

عدنا إلى الفندق وأبدلنا ملابسنا العسكرية بمدنية ونزلنا إلى السوق ومعنا صالح مهدي عماش الذي كان مرافقاً لي منذ وصولي ، وقد ارتسمت على وجهه علامات الحزن والأسى البالغين ويكرّر الله كريم ، الله كريم .

توجّهنا في صباح اليوم التالي إلى المطار فصادفنا نوري السعيد على طريق سفره إلى لندن ، وبينما هو يعيد الوعد بإرسال الأسلحة جاءني الطيار محمّد نور ليقول إنه جرّب الطائرة فوجدها غير صالحة ويعزو السبب إلى احتمال اختلاط الوقود بمادة غريبة . قلت لنوري باشا بين مازح وجاد ، هل وصل الأمر إلى تخريب طائرتنا ، فضحك ونادى قائد سلاح الجو وأمره أن يعدّ طائرة لنقلنا إلى عمان .

فقلت له : أنا أقبل شريطة أن يقودها قائد سلاح الجو ، وهكذا كان وعدنا إلى

عمان نحمل معنا تجربة جديدة تُضاف إلى تجربة الرياض وإن كانت من نوع مختلف .

أصبحت معنياً بتفسير الموقف لأهميته البالغة في مجمل تقديراتي للصراع العربي الإسرائيلي من ناحية والاستراتيجية الحربية من ناحية ثانية . ووقفت عند أحد تفسيرين :

الأول : احتمال قيود مفروضة على استخدامات الجيش العراقي من حلف بغداد .

الثاني : محاولة حكومة العراق عزل الأردن عن سوريا ومصر والسعودية بما يؤدي إلى محور عراقي أردني .

ولكن الوثائق البريطانية التي نشرت مؤخراً كشفت كثيراً من المسائل بحيث أجابت على التساؤلات والتي تدخل في نطاق التفسير الثاني .

الوثائق تقول إن بريطانيا حاولت أن تثير اهتمام أمريكا بالأردن لتحلّ بمساعداتها محل بريطانيا ، ولكن دون استجابة أمريكية سببها الخشية من إثارة شكوك إسرائيل بها . وتقول أيضاً إنها حفزت نوري السعيد ليتعامل مع الأردن بمبادرة عراقية تشترك فيها بريطانيا بسدّ جزء من التمويل المطلوب للجيش الأردني وتتعهّد العراق بمعظمه ، والغرض هواحتواء الأردن وإبعاده عن مصر وسوريا .

وتقول الوثائق أيضاً إن سفير بريطانيا كلّف بخلق علاقات أفضل مع علي أبو نوار .

الخطوة العراقية الأولى كانتدعوة من ولي عهد العراق للملك حسين للقاء به وبأعضاء من الحكومة العراقية في محطة الأجفيف قرب الحدود العراقية . وفعلاً حصل اللقاء وعاد جلالته من الاجتماع ناقماً على نوري السعيد لما طرحه من أفكار مرفوضة وأسلوب ممجوج اعتبرها الملك حسين تدخلاً في السيادة الأردنية واتجاهه القومي .

الخطوة البريطانية التالية كانت زيارات من السفير البريطاني لي في مكتبي واستجابات لبعض حاجاتي من الذخائر والمهمات الدفاعية ، مع إعلانه بضرورة التعايش مع الواقع الأردني الجديد بالرغم من الجرح الذي أصاب بريطانيا . عدا عن استمزاجي لزيارة لندن إذا وجهت حكومته دعوة لي بذلك ولم أرفضها .

الخطوة الثانية العراقية كانت الدعوة لزيارتي بغداد للبحث في المعاهدة العراقية

الأردنية ، والتي لم تعطِ نوري السعيد أملاً في بلوغ أهدافه كما ذكرت .

ولكن الوثائق البريطانية تدلّ على أن نوري السعيد طلب من الحكومة البريطانية قرضاً قيمته خمسة ملايين جنيه استرليني ، تسدّده على مدى سنوات عديدة كي تستعمله في نشاطات إعلامية في لبنان وسوريا بأمل تغيير الوضع في سوريا .

فإذا نظرنا إلى الأسلوب الذي سلكه نوري ورفيق عارف في البحث معنا في بغداد يُظهر لنا بأنه أعطى اهتمامه الأول للعمل في لبنان وسوريا . ربما كان ذلك صادراً عن اعتقاد أن أي تغيير في سوريا سيجعل احتواء الأردن نتيجة طبيعية خاصة وأن أصدقاء نوري ومحبذي سياسته في سوريا كثيرون .

بالتالي فإن خلاصة الاختلاف على الأولويات بين بريطانيا ونوري السعيد لم تسقط التعاون المبدئي بينهما على سوريا والأردن . إلاّ أن شيخوخة العقل البريطاني وعجزه عن إدراك المعطيات الجديدة في العالم الثالث لم يعوضه خروج نوري السعيد على أماني العراقيين والعرب والاتجاه العالمي للتحرر من الاستعمار .

كان حقد بريطانيا وفرنسا على عبد الناصر لايوازيه إلاّ حقد نوري السعيد ، ومن هنا كانت علاقة نوري ببريطانيا تتميز عن اعتبارها لبعض رجال الحكم البريطاني .فاقتناعها بحنكته وقدرته على تغيير اتجاه المشرق العربي كان غريباً، في حين أنه لم يكن قادراً على إقناع معظم العراقيين بسياسته ولجوئه إلى سياسة القمع الشديد لمواجهة التيارات المعادية .

الكراهية لنوري السعيد كانت أحد أكبر العناوين الشعبية والرسمية في المشرق وكثير من دول المغرب ، ومع ذلك كانت ثقة بريطانيا به تثير العجب والاستغراب ولا يوازيها إلاّ إخلاص نوري لسياستها وهي في دور التآكل في العالم كدولة عظمى وإمبراطوريـة.

تآكل الإمبراطورية بسبب الحركات التحررية والطموح الأمريكي للحلول مكانها حرّك تنافسات بين دول المعسكر الغربي نفسها من ناحية ، كما حرّك صراعاً بينها مجتمعة وبين الاتحاد السوفييتي من ناحية أخرى كانت سخونته تختلف في كل منطقة من العالم عن غيرها .

هكذا انقسم العالم بين كتلتين وأصبحت الدول الصغيرة ضعيفة الاستقلال، مجالاً للحرب الباردة ، بين ما سمي بالعالم الحرّ وتتزعمه أمريكا والشيوعية العالمية وتتزعمها روسيا .

فالمعسكر الغربي بمحصلة اتجاهاته استعماري حتى وإن تظاهرت أمريكا بمجافاتها للاستعمار القديم ومراعاتها لمطالبات الدول الصغرى بالاستقلال . ففي حين لجأت دول الاستعمار القديم إلى القوة وسيلة لإخضاع الشعوب، طرحت أمريكا نظاماً جديداً يعتمد على حركة رؤوس الأموال وتحكمها اقتصادياً في دول العالم الثالث بما يضمن تبعيتها . ولكن أمريكا اضطرت إلى استخدام القوة أحياناً والتآمر أحياناً عندما سخّنت الحرب الباردة في مناطق آسيوية وأخرى في أمريكا الجنوبية . وأبرز الأمثلة كانت الحرب الكورية والحرب الفيتنامية .

منطقة الشرق الأوسط ، بما فيها الدول العربية ، شكّلت في هذه الحرب الباردة استراتيجية الصراع بين الغرب والشرق ، بسبب الثروة البترولية التي يخشى الغرب عليها من استقلال أصحابها بها ومن التسلل السوفيتي إليها ، فضلاً عن أنها منطقة وصل بين قارات ثلاث تؤثّر أحداثها السياسية في بعضها البعض .

دول الاستعمار القديم اطمأنت إلى استمرار سيادتها على المشرق العربي إلى أن ظهرت مصر بوجهها واتجاهها الجديدين ، وجهها العربي واتجاهها التحرري من الاحتلال البريطاني والمصالح الأوروبية المستغلة لاقتصاد مصر الوطني . وبهذا ضربت مصر إسفيناً في مخططات الغرب الهادفة إلى المحافظة على السيطرة وتوجيه العرب إلى معاداة الاتحاد السوفييتي .

لم تكن مصر الثورة قد رسمت سياسة عدائية للغرب أو مشايعة للاتحاد السوفييتي ، بل على العكس من ذلك فإنها قصدت التعايش مع الغرب بإرادتها الحرة . هذا يفسّر محاولات مصر للتعاون الاقتصادي مع الولايات المتحدة الأمريكية إضافة إلى محاولة سدّ حاجاتها العسكرية من أمريكا .

لقد كان هذا التعاون ممكناً بصورة أو بأخرى بين مصر وأمريكا ، بل وبين الدول العربية جميعها وأمريكا ، على أساس من الحياد الإيجابي لو لم تكن إسرائيل تكوّن محور السياسة الأمريكية في المشرق العربي .

دول الغرب وأمريكا منها ترى في إسرائيل قاعدة لها تساعد على تثبيت وجودها وضمان مصالحها ، وفي مقدمتها تبعية العرب للغرب تبعية تصل إلى إنكار الذات هوية ومصلحة ، في حين أراد العرب علاقة صداقة مع الغرب مع تأكيد الذات وضمان المصلحة .

لهذا فإن مصر لم تجد طريقاً تسلكه إلاّ الطريق الوعر والمتاعب بمواجهة الغرب

ومصادمته ، والاتجاه إلى الاتحاد السوڤييتي ومعها سوريا التي سبقت إلى الحصول على السلاح الروسي .

إذا كانت مصر وسوريا اتجهتا إلى الاتحاد السوڤييتي لاكتساب مصادر قوة لهما ، تعذّر عليهما اكتسابها من الغرب ، فإنهما لم تفعلا ذلك نكاية بمقدار ما ألحّت عليهما به الحاجة الحيوية اقتصادياً لمصر وعسكرياً لكليهما .

وافتراض إنكار مصر وسوريا لحقّهما في استكمال مقتضيات السيادة كما أراد الغرب ، إنما هو إمعان في الاستبداد إلى حدّ طلب ارتكاب المصريين والسوريين الخيانة بحق أوطانهم وحقوقهم المشروعة .

وطبيعي ، وفي الظروف التي وصفناها أن يتوحّد الوطن العربي على إرادة التحرّر والتحرير أو أن ينقسموا تحت أعلام وشعارات من صنع الأجنبي .

الاتحاد السوڤييتي دولة عظمى لها مصالح استراتيجية سارت في سبيل تحقيقها بتشجيع الأحزاب الشيوعية في العالم ، غير أنه وفي الوقت نفسه اعتبر مساندة حركات التحرر من الاستعمار واجباً تقتضيه مصلحتها وإن لم تكن الحركات شيوعية .

وطبيعي أن تلتقي مصالح دول العالم الثالث النازعة إلى الحرية مع رغبة الاتحاد السوڤييتي في تقليص قوة الغرب في العالم . وبهذا دخلت الدول العربية الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي ليتّهمها الغرب بمحالفة الشيوعية العالمية دون أي اعتبار إلى طموحات العرب القومية .

بالنسبة للغرب كان خروج أي شعب عن إرادته وفروض طاعته بمثابة الخروج على سنن الطبيعة البشرية أو الانتفاض على قدسيات الإنسانية . فجشعه للسيطرة على موارد ثروة دول العالم الثالث دفعه لطرح نظريات إجرامية في محتواها ومؤداها تفرض حتى على أشد الشعوب استسلاماً محاربتها بحد السلاح .

الكرامة الإنسانية عند الغرب هي كرامة مجتمع الاستعمار والاستغلال المؤسسة على ذلّ المجتمعات المستعمرة .

لهذا كان الانقسام بين الدول العربية الناهدة منها إلى الحرية والمستسلمة منها إلى المستعمر . ومن هنا كان نوري السعيد عميلاً بريطانياً لاتغنيه قناعاته الفاسدة لتحويل العرب عن أمانيهم . ومن هنا كانت مصر وسوريا والأردن تشكّل مثلث الخطر في المشرق العربي على الاستعمار وإسرائيل .

ومن هذا المنطلق صعب علينا في بغداد التوصّل إلى تطبيق المعاهدة الأردنية

العراقية والعمل بها لما يعزّز الأهداف القومية في مواجهة الأهداف الاستعمارية والصهيونية . لأن حلف بغداد الذي ضمّ العراق عزله عن مهماته العربية التي تمسّك بها شعبه وتحمّل من أجلها القهر والعسف من حكومة نوري السعيد .

هنالك من قال بأن نوري السعيد عميل لبريطانيا . وهنالك من قال بأنه ذو اجتهاد وقناعة . مهما كان أمره فإن قبول الانتماء للأجنبي بقناعة أشد كفراً بالأمة من عمالة عن جهالة أو طمع . والمعذّرون عن نوري وأمثاله في العراق والوطن العربي كله لا يختلفون عنه إلاّ بالافتقار إلى سلطته ليعملوا عمله .

نحن لا نصدر في حكمنا عن كراهية للإنسان أياً كان موطنه ، ولكن عن كراهية للإنسان الذي يصادر حقوق الآخرين تحت أي علم أو إعلان .

والعراق الذي يمثّل للمشرق العربي العدد والعدّة والثروة والحماسة العربية حُرف عن مسيرته الطبيعية ، ليصير إلى قوة معيقة في وجه السيادة العربية على مصير الأمة ومقدراتها في فترة حاسمة من تاريخنا .

لو كان العراق حراً في اختيار طريقه لكنّا في أيامنا هذه نرى للعرب موقعاً غير الذي نراه ، ولسهل على الأجيال اتباع نهج واضح المعالم . ولكن حرمان العراق من حرية اختياره وتوجيهه لمقاومة التيار العربي القومي شجّع الكثيرين من الحكومات إلى اتخاذ موقف العداء لما زعموه من شيوعية عربية وهم كاذبون ، أو اتخاذ موقف النفاق السهل بين الحرية ومتطلباتها الغالية وبين التبعية ومغرياتها الرخيصة .

وما كان التركيز على معاداة عبد الناصر إلاّ تقليلاً من عظمة الحركة القومية التي كانت تنتظر الانفجار الذي صنعه عبد الناصر ورفاقه المصريون في مصر ، لتلتقي شعوب وقادة مع ثورته على طريق العمل النضالي لإعادة المجد والعزّة للأمة .

عبد الناصر كان عربياً عظيماً ولكنه لم يكن كل العرب ، كان رجل الساعة المنتظرة وليس كل رجالها . وثورة مصر طليعة الثورات ونصيرتها وليست كل الثورات . ومكان عبد الناصر مع كل إخفاقات الأمة سيظل عامراً بذكراه بالرغم من خلفائه الذين باعوا ثورته ، فلم يرعوا له ولها عهداً وأنكروا أمتهم فلم يحفظوا لها فضلاً . وللحديث في هذا بقية .

والواقع المرير لأمتنا الآن لا يثبت نظرية أو منهجاً يصلح بديلاً عن نظرية الثورة العربية وعوضاً عن منهجها ، مهما ذهب ضعفاء الإيمان بسفسطائيتهم في تلك الأيام بالابتعاد عن الحقيقة .

الأردن اختار الطريق الصعب وفي تصوّره السياسي التحام كامل في القضية الفلسطينية واقعاً وأملاً ، وفي تصوره الاستراتيجي أنه يشكّل منطقة الحشد والانطلاق العسكري العربي نحو قلب إسرائيل ومقاتلها .

سنة ١٩٥٦ كانت حساباتنا العسكرية تقدّم لنا معطيات الانتصار كاملة إذا اجتمعت الإرادة العربية في المشرق على حشد الجيش العراقي والسوري والسعودي في الأردن ، وحشد الجيش المصري في وسط فلسطين لمعركة حاسمة لا تعطي الفرصة للتدخلات الدولية .

وإسرائيل عندئذ لم تكن قادرة على مواجهة تلك الجيوش إذا ما أعدّ العرب كل جهدهم العسكري والمادي لتلك المعركة بما فيها استعمال البترول كسلاح .

وبدون الأردن أرضاً وجيشاً قادراً فإن الجليل وسيناء تمثلان عائقين كبيرين أمام استثمار التفوق العربي على إسرائيل . ولكن الحكومات العربية التي اقتنعت ، كما اقتنع قادتها العسكريون بهذه الحقيقة ، لم تفعل شيئاً ذا بالٍ لأسباب تختلف فيها الواحدة عن الأخرى كما سيظهر بوضوح أثناء بحث العدوان الثلاثي .

أقول هذا وأنا أقصد أن ينتبه جيل المستقبل لما كنّا نراه وليس له خيار إلاّ أن ينتبه إليه ، لأن الصراع العربي الاسرائيلي لن ينتهي كما تتصوّر الغالبية العظمى من العرب في هذه الأيام ، بل سيعود بأشدّ مما كان عليه في الأربعينات حتى الثمانينات .

العمل بعد زيارة العراق

فقدان الأمل من حكومة نوري السعيد سارع في عملنا لاستكمال بعض الضروريات ، فانتهزت محاولة التقرّب البريطاني منّا وحصلت على بعض الذخائر والمهمات الدفاعية التي سبق وأن اشتراها جيشنا قبل إنهاء القيادة البريطانية .

وكذلك طلبت إلى جميع الذين يتقاضون علاوات فنيّة في الجيش التنازل عن تلك العلاوات ، فقبلوا وبحماس بالغ ، وأضفتها إلى المبلغ الذي دفعته السعودية في زيارتي لها وإلى ما تبرع به الشعب الأردني في يوم الحرس الوطني . بالإضافة إلى ذلك فرضت قيود تقشف على الجيش في كل ما يمكن أن يجمع لي وفراً من المال للحاجات الملحّة .

ولما كان تنظيم كتائب الحرس الوطني يتطلب أعداداً كبيرة من الضباط ، فقد اخترت مئتين وخمسين تلميذاً عسكرياً للكلية الحربية التي كانت تخرّج في كل دفعة

ما بين خمسين وثمانين ضابطاً . هذا إلى جانب اختيار تلاميذ لسلاح الجو بعدد متواضع .

التلاميذ العسكريون من الضفة الغربية اخترت بعضهم من منتسبي الحرس الوطني ومن خريجي الثانوية مع أفضلية لأبناء القرى الأمامية . أمّا المختارون من الضفة الشرقية فكانوا من كل مناطقها .

أثار إدخال أبناء الضفة الغربية الكلية العسكرية بعدد متساوٍ مع أبناء الضفة الشرقية بعض التخرصات من ذوي النوايا السيئة ولكني لم أعرها اهتماماً . فأهل الضفة الغربية مواطنون أولاً وهم المجاورون لحدود الهدنة ثانياً ، والحرس الوطني الذي خطّطت له أن يتحوّل مع الوقت إلى تشكيلات عسكرية، معظمه من الضفة الغربية ، ولا يجوز إبعاد الغربيين عن واجب الدفاع وقصره على الشرقيين في المملكة .

إذا كنّا جادين، وقد كنّا جادين في ما نحن بصدده، فإن الوحدة الوطنية تفترض تساوي المواطنين في الحقوق والواجبات ، ومن الواجبات الأساسية أن تدخل الجندية كل بيت في الضفة الغربية كما دخلت كل بيت في الضفة الشرقية . وتخرصات المغرضين بأنني أبغي اكتساب شعبية في الضفة الغربية لا تساوي قيمة طلقة إضافية تنطلق في اتجاه العدو .

إذا اعتبرنا أهل الضفة الغربية في كل تصرفاتهم وآرائهم ينشدون سلامة ما تبقّى من الأرض مع الأمل باستعادة ما سلب منها ، وهذا صحيح ، فإنه لا يعنينا أي أسلوب يعبّرون به عن طموحاتهم .

وإذا كانوا يرون في مصر إمكانية التحرير الكبرى فلا تنتقص هذه الرؤية من عزمنا على وضع الشعب الأردني بضفتيه على أرضية التساوي في ضريبة حمل السلاح . وإذا كان في إعطاء مصر أفضلية في قدرتها يضعنا في مناقشة معها فإنه تنافس في شرف أداء الواجب مهما تفاوت حجم البلدين . فالإعجاب بعبد الناصر وأعماله العظيمة أمر بديهي ، وكذلك تقييم الأسباب التي يمكن أن تقدّمها مصر لزعيمها وهي أسباب لم يوفّرها الأردن لقائده. هذا التفاوت يزيد من شأن الملك الأردني وأعماله الوطنية أهمية.

القياس كان وسوف يظلّ عامل إفساد بين القادة عندما يكون مطلقاً ودون معطياته الكاملة . وهو ترف مؤذٍ لا لزوم له بين متماثلي الأهداف في عصر تعاظمت فيه التحديات على المفاخرات الجاهلية .

والمتخرّصون الذين أشرت إليهم ابتعدوا كثيراً عن النظرة القومية والتصقوا بأسباب إثارة الحساسيات والدفع إلى الفرقة بين القادة العرب ، ومن ثمّ بين شعوبها ، دون أن يفلحوا في تلك المرحلة .

كان جهل المصريين بالبيئة الشرقية سياسياً واجتماعياً يحملهم إلى بعض التصرفات الخاطئة ، ولكننا لم نفسح مجالاً لتلك التصرفات أن تصبح مشكلة مع جهلنا أيضاً بجميع أجواء المناخ السياسي المصري وتصورات المصريين عن العرب الآخرين.

يدفعني هذا إلى ذكر المثال التالي : أذاعت محطة صوت العرب هجوماً على لقاء جلالة الملك حسين مع جلالة الملك فيصل والأمير عبد الإله ونوري السعيد وبدعوة من العراق بعد تحرير الجيش العربي بفترة قصيرة . وصار اللقاء على الحدود الأردنية العراقية وعاد جلالة الملك حسين وهو غير راضٍ عن اللقاء وما طرحه نوري السعيد من مواضيع .

كنت يومها قائداً للجبهة ، فاتصل بي جلالة الملك هاتفياً ليقول : ما بال إخواننا في القاهرة وهجوم صوت العرب علينا ؟ فاستأذنته أن أعالج الموضوع بطريقة غير رسمية فأذن لي بذلك .

دعوت القنصل العام المصري في القدس لزيارتي وأبلغته رأيي في أن الهجوم من صوت العرب نوع من الاستفزاز دون مبرّر ، وأنه تشهير بالأردن بجهل مطبق عن اللقاء الأردني العراقي . وأوضحت له بأن الأردن حرّ ولا يقبل وصاية من أحد وأنه يعرف طريقه ولا يحتاج إلى دليل . وطلبت إليه إبلاغ حكومته بوجوب إيقاف صوت العرب عن مثل هذه التهجمات لأنها لا تؤدي إلاّ إلى إساءة الفهم . وبالفعل أرسل القنصل برقية مطوّلة إلى القاهرة وتوقّف صوت العرب عن تعليقاته .

ليس مثل الصراحة والثقة بالنفس في التعامل بين الأخوة . فقد كان هذا الإجراء مريحاً للأردن ولمصر ، إذ قطع الطريق على منتهزي الفرص لتعكير العلاقات التي كنّا في الأردن نعتبرها حيوية جداً في ما ننشده من وحدة الهدف مع مصر .

فلو كانت المسيرة الأردنية ممّا حملته من مخاطرات مجرّد السعي للاستقلال ، لكان من السهل مبادلة صوت العرب التهجّمات ، ولكن استقلال الإرادة الأردنية لم يكن نهاية الغايات بل البداية التي توصلنا والعرب إلى تحرير فلسطين وانتظام حركة التقدّم العربية . ولمّا كنّا ندرك أكثر من غيرنا ضرورة استيعاب العرب لبعضهم

استبعاداً للفرقة بحكم التصاقنا العضوي بالقضية الفلسطينية ، صرنا إلى سياسة نبذ أسباب الفرقة مهما كانت مصادرها عربية أو أجنبية .

كنّا ممتلئين ثقة بالثورة المصرية واتجاهاتها بالرغم من ضعف فهم مصر لحقيقة التكوين الأردني ، وكنّا نتحمل من أجهزتها أعمالاً تضع الأردن في نقطة الحرج دون عتاب اعتقاداً منّا بوجوب وضع الأهداف الجليلة في المقام الأول في علاقتنا معها .

ففي حين رأت مصر أن لا تتعاقد معنا على اتفاقيات عسكرية ملزمة ، ذهبت أجهزة مخابراتها إلى تسخير بعض شبان الضفة الغربية للتسلّل إلى إسرائيل للقيام ببعض أعمال القتل لمزارعين يهود ممّا أدّى إلى معارك ضارية بين الجيش الأردني والجيش الإسرائيلي . كانت مصر تؤجّل الاتفاق معنا لشعورها بأن الجبهة الأردنية قابلة للانفجار في أي وقت ، في حين أن الجيش المصري لم يكمل استعداداته للمواجهة . وقد فاتها أننا أيضاً بعيدون عن القدرة على المواجهة الشاملة بدون مشاركة الجيش المصري، وأن التحرّشات الصغيرة بإسرائيل عن طريق الشبان المتسلّلين أولئك سبّبت لنا هجومات إسرائيلية مفاجئة كان تطورها إلى مواجهة شاملة أمر يحكمه القدر وإسرائيل.

ومع أننا علمنا عن أعمال الاستخبارات المصرية تلك وتعرفنا على الشبان الذين دفعتهم إلى تلك الأعمال ، فإننا لم نحاسب مصر على عملها السرّي من أرضنا ولم نعاقب الشبان . اعتبرنا أن تلك المخاطرات التي وجدنا أنفسنا في مواجهتها والتي كلّفتنا فقدان مئات الجنود والضباط لا تخرج عن كونها مصادمات يقتضينا الواجب دفع ثمنها وإن لم نخطط لها .

تلك المصادمات مع العدو المتفوّق سيأتي الحديث عنها في ما بعد ، ولكنها تصوّر حالتنا الفريدة في ظرف لم نكن نملك فيه من الذخائر ما يكفي لمعركة طويلة ، ولم يكن في تصوّرنا نجدة من أحد .

جلالة الملك حسين في إحدى الاجتماعات في الضفة الغربية وبعد مصادمة عنيفة مع الجيش وقد ارتفعت معنوياته بفعل الكتيبة التاسعة، بحث معي إمكانيات مقايضة الإسرائيليين بهجوم أردني على مستعمرة يهودية مقابل أي هجوم على قرية أردنية على الحدود. ومطلب جلالته كان أمنية في نفس كل ضابط وجندي، إلاّ أن الاستجابة لذلك المطلب تترتب عليه نتائج أوّلها تصعيد المعركة إلى الحرب الشاملة التي لم نكن نملك لخوضها القدرة المناسبة. وكان من أصعب الأمور عليّ أن لا أستجيب لرغبته بعد أن رأيت عمل سلاح الجوّ الإسرائيلي في معركة قلقيلية ولم أملك حيلة لمعالجته.

التفوّق في العدد والعدّة والسلاح الذي تميّز فيه الجيش الإسرائيلي على الجيش الأردني لم يكن يوازيه إلاّ استعداد جيشنا لمعركة الشرف ، إذ كان مندفعاً للقتال دون حساب لمقارنة القوى .

كان عامل التوازن الوحيد مع إسرائيل إذا أخذنا الأردن لوحده في ميدان الصراع هو تجهيز خمس واربعين كتيبة حرس وطني ، وإدخال الشعب كله في الضفتين في نظام مسلّح يسمح لنا قتال إسرائيل بالشعب جميعه .

هـذا يعيدنـا إلى الإمكانيـات المالية لشراء مئات الآلاف من قطع الأسلحة الخفيفة وإلى الحاجة إلى عدد ضخم من الضباط وضباط الصف للتدريب والقيادة ، وإلى نظام مدروس للنفير العام وإلى التعبئة المعنوية التي تحتاج إلى جهد كبير . ففي حين كنت أسجّل تصوراتي لهذا المشروع العظيم بدأت في زيادة عدد كتائب الحرس الوطني وتحسين قدراته القتالية وفق برنامج حثيث .

أمّا السلاح فلم أجد له مورداً وبكلفة متواضعة إلاّ الاتحاد السوفييتي الذي لم تكن تربطنا به أية علاقة رسمية ، وتصوّرت أن سوريا تصلح مدخلاً جيداً للاتصال بالروس إذ توطدت العلاقات بينهما وأصبحت الكتلة الشرقية المصدر الرئيسي للأسلحة السورية .

أيّدني جلالة الملك في ما تصوّرته من وسائل التوازن مع إسرائيل على أن نباشرها بعد إنهاء المعاهدة الأردنية البريطانية والحصول على المعونة العربية ، التي وعد بها الرئيس عبد الناصر والملك سعود والرئيس القوتلي والتي أصبحت في تقديرنا معونة مضمونة .

على الصعيد الأردني فوجئت في منطقة جنين وطولكرم وقلقيلية بعامل إحباط لم يخطر ببال أحد . ففي حين نعتبر الحرس الوطني وتعاون الشعب في هذه المنطقة في تحصين القرى بتوفير الشباب للعمل مع الجنود لذلك التحصين ،من عناصر قوة الدفاع الهامّة ، طلع علينا حزب التحرير الذي يرأسه الشيخ النبهاني والشيخ الداعور .

بدأ حزب التحرير بتحريض الأهالي على عدم التعاون مع الجيش والانصراف عن الخدمة في الحرس الوطني ، بدعوى أن الجهاد يحرُم إلاّ في ظل الخلافة الإسلامية .

عندما تأكّدت من نشاط تلك الحركة أصابتني حالة من الغضب الشديد ، فاستأذنت رئيس الوزراء سعيد باشا المفتي ووزير الدفاع والداخلية محمد علي باشا العجلوني أن يطلقا يدي لمعالجتها فأذنا لي بذلك وبدون تردّد .

أصدرت أمراً لقائد المنطقة القائمقام فواز ماهر ليعمّمه على قائد اللواء وقادة الكتائب بأن يتعاملوا مع أي محرّض من حزب التحرير أو مستجيب لهم كما يتعاملون مع الأعداء والجواسيس .

نحن الذين تعلّقت عقولنا وأبصارنا على التضامن العربي ولا ندركه كلّه يريد التحريريون أن نستكين ونسلّم بالمبادرة للعدو الإسرائيلي حتى تقوم الخلافة الإسلامية ؟ عن أي خلافة يتكلّمون ؟ فالخلافة كانت في حكم النسيان ، والإسلام الذي نؤمن به هو الذي يدفع المسلم إلى الشهادة في حرب أعداء الإسلام . ومع البحث والاستقصاء أشير إلى التحريريين من أكثر من جهة مطلعة بأنهم موضع التساؤل في علاقاتهم واتجاهاتهم .

أهل المنطقة سرعان ما تنبّهوا إلى أخطار الدعوة التي حملها التحريريون ، وسرعان ما أدرك هؤلاء أن الجيش سيضربهم ضربة قاضية فانزووا في أوكارهم والغيظ ينهش قلوبهم .

أثبت أهل قلقيلية وسرايا الحرس الوطني إخلاصهم لفروض الواجب الوطني بدماء زكية سكبوها غزيرة إلى جانب الجيش ، في معركة من معارك الثأر في قلقيلية التي كانت آخر الاعتداءات الإسرائيلية على الحدود .

وحادثة أخرى وقعت في الضفة الشرقية ، حيث تنازع بعض القبائل مع أهل مأدبا وأغلب سكانها من المسيحيين بالسلاح بما صُوِّر مشكلة إسلامية مسيحية . والأردن لم يعرف في تاريخه تمييزاً بين مسلم ومسيحي . ولذا فإن تلك الحادثة كانت مؤشراً خطيراً لا نتحمل قبوله في مرحلة ما بعد الخلاص من النفوذ البريطاني الذي كان يعمل على هذا التمييز دون نجاح يذكر .

وفور تبلغي خبر أحداث مأدبا بعثت إليها القائد صالح الشرع مع كتيبة ، وأصدرت إليه أمراً صارماً بالقضاء على الفتنة باستخدام أقصى درجات القسوة وإعادة الأمور إلى نصابها . وقد قام صالح بإخماد الفتنة بحزم وبعث بالمسببين إلى السجن وصادر الأسلحة كافة في المنطقة .

أبلغني القائد صالح الشرع بأن مثيري الفتنة لهم صلة بالسفارة البريطانية كما تدلّ الدلائل، ولكنه اعتبر إجراءاته درساً كافياً يحول دون تكرار أي نزاع طائفي في المستقبل . وعقد مجلس صلح بين الفرقاء جرت فيه مسامحة على ضحايا الفتنة وجرحاها .

بعد حادثة التحريريين وحادثة مأدبا ارتأيت أن أخفّف من أعبائي الإدارية ،

فرجوت جلالة الملك أن يعفيني من مسؤوليات الأمن العام المرتبطة بي ، بفصل الأمن عن قيادة الجيش . جلالة الملك استغرب طلبي قائلاً : كنّا نريد فصل الأمن عن الجيش لتقليص سلطة جلوب باشا أمّا وقد صرتَ قائد الجيش فلا لزوم للفصل .

أقنعت جلالة الملك بأسباب ضرورة تفرّغي لشؤون الدفاع التي تتطلّب أضعاف وقتي ، وهي مسؤولية قيادة الجيش الحقيقية بينما تقع إدارة الأمن في دائرة مسؤولية وزارة الداخلية . وافق جلالته وقبل اقتراحي بتعيين كبير مرافقيه الزعيم بهجت طبارة مديراً للأمـن العام ، وصدرت الإرادة الملكية بذلك ، فشعرت أن عبئاً ثقيلاً أزيح عن كاهلي .

ظـلت قضية واحدة تنتظر الحل وهي قضية محمود الروسان التي سببت لي ألماً كبيراً . فمحمود زميلي وصديقي فضلاً عن أنه شريكي في إشاعة الوعي على ضرورة تخليص الجيش من القيادة البريطانية . فما إن تولّيت منصب رئيس الأركان حتى نقلته من واشنطن إلى عمان في الوقت نفسه الذي بحثت فيه عن الدكتور عوني حنون واستقدمته للخدمة . عيّنت محمود قائداً لسلاح المدرعات ، وقلت له في أول لقاء معه إنه على رأس أخطر الأسلحة وإن بعض المفسدين سيحاولون إثارته ، وأسميت أولئك البعض له واحداً واحداً . وقطع محمود لي عهداً بأنه لن يقبل بأي محرّض يحاول الإخلال بأمن الجيش .

أمّا الدكتور عوني حنون ، والذي سبق وأن تحدّثت عنه ، فأسندت إليه منصب مدير الخدمات الطبية لكفاءته الخاصة ولما أسلفت عن وطنيته .

إلّا أنّ محمود الروسان نفذ إليه المحرّضون الذين حذّرته منهم عن طريق الإثارة الإقليمية، ولما بلغنا خبر انقياده إليهم تولى رئيس هيئة الأركان راضي عناب تنبيهه وإنذاره . وفي مدى شهر من وصوله كان قد تورّط في عملية محاولة انقلاب على قيادة الجيش وأحبطت المحاولة ووضع محمود ورفاقه قيد الحجز ورهن التحقيق ، ثم مثلوا أمام محكمة عسكرية قضت بسجن كل منهم مدة خمس عشرة سنة .

ولمّا كنت لا أتصوّر محموداً سجيناً وهو الرجل الذي قاتل في فلسطين بكفاءة ممتازة ومن مؤسّسي حركة الضباط السريّة في الجيش ، فقد التمست من جلالة الملك إصدار عفوه عنه وعن رفاقه قبل تنفيذ الحكم . ثم التمست أيضاً تعيينه في وزارة الخارجية بدرجة وزير مفوض على أن يرسل إلى سفارتنا في واشنطن استجابة لرغبته . كان استغراب وزير الدفاع ورئيس الوزراء بالغاً للطريقة التي عالجتُ فيها قضية الروسان وزملائه ، ولكنني اعتبرت عملي هذا من واجبات حفظ خدماته ومن حقوق الوفاء لصديق ارتكب زلّة يمكن التجاوز عنها .

العقاب والتجريم دون اعتبار قيمة إلاّ للزلل لم تكن يوماً الوسيلة الأنجع بين الرفاق .

حلّ البرلمان

كما ذكرت سابقاً فإن الحركات السياسية تعاظم شأنها وكبرت الأحزاب في الأردن إثر اندماج الضفتين في الوحدة ، وأصبحت عمان عاصمة القضية الفلسطينية والأردن موطنها . وكما ذكرت أيضاً فإن بريطانيا أصبحت ترى في الوضع الجديد خطراً على استمرار وجودها ونجاح خطتها في ترسيخ سياسة الأحلاف . ومن هنا فإن جلوب باشا أقحم الجيش ، خلافاً لكل عُرفٍ سابق ، في التصويت في الانتخابات بما أثبت التزوير مرتين أولاها سنة ١٩٥٢ و الثانية سنة ١٩٥٤ .

لذلك فقد تقابلت سياسة الملك في نهج إزالة آثار أعمال القيادة البريطانية السابقة مع رغبة سعيد باشا المفتي وحكومته على حلّ البرلمان الذي أجمع الناس عليه بأنه مزوّر.

وفي يوم ٢٥ حزيران ١٩٥٦ كان جلالته يتفقّد قوات الجيش في الضفة الغربية وكنّا سنبيت في قيادة المنطقة العسكرية في نابلس، كما يقتضيه برنامج الزيارة لنستأنف الجولة في مواقع الجيش في اليوم التالي. اتصل رئيس الوزراء بي هاتفياً ليبلغني أن وزير الدفاع والداخلية محمد علي باشا العجلوني في طريقه إلينا يحمل مرسوم حلّ البرلمان كي يصادق عليه الملك، ولم تمضِ ساعة حتى وصل الوزير وتناول العشاء معنا ثم ناول المرسوم إلى جلالته.

اعترض رئيس الديوان الملكي على التوقيع بحجة شكلية مفادها أن مثل هذا الإجراء لا يجوز إنفاذه إلاّ في المكتب في الديوان الملكي في العاصمة . نظر جلالته إليّ فأبديت رأيي أن الملك يملك إعلان الحرب من أي نقطة في مملكته وهو أمر أكبر أهمية من التوقيع على مرسوم ، وأن الصلاحيات المخوّلة إليه لا تفرض تواجده في مكان معيّن. ردّ رئيس الديوان بأن التوقيع في إحدى القيادات العسكرية قد يحمل معنى غير مستحبّ. فأجبته أن الملك هو القائد الأعلى للقوات المسلحة والمعنى المقصود غير وارد.

طلب جلالته مني قلماً ووقّع المرسوم قائلاً : « الآن خلصنا من البرلمان المزوّر » . فأبدى الحضور جميعاً شكرهم لهذا العمل الذي كان مطلباً سياسياً هاماً عند الأردنيين ، بالإضافة إلى كونه أحد الأعمال التي اشتملتها الخطة السياسية لتصويب أوضاع الوطن بعد استقلال إرادته بتحرير الجيش .

وعلى الأثر حُلّ البرلمان واستقالت حكومة المفتي وفق مقتضيات الدستور ، وشُكّلت وزارة إبراهيم باشا هاشم الانتقالية والتي كلّفها جلالة الملك بإجراء الانتخابات وذلك في ١ / ٧ / ١٩٥٦ .

الفصل الثامن

تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي

وقّعت مصر مع بريطانيا اتفاقية الجلاء في الثامن عشر من حزيران سنة ١٩٥٤ بعد جهد وجهاد من الرئيس عبد الناصر وأعوانه، وقد تحقق لهم بهذا حرية عظيمة في العمل وأمنٌ لمصر لم يكن متوفراً بتواجد ثمانين ألف جندي بريطاني على أرضها.

إرادة الثورة الصلبة كانت القوة العظمى التي فرضت على بريطانيا قبول المفاوضات على جلاء القوات البريطانية، مع أن بريطانيا لم تسلّم بالقبول بسهولة، إذ عملت على استبدال الجلاء الحر بشروط تعيد سيطرتها على القواعد بإقحام مصر في النظام الدفاعي عن الشرق الأوسط.

وفي هذا السبيل حاولت الاستعانة بأمريكا في حين أن الأخيرة كانت لها سياسة أخرى لا تقل خطورة عن الخطة البريطانية. كانت أمريكا تشجّع مصر على الخلاص من بريطانيا مقابل صلح منفرد مع إسرائيل، وتعرض مساعدة اقتصادية لتمويل السدّ العالي على أمل أن تكون لها القيادة في التعامل مع مصر نيابة عن المعسكر الغربي.

وبالتالي فإنه كان يُراد لمصر أن تظل في قبضة القوى الغربية، سواء من البريطانيين أو الأمريكيين بغض النظر عن ظواهر الأمور.

ومع ذلك فإن الحكومة المصرية حاولت الاستفادة من تناقض المصلحة الأمريكية والمصلحة البريطانية ونجحت في ذلك، ممّا مكنها من الوصول إلى اتفاقية جلاء القوات البريطانية في الثامن عشر من حزيران ١٩٥٤، لكن مع شروط إمكانية عودتها إلى القواعد في حال عدوان سوفييتي على الشرق الأوسط.

بدأت القوات البريطانية بالرحيل عن أرض مصر، ورافق مراحل الجلاء اتصالات أمريكية مصرية للحصول على السلاح وعلى تمويل السد العالي قبيل رحيل القوات البريطانية كافة عن منطقة القناة. وعندها بدأ الضغط الأمريكي على عبد الناصر

لقبول الصلح المنفرد مع إسرائيل والذي رفضه عبد الناصر، على أساس أن القضية الفلسطينية مسؤولية عربية لا تنفرد بها مصر وأنه يقبل بمحاولة إقناع العرب بتقسيم سنة ١٩٤٧.

تمّ الجلاء الكامل للقوات البريطانية في حزيران ١٩٥٦، ولم تتوصل مصر مع أمريكا إلى أية صيغة من التعاون للتزود بالسلاح أو تمويل السد العالي بسبب الشروط المستحيلة المطروحة من أمريكا.

في فترة الجلاء والمفاوضات مع أمريكا عقد مؤتمر باندونج، الذي كان مهندسوه الرئيس نهرو والرئيس تيتو وشوآن لاي وعبد الناصر. فانتهز عبد الناصر هذه الفرصة ليطلب إلى شوآن لاي رئيس وزراء الصين الشعبية جس نبض الاتحاد السوفييتي لمعرفة استعداده لتزويد مصر بالسلاح.

أبدى الاتحاد السوفييتي استعداده، وكانت أول صفقة للأسلحة يوصلها الروس إلى مصر عن طريق تشيكوسلوفاكيا، والتي ظلت سراً حتى أعلن عنها عبد الناصر لتقوم القيامة في لندن وباريس وواشنطن وتل أبيب غضباً واستنكاراً، بينما أعلن الشعب العربي كله تأييده لتلك الخطوة وبعض الحكومات العربية ومنها سوريا والأردن.

رأت كلّ من واشنطن ولندن في صفقة الأسلحة نفوذاً سوفييتياً في المنطقة، وعلى الأخص في أكبر دولة عربية على البحر الأبيض المتوسط وعلى مقربة من منابع البترول العظمى في المنطقة.

تل أبيب وواشنطن ولندن وباريس رأت مجتمعة خطراً محدقاً بإسرائيل إذا وصلت مصر إلى درجة التفوّق بالسلاح مع التفوق في القوة البشرية.

ولندن وباريس جمعتهما مخاوف إضافية على سيطرتهما على قناة السويس ومنافعهما الاقتصادية التي تجنيها شركاتهما المشرفة على تسيير وإدارة قناة السويس.

أصبح الغرب كله، لأهداف متماثلة أو متفاوتة، مُجمعاً على وجود خطر مهدّد لمصالحه الاستراتيجية الدولية والاقتصادية ومهدد لإسرائيل، ولذا تجمّعت إرادته للقضاء على هذا الخطر.

في هذه الأثناء أيضاً كانت مصر وسوريا والسعودية قد شكّلت محوراً في مواجهة حلف بغداد الذي دخلته العراق ومال إليه لبنان وأخفق في الأردن إخفاقاً ذريعاً، ممّا زاد من حنق بريطانيا ودفعها لمزيد من تسليم قيادة العمل في المشرق العربي لشريكتها الكبرى أمريكا. ومع ذلك فإن بريطانيا كانت تتشبّث بمراكزها في العراق وانحياز

الحكم في لبنان إليها وميل فئات سورية إلى حلف بغداد، وتتصوّر أن انتصار عبد الناصر ذلك موقوت ولن يصمد على مدى سنة قادمة.

ففي حين تعاونت أمريكا وبريطانيا لمعالجة الوضع المصري، الذي اعتبرته عقدة عويصة، بالتآمر على مصر وسوريا انفجرت قنبلة في وجه بريطانيا في المكان الذي لم يكن يدخل في اعتبارها، إذ كان في حسابها أنه آخر المعاقل البريطانية.

وَقعَ قرار الملك الحسين بطرد قائد الجيش جلوب باشا وأعوانه على بريطانيا وَقْعَ الصاعقة التي أفقدت رئيس وزراء بريطانيا إيدن صوابه وجعله مهزأة منافسيه ومعارضيه في بريطانيا. ومع أن عبد الناصر لم يكن يعلم بالقرار الأردني إذ انقطع الاتصال معه في هذا الموضوع بعد مقابلتي معه سنة ١٩٥٤، إلاّ أن بريطانيا تصوّرت أنه وراء الحدث الذي هزّها وأيّما هزّة حملت إحدى صحفها لوصف المصاب البريطاني بالعار.

ولما كان من الطبيعي أن تعتبر بريطانيا الحركة الأردنية إحدى حلقات الحركة التحررية العربية، فإنها تصوّرت تنسيقاً مسبقاً بين القيادتين المصرية والأردنية. وبغضّ النظر عن انعدام ذلك التنسيق فإن خروج الأردن من الطوق البريطاني كان ضربة هامة لوجودها في المنطقة ولحلف بغداد، وبالتالي فهو توسيع لساحة الهزيمة البريطانية.

وكما فشلت أمريكا بعد بريطانيا في الاحتفاظ بمصر ضمن دائرة النفوذ الغربي، فإن بريطانيا والعراق فشلتا باسترداد النفوذ البريطاني في الأردن عن طريق العراق. ولذا فإن المخطط التآمري شمل مصر وسوريا والأردن والسعودية.

وبالرغم من الاختلاف على المكاسب بين أطراف التآمر إلاّ أنها أجمعت على ضرورة تفكيك ما تصوّروه من أحلاف عربية بين الدول الأربع كخطوة أولى، ثم تغيير الصورة السياسية فيها لتتلاءم مع المخططات الجديدة الاستعمارية.

فالواقع في كل من هذه الدول كان يصلح لتنظيم مقاومة تصدّ المؤامرات وتحبط آمال الأعداء، بترابط مكين يضع مصير الدول العربية الأربع في ميزان واحد. والظواهر كانت تصور لأولئك الأعداء أكثر من حقائق الترابط. ومع ذلك وأخذاً في الاعتبار ضعف التنسيق العربي بما يتناسب مع تنسيق الغرب وإسرائيل فإن الصمود العربي أدّى إلى نتائج حاسمة إلى حين.

ولوصف القوى في تلك المرحلة فإن مصر وبحكم سيطرة الثورة وحجم الدولة

كانت مركز الثقل، وسوريا كانت تمثّل قوة الإعلان القومي مع ضعف في الجيش، والأردن تماسك الدولة والجيش والشعب، والسعودية قوة البترول وأثره على الشركات الأمريكية بدون جيش. أمّا باقي الدول العربية في أفريقيا وآسيا فقد كان الغليان القومي الذي أثاره عبد الناصر على المستعمرين فيها، وخصوصاً في الجزائر وتونس والمغرب والخليج، يضيف قوة معنوية لمصر والدول الثلاث الأخرى، وفي الوقت نفسه يزيد من مخاوف القوى المعادية وغلوّها في التصميم لدخول معركة شاملة تعدّدت فيها أهدافها ووسائلها وتركّزت في مجموعها للقضاء على الحركة القومية العربية.

وفي خطط تلك القوى دخل كل أنواع النشاط الدعائي والتنفيذي، بدءاً بالاغتيال الشخصي لعبد الناصر وانتهاءً بقلب أنظمة الحكم في مصر وسوريا والأردن وتحييد السعودية. وفي النهاية ربط الدول العربية في نظام استراتيجية الغرب عسكرياً واقتصادياً بقيادة أمريكا.

من هنا فإن مصر لم تكن تملك خياراً إلاّ الذهاب في الصراع إلى آخر مداه، وكذلك الأمر في سوريا حيث لم يكن أمام السوريين إلاّ الصمود في وجه حلف بغداد المتمثّل في التهديد التركي والعراقي، كما اختار الأردن أن يحمل نصيبه في المعركة ويتّجه إلى إنهاء المعاهدة الأردنية البريطانية ويستعدّ لمقاومة إسرائيل.

وفي خضم تلك الأوضاع أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس، فسارع الملك حسين والرئيس القوتلي والملك سعود لتأييده رسمياً، كما أظهر الشعب العربي في كل الوطن العربي تأييده بأقوى التظاهرات التي عرفها الوطن العربي.

وتبعاً لذلك ارتفعت حمّى السعار في لندن وباريس وواشنطن وإسرائيل وفي طهران وأنقره وفي رأس نوري السعيد.

اعتبرت أوروبا الغربية أن تأميم القناة عدوان مصري عليها وإعلان الحرب على مصالحها الحيوية الاقتصادية والاستراتيجية العسكرية، وبدأت بريطانيا وفرنسا بشكل خاص تتصرّف على هذا الأساس. قناة السويس شريان المواصلات الغربية مع آسيا وخط مرور النفط إلى بلادها هي قناة مصرية أولاً وآخراً، وأرادت مصر أن تأخذ حقها من مدخول القناة المالية لتحسين أوضاعها الاقتصادية. ولكن الغرب الاستعماري لم يكن يقبل بقسمة في المداخيل مع صاحب الأرض فأنكر سيادته عليها، بل أراد إبقاء مصر في نطاق التبعية الاقتصادية والضعف العسكري لاستمرار ابتزاز المنطقة العربية كلها.

هنا اختلطت المؤامرات الغربية بالضغوط والمناورات لحمل مصر على قبول حلّ لمعضلة التأميم، بما يجعل التأميم عنواناً خالياً من كل فائدة وأمر السيادة المصرية على أراضيها أكذوبة صارخة.

ولكن عبد الناصر، ومن ورائه شعب مصر والأمة العربيـة كلّها، صمد وحمل الأعباء البالغة الثقل كما يصمد الرجال العظام في التاريخ في وجه العواصف العاتية، فصار نقطة التقاء العالمين بأنظارهم، عالم الأصدقاء وعالم الأعداء.

الاشتباكات الأردنية الاسرائيلية

في خضمّ المعركة السياسية بين مصر والغرب والتي بلغت قمّتها في تأميم قناة السويس، أغارت إسرائيل بقوة محدودة على بعض مراكز الجيش المصري في قطاع غزة وسيناء وبدون مبرّر. وقامت مصر بإرسال قوات فدائيين لمهاجمة بعض المراكز الإسرائيلية وخطوط مواصلاتها في النقب للانتقام، وما لبثت العملية أن توسعت إلى تكرار غارات متبادلة. واعتمد الجيش المصري في غاراته على عناصر عسكرية أحياناً وعلى فدائيين فلسطينيين من غزة أحياناً أخرى. ويظهر أن خطة الردّ المصرية شملت الجبهة الأردنية ودون علمنا، إذ استعملت المخابرات المصرية أنفاراً قلائل من الضفة الغربية وسلّحتهم للقيام بأعمال صغيرة استفزازية في أرض العدو.

كما ذكرت سابقاً فإن قواتنا ركّزت تواجدها في المناطق الحيوية في وسط الضفة الغربية والقطاع الشمالي من وادي الأردن، وخصّصنا للمناطق النائية في جنوب الضفة الغربية ووادي عربة مفارز صغيرة لمراقبة الحدود لإعطائنا الإنذار في حالة قيام إسرائيل بأية أعمال عدوانية. وهذه المفارز على الحدود لم يتجاوز أكبرها ثلاثين جندياً.

فوجئنا ليلة ١٩٥٦/٩/١٢ بهجوم قوة إسرائيلية تقارب السريتين بمساندة مدرعات على مخفر شرطة الرهـوة في الجنوب ونسفته وقد استشهد معظم حـرس الشرطة. وأذاعت إسرائيـل أن عملها هذا كان تأديبياً للـذين أطلقوا النـار على بـاص إسرائيلي كـان متّجهاً إلى إيـلات، من متسلّلين دلّ أثرهم على أنهم قدموا من الأردن. واستحـال علينا أن نرسل قوات إلى الرهـوة لتعزيزها، لأن طول المسافة حـالت دون التفكير بـذلك، إذ انتهت العملية الإسرائيلية وعـادت قواتها في وقـت لا يتجاوز الساعتين. فاكتفينا بتقديم شكـوى إلى الأمم المتحـدة.

تكرر الحادث بعـد فترة قصيـرة على مخفر شـرطة غـرندل ليلة ١٣ ـ ١٩٥٦/٩/١٤،وكانت القوة الإسرائيلية هذه المرة أكبر، ولم تتمكن مفرزة

المخفر الصغيرة من مواجهة المهاجمين فانسحبوا بعد استشهاد بضعة جنود وجرح آخرين. نسف المهاجمون المخفر كما فعلوا بالرهوة. وعادت إسرائيل لتقول في إذاعتها إن الهجوم سببه تسلل أردنيين والاعتداء على دورية إسرائيلية في الليل قبل يومين.

هاتان الحادثتان جعلتنا نضع قوة متحركة في مدينة الخليل من سرية مشاة ومدافع مورتر وسرية مدرعات لتتحرك وتواجه أية هجومات إسرائيلية مماثلة على الحدود بين الخليل وبيت لحم، ولتعزيز مفارز الجيش المنتشرة وبأحجام لا يتجاوز أكبرها سرية مشاة من الجيش أو الحرس الوطني.

ورد في تقديرنا احتمالٌ وهو أن إسرائيل ترمي من هذه الاعتداءات على الأطراف البعيدة عن المناطق الحيوية في الضفة الغربية، أن تجعلنا نوزّع قواتنا الرئيسية كي تقوم بعدوان في منطقة القدس أو نابلس لكي تزعزع ثقة الأردن بقدرته على الدفاع، وبهذا تزرع الشك في التضامن العسكري الثلاثي. ولذا فكان قراري ألاّ أغيّر أولويات الدفاع مهما كانت النتائج.

أخذت إسرائيل تصعّد أعمالها العدوانية بحيث تقترب من القدس وبحيث تطوّر حجم قواتها المعتدية. ففي ليلة ٢٤ ـ ١٩٥٦/٩/٢٥ أعلمني اللواء علي الحياري قائد قوات الضفة الغربية أن هجوماً إسرائيلياً يقدّر بكتيبة وسريتين وقع على سرية الحرس الوطني في قرية حسان جنوب القدس. وأضاف أنه قرّر تحريك القوة المتحركة بقيادة الوكيل القائد راضي العبد الله من قرب الخليل لصد الهجوم، واستشارني في إنذار الكتيبة الثالثة المشاة وهي احتياط منطقة القدس للاستعداد للحركة ومصادمة العدو إذا احتاج الأمر ذلك فوافقته.

وفي الحال تحرّكت إلى حسان لمشاركة قائد القوات في التصرف فيما إذا توسّعت المعركة ووصلتها في الصباح الباكر، وعرفت من الملازم صيّاح كل التفاصيل عن الهجوم الذي انتهى بانسحاب القوات الإسرائيلية.

روى صيّاح أن القوة الإسرائيلية تقدّمت بعد منتصف الليل، واصطدمت بدورية ثابتة أمامية عادت بسرعة لتخبره باقتراب قوة كبيرة باتجاه السرية. استنفر صيّاح أفراد الحرس الوطني وعددهم مئة جندي مع تعليمات بضبط النيران إلى حين وصول الهجوم إلى مسافة مئة متر من الأسلاك الشائكة.

اشتبكت السرية بالنيران مع المهاجمين وأوقعت في طلائعهم خسائر، ثمّ تكاثر المهاجمون على السرية من كل أطراف موقعهم وصار القتال بالحراب والنار إلى أن

سقط الكثير من أفراد السرية شهداء أو جرحى، فجمع صيّاح باقي سريته واخترق بهم الطوق وانسحب إلى موقع آخر يناوشهم منه بالنار. من هذا الموقع سمع أصوات نيران كثيفة من مخفر شرطة حُسان حيث اشتبك حراسه مع قوة يهودية أخرى فترة تقارب النصف ساعة، ثم سمع دويّ انفجارات قوية انقطع بعدها إطلاق النار.

الوكيل القائد راضي العبد الله، والذي تحرّك من قرب الخليل، اصطدم قبل وصوله إلى حُسان بقوة كمين تقارب السرية، وقد اختارت لها مواقع مختارة على جانب الطريق، واستشهد الملازم عبد الله بهاء الدين وسائق سيارته بضربة صاروخ من الكمين. وبينما اشتبكت القوة وراضي العبد الله يضع خطة لمهاجمة الكمين والقضاء عليه انسحب الكمين على إثر دويّ الانفجارات في مخفر حُسان.

استمر الملازم صيّاح في ملاحقة المنسحبين بالنار حتى انقطع أثرهم. وجدت أن جنود وضباط الصف الذين استشهدوا بلغ عددهم سبعة وعشرين والجرحى ثلاثين، بمن فيهم الملازم صيّاح الذي أبدى رباطة جأش نادرة في القتال في مواجهة قوات متفوقة في العدد والعدة.

الشهداء كان أكثرهم من عرب العبيدية ومن بينهم ضباط صف من الجيش الذين قادوا الحظائر والفئات في السرية. بعد انجلاء المعركة وجد الضباط كميات من مغلفات الذخيرة في موقع على طريق حسان بيت لحم، وآثار تواجد كمين يهودي آخر لإعاقة وصول أية قوات تأتي من الشمال لنجدة حسان.

المؤسف في هذه الموقعة هو أن العملية الإسرائيلية كانت سريعة ومضمونة النجاح لتفوّق قواتها بنسبة خمسة إلى واحد، بحيث إن قوة الخليل الخفيفة الحركة لم تملك الوقت الكافي للاشتراك في المعركة وإن انسحاب الإسرائيليين السريع فوّت فرصة اشتراك الكتيبة الثالثة.

لقد ساءني كثيراً أن معظم الشهداء كانوا من عشيرة العبيدية القاطنين في تلك المنطقة إذ كانت خسارتهم فادحة. وكذلك استشهاد حرس المخفر في ما عدا اثنين منهم، إلّا أن المخفر أصبح ركاماً بفعل التفجير الذي قامت به القوات الإسرائيلية. وصلت السرية الأولى من الكتيبة الثالثة ومعها قائد الكتيبة الذي عيّن مواقع كتيبته في منطقة حُسان، فأمرته أن يبقى ليلة واحدة ثم يعيد كتيبته إلى موقعها السابق في الليلة الثانية دون لفت أنظار العدو. وعدت في طريقي لزيارة اللواء علي الحياري الذي صادفته قادماً من القدس إلى حُسان وعقدنا اجتماعاً في نقطة اللقاء.

استقر رأينا أن عمليات الغارات الإسرائيلية المفاجئة سوف تستمرّ، واتفقنا أن

يعمّم على قادة المناطق والألويـة والكتائب طبيعة الأعمال الإسرائيلية التي درجوا عليها في الرهوة وغرندل وحُسان، وأسلوب المفاجأة وحجم القوى التي يستعملونها تصعيداً في كل غارة جديدة.

ورتّبنا زيارات مشتركة إلى كتائب الحرس الوطني لنتفقّد مـراكزها الدفـاعية، فابتدأنا بكتيبة تتمـركز إلى الشرق من جبل المكبر، ثم قفـزنا شمـالاً إلى وادي المالح حيث تضطلع كتيبة من الحرس بقيادة وكيل القائد فريد القطب بمهمة كتيبة جيش نظامية للمساهمة في صدّ أي هجوم إسرائيلي على وادي الأردن، وكذلك زرنا منطقة قباطية التي اعتبرناها إحدى المحاور المحتملة للحركات العسكرية الإسرائيلية بمعية جلالة الملك الحسين في برنامج لاحق.

هـذه الأحـداث على الجبهـة الأردنية رافقتها أحـداث الغارات المتبادلة بين مصر وإسرائيل، وقد تأكّد لدينـا أن المتسلّلين الأردنيين من الضفة الغربية تدفعهم المخابرات المصرية ممّا يؤدي بالتالي إلى التهاب خطوط الهدنة عندنا. المشكلة كانت أن مصر لم تطلب منّا مساهمة أو تنسيقاً، والمشكلة الأكبر كانت أن أعمال المتسلّلين أولئك لم تكن ذات فعالية تذكر، ولكنها تؤدي بالجيش والحرس الوطني لدخول معارك مفاجئة يملك العدو فيها اختيار الموقع والوقت وحجم القوة.

نحن كنّا على تمام الاستعداد للتعاون مع مصر وسوريا لاعتبار أي عـدوان على إحـدى الجبهات وكأنه عـدوان عليها جميعاً. وكنّا نتمنى أن نتّفق على خطط في الحـركات العسكـرية، ولم نكن لنبخل بجهـد أو تضحيـة، ولكننا كنّا نفضل أن يكون لنا خيار وأن يكون لنا تأثير في تلك العمليات. ولكن مصر ولأسباب جهلناها ولم نباحثهم فيها في تلك المرحلة من نضال مصر الحـرج استمرت على ممارستها تلك الأعمال. وكان عزاؤنا الوحيد أن قواتنا قاتلت بضراوة في حُسان، وأنّ قادة الجيش والجنود كانوا يتربّصون بأن تعطيهم إسـرائيل فـرصة واحـدة كـي يناجزوها فيها الحساب بالمواجهة لا بالغدر.

معركة قلقيليـة

كنت رتّبت برنامج زيارة لجلالة الملك الحسين ليتفقّد الجبهة وقواتها في الضفة الغربية يوم ١٠/١٠/١٩٥٦، واشتملت الزيارة بعض مواقع الفرقة الأولى وبعض مواقع الحرس الوطني، وبعد انتهائنا ودّعنا اللواء علي الحيارى وذهبنا بمعية جلالته لتناول الشاي والاستراحة في فندق الأمبسادور في القدس. أخذنا الحديث عن القدس التي تطلّ عليها قـاعة الفنـدق، وكان الحديث طـويلاً استغرق حتى غابت الشمس أو

أوشكت على المغيب، وإذا بقائد منطقة نابلس المقدّم قسيم محمد يُنبئني عن مصادر مخافره الأمنية الأمامية عن حشود إسرائيلية في مواجهة مدينة قلقيلية. اتصلت باللـواء علـي الحيارى في قيادتـه ولم يكن قـد عاد إليها بعد، فاتّصلت بالزعيم فواز مـاهر قائد منطقة نابلس العسكـرية فأكّـد لي الخبر وأنه ينتظر مزيداً من المعلومات عن حجم الحشود.

رجوت جلالته أن يعود إلى عمان بدونـي لضـرورة توجّهي إلـى قيـادة الفـرقة ومتابعـة الأخبـار إلى حين عـودة الحيارى إلى قيادته، ولكن جلالة الملك أصرّ على البقـاء والذهـاب إلى القيادة. وصلنا فوجـدنا الحيارى يعمل على الجهاز لاستقصاء الأخبار من فـواز مـاهر والتي كانت تصل بطيئة، وكأنّما أراد الإسرائيليون أن يتمّوا الحشـد ببطء كي لا يثيروا انتباه الجيش العربي.

وفي الساعـة الحـادية عشـرة ليلاً انقطع الخط التليفوني وصـار إيصـال أجهزة اللاسلكي مشوشاً، لا يفهم من الحديث إلاّ بضع كلمات فأدركنا أن الاشتباك قـد ابتدأ.

أخذ عـاملو اللاسلكي يجهدون أنفسهم بتضبيط الموجـات لأكثـر من ساعـة ولكن دون جـدوى، فطلبت إلى جـلالته أن يعود إلى عمان لأتخفّف من مسؤولية وجوده معنا في القيادة، وقلت له إنني سأحاول النـوم قليلاً لأن أمـامي ليلة طويلة ونهاراً طويلاً غـداً، ولكنـه لم يقتنع وقال نم أنت وسأظل مع علي الحيارى.

غفوت نصف ساعـة ولمّا صحـوت كان الاتصال اللاسلكـي قد عـاد، وبلغنا أن القوات المهاجمة تقـدر بكتيبة من المشـاة وبسريتين من الـدبابات وإسنـاد مـدفعية، وأن الحرس الوطني يقاتل دفاعاً عن مواقعـه في مدينة قلقيلية ومخفر البوليس وتلة تقع جنوب شرق قلقيلية.

قرّرت وبالتشاور مع علي الحيارى دفع الكتيبة التاسعة والقريبة جداً من المدينة لاقتحـام المعركة فوراً، وأمرنا كتيبة من المدرعات أن تلتحق بها وتحمي مؤخرتها ثم مساندتها عند الفجر على أن تتحرك المدرعات سـرية بعد أخـرى.

كانت السـاعة تجاوزت الثانية والنصف صباحاً فانقطعت الاتصالات من جديد فقرّرت الذهاب بنفسي لأشرف على المعركة، وكانت لي مشكلـة مع جلالـة الملك الذي قرّر الذهاب معي. ولم أكن لأقبل بتعريض جلالته في منطقة القتال وإلاّ أكون خالياً من كل تقدير ومسؤولية. فأصررت عليه أن يعود إلى عمان كي أتفرغ كلياً لإدارة القتال الذي تصوّرت بأنه سيتّسع مساحة وحجماً وزمناً. وما إن ودّعت جـلالة الملك

حتى امتطيت سيارتي وانطلقت أحثّ السائق المرهق على السرعة حتى وصلت قيادة المنطقة العسكرية في نابلس، فأبلغني ضابط الاستخبارات أن فواز ماهر انتقل إلى منطقة المعركة، فتوجّهت إليها وتوقفت عند سرية الاحتياط للكتيبة الثالثة حوالى الساعة الثالثة والنصف، وقد أخذ الجنود يطاردون بالنار الجنود الإسرائيليين إلى الجنوب الغربي من صوفين. سألت قائد السرية عن قائد الكتيبة القائد سلامة عتيق فأجابني بقوله: عهدي به يقاتل مع قيادة الكتيبة والسواقين وجنود الإشارة فئة يهودية تمركزت على تلّة صوفين تلك حتى أزاحها ثم اتجه إلى السريتين الملتحمتين مع القوات اليهودية حول قلقيلية.

تركت سيارتي على مسافة ٣٠٠ متر وسرت مشياً إلى تلة صوفين لعلّي أتبيّن المعركة وقد ابتدأ الفجر بحيث اختلط الظلام بالنور. ومع ازدياد الرؤية وجدت أن حافلات النقل قد ازدحمت في مساحة ضيقة وقد ذهب معظم السواقين للاشتراك في القتال، وقد أصاب سلاح الجو الإسرائيلي عدداً من سيارات الذخيرة فأحرقها مع سواقيها.

بعد فترة ظهرت طائرات الميستير الفرنسية الصنع ثانية، فتصدّت رشاشات كتيبة المدرعات لها وأبقتها عالية تحوم وكأنها تبحث عن هدف، فأشرفت على تفريق حافلات الكتيبة على مساحة واسعة حتى انبلج النهار.

تابعت المدفعية تشديد القصف على مستعمرة كفرعمّان المقابلة لقلقيلية وعلى الطريق العام الملاصق لها لحرق المستعمرة ونقليات العدو وقواته المنسحبة المتجمّعة على تلك الطريق. وفعلاً اشتعلت النار ببعض البيوت والحافلات العسكرية ورأيت بمنظار مكبّر المدنيين اليهود يهربون من المستعمرة بينما يحاول الجيش الإسرائيلي منعهم. وما إن تعود طائرات الميستير لتفتش عن مواقع مدفعيتنا حتى يتوقف القصف، وما إن تبتعد الطائرات يستأنف القصف شديداً بحيث شل قدرة القوات الإسرائيلية التي انسحبت من قلقيلية وغادرت المنطقة. هذا وقد أحسن إحسان الحلواني إدارة القصف الفعّال دون الانكشاف للطائرات الإسرائيلية.

صادفني الزعيم فواز ماهر قائد المنطقة عائداً من قلقيلية ومعه سلامة عتيّق قائد الكتيبة السابعة، ثم التحق بنا الرئيس محمد كساب قائد الحرس الوطني ليصفوا لي المعركة كما يلي:

هاجمت كتيبة من مشاة اليهود تساندها سرية من الدبابات مواقع الحرس الوطني المؤلّفة من سرية، كما هاجمت سريتا مشاة يهودية محمولة على ناقلات مدرعة وسرية

دبابات مخفر بوليس المدينة وسرية احتلت تلة شرق المدينة، وفئة منها محمولة على ناقلات مدرعة احتلت تلة صوفين وكلا التلتين خاليتان من أي قوات أردنية. الهجوم لم يكن مفاجئاً كما تصوّره اليهود، إذ كان الحرس الوطني يراقب حشوده في منطقة مستعمرة عمّـان وفي منطقة زيتا وهي قرية جنوب قلقيلية، ودافع الحرس الوطني عن المدينة وعن مواقعه دفاعاً مستميتاً بينما تمكنت قوات العدو من نسف مخفر البوليس تحت ستار نيران الدبابات.

وصلت الكتيبة الثالثة وتقدّمت من شمال تلة صوفين بسريتين تتجهان نحو المدينة وسرية احتياطية تركزت شمال التلة. وبينما كانت السريتان المهاجمتان تتقدّمان انطلقت نيران كثيفة من خلفها من تلة صوفين فأولى سلامة عتيق قيام الهجوم لأحد قائدي السريتين، وعاد ليجمع قيادتـه والسواقين ويهاجم بهم تلة صوفين مع نار ساترة من سرية الاحتياط.

إحدى سريتي الهجوم اشتبكت مع قوة العدو المتمركزة على التلة الأولى شرق قلقيلية وأجبرتها على الفرار مع خسائر كبيرة، والسرية الثانية أدركت قوة الحرس الوطني ودارت بينهما وبين القوة اليهودية الرئيسية معركة ساخنة انتهت بهزيمتها غرباً وقواتنا تطاردها إلى غرب خط الهدنة.

سلامة عتيّق وأفراد قيادته هاجموا تلة صوفين مرة من الغرب ولم يتمكنوا من احتلال التلة، ثم عاد والتف عليها من الشمال واستمات سلامة وجنوده الذين استشهد معظمهم وأثخن الكثيرون منهم بالجراح. ولكن سلامة لم يكن من الطراز الذي يقبل الفشل، فاستنفر ما تبقى من قوته وهجم للمرة الثالثة بعدد قليل، حتى أزاح اليهود الذين أدركتهم الناقلات المدرّعة وهربت بهم نحو خط الهدنة عن طريق شمال زيتا بعد أن ألقوا جثث قتلاهم في الناقلات قبيل وصولي إلى التلة، التي شاهدت عليها آثار المعركة من دماء كثيرة انتشرت بقعاً على ظهرها وحواليها.

بعد إنهاء خطر العدو من الخلف عاد سلامة ليقود القتال في منطقة المدينة حتى نهاية المعركة، وجمّع جثث الشهداء وأمر بتضميد الجرحى. كانت خسائرنا أكثر من مئة شهيد وقدّرنا خسائر العدو المهاجمين والذين أصابهم القصف في منطقة تجمعهم بعد انسحابهم بمئة قتيل ومثلهم من الجرحى، وكان بين القتلى جنود من الدروز المتطوعين في الجيش الإسرائيلي. هذا عدا القتلى والجرحى الذين أصابهم القصف المدفعي وهم في حالة الانسحاب.

في اليوم التالي نشرت الصحف اليهودية الجدل العنيف الذي دار في الكنيست

الإسرائيلي حول الهجوم الفاشل والخسائر اليهودية الكبيرة التي اعتبرتها إسرائيل كارثة، ففسّر بن جوريون السبب بأن العملية كان مفروضاً أن تنجح بدون خسائر تذكر لولا أن كتيبة بدوية ظهرت فجأة على مسرح القتال وحاربت كالشياطين ولم تكن القيادة الإسرائيلية تعلم بوجودها.

تمكّنت الاستخبارات العسكرية من معرفة المسبّب للغارة الاسرائيلية وهو شاب من عمان متحمّس كلفته إحدى الشخصيات الأردنية بتنظيم تسلّل وقتل يهودي إن أمكن. فأرسل هذا الشاب متسلّلين اثنين فصادفا مزارعين وقتلاهما وقطعا آذانهما وأخذا يعرضان الآذان في رام الله.

أمرتُ بسجنه والتحقيق معه فاعترف بمسؤوليته واستكبر أن يعلم المحقق بالمحرّض الرئيسي، ولكننا قدّرنا أن المخابرات المصرية ذات علاقة بالموضوع، فأثرته مع الملحق العسكري المصري وطلبت منه إرسال برقية إلى اللواء عبد الحكيم عامر تُظهر احتجاجي الشديد على هذا الأسلوب من سوء التعاون.

وبعد أسبوع جاء السيد كمال رفعت مدير المخابرات العامة المصرية لمقابلتي وليعلمني أن هذه الحوادث لن تتكرّر، وأخبرني باسم الشخصية الأردنية التي تسلّمت منه شخصياً عشرة آلاف دينار لإجراء عملية التسلل التي تسببت بمعركة قلقيلية.

كان شعور جلالة الملك مزيجاً من الارتياح لنتائج المعركة ومن القلق من تصاعد الاصطدامات الأردنية اليهودية التي قد تؤدي إلى حرب شاملة، وكنت أحمل الشعور نفسه. أطلقت سراح الشاب الأردني الذي لم يكن يدرك أنه يضع الجيش في حرج ويعتقد أنه يقوم بعمل وطني، وبالتالي أكّد ما رواه السيد كمال رفعت ووعد بأنه لن يعود إلى مثلها.

معركة قلقيلية وبالرغم من أسبابها ومسببيها وعمّا أورثته من قلق عظيم عندنا، إلاّ أنها كانت درساً لإسرائيل بأن مواجهة الجيش العربي ليست نزهة كما كانت غاراتها على الرهوة وغرندل.

ولولا أن مواردنا لم تكن تسمح بزيادة حجم قواتنا وتكامل حاجاتنا من الأسلحة والذخيرة لنطمئن على قدرتنا في إطالة المعركة وتوسيع مساحتها، لسعينا نحن كجيش إلى استفزاز إسرائيل وجرّها للقتال كل يوم. فقادة الجيش والضباط لم يكونوا يحلمون بتحرير الجيش من القيادة البريطانية إلاّ لفتح أبواب التعاون العسكري العربي بما

يمكننا من إذاقة إسرائيل مرارة الهزيمة التي تجرّعناها سنة ١٩٤٨، والثأر منها على ما اقترفته من جرائم بحق الشعب الفلسطيني.

هذه الحوادث الخطيرة كانت تحدث، وهيئة الرقابة الدولية لا تعيرها اهتماماً، إذ إن الجنرال بيرنز رئيس الهيئة لم يكن معنيّاً بفهم الأمور بأكثر من أنها حوادث خرق هدنة عادية، يدّعي الإسرائيليون أن الأردنيين سبّبوها بالمتسلّلين من أراضيهم. كنت أعتقد أنه وبحكم خبرته كضابط عظيم سينظر في تصاعد العمليات في ما قد يؤدي إلى اتساعها لتشمل الحدود كاملة، وتصوّرت أنه سيسعى لدى همرشولد لتحذير إسرائيل من تعاظم عمليات الانتقام التي أدارتها، إلاّ أنه تقاعس عن واجبه. وكان من نتائج طرح هذه الاعتداءات على هيئة الأمم المتحدة واحتمالات قيام الحرب بين مصر وبريطانيا وحلفائها أن زار السيد همرشولد المنطقة، ومرّ بعمّان ليلتقي بجلالة الملك والحكومة وبي شخصياً. كان همرشولد بادي القلق من رؤيته للمستقبل ويبغي معرفة الموقف الأردني، فأكّدت له أن ما نعرفه من استعدادات بريطانيا وفرنسا وإسرائيل تجعلنا نتصوّر عدواناً بريطانياً فرنسيّاً مشتركاً على مصر، وعدواناً إسرائيلياً منسقاً معهما على الأردن. وساقنا الحديث إلى ما يمكن أن تفعله الأمم المتحدة، فأبديت له رأيي بأنّ أولى واجبات هيئة الرقابة الدولية تفترض الإعلان عن استعدادات الطرف أو الأطراف التي تنوي العدوان للأمم المتحدة وللدول التي سيقع عليها العدوان. وأضفت أن المراقبين وعلى رأسهم الجنرال بيرنز قادرون على تحرّي الاستعدادات في قبرص وفي إسرائيل للقوات البريطانية والإسرائيلية. وبالإضافة أوضحت له أن الجنرال بيرنز مهمل في واجباته التي أناط بها إليه، وأنه يبدو متحيّزاً إلى إسرائيل شأنه شأن سلفه الجنرال رايلي الأمريكي.

أكّد لي المستر همرشولد بأنه سيعمل على حياد الجنرال بيرنز وزيادة اتصالاته معي، فناقشته بمعنى الحياد وحدوده عندما تكون دول ثلاث تستعدّ للعدوان، وركّزت على أن الأمم المتحدة ممثلة به عليها أن ترفض العدوان، وأن أبسط درجات الرفض تتطلّب فضحه قبل وقوعه وإلاّ فإن الحياد يخرج عن معناه الإيجابي المفيد لضمان السلام.

قال همرشولد إنه سيضع نظريتي هذه في اعتباره، وإنه يعمل جاهداً لتسوية الخلاف بين مصر وبريطانيا بالوسائل السلميّة.

الانتخابات البرلمانية

صدرت الإرادة الملكية بتشكيل حكومة انتقالية برئاسة إبراهيم باشا هاشم

لإجراء الانتخابات على أثر استقالة سعيد باشا المفتي الذي حلّ البرلمان السابق في ١٩٥٦/٧/١، وتحدّد موعد انتخاب مجلس النواب الجديد في ١٩٥٦/١٠/٢١.

عند اقتراب موعد الاقتراع طلعت فكرة جديدة لم يسبق أن طرحت في الأردن سابقاً، وهي إلغاء الانتخابات وتعليق الدستور لفترة، وقد تشعّبت آراء دعاة الفكرة إلى طريقين، أحدهما يؤدي إلى حكومة مدنية والأخرى إلى حكومة عسكرية. وقد تولّى تحسين الفكرة وإظهار أسبابها لجلالة الملك مسؤولان أولهما رئيس الديوان الملكي وثانيهما مدير الأمن العام. والحجة التي يطرحانها هي أن البلاد قد تكون مقبلة على ظروف غير اعتيادية بحكم الموقف العالمي من تأميم قناة السويس؛ وأن ضرورة انصراف الجيش وأجهزة الدولة لمواجهة إسرائيل قد تتأثر بما تؤدي إليه الانتخابات من انقسامات شعبية قد تصل إلى انتشار الفوضى.

سألني جلالة الملك رأيي فنصحت بإجراء الانتخابات وأنّ ظروفنا الحالية والمستقبلية تتطلّب مشاركة الشعب كلّه في المسؤولية الوطنية، وأن الجيش لا يمكنه أن يتوزّع بين الدفاع والإدارة والسياسة للدولة. فقرر جلالته أن يدعو إلى اجتماع في القصر يضمّ رئيس الوزراء ووزير الداخلية والدفاع عمر باشا مطر وقائد الجيش ومدير الأمن العام بالإضافة إلى رئيس الديوان الملكي.

طلب الملك الرأي من المجتمعين فتكلّم رئيس الديوان عن مخاطر إجراء الانتخابات كما أسلفت بذكرها، ثم أحال على اللواء بهجت طباره أن يشرح حاجاته الأمنية لضمان الأمن من الفوضى التي ينتظرها، مقدراً أن الجيش سوف يطلب إليه الاستغناء عن ثمانية عشر ألفاً من عناصره لتنتشر في المدن والمناطق الانتخابية الرئيسية.

توجّه جلالته إلى وزير الدفاع والداخلية الذي علّق على رأي رئيس الديوان ومدير الأمن العام بقوله: إنه لا يتصوّر أن الحالة الموصوفة وحجم القوات المطلوبة أبداً إلا إذا قامت حرب أهلية، وهذا أمر لا يمكن اعتباره حتى في الخيال.وختم قوله بأنه مع الانتخابات. ثم خاطب جلالته رئيس الوزراء بقوله: يا باشا أنت من رفاق جدي ومن الذين ساهموا في وضع دستور البلاد وأطلب منك الرأي.

قال إبراهيم باشا: يا سيدي. الدستور هو عماد المملكة وقواعد ملكك ولا أوافق على مخالفته نصاً أو روحاً وأنا أؤيد إجراء الانتخابات.

قال الملك: ما رأي قائد الجيش في موضوع الأمن؟

أجبته بأنني أتكفّل بالأمن في كل البلاد دون الحاجة إلى أكثر من كتيبتين على أسوأ الافتراضات، ولكنني أشترط أن أتفرّد في مسؤولية الأمن دون تدخّل من أحد.

ختم جلالة الملك الجلسة قائلاً: أشكركم جميعاً وإنني أؤيد إجراء الانتخابات حرّة نزيهة وأحمّل قائد الجيش مسؤولية الأمن.

بدأ الراغبون بترشيح أنفسهم بالنشاط على مستوى الأحزاب والمستقلين، وقد تماثلوا جميعاً في الشعارات الانتخابية والتي انحصرت في غالبيتها في الدعوة للوحدة العربية وتحرير فلسطين والانتصار لمصر في قضية تأميم قناة السويس.

لم تخلُ الانتخابات من التنافس وتبادل بعض الاتهامات، ولكنها كانت في محصلتها اتهامات غير مثيرة. فمثلاً اتهم الإخوان المسلمون مرشحي الحزب الوطني الاشتراكي بتقاضي نفقات الدعاية الانتخابية من مصر وتقاضي البعثيين مبالغ من سوريا، كما ردّ هؤلاء على الإخوان بأنهم متعاونون مع الانجليز، ولكن تلك الاتهامات لم تكن مقتصرة على فترة الانتخابات.

فانتصار القوميين لمصر كان يثير حنق الإخوان المسلمين بمقدار حنق البريطانيين ونوري السعيد، وذلك لخصومتهم له في مصر في قضية اغتيال عبد الناصر ومغالاة الأخير في الانتقام منهم.

المساعدات العربية والاتفاقية العسكرية مع مصر

بعد معركة قلقيلية أرسلت إلينا سوريا خمسمئة رشاش صغير (كلاشينكوف) مع كمية كافية من ذخيرتها، كما أرسلت مصر ألف قطعة سلاح، منها البنادق والرشيشات والرشاشات مع ذخائرها، وما إن بلغت أخبارها بغداد حتى أرسلت الحكومة العراقية لنا ثلاثمئة بندقية ورشاش بريطانية الصنع، ثم ما لبثت مصر أن أرسلت لنا خمس طائرات مقاتلة نفاثة أضيفت إلى سلاحنا الجوي الصغير.

زارنا اللواء عبد الحكيم عامر يوم ١٩٥٦/١٠/٢٣ في عمان والتحق به اللواء نظام الدين رئيس أركان الجيش السوري، فعقدنا اتفاقية أردنية مصرية عسكرية تماثل الاتفاقية الأردنية السورية، وأضفنا إليها أن الاتفاقيتين تعتبر واحدة ملزمة للدول الثلاث. ثم تباحثنا في الوضع الراهن وتبادلنا المعلومات عن إسرائيل واستعدادات بريطانيا وفرنسا العسكرية واحتمال غزو مصر من الحليفتين وهجوم إسرائيل على الأردن.

في التحليل العام لنوايا بريطانيا اختلفت آراؤنا اختلافاً بيّناً، ففي حين يستبعد اللواء عبد الحكيم غزواً بريطانياً فرنسياً كانت معلوماتنا تؤكد أن قيادة مشتركة تكوّنت لقوات الدولتين، وأن قوات فرنسية تتواجد إلى جانب حليفتها في قبرص. وكذلك كانت معلوماتنا تؤكّد وجود عناصر قوات فرنسية في تل أبيب.

كان الاستنتاج المصري قائماً على استبعاد قيام بريطانيا بمغامرة لما يمكن أن تثيره من استنكار عالمي، فضلاً عن عظم نفقات الغزو التي قدرتها القيادة المصرية بثلاثمئة مليون جنيه استرليني في حين أن بريطانيا غارقة في الديون. وتقدّر القيادة المصرية أن التحركات البريطانية الفرنسية هي استعراض للعضلات بغرض ابتزاز مصر وفرض شروطها.

أمّا معلومات الاستخبارات العسكرية السورية فإنها كانت تؤدي إلى استنتاجات أقرب إلى قناعتنا من القناعة المصرية. وأثناء وجود القائدين الضيفين في عمان زارني الجنرال بيرنز رئيس هيئة الرقابة الدولية ليعلمني بأن حشوداً إسرائيلية كبيرة تتجمّع في منطقة بئر السبع مع تكديس عظيم للمواد القتالية والإدارية. سألته عن تقديره لاتجاه تلك الحشود فقال إنه يعتقد أنها موجّهة نحو جنوب الضفة الغربية أو نحو سيناء ورجاني أن لا أذكره كمصدر هذه الأخبار.

تلك الحشود الضخمة كما وصفها الجنرال بيرنز لم تكن في تقديري موجّهة إلى جنوب الضفة الغربية، لأن حجمها يفوق حاجة إسرائيل لاحتلال الخليل ومنطقتها، ولذا فإني اقتنعت بما لا يقبل الشك أن إسرائيل مشتركة في خطة الهجوم على مصر مع بريطانيا وفرنسا.

ولذا تطوّر البحث بين عبد الحكيم وتوفيق نظام الدين وبيني على اعتبار أن العدوان الثلاثي على مصر يشكل احتمالاً كبيراً أساسياً وأن العدوان على الأردن احتمال فرعي، إلا إذا ساندت بريطانيا وفرنسا القوات الإسرائيلية لتمكينها من توزيع جهد كافٍ على الجبهتين المصرية والأردنية.

وبناء على هذا التحليل تقرّر ما يلي:

١ ـ إذا كان الهجوم على مصر وحدها تتّخذ الإجراءات الفورية لقيام الجيش الأردني بعمل عسكري مؤثر باتجاه الشاطىء بغرض فصل شمال إسرائيل عن جنوبها أو أي عمل يختاره قائد الجيش الأردني.

٢ ـ يحرّك الجيش السوري مجموعة من قواته للاشتراك مع القوة الأردنية، وكذلك

يطلب اللواء عبد الحكيم من المملكة السعودية بتحريك لواء مشاة إلى الأردن بشرط وصول مجموع القوات خلال ٧٢ ساعة إلى الأردن وارتباطها بإمرة قائد الجيش الأردني.

٣ - إذا كان الهجوم الإسرائيلي على الأردن وحده تتحرك القوات السورية والسعودية نفسها بإمرة قائد الجيش الأردني.

٤ - تتكفّل مصر بتغطية الأجواء الأردنية وتوجيه ضربة إلى سلاح الجو الإسرائيلي تضعف قدرته أو تشلّها.

وقّعت الاتفاقية المصرية الأردنية للتحالف العسكري يوم ١٩٥٦/١٠/٢٤، وعقد الملك حسين مؤتمراً صحفياً أعلن فيه أن الأردن سيقاتل إلى جانب مصر إذا تعرّضت لعدوان من أية دولة كانت. وانتقل المؤتمر الصحفي إلى مكتبي بترتيب مع مديرية الإعلام الأردني، فأعلنت أننا اتفقنا على أن يكون اللواء عبد الحكيم عامر قائداً للقوات الأردنية والسورية والمصرية منذ ذلك اليوم. قصدت بهذا الإعلان أن يفهم الأعداء قوة تضامننا في حين لم تكن مسألة تعيين عبد الحكيم بحثت في اجتماعاتنا، ولمّا راجعني عبد الحكيم بعد المؤتمر الصحفي في هذه النقطة قلت له إنني قصدت ما قلت وهكذا سيكون.

وفي اليوم التالي افتتح الملك البرلمان الجديد، ودعوت عبد الحكيم ونظام الدين لحضوره، وكانت مظاهرة فَرِح لها أعضاء المجلس، ولكن الفرح العظيم كان في شوارع عمان والعواصم الأردنية الأخرى التي شهدت الاحتفالات العفوية من فئات الشعب كافة الذي طالما تمنّى وحدة العرب.

في مساء يوم ١٩٥٦/٦/٢٥ رغب الملك أن يشرّفني في مرلي لتناول القهوة، فاستشارني في أمر اختيار رئيس الوزراء الجديد، فرشّحت له السيد عبد الحليم النمر من الحزب الوطني الاشتراكي. ولقي الترشيح استحساناً من جلالة الملك واستدعاه صباح اليوم التالي وكلّفه بتقديم قائمة الوزراء على أن يصدر كتاب التكليف بعد الاطلاع على أسماء الوزراء.

وكنتُ وعبد الحكيم ونظام الدين متّجهين إلى دمشق لنقابل الرئيس القوتلي ونلتقي بأركان الجيش السوري، وقد بارك الرئيس القوتلي خطوتنا بالاتفاق الثلاثي. وأمضينا يوماً في دمشق ثم عزمنا المغادرة بعد أن استنفدنا البحث في كل المواضيع العسكرية وذهبنا إلى المطار لوداع عبد الحكيم، فانطلقت إحدى الطائرتين باتجاه البحر مع اتصال بينها وبين برج المطار في دمشق للتضليل، بينما

انطلقت الطائرة الثانية باتجاه السعودية وعليها عبد الحكيم وضباطه.

في طريقي إلى عمان استمعت إلى إذاعة عمان التي أذاعت تكليف سليمان باشا النابلسي بتشكيل الوزارة خلافاً لما قرّره الملك مسبقاً، ولم أجد تفسيراً لذلك حتى التقيت بعبد الحليم النمر الذي فسّر لي سبب التغيير. أثناء مشاوراته مع الحزب الوطني الاشتراكي اقترح عليه شفيق أرشيدات، وهو من أقطاب الحزب، أن يلتمس عبد الحليم من جلالة الملك استبداله بسليمان النابلسي لاعتبارات منها، أن سليمان هو أمين سر الحزب ويتميّز بخبرة أوسع، ومنها أن سليمان لم يفلح في الانتخابات البرلمانية.

وهكذا تشكّلت الحكومة التي سميت بالحكومة الوطنية، ربّما لأنها ضمّت عدداً من الوزراء القوميين الشباب الذين كانوا يتصدّرون الأحداث الشعبية ويقودون التيار السياسي ضد الإنجليز. ولأنها جاءت إثر تخلّص الأردن من النفوذ البريطاني وإثر تحقيق التضامن الدفاعي مع سوريا ومصر، وبدأت الوزارة أعمالها يوم ١٩٥٦/٦/٢٩.

العدوان الثلاثي

علمنا صباح ١٩٥٦/٦/٢٩ أن إحدى الطائرتين التي رافقت طائرة عبد الحكيم عامر أسقطت في البحر الأبيض المتوسط وعليها عدد من الصحافيين المصريين والملحق الصحافي في السفارة المصرية في عمان، وقد اعتقد الأعداء أنها تقلّ عبد الحكيم بينما وصل إلى القاهرة بالطائرة الثانية عن طريق السعودية، ولم نعلم في ما إذا كان البريطانيون أم الإسرائيليون هم الذين أسقطوها.

وفجر يوم ١٩٥٦/٦/٣٠ أيقظني قائد حامية العقبة بالهاتف ليبلغني أن أرتالاً من القوات الإسرائيلية تدخل سيناء من طرف إيلات الشرقي، فأبلغت الملحق العسكري في اللحظة نفسها، وتبيّن في ما بعد أن الغزو الإسرائيلي بدأ ليلاً.

استنفرت القوات الأردنية كافة في الضفتين، وكانت أغلبيتها الساحقة في الضفة الغربية، وكلّفت الزعيم صادق الشرع بتحضير مشروعي هجوم على إسرائيل، أحدهما باتجاه ناثانيا لفصل إسرائيل شمالها عن جنوبها، وذلك باستعمال اللواء الثالث بقيادة الزعيم راضي الهنداوي وكتيبتين من الحرس الوطني بإسناد كتيبة مدفعية وبطارية الهاون الثقيلة وكتيبة دبابات الجيش السوري المنتظر وصولها. فوضع الزعيم صادق الشرع تصوراً لهذا الهجوم وخطة حركات عامة جيدة، ولكنها تثير القلق من ناحية واحدة وهي سهولة طبيعة الأرض وانكشافها بين خط

الهدنة والساحل، ممّا يعرض القوات لفتك سلاح الجو الإسرائيلي الذي لم نكن نملك وسيلة لمعالجته.

اجتمعت مع اللواء الحياري واستعرضنا المخاطر التي تنجم عن الاتجاه بقواتنا إلى الشاطىء، وبحثنا عن بدائل فلم نجد إلّا هدفاً واحداً يحقّق سيطرة مشاتنا وتخفيف أثر سلاح الجو الإسرائيلي وهو الهجوم لاحتلال المستعمرات غرب القدس.

استقرّ الرأي على هذه الخطة، وأوكلت أمر تجميع اللواء الثالث وثلاث كتائب من الحرس الوطني التي نظمت من المنطقة نفسها أعمال الإسناد المدفعي كافة بإمرة الزعيم راضي الهنداوي قائد اللواء المشاة الثالث، مع توجيه بالاقتحام على خط بين مستعمرة الخمسة وبتير.

وبحثنا أمر مناورة هجومية على محور طولكرم - ناتانيا بقصد الإشغال والتمويه، تشترك فيه كتيبة مشاة وكتيبة حرس وطني وكتيبة الدبابات السورية.

كما بحثنا إمكانيات إشغال القوات اليهودية داخل مدينة القدس باشتباكات فرعية وحركات صغيرة في منطقة الخليل بقيادة رفيفان خالد. ابتدأت الأوامر تتسلسل حتى وصلت إلى قيادة كتائب اللواء الثالث، وعمل الحياري على توفير كتائب الحرس الوطني وإلحاقها بإمرة الزعيم راضي الهنداوي، وانصرف راضي إلى دراسة تفصيلية لخططه وأهداف القوات التي وُضعت بإمرته.

لم نُدخل في خطة الهجوم مهمات للواء المشاة السوري وأسلحته المساندة، في ما عدا كتيبة الدبابات انتظاراً لوصولها من حيث المبدأ. فخصّصنا كتيبة مشاة لمنطقة القدس وكتيبة أخرى لمنطقة نابلس والكتيبة الثالثة لجسري اللنبي ودامية، بانتظار ما ستسفر عنه عملية اختراق غربي القدس وتطورات القتال فيها.

كان تصوّري أن طبيعة الأرض في غرب القدس تفرض معركة مشاة، وهي المعركة المفضّلة للقوات الأردنية بالرغم من الخسائر التي ستكون كبيرة في بداية الاختراق الذي قدّرنا له سهولة التغلغل بعد كسر الخط اليهودي الأول. هذا فضلاً عن أن هذا الاقتحام سيفرض على القيادة الإسرائيلية سحب قوات كبيرة من سيناء بغرض إنقاذ القدس اليهودية، ممّا يؤدي إلى تخفيف الضغط عن الجيش المصري.

لقد أكمل القائدان اللواء علي الحياري والزعيم راضي الهنداوي

الاستعدادات والخطط كافة، فانتظرنا وصول القوات السورية والسعودية التي كانت ضرورية لمواجهة احتمال عودة معظم القوات الإسرائيلية لحماية القدس تاركين مهمة الغزو لبريطانيا وفرنسا. فضلاً عن أن عبد الحكيم عامر كان واضحاً في توجيهاته للقوات السورية والسعودية بأن وصولها كاملة يجب أن يتمّ في يومين لتمكين القوات الأردنية من مباشرة العمليات الهجومية.

قبل العدوان الثلاثي بفترة طويلة كانت مديرية الإدارة واللوازم في قيادة الجيش أكملت عمليات تكديس الذخائر والمؤن للفرقة المشاة الأولى والأسلحة المساندة والحرس الوطني، لما يكفي استقلال القوات في الضفة الغربية عن الشرقية لمدة شهر في حالة محاصرة إسرائيل لها باختراق وادي الأردن من الشمال. وكانت أماكن التكديس اختيرت بالتشاور بين العقيد جبران حوا وقادة الفرقة والألوية بما يسهّل الوصول إليها والحفاظ على سريّتها وصيانة مخزوناتها.

لذلك فإن اتخاذ القرارات الحربية ودخول تشكيلات القوات المعارك لم تكن تأخذ وقتاً طويلاً. ومن هنا فإن خطة اقتحام غربي القدس أو خط طولكرم ـ ناثانيا لم تحتمل وقتاً طويلاً في إعدادها. فلو وصلت القوات السورية والسعودية يوم ١١/٢ لقمنا بإنفاذ الخطتين يوم ١٩٥٦/١١/٣.

وصل اللواء السعودي يوم ١١/٣ مساء داخل الحدود الأردنية، فتحركت للاطلاع على حالته ووجدت نوعين من الجنود والضباط: نوع نظامي بضباطه وأفراده ونوع غير نظامي، وكلاهما لا يصلح للقتال الحديث، كما كانوا جميعاً من المشاة. لذلك تحدّثت مع العقيد محمود عبد الهادي، الذي كان مسؤولاً عن القوات السعودية، واتّفقت معه على وضع اللواء في غور الأردن للاشتراك مع القوات الأردنية المرابطة فيه بهدف صدّ أي اختراق إسرائيلي أو إنزال مظلّي في منطقة الوادي.

ومع إلحاح محمود عبد الهادي على دفع اللواء إلى الخطوط الأمامية والاشتراك بالعمليات، إلّا أنني وعدته أن أنقل اللواء إلى مواقع دفاعية أمامية عندما نقوم بالهجوم غربي القدس. لم أكن أجهل مزايا الأفراد السعوديين التي تماثل مزايا جنود البدو في جيشنا من حيث شجاعتهم واسترخاصهم الحياة، إلّا أنني لم أكن مستعداً للتضحية بهم في معارك لا يتكافأون فيها مع العدو من حيث التنظيم والتسليح.

المقدّم حمد الشحيمري قائد اللواء كان أيضاً متفهّماً لوجهة نظري وإلى

نقاط الضعف التي أبرزتها له، فأرسلته مع أحد ضباط العمليات في قيادتي ليعرف منطقة انتشار اللواء ومهماته.

محمود عبد الهادي وحمد الشحيمري كانا يتمنّيان خوض الحرب، كما كان الضباط والأفراد الذين تصوّروا القعود في وادي الأردن عيباً في حين يقاتل الأردنيون، ولكن مهمتهم في وادي الأردن لم تكن بسيطة إذا أجبرنا إسرائيل على تخفيض قواتها في سيناء لمواجهتنا.

أخذت ألحّ على دمشق للإسراع في إيصال قواتها إلينا فاتصلت مع اللواء نظام الدين ومع العقيد رياض الكيلاني مرات عديدة، وما إن وصلت مجموعة اللواء السورية حتى وضح لي سبب التأخير.

الجيش السوري لم يكن مجهّزاً بنقلياته وتنظيمات إدارته للحركة السريعة مثل الجيش الأردني، ولذا فإنه نقل لواء المشاة بما تمكّن من جمعه من حافلات مدنية (باصات وشاحنات) وقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً. كما وأن ضبط السوّاقين المدنيين لانتظام الحركة لم يكن سهلاً، فبعضهم نفد الوقود منهم في المفرق والبعض في الزرقاء وانتشروا على كل محطات الوقود المدنية للتعبئة، واحتار ضباط الاستقبال الأردنيون في تجميع اللواء في منطقة خو المقررة لمبيتهم تلك الليلة قبل الانتقال إلى الضفة الغربية.

وفوق هذا فإن لواء المشاة لم يكن يحمل معه المؤونة عادة من طعام ناشف أو ذخيرة غير ما يحمله الجنود معهم، لذا فقد أوعزت إلى العقيد جبران حوّا مدير الإدارة واللوازم أن يعالج قضايا الوقود والمؤن عن طريق مستودعاتنا.

وصادفتنا مشكلة أخرى، وهي أن كتيبة الدبابات وصلت إلى منطقة بين الزرقاء والمفرق ومعها ذخيرة الخط الأول فقط، كما أن الوقود نفد منها ويرفض قائدها تعبئة الدبابات إلّا من بنزين مكرّر في مصفاة صيدا، في حين أن الجيش وباعة البنزين لم يكونوا يتعاملون بهذا النوع من البنزين.

أما المدفعية المساندة لمجموعة اللواء فقد استقرّت في مواقعها في منطقة شمال الأردن بحيث تغطي شمال وادي الأردن والمحاور المحتملة لأي هجوم يهودي على الجبهة السوريّة. كتيبة المدفعية هذه كانت مثالية في قائدها وضباطها بحيث لم يكن ينقصها من حاجات القتال شيء.

وضعية مجموعة اللواء هذه في سوء إدارتها، وكذلك قضية الوقود للدبابات

أجبرتني أن أنسى كل مقتضيات المجاملة، فأبديت رأيي إلى اللـواء نظام الـدين هاتفياً، وقلت له إن هيئة أركان حـربه تستحق الإعدام شنقاً. وأعلمته أن مصر وسوريا والأردن يتصوّرون أن مجموعة لـواء صالح للقتال أصبح بإمرتي في حين أن هـذه المجموعة لا تعادل كتيبة مشـاة أردنية.

أصابت اللـواء نظام الدهشـة والعجب ممّا أقوله، وطلب مني مهلة ساعة ليرد عليّ، ولكنه عندما كلّمني بعد ساعات لم يكن يملك إلاّ عبارات الأسف.

ومع ذلك أمـرت مدير التدريب جودت الأتاسي، الملحق بقيادتي من الجيش السـوري، بتوجيه كتيبة مشاة لتتخـذ مواقعها على جسـر اللنبي وكتيبة على جسـر دامية وإبقـاء كتيبة احتياط في الضفـة الشرقيـة.

وأمـرته أيضاً بتوجيه كتيبة الـدبابات إلى منطقة قلقيلية، فاعتذر عن تنفيذ هذا الشق من الأمـر بحجـة البنزين من ناحيـة ومن ناحيـة أهم أن سواقي الدبابات غير مدرّبين على طرق متعرّجة ومنحدرة مثل الطريق الموصلة بين الضفة الشرقية والغربية، خصوصاً وأن الأمطار بلّلت الطرق ممّا يؤدي بالدبابات إلى أن (تتزحلق) وتتدهـور إلى الوديان.

قلت له: أبلغ قائد جيشك أنني لا أقبل هذه المعاذير. إمّا أن تملأوا دباباتكم بالبنزين العادي وهو صالح لتشغيلها وتسييرها إلى الضفة الغربية أو تعيدوا قواتكم إلى سوريا. قل له: أنتم طبقتم المثل القائل (عيناك وما أنا عندك)، وهـذا لا يفيدني في شيء فأنا مقبـل على معركـة ضاريـة لا ينفع فيها إلاّ المقاتلـون.

قـل له أيضـاً: إن اللـواء السـعودي وعلى قلـة تدريبـه وتنظيمـه يلحّ على القتـال بينما نصفـه شبـه عسكـري.

اتصـل جودت الأتاسي بقائد المجموعة السـورية العقيـد سهيل العشي الذي سـارع لمقابلتي ليقول: سنحـرك كتيبتي المشاة إلى مواقعها فـوراً أما الدبابات فإني عـاجز عن تحـريكها.

سألتـه عن السبب فقال إنه بالـرغم من كـونه قـائد المجموعـة لا يمكنـه مخالفة الـرائد أحمد عبد الكريم أركان حـرب المجموعـة، والـذي ينتمي إلى فئة من الفئات العسكـرية السوريـة ذات النفوذ. وأحمـد يريد أن تبقى الكتيبة قريبة من دمشق لأسباب سياسية تتعلّق بالفئات العسكرية الأخـرى، كما وأن الـرائد طعمه العـودة الله قـائد الكتيبة ينتمي إلى الفئة نفسها التي يتزعمها أمين النفوري.

كانت القوات المصرية القليلة المتبقية في سيناء تقاتل بضراوة، بينما تتعرّض مصر لقصف شواطئها وقصف المدن على قناة السويس، ولذا فإنه لم يكن من الحكمة في شيء مصارحة اللواء عبد الحكيم بحقيقة القوات العربية المرسلة إلينا.

لذلك اكتفيت بوضع القوات السعودية والسورية في وادي الأردن وألغيت فكرة اختراق السهل الساحلي لفلسطين بقصد التمويه، وطلبت إلى اللواء علي الحياري إبلاغ الزعيم راضي الهنداوي إصدار الأوامر لمجموعات القتال التي وضعت بإمرته والاندفاع بها فجر يوم ١٩٥٦/١١/٥ إلى أهدافها غربي القدس.

بعد ظهر يوم ١٩٥٦/١١/٤ أبلغني رئيس الوزراء أن الرئيس عبد الناصر كلّم جلالة الملك حسين ثم كلّمه ليوضح أن المسألة خرجت عن إطارها وأصبحت دولية، وأنه يرجو من جلالة الملك وقف العمليات الحربية على الساحة الأردنية.

وبعد قليل حمل إليّ الملحق العسكري المصري ومعه المقدم يسري قنصوه مدير العمليات الحربية في قيادتي، وهو مصري، فحوى رسالة من اللواء عبد الحكيم عامر ملخصها ما يلي:

لقد بدأت القوات المشتركة البريطانية والفرنسية عمليات الإنزال الجوي والبحري على أرض مصر، ويخشى أن تتحوّل القوات الإسرائيلية من سيناء إلى احتلال الضفة الغربية، وأنه يرجو إيقاف عمليات الهجوم المتّفق عليه والاكتفاء بالدفاع عن الأراضي الأردنية.

كلمني الملك وفي نفسه مرارة من الوضع الذي نشأ ويسألني عن إمكانية الاستمرار في خطتنا الهجومية. فسارعت إليه لأضعه في الصورة الواقعية بعد استحالة الاعتماد على القوات السوريّة والسعودية في معركة جدية وطويلة، يكون فيها قسم كبير من جيشنا مشغولاً في منطقة الدخول فيها أسهل من الخروج منها إذا تفرّغ الجزء الأكبر من الجيش الإسرائيلي لنا بعد أن أصبح ذلك سهلاً بحكم الإنزال البريطاني الفرنسي بقوات عظيمة.

الكلام عن الحرب ليس مثل الكلام في السياسة والحديث عن القتال ليس مثل المقاتلة خاصة بالنسبة للجيوش. والحماسة المتقدة لدى الأفراد لا تسدّ مسدّ التدريب والتنظيم والقدرة على قيادة القطعات العسكرية. وتخيُّل الانتصار يظل أحلام يقظة أو مناماً إذا لم يتوفر الجند القادرون والقادة ذوو العلم والخبرة. يدفعني إلى قول هذا بعض الضباط الكبار الذين يتشدّقون بما لم يؤهلوا من أجل ما وجدوا

من أجله، وقد صادفت منهم الكثير في فترة العدوان الثلاثي وما بعدها.

فالحـــرب وسيلة سياسة تنفذها الجيوش بالقتال والتضحية وبدونها تبقى السياسة كلاماً، وأخطر ما يمكن أن تواجهه أمة أن يتقن ضباط جيشها كلام السياسة أكثر من إتقانهم صناعة الحرب.

أقول هذا لأن حماسة بعض الضباط في الجيش السوري المتحمّسين للقضية العربية لم تتكافأ في تلك الأيام مع فهمهم لضرورات الحرب. وهذا موضوع يستحق الجدل بين السياسيين وبعضهم وبين العسكريين وبعضهم في تصوراتهم لقضايا السلم والحرب.

تلك الوضعية الحرجة التي وجدت فيها نفسي كقائد للمسرح الأردني لم تكن موضوعاً للدعاية والإعلان آنذاك، لما يترتب عليها من آثار معنوية عامة، فاكتفيت بأن طلبت من اللواء نظام الدين تغيير قائد المجموعة سهيل العشي بقائد آخر يحكم أمر المجموعة ويفرض إرادته على ضباطها. فاستجاب إلى طلبي وعيّن العقيد نبيه الصباغ الذي قال لي في أول لقاء معه في مكتبي: عليك الأمر وعليّ التنفيذ. وفي أحد الأيام زارني العقيد عفيف البزري قادماً من دمشق ليصوّر لي رؤيته للاحتمالات الدولية. الموقف لدول العدوان الثلاثي، والموقف الأمريكي والموقف السوفييتي والتركي والعراقي و. . و. . . . الخ. قلت له: أوضح قصدك فأنا مشغول جداً. فعاد إلى الحديث في الحلقة المفرغة نفسها بما أزعجني. فسألته في ما إذا كان رئيس هيئة الأركان قد كلفه ليقوم بهذه الأبحاث معي فنفى ذلك، وقال إنه قدم لزيارتي دون تكليف من أحد.

قلت له: أيها العقيد لم أفهم قصدك ولكني سأفهمك قصدي. لا يهمني من أمر مواقف تلك الدول شيئاً حتى ولو قامت الحرب العالمية، فذهني مشغول في أمر عملية حربية سيقوم الجيش العربي بها وما يمكن أن تسفر عنه العملية من اتساع لساحتها في الضفة الغربية وحساب إمكانياتي في مواجهة إمكانيات العدو الإسرائيلي. وليس في كلامك ما يضيف إلى قدرتي شيئاً ويحسن بك أن تعود إلى دمشق.

صدر قرار وقف إطلاق النار من مجلس الأمن وقرار سحب قوات العدوان من أرض مصر في ١٩٥٦/١٢/٧، فانتصرت مصر في إظهار إرادتها في وجه دول متفوقه وفي وجه إسرائيل. وهكذا أضيف إلى رصيد عبد الناصر رصيد جديد

ضخم جعله ملتقى أنظار القادة العرب ودول العالم الثالث، فضلاً عن شعبية ندر أن تحقّقت لزعيم آخر في الوطن العربي.

لم تكن مصر قادرة على انتزاع نصر عسكري من الغزاة، ولكن صمودها حرّك الضمير العربي والعالمي لنصرتها. وبذلك قضت على خرافة الإمبراطوريات الاستعمارية في القرن العشرين بما أفاد كل الشعوب الطامحة إلى التحرر من الاستعمار.

إن الدارس المتفحّص لوقفة الزعامة المصرية في وجه قوى عالمية على الصعيدين السياسي والعسكري، مع بُعد الشقة بينها وبين أعدائها قوة وخبرة وفي ظروف لا ضمانة متوفرة بالنجاة من المعركة، يجد الدارس أن تلك الزعامة جديرة بالاحترام العميق والإكبار. كنّا نشعر بثقل العبء ونحن نحمل قسطاً منه، ولذلك كان التقدير لعبد الناصر وهو يحمل العبء العظيم لأخطر مرحلة في سفر الكفاح العربي الحديث.

في معركة السويس شعرت بريطانيا بشكل خاص بالكراهية التي تسببت بها لنفسها في أمة عربية عزمت على امتلاك حريتها، وأحسّت في الأردن بشكل خاص بعظم جريمتها في الهجوم على مصر متحالفة مع فرنسا وإسرائيل. فبالإضافة إلى الحجر على القواعد البريطانية ومنع أي حركة منها وإليها، فقد قطعت عنها المياه وتوقف متعهدو التموين عن تزويدها إلى فترة بعد جلاء قواتها عن السويس.

وكذلك فإن قرار إنهاء المعاهدة البريطانية، الذي كان أحد مناهج العمل الوطني منذ تحرير الجيش أصبح موضوعاً لا يقبل الانتظار.

آثار العدوان الثلاثي

من حقائق تاريخ العدوان الثلاثي أن روسيا هدّدت دول العدوان تهديداً قوياً لوقفه والانسحاب من الأراضي المصرية، ومن الحقائق أيضاً أن تلك الدول كانت تأمل أن يؤدي التهديد الروسي إلى كسب الموقف الأمريكي إلاّ أنها باءت بالخيبة من الموقف الأمريكي.

ذلك لأن الهدف البريطاني الفرنسي الإسرائيلي المشترك وإن لم يختلف عن الهدف الأمريكي بإسقاط نظام عبد الناصر، إلاّ أنه تناقض مع الطموح الأمريكي للحلول محلّ الاستعمار القديم مع قيم تختلف ظاهرياً ولكنها تتماثل في الجوهر.

فبينما ذهبت بريطانيا وفرنسا إلى تحقيق نفوذها واستغلالها في المنطقة عن

طريق القوة والإرهـاب، أرادت أمريكا أن تشتري حـرية أهـل المنطقة بالمساعدات المشروطة التي تؤدي بالتالي إلى وقوع الدول العربية أسيرة في قبضتها دون استعمال القـوة العسكرية. وكان من الطبيعي أن تلجـأ أمـريكا إلى الإغـراءات المبطّنـة تحت شعـار المسـاعدات الاقتصـادية وإلى أعمـال التفـرقة بين الـدول العـربية وجـرّ العـرب دولة إثـر أخـرى إلى صلح مع إسـرائيل يحقّق لها كل مصالحها.

فشلت أمريكا في إخـراج مصـر عن منهاج الثـورة وخطها العـربي التحـرري، كما فشلت في جـرّها إلى خطوات سلميّة تفوز بها إسـرائيل بحـرية الملاحـة في البحـر الأحمر وقنـاة السويس، وبالتالي عقـد معاهـدة الصلـح المنفـرد، فلجـأت إلى الوسـائل الأخـرى.

أمريكا أدركت أن الثـورة المصـرية تعتمد خارج مصـر على قوتين: مساندة العـرب، في ما عـدا حكـومة بغداد، واندفاع الشعوب لتأييدها أولاً، وصـداقة مصـر مع السعودية الغنية بثروتها البترولية ثانياً. ولما كانت السعودية ترتبط بتعاهـد مع أمريكا وتعتمد عليها في استخراج النفط وتسويقـه صارت محيّرة بين مصـر واتجاهها وبين أمريكا وما تهدف إليه.

والعهد الأمريكي السعودي الذي كان يطـرح للحـديث بين السـاسة العـرب لم يكن واضح المعالم مثل أي معاهـدة بين دولتين. مع أن العسكريين الأمريكان وخبراء النفط والمال والـزراعة وممثلي الشركات كانوا يملأون السعودية وبشكل ملحوظ، بسبب أن السعودية لم تكن قد خطت بعد بأبنائها نحو العلم والإدارة بالـدرجة الكافيـة.

هـذا العهـد كان يوفّر للسعوديـيـن حمايـة من أمريكا، وبالمقابل يوفّـر لأمريكا امتيازات لا حـدود لها في جـوّ من التراضي والقبول. ولكن هـذا التعاون الذي بدأ بريئاً في بدايـة أمـره أصبح يتعاظم لسببين:

الأوّل: اختلاف الأسلـوب الأمريكي عن البريطاني وتنافسهما الذي أعطى السعودية نوعـاً من الطمأنينة، فضلاً عن الجهل الذي سـاد المنطقة كلها عن الحقائق الأمريكية، ممّا جعل صورة الأمريكي مقبولة مقارنـة بالبريطاني والفرنسي.

الثاني: تصـوّر النظام السعودي بأن الخطـر الشيوعي أصبح على أبوابها، وهو تصـوّر أجهـد الغـرب نفسـه في إيصالـه إلى قناعات الكثيرين من العـرب. وقد سـاعد عـلى عمق التصـوّر في السعودية كـون المذهب الشيوعي إلحـادياً يكفـر بالأديان السماويّة.

على الصعيد الإقليمي كانت السعودية متقاربة دوماً مع مصر وسوريا وعلى حذر من بغداد وعمّان كونهما ملكيتين هاشميتين. فكان لها من القاهرة ودمشق ما يكفل لها التوازن على الصعيد العربي مع بغداد وعمان.

إلّا أن الأحداث كسرت هذه المعادلة بخروج الأردن من دائرة النفوذ البريطاني وبقاء العراق فيه ممّا زاد في طمأنينة السعودية. ولكن السعودية في الأوضاع الجديدة التي كشّرت فيها أمريكا عن أنيابها وأسفرت عن أهدافها الحقيقية أصبحت في وضع لا تحسد عليه، وحاولت للخروج منه أن تأخذ دور الوسيط بين أمريكا والدول الثلاث الأخرى لتتخطى الحرج. ولكن التصادم بين الأهداف العربية والأمريكية كان واضحاً والتوفيق بينهما كان مستحيلاً بسبب إسرائيل.

ولما كانت السعودية غير قادرة على مواجهة أمريكا بعد العدوان الثلاثي لأسباب أولاها استحالة الاستفادة من المورد الوحيد، وهو النفط الذي يعتبر شريان الحياة للسعودية، بدون التعاون مع أمريكا، فإنها سلكت طريق السلامة للمورد مع التحفظ على عناية أمريكا بإسرائيل وفرض الصلح على العرب.

مصر وسوريا لم يكن أمامهما مفرّ من التسلح من روسيا، والأردن وجد نفسه على الطريق نفسه، وإن لم تسمح له الظروف في السير فيه. فلم يكن ممكناً، وخاصة بعد العدوان الثلاثي ومحاولات الضغط الأمريكية على مصر بعد العدوان، إلّا أن يزيدا في التعاون مع موسكو. وكذلك الأردن الذي يواجه خطراً إسرائيلياً مستمراً لم يكن قادراً على الدفاع بدون سلاح كافٍ أصبحت الاستزادة منه من بريطانيا موضوعاً مستحيلاً.

والخطر الإسرائيلي في الخمسينات كان يهدّد الأردن ومصر وسوريا وكانت السعودية والعراق ومنطقة الخليج بمنأى عنه، فضلاً عن أن الثروة البترولية السعودية لم تكن مهدّدة بحكم استعداد أمريكا والغرب كله لحمايتها بحكم الحاجة إليها. لذلك اختلفت ظروف الدول الثلاث عن ظروف دول البترول، سواء منها ما كان عضواً في حلف بغداد أو متعاهداً مع أمريكا. ويرد في هذا المجال سؤال مهم وهو:

هل كانت العراق، عضو حلف بغداد، مضطرة لمعاداة الدول الثلاث؟ أو لم يكفها أنها خرجت عن أماني الشعب العراقي والعربي؟

وفي الوقت نفسه يرد السؤال الثاني وهو: هل كانت السعودية وعلى ضعف

قوتها الشاملة قادرة على رفض الضغوط الأمريكية؟ وهل كان بإمكانها الاستمرار في الصمود إلى جانب الدول الثلاث؟.

ماذا لو عصيت السعودية أمريكا وتصوّرت الأخيرة أن البترول سيخرج من قبضتها كما خرج السويس من قبضة شركة قناة السويس في ظروف الانفجار العربي آنذاك؟

لما كنت ملحقاً عسكرياً في فرنسا سنة ١٩٥٤ بلغتني أخبار أن أمريكا تنوي إقامة نظام مستقل عن الرياض في منطقة البترول السعودية. وبعد تمحيص المعلومات تبيّن لي أن ما وُصف لي بأنه نيّة مقرّرة كان في الحقيقة أبحاثاً وأفكاراً، لها من يسندها ويشجعها في الإدارة الأمريكية ولها من يرفضها.

ولكن مسألة تأميم قناة السويس تختلف عن تأميم البترول في السعودية، لأن مصر قدرت على التأميم ومسؤوليته سواء بتحمل الصراع أو إدارة القناة بينما لم تكن السعودية قادرة على هذا أو ذاك بالنسبة لبترولها. قضية البترول العربي كانت تتطلّب أن يكون العراق في تلك المرحلة خارجاً على الإرادة الأجنبية لتكامل القوة العربية للاستحواذ على ثرواتها المسلوبة.

أصبح الوضع العربي مهزوزاً بعد العدوان بخروج السعودية من حلقة الدول الثلاث، مع أن بريطانيا وفرنسا وإسرائيل فشلت في ما اعتدت من أجله على مصر. وكان سبب هذه الوضعية الجديدة دخول أمريكا حلبة الشرق العربي.

وفي سياق آثار العدوان فلا بد وأن نطرق موضوع الشيوعية في المشرق الذي كان المبرّر المعلن من الدول الاستعمارية لأعمال تنظيم الأحلاف ومنها حلف بغداد، وأعمال التآمر لمصادرة استقلال بعض الدول العربية، خصوصاً في الخمسينات وهي مرحلة الانفجار العربي القومي.

لمّا كانت الشيوعية تمثّل خطراً على الدول الغربية وترغب بتكتيل العالم الثالث حولها لمواجهة الخطر، فقد كان من المجدي لتلك الدول أن تغيّر فلسفتها بأن تتفاوض مع دول العالم الثالث على أساس حريتها، طالما وأنهم في الغرب ينصّبون أنفسهم حماة لما زعموه من عالم آخر.

ومعالجة الخطر ذلك يجب أن ينبثق من نزعة الشعوب إلى الحرية. أما أن يطلب المستعمرون إلى تلك الشعوب الاستنفار لخطر لم يواجهوه بعد، لم يكن إلّا عملاً من أعمال السخرة بدون مقابل. إذ كيف يمكن لمن هو مستعبد أن يدافع عن حرية مستعبديه ومستغلّيه؟

أمّا الدول العربية فإن قوتها الرئيسية تكمن في ما اعتنقته أمّتها من دين وما جمعها من هوية قومية، وبدونهما فإنها لن تقدر على حماية نفسها فكيف لها أن تحمي مصالح الغير. ولكن الغرب أنكر على العرب حقّهم في حرية الاختيار وحاول طمس كل مقومات وجودهم وتسخيرهم لأهداف لا تخدم قضاياهم.

فابتدع الغرب نظريات الفراغ التي اتضح بأنها ذرائع للنفوذ والاستغلال في منطقتنا، وبالتالي تمكين الهيمنة الإسرائيلية.

قد تعاني أمتنا من عوامل ضعف سبّبها طول غيابها عن ساحة السباق العالمي، ولكنها وقد أفاقت واندفعت إلى أسباب قوتها تجد منها ومن تراثها ما يملأ أوطانها بكل أسباب المنعة في وجه كل العقائد الأخرى، وليس في أوطاننا فراغ ليحلّ فيه غازٍ أو يتّسع لدخيل.

صحيح أن دولتنا العظيمة وهنت قواها بعد تعاظم شأنها، وصحيح أيضاً أننا نمرّ في تجربة الخطأ والصواب منذ ضعفت الخلافة العثمانية، ولكن الفكر الحضاري الإسلامي ظل يحفظ لنا تراثنا والعروبة استعصت بأصالتها على كل محاولات المستعمرين لتحويرها أو طمسها.

لذلك نرى أن فصل العراق عن الاتجاه العربي شأنه شأن استغلال وضع السعودية الذي لم يتكامل فيه نمّو الدولة وقدرتها؛ قصد الغرب بهما توزيع الجهد العربي في اتجاهات متناقضة كان له أثر كبير على اضطراب الحالة العربية. وبالتالي فإن الأحداث تكفّلت بإفشال القوة الاستعمارية في ما قصدته، وإحباط الآمال الشيوعية في المنطقة كما سيرد في ما بعد.

ليس في أمة مناضلة لنيل حريتها ووحدتها فراغ، ولكن الفراغ في عقل وجوف المستعمرين الجشعين الذين أرادو امتصاص ثروات البلاد ومصادرة إرادات الشعوب. والفراغ أيضاً في ضمائر الذين اختاروا مصانعة المستعمر الأجنبي على حساب الشرف والحرية وعلى حساب تضحيات المناضلين.

فالعدوان الثلاثي لم يتوقف وإن انحسرت قوات دوله عن الأرض العربية، بل جاءت أمريكا لمواصلة آثاره واستثمار نتائجه بحق الوراثة الذي ابتدعته لنفسها، ولكن بوسائل وأساليب جديدة مخادعة مكّنتها من النجاح في مناطق عربية بما زاد أعباء النضال العربي.

كان واضحاً للغرب أن استيقاظ العرب بعد سنة ١٩٤٨ سيحكم الاتجاه

العربي، وكان قادة الغرب ومفكروهم يعلمون أن وحدة أمتنا هي العاصم لها من تحكم الأجنبي أياً كان، غربيّاً أو شرقيّاً، استعمارياً أو شيوعياً. فلو كان الغرب يقصد منعة العرب في وجه الشيوعية لما قاوم حركاتهم القومية. ولكن الغرب كان يطلب أهدافاً أخرى إلى جانب صدّ الشيوعية، أولها إبقاء العرب على ضعفهم واستسلامهم له وضمانة أمن إسرائيل الغازية قبلها وبعدها مصادرة ثروات الوطن العربي والسيطرة على مناطقه الاستراتيجية.

لهذا يتّضح أن أمريكا لم تختلف في قليل أو كثير عن حليفاتها، إلاّ أنها ضمّت إلى وزنها وقدرتها كل قدرات حليفاتها وأخذت مكان القيادة في معالجة التمرد العربي على الأحلاف والتبعية.

ومن هنا فإن مشروع أيزنهاور لم يكن يختلف عن حلف بغداد بل يزيد في أذاه، لأنه قصد إلى فرض سياسة قبول العرب بإسرائيل في تنظيمات مواجهة الاتحاد السوفييتي وإعطائها حقوقاً جديدة مع إغفال الحقوق الفلسطينية. مثل هذا التنظيم يعني تواجداً أوروبياً وأمريكياً وإسرائيلياً في نظام دفاعي على أرض العرب؛ الأساس فيه تلك الدول ودور العرب فيه هو الاستجابة لمتطلبات أولئك وعلى قاعدة التسخير لا المشاركة.

الأمة العربية ثارت شعوبها وبدون استثناء على المستعمرين قبل وبعد الحرب العالمية الأولى، وتزايدت طموحاتها في الوحدة والحرية بما أقضّ مضاجع الغرب، وبخاصة في الخمسينات وقبل أن تكون لأي دولة عربية صلة بالشيوعية. فهل من المعقول أن تسلّم الأمة استقلالاً تنشده إلى الاتحاد السوفييتي أم أن المعقول أنها ستقاوم أي مطامع سوفييتية كما قاومت السيطرة الغربية؟ وهل كانت تضحيات أمتنا قرابين عشق لسيطرة شيوعية؟

المنطق الاستعماري كان منطق القوة الغاشمة التي لا ترى حقاً إلاّ في مصلحتها، فهي عمياء صمّاء لا ينفع معها إلاّ القوة والصراع. وادعاءاتها بخطر الشيوعية ونظريات الفراغ لم تكن إلا زينة مزيفة لقبح أهدافها ووسائل عملها في الوطن العربي والعالم الثالث.

وأمريكا التي استسلمت أمتنا لها لا تفضُل الأوروبيين في شيء، وعلى العكس من ذلك فإنها أشد خطراً وأعظم قبحاً في ما تراه لوطننا. فحينما يرى كل أولئك في نجاح العرب في تحقيق ذاتهم خطراً عليهم يوازي الخطر الشيوعي، يتبيّن لنا أنهم اعداء لا مجال للمصالحة معهم أو الاطمئنان إليهم.

وبالتالي فلا بدّ من الاعتراف من أن بغداد ودخولها في الحلف ثم انحياز السعودية إلى أمريكا بخروجها من الحلقة العربية التحررية لم يكونا يساعدان على تحقيق الذات العربية. ولكننا نضيف ويجب أن نضيف أنهما عملا على إضعاف القوة العربية برضى من بغداد وعجز في الرياض.

العدوان الثلاثي كان صرخة استعمارية تسمع الموتى وتوقظهم من الرقاد على إصرار المستعمرين وإسرائيل، لاعتبار المنطقة العربية مجالاً حيوياً هاماً لا يبغون الرحيل عنها. العدوان وقع فعلياً على مصر ولكن أهدافه كانت تتعداها لإرهاب العرب جميعاً وحملهم على التسليم بحقيقتين:

أولاً: استحالة التجاوب مع العرب لاستقلالهم على أراضيهم.

ثانياً: استحالة الحياد بين العرب وإسرائيل.

والعدوان الثلاثي كشف أن الدول العربية الأربع المتحالفة لم تتوازن القوى في كل منها لمواجهة الضغوط الأوروبية والأمريكية، فضلاً عن أن قوة مصر كانت بالكاد تصمد عسكرياً واقتصادياً.

الحلقة المفقودة في سلسلة توازن القوة العربية مع دول العدوان وما تلاها من المحاولات الأمريكية كانت هي العراق التي أدارت حكومته للعرب جميعاً ظهراً دون اعتبار لأي قيمة. ويصدق قول الشاعر في حكومة العراق آنذاك:

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تُنادي

لم يكن من العراق كحكومة نجدة لمصر أو مساندة للأردن أو مبعث طمأنينة لسوريا أو للسعودية.

وسيظل العدوان الثلاثي بظروفه ونتائجه من أهم الأسفار التي يتحتم على الأجيال مراجعتها، كلّما صادفت أمتنا المصاعب مع الأعداء، ليكتسبوا دروساً يحفظونها في رؤوسهم وعبراً تسكن في ضمائرهم.

قد يتساءل القارىء عن سبب الحديث عن العراق بما يوحي بالتحامل على حكومتها. وفي الحقيقة أحمل للعراقيين محبة واحتراماً كما أحملهما لشعب كل دولة عربية. ولكن وفي الوقت نفسه لا يمكنني أن أغفل أن مصر والعراق هما دائماً وأبداً مراكز القوة العربية الرئيسية وبدون أي منهما يظل المشرق العربي قاصراً عن أهدافه.

لـو كانت الحكـومة العـراقية على قـدر أمـل العـرب بقوتها في فترة العـدوان الثلاثي لما جـرؤت دولـة عـلى الأقـل إشـراك إسـرائيل معها، وعـلى الأكثـر لخشيت تأميم البترول وخلق ظـروف مقاومة عربيـة لا قبل لـدول العـدوان على مواجهتها.

العـراق لو صحّ موقفـه لأثّر على المعركـة العسكرية على الجبهة الأردنيـة الإسـرائيلية تأثيراً عظيماً، ولأثر على المعركـة السياسية داخل حلف بغداد بما يحبط الإرادة البريطانية.

والعـراق لو صحّ موقفه لانتهت سياسـة المحـاور العربية بما يشدّ عزم السعودية في مواجهة الضغوط الأمريكيـة، وبما يضمن للأردن خـلاصاً نهائياً من الحاجـة للمعونات الأجنبية.

والعـراق كان وسوف يظـلّ إلى أمـد بعيد محطّ الأنظار في المشرق كأحد أكبر القوى الفاعلـة في تقريـر المستقبل العـربي وفي فلسطين، طالما ثبتت آمال أمتنا على أولوياتها في أمن شعوبها وسيادتها على أراضيها وحقها في ثرواتها.

الفصل التاسع

الوضع العسكريّ والسياسيّ في الأردن

سبق أن ذكرنا أن قوات سورية وأخرى سعودية وصلت، إلى الأردن أثناء الإنزال البريطاني الفرنسي على أرض مصر. وكذلك فإن جحفل لواء عراقي وصل إلى الأردن بعد وقف إطلاق النار بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم وكان أحد قادة كتائبه العقيد عبد السلام عارف. كان قرار العراق بإرسال هذا اللواء نتيجة مفاوضات مضنية بين الحكومتين الأردنية والعراقية على إثر معركة قلقيلية، واتضاح النوايا العدوانية الإسرائيلية على الأردن والبريطانية الفرنسية على مصر.

أولى المفاوضات الهامة كانت في عمان، وقد مثّل العراق الأمير عبد الإله وأحمد مختار بابان والمهيب صالح صائب الجبوري وجميل المدفعي واللواء رفيق عارف رئيس هيئة أركان حرب الجيش العراقي.

ترأس الجلسة الملك الحسين، ومثّل الأردن وزير الدفاع ووزير الخارجية وأمير اللواء علي أبو نوار.

ويظهر أن الوفد العراقي أوكل الحديث عنه إلى اللواء رفيق عارف الذي بدأ الجلسة بمحاضرة عن الأصول العسكرية وفن القيادة وما إلى ذلك، واستفاض في محاضرته وبصوت عالٍ يمكن سماعه إلى مسافة بعيدة عن قاعة الاجتماعات.

كنّا نستمع إليه وقد ضاقت صدورنا بما يقول، حتى فاض الكيل والملك ينظر إليّ وفي عينيه استهجان لما ذهب إليه اللواء رفيق من كلام لا يناسب الموضوع الذي اجتمعنا من أجله، ولا يناسب أهمية الرجال في الجلسة.

أردت أن أنبّه اللواء رفيق للعودة إلى صُلب الموضوع وهو تطبيق المعاهدة الأردنية العراقية، ولكنه لم يأبه لملاحظتي فصحت به قائلاً: نحن لم نجتمع للاستماع إلى محاضرة في العسكرية، وليس عندك ما تضيفه إلى علمنا بها.فأنت

وأنا من تلاميذ الشيخ كمبرلي (قصدت كلية أركان الحرب في كمبرلي - بريطانيا) ولكن أصحاب الجلالة والسموّ والمعالي اجتمعوا لاتخاذ قرار يتعلّق بتعاون الدولتين فوفّر محاضرتك لجمع من ضباطك.

تدخّل جلالة الملك فوراً ووجّه كلامه إلى سمو وليّ عهد العراق ووزرائه قائلاً: يجب أن يكون واضحاً بأننا نتوقع عدواناً إسرائيلياً واسعاً، وعلينا واجب حماية أطول خط مواجهة، وعلى العراق واجب قومي يتصل بحرب ١٩٤٨. قائد جيشنا يقدّر حاجته إلى فرقة عراقية على الأقل تتحرك فوراً إلى الأردن مع تجهيز فرقة ثانية على الحدود الأردنية العراقية تكون تحت الطلب. وأرغب أن أسمع استعداد العراق للقيام بواجبه في هذا الاجتماع لنكلف قائدي الجيشين لتنسيق وصول القوات العراقية ومهماتها.

سكت الجميع وتكلّم رفيق عارف ثانية، وقد وضحت له ضرورة الوقوف عند حدود الأدب، وحثّه الأمير عبد الإله أن يدخل في لُب الموضوع، ووصلنا إلى وعد من رفيق لحشد فرقة من المشاة في منطقة الرمادي والحدود الأردنية ضمن برنامج، مدّته أسبوعان.

وهكذا انفضّت الجلسة وقد ملأ العجب جلالة الملك والوفد من صمت ولي العهد والوزراء وثرثرة رفيق عارف.

بعد أسبوع أرسلت ضابطاً إلى الحدود الأردنية العراقية وهو الرئيس غازي عربيات ليستطلع أمر الحشد العراقي فعاد ليقرّر أن لا أثر لأي حشد. فلما أبلغت جلالة الملك استغرب الأمر واتصل بالأمير عبد الإله الذي طمأنه بأن اللواء رفيق عارف سيكمل حشد جحفل لواء خلال ثلاثة أيام.

فاستقر الرأي على قطع الشك باليقين، فقام جلالته بقيادة طائرة وأنا معه ونزلنا في منطقة داخل الحدود العراقية في اليوم الثالث من مكالمة الملك مع الأمير. وجدنا مخيماً صغيراً نزلنا بجواره، فهرع إلينا ضابط برتبة مقدّم وآخر برتبة رئيس من سلاح الهندسة، وعند سؤالهما عن خطة الحشد أجاب أحدهما بأنه جاء ليدرس مواقع اللواء ووفرة المياه وبعض المسائل الإدارية، وأنه لم يبلّغ من قيادته عن تاريخ وصول القوات.

قال له الملك: قائد جيشك كاذب. أبلغه رأيي. عدنا إلى عمان وأعاد جلالته الاتصال مع بغداد، ولكن هذه المرة ليوبّخ الحكومة العراقية ووصف تقصيرها بأوصاف حادّة.

ومع ذلك كله فإن جحفل لواء واحد وصل إلى الأردن بعد وقف إطلاق النار في حرب العدوان الثلاثي، وبعد زيارة استطلاعية من العميد عبد الرزاق حمودي والذي عرفته قبل تحرير الجيش الأردني. عبد الرزاق كان دائماً موفد الجيش العراقي إلى الأردن وقد جالسته سنة ١٩٥٥ حيث أشغلت منصب كبير مرافقي جلالة الملك، واستقبلته في زيارته الاستطلاعية هذه لتخصيص منطقة نزول للجحفل العراقي وفي كلتا المقابلتين تسببت في إحراجه، وقد كان خجولاً يفضّل الصمت عن الإجابة على أسئلتي المحرجة، ولكنه في كلتا المرّتين تبلّلت ياقته من العرق ولسان حاله يقول:

في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء

هكذا كان حال الأشاوس من ضباط العراق الذين كمّم نوري السعيد وزمرته أفواههم، ولم أصادف عبد الرزاق بعدها حتى سنة ١٩٥٨ في بغداد إذ عيّنت القيادة العراقية اللواء مزهر الشاوي ضابطاً للارتباط بين الجيشين الأردني والعراقي.

زارني ثاني يوم حلول جحفل اللواء العراقي السفير العراقي بهاء الدين نوري ومعه اللواء مزهر الشاوي، فطلبت من مزهر أن يرافقني في الغد لزيارة القوة العراقية وإذ بالسفير يقول: سوف أبلغ بغداد رغبتك هذه وأردّ عليك بالإجابة.

قلت له: القوة العراقية على أرضي وجاءت كما نفهم لتلتحق بإمرتي وأنت تمنعني من زيارتها إلّا بإذن من بغداد! ما هذا الهراء؟!.

ردّ السفير: أنت تسمّي هذا هراءً أو ما شئت وأنا أبلغك بأن هذا ما أمرتني به حكومتي.

قلت له: بغداد تتظاهر بنصرتنا أمام العالم العربي كلّه بخدعة رخيصة وتنتظرون منّا قبولها؟ يا لواء مزهر أنا أوجّه الكلام إليك الآن فليس بيني وبين سفيركم أي علاقة رسمية. أريدك أن تبلغ اللواء رفيق عارف أن هذه الإجراءات العراقية مرفوضة، فإما أن تعلن بغداد إمرتي على هذه القوات شأنها شأن القوات السورية والسعودية وإلّا فلا حاجة لي بها. خرج اللواء مزهر الشاوي والسفير من مكتبي ولم أره بعدها.

طلبت من مدير الاستخبارات العسكرية توزيع منشور سرّي على القوة العراقية يفضح أمر المظاهرة الخادعة، ويدعو القادة والضباط والأفراد للقيام بواجبهم إذا حصلت المصادمة مع إسرائيل. وكانت هذه المرّة الأولى والأخيرة التي لجأت فيها إلى المناشير في حياتي، ولكنها أدّت الغرض إذ زار الرئيس غازي

عربيات مساعد مدير الاستخبارات العسكرية القيادة العراقية ليلاً واجتمع بالزعيم عبد الكريم قاسم والعقيد عبد السلام عارف اللّذين أكّدا له تصميمهما دخول المعركة إذا وقعت. أما أنا فلم أحاول زيارة القوات العراقية لأن عبد الكريم أبلغ غازي عربيات أنها ستسبب له إحراجاً عظيماً مع قيادة الجيش العراقي.

جاءنا الجيش العراقي بقوة جحفل لواء، وظل مقيماً في الضفة الشرقية دون مهمّة إلى أن عاد إلى العراق دون أن أقابل ضابطاً واحداً منه ولعودته قصة سيرد ذكرها.

بعد انسحاب قوات العدوان الثلاثي عن مصر خلّفت وراءها دماراً في بعض مدن الشواطىء المصرية، كما وأن إسرائيل خرّبت الطرق بين سيناء وفلسطين تخريباً كاملاً ودمّرت آبار المياه في كل المنطقة. هذا فضلاً عن خسائر كبيرة في قوات سلاح الجو المصري والقوات الأرضية في غزة وسيناء وحملة الإبادة التي شنتها القوات الإسرائيلية على وحدات الفدائيين الفلسطينيين من قطاع عزة وعربان سيناء.

لهذا فإن مصر خرجت من العدوان الثلاثي وهي مصابة بإصابات بالغة فضلاً عن انقطاع الصلة الأرضية بين قواتها في الدلتا وبين سيناء وغزة.

وبسبب الوحشية الإسرائيلية اضطرت بعض وحدات صغيرة من الفدائيين المصريين والفلسطينيين التسلّل إلى الضفة الغربية، والالتحاق بإمرة الجيش الأردني حتى تم ترحيلها بترتيب من السفارة المصريّة في عمان.

من هنا فإن الوضع الأردني أصبح حرجاً وبلا حدود، وكان علينا أن نتعامل مع ما بيدنا من قوات أردنية وسورية وسعودية. لذا قرّرت برنامج تدريب حثيث للواء المشاة السوري بإشراف المقدّم جودت الأتاسي مدير التدريب للقوات المشتركة، وبرنامجاً آخر للواء المشاة السعودي، وأوكلت تنفيذه إلى وكيل القائد راضي العبد الله ومعه زمرة من الضباط وضباط الصف المختارين من الجيش الأردني مع فريق صيانة لصيانة أسلحة اللواء ونقلياته.

وكان لتعاون العقيد نبيه الصباغ قائد القوة السورية، والعقيد محمود عبد الهادي والعقيد حمد الشحيمري أثر كبير في إنجاح التدريب وتحسّن أوضاع القوتين من المشاة.

أمّا القوة العراقية فلم أحاول أي اتصال معها بسبب عدم اتصال اللواء مزهر الشاوي بي ثانية، إلى أن أوفدت قيادة الجيش العراقي ضابطاً برتبة مقدّم ليكون

ضابط ارتباط مع الجيش الأردني، ولكنني لم أجد في تلك الوفادة إلّا إمعاناً في محاولة التضليل البلهاء التي عمدت إليها الحكومة العراقية.

في هذه الأثناء أبلغتنا الحكومة السورية، عن طريق وزارة الخارجية وطريق الجيش، أنّ العراق تستخدم وجود القوة العراقية غطاءً لتهريب السلاح إلى بعض فئات سوريّة حزبية وعشائرية ولأهداف خلق الفوضى في سوريا. وكان المسؤولون السوريّون يلمحون إلينا بأخطار تتأتّى من وجود الجيش العراقي. وبالتحقيق ثبت لدينا أن أسلحة هرّبت عبر الحدود المشتركة الصحراوية، ولكن القوة العراقية في خوّ لم تكن ذات علاقة بهذا النشاط.

المهم بالنسبة لنا في الأردن كان أمرين: توخي معرفة الخطة الحقيقية للعراق وأهدافها من التواجد العسكري دون ارتباط بنا أولاً، واستعداد العراق لاستكمال قوته إلى فرقة كاملة في الأردن ثانياً.

وقد كلّفت الحكومة الأردنية بالاتصال بالحكومة العراقية لعقد اجتماع يضع الأمور في نصابها الصحيح أو نعيد النظر في المعاهدة العراقية الأردنية وجدواها. علّق أحد الوزراء على طلبي «فرقة كاملة» بأنه أمر خطير قد نندم عليه، فأجبته بأنه إذا ساءت الأمور وكنت بين خيار احتلال إسرائيلي أو احتلال عراقي فإني أقبل الثاني وبكل الرضا وراحة الضمير.

طبيعي أن تصل النقاشات إلى ما كنّا نخجل حتى تصوّره من مقارنة نوايا عراقية إلى أهداف العدو الإسرائيلي، ولكن نوري السعيد أوصل الأمور إلى ذلك وأسوأ من ذلك. فلم يمضِ وقت طويل حتى استجابت العراق للدعوة الأردنية، فأرسلت وفداً يضم المهيب صالح صاحب الجبوري وأحمد مختار بابان وضياء جعفر واللواء رفيق عارف.

اجتمعنا في اليوم الثاني لوصول الوفد، ومثّل الأردن رئيس الوزراء سليمان باشا النابلسي وشفيق أرشيدات وعبد الله الريماوي وعبد الحليم النمر وعلي أبو نوار. هنا طرح رفيق عارف اقتراحاً لاختيار قائد أردني غيري لقيادة قوات الميدان الأردنية والعراقية، على أساس تشكيل قيادة مشتركة عسكرية سياسية تضمني وتضمّه تكون مسؤولة عن إدارة الحرب. وذهب إلى تسمية أمير اللواء علي الحيارى قائداً لقوات الميدان، وطلب موافقة الوفدين الأردني والعراقي لإعلان ذلك.

ثارت ثائرة رئيس الوزراء والوزيرين الأردنيين على هذا الاقتراح وأعلنوا رفضهم القاطع له، وكادت الجلسة تنفض بأزمة بين الدولتين، وتلافياً لذلك طلبت

تأجيل البحث إلى اليوم التالي، فأغلقت الجلسة تلك لينعقد مجلس الوزراء الأردني لبحث الاقتراح العراقي، ووجدت صعوبة كبيرة في حمل المجلس على الموافقة على تعيين أمير اللواء علي الحيارى وأنني أثق به ثقة مطلقة. وافق الوزراء مع تحميلي مسؤولية أي خلل يصيب سلامة الأردن واتجاهاته القومية وقبلت المسؤولية.

قلت لمجلس الوزراء إن القادة العسكريين الأردنيين ممتلئين بالافتخار لاتجاه الدولة ملكاً وحكومة وشعباً، وليس عند نوري السعيد ما يعوضهم عن افتخارهم، وعلى الحكومة أن تثق بأمراء الجيش كثقتكم بشخصي. ولا بدّ لنا من استنفاد البحث مع العراقيين حتى آخر نقطة وبالهدوء والصبر، لأنني بحاجة إلى جيش العراق أكثر من حاجتي لكراهية سياسة الحكومة العراقية. نحن بصدد قهر العدو إذا هاجمنا، ولا أستغني عن القوات العراقية إذا تزايدت إلى فرقة مهما قصدت الحكومة العراقية من وراء استجابتها.

في اليوم التالي اجتمع الوفدان بعد الظهر، فوجدنا رئيس الأركان العراقي يقرأ شروطاً عديدة وبطريقة الإملاء المتعالي وأنا صامت حتى أنهاها، فأوضحت له أننا قبلنا تسمية علي الحيارى قائداً دولياً كما رغبت بتسميته، وهو الآن في مكتب رئيس الوزراء ينتظر التكليف. وكذلك قبلنا الهيئة السياسية العسكرية التي اقترحتها شريطة أن تتواجد في الأردن قوة أقلّها فرقة مشاة مسنودة بكامل الأسلحة وفي خلال أسبوع من هذا اليوم.

عاد رفيق عارف إلى ورقته يقرأها من جديد، فقلت له يا لواء رفيق نحن نفهمها وهي طايرة، وقد وافقناكم على ما تراه ضرورياً على أن توافقونا على ما هو ضروري ولسنا مستعدين لإجراء مباحثات عقيمة لتقرير حجم القوات العراقية المطلوبة. الأردن هو الذي يقرّر حاجته للدفاع وليس أنت.

هنا انبرى ضياء جعفر ليطرح إنهاء كل علاقة عسكرية مع مصر وسوريّا، وإلا فإن الحكومة العراقية لا تجد فائدة من التعاون على ساحة فيها قوات أخرى غير متعاقدة مع دولها.

أجابه رئيس الوزراء سليمان باشا النابلسي بأن الأردن صاحب االمصلحة الدفاعية الأولى له الحق في استدعاء قوات عربية من أي دولة عربية.

غمز عبد الله الريماوي ضياء جعفر قائلاً: نحن نقبل بقواتكم وباختياركم التنظيمي بالرغم من كون العراق عضواً في حلف أجنبي. وثنى شفيق أرشيدات

الوضع العسكري والسياسي في الأردن.

بالقول إن لسوريّا تحفّظات عليكم، ولكننا أقنعناها بأن الخلافات السياسية بين بعض دولنا لا يجوز أن تتعدّى إلى حدود منع أي دولة عن أداء واجبها القومي واقتنعت سوريا برأينا.

أخذ وزير الدفاع عبد الحليم النمر يتململ، وقد كان من أكثر الوزراء رصانة وحلماً، وهمس في أذني أنه يكاد يفقد صوابه. وفي هذه اللحظة ألقى ضياء جعفر القنبلة القاتلة عندما قال: قناعتكم وقناعة سوريا لا تساوي عندنا حذاء جندي عراقي.

قلت لرفيق عارف: أرجوك أن تناولني ورقة شروطك فناولها لي وهو فرح متصوراً أن ضياء جعفر اخترق شجاعتنا.

قلت لضياء جعفر: أنت وزملاؤك ضيوفنا ولذلك فإني أستأذن صبر رئيس الوزراء والأخوة الوزراء وأستميح العذر من شيوخ وفدكم الذين التزموا الصمت وعلى وجوههم الحزن والكآبة. أريد أن أسألك عن الطغراء المرسومة على ورقة شروط المذلّة التي حملتموها لنا، هل هي طغراء الحكومة العراقية؟

أنتم تناولتم العشاء بالأمس على مائدة السفير البريطاني واشترك السفير معكم في إعداد هذه الورقة، وفات رئيس أركان حربكم أنّ لنا عيوناً ترى ولم يأبه حتى ينقل الشروط على ورق السفارة العراقية من ورقة السفارة البريطانية. ومع ذلك تتجرّأ بتحقير قناعتنا وقناعة سوريا. فهلّا فسّرت لنا مصدر قناعاتكم؟

أجاب رفيق عارف: شاكو بيها إحنا وبريطانيا حلفاء.

قلت له: لابل أنتم عملاء وأنت يا ضياء حاذر ألفاظك وقف عند حدك وإلا فتحنا سيرتكم التي سترناها على مضض.

انصرف الوفد العراقي وعدت إلى بيتي ولأول مرة أغلقت علي نفسي الغرفة وبكيت بمرارة إلى أن وافتني زوجتي وتوقفت عن البكاء خجلاً منها. واتصلت بعلي الحياري لأبلغه بما كان من العراقيين والبريطانيين حلفائهم دون الدخول في ما أثاروه من شكوك عظيمة في نفسي، أحيت المنسيّ من ذكرى زيارتي إلى بغداد قبل شهور والتي أخجل من بعض الأحياء إذا أنا أثرت أحاديث الأموات في تلك الزيارة.

شروط الوفد العراقي ومغالاته في ممالأة بريطانيا، كما كشفت الوثائق البريطانية، الأجوبة التي ظلّت حائرة أشبعت حلقي مرارة تفوق مرارة سبّبتها

الغطرسة الإسرائيلية أثناء المفاوضات للهدنة في رودس والتي كنت شاهداً عليها.

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على النفس من وقع الحسام المهنّد

عندما علم الملك بما جرى ثارت ثائرته بشكل لم أعرفه، وكأن أصابه جرح بيد الغدر من صديق زائف، وأخذ يذكر أنه لم يثق يوماً بتلك الطغمة الحاكمة في العراق ثم أخذ يتوجد على جلالة الملك فيصل الثاني الذي وقع في أسرها ولا يملك حيلة.

كان ذلك يوم حزن لا يُنسى ولكنه كان درساً لنا في ما وصل إليه العراق من استكانة للأحلاف الأجنبية بما أخرجه عن صورته العربية. وهكذا كان عليّ أن أكتفي بما توفّر لديّ من قوات أردنية وسورية وسعودية والعمل على تكامل التنسيق بينها وسدّ فجوات التماثل في الكفاءة على قدر المستطاع.

ومن عجب أن أحيا لتُردّ إليّ نفسي سنة ١٩٦٧ عندما استقبلت في بيتي اللواء حسن النقيب وأركانه في عهد الرئيس عبد الرحمن عارف، الذي حشد في الأردن قرابة عشرين ألف ضابط وجندي دون قيد أو شرط إلاّ ابتغاء شرف أداء العراق واجبه ونصرة العروبة والإسلام في مواجهة الصهيونية وحلفائها.

ما كان أغنى العراق عمّا مرّ به من تجارب مريرة لو أن حكومته الممثّلة في نوري السعيد ورهطه ارتفعوا بشرف العراق العربي ولم يرهنوه لبريطانيا والنفط دون مبرر. ولكن سيرة الشعوب والإنسانية لها أحكام تتجاوز فكر المستهترين بدروس التاريخ بحيث تصبح كلمة (لو) هذه غير ذات قيمة.

وفي هذا السياق ما أجدى ببعض الحكومات العربية القائمة في أيامنا هذه أن تفيق من غفوتها على صرخات الأمة الصادرة من أوجاعها حتى لا يقول فيها أحد في المستقبل (لو) و(لو) و(لو) بعد أن تكرّرت الدروس في منطقتنا.

المشكلة في كثير من القادة العرب أنهم يرون الأحداث فتفجعهم، ولكن لا ينظرون في الأسباب الحقيقية للأحداث ويعطونها التقييم الصحيح، لأنهم لا يحبون أن يروا انكشاف سوءاتهم فيستروها. وعلى العكس فإنهم يرون في الأحداث أخطاء تاريخية فيوغلون في استنكارها، وما علموا أن مجرد الاستنكار هو بداية النهاية لهم. إذا دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على جهل القادة أولئك لحقائق الوجود والحياة في أمتهم وجهلهم لحركة الوجود والحياة وسنن التغيير.

كما ذكرت فإن المهزلة العراقية هزّت الدولة الأردنية فكنّا بين أمرين لا

الوضع العسكري والسياسي في الأردن.

ثالث لهما: إما المـزيد من الصبر لنتلقى مـزيداً من الاستهتار أو وضع حـدّ للصبر وإن أدّى ذلك إلى الاستغناء عـن جحفل اللـواء العـراقي فكان القـرار بالأمـر الثاني.

استدعـاني جـلالة الملك وباحثني في موضوع العراق، فأوضحت له أن هـذا اللـواء وحـده، وفي أحسن حـالات قبولـه بقيادتنا، لن يكون ذا أثـر حاسم في أي معـركة. وطالما وأن الحكومة العراقية لا تنوي الاتفاق على القيادة أو زيادة حجم القوة إلى فرقة فإن الاستغناء عنها يريحنا من الأرق الـذي تسببه تلك القـوة بوجـودها من غير ثقـة.

قـال جـلالة الملك: كنت وصلت إلى هـذه النتيجة قبـل الحديث معـك، ولذلك أرجـوك أن تتفق مع الحكومة على طـردهم، فإني أكـاد أخـرج من جلدي من نوري السعيد وجماعته.

بحث رئيس الـوزراء الأمر مع وزير الـدفاع ووزيـر الدولة للشؤون الخارجية ووزير العـدل ومعـي، فـرأينا استدعاء السفير العـراقي بهاء الدين نوري إلى مكتب وزير الـدولة في اليوم نفسه فحضـر.

بادره وزيـر الـدولة بإعطاء المبررات، ثم أنهى الحـديث بالطلب من السفير إخـراج اللـواء العـراقي خـلال ثمانٍ وأربعين سـاعة.

ردّ السفير العـراقي بإبداء أسفه لهـذا القـرار، فأجبته أن القـرار الأردني سبقه قرار ضياء جعفر وزير الخارجية ورفيق عـارف رئيس هيئة الأركان في المباحثات الأخيرة، الذي لم نجـد معـه مناصـاً إلاّ الاستغناء عن الجيش العـراقي والمعاهـدة التي لا تجـدينا شيئاً.

اعترض السفير عـلى قصـر الوقت الممنوح وأشار إلى خـلوّ القـرار الأردني من الدبلوماسية، فأجابه وزير الدفاع بأن الـوفد العـراقي لم يكن على أي قـدر من الحياء والخجـل فلا ندين لحكومتـه بـأي مجاملـة. أما الـوقت الممنوح فقـد قـرّره قـائد الجيش وهو وقت كافٍ.

قـال السفير: هـل جـلالة الملك على عـلم بهذا القـرار؟

فأجـابه وزير الدفاع: نحن دولة منظّمة ونحـن نبلغك قـرارنا وعليك التنفيذ دون مماطلـة.

قـال السفير: لـو فرضنـا أننا أطلنـا فرصة الخـروج أسبوعاً فهل تعترضون بجـدّية؟

هنا تكلّم وزير الدفاع وكأنما يحمل حفيظة في نفسه من الوفد العراقي ووقاحة ضياء جعفر، وقال: إسمع يا بهاء إمّا أن تخرج القوة العراقية خلال المدة المعينة وإلاّ تكفّل علي أبو نوار بطردها وتحميلك معها إلى الحدود العراقية. إذهب الآن ونفّذ ما طلبناه فليس أمامك وقت تضيعه وقد أنذرناك.

خرج السفير يجرّ معه خيبته وهو الذي كان ورهطه يتعاملون مع الحكومة الأردنية بأسوأ ما يتعامل به ممثلو دولة مستعمرة. وهكذا خرجت القوات العراقية ونحن نشعر بالأسف العميق لما جرّتها إليه قيادتها. ولعل الضباط الأحياء من تلك القوات يعلمون الآن ما خفي عليهم آنذاك.

لقد عرفت الحكومة العراقية ولأول مرة أن هذه المملكة الصغيرة المحدودة الموارد كبيرة في عزّتها وغنية بشرفها ولا تساوم على المبدأ حتى وهي تمرّ في أعظم المخاطر. وعرفت الحكومة العراقية أن الكياسة التي تلازم الملك حسين والتي أغرت به العراق لم تكن إلاّ رفعة في الخُلق ونبلاً في المحتد.

والشعب الأردني بضفتيه لم يكن، مهما تواضع، اتّكالياً على غيره ولم ينشد منجاةً لأبنائه وإنما ارتفعت مقاصده إلى مشاركة العرب في الواجب الأول في حماية الأرض المقدّسة.

أمّا الجيش العربي، وعلى صغر حجمه قياساً لمهماته العظيمة، لم يهن له عزم في تلك الظروف القاسية التي استغني فيها عن أية فائدة ظرفية لعلاقته مع بريطانيا، أو أي سند من الحكومة العراقية مشروط بما يفسد التضامن العربي، في حين عُزلت مصر عزلاً عسكرياً تاماً عن الأرض الفلسطينية ولفترة طويلة.

زيادة حجم الجيش العربي

كما أسلفت فإن خطتنا الدفاعية الأساسية كانت تقوم على تعزيز الحرس الوطني ثم البحث عن الإمكانيات لإعادة تشكيل كتائبه في ألوية نظامية. وقدرت أن برنامجاً تقشفياً في نفقات الجيش قد يوفر بعض الحاجة المالية. أمّا الأسلحة فلم يكن أمامنا إلاّ التوجه إلى الاتحاد السوفييتي فور انتهاء المعاهدة البريطانية الأردنية. —

وفي يوم متعب من زيارتي للخطوط الأمامية وتفقّد القوات المدرعة الأردنية وكتيبتي المشاة السوريتين ومنطقة جنين شمال الضفة الغربية، وصلت أريحا وأمضيت ساعة في فندق القصر الأبيض لتناول الشاي. وفي لحظة من التفكير

وجـدت الفـرج من حيث لم أنتظـر، إذ خطـرت لي فكـرة تكفـل إنشـاء مجموعـة لـواء كامل بأسلحتها وخـدماتها، بدءاً من المسدس وانتهاء بالمدفع ومختلف النقليات والورش وحتى الملابس.

إذا عـاد القارىء إلى ما ذكـرت عن نيـة بريطانيا إرسـال قوات مختلطة بريطانية ـ عـراقية ـ أردنيـة سنة ١٩٥١ إلى إيـران في فترة ثورة الـدكتور مصـدّق وتأميمه البترول، فسيذكر أن اللـواء الـذي كنت أركـان حـربه كان يمثـل القوة الأردنية المعتمدة لتلك المهمة.

في تلك الفترة أنشـأت قيادة قوات الشـرق الأوسـط مستودعات لتجهيز مجموعـة لـواء بريطاني كامل في منطقة خـوّ التي تبعد حوالـى خمسة وثلاثين كيلومتراً عن عمان. وكان التخطيط البريطاني يعتمد نقل أفـراد اللـواء إلى تلك المنطقة من قواعدها في مصـر أو قبرص جـواً ليجـري تسليحهم في الأردن اختصـاراً للوقت. وهـذا اللـواء يكوّن طليعـة القوات البريطانيـة في الجهـد المشترك الموجـه إلى إيران. وكانت المستودعات هـذه محروسـة بجنود بريطانيين.

وكذلك فإن قواتنا كانت تحرس مستودعات ذخيرة قـاعدة سـلاح الجـو البريطاني في ماركا بجوار عمان منذ بدء العـدوان الثلاثي.

وصلت إلى بيتي حـوالى السـاعة العاشـرة مسـاء يتملّكني شعـور الفـرح والإثـارة، وطلبت من قائد سـلاح الجـو الأردني وكيل القائد إبراهـيم عثمـان أن ينقل محتويات مستودع سـلاح الجـو البريطاني إلى مستودعـاته خـلال أربع وعشـرين سـاعة.

واستدعيت القائمقام جبران حـوّا وكلّفته بقيادة سـرية مشاة واحتلال مستـودعـات خـوّ وطـرد الحـراسة البريطانية منها في الليلة نفسها، وبهـذا أصبح للجيش العـربي مجمـوعة اللـواء الـرابع كما سأذكر في ما بعـد.

في صبـاح اليوم التالي طلب القائم بأعمـال السفارة البريطانيـة مقابلتي باستعجال، فقابلتـه واستمعت إليه يقول:

يا جنرال إن عملكم هـذا مثير للغضب outragous ونسف للمعاهـدة وإساءة للعـلاقات الأردنيـة البريطانيـة، وإن حكومـة جلالتها بالغة القلق وتنظـر إلى عملكم بنظـرة بالغـة الخطـورة وهي تطلب إليكم إعـادة كل شيء إلى ما كان عليـه وهـي تنتظـر إجـابتكم.

قلت له: هـذا العمل حـق من حقوق السيادة الأردنيـة، أمّا المعاهـدة فقـد

نسفتها حكومة جلالتها من أول ساعة من العدوان الثلاثي. أنا أيضاً أنظر إلى خطورة إساءتكم للأمة العربية ولن أعيد إليكم قشة وأرجو أن تبلّغ جوابي هذا. خرج القائم بالأعمال ولم يعد لأي بحث آخر في الموضوع.

أبلغت جلالة الملك والحكومة بالإجراء فحيّاني جلالته قائلاً: حيّاك يا علي وبارك الله فيك. متى سأفتش اللواء الجديد.

قلت لجلالته: سيكون لجيشك مجموعة لواء رابع بعد ثلاثة أشهر بالضبط وسيتشرف باستقبالك.

كلفت أمير اللواء علي الحيارى أن يختار الضابط والمدربين وضباط الصف الأقدمين من الجيش النظامي، واخترت له ثلاث كتائب من الحرس الوطني لتشكل مشاة اللواء، كما كلّفت الأركان في قيادتي وعلى رأسهم الزعيم صادق الشرع بمساعدة علي الحيارى في تشكيل الأسلحة المساندة والخدمات الإدارية.

واخترت القائد تركي حسين قائداً للواء الرابع الذي باشر بتنفيذ مهماته بإشراف اللواء علي الحياري، واجتمع اللواء بكتائبه الثلاث في منطقة الغور مع أسلحتها وتجهيزاتها كافة في فترة عشرة أيام، في حين تولّى سلاح المدفعية تدريب كتيبة المدفعية الجديدة وكذلك سلاح الهندسة واللاسلكي والخدمات الطبية والخدمات الإدارية.

كما سبق وذكرت فإن أبناء القرى في الضفة الغربية كانوا على درجة مناسبة من التعليم، وكان الحرس الوطني يضمّ المنتسبين من هذه الفئة، ولذا فإن تدريب كتائب الحرس على الأسلحة المختلفة والحركات الحربية كان سهلاً، خصوصاً أنّ قادة الكتائب والأركان اختيروا بعناية زائدة.

ولما كان اللواء الحيارى متميزاً في قدرته على التنظيم والتشكيل ومثابراً على مهماته إلى درجة تجهد ضباط وأفراد قواته، فإن اللواء الرابع كان جاهزاً للقتال بكفاءة خلال الأشهر الثلاثة التي حدّدتها. وكذلك فإن الأسلحة المساندة والتي طعّمناها بعدد أكبر من قدامى ضباط الصف مثلها مثل وحدات الخدمات كانت جاهزة أيضاً في الموعد المضروب.

في تلك الأثناء قدّم الجيش السوري لنا هدية قيّمة من أربعين دبابة شيرمان وعدد من السيارات الصغيرة المدرعة الاستكشافية، وحضر استلامها في منطقة الزرقاء جلالة الملك واستقبل الضباط السوريين الذين قدموا معها بحرارة.

ويظهر أن جلالة الملك استحسن وعدي بتجهيز مجموعة اللواء الرابع للقتال خلال ثلاثة أشهر، فطلب إليّ صيانة دبابات الشيرمان وإعادة طلائها وإشغالها بالأطقم ووضعها تحت التدريب خلال شهر. حاولت كسب بعض الوقت منه ولكنه ضحك وقال، أعطيك شهراً واحداً فقط. وقد نفّذنا إرادته.

أخذنا أطقم الدبابات من سلاح المدرعات ومن مدرستها وكانت جاهزة للقتال بعد أربعة أشهر. وأشرف على هذا القائد نايف الحديد قائد سلاح المدرعات بالوكالة والرئيس تركي الهنداوي والرئيس أديب أبو نوار والملازم عصام دمشقية وباقي قادة الفئات.

هذا وقد قدّمتُ للرئيس القوتلي واللواء نظام الدين تقدير وشكر الملك والجيش العربي على روح التعاون والأخوة التي أظهرتها سوريا بهديتها القيمة للأردن، وذلك في زيارة خاطفة لدمشق.

الرئيس القوتلي وبأسلوبه الخطابي قال لي: أبلغ جلالة الملك حسين بأننا نحن في سوريّا إخوته ونحمل الهمّ العظيم معه. نحن بلد واحد وأمة واحدة. الخير في تعاضدنا وسوف تكون سوريا دائماً على العهد مع الأردن. نحن نعلم ما تتحملونه كان الله في عونكم وعوننا.

لما عدت إلى عمان نقل السائق إليّ مفاجأة جعلتني أزهو بمحبة فخامته، إذ كان أمر بهدية توضع في سيارتي من أغطية سفرة منقوشة من أفخر المنسوجات السورية مع أطقم من الفوط.

وبعد أسبوع من عودتي أقام السفير السوري حفل استقبال على شرفي ليقلّدني هدية أخرى من الرئيس القوتلي، كانت محل اعتزازي، وهي وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى.

رحم اللّه القوتلي وأسكنه فسيح جنانه، فقد كان آخر عظماء الرعيل الأول الذين فقدتهم الأمة العربية.

لماذا الحديث عن الجيوش العربية؟

أطلب العذر ممّن يقرأ مذكراتي لأني أسهبت في الحديث عن الجيوش العربية بما قد يدفعه إلى تصوّر لم أقصده. فتاريخ الأمة أي أمة في العالم ليس قصراً على العسكرية، ومناحي الحياة فيها أرحب وأشمل، وما العسكرية إلاّ جانب يتعلّق بالسياسة والسيادة وهي أحد عوامل التأثير، مثلها مثل الزراعة والصناعة

والأدب والفنـون والعلوم. فإذا ما رجحت العسكرية في ميزان تلك العوامل في فترة من فترات صـراع الأمـة مع الأعـداء لـدفع شرّ أو استعادة حق أو وطن، فإن ذلك من طبيعة ترجيح الضـرورات المرحليـة.

وقبـل ذلك فإن الأمـة التي تملك روح القتـال وأدواته أقـدر على صيانة أرضها وشعبها من غزو الأعداء، بينما تفتح الأمـة المتخاذلة أبوابها لكل غازٍ ودخيل وتدخل مرحلـة الضعف ثم الانحطاط.

والعسكرية هـي المادة والمظهر لقوة الـدولة وهـي البوتقة التي تنصهر فيها قوى الشعب لتنقى من الشوائب، فليس في الحياة مثـل القتال لتوحيـد الأمـة على أغلى أهـدافها وأمـانيها، كما وأنه ليس مثل التأهب الـدائم لأداء الـواجب الوطني دعـامة لاستمرار وحـدة الأمـة.

ليس يكفي شعبـاً أنه من سـلالة شجعان إن لم توضع تلك الشجاعة في إطـار نظـام وتنظيم يجمع العلم والتجـربة إلى تلك الصفـة العظيمة، لتتكـوّن قوة الشعب الجماعيـة من أجـل حفظ إرادتها ومصلحتها في البقاء الحـرّ.

والعسكرية فن مـركب معقّد ومتطـوّر من زمن إلى آخـر بحكم تطـور العلم والابتكارات الصناعيـة. ولـذا فإن أكبر الشعوب شجاعـة لا تجديها حماستها في مواجهـة الحـروب الحـديثة إذا لـم تتسلّح تلك الشجاعة بالقـدرة الفنية وحسن استعمال أدوات الحـرب والتصميم على الانتصار.

ولكن العسكرية هـذه وفي العصـر الذي نعيشه، عصـر الأحـلاف والـدول العظمى وحـركة صـراع المـذاهب أصبحت جـدواها موقوفة على عظم الجيوش المؤهلـة المتحالفة من مجموعـة من الـدول قـد تجمعها مصالح الحياة المشتركة. تلك المصالح هي أساس السياسـة التي تفرض على الـدول ضرورات العسكريـة ومسؤولياتها في السلم وفي الحـرب. فالأمـة ذات القيادة المحنّكة والجيش المؤسس تحكم حاضـرها ومستقبلها دون اللجـوء إلى الحـرب، ولكنها بدون أداة القتال تكون مضطرة إلى الاحتماء بغيرها وبتكاليف غـالية أهمها فقـدان إرادتها في سـاحة تصـادم المصالح والإرادات.

نحن العـرب أمة أثبت تاريخها حيويتها التي تدفقت من عقيدتها الـدينية بحيث وصلت فتوحاتها إلى أبواب الصين ووسط فرنسا، وقـد بزّت كل الأمم التي سبقتها وأصبحتِ الأمـة المقاتلـة الأولى في سبيل نشر الـدعوة والإصـلاح في عـالم غابت فيه حقـوق البشر الإنسانيـة.

والكلام عن هذه الآفاق البعيدة من العالم عن أوطاننا سهل، ولكن تصوّرها كمفازات شاسعة كانت الإبل والخيل هي الركاب لقطع الصحارى والأنهار وامتطاء أعالي الأرض ووديانها وابتعاد عن قواعد الانطلاق، هذا التصوّر يبرز حدّة العزم وصدق الإرادة السياسية والعسكرية عند أسلافنا العظام.

هذا عندما كنّا أمة واحدة تصدر إرادتها عمّا آمنت به من رسالة. أمّا الآن وقد أصابتنا التجزئة بالضعف صرنا إلى ما صار إليه العرب في المشرق في أواخر عهد العباسيين وما صاروا إليه في الأندلس والمغرب في عهد ملوك الطوائف.

عندما ارتاحت أمتنا إلى الرخاء وأصاب الترف قياداتنا في بغداد والقاهرة والأندلس، اندثرت حيويتنا وضعفت هممنا وشاخت سواعدنا حتى تلاشت أمة العرب وتناهش الأعداء أشلاء أوطانها. إنّ الذي يُعنى بدراسة تاريخنا عرباً ومسلمين كالذي يُعنى بدراسة الأمم الأخرى، يجد أن الترف كان يسوقها إلى الاسترخاء ثم الانقسام فالضعف وأخيراً إلى الضياع. وليس أصدق من أبي الطيب المتنبي عندما قال:

ولا تحسبنّ المجد زقّاً وقينة فما المجد إلّا السيفُ والفتكةُ البكرُ
وتقطيعُ أعناق العدى وإن تُرى لك الهبوات السودُ والعسكرُ المجرُ

لذا فإن الأمة التي تخوض معاركها بكل أبنائها دون تمييز وبكل طاقاتها دون توفير تفرض جديتها على أبنائها وعلى الأعداء وليس مثل الجدّ في تقرير إرادة الأمة. ونحن العرب في أوضاعنا الراهنة أكثر ما نفتقر إلى الجدّ في وحدة الإرادة والهدف وأخذ قضايانا بما تستحقه من الاستعداد للتضحية، ولذا بقينا نتعثّر في كل خطوة يخطوها شعب لوحده أو إقليم لوحده.

طبيعة العصر التي جمعت بين أعراق مختلفة سبق لها تاريخ طويل من التنافس والتصارع عندما شعرت بتهديد جماعي لأمنها، وهي الآن تفرض على العرب تجميع طاقاتهم دون أنانية أو حساسية أو مخاوف متبادلة بين أقطارهم وأنظمتهم. ذلك لأن الأعداء لا يميّزون بين عربي وآخر وإن تظاهروا خلاف ذلك. وأي اعتقاد من طرف بأنه بمنجاة ممّا أصاب العدو به طرفاً عربياً آخر هو خروج على بديهية وحدة السيادة و وحدة المصلحة المصيرية، ونتائجه ليست محمودة على من ينشد السلامة وحده.

السلامة العربية مكفولة بتضامن دول العرب وبجدّية متناهية تستند إلى وحدة السياسة ووحدة الأداة العسكرية في السلم والحرب.

الجدّية تفرض ذهنية صحيّة على القادة بحيث لا يجري التزوير على الحقائق الواضحة، فليس يفيد أحد أن نسمي الهزيمة نصراً كما لا ينفع تخفيض كوارث الأمة بتلطيف أوصافها. صراع البقاء والعزّة لأمتنا يفرض ألاّ نستخف بضمير الإنسان العربي أو عقله، وإلاّ فإن حذلقات السياسة تدفع العسكرية إلى غير الأهداف التي وُجدت العسكرية من أجلها وبالتالي تحطّ من شرفها.

أنا أقول هذا من موقع المقاتل الذي لم يدر للعدو يوماً ظهره، ولا فرّط بذرّةٍ تراب من أرض الوطن الطهور، وما تقاعست يوماً عن أداء الواجب الوطني وضريبة الحق القومي. بدأتُ حياتي بالجندية وانتهيت سياسياً غير منتهز، يملأني شرف مورروث عن جدّي سيف الدولة الحمداني وشرف مكتسب بالأفعال لا الأقوال. فلست بأي ضابط ينطق عن هوى ولست بأي سياسي يبحث عن منصب أو مكسب.

منذ الطفولة عشقت بلادي وفي أول شبابي حملت السلاح ومعه هموم أمتي وجراح وطن شهدت اغتصابه في أقدس بقعة من بقاع وطننا العربي. والآن وأنا أمضي ما تبقى من أيامي أنظر في أمر أمّتي التي جانبت سبيل الصواب في أعظم قضاياها، واجترأت على الحق مثلما اجترأ الأعداء كل بطريقة، وأم البلايا مصدرها واحد هو الصهيونية والاستعمار.

إن كنت أطيل البحث في قضايا الجيوش فلأني أراها إن صاغتها الضرورات العسكرية السليمة، فهي الوسيلة التي لا مناص من اعتبارها أساساً واحداً للعرب دون تجزئة لإرهاب العدو واحترام الصديق. فلا حياة لأمة استبعدت السلاح ووحدته لحماية حقوقها واستبدلته باللهث على أبواب الأعداء استجداءً واسترحاماً منهم لإعادة ما سلبوه.

يقول الجيل الجديد إن الصراع العربي الصهيوني هو صراع حضاري، وقولهم صحيح إلى حد وليس إلى كل الحدود. واستخدام التعبير (حضاري) يغفل الأسباب التاريخية والدينيّة والعرقية التي يضعها اليهود في أولى قائمة عقيدتهم السياسية.

فتعبير (حضاري) يفهم على أكثر من وجه. وجه يثمّن العلم والتفوق فيه، وآخر يثمّن أساليب المدنية الحديثة في تعامل المجتمع داخل الدولة ومع الدولة بما فيها

المؤسسات الديموقراطية. ولكن التعبير لا يطـرح نتائج التفاوت الحضاري على قوة الـدولة وحيـوية مجتمعها واستعدادها للصـراع المسلّح.

هـذا التعبير مع صحته لا يصـوّر القضية بشمولها بما يمكن فهمه بيسر للمتعلمين وغير المتعلمين في وطننـا. هـذا من ناحية، ومن ناحيـة أخـرى نتساءل مـاذا فعل جيل العلم العـربي المتميّز عمّا سبقه في السباق مع إسرائيل حضارياً؟ وماذا فعلت الحكومـات التي احتضنت هـذا الجيل؟

يؤسفني أن أصـدر عن قسوة في حكمـي أن الفئات العظيمة من جيل العلم أغفلت أسباب التفوّق على إسـرائيل بعد أن وصفت بعض نواحيها بذلك التعبير. فهو ليس جيل العلم فحسب ولكنه الحكم في كل بلـد عـربي والمنظّـر للمسيرة المستقبلية، إلّا أنه أخفق في خلق أي تكوين جـدّي للبحـوث والاختراع على طول الـوطن الكبير وعـرضه، ونجح وأيّما نجـاح في استيراد وبناء أسباب الرفاهيـة والترهّـل.

هم يصفون جيلنا بأنـه جيـل الأحـلام الجامحـة الجاهلـة بحقائق العصـر والـذي يقفـز عن الحواجـز دون النظـر في ما وراء الحـواجز، والـذي يقصـد إلى اختزال الزمن والـذي فشل بسبب ذلك كله في إيصـال الأمـة إلى غاياتها. وباختصار جيل الفرسـان الـذين كبت خيولهم في كل الساحات لغياب العقـل العلمي.

أنا أردّ بالموافقـة على دعـواهم لاختصـار الجـدل، ولكني أطالبهم في ما صنعوه غير تكريس القطـرية والإقليميـة وتبديد الثـروة العـربية، ومـلء عقولهم (الحاضـرة) ببرمجات الفكـر المعادي ووقوعهم أسـرى الإرادة الأجنبية فلا خيلاً ركبـوا ولاقلاعـة جلبوا. لماذا؟ لأنهم انفصلوا عن تاريخهم البعيد والقـريب وقبلـوا بإبراز الهنات وإنكار الفضائل.

في إحـدى الجلسات مع وزراء مستوزرين تصـدّى شاب يحمل دكتوراه لمناقشتي قائلاً: «سيدي، تسعدني لو ذكرت أي نجاح حقق جيلكم؟».

قلت له: نحن حـاربنا في سبيل أن يتمتّع جيلكم بالحـريّة وقد نجحنا في هـذا إلى حـد بعيـد. ولكن القوى المعادية لأمتنا من صهيونية ودول استعمارية وتحيّز بعض العـرب لبعض تلك القوى غلبتنا على أمـرنا أحياناً ولكننا رسمنا طـريقاً محـاه جيلكم.

قال: وبالتالي ما هـي نتيجة المخـاض؟ ماذا ولـدتم؟

قلت: ولدنا مُثلاً عليا واستقلالاً لدولنا ودعـوة للـوحدة وخبرة لأمتنا نتجت عن

الصـراع على مـدى أكثـر من جيلين مع الأعـداء ودفعنا راضين ثمن تعلّقنا بالمبادىء. أمّا أنتم فلم تلـدوا بعـد مخاض جيلين حتى فأراً.

أنتم استعذبتم المشاركة مع الأجنبي دون تكافؤ بعـد الاستقلال، فـدخل من النافـذة بعـد أن طـردناه من الباب تحت شعار الانفتاح عـلى العالم الذي أنتج تهافتكم على الأجنبي للحصـول على قسـط من الثروة في أوطانكم. واستبقتم الخبرة في السيارات والخمور والسيجار والرطن بالإنجليزية أو تفضيل اللكنـة الأمريكيـة. أنتم قلبتم تقشّفنا وخشونة عيشنا مع سموّ أهـدافنا إلى النعومـة وضيـاع الأهـداف.

إذا لم يدرك جيلك أن الهوية العـربية في خطـر ولم يبقَ منها إلاّ الإعـلان دون مضمون، وإذا لم يعد لفهم تاريخ الأمـة ويواصل الـدرب من حيث أبعدتمونا عنه فسيأتي يومٍ يعيش معظمكم في الصحـراء أو في بلاد شركائكم اليوم ولن يحفظوا لكم وداً أو حقـاً.

إذا كان جيلي يعاني الغربة معكم في وطنـه فلن تكون لكم حتى الغـربة في بلاد الأجانب.

سألته: هـل أديت خـدمة للعلم؟
قـال: كلاّ.
سـألته: هـل أطلقت بندقية؟
قـال: أبـداً.
سـألته: هـل أرقت ليلة في هموم الـوطن العـربي؟ فصمت.

قـلت: دكتـور خادم بدرجـة عالية في الدولة ولست للعير أو النفير.

لم يفهم الـدكتور العير والنفير.ولم أجـد الترجمـة الصحيحة باللغة الإنجليزية التي يتقنها أكثر من العـربية. وانتهت المناقشة وقد سـاءته خشونتي وسـاءتني لامبـالاته وضحالة فكـره.

لست أقصـد أن هـذا الدكتور يمثّل كل من حمـل اللقب أو دون اللّقب من درجات علمية في أمتنـا، ولكن الغالبية ممن وصلـوا إلى درجات عالية من المسـؤولية الحكوميـة هم على شاكلته يريحـون ويستريحون ويتباهون بكليشيهات مكـرّرة وتعبيرات أصبحت تعني السفسطائيـة المجـردة.

إسرائيل فيها علماء ومـراكز أبحـاث وفيها متعلّمون بدرجات عـالية ليس بينهم من لم يحمل السلاح، وليس بينهم من أخلـى نفسه من المسؤولية الوطنية بالسهر

والدراسة واقتباس الصناعة المتقدّمة والزراعة الناجحة والاختراع.

إسرائيل تدخل صناعاتها الصغيرة الفنية في كثير من الصناعات المتطورة الأوروبية والأمريكية. هي في مجال السباق للتفوق علينا إقليمياً وعالمياً والتفوق على قوانا المجزّأة عسكرياً.

أين نحن من هؤلاء أيها الجيل العالِم؟ وأين دوركم في السباق وأنتم الآن فئة الحكم والإدارة وتصريف الثروات العربية؟

إذا لم تقاتلوا يوماً في الميدان أو على الأقل لم تؤرقكم أحوال أمتكم الليالي، فليس لكم في المستقبل أي مكان.

العسكرية هي روح القتال المتمكّنة من الأمة والمتمثّلة في فيالق وجيوش، ولكنها حتماً ليست حكم العسكر والديكتاتورية. وفي الوقت نفسه فإن ما من سياسة ناجحة لأمة ذات مطالب بدون العسكرية.

المعونة العربية

منذ سنة ١٩٥٣ أيام حديث الأمنيات بين الملك حسين وبيني، ومنذ أن قرّر جلالته حمل المسؤولية الوطنية الأولى بتحرير الجيش العربي معتمداً على حركة الضباط كان الاتجاه إلى التضامن العربي لتعزيز الأردن في خلاصه من كل ارتباط تعاهدي مع بريطانيا.

ومع مرور الأيام أصبح ذلك الاتجاه اعتقاداً مسلّماً به دون إجراء أي مفاوضات إلاّ في زيارتي السرّية للرئيس جمال عبد الناصر في أواخر ١٩٥٤ بتكليف من جلالة الملك، وقد تعرّضت في ما سبق لتلك الزيارة في هذه المذكرات.

ثم أصبح ذلك التضامن حقيقة عندما عرض الملك سعود والرئيس جمال عبد الناصر والرئيس شكري القوتلي استعداد دولهم لضمان معونة تحلّ محلّ المعونة البريطانية إثر معركة حلف بغداد، وقد أبديت رأيي في توقيت ذلك العرض.

وبعد ذلك تجدّد العرض بعد تحرير الجيش العربي، ولكننا ارتأينا أن يبادر الأردن إلى قبول العرض ذلك بعد أن تستقرّ أحوال الجيش والدولة بانتخابات جديدة وحكومة مختارة تناسب الظروف الجديدة، التي أحسسنا بأنها تحتاج إلى تقوية الدولة بإزالة العوائق التي قد تعترض إنهاء المعاهدة الأردنية البريطانية.

ومن هنـا فما كادت الحكومـة الجديدة التي يرأسها سليمان باشا النابلسي تستقرّ بعد الانتخابات النيابية، حتى أصـدرت بياناً عن عزمها الـدخول في مفاوضات مع بريطانيا لإنهاء المعاهدة وقبول المعونـة العـربية. وفي هـذا الـوقت كنّا حصلنا على كل ما يمكن الحصول عليه من أسلحة وذخـائر من بريطانيا، سواء بالطلب أو بمصادرة مستودعاتها في الأردن، وتصوّرنا أن الحصول على المزيد منها أمـر مستحيل.

لـذا بادرت الحكومة وبعد مباركـة جـلالة الملك بالاتصال مع الحكومة المصرية لاستقبال وفـد وزاري عسكري أردني، فوافقت مصـر وتشكل الـوفد كما يلي:

السيد شفيق أرشيدات	وزير العدل
السيد عبد الله الريماوي	وزير الدولة للشؤون الخارجية
السيد صلاح طوقان	وزير المالية
أمير اللواء علي أبو نوار	رئيس هيئة أركان حـرب الجيش العـربي
الزعيم محمد المعايطه	من أمراء الجيش العـربي

أرسلت الحكومـة المصـرية باخـرة لتنقلنا من بيروت إلى الإسكندرية، حيث كان في استقبالنا أحـد الـوزراء المصريين ومحـافظ المدينة وقائد سـلاح البحـرية وحـرس شـرف من السلاح نفسـه ثم توجّهنا إلى القاهـرة بالسيارات يوم ١٣/١/١٩٥٧.

كانت لنا جلسـة بعد العشـاء مع الـرئيس عبد الناصـر واللـواء عبد الحكيم عـامر والسيـد زكـريا محـي الدين والسيد كمال الـدين حسين، ودار الحديث عن موضوعي إنهاء المعاهـدة والمعونـة العـربية.

الـرئيس عبد الناصـر قال: مصـر لا تتأخرّ عن دفـع حصتها من المعونـة العـربية، وكـذلك المملكة السعوديـة وسوريا، ونحن مستعدون لأن نقاسـم الأردن كل ما عندنا ولـو حرمنا أنفسنا من بعض الضروريات لأن استقلال الأردن النهائي عن بريطانيا مكسب لمصـر وللعـرب.

ولكـن الـذي يشغل بالي هو ماذا يكون الأمـر لو رفضت بريطانيا الاتفاق مع الأردن على إنهاء المعاهـدة وتشبّثت بها وباستمرار وجود قواتها في الأردن؟

قـال شفيق أرشيدات: نحن مصمّمون على إنهاء المعاهـدة ومن طـرف واحـد إذا احتـاج الأمـر، وذلك بإعـلان إنهائها في مجلس الأمة.

قال الرئيس عبد الناصر: وكيف تعالجون القواعد البريطانية في الأردن؟

فرد عبد الله الريماوي بأن هذه مسألة عسكرية يتكفّل بها الجيش العربي.

قال الرئيس: أنا أعرف جواب الأخ علي أبو نوار منذ لقاء قديم، ولكن خشيتي أن تتعقّد الأمور، ونحن في مصر نعيد تنظيم شؤوننا بعد العدوان.

قلت للرئيس: نحن هذه المرة نطالب مصر والسعودية وسوريا بالوفاء بما تعهّدت به في أكثر من مناسبة، أمّا القواعد البريطانية فالجيش العربي كفيل بإغلاقها وإجلاء قواتها. والظرف بعد العدوان الثلاثي وفشله أصبح عاملاً مساعداً لسهولة إنهاء المعاهدة وإجلاء القوات البريطانية.

أبدى الرئيس رغبة في أن يتناول زكريا محي الدين وكمال الدين حسين معنا مزيداً من المذاكرة في أمر إنهاء المعاهدة وبحث كل الاحتمالات توطئة لجلسة ثانية معه.

في اليوم التالي عقدت الجلسة وبادر زكريّا محي الدين إلى إبداء مخاوفه من الدخول مع بريطانيا في إشكال قد يؤدي إلى إقحام إسرائيل فيه والقوات المصرية لا تزال في الدلتا، ويستحيل عليها بسبب تخريب إسرائيل طرق سيناء معونة الأردن عسكرياً.

ولمّا لم يتمكّن زكريا من إقناع الوفد الأردني بإرجاء طلب المفاوضات من بريطانيا تحوّل إلى المشاركة في استطلاع الاحتمالات العسكرية، واختلفنا في وجهتي نظرنا إلى الموضوع بحكم التجربة الأردنية الأولى في تحرير الجيش في ظروف لا تحكمها نتائج العدوان الثلاثي المتميّزة في المنطقة وعالمياً.

كنّا نشعر في الأردن بأننا في هذه المرحلة أكثر قوة داخلياً وعربياً، فضلاً عن الهزيمة المعنوية التي أصابت بريطانيا بعد العدوان.

عدنا جميعاً للاجتماع مع عبد الناصر لإجمال المناقشات والخروج بقراره، فوافق على رأي الوفد الأردني على اعتبار أن الأردن صاحب الشأن الأول، ولكنه نصحنا أن نسافر إلى المملكة السعودية ونقابل الملك سعود.

وسبب عبد الناصر نصيحته هذه بأنه يريد استبعاد أي حساسية عند السعودية، وإعطاء الملك سعود أولوية الموافقة على الاتفاقية التي ننشدها. فاتخذت الحكومة الترتيبات اللازمة وانتقلنا إلى المدينة المنورة يوم ١٩٥٧/١/١٦.

التقى الوفد بالملك سعود الذي أبـدى استعداده الكامل لأداء حـصة السعودية التي سبق وأن تكررت في اجتماع سابق مع الرئيس شكـري القوتـلي والرئيس عبد النـاصر، ووعد بأن يتـصل بهما لإجـراء اجتماع قمـة في القاهـرة يدعون إليها الملك حسين لإنجـاز اتفاقية المعونة العربية.

هـذا وقد وصل الملك حسين يصحبـه وزير الـدفاع وأمير اللـواء علي الحياري، وتباحث العاهـلان في الأمـر وتقـرر سفرهما كل من عاصمته إلى القاهـرة يوم ١٩٥٧/١/١٧.

بعـد ظهر يوم ١٩٥٧/١/١٦ أبلغني السفير السعودي الذي رافق الملك حسين من عمان إلى المدينة المنورة أن الأمير فيصـل آل سعود (وزير الخارجيـة آنذاك) يدعوني لتناول الشاي معه فذهبت وكان ذلك أول لقاء لي مع سموّه.

أثناء الحـديث طـرح الأمير فيصـل موضوع الشيوعية وأخطارها على العـرب، وتطـرّق إلى الحـزب الشيوعي الأردني وضـرورة الحـذر منه. لمست من كلماته أن تصوّره لذلك الحزب في الأردن مبني على معلومات مبالغ فيها. وأردت أن أخفّف من قلقه من هذه الناحيـة وإعطائه صورة واقعيـة لقوة الشيوعيين في الأردن.

ولكـن الأمير فيصل نقل البحث إلى درجة أشمل بالحـديث عن الشيوعية العالمية والاتحـاد السوفييتي وتسلّله إلى المنطقة العـربية، وبخاصـة سوريا ومصـر والأردن عن طريق الأحـزاب والعلاقات الحكـوميّة. وتبيّنت من فحـوى كـلامه حـذراً من أن يسلك الأردن طـريق مصـر وسـوريا باستيراد السـلاح من روسيا.

كان الأمـر واضحـاً في عـدائه للشيوعيـة بحيث وصفها بأنها توأم الصهيونيـة.

أوضحت لسموّه بأن الأردن تحكمه المبادىء العـربية القوميـة كمبدأ وتوجـه مسيرته طبيعـة الصـراع العـربي الإسرائيلي، وأنه وفي كل الأحـوال بعيد كل البعد من أن ينجح الشيوعيون فيه للـوصول إلى الحكم أو السيطرة. هـذا فضلاً عن أن الأردن الـذي انتزع سيادته من بريطانيا لن يتنازل عنها لأي قوة عالميـة شيوعيـة أو استعمارية.

استغـرق النقاش أكثر من سـاعتين وكان الأمير ميّالاً للجـدل ومحبـاً للاستطلاع وبأسلوب دبلوماسي هـادىء، ويجـد متعـة في محـاولة إقناع محـدّثه بآرائه الثابتـة التي لا يتزحزح عنها. كان عنده جـواب لكل حجة أطرحها وأحياناً يجيب على السؤال بسؤال.

أذكـر أني كنت مجـاملاً في نقاشي معـه إلى الحـدود التي تقف عند قناعتي،

ووجدت في الحديث معه متعة ذهنية حتى في حالة عناده الشديد للقبول ببعض آرائي.

انتهينا إلى التلخيص التالي: لماذا لا ننبذ الشيوعية ودولها والاستعمار الغربي ودوله بأي شكل من أشكال العلاقة الخاصة، وهذا كان اقتراحي.

الأمير فيصل لم يقبل المقارنة بين سوء الشيوعية الدولية وسوء الاستعمار الغربي، بسبب أن الشيوعية الدولية ملحدة وعدّوة للإسلام وأن الاستعمار الغربي مع سوئه يتمثّل في شعوب ذات كتاب. فضلاً عن ذلك فإنه كان يرى أن الصهيونية هي أم الشيوعية أو توأمها، بينما كنت أرى أن الصهيونية وإسرائيل رأس حربة للاستعمار ومصالحه، كما أن الاستعمار كان رأس حربة الصهيونية في الحرب العالمية الثانية وفي المنطقة العربية بالذات.

ذلك الحديث الطويل كان بداية فهمي لرجل السياسة الحقيقي في المملكة السعودية، والذي صار ملكها في ما بعد، ولم تقطع بينه وبيني كل الأحداث اللاحقة حبل مودة شخصية اعتززت بها بالرغم من اختلاف في النظرة إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى.

في يوم ١٩٥٧/١/١٨ اجتمع في قصر الرئاسة في القبة الملكان والرئيسان، واتفقوا على التضامن القاضي بأن تدفع مصر والسعودية وسوريا مبلغ اثني عشر مليوناً ونصف مليون جنيه سنوياً إلى الأردن بدلاً من المعونة البريطانية، على أن تكون حصة كل من الأولى والثانية خمسة ملايين وحصة الثالثة مليونان ونصف. صيغت الاتفاقية في اليوم نفسه ووقّعت يوم ١٩٥٧/١/١٩. وحضر الوفد الأردني مع الملك حسين، وكذلك رئيس الوزراء الأردني سليمان باشا النابلسي الذي اصطحبه جلالته إلى القاهرة.

وهكذا أصبح موضوع إنهاء المعاهدة البريطانية الأردنية ناضجاً، وقد استوفى الأردن كل ضرورات الإنهاء.

إنهاء المعاهدة

كما سبق وأن ذكرت فإن الحكومة الأردنية كانت قد أصدرت بياناً في ١٩٥٦/١١/٢٧ تعلن فيه عزمها على قبول المعونة العربية وإنهاء المعاهدة ولم تحرّك بريطانيا ساكناً، ولعلّها اعتقدت أن البيان لا يخرج عن كونه دعاية سياسية. وسبق أن ذكرت أيضاً أن بريطانيا كانت تحاول مع أمريكا ومع العراق التعاون معها

لاقتسام المعونة البريطانية بدعوى أن المعونة مكلفة لها، وأن جدواها قليلة بعد طرد القيادة البريطانية من الجيش الأردني.

ولكنها وبعد أن بدأ الوفد الأردني مفاوضاته في القاهرة ثم انتقل إلى السعودية أرسلت إلى رئيس وزرائنا مذكرة مستعجلة تطلب فيه تحديد موعد لبحث مستقبل المعاهدة استناداً إلى البيان الوزاري الأردني. تسلّمت حكومتنا المذكرة في ١٦/١/١٩٥٧، وكانت طبيعة الاستعجال نوعاً من الضغط والإحراج في حين لم تكن الدول العربية الأربع قد وقعت بعد أي اتفاقية بشأن المعونة العربية.

وعادت الحكومة البريطانية وأرسلت مذكرة ثانية تطلب الدخول حالاً في مفاوضات لبحث إنهاء المعاهدة بين البلدين، فاستجابت الحكومة الأردنية وهي لا تكاد تصدّق رغبة بريطانيا هذه من السعادة والفرح وحددت يوم ١٩٥٧/٢/٤ لبدء المفاوضات.

تشكل الوفد الأردني لهذه الغاية من:

سليمان النابلسي	رئيس الوزراء
عبد الحليم النمر	وزير الدفاع
شفيق أرشيدات	وزير العدل
عبد الله الريماوي	وزير الدولة للشؤون الخارجية
صلاح طوقان	وزير المالية
علي أبو نوار	رئيس هيئة أركان حرب الجيش

وتألف الوفد البريطاني من:

السفير البريطاني في عمان	
الجنرال روبرتسون	قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط
مستشارين مدنيين وعسكريين	

كنّا قررنا أن نبدأ المفاوضات بطلب نتقدم به إلى الوفد البريطاني لإصدار بيان مشترك يعلن فيه اتفاق الدولتين على إنهاء المعاهدة كنقطة انطلاق للمفاوضات على القضايا التفصيلية، وفاتحناهم بهذا ووجدنا أنهم فوجئوا وباستغراب طلبنا هذا. كانت حجتنا أن الرغبة البريطانية تلتقي مع الرغبة الأردنية وقد أظهرت بريطانيا نيتها بمذكرة ١٩٥٧/١/١٦ و١٩٥٧/١/٢٢.

فطلب الوفد البريطاني مهلة لدراسة طلبنا حتى اليوم التالي. وفي

١٩٥٧/٢/٥ أجابنا بأن البيان المطلوب سابق لأوانه وأنه ممكن بعد الانتهاء من كل بحث في التفاصيل المتعلقة في المعاهدة.

وبعد جدل طويل قبلنا بحث العناوين الرئيسية التي طرحها الوفد وتتعلق بالتعويضات عن المنشآت العسكرية وبرنامج جلاء القوات البريطانية، فوجدنا أن التعويضات كبيرة إلى درجة غير مقبولة، وكذلك وجدنا أن فترة الجلاء التي يتحدثون عنها لا توحي بالارتياح بسبب طولها وبدون تحديد واضح.

استمرت الأبحاث والمباحثات بيننا وبين الوفد البريطاني حتى وصلت تفاصيل مضحكة، وهم يتحاشون العودة إلى البيان المشترك حتى بدأنا نشكّ في حسن نية بريطانيا وصدق مذكرتيها المستعجلتين اللتين تحث فيهما الحكومة الأردنية على المفاوضات الفوريّة.

في المذكرة الأولى يطلبون بحث مستقبل المعاهدة وفي المذكرة الثانية يذكرون إنهاء المعاهدة، ونحن كنّا واضحين من أول جلسة بأننا نقصد إنهاء المعاهدة بكل ملحقاتها وتصفية الوجود العسكري البريطاني على الأرض الأردنية.

الجدل في هذا الموضوع من ناحية والمفاوضات على التعويضات والفترة المطلوبة للجلاء من ناحية ثانية مختلطة مع الخلاف على أولويات المواضيع أصبح يدور بنا في حلقة مفرغة حتى عزمنا على وضع الأمور في نصابها يوم ١٩٥٧/٢/١٢، وأبلغناهم بأننا إمّا أن نصدر بياناً مشتركاً في صباح اليوم التالي في الساعة العاشرة صباحاً يعلن اتفاق الحكومتين على إنهاء المعاهدة، وإلاّ فإن الحكومة ستصدر بياناً منفرداً تلتزم بنتائجه، وانفض الاجتماع دون نتيجة على أساس العودة في صباح اليوم التالي.

مضت تسعة أيام على المفاوضات دون الوصول إلى نتيجة، ممّا أكد شكوكنا بأن البريطانيين يناورون لكسب الوقت لهدف غير واضح في أذهاننا. ولكن في مساء ذلك اليوم اتصل بي الجنرال روبرتسون يطلب مني جلسة غير رسميّة في منزلي، ورحّبت به فحضر في الساعة السابعة مساء لوحده.

وبعد قليل من عبارات المجاملة سألته عن غرض الزيارة ليجيبني بأن الحكومة البريطانية لا تعتقد أن هنالك إجماعاً أردنياً لإنهاء المعاهدة، ولذلك فإنه وجد من المناسب الاجتماع بي قبل صباح الغد.

قلت له: هذا المنطق سيجرّنا إلى نقاش بيزنطي لا طائل وراءه، إذ يمكنني أن

أدّعي بأن الوفد البريطاني يخالف قرار حكومته أو أن الحكومة البريطانية لا تمثّل إجماع شعبها.

قال: ليس بالضبط. فنحن نعلم أن عدداً من السياسيين الأردنيين والوجهاء يعارضون إنهاء المعاهدة ويرغبون في بقائها قائمة.

قلت له: إن اجتهاد عدد من السياسيين والوجهاء لا يصمد أمام حكومة تتمتع بالثقة الدستورية من البرلمان ومن جلالة الملك. فأولئك لا يمثّلون مسؤولية حكومية بأي مستوى من المستويات، وأستغرب أن تقبلوا حتى الحديث معهم كوفد رسمي أوفد من حكومة للتفاوض مع حكومة الأردن، ولكن ولمجرّد التسلية فهل يمكنك أن تسمي واحداً منهم مع أن الأمر غير ذي بال؟

قال الجنرال: مثلاً سمير باشا الرفاعي لا يرى رأيكم.

قلت له: ما رأيك أن تضموا سمير باشا إلى وفدكم ويتولّى المفاوضات عنكم. عندئذ تعطون للحكومة الأردنية مبرراً لسجنه ومحاكمته في تهمة خطيرة.

قال: ماذا لو لم نتفق على البيان المشترك الذي لا نحبذه قبل إنهاء المفاوضات بكل تفاصيلها؟

قلت: سوف تعلن الحكومة الأردنية إنهاء المعاهدة من طرفها وتصدّق قرارها في مجلس الأمة وتقف بريطانيا عارية.

قال: ولكننا في هذه الحالة سنبقي قواتنا في قواعدها في الأردن وعندئذ تقف الحكومة الأردنية عارية.

قلت له وبألفاظ لا تحتمل التأويل وبجدية متناهية. اسمع جنرال روبرتسون، إما أن توقّعوا غداً صباحاً وحتى الساعة العاشرة صباحاً البيان المشترك وإلاّ فإن الحكومة ستعلن إنهاء المعاهدة من طرف واحد. وعندئذ وبعد أن انكشفت لي نواياكم سأحتلّ قواعدكم وأفرض على قواتكم الرحيل بالشكل الذي أراه مناسباً للأهداف الأردنية.

احتقن وجه الجنرال روبرتسون وغاضت ابتسامته ثم قال: هذا معناه الحرب.

قلت له: نعم وأنا أدرك ذلك تماماً.

نهض من مقعده وصافحني مودّعاً وامتطى سيارته وذهب.

اجتمع الوفد الأردني في الساعة التاسعة بناء على طلبي وأعدت عليهم ما دار من مناقشة بيني وبين الجنرال روبرتسون، واستغرق الرئيس والوزراء للحظات في التفكير ثم سألني رئيس الوزراء عن تصوري للحركة التالية من الوفد البريطاني.

قلت له: إن الوفد سيحضر الاجتماع وسيوقّع البيان المشترك، ويجدر أن نضع مسودته قبل وصولهم. فأبرز سليمان باشا ورقة من جيبه قائلاً: لقد أعددناها منذ أيام. ثم ناولني إياها لأقرأها.

في الساعة العاشرة إلاّ ربعاً وصل الوفد البريطاني إلى دار الرئاسة، وأدخلهم موظف كبير في الرئاسة إلى قاعة الاجتماعات حيث صافحونا وجلسوا. وبدون إضاعة وقت تكلّم السفير البريطاني موجهاً كلامه إلى رئيس وزرائنا قائلاً:

السيد رئيس الوزراء، نحن جاهزون لتوقيع بيان مشترك ونحمل صيغته معنا.

أجابه الرئيس: هذه نسخة من صيغتنا ولا نعتقد أن سيكون لكم اعتراض عليها.

قرأها السفير ثم الجنرال ووافقوا عليها ثم وقعها رئيس الوزراء والسفير وأعلنت في اليوم نفسه من عمان ولندن.

عندما سمع الشعب الأردني إذاعة البيان تظاهر في عمان وغيرها بالفرح، مما جعل السفارة البريطانية تدرك أن الحكومة كانت تعبّر بموقفها عن إرادة الدولة والشعب المتعطش لهذا اليوم. وكان لإبداء الشعب رأيه أثر على نفسية المفاوض البريطاني في الجلسات التالية.

ومع ذلك كله فقد حاول البعض التأثير على جلالة الملك للتدخل لما يؤدي إلى تغيير المعاهدة إلى اتفاقية، ولكنهم لم يفلحوا في إقناعه وأيّد الخط الذي تبنّاه منذ أن خطا الخطوة الأولى في تحرير الجيش والتي تنتهي بانتهاء المعاهدة.

الوفد البريطاني والذي وافق على البيان المشترك كان يماطل في المفاوضات التفصيلية ويعقّدها حتى فشل وبعض من كانوا يرون مصلحة في اتفاقية بديلة عن المعاهدة بما أطال فترة المباحثات حتى ١٩٥٧/٣/١٣.

ذلك اليوم كان يوم الخلاص الأردني من كل قيد فرضته بريطانيا في ظروف

ملائمـة لها ومجـافيـة للقـدرة الأردنيـة. وفي ذلك اليوم تبادلـت الحكـومة الأردنيـة والـوفد البريطانـي خطابين تضمّنا ما يلي:

١ ـ اتفاق الطـرفين على إنهاء المعاهـدة لعام ١٩٤٨ مع ملحقها والمذكـرات والكتب المتعلقة بهـا.
٢ ـ جـلاء القـوات البريطانيـة عن الأراضـي الأردنيـة في فترة لا تتجـاوز ستـة أشهر.
٣ ـ تدفع المملكـة الأردنيـة أربعـة ملايين وربع المليون جنيـه استرليني لبريطانيا ثمناً للمنشآت العسكرية البريطانية.
٤ ـ ملحق بالاتفاقية ينظم الدفعات على سبعـة أقسـاط سنوية.

خـواطـر

أتسـاءل بعدما سبق من أجـزاء مذكـراتي تساؤلات كثيرة خطر لي بعضها في سن الرابعة والعشرين وأنا أشغـل منصب أركان حـرب اللـواء الثالث في فلسطين سنة ١٩٤٨، وبعضها في سن الثلاثين وأنا أشغل منصب قائد الجيش العربي سنة ١٩٥٦، ثم وأنا لاجـيء في مصـر وسوريا وبعدها في سن الثانيـة والأربعين أيام حـرب سنة ١٩٦٧ المشؤومة وأخيراً وقد بلغت الخامسة والستين.

أتسـاءل عن الـوعي العـربي على قضاياه العامّـة بشمولها وعن مـدى العلم بمجتمعـاته وبيئاتـه الفكرية والاجتماعية وإلمامه بأوضاع دوله وسياساتها.

هـل كان الأردني يدرك أوضاع الحياة ومكـوّناتها في الدول العربية الأخرى؟

وهـل كان المواطن العربي في كل قطـر آخـر يـدرك حقائق الحياة والبيئات والـذهنيـات السائدة في باقي الأقطـار؟

وهل كان الانفعال العربي لمصاب العربي في البلد الآخر بديهية إنسانية أو عصبية قومية، أم أنه نابع من عاطفة الأخوة المتفاعلة مع العلم بالمصاب وأسبابه ودرجة عمقه الوطني والقومي؟

وهل كان التعاطف يتكافأ مع حجم المشكلة ومقدار حقّها المفروض على العـرب أن يؤدوه كامل الأداء النابع من علم ومسـؤولية دائمـة، أم أن التعاطف كان كالنـار المشتعلـة بالهشيم لا تلبث أن تنطفيء؟

وفـي مـراحل تقدّم وسـائل الاتصـالات والإعـلام، هل تكفّلت تلك الوسـائل

رسمية كانت أو شعبية بتعميم الحقائق العربية على طول وعرض مساحة الوطن العربي الكبير؟

ثم هل كان أعلام الأدب والصحافة والسياسة والتاريخ متجردين من الغايات القطرية؟ وهل كانوا يملكون الحريّة لتغليب المصلحة القومية بما يضمن المصالح القطرية كافة، أم أنهم كانوا أسرى الحدود النفسيّة التي رسمتها يافطات الحدود الجغرافية التي غرسها المستعمر؟

هل كان جهلنا بالحقائق العربية كلها نتيجة عمل المستعمرين، أم أن جهلنا تكرّس وتعمق بارتباط الاستقلال بالإقليمية ومقتضياتها على حساب وحدة المستقبل العربي؟

أريد أن أصل إلى موضوع مركزي، وهو أننا حتى في الخمسينات، ومع تعاظم المقاومة العربية للأعداء، كنّا وفي جميع أوطاننا نتغذّى فكرياً وروحياً على شعارات وإعلانات تجاوزت علمنا بحقائق مجتمعنا العربي وتكويناته التي تطورت إلى تعقيدات لم يعرفها العرب في العشرينات من القرن.

مصر أكبر الدول العربية ومركز الحضارة والتراث الإسلامي نعرف عنها حقيقة التكاثر السكاني الفائق، ولكننا نجهل عظم حاجاتها المالية لمواجهة ذلك التكاثر فضلاً عن حاجاتها العسكرية. ولم نكن نعرف عن فكر قيادة الثورة إلّا ما تعلنه إذاعتها بالنسبة للاتجاه القومي وهي إعلانات وشعارات.

والعراق المتكامل بالقوة البشرية ومصادر الثروات المائية والبترولية، ماذا كنّا نعرف عن ذهنية القيادات السياسية فيها إلّا قيادة الحكم المتمثلة في نوري السعيد؟ ولم نعطِ كثيراً من الاهتمام للتركيبات العرقية والطائفية فيها لجهلنا بالكثير عنها.

كنّا نعلم أن السعودية والخليج تنتج النفط ولا شيء غيره، ونجهل الكثير عن طبيعة الحياة والمجتمع فيها.

كنّا نتصور أن التاريخ الذي درسناه في المدارس هو التاريخ ولم نكن ندرك أن معظمه مزوّر بسبب اضطرار المؤرخين لمسايرة الحكام أو المستعمرين.

كنّا ننشد، ونحن في حالة من أحلام اليقظة: بلاد العُرب أوطاني... ولم نكن نعرف أوطاننا.

كانت القضايا السياسية طلسماً إلّا إذا قامت ثورة أو انتفاضة عنيفة تفتح

الثغرات في جدران الحدود التي بناها المستعمر لتطل علينا تلك القضايا بمقدار ما تتّسع له الثغرات التي ما تكاد تفتح حتى يجري إغلاقها.

نحن العرب لم نقرأ عن مشكلة دينية أو عرقية في جنوب السودان إلّا في أيامنا هذه. ولم نسمع عن انتشار المذهب الشيعي في جنوب السعودية إلّا قريباً. ولم ندرك أن بذور صراع عنيفة تنمو في لبنان أساسها الطبقية الاجتماعية الاقتصادية حتى فجّرها الصراع الفلسطيني الإسرائيلي حديثاً وأخذت شكل الصراع الطائفي.

نحن نشأنا ننشد: العرب أشرف أمة من شك في قولي كفر. ولكننا كنّا نجهل ونحن نُنشد أن تجارة الرقيق العربي لها سوق في دنيا هذا الشرف، وأن في حياة أمتنا عبوديّة يمارسها الإقطاعيون الزراعيون على مجتمعات إقطاعياتهم.

وأخيراً، فإن جهلنا بمجتمعاتنا في هذا الوطن الواسع لم يصل إلى أقل درجات علم الأجنبي بها، الأمر الذي حكم مسيرة أمتنا في تاريخها الحديث بقيود جمحت بنا نزعاتنا القومية أحياناً إلى كسر المادي منها ثم وقفت عند حد الذهني منها ولا نزال نحيا أسرى لتلك القيود الذهنية.

العلم بأمورنا التفصيلية هو أول الضرورات لوصف أحوالنا المرضيّة إذا اعتبرناها أمراضاً ووصف أحوالنا الصحية إذا اعتبرناها أسباب مناعة وقوة.

ونكران الطريقة العلمية كوسيلة لفهم أنفسنا كعرب، يعطي قوى الدفع للتقدم أسباب جموح عاطفي ويعطي قوى التخاذل والتخلص أسباب تنكر للتقدم. وليس ينفع أمتنا مهما غالينا في تقديس شعاراتها الممثلة لمصلحتها وأمانيها غير العلم بأنفسنا والتخلص من أمراضنا.

وهذا يدفعنا إلى التساؤل من جديد: هل لنا مخرج من أوضاعنا المتردية إلى درجة الاستسلام إلّا وحدة فهمنا لقضايانا ووحدة عملنا لنصرتها ووحدة مسؤوليتنا نحو مستقبل الأجيال المقبلة؟ وهل تضمن لنا القطرية بما تسببه من ضعف إمكانية صمود أمام التحديات التي يفرضها الأعداء كما يفرضها الزمن؟ أو ليس واضحاً أن ما نملكه من إرادة تتآكل يومياً وما نملكه من وطن أخذ في التناقص؟

أو ليس ما تعلمناه من التجارب المرّة إشارة صارخة بأن أمننا مهدد في حين يستقر الأمن لأعدائنا بفعل تشتت الإرادة والعمل، ممّا جعلنا نستجدي رحمة أعدائنا الذين أوصلونا إلى هذا الوضع الحرج؟.

أمّا الزمن الذي يمضي ولا نعدّ أيامه ونعتقد أنه بالتالي يعمل لصالحنا، أو لم يحن الوقت لتغيير اعتقادنا فيه قبل أن نصل إلى الهاوية؟ ألا نرى أنه سيأتي يوم لا نجد فيه ما ننفقه لطعام أطفالنا نتيجة الخطأ الفاحش في استثماراتنا التي يخططها العدو وأبصارنا ترى وإرادتنا مشلولة؟

ألم يثبت لنا أن كلفة معالجات قضايانا، الأمنية منها بشكل خاص، قد تضاعفت مئات المرات بسبب إغفالنا حقيقة الحقائق بأن لا دولة عربية وحدها قادرة على الحفاظ على أمنها إلّا ضمن إرادة التكامل والتكافل الجماعي.

لا القوة البشرية وحدها في دولة عربية ولا القوة الاقتصادية في أخرى تتوازى مع عظم ما يهددها أو سيهددها مستقبلاً، وليس من سبيل للتوازن مع متطلبات الأمن العربي إلّا الوحدة العربية في كل الإقليمين المشرقي والمغربي مع تضامن عملي ومدروس بين الإقليمين.

إقليمان لا أقاليم عديدة وإرادة واحدة لا إرادتين حتى نتفوق استراتيجياً على من يعادي أمتنا ونقدر على استعادة حقوقنا، وحتى لا تذهب ثرواتنا على تكاليف تتعاظم مع تعاظم تكريس القطرية وبنائها المصطنع.

منذ ١٩٤٨ وإلى أيامنا هذه لو حسب أحد الاقتصاديين ما تبدد وهدر من طاقات وثروات في الجهود القطرية بمجموعها ودون كسب قضية شاملة تعزّز القطريات إلى أي مدى كان مأمولاً، وحسب ذلك الاقتصادي ضرورات ونفقات الحسم في كل قضايانا على مستوى العمل القومي الموحّد لوجد أننا ارتكبنا ما لا يمكن أن يغفره لنا أحفادنا ولمئات السنين القادمة.

لذا فإن أبجدية الأمن لأمتنا تفرض وحدة الأهداف ووحدة سياسة العمل دون تمييز قطري مهما تفاوتت المزايا بين قطر وآخر، وتفرض سيادة أمن الوطن والأمة في كل من إقليمي المشرق والمغرب العربيين.

وكذلك فإن أولى مهمات أمتنا تكمن في كفالة حرية الإنسان وكرامته ومشاركته في صناعة المستقبل حتى يستقر لنا نظام تلتئم الأمة على احترامه.

أما الآن فلا نملك حماية أمن ولا أمن غذاء طالما نقبل بأسر الذهنية العربية السائدة، ولاتفيد الحيلة ولا الاحتيال على ما سيأتينا من أيام بدأت ظلماتها في الزحف على الأفق القريب.

لـو عـرفنا أنفسنا واتسعت آفاق عناياتنـا لبعضنا وتصـورنا أننا أمـة لا تعيش كل مستقبلها بحاضـرها لـوضعنا أقـدامنا عـلى بداية الطـريق الصحيح .

وللحـديث عن هـذه المسائل بقية في سياق الأحـداث .

الفصل العاشر
الأزمة الأردنية
والوحدة المصرية السورية

لعلّ من المجدي أن نستذكر أن الأردن جمح وقفز فوق الأسوار يحمل معه أثقالاً لا قبل له بها يوم دفن حلف بغداد في حفرة عميقة في أرضه، وأعاد رئيس هيئة أركان حرب الإمبراطورية البريطانية إلى بلاده يجرّ أذيال الخيبة والمهانة.

لقد حارب الأردن أيامها معركتين في مقاومته الحلف: معركة ثبات الهدف على تحرير فلسطين كمهمة مقدّسة لا تقبل الانحراف إلى أي مهمة يريدها الأجنبي، ومعركة إضعاف قوة الحلف في بغداد ورفع المعنويات العربية.

ثم أقدم الأردن على اقتلاع النفوذ البريطاني المادي والمعنوي من جذوره، متحملاً بذلك مغامرة فريدة ولوحده في ظل ظروف حدّة الصراع العربي الإسرائيلي ومواجهة الاستعمار المجنون، وبدون معطيات غير الإيمان بنفسه وبقضية الأمة العربية.

شجاعة الأردن ملكاً وشعباً وجيشاً قدّرت له النجاح فيما كان يبدو مستحيلاً، لأن الأردنيين لم يحسبوا للمخاطرة حساباً وحداهم الأمل بأمتهم أن تحمل قسطها من الأعباء والأثقال المترتبة على نتائج تصدّيه لواجباته القومية.

ولكن هل كان الأردن يعلم غير البديهيات عن الدول العربية وظروفها؟

مثلما كان ركوب المخاطر بديهية أردنية كذلك كان الأردنيون يتصوّرون أن العون العربي بديهية لا تتحمل الشك، ولذلك فإنه أقدم على إنهاء المعاهدة البريطانية واستغنى عن المعونة المقرّرة في المعاهدة اعتماداً على البديل العربي المعلن من مصر وسوريا والسعودية.

بعد العدوان الثلاثي تضاعفت الحاجات الدفاعية للأردن، ولكنه لم يثقل على تلك الدول بطلب أكثر من حاجاته قبل العدوان. ليس هذا فحسب ولكن

الأردن وجـد نفسه غير قادر على دفع حتى رواتب الجيش في آخر شهر نيسان ١٩٥٧ ، مع العلم أن المعاهـدة انتهت في منتصف آذار.

لم يكن في خزينـة الدولـة أو خـزينة الجيش إلاّ ما اقتصـدناه من نفقات تساوي ربع مليون دينـار، وأسـاور وخـواتم الأردنيات التي لم تُجـر الحكومة بيعها حتى ذلك الحين بسبب انشغالها، ومجموعها بالكاد يكفي لإعاشـة الجنـد ورواتبهم المخفّضـة لشهر آذار.

هكـذا وقف الأردن عـارياً ينتظـر الكسـوة العـربية، وفي الـوقت نفسه يسوقه اندفاعه للحصول على أسلحة من الاتحـاد السوفييتي لكي يمنّع قوته.

بدأت الحكومة اتصالاتها مع مصـر وسوريا والسعودية تطلب منها تحويل حصصها من المعونة، بينما ذهبت إلى دمشق لمفاوضة السوفييت بمباركـة الملك لعقد صفقة أسلحة.

مـاذا كنت أريـد من السوفييت؟

أردت أسلحـة خفيفة من بنـادق ورشـاشات لتسليح نصف مليون أردني وعـدداً من المدافـع الميدانيـة لتشكيل لواءَي مـدفعيـة من ست كتائب وكميات عظيمـة من الـذخائر، على أن يتولى ضبـاط مصريـون وسـوريون تدريب ضباطنـا على المدفعيـة الروسية لشهر واحد.

اجتمعت بالسفير السوفييتي والملحق العسكـري بحضـور اللـواء نظام الـدين ومـدير عمليات الجيش السوري ومـدير استخباراته، وأجـريت معـه مفاوضات واضحـة ودقيقة، فهمت في ما بعد أن السفير أطـرى للـواء نظام الـدين صـراحتي وبُعـد نظـري.

قلت للسفير: نحن حصلنا عـلى حـريتنا من بـريطانيا ولا نـرضى لها قيـداً ما من أي جهـة في الـدنيا. هـدفنا واضح في وطنيته وقوميته لمواجهة الصهيونية والاستعمار.

الاتحـاد السـوفييتي له مصلحــة في قوة العـرب وللعـرب مصلحـة في صـداقة الاتحـاد السوفييتي، إذ إننا نساعدكم على إبعـاد أعـدائكم عن حـدودكم وتسـاعدوننا في زيادة قـدراتنا الـدفاعيـة.

نحن نتقدّم إلى الاتحـاد السوفييتي من هـذا المنطلق، ونطلب تزويدنا بسـلاح وعتاد لا يكلفه كثيراً ولكنه يسـدّ حـاجة ملحّـة عندنا.

وأرغب أن أضيف إلى علمكم بأننا دولة ذات موارد محدودة ومسؤولية ضخمة ذات شقين: الدفاع عن حدود طويلة جداً في مواجهة عدو تسنده أمريكا بدون حدود، وكذلك حاجتنا إلى متطلبات التنمية الاقتصادية بما يكفل معدل نموّ يخفف من ضعف مواردنا.

في ما يتعلّق بالدفاع فإن هذه القائمة التي في يدي تسدّ حاجتنا، أما قضايا التنمية فسوف تحاول الحكومة الحصول على متطلباتها من دول العالم.

نحن نتقاضى مساعدة أمريكية مما يسمّى النقطة الرابعة ولسنا على استعداد للاستغناء عنها إلا إذا قطعتها أمريكا، وتطلعنا لعلاقاتنا موقوفة على كل تعاون لا يمسّ حرية إرادتنا وسيادة دولتنا.

قال السفير: الملحق العسكري سيدرس معي طلباتكم وقد فهمت بما لا يمكن تفسيره بغير ما قصدت، والاتحاد السوفييتي يرغب في صداقة الدول العربية، وخصوصاً المناضلة في سبيل حريتها. نحن نجهل الكثير عن الأردن ولكن الملخص الذي طرحته سيفيدنا كثيراً.

إن تزويدكم بالسلاح من حيث المبدأ وقبل دراسة القائمة التي زودتنا بها قابل للبحث والاتفاق، إلّا أن أحاديثنا هذه مع اهتمامي بها خارجة عن أعراف التعاون الدولية إذ إن دولتينا لا صلة اعتراف متبادل بينهما.

ولكي يكون التعاون مجدياً فإن الاعتراف المتبادل ضروري ولست أدري إن كنت مفوضاً لبحث هذا الموضوع؟

قلت للسفير: أنا لست مسؤولاً سياسياً ولكني أعرف أن جلالة الملك حسين كان راغباً في تبادل التمثيل الدبلوماسي مع الاتحاد السوفييتي في نهاية سنة ١٩٥٥، ولكن فاجأتنا أحداث حلف بغداد ثم العدوان الثلاثي. وأودّ أن تعلم أن جلالته والحكومة على علم بأحاديثي معك وأعتقد أن حكومتنا جاهزة لبحث التبادل الدبلوماسي فوراً، ولذلك أقترح أن نجتمع غداً في الساعة نفسها في قيادة الجيش السوري وسيكون معي أحد الوزراء الأردنيين لينطق رسمياً باسم حكومتي. وافق السفير على الموعد وكذلك اللواء نظام الدين وافترقنا.

كلّمت الملك ورئيس الوزراء هاتفياً وطلبت منه أن يوفد السيد شفيق أرشيدات وزير العدل ومن أقطاب الحزب الوطني الاشتراكي. لقد كان الطبيعي أن أطلب السيد عبد الله الريماوي وزير الدولة للشؤون الخارجية، إذ إن هذه المباحثات

تدخـل في صميم اختصاصـه، ولكني فضّلت شفيق استبعاداً لمظنات المتخرصين من داخـل الحكـومة وخارجها.

لقد كان في الحكومة السورية وزراء بعثيون ولا يعـدم دعـاة السـوء وسيلـة للطعن في شـرف المقصـد بتحويلـه من الهدف الوطني، الذي تمّ اجماع الدولة عليـه، إلى اتهامات أو دعايات على حـزب البعث أو له في حين أن مسعانا بعيد عن كل هـذا.

وصل السيد شفيق أرشيدات في اليوم التالي وعقدنا الاجتماع مع السفير السوفييتي وصحبـه في مكتب اللـواء نظام الدين مسـاء، واتفقنا على موعـد لإعلان الاعتراف وتبادل التمثيل الدبلوماسي من موسكو وعمان في اليوم التالي،ونفّذ الإعـلان فعـلاً بعد عـودتنا إلى عمـان مباشرة.

سألت رئيس الوزراء عن نتيجة اتصالاته مع الـدول العـربية الثلاث أطـراف اتفاقيـة التضامن العـربي، ولكنه أجـاب أن تلك الـدول تدرس الموضوع. ولمّا مضى ما يقارب الأسبوع، دون خبر من تلك الـدول، قـرّرت الحكومة باجتماع لها أن يتولّى رئيس الوزراء الاتصـال مع مصـر ووزيـرا الدولة للشؤون الخـارجية ووزير العـدل الاتصال مع سوريًا، على أساس الاعتقاد أن السعودية لا تشكل حصتها من المعونة أي إشكال مالي أو روتيني.

في هـذه الأثناء حـدث ما لم يكن في الحسبان، إذ إن مصـر لم تتجاوب مع رئيس وزرائنا بما يبعث على الاطمئنان، بينما سوريا تتذرّع بأن الموازنـة السورية السنوية تتقـرّر في حـزيران وأن الحكومـة السوريـة، وبعـد إقـرار موازنتها في البرلمان، ستضع مشـروع ملحق موازنة بقيمة حصتها من المعونة والـذي تنتظـر استكمال إجـراءاتها في شهر أيلول.

ثم جـاءتنا المفاجأة الثانيـة وهـي طلب حكـومة الـولايات المتحـدة الأمريكيـة من الحكومـة الأردنيـة لتوجيه دعوة إلى الـوزير الأمريكـي، الـذي غـادر أمريكا جـواً إلى الشـرق الأوسـط لزيـارة الأردن وبحث مشروع أيزنهاور.

هـذا كان في حين تكشّفت لنا محـاولات المخابـرات الأمـريكية لكسب ملحقنا العسكري في بيروت ودمشق الـزعيم محمد المعايطـه وإقناعـه بمزايا مشروع أيزنهاور. وقد أبلغنـي الملحق بتلك المحاولات والطـروحات الأمريكيـة للمنطقة العـربية، والتي كانت أمريكا عـزمت عليها كوسيلة للحلول في المنطقة بـدلاً من بريطانيا وبالتوازي مع حـلف بغداد.

ولتكتمل الصورة زار الأردن أحمد الشقيري من القاهرة لينصحنا بأن المعونة العربية لن تتحقّق وأن الأولى بالأردن أن يتدبّر أمره.

رفضت الحكومة دعوة الوزير الأمريكي لسببين:

أولهما: الأسلوب الإملائي الذي سلكته أمريكا بأن تطلب إلى الأردن فجأة، وخلافاً لكل عرف دبلوماسي، أن توجه الدعوة للوزير الأمريكي بعد أن طار في الجو في طريقه إلى المنطقة دون سابق تمهيد. هذه كانت حجة الرفض.

وثانيهما: معرفة الحكومة بهدف زيارة هذا المبعوث والتي تتركز على إقناع الأردن بمشروع أيزنهاور.

أمّا السيد أحمد الشقيري فقد ناله من حكومتنا مالا يستحقُّه من التجريح والاتهام، إذ لم يكن ممكناً التأثير على قناعتها سلبياً على صحة وحتمية وصول المعونة العربية.

وكما سبق وقلت فإننا في الأردن سرنا على طريق المجازفة لتعزيز القوة التحررية العربية من المعاهدات والأحلاف بإيمان مطلق بالدول الثلاث العربية، لا يوازيه إلّا إيماننا بحقنا في الحرية وواجبنا في التحرير للأرض المغتصبة.

طلب السيد الشقيري مقابلتي وحدثني طويلاً عن التجريح الذي لقيه من الحكومة في حين يقدّم نصيحة خالصة لها لتتدبّر أمرها، وأنه واثق من علمه بأن الدول الثلاث لن تدفع فلساً من التزاماتها. وقال ستدرك الحكومة الأردنية الحقيقة بعد فوات الأوان وعندئذ ستتأكد من أني معنيّ بمصلحة الأردن وأني لست عميلاً أمريكياً كما وصفوني.

قلت للسيد الشقيري إنني آسف للمواجهة العاصفة التي واجهته بها الحكومة، ولكني لفت نظره أنه أتى لينصح في ظروف يرى الأردن فيها عدم الوفاء العربي بالالتزامات هو ضياع الأمل في كل ما ناضل من أجله. وسألته إذا كانت مهمته في عمان نابعة من تكليف من عبد الناصر.

السيد الشقيري لم يكن مستعداً أن يفصح عن هذه الناحية، ولكنّنا كنا أمام افتراض يمسّ دولتنا دون ما يثبته بالوجه القطعي.

تحركت لزيارة رئيس الوزراء الذي ما إن ذكرت اسم الشقيري حتى انهال بالسباب والاتهامات مما اضطرني إلى ردعه عن هذا الأسلوب بشدة، ونصحته أن يتّصل بالرئيس عبد الناصر ويطالبه بتحويل حصة مصر فوراً، وكذلك أن يطلب

من رئيس وزراء سوريا الطلب نفسه، وتوضيح خطورة الموقف. قلت له إن عبد الناصر ورئيس وزراء سوريا لا يجوز لهما التسويف والمماطلة لأن في ذلك أسباباً تؤدي إلى تبديد وحدة النظرة الأردنية كدولة ولا بدّ من إحراجهما حتى لو احتاج الأمر أن تقوم بزيارة خاطفة إلى القاهرة ودمشق.

الحكومة الأردنية بمعظم وزرائها ذوي الأهمية وكذلك النواب النشيطون في البرلمان لم يميّزوا بين أمرين: عظمة عبد الناصر واستبعاده عن أي استهانة بواجب قومي يمسّ حركة التحرير العربية من ناحية، والتباطؤ في توكيد نية مصر وسوريا لدفع التزامهما الفوري من ناحية ثانية.

وهناك عامل نفسي مؤثر على تصرفات الحكومة وهو أنها لم تتعوّد، شأنها شأن الحكومات السابقة، العناية بتوفير متطلبات الجيش، لأن المعونة كانت تصل من بريطانيا لحساب الجيش مباشرة.

ونعود إلى الجهل بأمور مصر وسوريا بما غيّب عن تفكير الحكومة الأردنية احتمال عجزهما عن الدفع، وهو أمر خطر لي وحملني على إرسال بعثة من خمسة ضباط برئاسة القائمقام جبران حوّا إلى مصر ويحمل مني التعليمات التالية:

١ ـ أن يطلب من مصر تقديم جزء من المعونة نقداً والجزء الباقي عينياً وفق قائمة الحاجات الضرورية: ذخائر بريطانية الصنع، أرز، سكر، زيوت طعام، بطانيات، أحذية جنود وما إلى ذلك مع تحديد الكميات.

٢ ـ أن يطلب من مصر كامل حصتها من العينيات ذاتها إذا استحال عليها الدفع نقداً.

وقدرت أن خمسة ملايين جنيه استرليني من السعودية ومليونين ونصف من سوريا ستكون كافية إلى أن تتمكّن مصر من الدفع نقداً.

عاد الوفد بخفّي حنين. ليس هذا فحسب ولكن مدير الاستخبارات العسكرية اختلى بأحد ضباطي ليلمّح له تلميحات عن ضرورة انقلاب في الأردن، يقوم به ضباط من حملة الرتب المتوسطة والصغيرة ويطلب أسماء مثل أولئك الضباط.

وهذا الضابط كان أحد أعضاء التنظيم السرّي قبل تحرير الجيش ويقود لواء مشاة، وتصوّر رئيس المخابرات العسكرية المصري أنه بتصرفه سوف يُغريه لمحاولة الانقلاب إلا أن ذلك الضابط نقل إليّ تفاصيل الحديث.

تأكّد لي أن عبد الناصر لا ينوي الالتزام باتفاقية التضامن العربي، وأن المماطلة

السورية منسجمة مع موقفه هـذا.ولم أستطع أن أقبل هـذا الانسحاب بحسن نيّة. لقـد حاولت أن أسهّل عليه التزامـه عندما عـرضت تزويدنا بما يمكن لمصر أن تورّده إلينا من محتويات مستودعات مصـر العسكرية ومصانعها ومنتوجاتها الـزراعية، تقديـراً لاحتمال النقص في قدرتها على الدفـع بالعملة الصعبـة بعد العـدوان. قـدّرت أن بريطانيا والغـرب كلّه يفرض على مصـر قيوداً اقتصادية لإرضاخها، ولكنّي لم أكن لأنسى استجابة عبد الناصر لبحث المعونة العـربية، والتي قال فيها بالحـرف الـواحد لي وللسادة شفيق أرشيدات وعبد الله الـريماوي وصـلاح طوقان: نحن في مصر نقطع عن أفواهنا لإعانـة الأردن، لأن ذلك واجب تمليه العـروبة وضـرورة لوحـدة الجهد العـربي لمقاومة إسرائيل والاستعمار. نحن نحمل للأردن ملكاً وشعباً عظيم التقدير لمواقفـه الشجاعة في أيام المحنـة ومصر والحمـد لله فيها الخير الكثير.

أخذت أقلب الأمـر على وجوهـه كافة وأحاول التماس أي عـذر لمصـر وسوريا فلم أجـد، إلاّ أنني تذكّـرت أمـراً لم يكن ذا أهميـة في تقديـري وهو استفسـار طـرحه عليّ اللـواء عبد الحكيم عامـر عن أحاديث سبق أن سردتها.

كان استفسـاره عن موضوع الـوحدة التي طرحها الفـريق السوري من سياسيين وعسكـريين على الملك حسين بواسطتي، والذي اعتذر جـلالته عن قبولـه احتراماً للـرئيس القوتلي.

وبكل الصـراحة أعلمت عبد الحكيم عن فحـوى الأحاديث تلك وشكرني على ذلك، وأضاف أن مصر تتمنّى أن تقوم وحـدة عـربية بين أي بلدين ولكني أحـسست بأن تعليقه لم يكن صميمياً. ولكن تلك كانت مقترحـات سوريا قبل تأميم قناة السويس وقبل العدوان الثلاثي التي قلبت موازين كثيرة في الاتجاهات السورية وغيرها من البلدان، حيث أصبح عبد الناصر وبحكم الأحـداث الزعيم العربي الـذي لا تعلق الأمة العـربية آمالها على غيره. ولكنني كأيّ أردني مسـؤول لم أكن أعتبر أن الأردن يجـري في حلبة سباق مع مصـر لـزعامة أو قوة سياسيـة.

ما زلت حتى يومي هـذا أتسـاءل كيف يمكن لـرجل مثـل عبد الناصر أن يتنكّـر لميثاق وقّعـه بنفسـه، ويزداد تساؤلي كيف يمكن له أن يتجاوز ذلك بالتحريض على انقلاب في الأردن؟ هل كان كـل ذلك لإعفاء نفسـه من الـوفاء بالتزامه؟

عبد الناصر الذي هـزّ أركان الاستعمـار الغـربي وأقضّ مضاجع دولة إسـرائيل مجتمعين يخـذل الأردن الـذي وقف كما لم تقف دولـة عـربية إلى جانبـه. هـذا أمـر لم يتعـرّض له أحـد بالسـؤال كما لم يتبرّع أحـد بالإجـابة عليه إلى أن أصبحت لاجئاً

سياسياً في مصر بعد شهر من عودة الوفد العسكري الأردني من مصر.

في القاهرة كان لا بدّ أن أبحث عن الجواب، فوجّهت السؤال إلى صديقي كمال رفعت الذي قال: كنّا حنديّكم معونات من فين؟ إحنا قلنا إن الحكومة الأردنية وقيادة الجيش ستتغيّر بعد حجب المعونة وتأتي حكومة تتعاون مع أمريكا ونتهم تلك الحكومة وقد صحّ تقديرنا. لأننا لم نكن قادرين على شتمكم أنتم.

قلت له: ولماذا لم تصارحونا بأنكم لا تنوون الوفاء؟ فأجاب: قلنا نتركها سايبه كده وننتظر ما يحصل.

كمال رفعت، رحمه الله، لم يجانب الصدق يوماً معي منذ أن عرفته، وكان أثناء لجوئي في القاهرة وزيراً للدولة لشؤون رئاسة الجمهورية.

الدكتور أسعد محاسن، والذي تواجد في القاهرة فترة، أعلمني أن بحثاً رسمياً دار في الحكومة السورية عندما أخذت الحكومة الأردنية تلحّ عليها بالوفاء. فأعاد المناقشة ،ونهايتها أن بعض الوزراء ووزير الخارجية صلاح البيطار منهم كانوا إلى جانب المماطلة والتسويف حتى يقوم في الأردن انقلاب. ولكن أي انقلاب؟ لم يكن هذا واضحاً ولم يناقشهم أحد.

في أثناء الرفض المصري والمماطلة السوريّة زار عمّان أحد أقطاب البعث العربي الاشتراكي السوري عبد الفتاح الزّلط ومعه المقدّم مصطفى حمدون وهو ضابط بعثي مشهور، واجتمعا مع السيد عبد الله الريماوي وأركان حزب البعث الأردني ليبلّغوهم رجاء وتحذيراً من السيد أكرم الحوراني ألّا يحاولوا من قريب أو بعيد التحريض على أي عمل انقلابي على النظام.

بلغني هذا الخبر من أحد أصدقائي البعثيين وأكده لي عبد الله الريماوي وأكرم الحوراني ومصطفى حمدون في دمشق عندما خرجت من عمّان.

بعد هذا حدّثني الملك عن الموقف الشائك الذي وجدنا فيه أنفسنا، وتحدّثنا عن العرض الأمريكي الذي أخذ يلحّ علينا ممثلو أمريكا بقبوله، وعن موقف الحكومة الأردنية الذي أصبح جلالته غير قادر على تحمّله.

طرحت على جلالته رأياً ملخّصه:

١ ـ أن الحكومة لا يمكن أن تقتنع بامتناع مصر وسوريا عن الوفاء بالالتزام.

٢ ـ أن الشعب الأردني على اطّلاع بما تطرحه أمريكا من مساعدات مرتبطة بمشروع أيزنهاور ويقف ضدّها.

٣ ـ أن الحكمة تقتضي الانتظار حتى آخر يوم من نيسان وهو يوم الإفلاس الكامل للجيش الأردني، فإذا عادت المعونة العربية إلى الحياة بجهد من الحكومة كان به وإلّا فإنها تستقيل أو تفرض عليها الاستقالة، وأنا شخصياً أحمل استقالتي في جيبي وقد سبق وأن قدّمتها ورُفضت.

في يوم ١٩٥٧/٤/٧ زارني سفير أمريكا المستر مالوري يصحبه الملحق العسكري الكولونيل سويني. رفع السفير يده ملوحاً بأوراق قائلاً: هذا مشروع أيزنهاور وقد قدمته للحكومة وهي عاجزة عن قبوله فهل اطلعت عليه؟

أجبته بأني لم أقرأه ولكني أعرف تفاصيل مضمونه.

قال السفير: أنتم تحاولون عبثاً الحصول على معونة عربية، وأنا أعلم أنك شخصياً ثاني أقوى رجل في الأردن، ونحن الأمريكان نفضّل التعامل مع العسكريين في العالم الثالث لسهولة التفاهم معهم. أنا أعرض عليك المشروع كما هو في هذه الوثيقة، فإذا قبلته وأعلنت عن قبولك فإن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ستضمن لك حاجات الجيش المالية والسلاح اللازم للدفاع فضلاً عن مساعدات مالية وفنية لتنمية اقتصاد الأردن.

فضلاً عن ذلك فإننا نقبل بالنظام الذي تختاره للأردن ملكياً أو جمهورياً، وسوف نساندك بكل الوسائل الممكنة.

أحسست بأن رأسي يكاد يتفجّر من الغضب على وقاحة السفير واجترائه. فأنا الرجل الذي كره السيطرة الأجنبية على وطني منذ كنت في سن الرابعة والعشرين، يأتي هذا الأجنبي الوقح ليشتريني كي أكون أداة في يد دولته!!

نهضت من مقعدي وأنا لا أرى فيه أكثر من صعلوك مهما تعاظمت دولته، وأمرته بالخروج من مكتبي، وبالتوّ صعدت إلى جلالة الملك في ديوانه وأطلعته على حديث السفير.

كان جلالة الملك وكأنما لبسته الحيرة والكآبة لا يعرف أي طريق يتّجه. فقال لي: هل يمكن أن أرجوك إقناع الحكومة بالاستقالة؟ فوعدته أن أحاول وأنني حاضر لتقديم استقالتي أيضاً.

رئيس الوزراء أجابني أن عبد الناصر أرسل إليه رسالة شفوية قصيرة فحواها:

ماتكونش هـرّاب. وفهم رئيس الـوزراء منها أن المعونة عـلى الطـريق وأن عليه أن يصمـد في منصبه، ولذلك فإنه لن يستقيل ولن يذعن للإقالة إلا بالـرجوع إلى مجلس الأمة. كان يرافقني في زيارتي لرئيس الوزراء اللـواء محمـد المعايطـة فأحـبّ الـرئيس أن يعتبر بأننا جئنا لتهديده.

قلت لـه: ياباشا لقد اشتعـل رأسـك شيباً وأنت رجـل سياسي من طـراز خـاص، فهل تعتقد أن قائد الجيش ومـدير الأمـن يحتاجان إلى تهديدك؟ نحن جئنا لنقول لك إننا جميعاً فشلنا في إقناع مصـر وسوريا فإما أن ننام على الفشـل ونخـدع شعبنا أو نستقيل جميعاً ونصـارح الشعب بالحقائق.

عـاد سليمان باشا يكـرّر رسـالة الـرئيس عبد الناصر، فشرحت له أن الـرسالة الـوحيدة التي يمكن قبولها من عبد الناصر أن يحـوّل حصة مصـر فوراً. أما رسالته تلك فـدعوة إلى التخبط فيمـا لا طائل وراءه إلا الانقسـام والفوضى. ولكن سليمان لم يكن مستعـداً لقبـول فكـرة التخلّي عن كـرسي الـرئاسة وكأنه كان ينتظـر معجزة من السمـاء.

في اليوم نفسه جاءني مسـاعد مـدير الاستخبارات العسكرية غازي عـربيات يحمـل أنباء عن الأمـس من بغداد، مفـادها أن نوري السعيـد ألقى خطاباً في البرلمان العـراقي أذيع على الهواء يقول فيه: «إذا اهتزّ النظام في الأردن قيد شعـرة فإن القـوات المحتشدة في المسيب والـرمادي (قـرب الحـدود الأردنيـة) ستدخل الأردن للحفاظ عـلى النظام الملكي».

ويحمـل غازي أنباء اليوم عن ردّ بن جـوريون عـلى نـوري السعيد في الكنيست مذاعـاً عـلى الهواء، ومفـاده أن إسـرائيل لا تقبـل دخـول القوات العـراقية، إلى شـرق الأردن وتعتبر دخولها تهديداً لأمـن إسـرائيل. وفي هـذه الحـالة فإنها تحتفظ بحقّها في احتلال الضفة الغربية كإجـراء وقائي.

قـرأت هذا وذاك مـرّة إثر مـرّة، وتأكّد لي أن المسألة خـرجت عن إطـارها إلى مؤامـرة عظمـى تتطلّب الحكمة والصبر ومحـاولة الخـروج بالأردن سالماً من كارثة كبرى. ورأيت أن لا بدّ من استقالـة الحكومة وأن أقترح عـلى جـلالة الملك تكليف عبد الحليم النمر بتشكيل حكـومة تعمل عـلى وحـدة القـرار السياسي بما تمليـه الظـروف.

يوم ١١/٣/١٩٥٧ زارني سفير المملكة السعودية ليوصل إليّ رسـالة من جـلالة الملك سعـود، والـذي كان في زيارة لواشنطن، مفادها أن السعودية والـولايات

المتحدة مستعدتان لمساعدة الأردن في توفير ميزانية الجيش والحرس الوطني شريطة أن أسجن كل الشيوعيين.

رجوت السفير السعودي أن يُبلغ جلالته بأني كنت سأقبل مساعدة السعودية لوحدها دون أمريكا، أمّا موضوع الشيوعيين فهو أمر يعود للسلطات الأردنية وليس لأحد أن يتدخل فيه. وكذلك رجوته أن ينقل أية رسائل في المستقبل إلى الملك حسين أو الحكومة الأردنية.

ولست أدري ماذا كانت تتصوّر أمريكا والملك سعود من أمر الشيوعيين الأردنيين، والذين لم يكونوا قوة سياسية ذات شأن كبير، إلاّ إذا اعتبروا كل الأحزاب الأردنية شيوعية لإجماعها على رفض مشروع أيزنهاور.

قال السفير السعودي: أنت تعرف تقدير جلالة الملك سعود لك، وتعرف أيضاً أن الضائقة التي تحيط بك كقائد للجيش وليس في خزينتك شيء.

أجبته أنه يرى جزءاً صغيراً من الكارثة التي أتصوّرها، وأنا أعرف أن موضوع قيادتي للجيش أصبحت غير مجدية مع المعطيات الجديدة، ولكني لن أقبل أن أكون في تكوين يضطر لقبول مساعدات أمريكية مشروطة.

وكان هذا آخر لقاء لي مع سفير السعودية، فقد أصبح واضحاً للعيان أن المملكة السعودية اختارت الانفصال عن مصر وسوريا وترغب في العمل لالتصاق الأردن في علاقة عربية أمريكية جديدة.

منذ الأسبوع الأول من نيسان كانت أخبار استقالة أو إقالة الحكومة على كل لسان في الأردن، وأخذ خصوم الحكومة ينشطون ويستعدون لتشكيل حكومة جديدة وعلى رأسهم سمير الرفاعي الذي لم يهدأ كعادته عندما يكون خارج الحكم.

رجال السياسة كانوا بين سعيد وفرح باقتراب نهاية حكومة النابلسي، وبين حزين على إجراء التغيير لاعتقادهم بأن تغييراً في الخط السياسي قادم على الطريق.

عندما خسرنا الرهان على مصر وسوريا والسعودية كدول عربية متضامنة معنا على أهداف واحدة، أصبح الأردن ملزماً بالاتجاه الذي يتكفّل بالمساعدات المالية الأمريكية المعروضة لوحدها دون جهة أخرى عربية، إلاّ إذا كان

المسؤولون في الأردن قد فقدوا العقل والبصيرة وقبلوا بانهيار الدولة لتصبح نهباً لكل ناهب.

وكنت أرى أن الرجل الوحيد الذي يمكنه كسب ثقة الملك من الحكومة القائمة هو عبد الحليم النمر، والذي إذا ساندته الأحزاب مع فهم دقيق للأوضاع السائدة يكون مناسباً لحفظ التوازن بين إنجازات الوطن وطموحات الأمريكيين.

ورافق هذا أو سبقه بقليل حديث أجراه معي سمير الرفاعي يقترح أن تتشكّل حكومة عسكرية مؤقتة تواجه الشعب بالقوة وإعادة النظام، ثم ليتولّى هو شخصياً تشكيل الحكومة المدنية وكان يريدني أن أكون رئيس الحكومة العسكرية. اقتراح الرفاعي هو اقتراح السفير الأمريكي معدلاً وملطّفاً فرفضته.

لم أكن أريد حكومة عسكرية أرأسها حتى لا أقحم الجيش في صراع هو في طرفه والشعب في الطرف الآخر، وكنت أفضّل حكومة مدنية وطنية وهادئة تتعاون مع الملك للخروج من الأزمة بأقل الخسائر.

ففي حين أعرف أن عبد الحليم النمر لن يكون أداة بيد أمريكا وإن سايرها لأهداف أردنية بحتة، كنت أعلم أن سمير الرفاعي لن يتوقف عند حدٍّ في سبيل السلطة ولو ذهب إلى مدى إعادة الأردن إلى حلقة الاستعمار الكامل.

ولكن سوء الحظ لازم الأردن في أزمته، فبعد أن قبِلَ جلالة الملك اقتراحي بتكليف عبد الحليم النمر وكلّفه، أثار رئيس الوزراء زملاءه من الحزب الوطني الاشتراكي ووزير البعث ليقفوا سداً في طريق عبد الحليم وأفشلوه في مهمته. ولما لم يكن عبد الحليم من المتشبّثين بالحكم فقد قبلَ خذلان زملائه له وانسحب من الساحة.

لم تكن الحكومة على جهل بشيء ممّا يجري، وتعلم علم اليقين أنه لم يعد أمامها إلّا واحدة من ثلاث طرق لتختار منها:

١ ـ مفاوضة أمريكا معتمدة على رصيد شعبي كبير وتحصل على معونة مع الحفاظ على سيادة الدولة.

٢ ـ أن تقبل بحكومة وطنية يرأسها أحد وزرائها أو رجل مثل سعيد المفتي.

٣ ـ حكومة يرأسها داعية أمريكا سمير الرفاعي أو الحكم العسكري.

وأنا لم أكن مستعداً لتشكيل حكومة عسكرية لسببين:

١ ـ لأن الجيش غير قادر على توفير ضباط صالحين للوزارات دون أن تتأثّر كفاءته.

٢ ـ لأني شخصياً لا أصلح للتعاون مع أي أجنبي يبقي المساومات على سياسة الأردن، فضلاً عن كراهيتي الشديدة للعودة إلى المعونات الأجنبية حتى عندما تكون قدراً لا مفرّ منه.

نعود لتهديدات نوري السعيد التي لم أكن لأتركها دون اهتمام، إذ أرسلت دوريات صحراوية ومعها بعض ضباط الاستخبارات ودخلت الحدود العراقية، وعادت لتؤكد تواجد قوات تقدّر بفرقة مشاة قرب الحدود الأردنية.

ووصلتنا تقارير دقيقة من القطعات الأمامية في القطاع الشمالي من الضفة الغربية، مفادها أن تعزيزات كبيرة تتحشّد في المنطقة مقابل خط جنين ـ قلقيلية بما يؤكد تهديدات بن جوريون التي أطلقها في الكنيست.

كنت أعلم أن الملك حسين أصبح يائساً من المعونة العربية، وأنه قرّر قبول مفاوضة أمريكا وإن لم يعلن ذلك. وبهذا أمسك بالخيط الوحيد الممدود إليه.

لم أكن أرى للملك سبيلاً آخر، ولكني أردت له حكومة تعلن الحقائق على الشعب إلّا أن جلالته كان يواجه معضلتين تحولان دون ذلك. تعنّت رئيس الوزراء وبعض أعضاء حكومته الذي لا يستند إلى معطيات عربية، واستعجال أمريكا التي تصرفت وكأنها في حالة حرب وتسابق مع المجهول الذي أسموه الشيوعية ولكنه في الحقيقة كان غزواً للأردن الذي تقاطعت به الأسباب. ولم يكن يملك إلّا القبول بأمريكا وكان قبولاً مُكلفاً، إلّا أنه أبعد عن الأردن مخاطر الفوضى والانهيار ومخاطر اقتسامه بين العراق وإسرائيل.

في هذه الأزمة الخانقة تراجعت حماسة القاهرة ودمشق والرياض وانقسم المعسكر التحرّري، بحيث أصبح من المحتوم أن تبقى دمشق والقاهرة ملتصقتين بينما تسير الأمور إلى ما يقارب بين عمان والرياض.

الهجمة الأمريكية كانت دون أخلاقيات، فهي من ناحية تثير الشكوك بقائد الجيش عن طريق الذين تطوعوا وبسرعة للتسلّق على أمريكا، ومن الناحية الأخرى يعرض السفير عليّ اختيار النظام الذي أرتئيه للأردن.

وقادة الجيش لم يكونوا يجهلون الأمور جهلاً تاماً، كما وأنهم لم يعلموا بها علماً تاماً، ولكنهم لم يستقبلوا أخبار العرض الأمريكي بالرضا، واعتقدوا أن المعونة العربية وإن تأخّرت فلا بدّ وأن تصلنا في نهاية الأمر.

واتصالات سليمان النابلسي بأحد القادة وهو اللواء علي الحياري ساعدت وبدون علمي على تصوير الأوضاع بيننا وبين مصر وسوريا على غير حقيقتها، حتى أن جاءني علي الحياري ومعه بعض القادة ليطلبوا مني توجيه إنذار إلى الملك بضرورة إعادة سليمان النابلسي إلى الحكم بعد أن قدّم استقالته بطلب من الملك.

صرفت قادة التشكيلات واستبقيت علي الحياري، واستدعيت محمد المعايطه وشرحت لهما أن توجيه إنذار أمر لا أقبله، ولكني اقترحت أن ندعو سعيد باشا المفتي لنرجوه أن يكلم جلالة الملك بالتأني للخروج من الأزمة. استحسن المعايطة الرأي وقبل به علي الحياري.

الغريب في الأمر أن اللواء علي الحياري لم يكن يوماً غير منضبط أو ذا رأي سياسي، كما لم يكن تكوينه النفسي يدفعه إلى المغامرة بشيء إلّا في هذه المرّة.

وما إن وصل سعيد باشا المفتي حتى انفلت الحياري مرة ثانية ويُصرّ على الإنذار وكأنما الأمر تسجيل موقف مجرد من أي مسؤولية وطنية، ولكن تحت شعار الوطنية الذي أسقطته سوريا ومصر بخذلانها لنا. أنا واللواء المعايطه رجونا سعيد باشا أن لا يذكر أي كلمة مما قاله الحياري وأن يعمل بحكمته، وذكرت أنني سأتبعه إلى القصر لمقابلة جلالته أيضاً.

عندما قابلت جلالة الملك كان سعيد باشا قد أبلغه عن الإنذار، ولست أدري عن الحرفية التي نقل بها سعيد باشا ما دار في منزلي معه من حديث. ولكني وجدت جلالته منزعجاً وعصبياً، ومع ذلك عدت لشرح الأوضاع في الجيش والشعب، وأن أكثر ما نحتاجه هو التأنّي والحكمة لكي يصبح معلوماً عند الجميع أن الأردن يمرّ في مرحلة حرجة من صنع الأشقاء قبل الإقدام على التغيير.

سمعت في ما بعد وأنا في القاهرة من بعض ضباطي عن أحاديث دارت بين الحياري وبعض القادة، ولكني وحتى هذه اللحظة لم افترض قدرته على الإقدام على ما رُوي لي لأنه لم يكن وأولئك القادة لم يكونوا مؤهلين لتلك الروايات ومقاصدها. فالتشدق بالكلمات في ساعات الحماس لا يحمل وزناً يساوي إنجازها.

ولكي تكون الصورة واضحة فإنه لم يكن في الجيش العربي ضابط غيري مؤهّل للقيام بانقلاب على النظام وأنا لم أكن أجد سبباً واحداً للانقلاب، وعلى العكس فإن الذين أرادوا مواجهة النظام كانوا يستحقون الإزالة من الحكم.

فالانقلاب على النظام آنذاك إمّا أن يستند إلى دعم أمريكي يقع الانقلابيون

بنتيجته أسرى لإرادة أمريكا، أو يستند إلى العراق ويوقع الأردن من جديد في أسر المعاهدة البريطانية وحلف بغداد. وفي كلتا الحالتين فهو عمل غير وطني.

أمّا إذا لم يكن هذا ولا ذاك فهو ليس جنوناً فحسب ولكنه استهتار بحق الوطن يرقى إلى درجة الخيانة، إذ يدفع العراق للتدخل بما يعطي الذريعة لإسرائيل لتحتل الضفة الغربية.

الوضعية في الأردن كانت من الدقة والحرج إلى درجة تدعو إلى الأسى العميق والإشفاق، ولم يكن فيها مجال لمطامح شخصية نظيفة. وكانت معالجتها وبكل الضمير المتنزّه عن أي غاية من ضروب المستحيل، إلاّ بإفساح المجال للملك وحكومة لا انتهاز فيها للتعامل مع أمريكا على أساس التشبث الشديد بالحفاظ على أكبر قسط من السيادة الوطنية.

أثناء أبحاثي مع عبد الحليم النمر في فندق نادي عمان لتشكيل حكومته التي وافق عليها جلالة الملك من حيث المبدأ، وبينما نحن خارجان لنتجه إلى القصر فوجئت بأحمد سعيد صاحب صوت العرب في ردهة الفندق أمامي ومعه بعض المصريين. سألته، ماذا جاء بك يا أحمد في هذه الظروف؟

أذهلتني إجابته إذ قال: «أمال يا أفندم مين حيذيع بلاغات الثورة».

أبلغته: أنتم إذن هنا لتصبّوا البترول فوق النار. أنصحك أن تعود وجماعتك إلى القاهرة فوراً وأبلغ من أوفدك أن ليس في الأردن ثورة.

كان المشكّكون يتكاثر عددهم يوماً بعد يوم ولم يكونوا بحاجة إلى تواجد أحمد سعيد ورهطه ليعظّمواالخلاف بين الملك وحكومته أو يزرعوا بذور الريبة بين جلالته وبيني، خصوصاً بعد أن استقالت الحكومة لأنها لم تجدني مستعداً للاقتناع برسالة الرئيس عبد الناصر إلى رئيس وزرائنا.

الحكومة تصوّرت نيّة عبد الناصر كما تتمنّاها هي دون تفحّص رسالته وإعطائها تفسيراً يعني خلاف كل أمانيها، وبهذا فإنها كانت ضحية عدم التبصّر. وبغير هذا التفسير فإننا نظلمها ظلماً فادحاً. إلاّ أن حكومة مسؤولة لا يجوز أن تسمح لنفسها بالانحراف إلى المجهول والابتعاد عن المعلوم لمجرّد رسالة شفوية تقول لرئيسها «ماتكونش هرّاب».

ألا يمكن أن يكون عبد الناصر قصد أن يقبل سليمان النابلسي المعونة الأمريكية ويستمرّ في الحكم؟

ألا يمكـن أنه قصـد تشجيع رئيس الـوزراء على الـذهاب في خـلافه مع الملك إلى أقصـى الحدود؟

وبالتالي ومع فشـل وفـدنا العسكري أن يصـل حتى إلى اتفاق تفي مصـر بموجبه بعينيات بدل النقـد، فليس من الطبيعي أن تحكمنا أمانينا ونغفـل الحقائق المؤكـدة. وكان الأولى بالحكومـة أن تتّفق على منهاج سياسـة مع الملك في ضـوء المعطيات القاسيـة أو تستقيل دون إثارة المشاعـر في الشعب.

كان الـواجب يقضي على تلك الحكـومة الشعبية أن تُصارح الجمهور الأردني على الأقـل بمواقف الـدول الثلاث والموقف الأمـريكي، وتستقيل إذا استحسنت أن تأتي حكومة أخـرى بعدها.

قيـادة الشعب أو زعـامة الشعب على حـد التعبير الـدارج في تلك الأيام كانت مفاخـرة من الحكومـة على ما سبقها من حكـومات، مع أنها تعلم أنها لم تأتِ إلى الحكم محمولة على أسنّة الرمـاح. لقـد جاءت مثلها مثل أي حكـومة أخـرى، وكان لها بعد مجيئها شعبية كبيرة، إلا أنها أخفقت في إعطـاء الشعب حقّـه في رؤية ما يجـري من أسباب الأزمة المستحكمة، ممّا حمل الأحـزاب والجماهير إلى أن تتصرف وبغير وعي، سواء أنصـار الحكـومة أو خصومها في لجّـة تضارب الأمنيات مع الـواقع.

هذه الحالـة وشعوري القـوي بمعالجتها بالصـراحة والحكمـة، واستثمار الـوقت الضيّق لتلافـي نواحي الخلل، سببت الضيق لأمريكا المستعجلة لكسب الساحة، وحملت الكثيرين من الـذين يستعجلون التغيير على اتهامي بأنني أحـاول كسب الـوقت لتنفيذ خطـة انقلاب.

لست أريد أن أذكـر التفاصيـل مع أنني أعيها كاملـة، سـواء ما تعلّق منها بالأشخاص أو الأعمـال والتي وضعتني في موضع المتّهم من البعض وموضع الحيرة من البعض الآخـر.

لست أريد أن أذكر الـذين جاءوني ليقولوا: هـلاّ دافعت عن نفسـك فقد أصبحت في خطـر. دفعت هـؤلاء قـائلاً، إني أرى الخطـر على شخصي أكثـر ممّا تـرونه، ولكني لن أحـرّك ساكناً في الاتجـاه الـذي تشيرون إليه، فما أراه من خطـر القوات في المُسيّب والـرمادي وخطـر القوات الإسـرائيلية قبالـة جنين وقلقيلية هو الخطـر الماحق. أنا أحـاول أن أخفّف الـزخم الأمـريكي وفي سبيل هـذا فـلا يهمني ما سيصيبني.

ما بين العاشر من نيسان والثالث عشر يشهد اللّه أني لم أنم أكثر من ثلاث ساعات كل ليلة ولم أتناول إلاّ وجبة الفطور، وقد آذى معدتي ما أصابني من شره التدخين وشرب القهوة لأعاني من آلام شديدة معظم الليل وطول ساعات النهار. أنتقل من هذا الوزير إلى ذلك وإلى القصر الملكي ومقابلات الضباط والانتباه إلى الحدود، وإعمال الذهن في الخروج من هذا المأزق بسلامة الوطن والدولة.

المستعجلون يريدونني أن أقف من الحكومة موقف العداء، والحكومة تريدني أن أؤيدها خلافاً لقناعتي من موقف دول التضامن العربي وأفقد ثقة الملك. والسفير الأمريكي الذي لم يجد في شخصي عسكرياً من عسكريي أمريكا الجنوبية أو الشرق الأقصى يتربص بي والحقد يملأه.

كنت قدّمت استقالتي قبل استفحال الأزمة بشهر وكنت مستعداً لتقديمها في أي لحظة، غير أنني وجدت من العيب أن أدير ظهري في الحالة الصعبة مع علمي واعتقادي بأنني لن أخرج منها سالماً.

كانت الإرادة الوطنية قد تبعثرت وتضاءل أثرها لسرعة التطورات في الأحداث، ولم يعد للوفاق الوطني مكان وتمكنت أسباب الخلاف من العقول والقلوب.

وزاد في الطين بلّة ما سُمّي بمناورة هاشم.

ففي إحدى برامج تدريب حركات الفرقة الأولى كان تمرين لإحصاء السيارات على الطرق وضبط انتقال القوات من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية. هذا التمرين يتطلب نشر سيارات مدرعة وسيارات جيب على مقاطع الطرق من خوّ حتى جسر اللنبي ودامية وإحصاء السيارات المدنيّة التي تسير على الطرق لمعرفة كثافتها. العسكريون يدركون معنى هذا التمرين وربما فهِمه بعض المدنيين.

صادف هذا التمرين وأزمة الحكومة قائمة، وصادف أن تواجدت سرية مدرعات في جبل عمان قرب قصر زهران وسرية أخرى على مدخل عمان من ناحية المطار.

التمرين لم يكن وليد يومه ولكنه من برنامج التدريب الفصلي. ولكن تواجد سريّة في جبل عمان لم يكن له سبب أو مبرّر، وكذلك تواجد السرية الثانية عند المطار لا يتناسق مع مبدأ الانتشار لمجرد إحصاء السيارات.

لقد أثار هذا التوزيع للمدرعات شكوك الملك فاستدعاني لمقابلته، وأبدى

انزعاجه الشديد وشاركته شعوره واستهجنت الحادث. ولما ذكر لي أن لديه معلومات تشير إلى نوايا انقلابية قلت لجلالته وبصدق أنني لا أعلم شيئاً عن تركيز السرايا أو التمرين كله لأنني لا أحفظ برامج تدريب الجيش عن ظهر قلب. وأكدت له أنني وفي قصره سأتصل بقائد الفرقة وأستفسر، وإذا تأكّد لي الشك فإنني سأعرف من علي الحياري وسأقتل بمسدسي أي ضابط تحمله نواياه إلى ما لمّح إليه جلالته.

اتصلت باللواء علي الحياري الذي فسّر لي التمرين فأمرته بأن يلغيه ويعيد السرايا إلى معسكراتها ويحقّق في أسباب تركيز السريتين. وبالفعل ألغيت كل ترتيبات التمرين فوراً ولكنني لم أقتنع كلياً بتفسير الحياري، وفي مكالمة ثانية معه أسمعته ما لا يسرّه.

أوصلتني شكوكي بالتمرين ذلك أنه استُغلّ للضغط على الملك من علي الحياري وضابطين آخرين كمساعدة لرئيس الوزراء وبتحريض منه.

لست أقسم على صحة شكوكي ولكنها قريبة من القناعة وطبيعي أن يرتاب الملك في قائد الجيش. وقائد الجيش كان دائماً معرضاً لتلميحات وإشارات بعض السياسيين وفي حالة واحدة رئيس الوزراء نفسه، الذي كان يريد قائداً غيري سهل الانقياد له ممّا جعله يتقرب إلى الحياري ويثير طموحه في فترة سابقة لإنهاء المعاهدة بقليل.

هذا في حين أنني كنت أدفع عن رئيس الوزراء وألتمس من الملك التغاضي عن بعض هفواته حتى لا تؤثر تلك الهفوات على استمرار الحكومة لإنهاء المعاهدة، التي اعتبرناها آخر الخطوات في منهاج العمل الوطني الذي تبنّاه وقاد خطواته الملك حسين وكنت في هذا ساعده الأيمن.

لقد فات رئيس الوزراء أنني لم أصل إلى قيادة الجيش متخطّياً من هم أعلى رتبة مني بالصدفة، وكذلك فإنه لم يكن راضياً عن ترشيح عبد الحليم النمر أول مرة قبل تكليفه بحكم تنازل عبد الحليم له أثناء غيابي في دمشق ليوم واحد.

أنا لم أنكر وجود سليمان النابلسي رئيس الحزب الوطني الاشتراكي، ولكني فضّلت عليه عبد الحليم لسبب بسيط وهو إدراكي بأن مرحلة ما بعد تحرير الجيش تتطلب رئيساً للوزراء قادراً على التعاون مع الملك لإكمال الخطوات الوطنية دون إثارة إشكالات على الطريق.

النابلسي كان طرازاً خاصاً بين السياسيين الوطنيين يتميز بالخبرة والذكاء

واستجلاب الشعبية، ولكن يصعب على المتعامل معه أن يحكم على انفلاتاته أو تراجعاته بأي منطق عادي.

وكذلك فإني لم أرشّح شفيق أرشيدات وهو أشجع الوزراء وأقدرهم مع وضوح فكره ومسلكه السياسي لأنه كان شديد الصلابة عنيفاً. ومع العلم بأن أعمدة الحزب الوطني الاشتراكي ذات الأثر الشعبي كانوا شفيق في اللواء الشمالي وعبد الحليم في البلقاء وحكمت المصري في نابلس، وعليهم يقوم الحزب الذي كان يضم وجاهات عشائرية أكثر مما يضمّ مثقفين وعقائديين كقواعد شعبية له.

ولعل أحسن وصف سمعته لهذا الحزب من أحد المتعلّمين من أصدقاء الحزب قوله: هم وطنيون ولكنهم ليسوا حزباً وليسوا اشتراكيين.

في إحدى الولائم التي أقامها وزير من الحزب الوطني الاشتراكي الأثرياء جلس إلى جانبي أحد الوجهاء الذي ينتمي أولاده الثلاثة إلى حزب البعث وأطلق نكتة قال فيها:

عندما أخالط البعثيين يأسرون قلبي وعندما أخالط الوطني الاشتراكي يأسرون شهيتي. عبد الله العايد، رحمه الله، كان من وجوه بلدنا وسريع النكتة، كان هو القائل.

وفي تلك المرحلة كان للعشائرية والوجاهات شأن كبير، بالرغم من تواجد الأحزاب العقائدية القومية والدينية لأن التركيبة الاجتماعية الأردنية كانت تقضي بذلك.

الحزب الوطني الاشتراكي كان الوسط بين التقليديين من الرعيل الأول وبين العقائديين من الجيل اللاحق من ناحية السن والاتجاه السياسي، وأقربهم إلى العقائديين كان شفيق أرشيدات الذي تمتع بصفات قياديّة وحنكة سياسية متفوقة.

كان من الضروري أن أتحدّث عن هذا الحزب الذي يجهله عرب الأقطار الأخرى في حين يعلمون عن حزب البعث والقوميين العرب والإخوان المسلمين والشيوعيين، خصوصاً وأن حصته في وزراة النابلسي كانت هي الغالبة.

المنافسات الحزبية كانت على قدم وساق، خصوصاً بين البعثيين والشيوعيين، ولذا فإن الشيوعيين كانوا يغازلون الحزب الوطني الاشتراكي بما أوهم السيد النابلسي أنهم رهن إرادته، ولما كان شقيقه من أعضاء الإخوان المسلمين فقد

تصـوّر أنهم قريبون منه. بينما يختلف معه في التحليل السياسـي لموازين القوى كلّ من عبد الحليم النمر وشفيق أرشيدات وحكمت المصـري.

ومن هنـا فقـد أصبح للشيوعيين وزيـر باسم الجبهة الـوطنية، وهو عبد القادر الصالح الـذي كان صديقـاً لكل أعضـاء الـوزارة الـذين ينتمون إلى أحـزاب، ممّا جعل رئيس الـوزراء يعتقد بولاء الشيوعيين لـه في حين أن عبد القادر الصالح كان مستقلاً في رأيه حتى عن الشيوعيين، وله نظراته وفلسفته الخاصة السياسية والاجتماعيـة.

في فتـرة المفاوضات لإنهـاء المعاهـدة كانت تصادفنا أوقات فـراغ أستمع فيها لأحـاديث الوزراء الجانبيـة والتي كنت أجـد فيها متعة ذهنيـة، ولكنني لم أجـد فيها دائمـاً الجـديّة الـوطنية إلاّ عندما يتكلم شفيق أرشيدات وعبد الله الـريماوي وعبد الحليم النمر.

كان يعجبني عبد الله الـريماوي في ذكاء الطـرح للقضايا كما تعجبني شجاعـة شفيق أرشيدات وتريحني حكمـة عبد الحليم النمـر. لقـد كان هؤلاء الثلاثة هـم الـوزارة ولكنهم عجـزوا عن مصارحـة بعضهم بالممكن وبالمستحيل، كما عجزوا عن وضع سياسـة يرتبط بها رئيس الـوزراء لاعتبارات التنافس بين البعثيين والـوطني الاشتراكي ولاعتبارات الخجـل بين الـوزراء الاشتراكيين وبعضهم.

قـد يتسـاءل القارىء: هـل كان الـوزراء رجـال دولة أم أنهم مجـرد زعـامات وعقائديين؟

وللإجابة عـلى هـذا فلا بد من مقياس أو مقاييس. فإذا اعتبرنا الـوطنية أحـدها فإنهم حتماً وطنيون إلى درجة المثالية التي ابتعدت بهم كثيراً عن معالجة القضايا بما تفرضـه المرحلـة التي يـمرّ بهـا الأردن، بما فيها من قوى دولية متصارعة في المنطقة وفهم للحقائق العـربية دون زينة وزخـرف.

صاحـب القضية لا يـرى قدسية إلاّ فيها ولا يحـوّل تلك القضية لتتركـز على رجـل أي كان، حتى ولو كان عبد الناصر بكل ما حمله من مجـد وعظمة في مصـارعة الاستعمار. فقضية التحـرّر العـربي كلّ لا يتجـزّأ. فإذا نالت مصـر الأولوية العـربية في معركـة قناة السويس والعدوان الثلاثي فإن هـذا لا يعني نكـران تلك الأولـوية على الأردن عندما يواجـه الهجمة الأمـريكية.

قد يقـول قـائل: طالمـا وأنك يا علي أبو نوار ترى كل هذا فلمَ لم تحـسم الأمـر؟

وأجيب: بالـرغم من أنني اتُّهمت بحكم الضـرورات التي أمـلاها الأجنبي على وطني بما لم أقترفه نية أو عملاً، فإنني لم أبـرر لنفسي الخـروج على نفسي كـرجل آمن بأن الجيش إذا تعـدّى واجباته العسكرية بعد التحـرر من الأجنبي يخـرج عن طبيعته وسبب وجـوده. كما وأنني ومع تمـرّدي على السيطرة الأجنبية منذ سنة ١٩٤٨ لم أعتقد يومـاً بالتمـرّد على السلطـة المدنية أو الاعتـداء عليها حتى لا يدخل الـوطن في دوامـة الديكتاتوريات العسكريّة.

نعم كنت ذا نفوذ وأثـر على السياسـة دون اقتحـامها، وكنت ذا رأي مقبول عند رأس الدولة لأنني صـدقت القـول والقصـد حتى تاه الصـدق في دوامـة الخذلان العـربي والهجمة الأمـريكية، ففضّلت النجـاة بشرفي وتماسك أرض الـوطن.

كانت الضـرورة تقتضي أن تعلن الحكـومة عن سقوط اتفاقيـة التضامن العـربي عن طـريق وسائل الإعـلام الـرسمية والشعبية، وأن تبدي رأيها في الحـدود التي يتحملها الـوطن مع الـدخيل الأمريكي. فقد سبق وأن أصدرت بياناً عن عزمها على قبول المعونة العـربية بعد شهر من توليها الحكم، كما ضمنته عـزمها على إنهاء المعاهـدة بالمفاوضات، وكان من الطبيعي أن تعلن عن فقدان المعونة العربية.

الإعلان عن سقوط اتفاقية التعاون باستنكاف الدول الثلاث التي وقعتـه مع الأردن فيه الكثير من الإحبـاط وأسباب تردّي المعنويات الأردنية، وربما تشهير بالـدول الثلاث، ولكنه كان السبيل الوحيـد الـواقعي لإعطاء الشعب حقّه بالعلم بما يحيط به.

غياب الإعـلان كان بمثابة دفن الـرؤوس في الـرمال وترك الشعب يتصـرّف بتأثير قناعـات لا تستند إلى أساس.

إنه من المعـروف أن الأردنيين كانوا متعلّقين ولـو بقشّـة من أمـل في التضامن العربي، وكذلك فإن الحكومة ترى أن أي مساس بصدق دول التضامن نهاية آمالها.

ويظـل السـؤال قائمـاً، هـل يكفي الأردن للحفاظ على قشّة غـارقة تنجيه من الغـرق؟ وهـل يحفظ كـرامة الأردن واستقلاله تنكّـر العـرب لكـرامة وشـرف تعهّدهم؟

أم هـل يصـدق بالتالي أصحـاب الأبواق الكبيرة التي تصدح ليل نهار بالتحـرير عندما يقع الأردن في قبضة أعظـم حلفاء إسـرائيل؟

هـذا قـول جـارح للضمير سـوف لن يجـد الاستحسـان من الكثير من القـرّاء الـذين تعلّقوا بتاريخ تلك الفترة، فترة الفورة العـربيّة سـواء من قبيل الـرغبة عن تجريحها أو لأنهم يعيشون على مفاخـر المساهمة الشخصيّة في أحـداثها.

هـذا شيء إنساني لا أنكـره ولا أرى في أشخاصهم عيباً إن تعلقوا بذلك التاريخ تكريماً لمـا تحمّلوه من أذى ومعاناة. ويحق لهم الافتخار بنضالهم من أجـل المبادىء التي سادت وتمكّنت من فكـرهم ومسيرتهم.

وسـوف يظـلّ كل هـذا محكوماً بتحقيقه أنهم، وبكل إخلاصهم لـوحدة الأمة، كانوا وقـوداً لمعركـة عـربية تستّرت الإقليمية خلفها بما أوصـل أمتنا إلى ما هـي عليه الآن.

وأحـداث الأردن كانت بداية ثم تبعتها أحـداث بلدان المشـرق العـربي وبالأخص العـراق الـذي بلغت معاناته نهاياتها كما سيرد ذلك في حينه. والسبب في كل ذلك يعود إلى جهلنا في أقاليمنا وما يحكمها من أسباب غابت عنّا أو غيّبناها كي لا نُصـدم في آمالنا.

ماذا عن جـلالة الملك الحسين وعنّي وهـو رأس الـدولة وعلَمها وأنا قائـد جيشـه؟

العـرب خارج الأردن لا يعلمون أن عـلاقتي بجـلالته كانت مبنية على الصـداقة الحميمة إلى درجـة الأخـوّة. وتنامت هـذه الصـداقة يوماً بعـد يوم منذ لقائنا الأول حتى وصلت إلى ما وصفت. وجـدت في جـلالته سموّاً في الخلق وشجاعـة في القـرار وحماساً لأمته ووطنه مع طهارة في السريرة ونُبل في المقاصـد. وجـدت فيه تواضعاً نادراً يزيد في علـوّ شأنه نسباً ومسؤولية، تواضعاً لم أجـده في رجـل من سويته أو حتى ممن لا يبلغون سويته. جـلالته جُبل على الخجـل من العيب والارتفاع عن النقائص.يلتهب عاطفـة في سبيل العمل الجلل بروح الفـروسية العـربية، ويصمد أمام الصعـاب مهما تعالـت موجاتها بهدوء يتعذر على الشيوخ من قـادة العـرب.

لقـد أحببته واعتبرت محبته لي شـرفاً وحـافزاً على خـدمة الـوطن والـدولة، ولم أتـراخَ يومـاً من واجب عَهدَ به إليّ.

إذا تباعـد رأي جـلالته عن رأيي أثناء الأزمـة فقـد تباعـدا في الكيفية وأسلـوب معالجتها ولكن لم نختلف في صلـب المشكلة. كان هـو المسؤول الأول عـن الدولة واستمرارها وقد رأى في ما أقترحـه عليه إضـاعة للـوقت في تلك الظـروف.

ولمـا كان قد بلغـه الإنذار وأخبـار مناورة هـاشم قـرّر أن يأخـذ بناصيـة الأمـور لـوحده وينقـذ الـوطن من الفوضـى والإفـلاس دون اعتبار لآراء الجميع، وعمل على السيطرة المباشرة على الجيش ثم المصادمة مع المعارضـة الشعبية.

منذ تلك اللحظة اعتبرت مهمتي منتهية كقائد للجيش، خصوصاً بعد أن شاع في بعض القطعات أنني أعتزم انقلاباً بما سبب مصادمة بين بعض جنود المشاة والمدفعية أدّت إلى جرح عدد منهم.

هل كان يشك الملك في نواياي نحوه؟

الذين طلبوا مني توجيه إنذار لجلالته وعلى رأسهم اللواء علي الحياري ومن هم وراءه كانوا يعلمون أنني رأس الجيش وأحمل مسؤولياتهم مع أنني صرفتهم إلى وحدتهم، وإلاّ لصعدوا ليُبلغ اللواء الحياري بنفسه إنذارهم وهو لن يفعل ذلك.

وهو أيضاً والضابطان ومن وراءهم تصرفوا بمناورة هاشم وأخرجوها عن مقاصدها، وهم يعلمون أن الريبة ستتجه نحوي.

ولما قامت الفتنة في معسكر خو انتصاراً لجلالة الملك لما بلغهم من الزعم أنني أهدّد حياته أُبلغ جلالته بأن انقلاباً عسكرياً سينفذ تلك الليلة. فلما استدعاني إلى القصر ذهبت ولم يكن معي إلا السائق والضابط المرافق ونفيت أي احتمال لانقلاب. فناولني جلالته قائمة بأسماء الضباط المتآمرين طالباً اعتقالهم.

أكّدت لجلالته أن ليس في الجيش من يقدر على هذا العمل غيري وها أنا عندك لوحدي، واستغربت أن اسم الحياري لم يكن على ورقة القائمة واعتذرت عن اعتقالهم.

ولكن الحياري رئيس جماعة الإنذار والمُطّلع على مناورة هاشم حضر إلى القصر بطلب من الملك وتسلّم القائمة ووقّع أمر اعتقال الضباط والتحقيق معهم في الليلة نفسها، فاعتبرت أن هذا الإجراء بمثابة إقالة لي من منصبي.

وبعدها استُدعي سعيد باشا المفتي وكلّف بتشكيل حكومة، وطلب إليه جلالته أن يضمّني إلى الوزراء وإعطائي حقيبتي وزارة الدفاع والداخلية وكلّفني بمساعدة المفتي في تشكيل الحكومة.

أراد سعيد باشا أن يكسب ثقة أعضاء الوزارة السابقة ليصل إلى قناعة مجلس الأمة بمنحه الثقة عند طرح البرنامج، ورجاني أن أكلّم سليمان باشا وشفيق وعبد الحليم.وفعلاً ذهبت ولحق بي محمد علي باشا العجلوني للغرض نفسه.

وجدت من المستحيل إقناع سليمان وشفيق، فعدت لسعيد باشا برأيهم الواضح بأن أعضاء الحكومة السابقة سيعملون على إفشاله. وهكذا ضاعت

فرصة ثانية بعد فرصة تكليف عبد الحليم في حين أن المفتي والنمر كانا دوماً رجال شرف وينظر إليهما بعين الاحترام من الناس.

وليس من الضروري أن أذهب في سرد التفاصيل المخجلة، إذ قبلت معاونة المفتي مع تصميم على إنجاحه دون الاشتراك في الوزارة، مع أنني تعرّضت للتهديد الصارخ من بعض الجنود وضباط الصف تلك الليلة، في حين كان أعضاء الحكومة السابقة يخططون لإفشال أي حكومة كانت.

هذا الموقف الذي اتخذته حكومة النابلسي بعد أن استجابت لطلب الملك بتقديم استقالتها والذي كان .نتيجة زيارتي واللواء محمد المعايطة لرئيس الوزراء، وتأكّده أنني لا أشاطره رأيه في البقاء لمجرد رسالة شفوية تسلّمها من عبد الناصر فحواها (ما تكونش هرّاب)، هو الموقف الذي يحتاج إلى تحليل.

من وراء هذا الموقف وأسبابه وماذا كان يقصد من ورائه؟

فقبول الملك المعونة الأمريكية مع إنذارات من الجيش واضطرابات فيه، وغياب الشعب عن الحقائق، لم يكن ليساعده كثيراً في أي موقف يحاول الأمريكيون فرضه على الوطن مقابل المعونة العسكرية والماليّة.

وعدم قبول المعونة معناه سقوط الدولة إلاّ إذا ضُمّت الأردن إلى العراق، لأن انضمامها إلى مصر أو سوريا كان بحكم المستحيل لأنهما لم يقدرا حتى على دفع حصة من التزام التضامن العربي. فضلاً عن أن الدولة التي تقبل بالوحدة مع الأردن يترتب عليها مواجهة فورية مع إسرائيل.

اعتذر المفتي عن تشكيل الحكومة، فقرّرت الذهاب في إجازة أسبوعين استبعاداً لأي آمال قد يعلّقها أحد على وجودي في الأردن من الضباط الذين عملوا مع الحيارى والذي أمر هو بنفسه باعتقالهم.

لقد دافعت عنهم أمام الملك ليلة الفتنة، لأنني اعتقدت، ولمعرفتي بهم واحداً واحداً، أن ليس فيهم من يملك الجرأة على أكثر من الكلام والتهويش إذا لم أتولَّ قيادتهم في أي اتجاه كان وقد أثبتت الحوادث صحة اعتقادي. وبالتالي، وبالرغم من تسبّبهم في زعزعة ثقة الملك بشخصي وفي ساعة تهويش بعض الضباط والجند بالبنادق المصوّبة نحوي وكأني عدو وقع في أسرهم، حفظت شرف زمالة أولئك الضباط لأن بعضهم ضربوا المثل الأعلى في الوطنية ليلة قرار تحرير الجيش.

إذا أحسّ إنسان يوماً بالإخفاق العظيم لإخراج وطنه من مأزق محفوف بالمخاطر فإنه يدرك الجرح الذي أصابني ليلة ١٣ نيسان ١٩٥٧.

صباح يوم ١٤ نيسان زرت الملك واستأذنته للذهاب في إجازة إلى روما لمدة أسبوعين، لأنني وبالرغم من اعتبار نفسي فاقداً عملياً لمنصبي إلاّ أنني رسمياً كنت قائد الجيش.

تحدثنا قرابة نصف ساعة وتناولنا الشاي سوّية وودّعته وأنا أوصيه بالضباط.

إن كنت قد أسقطت بعض المسائل في سردي للأحداث، فلأنها لا تليق بي، كما أنها لا تليق بالأردن وهي غير ذات بال.

وصلت دمشق بسيارتي وكان مركز الأمن في درعا قد أبلغ عن دخولي الحدود إلى قيادة الجيش السوري، فوجدت اللواء نظام الدين وأركانه في استقبالي في قرية المزيريب فدعاني لتناول العشاء في منزله.

أرسلت زوجتي إلى منزل عديلي وذهبت برفقة اللواء نظام الدين وقد خيّم الوجوم على الجميع حتى سألني عبد الحميد السرّاج، كيف فشل الانقلاب؟

قلت: أي انقلاب؟

قال: الانقلاب الذي قام به الجيش على الملك.

قلت: من جاءكم بهذه الأخبار الكاذبة؟

قال: وصل الرئيس نذير الرشيد وأبلغنا عن الانقلاب الفاشل، وأفادنا أنه هرب حفاظاً على حياته لأنه كان رأس الحربة في الانقلاب.

قلت: نذير الرشيد ضابط صغير وليس مهدداً بحياته من أحد وأستغرب هروبه من الأردن وكل ما يقوله غير صحيح. وأنا مجاز، وفي طريقي إلى بيروت ثم روما.

قال اللواء نظام الدين: ما الذي حدث؟

قلت له: مصر وسوريا استنكفتا عن دفع المعونة بما سبب اضطراباً في الأردن وانشقاقاً وقد قبل جلالة الملك المعونة الأمريكية. وأنا فقدت منصبي واقعياً وتسلّم قيادة الجيش اللواء علي الحياري.

خرجت من بيت نظام الدين بسيارته إلى منزل عديلي الذي أصرّ أن يستضيفني يوماً واحداً على الأقل فقبلت. وفي عصر يوم ١٥ نيسان استمعت إلى إذاعة الأردن التي قالت إن علي أبو نوار هرب من البلاد بعد فشل مؤامرته. وسبق هذا الخبر أن حسين باشا الخالدي شكّل الوزارة ومعه سعيد باشا نائباً للرئيس.

اتصلت هـاتفياً بسعيد باشا المفتي ورجـوته أن يتّصـل بجـلالة المـلك ويبلغه عمّا سمعته من إذاعـة القدس، وأنني سأكـون مضطـراً للعـودة إلى عمـان لأدفـع عن نفسي تهمة باطلـة إذا تكـرّرت الإذاعـة.

وحـوالي السـاعة الـرابعة صباحاً من يوم ١٦ نيسان قـدم اللـواء محمـد المعايطـه ليبلغني رسالـة من جـلالة الملك ذات شقين:

١ ـ أن ما أوردته الإذاعـة كان عمـلاً غير مسـؤول ولـن يتكـرر.

٢ ـ أن جـلالته يرجـو تسليم استقالتي إلى اللـواء المعايطه للضـرورة الـوطنية والحفاظ على وحـدة الجيش.

سلّمته الاستقالـة وتوقّفت الإذاعـة عن أي ذكـر لي إلى أن أعلنت الحكـومة تشكيل مجلس عسكـري لمحاكمتي والضباط بعـد حـوالى شهرين.

ولكن الأخبار التي وردتني من عمان سبّبت لي قلقـاً عظيماً، فقـررت البقاء في دمشق بعض الـوقت قبـل الـذهاب إلى روما، فطلبت من عبد الحميد السـرّاج أن يبلغ نذير الـرشيد رغبتي في أن يزورنـي لأستفسـر منه عمّا نسبه إليه عبد الحميد من ادعـاءات، ولكنه لم يأتِ ولم أره إلاّ صـدفة في القاهـرة بعد سنين.

دعتني الأركان السـورية ثاني ليلـة وصولي إلى اجتماع في منزل العقيـد عفيف البزري فلبيت الـدعوة، فطرحـوا موضوع أحـداث الأردن وأثـرها على القـوات السـوريّة المتواجـدة في الأردن والتهديد المنتظر على سوريا من حلف بغداد وأمريكا وضـرورة تغيير الأوضـاع الأردنية دفاعـاً عن سوريا.

عجبت لشيئين: أولهما، تناقض المنطق السوري الـذي يعتبر تغيير الأوضـاع الأردنية ضـرورة دفاعيـة في حين ساهمت سوريا إلى حـد كبير في الصيرورة إلى تلك الأوضـاع. وثانيهما، حماسـة بعض الضباط إلى إقحـام الجيش السوري في عمل التغيير في الأردن وبسـذاجة تدعـو إلى الاندهاش.

قـائد كتيبة الـدبابات السورية في الأردن والـذي حضـر الاجتماع وهـو المقدّم طعمه العـودة الله يقترح أن يحتلّ عمان بكتيبته، وأنه يضمن أن يأتي بالملك حسين أسيراً إلى دمشق. مصطفى حمدون يسـأله وكيف تفعـل ذلك؟ هـل الملك حسين جالس خـال من أي قوة ينتظـر تشريفـك لتأسـره؟

عفيف البزري يدخـل عمـل كتيبة الـدبابات السورية لتغيير الأوضـاع في الأردن

من إطار التعقيدات الدولية ويذهب في تحليل ما ينتج من تدخّل أمريكي وتركي وعراقي وروسي ويوصل الأمور إلى الحرب الكونية.

عبد الحميد السرّاج يقول بعد أكثر من ساعتين من الهراء، نحن نتكلم واللواء أبو نوار يستمع: أو ليس الأجدى أن نسأله رأيه؟

قلت: ليس عندي كلام طالما وأن طعمه العودة الله يرى في نفسه القدرة على احتلال عمان، لأنه لا يعرف أن الجيش الأردني مع عدم استقرار حاله سيأسر طعمه وكامل كتيبته والمجموعة السورية التي أعرف قدراتها حق المعرفة خلال ساعات. هل فضّلت سوريا حرباً مع الأردن بدلاً من معاهدة التضامن؟ وبالتالي هل تتكلّمون باسم الحكومة؟ وإذا كان الأمر كذلك فأين اللواء نظام الدين ووزير الدفاع؟ أشكركم على دعوتكم وأرجو أن تعذروني عن الاستمرار في هذه الأحاديث العقيمة.

أوصلني عبد الحميد السراج إلى منزل عديلي ولم أجتمع ثانية معهم إلاّ عند وصول اللواء علي الحياري إلى دمشق بعد خمسة أيام من خروجي من عمان.

اتصل السيد خالد العظم بي يدعوني لزيارته في منزله للقاء اللواء علي الحياري مساء يوم ١٩ نيسان وأرسل إليّ سيارته لتنقلني إليه. وبعد تبادل التحية سألت الحياري عن سبب مجيئه. فقال إنه حضر بحجة الطلب إلى سوريا بسحب قواتها من الأردن إذ كلفته الحكومة بذلك فوجد الفرصة مناسبة للخروج من الأردن.

لم أشأ أن أناقشه أمام الأخوة السوريين ولكني اجتمعت به في اليوم التالي ورغبت في الاستفسار منه عن ثلاث نقاط:

أولها، لماذا خرج فعلاً وقد عُيِّن يوم مغادرتي عمان قائداً للجيش بالوكالة؟ فأعلمني بأنه لم يكن قادراً على القيام بمسؤولياته في تلك الظروف المضطربة.

وثانيها، كيف يكون على رأس الضباط الذين جاء بهم بطلب توجيه إنذار إلى الملك ثم يصدر أمر اعتقالهم والتحقيق معهم؟ واعتذر عن بحث هذه النقطة.

وثالثها، ما هو تفسير سليمان باشا النابلسي لقبوله الدخول في حكومة حسين فخري الخالدي بعد أن رفض وساطتي بعدم معارضة الخالدي؟ قال ربّما الخوف.

أمضيت واللواء الحياري واحداً وعشرين يوماً في دمشق وخرجت من وصفه

للأوضاع في الأردن بأنني لن أستطيع العودة إليها إلى حين. وقد عقد اللواء الحياري مؤتمراً صحفياً ينفي فيه وجود مؤامرة عسكرية على النظام وهي المؤامرة التي نُسبت إليّ في حين أنه أمر باعتقال الضباط والتحقيق معهم على أساس المؤامرة.

لم يكن الخصام معه، وكلانا في الغربة عن الأردن، مثمراً، ولذا فلم أعاتبه أو أخاصمه بل أمضينا معظم وقتنا معاً في دمشق حتى دعانا الرئيس عبد الناصر للإقامة في القاهرة.

هذا وقد وفد إلى دمشق عدد من الضباط من مختلف الرتب الكبيرة والمتوسطة والصغيرة هرباً من الاعتقال ومنهم محمود الموسى وقاسم الناصر، وكذلك السيد شفيق أرشيدات وعبد الله الريماوي وسعيد العزّة ونعيم عبد الهادي وسليمان الحديدي وكمال ناصر وجمال الشاعر وعبد الله نعواس وآخرون كثيرون من مختلف الأحزاب السياسية.

وصلت واللواء الحياري إلى القاهرة فاعتبرتنا الحكومة المصرية ضيوفاً عليها، وأنزلتنا في قصر الطاهرة أربعين يوماً إلى أن طلبت انتقالنا إلى منازل حيث نعيش حياة عادية.

لقد أكرمت الحكومة المصرية وفادتنا إلى أبعد ما يكون الكرم وحسن الضيافة، وكانت لنا لقاءات مع عبد الحكيم عامر وزكريا محي الدين وعبد اللطيف البغدادي وكمال الدين حسين، وكانت لي لقاءات خاصة مع صديقي ثروت عكاشة والسيد محمود رياض الذي سبق وأن التقيت به في دمشق.

هذا وكانت أكثر أحاديثنا السياسية مع كمال رفعت وزير الدولة للشؤون الخارجية.

وجدنا في القاهرة عدداً كبيراً من اللاجئين السياسيين من كل الأقطار العربية تقريباً في ما عدا سوريا، وقد جاءها أعداد أخرى بعد وصولنا. منهم من العراق والسعودية والسودان وتونس وليبيا والمغرب فضلاً عن قيادات من الثورة الجزائرية التي كان لها وضع مختلف عن الآخرين وثوار من سلطنة عُمان.

ومن أبرز الشخصيات كان رشيد عالي الكيلاني وصالح بن يوسف، وهو الرجل الثاني في ثورة تونس على فرنسا، إلى جانب الحبيب بورقيبه ويوسف الرويسي وإبراهيم طوبال وهم أيضاً من رجال الثورة.

وكان في القاهرة أيضاً من رابطة أبناء الجنوب العربي رئيسها محمد علي الجفري وشيخان الحبشي وقحطان الشعبي، ثم التحق بهم السلطان علي عبد الكريم سلطان لحج والذي أيد وساند الثوار في الجنوب العربي على بريطانيا.

ومن اليمن كان محمد الزبيري وأحمد محمد النعمان والذين انشقوا على الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين.

ومن السعودية كان عبد الله الطريقي ثم الأمير طلال بن عبد العزيز الذي انشقّ على الملك سعود مع بعض إخوانه في ما بعد.

ومن ليبيا كان صالح البوصيري وعدد من الشبان. ومن المغرب ابن الأمير عبد الكريم الخطابي المشهور بثورته على فرنسا، وللأسف لا أذكر اسم ابنه.

أما ثورة الجزائر فكان مدير مكتبها في القاهرة أحمد توفيق المدني، وقد تردّد على القاهرة في فترات متقطعة بعض قادة الثورة قبل أسرهم وبعض قادة الولايات من الثورة مثل العقيد علي الكافي الذي أصبح بعد الاستقلال سفيراً للجزائر في مصر ثم في لبنان.

وكان يتردّد على القاهرة السياسيون والعسكريون السوريون وكثير من رجال الحكم في سوريا ولبنان والصحفيون اللبنانيون على مختلف انتماءاتهم، ويتصلون بعبد الناصر أو برجاله الذين أوكل إليهم الشؤون العربية وفي مقدمتهم علي صبري وكمال الدّين حسين وكمال رفعت وحسنين هيكل ووزير الإعلام عبد القادر حاتم.

كما تردّد أحياناً شفيق أرشيدات وعبد الله الريماوي وسعيد العزّة ويوسف البندك ثم نعيم عبد الهادي، وقد أقام الأخيران بشكل دائم في القاهرة.

هؤلاء الرجال، وجميعهم ذوو أهمية في بلادهم، جمعتهم حالة اللجوء وبأهداف واحدة ونتيجة أحداث مختلفة. فمنهم من حارب المستعمر ومنهم من اختلف مع الحكم في بلاده بعد استقلالها، ولكنهم كانوا يرون أن الاستقلال وحده لا يكفي كما وأن محاربة المستعمر في كل قطر لوحده دون تكافل الدول العربية لا يجدي كثيراً.

وسواء كان المستعمر بريطانياً أو فرنسياً أو الاستعمار الجديد المتمثل في أمريكا، فإن تنافساتهم لم تكن تحول دون اتفاقهم على إبقاء المنطقة العربية مقيّدة بقيود العجز القطري وحجبها عن العالم سواء بقضاياها الآنيّة أو المستقبلية.

ومن هنا فإن هؤلاء الرجال، وعلى اختلاف أمزجتهم وتفاوت قدرهم السياسي وتباين اتجاهاتهم الفكريّة، شكّلوا تياراً قومياً عربياً مؤثراً أحياناً وقليل التأثير أحياناً أخرى في تصورات الثورة المصرية للقضية العربية.

تصورات هؤلاء اللاجئين وعلى اختلاف الأقطار التي وفدوا منها للقضية العربية تركّزت في محورين أساسيين:

١ ـ التحرّر من المستعمر وجوداً أو نفوذاً.
٢ ـ الوحدة العربية.

ولكن هذه التصورات التي تكونت لتصبح عقيدة وقناعة لم تكن اجتهادات العمل والوسيلة فيها ولبلوغها موحّدة. فمنهم من يرى النتائج مؤدية إلى الوحدة الشاملة من المحيط إلى الخليج ومنهم من يرى وحدة مشرقية وأخرى مغربية، وقد تداخلت النتائج المرجوّة بعوامل اتساع الوطن العربي وصعوبات إقامة دولة واحدة من النواحي العملية التطبيقية.

تضارب المبادىء التي يعتبرها العرب منهجاً تاريخياً لا بدّ من بلوغه في نهاية المطاف مع الإرهاصات الوطنية والإقليمية، وما تعانيه الشعوب العربية من تحديات حادة وآنية حكمت بالخلاف بين الأفكار التي طرحها الجميع في لقاءاتهم المستمرّة بغية الوصول إلى منهاج للعمل القومي القابل للتحقيق. ومع أن الجدل كافٍ في النظريات في تلك المرحلة من الفوران العربي والتي شكلت الأماني، إلّا أن ذلك الجدل اشتمل على تحليلات لواقع الأمة العربية فرضت اعتبار مرحليات التحرر والوحدة بما تسمح به ظروف الصراع مع الأعداء.

ولما كانت القاهرة تمثّل عاصمة العرب وثورة مصر وما أنجزته من أعمال أدّت إلى ارتفاع قدرها في نفوس العرب والعالم الثالث، فإنها صارت مهبط الأمل لكل الذين توحّدت جهودهم معها من قادة الحركات الشعبية والرسمية.

ومن هنا أصبحت مصر وعبد الناصر محور العمل العربيّ، ولذا فلم يلتئم لقاء بين الزعماء اللاجئين وبعضهم وبين زعماء يزورون مصر إلّا وأعطت عبد الناصر القسط الوافر من أحاديثهم السياسية.

طالما وأننا تحدثنا عن المحورين الأساسيين اللذين شكّلا الأمل العربي، وهما التحرر والوحدة، فمن الضروري أن نصف فهم الملتفين حول ثورة مصر لكل من هذين المحورين.

عرب المغرب مثلاً كانوا يرون في مصر القوة والنجدة لمساعدتهم على الاستقلال أو تغيير الأوضاع القائمة في بلادهم بما يؤدي إلى وحدة المغرب العربي واختيار المنهج الاجتماعي الذي يفضلونه، بعضهم ماركسي والآخر اشتراكي والأخير رأسمالي باستثناء الثورة الجزائرية التي غلب على قادتها الفكر الاشتراكي. نظرة الجزائريين هذه لها مبرراتها الموضوعية بحكم أن الفرنسيين والأجانب المستعمرين كانوا يملكون كل ما له قيمة في الجزائر ممّا حرم المواطنين من حقوقهم كاملة.

أما عرب المشرق وقد تعمّقت فيهم أفكار الوحدة العربية لتحرير فلسطين وصنع المستقبل الأفضل فإنهم، في ما عدا بعض العراقيين الشيوعيين والرأسماليين ومثلهم من السوريين، وجدوا في الوحدة مع مصر خطراً على الأحزاب الشيوعية وعلى الرأسمالية والإقطاع. ففي حين تريد الأغلبية العراقية الوحدة في المشرق واتخاذ الثورة المصرية قيادة للوحدة أرادت الأقلية أن تساهم في إسقاط الحكم في العراق والصيرورة إلى تضامن أو اتحاد مع مصر.

أما الشعب السوري وبأحزابه القوميّة وقادة الجيش، فقد كانوا قادرين على جمع القوة التي تتضاءل أمامها قدرات الإخوان المسلمين والشيوعيين المناهضين لفكرة الوحدة، كل منهما لسبب يختلف عن الآخر.

ولكن ماذا عن مصر الثورة التي توجّهت للزعامة العربية برغبة منها وتأييد عربي عام على صعيد الشعوب وتعامل إيجابي من قيادات شعبية سياسية وعسكرية لتعزيز تلك الزعامة؟ وماذا عن طاقات مصر ودرجة احتمالها للأعباء التي تفرضها تلك الزعامة؟

وبالتالي ما هي أولويات الزعامة المصرية سواء في مصر ومن أجلها أو في الوطن العربي ومن أجل الوحدة العربية؟

العرب ينطلقون من إيمان بمصر وثورتها نابع من أمانٍ نسجوها من أعمال وطنية في مصر وصراعها البطولي مع المستعمرين دون الاستقصاء الكافي والبحث عن منهاج ملزم للثورة المصريّة للعمل القومي ومراحله. كان الزعماء العرب يفترضون بديهيات تقترب من خطط الثورة المصرية أحياناً وتبتعد أحياناً، بينما كانت قيادة الثورة تعلم عن أفكار وإمكانيات وخطط كلّ الذين يتصلون بها.

الثورة المصرية تتصرف كدولة مع العرب بينما هم يتصرفون ويتعاملون معها كثوار، ولهذا السبب تعاظم شأن المخابرات المصرية في نشاطها في القضايا

القومية. والدولة دائماً لها عقلها الـذي يطلق ما يشاء من أسـرارها ويحبس ما يشاء منها. تضع ثقـة ما في شخص أو مجموعـة عربيـة وتمنعها عن آخرين في حين يمنحها الجميع ثقتهم ويفتحون لها قلوبهم.

هـذه العـلاقات المتفاوتة في الثقة خضعت دائماً وأبداً لما تضعـه المخابـرات عن الحركـة أو الحـزب أو الـرجل من معلومات أمام قيادة الثـورة المصرية بالإضافة إلى الصلـة ونوعها مع المخابرات، ممّا أدى إلى انزلاق بعض الرجـال والحـركات لتصير أداة في يدها وأولئك كانوا المفضّلين.

أمّا من عزَّت عليه نفســه أن يتعامـل مع المخابـرات فإنه يحفظ احترامه لـذاته ويكون بعيداً عمّا تجـري عليه الأمور. لـذا فإن الـذين كان لهم مانع من أنفسهم من التعامل مع المخابـرات، وإن لم تهملهم القيادة المصـرية أو تنتقص من قـدرهم، وجـدوا أنفسهم أحياناً في حـالة شبه عـزلة أو اعتزال إلاّ في مناسبات التقائهم مع أعضـاء قيادة الثـورة.

وفي فترات من التأزمات العـربية وأحـداثها ظهرت ردود فعل الثورة أو أعمالها متناقضـة مع إعلاناتها، فينقسم الـرأي بين رجال العـرب في القاهـرة بين قائل: هـذه سياسة عبد الناصـر وقائـل هـذه أعمال المخابـرات. التبرير لعبد الناصر كان بسبب استبعاد المبررين وضع اللائمة عليه، لأنهم لا يعقلون أنه قد يخطىء أو يصيب شأنه شأن القادة في كل مـراحل التاريخ لأمم أخـرى. والقائلون بوضع اللائمـة عليه لم يقبلـوا نظرية دولة المخابـرات داخـل دولة عبد الناصـر واستقلالها عنه في أعمالها.

دار نقاش لم ينتهِ حتى سنة ١٩٦٤ عندما انعقـد مؤتمـر القمـة العربـي الـرابع في القاهـرة. وفي بعض الأحيان احتـدّ النقاش بين العـرب حتى الخصومة في ما بينهم أو بين بعضهم وبين عبد الناصر، وتعدّدت الاجتهادات في ما يقبلـه العقـل وما يرفضـه وبين الإسفاف والجـدّية وأحياناً بين احترام المبادىء أو تقديس الـرجل إلى درجـة إذابة المبادىء في شخصه.

ولعل الكثيرين من العـرب أساءوا إلى عبد الناصر بتقديسهم له أكثـر من العـرب الـذين وقفـوا عند احترامهم له بمسؤولية. فعبادة القادة هو إلغـاء للعقـل ونفي لإنسانيتهم ودفع لهم لارتكاب أعظم الأخطاء.

ظهور عبد الناصر على مسـرح الحيـاة المصـرية والتفاف الأمـة العـربية حوله تقديراً لشجاعتـه وإخـلاصه في محـاربة المستعمر في ظـروف الاستكانة العربيّة، وبعد هزيمة ١٩٤٨ وانتصاره على العدوان الثلاثي واستعادة حقوق مصر، جعلت منه

فارس أماني الأمـة العربية وأوفته حقه من الحب والانتصار له. وإثارته العرب وبعض شعوب العالم الثالث بالـدعاية أو المساعدة في تعزيز قـدرتهم بوسائله المتاحـة طوّرت الارتباط به وبأعماله إلى وحـدة تقرير مصير.

ومع ذلك فإنـه كان من الغـريب أن يـأتيني بعض الأصـدقاء السـوريين المسؤولين قُبيل الـوحدة بين مصـر وسوريًا وأثناء مباحثاتها، ليسألوني عن معرفتي بأفكار قـادة الثورة المصـرية وحـرارة اتجاهاتهم العـربية.

هـذه الاستفسارات كان مـردّها الحيرة في تناقض الـرأي المصـري على مستوى المسؤولية العليا. فنائب رئيس الجمهورية عبد اللطيف البغدادي ومع تسليمه بقـرار عبد الناصر في النهاية، كان يفضّـل اتحـاداً وثروت عكاشـة يفضـل تضامناً قوياً وآخرون مثل عبد الحكيم عـامر وكمال الـدين حسين يرجّحـون الـوحدة وغيرهـم من الـوزراء الفنيين لا رأي لهم.

السـوريّون كانـوا يعـقلون أن يكون بعضهم مناهضاً للـوحدة وبعضهم مندفعاً إليها دون تفكير بأي كيفية تكون، ولكنهم لم يعقلـوا أن يكون في ثورة مصـر من يفضل الاتحـاد أو التضامن أو من هـو غير معني بالأمـر البتّة.

إن أي مـراقب لتلك الفترة لم تكن تفوته بعض الحيرة التي أصـابت المصـريين في أمـر السوريين الوحدويين وإصـرارهم واستعجالهم لإقامـة الـوحدة مع مصـر، والحيرة التي أصابت السوريين من طول صبر عبد الناصر ورجـاله على اتخـاذ القـرار.

لقد تصرّفت مصـر بعقلها أكثر من انفعالها بعاطفـة الـوحدة، وسارت في المباحثات كـدولة تدرس وتستوعب ثم تقـرّر. بينما غلبت على السـوريين (ولا أقول سورية الدولـة) حـدّة الشعور الـوحدوي الـذي توقف عنـده كل عقل أو اجتهاد لأن الـوحدة هي العقل والاجتهاد والمصلحـة.

القيادة المصرية، ومنذ بواكير أبحاث السوريين معهم بشأن الوحدة، ركّزت دبلوماسيتها وعهدت إلى عدد من الأكفاء أعمال السفارة ومكتب الملحق العسكري في دمشق، وأرسلت رجالاً ذوي فطنة ودراية في زيارات متلاحقة لدراسة كل الحركات والأحزاب السياسية والاختلاط بها وكسب مودّتها. تلك الاتصالات لم تميّز بين قومي أو ديني أو شيوعي، واختارت لكل فئة من يقدر على التقرب منها وخاطبتها بلغتها. وأولئك المختارون للاتصال كانوا وزراء أو وزراء سابقين أو كبار عسكريين وأكبر عدد من أذكياء رجال المخابرات.

وفي فترة ما قبل قيام الوحدة مباشرة، كان الوجود المعنوي المصري في سوريا كبيراً، إلى درجة يمكن القول معـــه إن عبد الناصر كـان يمسك بالاتجـاهات السياسية السورية كـافة بشكل أو بآخـر وبخـاصة في الجـيش السوري.

القيادة في سوريا لم تكن مركزية سواء في الحكومة أو الجيش، والرئيس القوتـلي كان أهم مصادر قوته هو حـفظ التوازن بين الأحـزاب المختلفة، إن عهده تميّز بالحرية السياسية والديمقراطية المفرطة التي سمحت لتغلغل الأحـزاب في الجـيش ومراكـز السلطة الحـساسة التي يفترض فيها أن تـكون جهـاز استمرارية الدولة، مهمـا تقلّب على كـراسي الوزارات من أشخـاص ذوي انتماءات مختلفة.

هذه الوضعية السوريّة وفي مواجهتها لضغوط عراقية وتركية أحياناً، تتمثّل الأولى بنشاطات الموالين للعراق من السوريين، وتتمثّل الثانية بحشود عسكرية على الحدود أصبحت معها الحاجة إلى الوحدة مع مصر أكثر إلحاحاً في تفكير ومسعى القوميين بأحزابهم وتجمعاتهم الشعبية والعسكرية.

وبالمقابل فإن القيادة المصرية، وخصوصاً بعد فشل العدوان الثلاثي، أنهت كل جيوب المعارضة الضعيفة وأصبحت تحكم أمرها دون جهد كبير. فإذا تكلّم عبد الناصر عن الوحدة والعروبة ردّدت أقواله ملايين المصريين سواء وعوا مقاصده أم جهلوها، لأنه رجل مصر ومحقق أماني الشعب الذي حُرم العيش الكريم لقرون وصودرت حريته لأزمان. ولم يكن في مصر أحزاب أو هيئات سياسية تقاسم عبد الناصر الرأي أو القرار حتى من تكوينات الثورة نفسها، لأن رجال الثورة مثل جمال سالم وثروت عكاشة وزكريا محي الدين أبعدهم عن مجلس قيادة الثورة إلى مناصب لا تتساوى مع دورهم في الثورة، مع أنهم لم يكونوا أقل منه حماساً لمبادىء الحركة الأساسية أو إخلاصاً لمصر.

وأذكر حادثة لي مع ثروت عكاشة في باريس بعد زيارتي السريّة لعبد الناصر، والتي سبق ذكرها، حيث اجتمعت به وسألني: كيف وجدت الريّس؟ فسألته وما أدراك بمقابلتي له، فقال:

الريّس اتصل بي هاتفياً ليعرف عنك مني قبل أن تقابله، وقد أبلغته رأيي فيك بتزكية دون حدود (كارت بلانش).

قلت لثروت: أحببت عبد الناصر بعقلي ولكني لم أقترب منه بقلبي. فاستغرب ثروت كلامي وقال: يا علي ده عبد الناصر هو مصر. ومصر هي عبد الناصر.

ومع أن ثروت كـان مُبعداً من مجلس قيادة الثورة، فإنه حـافظ على حق الثورة وحق زعيمها. ثروت عكاشة كان وظـل ثروة أخـلاقية عظيمة.

أسـوق هذا المثل بالإضـافة إلى وضع مصـر ليتمكّن القارىء من مقارنة بين وضعين متفاوتين، سوري ومصري، لتسهـل العودة في فصول لاحـقة لأسـباب تعثّر الوحـدة التي كانت اختياراً حـراً بين بلدين عربيين، تمثّل أحدهـما في قيادة متمكنة وتمثـل الآخـر في قيادات وأحـزاب متنافسة أو متعادية.

يعود بي هذا إلى ضعف المعرفة بين قيادات أمتنا وشعوبنا، أو تفاوت تلك المعرفة بين واحدة وأخرى والذي أشرت إليه في سياق سابق.

العاطفة السوريّة الجامحة، ولتحقيق أمل العرب، صادفها عقل وتخطيط وحنكة مصرية، تضع العاطفة في إطار النظرة العملية وبرود الأعصاب في الحركة. وحرارة عبد الناصر التي ألهبت مشاعر الجماهير العربية في مختلف المناسبات، كان يحلّ مكانها حكمة في التدبير والتعامل مع السوريين إلى درجة جعلت الأحزاب والهيئات السورية، على درجات حماستها المختلفة للوحدة مع عبد الناصر، تتصوّر كل واحدة منها بأن رأيها واتجاهها أقرب إليه من غيرها.

الجهاز المصري الذي جنّده عبد الناصر من سفير وأعضاء سفارة في دمشق إلى موفدين سياسيين وعسكريين كانوا جميعاً حافظين لمهمّاتهم وأدوارهم، ومنضبطين في أدائهم، خلافاً للسوريين الذين كانوا كتاباً مفتوحاً لعبد الناصر ورجاله إيماناً منهم بالرجل وإعجاباً به.

أقول إن السوريين أرادوا الوحدة مع عبد الناصر أولاً ومصر ثانياً، لاعتقادهم بأنه ينبوع الدعوة إلى العروبة في مصر التي كان شعبها في ما عدا القلة لا يعنون أنفسهم بالعروبة.

ولكن هل كان كل رجال عبد الناصر عروبيين في تلك المرحلة؟ وهل نالت قضية الوحدة العربية من اهتمامات الثورة أي قسط من الدراسة والفهم؟

يمكنني القول وبإنصاف إنه لم يكن هنالك فهم وعناية كافية في البداية، بل اقتصرتا على ما ورد في كتاب فلسفة الثورة التي قسّمت العالم العربي والإسلامي إلى دوائر اهتمام من عبد الناصر نفسه. وكان هذا بحد ذاته خطوة كبيرة في بلد حكمته نظرة إقليمية واجتهادات تتراوح بين الفرعونية القديمة وتأثيرات اللغة العربية ـ لغة القرآن الكريم.

الدوائر التي رسمها عبد الناصر في أول تطلعاته السياسيّة كانت من قبيل رسم استراتيجية السياسة المصرية لتعزيز مكانة مصر سياسياً واقتصادياً، إلّا أن الأحداث أثبتت له عقم تلك النظرة فاستقرّ على ضرورة تعريب مصر وتمصير العرب .

تعريب مصر عملٍ ينسجم مع تاريخ أمتنا منذ الفتح الإسلامي، أمّا تمصير العرب فإنه شكّل مسلكاً خطيراً كان عبد الناصر أول من عانى منه الأذى العظيم. فتمصير العرب يعني نوعاً من الانقياد العربي لقيادة مصر دون إعلان، ولكنه يتجلّى بتصوّر فوقي، على العرب قبوله وكأنه أمر مفروض ومفروغ منه ولا يحتمل الحوار .

إذا مالت مصر نحو الاتحاد السوفييتي فهي حرّة في ذلك، ولكن أي اتجاه عربي آخر للاتحاد السوفييتي فلا تستحسنه مصر إلّا إذا نال بركتها. وكذلك إذا اضطرت مصر بحكم حاجاتها الطبيعية أن تتقاضى مساعدات أمريكية فذلك أمر جائز، أمّا قيام أي علاقة عربية أخرى مع أمريكا فهو في نظرها مبعث قلق فتهاجمه .

مصر رأت أنها بحكم حجمها قادرة على التعامل مع أي جهة في الدنيا حتى مع فرنسا في فترة احتدام الثورة الجزائرية، وأنها بقدرتها المتميّزة على الأقطار العربية الأخرى تملك حماية نفسها من مغبّات أي علاقة لها مع الدول الكبرى . ولكنها رأت الدول العربية الأخرى قاصرة عن حماية نفسها من علاقات مماثلة .

وعلى سبيل المثال فإن مصر كانت تتناول مساعدات غذائية ومعونات للتنمية من أمريكا وتنكر على الدول العربية مثل تلك المعونات. وعندما قامت الوحدة المصرية السورية لم تكن سوريا تقبل أي معونة أمريكية، وما إن قامت الوحدة حتى وصلت شحنات من الدقيق إلى سوريا. وقد طُبع عليها يدان تتصافحان مع جملة تدل على التعاون.

ومَثَل أكثر أهمية كان محاولة التغلغل في صفوف المحاربين الجزائريين وحمل بعضهم على التعامل السري مع مصر ، ممّا سبب مأساة حينما ألقى أعضاء مكتب الجزائر أحد زملائهم من الطابق الخامس إلى الشارع إنذاراً منهم لمصر بعدم التدخل .

ومأساة أخرى وقعت عندما دخل ما يقارب مئة مسلّح جزائري من تونس إلى الجزائر ، ليقوموا بأعمال خارجة على قيادة الولاية المجاورة لتونس ، فأبادهم الثوار الجزائريون عن آخرهم. كانت قيادة مصر تريد أن تصل إلى قيادة الثورة الجزائرية وتوجيهها، وكان قادة المحاربين في الداخل يرفضون ذلك بحجة أن الثوار أدرى بحربهم. (أهل مكة أدرى بدروبها) .

هذه الأمثلة قليل من كثير ولكنها كانت ممارسات في كل قطر عربي أفريقي أو مشرقي، حتى في البلدان التي التقت مع مصر على أهداف محاربة الاستعمار والصهيونية وتحرير فلسطين.

لقد ساعد مصر على فكرة تمصير العرب إلى جانب تعريب مصر عاملان مهمّان:

أولهما : نجاح مصر في كل أهدافها الوطنية.

ثانيهما : معرفة مصر أنها استقطبت القيادات الوطنية وجماهير الشعب بشكل منقطع النظير، بحيث اعتقد عبد الناصر أن ليس بينه وبين الأمة العربية قيادات وسطيّة.

وساعد رجال عبد الناصر على اعتزازهم ما كانوا يجدونه من تقدير خاص أينما حلّوا في العواصم العربية، مما حملهم على تصور خاطىء أحياناً بأنهم متفوقون على أقرانهم العرب، أحياناً بحقّ وجدارة وأحياناً كثيرة بدون أي جدارة.

في ظل هذا المناخ أُعلنت الوحدة بين سوريا ومصر وتنازل الرئيس القوتلي عن رئاسته، واندفع الشعب السوري بالالتفاف حول الوحدة وبطلها الرئيس عبد الناصر اندفاعة يصعب وصفها، لعظم ما تدفّق منهم من مشاعر الحب والولاء المعلن الذي لم يماثله إلاّ حماسة مكتومة في أوطان أخرى اعتبرت الحكومات فيها أن خطراً عظيماً قد انطلق ليطيح بها.

أعلنت الوحدة يوم ١ شباط ١٩٥٨، فانتقل عبد الناصر لزيارة دمشق حيث أحاط الشعب السوري بقصر الضيافة الذي نزل فيه بأعداد لا تقل عن نصف مليون رجل وأمرأة وشاب لثلاثة أيام ولياليها.

وفي هذه الزيارة أجرى تشكيلات الحكم للإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة ولحكومة مركزية مختلطة من الإقليمين عاصمتها القاهرة، كما اتخذ قرارات بشأن جيش الشمال وأسماه الجيش الأول وجيش الجنوب باسم الجيش الثاني وبقيادة اللواء عبد الحكيم عامر.

الوزارة في الإقليم الشمالي سمّيت بالمجلس التنفيذي برئاسة أكرم الحوراني وعدد من الوزراء، بعضهم تقنيون وبعضهم عسكريون مع اعتبار خاص للعسكريين وبخاصة وزير الداخلية عبد الحميد السرّاج. ويظهر أن عبد الناصر قصد أن يخفّف عدد العسكريين الحزبيين والمسيّسين من الجيش تدريجياً ليضمن وحدة الجيش الأول

وانضباطه، كما عيّن عدداً من الضباط المصريين في مراكز حساسة في الجيش الأول ونقل ضباطاً سوريين إلى الجيش الثاني في مصر ولكن دون قيادات تذكر .

وكانت أولى الخطوات الاجتماعية له في سوريّا الإصلاح الزراعي بما يتكيّف مع طبيعة خصوبة المناطق المختلفة في سوريا ، وقد كان للإصلاح استجابة كبيرة من الفلاحين السوريين الأجراء عند الإقطاعيين.

من الطبيعي أن يسعد الذين اختيروا ليشاركوا في الحكم مع الوحدة وأن يخيب أمل الكثيرين من رجال السياسة والنفوذ، ولكن الإجماع العام على إنجاز الوحدة كأعظم الخطوات القومية حملت حتى الذين لم يصادفهم الحظ في الحكم على الرضا والقبول .

ومع أن تنافسات الأحزاب والفئات السوريّة لم توقفها الوحدة، إلّا أن فرقتها قبل الوحدة جمعتها في خط التنافس في ما بينها لما يرضي عبد الناصر . وهو بدوره كان أقدر من يجمع المتنافسين على الارتباط بشخصه لفترة سنوات .

الفرق بين مجتمع الثورة في مصر ومجتمع الأحزاب والهيئات في سوريا كان كبيراً . ففي الأول كان قائد الثورة هو المشرّع وهو الحاكم الذي لا يخالفه فريق أو تجمّع في ما عدا اجتهادات الشيوعيين في الوصول إلى عقل عبد الناصر بشكل أو بآخر لا يصل إلى العنف . أما في الثاني فإن القيادة للوطن كانت تملكها الأحزاب ومن والاها من عسكريين أكثر ممّا يملكها رئيس الجمهورية أو الوزراء . ويمكن القول إن الديمقراطية التي سادت سوريا بلغت حد الإفراط وغياب سلطة الدولة غياباً يكاد كلياً .

لهذا السبب فإن مهمة عبد الناصر أخذت تزداد ثقلاً يوماً بعد يوم. ومع وضوح هدفه في صياغة العمل السياسي للسوريين ليتماثل مع ما صاغه للمصريين أغفل حقيقة واحدة، وهي أن تلك الديموقراطية السورية لم تكن مجرد عمل سياسي ولكنها طريقة حياة يومية أفرزت نظريات ورؤى لم يكن من الممكن إزالتها بقرار .

والشعوب تحب يوماً وتكره يوماً إذا ملكت حريتها، أما إذا أحست بالإكراه فإنها تلجأ إلى التقيّة والنفاق حتى تتمكّن من فرصة تنطلق فيها، وعندئذ تفقد عقلها وصوابها لتحقر اليوم ما قدسته بالأمس وتقدّس من كانوا محطّ لعنتها .

عندما أُعلنت الوحدة كنت مقيماً في القاهرة ودُعيت إلى أول اجتماع شعبي خطب فيه عبد الناصر عن الوحدة ومزاياها، وقد مجّد في كلمته الشعب السوري الذي

طالب بالوحدة حتى استجاب لها، وأعلن عن تصدّي الجمهورية العربية المتحدة للاستعمار والصهيونية، وأن أسرائيل ستجد أمامها قوة موحّدة من الشمال والجنوب لوقف توسعها وتحرير أرض فلسطين . وكان من جميع رجال العرب اللاجئين في القاهرة التأييد المطلق له في العمل للوحدة العربية الشاملة .

قبل الوحدة وبعدها لم يصدف أن اجتمع عند أحد من القادة العرب رجال من ذوي الفكر والمسؤولية مثلما اجتمع لعبد الناصر إلاّ جلالة الحسين بن علي في الثورة العربية الكبرى ، مع فارق أساسيّ هو أن القادة العرب المشرقيين انضموا جميعهم تحت لواء الثورة العربية وأسهموا فيها بالرأي والسلاح، في حين كان الالتفاف حول عبد الناصر مقتصراً على القادة الذين أفرزتهم ظروف الصراع مع الحكام في بلادهم ولم تخلُ الحالتان من شواذ .

لست في مجال المقارنة بين الثورة العربية الكبرى وثورة مصر ، لأن مثل هذه المقارنة لا تتوفر لها عناصر التماثل التاريخي بين العرب في أوائل القرن العشرين ومنتصف القرن من حيث تقدّم العلم ووسائل الاتصال وحصول بعض الدول العربية على استقلالها الرمزي .

ولكنني قصدت أن الإقليمية تلاشت في الثورة العربية الكبرى ، بينما كانت حادّة عند فئات عربية عديدة على مساحة الوطن العربي ، بسبب تكوّن مصالح إقليمية في منتصف القرن العشرين. ولم تكن قائمة في أوائله الاّ في مصر على ساحة المشرق العربي .

ومن الضروري أن نوضح أن طبيعة الصراع كانت متماثلة في الثورتين، حيث واجه العرب في كل منهما الصهيونية والاستعمار الغادر المتسلّط .

فضلاً عن ذلك ، فإن اقتسام الوطن العربي في العشرينات بين بريطانيا وفرنسا لم يكن للعرب وثورة الحسين بن علي قدرات الحيلولة دونه، بينما تمكّن العرب، وثورة مصر في مقدمتهم، من دخول الصراع مع المستعمر وقد ملكوا الأدوات والإمكانات الماديّة والمعنوية للانتصار في بعض المعارك الرئيسية وخسران معارك أخرى.

مع تقدّم إجراءات الوحدة بين الإقليمين في الجمهورية العربية المتحدة أخذ الكثيرون من السوريين يعيدون الحساب ، كما وأن العراق والأردن أقاما الاتحاد العربي على عجل وأنشئت تنظيمات اتحادية بعد فترة من قيام الجمهورية العربية المتحدة لم تتجاوز ١٤ يوماً .

ولكن ماذا كانت سياسة عبد الناصر الوحدوية الشاملة في المشرق؟

لقد غلب الاعتقاد على العروبيين جميعهم أنه سيحاول قلب نظام الحكم في الأردن ليضمّه إلى الجمهورية العربية المتحدة . فإعلانات عبد الناصر وهجوماته على الحكم الأردني بالإضافة إلى التركيز الإعلامي في هذا الاتجاه لم تترك مجالاً للشك في أنه قصد ما اعتقد العرب .

وكذلك كان الرأي السائد بالنسبة لنواياه للعراق، الذي كان شعبه يتلقّى تحريضات القاهرة المستمرة للثورة مع اتصالات عديدة متواصلة بين سياسيين عراقيين وعسكريين متقاعدين، يصلون إلى دمشق والقاهرة وهم من مختلف الاتجاهات السياسية : بعثيون، شيوعيون، مستقلون وبعض الإخوان المسلمين .

الشعب الأردني كان معظمه يتجه إلى الوحدة وأقلّه مع بقائه مستقلاً، وحَكَم اتجاه الأغلبية أمل قيام الدولة العربية. الدولة العربية القوية القادرة على استعادة فلسطين بقهر إسرائيل ومن يساندها.

أمّا الشعب العراقي وقياداته المناهضة لنوري السعيد فأمرها مختلف عن الأردن لأسباب موضوعية : أولها، أن العراق كان أقل تأثراً بالقضية الفلسطينية وخطر إسرائيل من الأردن؛ وثانيها، أن العراق دولة ذات اكتفاء ذاتي مادّي وبشري وقادر على حماية نفسه وتوفير الحياة الأفضل لشعبه؛ وثالثها، أن العراق يجمع شعبه عرباً بطموحات وأكراداً بطموحات مغايرة، بالإضافة إلى الذين أطلق عليهم لقب شعوبيين، وهم أخلاط من أكراد وإيرانيين وشيوعيين لم تتآلف رغباتهم مع اتجاه الوحدة العربية. ورابعها، أن السّاسة العراقيين الطامحين إلى وضع أفضل في العراق أمّلوا من قيام الجمهورية العربية تشكيل ضغط خارجي بالإضافة إلى الضغط الداخلي لإنهاء حكم نوري السعيد وأتباعه، بما يؤدي إلى إنهاء حلف بغداد والمعاهدة البريطانية وحرية الممارسة الديموقراطية في السياسة.

المعارضة العراقية جمعت بين طبقات رأسمالية وفئات من ذات الدخل المحدود، ومن وجاهات تقليدية من حزب الاستقلال القديم إلى عناصر جديدة تمثل المحرومين من الفئات المثقّفة مع بعض الشواذ بين هؤلاء وأولئك، ولكن العراقيين جميعاً وإن لم يشجبوا الوحدة واتخذوا منها موقفاً إيجابياً إلاّ أنهم كانوا يراقبون أحوال سوريا بعد الوحدة بما يثير في نفوسهم دوافع الإصرار على التغيير في العراق، واعتبار أن الوحدة تحتاج إلى النظر في اعتبارات كثيرة أظهرتها الوحدة بين مصر وسوريا.

هذا وصف لا يكتمل دون الإجابة عن السؤال الذي ساقنا إليه وهو: ماذا أراد عبد الناصر؟.

أراد أن يخلق حالة إضطراب في الأردن لا تصل إلى درجة الثورة وإنهاء النظام لأسباب منها :

ـ أن يضمن الاستقرار لسوريا بعد الوحدة من مخططات عراقية أردنية وذلك باشغال الأردن بنفسه.

ـ أن يقنع المعسكر الغربي أنه قادر على الهجوم في مناطق خارج حدوده لينتزع اعترافاً بأنه القوة الوحيدة في المنطقة التي لا يجوز التعامل مع غيرها .

ـ أن يزداد شأنه في المعسكر الشرقي كمناضل ضد الاستعمار بما يفيد الكتلة الشرقية ويدفعها إلى تقديم المعونات والسلاح، وفي الوقت نفسه تأكيد وزن التيار العربي القومي الذي يملأ المنطقة العربية بما يقلل من آمال السوفييت بالاعتماد على الأحزاب الشيوعية .

تركيز عبد الناصر على القومية العربية كقوة وحيدة على أرض العرب مدعاة لطمأنينة أمريكا من ضياع الفرصة على تسلّل الأحزاب الشيوعية إلى الحكم، ولكنها أيضاً مدعاة لقلقها على إسرائيل . وهذا التركيز نفسه مدعاة لطمأنينة الاتحاد السوفييتي للنيل من الخطط الغربية التي قصدت تطويق حدوده بأحلاف ومعاهدات مع الغرب، ولكنه مثار قلق على الأحزاب الشيوعية العربية .

في هذه الحدود كان عبد الناصر يتصرّف بحسابات دقيقة لا يسمح لنفسه أو لرجاله من مصريين وسوريين بالخروج عليها . كان يعلم منذ ١٩٥٦ أن الأردن منطقة متفجّرة باتجاه فلسطين، ويدرك أن التحاق الأردن بالجمهورية العربية المتحدة يعني حرباً فوريّة مع إسرائيل وسبب نصرة أمريكية لها، بسبب فقدان التوازن في القوة بين دولة تجمع مصر وسوريا والأردن وبين إسرائيل من جهة أخرى .

لم يكن عبد الناصر في تلك المرحلة يطمح إلى أكثر من مصر وسوريا، وفي اعتقاده أن خطوات ثورية لم تكتمل وأنه لم تطبق الاشتراكية في الإقليمين. فالاشتراكية بالنسبة لعبد الناصر كانت قضية تستحوذ على عقله وضميره أكثر من استحواذ قضية الوحدة العربية عليهما.

ولكنه بالنسبة للعراق التي اعتبرها القوة المنافسة للثورة المصرية والمتناقضة

معها تناقضاً جذرياً، فإنه كان مصمّماً على مساندة أي اتجاه ثوري فيه ليضمن في العراق دولة صديقة تدور في فلكه دون الوحدة معها .

أمّا لبنان فإن عبد الناصر اقتحم أحداثه بقوة عن طريق دمشق وعزّز جانب المتحمسين للجمهورية العربية المتحدة، ممّا أدّى إلى إسقاط رئيس الجمهورية اللبنانية كميل شمعون. ولما كانت أمريكا ذات عناية خاصة بلبنان وحياده غير المعلن في الصراع العربي الإسرائيلي، فقد وصل عبد الناصر وبالاتفاق مع أمريكا إلى حل وسط باختيار اللواء فؤاد شهاب رئيساً، الذي أظهر تعاوناً محسوساً مع الجمهورية العربية المتحدة حتى انتهاء عهد رئاسته. وقد سلك فؤاد شهاب في لبنان كرئيس لجميع اللبنانيين بالرغم من سخط الموارنة عليه والذي ينتمي إلى طائفتهم.

كنت في الإسكندرية مع عائلتي لأمضي بضعة أيام فيها حينما اتصل بي مستشار رئيس الجمهورية يدعوني للحضور إلى القاهرة لأمر مستعجل وهام. عدت إلى القاهرة وأبلغني المستشار رجاء عبد الناصر أن أزور السيد همرشولد في فندق شيرد لأثبت له أنني في القاهرة ولست في طرابلس ـ لبنان أقود الثورة فيها ضد كميل شمعون، الذي قدّم شكوى رسميّة إلى هيئة الأمم المتحدة كمثال على تدخل مصر في الشؤون اللبنانية وإقامة الثورة فيها .

زرت السيد همرشولد والذي عرفني كقائد للجيش الأردني في زيارته لعمان. قال همرشولد: ظننت أنك تستمتع بقيادة عسكرية جديدة في لبنان، فإن الرئيس كميل شمعون أبدى عظيم قلقه من وجودك في طرابلس .

قلت له: تلك نعمة أن أجد نفسي ثانية بين حملة السلاح ويؤسفني أن أخيب ظنون كميل شمعون. وبعد تناول الشاي معه عدت إلى الإسكندرية.

حَدَث الوحدة بين مصر وسوريّا كَسَرَ التصريح الثلاثي الذي أصدرته أمريكا وبريطانيا وفرنسا وجرى اعتراف عالمي بالدولة الجديدة خلافاً لكل التوقعات. فقد كان ردّ الفعل المنتظر من أمريكا هو معارضة الوحدة.وليس من تفسير لقبولها إلاّ اعتقادها أن حاكماً قوياً للوحدة قادر على ضبط الطفرة الشعبية في سوريا ولا تمنعه علاقته مع روسيا من اعتقال الشيوعيين إذا اضطر لذلك .

ويبقى السؤال الذي لم يجب عليه أحد: وهو كيف تقبل أمريكا بتجميع قوة بلدين في مواجهة إسرائيل، وفي حين التهاب الشعور القومي صعوداً بآمال التحرير من الخليج إلى المحيط؟

سيظل هذا السؤال من جملة أسئلة أخرى على الساحة العربية والدّولية يتطلب البحث للوصول إلى جواب وإجابة .

نعود إلى الأردن الذي شُكِّلت فيه محكمة عسكرية لمحاكمتي واللواء علي الحيارى غيابياً في تموز ١٩٥٧، ومحاكمة عدد من الضباط من القادة بتهمة الانقلاب على النظام. وقد شكلت الحكومة تلك المحكمة مع إيعاز بإصدار حكم إدانة. وكان أبرز الشهود أذناً في قيادة الجيش شهد بأنه سمع في اجتماعي مع الضباط في القيادة البلاغ رقم (١) وأنا أتلوه. هذا الأذن أُمّي ولا يتمتع بأدنى درجات التعليم وقليل الذكاء وعمله تنظيف ساحة القيادة .

شاهد آخر كان الزعيم صادق الشرع الذي أبرز عَلَم قائد الجيش وقد خِيطَ على أطرافه خيوط حريرية (شراشيب) وبادعاء أنني جهزت هذا العلم لأضعه على سيارتي عندما أصبح رئيساً للجمهورية. مثل هذا العلم منتشر على زجاج سيارات التاكسي في الأردن، إلّا أن العلم الذي أبرزه الزعيم صادق الشرع كان مثّبتاً على سارية معدنية قصيرة وعلى رأسها شعار علم الهاشميين.

لهذا العـلم قصة. أخرج راضي باشا عناب من درج مكتبه علبة طويلة مُدوّرة من الكرتون وشدّ العلم منها مع رسالة تحتوي قصيدة شعرية ركيكة يقدّم بها لجلوب باشا هذه الهدية، والرسالة موقعة من أحد الخياطين في عمان ولعله انتظر مكافأة من جلوب باشا .

راضي باشا أخذ يتندّر بالشعر الركيك والنفاق الرخيص قائلاً: سأحتفظ بهذا ذكرى لِـ (المسخرة).

عضو المحكمة العسكرية المقدّم عبد الكريم البرغوثي سأل الزعيم الشرع عمّا ترمز إليه رأسية السارية فأجاب إنها ترمز للهاشميين. وأنهى البرغوثي مناقشته بقوله هذا انقلاب عجيب !! .

كان أحد الشهود سعيد باشا المفتي الذي أفاد المحكمة بقضية الإنذار التي سبق وشرحتها، وتوارد شهود آخـرون لم يثبت أي منهم نية الانقلاب أو المباشرة فيه.

إلّا أن ظروف الأردن تطلبت إثبات أنه كانت هنالك مؤامرة سُميّت بالمؤامرة الكبرى، وحُكِمَ عليّ بعشرين سنة سجناً وحُكـم على الآخـرين بأحكام مماثلة ومختلفة والتصقـت المؤامـرة الكبرى باسمي.

هذا وقد اضطربت الأحوال في الأردن منذ يوم خروجي ولم يفُلح حسين باشا

الخالدي في تهدئة الأوضاع بالرغم من اشتراك سليمان باشا النابلسي في الوزارة، وكان هذا الاشتراك من أعجب العجائب. قال البعض إن اشتراكه ناتج عن الخوف مع أن الحكومة استقالت مضطرة أمام ضغط الجماهير التي لم تقتنع بوجود سليمان باشا فيها.

وهكذا صار الأمر إلى وزارة سمير الرفاعي الذي وضع سليمان باشا تحت الحجز المقيّد في منزله لمدة خمس سنوات. وكان الحظ العاثر أن ساقت الحكومة مئات الشباب من الجيش والأحزاب إلى المعتقلات .

حظّ عاثر فعلاً لأن سليمان باشا استكبر أن يعلن على الشعب انهيار اتفاقية التضامن العربي حتى بعد أن اشترك في وزارة الخالدي، كما أغفلت الحكومة إعلان اضطرارها إلى قبول المعونة الأمريكية، وكان الضحية في الحالتين الشعب الذي واجه الحكم على جهل والحكم الذي لم يملك وسيلة أخرى إلاّ قمع المعارضة للحفاظ على بقاء الدولة .

أصابني وعائلتي من هذا أكثر مما أصاب أي عائلة أردنية، إذ اعتقل أولاد عمّي الضباط الثلاثة عدا عن أشقائي المدنيين وأصدقائي من الجيش ومنتسبي الحكومة ومنهم أقارب لي وأنسباء . ولقد تأثّرت لما أصابني وأصاب الأردنيين، إلاّ أن العوض كان في عجز الحكومة الأمريكية عن فرض مشروع أيزنهاور في الأردن واكتفائها بعلاقة متميّزة في الأردن مقابل معونتها المالية والعسكرية .

أحداث الأردن هذه لم تكن تفارقني ساعة من صحوي، وتباشرني أفكارها كلما حدث حادث عربي مفرحاً كان أو محزناً، وكانت دائماً علامة واضحة من علامات فهم المسيرة العربية وتحليل أسبابها ثم الاجتهاد في نتائجها. ومن التمحيص في أساليب العمل المصري المباشر أو العمل من خلال المكتب الخاص السوري مع اللاجئين السياسيين وأصدقائهم في الأردن، تأكّد لي أن الأردن لم يدخل في برنامج عبد الناصر بشكل يقصد منه تغيير الوضع فيه .

بضع قطع من السلاح تُهرَّب إلى بعض القرى وتدرّب عدد محدود من المدنيين المقيمين في دمشق على إطلاق البنادق، بالإضافة إلى إرسال نادل في نادي دمشق الدولي لاغتيال هزاع المجالي والذي تصرّف كأنه يقول للسلطة الأمنية تعالوا خذوني ثم يزعم أنني أرسلته بالمهمة مع أنني لم أره في حياتي .

أثناء التحقيق مع هذا النادل حاول أن يصفني فأخفق. والضابط الذي استقبله، من المطرودين من الشرطة، يقول أثناء المحاكمة: أنا ظلمتُ علي أبو نوار لأنه لا علاقة

له بي أو بهذا المبعوث للاغتيال ولكننا ادعينا بما طلبه منّا المكتب الخاص في دمشق .

أعنف الأعمال كان نسف رئاسة الوزراء في عمان، وقد كان عملاً بشعاً أودى بحياة رئيس الوزراء هزاع المجالي وعدد كبير من الموظفين والمراجعين. ولسبب ما دارت الشبهة لتوجه إليّ حتى اكتشف المحقّقون أن ليس لي علاقة بها .

ومع أن قضية النادل اتضحت إلّا أنه بلغني بأن رئيس الوزراء أصدر أمره للمحكمة بالحُكم عليّ بالسجن، تلك الأحكام جميعها كانت غيابيّة ولكنها دليل على ما يصدُق فيه المثل القائل « إذا وقع الجمل كثر عليه طعن السكاكين » . فأنا لم أكن غادراً في حياتي ولعلّ طبيعة الصراحة والمواجهة المتمكّنة من نفسي أكسبتني الكثير من الأعداء . أصدقائي نصحوني دائماً بالدبلوماسية ونبذ الحدّة، ولكنني وجدت صعوبة أيام الشباب في تغيير جلدي وقول ما لا أنسجم فيه مع نفسي. ومع بلوغي الخامسة والستين من عمري أستصغر نفسي إذا نطقت بما هو باطل أو مالأتُ الخطأ. إذا استحسنت أثنيت وإذا استنكرت طعنت دون حساب .

ورد عليّ من أحد الضباط في التنظيم السرّي اقتراح باغتيال جلوب باشا وأن بعض الزملاء يستحسنون الرأي، فشجبته باعتبار عمل الاغتيال من أعمال الجريمة والجبن وذكّرته بأننا لسنا مجرمين أو قـطّاع طرق . نحن تنظيم وطني عسكري نواجه المسؤولية مكشوفين عندما يحين الوقت لتحرير الجيش حتى ولو أدّى ذلك إلى قتال القوات البريطانية إذا قاومتنا. واغتيال قائد الجيش لا يخرج عن كونه عملاً يصيب رجلاً واحداً يمكن لبريطانيا تعيين بديل له ولا يحسم القضية التي نحن بصددها .

ونسف رئاسة الوزراء كان عملاً نظّمه عبد الحميد السراج ونفّذه شباب جهلاء لم يكونوا يَعون ما يفعلون، ومن هنا فقد شاركني عبد الله الريماوي وشفيق أرشيدات وكمال ناصر الاشمئزاز من تلك الجريمة البشعة التي اقترفت في سنة ١٩٦٠ .

هذه الأعمال الصغيرة لم تكن تهدّد الكيان الأردني ولكنها تجعله دائم القلق والحيرة، وتُثبت لأمريكا أن يد مصر طويلة وقادرة على تحريك الأمور في اتجاه مضاد لسياستها، مع أنها تسبب لكثير من الأردنيين شقاءً لا طائل من ورائه، وفي الوقت نفسه تصوّر لهم أن الجمهورية العربية المتحدة جادّة في إنهاء العهد الأردني وانضمامه إلى الوحدة المصرية السوريّة.

كثيرون من المصريين المسؤولين صرّحوا لي باستبعاد الأردن عن الوحدة وكانوا صادقين معي، وأولهم كمال رفعت الذي كان يستشيرني وعبد الله الريماوي وشفيق

أرشيدات في بعض الشؤون العربية مع أنه لم يفصح لهما أو لغيرهما بالحقائق التي صارحني بها .

ولمّا كنت بحكم اطلاعي المتميّز أرى الأمور بغير منظار عبد الحميد السرّاج، فإنه، ولحسن حظي، لم يكن يرى في شخصي إمكانية صداقة معه أو انقياد إليه . هذا مع أنه بعد طرد القيادة البريطانية من الجيش كان دائم الثناء عليّ والتقرب منّي .

كان عبد الحميد من ناحية وعبد المحسن أبو النور من ناحية أخرى يتنافسان في استقطاب اللاجئين العرب المتواجدين في سوريّا ولكنهما لم يجرؤا على التقدّم مني بأية محاولة. فعبد الحميد يعرفني وأنا ملحق عسكري في باريس حيث كان مساعداً للملحق العسكري السوري، وعبد المحسن أبو النور فشل معي في أول اجتماع كما يرد بعد قليل.

وهكذا احتفظت باستقلال الرأي والحفاظ على الكرامة التي قدّرها لي عبد الناصر حتى في ظروف عدم رضاه عني .

الفصل الحادي عشر

الثورة العراقية وحرب الشعارات

كان واضحاً لي أن العراق مقبل على أحداث خطيرة لكثرة ما يصل إلى القاهرة من رجال يعارضون الحكم القائم ويتّصلون بالمسؤولين المصريين وبالسيد فائق السمرائي والسيد رشيد عالي الكيلاني، وبعضهم يزورونني وبالأخص الضباط المتقاعدين، وأكثرهم سفراً كان ضابطاً في قوات الشرطة.

وفي دمشق وقبل أن أرحل إليها، دعانا اللواء عبد المحسن أبو النور مساعد قائد الجيش الأول وكان المدعوون جميعاً من العسكريين الأردنيين. طرح عبد المحسن أن إسرائيل ستهاجم الأردن، ولذا فمن الواجب أن نتّجه إلى الملك حسين ونعلمه بأي واسطة نختارها عن الهجوم الإسرائيلي وحثّنا على إبلاغ جلالته، تطوّعنا للعودة إلى الأردن والقيام بواجب الدفاع مع الجيش العربي.

هذه نقطة. أما الثانية فإن عبد المحسن طلب إلى كل من له صلات بضباط عاملين في الجيش أن يطلبوا تنظيم اتصالات معنا في دمشق عن طريق وسائط منتظمة، وإذا أمكن استخدام أجهزة اللاسلكي فسيكون ذلك أفضل.

والغرض من هذه الاتصالات على حدّ قوله معرفة حركات الجيش الأردني في الضفتين وحركات الجيش الإسرائيلي. تكلّم بعض الضباط وأبدوا استعدادهم، ولكنني استنكفت صراحة عن الاتصال بالملك حسين أو الضباط لاقتناعي أن عبد المحسن يعتقد أننا إلى تلك الدرجة من البساطة لنصدق قصته.

قلت له: هل تتكلم باسم رئيس الجمهورية؟

قال: وما الفرق؟

قلت: إذن على الرئيس عبد الناصر أن يعلن على الملأ احتمال هجوم إسرائيل على الأردن، وأن الجمهورية العربية المتحدة ستقف إلى جانب الأردن. أما ما تقترحه فهو عديم الجدوى وأنا غير مقتنع بالقصة كلّها.

لكن هذه القصة لم تكن طبيعية وقد فسّرها لي ضابط عراقي زارني في القاهرة، ووجّه لي سؤالاً صريحاً عمّا إذا كان الحكم في الأردن قادراً على إرسال قوات كبيرة لمساندة الحكومة العراقية إذا قامت ثورة عسكرية عليها .

هذا الضابط أجاب عن سؤال لي بقوله: الجيش يريد الإبقاء على الملك فيصل الثاني ملكاً دستورياً، ولكنه لن يبقي على الوصي الأمير عبد الإله ولا على نوري السعيد وجميع أعوانه مدنيين وعسكريين.

وفي لقاء مع رشيد عالي الكيلاني أكّد لي عن معلوماته المتطابقة مع ما أفادني به الضابط العراقي . وسألت الكيلاني في ما إذا كان العراق سيتوجّه نحو الوحدة إذا تغيّر الوضع فيه، فأبدى شكوكه في ذلك لأسباب كثيرة منها :

١ ـ قضية الأكراد .
٢ ـ قوة الحزب الشيوعي وأحلافه من الوطنيين.
٣ ـ احتمالات المداخلات للدول الكبرى .

وأضاف أن الاتحاد أقرب إلى التحقيق من الوحدة، خصوصاً وأن الاتجاه الثوري لا ينوي المساس بالنظام الملكي إلّا إذا ساقته الظروف لإلغائه. حتى وفي هذه الحالة إذا قامت فإن العراق لن يذهب إلى أبعد من الاتحاد.

رشيد عالي الكيلاني نفسه وبالرغم من أحقاده على الوصي الأمير عبد الإله وزمرة نوري السعيد، فإنه كان يؤمن في أعماقه أن العراق مع فيصل الثاني ملكاً دستورياً واتجاه عربي لا أثر للأجنبي فيه، ويقيم اتحاداً مع الجمهورية العربية المتحدة والمملكة الأردنية الهاشمية، سيجنّب مسيرة الوحدة من العثرات الداخلية ويقيم وضعاً عربياً متكافئاً مع إسرائيل وكل السند الأمريكي لخوض معركة التحرير الفلسطينية.

ولا بأس في أن أطيل الحديث عن هذا الرجل العربي لأطري أخلاقه الشخصية وتعلّقه بأهداب الدين دون تعصّب، بحيث لا يبدي رأياً إلّا واستشهد بآية قرآنية أو حديث نبوي. رشيد عربي مؤمن تغلُب عليه البساطة في معيشته والسلاسة في حديثه، فلا كليشهات القوميين من جيلنا ولا حذلقاتهم الجدلية ولا ينطق بسباب أو مرارة وهو الذي يحمل في ما أصابه كل أسباب المرارة .

خرج من العراق، وهو الثريّ الكبير، لا يحمل إلّا نفسه وعائلته. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية غادر ألمانيا وصديقه السوري من عائلة الجابي. وعلى أحد أرصفة بلد

في يوغسلافيا يبيع بعض قمصانه وملابسه ليقتات ورفيقه الجابي، بينما اعتقل الحلفاء زوجته وأولاده وزجوا بهم في أحد المعتقلات الإيطالية.

رشيد عالي يحدثني عن هذا وأكثر وهو لا تفارق شفتيه الابتسامة ويحمد الله على كل ما قدّر. ويذكر كيف عاد متسللاً عبر الخطوط العسكرية الأمريكية إلى ألمانيا ثم فرنسا إلى مارسيليا، وكيف زوّرت زوجة السيد الجابي التي كانت رسامة فنانة أوراقهما الثبوتية وتمكّنا من ركوب باخرة فرنسية على ما أذكر إلى بيروت مقابل عملهما خادمين في الباخرة.

رحلة الأشهر هذه توصلهما إلى دمشق حيث تتواجد القوات البريطانية التي طردت قوات فيشي من سوريا، فيذهب السيد الجابي إلى مدير عام الشرطة عبد الكريم العائدي ويبلغه عن وجود رشيد في دمشق، وأنه يطلب جواز سفر باسم مستعار للذهاب إلى الملك عبد العزيز آل سعود يطلب حمايته.

عبد الكريم العائدي أبلغ الرئيس شكري القوتلي الذي أوعز بمساعدة رشيد وتأمينه بما يوصله إلى الرياض، فتوقف سيارته دورية من دوريات البادية الأردنية وينتظر في المخفر ردّ قائد البادية الذي سمح بمرورها إذ ادّعيا أنهما تاجران سوريان يقصدان زيارة السعودية للتجارة.

يصل الكيلاني إلى قصر الملك عبد العزيز ليعلن أنه موفد سياسي من سوريا، ولمّا واجه الملك قال له: أنا رشيد عالي الكيلاني. وكان ردّ الملك «ليتك ما جيتنا» ثم فكر وقال: أنت تعلم أن بريطانيا ستمارس كل ضغط ممكن لتسليمك ولكن اسلّم أولادي ولا أسلّمك.

البريطانيون أخفقوا في إقناع الملك عبد العزيز، إذ قال لهم خذوا أولادي ولكن رشيد لجأ إليّ ولن أقبل بعارِ تسليمه.

شاءت الأقدار أن يصل الملك سعود إلى العرش ويبدأ نوري السعيد بمفاوضته على رشيد، ويبلغ الخبر عبد الناصر الذي أعلن في صفحات الجرائد المصرية دعوته لرشيد عالي إلى مصر ضيفاً عزيزاً مكرّماً.

صباح يوم ١٤ تموز أيقظني رشيد عالي هاتفياً ليبلغني خبر الثورة العراقية الذي أبلغته إياه رئاسة الجمهورية مع دعوة من عبد الناصر للالتقاء به في القاهرة. وأصرّ رشيد على سفري معه فقبلت. وعلى الطريق في القطار سألني عن تقديري لما يريد عبد الناصر بحثه معه، وكان ردّي أنه بغرض البحث عمّا تحمله الثورة من احتمالات إذ لم تكن معلومات رئاسة الجمهورية وافرة بالتفاصيل.

نصحت رشيد أن يكون متأنياً، ووعد بأنّه لن يقطع بأمر دون تبادل الرّأي معي. وبعد الغداء تحرّك إلى منزل الرّئيس بموكب رسمي وعاد بعد ساعتين وقد أقنعه عبد النّاصر بالسفر إلى سوريًا، حيث يرتب له رئيس المجلس التّنفيذي عبد الحميد السّراج برنامج جولة في العواصم السوريّة.

رجوته أن لا يفعل كي لا يثير حفيظة الحكم الجديد في بغداد عليه، وأن الحكمة تقتضي بأن لا يضع عوائق في طريق عودته إلى الوطن بعد اغتراب سبع عشرة سنة، وأن الوقت حان ليستقر وعائلته بعد رحلة العذاب الطويلة.

اعتذر عن الأخذ برأيي كي لا يخلف وعده لعبد الناصر وسافر في اليوم التالي ليتجول في دمشق وحماه وحلب ويلقي خطباً مذاعة من المساجد. فهمت في ما بعد أن عبد الكريم قاسم لم يكن مرتاحاً لها.

سافر عبد الناصر إلى موسكو واكتفى وهو فوق أجواء العراق على طريق العودة بإرسال برقية إلى عبد الكريم قاسم يُحيّي فيها العراق وثورته. وكانت رحلته إلى موسكو للتباحث مع قادة الكرملين وحماية العراق من تدخلات أعضاء حلف بغداد وبريطانيا.

لم تحرّك دول حلف بغداد ساكناً وذلك بالرغم من معاهدات الأمن المشتركة، بما أثبت أنه حلف عديم الفعالية، وعنيت بريطانيا وأمريكا أن تعين الأردن ولبنان على الثبات.

أما مصير العائلة المالكة، وعلى الأخص الملك فيصل الثاني والأميرات، فقد كان مفجعاً من حيث إن الملك لم يكن يستحق القتل بأي سبب، وإبادة النساء كان عملاً لا ينسجم مع التقاليد العربية.

عندما دُعيت للشهادة أمام المحكمة العسكرية العراقية بعد شهر من الثورة تقريباً سألت عن مذبحة القصر، فقالوا إن الأمير عبد الله أطلق النار على المهاجمين من إحدى نوافذ القصر حتى تحقق من استحالة المقاومة، فجمع العائلة كلّها ومعه الملك فيصل ونزلوا إلى ساحة القصر مستسلمين، وعندها أطلق عليهم ضابطان شيوعيان نيران رشاشيهما حتى أباداهم جميعاً.

الثورة دائماً عمياء في أول انطلاقها، ولكن الخصم إذا استسلم حتى ولو كان عدواً فالطبيعي أن يعفى من القتل. والذين قاتلوا في الحروب لا يرفضون قبول الأسرى إذا ألقوا سلاحهم.

قيل لي إن دعوتي كانت لأداء الشهادة في محاكمة اللواء رفيق عارف، فقبلت أن

أدلي بها ولو كان نوري السعيد أوضياء جعفر في القفص لقبلت أيضاً. ولكني فوجئت باللواء غازي الداغستاني في قفص الاتهام، وقد ضجت القاعة المزدحمة بالصراخ وطلب رأس المتهم مع أوصاف سيئة له ولشرفه العسكري. وقد شهدت على الغائبين الذين سبق وأن رويت قصصهم معنا في الأردن وأبرأت غازي من أي تهمة. ذلك لأن غازي الداغستاني كان عسكرياً عظيماً نبيلاً في أخلاقه وكريم المحتد، وكان موضع اعتزاز كل الضباط العراقيين في فلسطين حيث تعرفت إليه سنة ١٩٤٨ .

قبل ثلاث سنوات من أيامنا هذه تصادفت مع كريمته على الطائرة من لندن إلى عمان، فاستذكرت مثولي للشهادة وقد دخل في روعها أنني سأقسو على والدها، وما إن سمعت ووالدتها ثنائي عليه في شهادتي التي بُثّت على شاشة التليفزيون حتى استبشرت خيراً بنجاة والدها من الإعدام .

محكمة الثورة العراقية كانت مهزلة حقيرة ورئيسها مهرّج وجمهور المحكمة من الغوغاء الذين حشدهم الشيوعيون والذين نشطوا وأيّما نشاط في صفوف الضباط والمدنيين، حتى تصوّرت أن احتمالات السيطرة الشيوعية على الثورة قوية جداً .

الخطر لم يكن متجسّماً في الضباط الشيوعيين الذين التفّوا حول عبد الكريم قاسم، ولكنه تعاظم بتعاطف كثيرين من الضباط الانتهازيين الذين لم يكن لهم دور في الثورة ويزعمون بأنهم قوميون .

وعبد السلام عارف كان ساذجاً، بالرغم من شجاعته، وكثير الثرثرة، في حين كان عبد الكريم قاسم صامتاً، ويعمل ليل نهار لاستقطاب حزب الاستقلال، وفي مقدمتهم صدّيق شنشل وحزب الجادرجي ورجال مثل محمد حديد والحزب الشيوعي وضباطهم والانتهازيون من الضباط الذين طلبوا المشاركة في الغنم دون أي جهد منهم .

عبد السلام عارف يتاجر باسم عبد الناصر في خطبه الجماهيرية بينما يهمل مراكز القوى المنظّمة في الشعب والجيش .

لم أكن في الحقيقة أميّز بين عبد الكريم وعبد السّلام من ناحية شخصية، فكلاهما غريب عليّ، حتى التقيت بهما في تلك الزيارة ولكنني خشيت على العراق أن يفقد هويته القومية .

اجتمعت بعدد عظيم من الضباط الذين دعوني إلى العشاء من مختلف الفئات واستمعت إلى آرائهم وجاهرتهم برأيي، وأخيراً التقيت بعبد الرحمن عارف شقيق عبد

السلام في جلسة طويلة تشعب فيها الحديث بحيث مسّ كـل نواحي احتمالات الاتجاه العراقي بعد الثورة .

وجدت أن عبد الرحمن عارف أكثر حكمة من عبد السلام وقليل التفاخر خلافاً لشقيقه، ويستوعب الكلام ويعي ما يسمع وما يقول. فاقترحت عليه ثورة سريعة على عبد الكريم وكل تجمعات القوة المتآلفة معه لنحفظ عروبة العراق .

عاد عبد الرحمن في اليوم التالي ودعاني إلى قيادته ومعه عبد السّلام ، وسألاني في ما إذا كنت مستعداً للبقاء في بغداد لأعينهما على التحضير للحركة والتنفيذ ضمن برنامج أتفق مع عبد الرحمن عليه.

أكدت لهما أنني سأعمل على إثارة الضباط والجند في أي لواء يرتبون لي زيارته في الاتجاه القومي وأن أشترك في الحركة العسكرية. وبالفعل زرت لواءين من المشاة يرافقني عبد الرحمن عارف، غاب في الأولى أي وجود للإذاعة أو التليفزيون وحضرا في زيارة اللواء الآخر .

وفي الصباح صدر أمر من عبد الكريم قاسم بنقلي من القصر الأبيض إلى القصر الأخضر ، الذي لم تركّب فيه أي مكيفات وكأن الهواء فيها يهب من الجحيم لشدة الحرارة .

زارني رفعت الحاج سرّي مدير الاستخبارات ليعتذر ويرجوني أن أتحمّل من أجل العراق ما قد أتصوّره من طريقة غير لبقة أرادها عبد الكريم لأرحل عن بغداد . وأمر رفعت بتركيب المكيفات في مساء اليوم نفسه وأصبح القصر الأخضر قابلاً للسكن.

قابلت عبد الكريم في اليوم الثاني، وبعد الترحيب الصُّوري قال:

- لم نراكم في الأردن؟

قلت : كان من واجبك أن تزورني فلم تفعل لأن حكومتك منعتك حتى من استقبالي . ولكن تلك أيام وهذه أخرى وقد زرتك لأستمع إليك وأنت رئيس وزراء حكومة الثورة .

كان باب مكتبه مفتوحاً وقد أوشك عبد الكريم أن يتكلّم وإذ بوزير الإعلام صدّيق شنشل يدخل دون استئذان ليقول : فخامة الرئيس لكم مكالمة تليفونية في المكتب المجاور . عاد عبد الكريم والتزم الصمت وأنا أنظر إليه، ففهمت أن صدّيق

شنشل قد حذّره منّي وأعلمه بنشاطي في القطعات العسكرية، كما أكّد ذلك لي أحد كبار الضباط فاستأذنت وأنهيت الزيارة .

بلغني أن السفارة البريطانية كانت على صلة مستمرة مع عبد الكريم، وواسطة الاتصال بينهما كان أيضاً صدّيق شنشل الذي باع نفسه لعبد الكريم واستمر مستشاراً رئيسياً له إلى أن استنفده وخلعه من وزارته بعد فترة غير طويلة وانتهى به المطاف لاجئاً سياسياً .

بعد مقابلتي لعبد الكريم بيوم زارني عضو في سفارة الجمهورية العربية المتحدة وهو سوري ليبلغني رغبة عبد الحميد السرّاج في عودتي إلى دمشق، فأبلغته أن ليس لعبد الحميد عندي رغبات ألبّيها. وفي عصر ذات اليوم زارني السفير المصري وهو لواء سابق في الجيش ليبلغني أن الرئيس عبد الناصر يستحسن عودتي إلى القاهرة .

التقيت بعبد السّلام وعبد الرحمن عارف ورفعت حاج سرّي، وسألتهم معنى طلب عبد الناصر عودتي فقال رفعت :

لا بدّ أن أصارحك أن عبد الكريم طلب من عبد الحميد السرّاج حبسك ولما رفضتَ طلب من عبد الناصر عن طريق السفير. والسفير عبّر لي عن مخاوفه من أن يلجأ عبد الكريم إلى التسبب في اغتيالك. نحن قادرون على حمايتك ولكن ما اتفقت عليه مع الإخوان يختلف عن رأي القاهرة ومع كل الخجل والاعتذار منك نرجوك تلبية طلب الرئيس عبد الناصر.

عدت إلى القاهرة وقد تكاثرت في نفسي أسئلة لا أجد عليها إجابة، ثم أخذت الأمور تتّضح لي، وقد وجدت الإجابة في الهجوم المتبادل بين خروتشوف وعبد الناصر والذي خلق جواً جديداً بين روسيا والجمهورية العربية المتحدة. والظاهر أن موسكو اعتقدت أن الشيوعيين وأنصارهم في العراق سيسيطرون على مقاليد الأمور بينما أراد عبد الناصر أن يكون العهد قومياً. وعندما اشتد الخلاف بين الشيوعيين والقوميين كان من الطبيعي أن ينتصر عبد الناصر للقوميين بعد إخفاقه في التوفيق بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف .

هنا خرج خروتشوف بتصريحات حادّة يهاجم بها القومية العربية وينكر حقّها، فتصدّى عبد الناصر له بالرد العنيف في خطب جماهيرية، كما حرّض الصحافة والإذاعة في الإقليمين على مهاجمة الشيوعيين في العراق وسياسة الاتحاد السوفييتي .

الجمهورية العربية المتحدة ذهبت إلى حدّ المغامرة بكل علاقاتها مع روسيا في

ذلك الموقف، وتدهورت علاقتها مع عبد الكريم قاسم الذي تمكّن من مراكز القوة في العراق حتى أصبح القوميون موضع الاضطهاد والإرهاب الشديدين .

وعبد السّلام عارف والضباط القوميون والبعثيون والقوميون العرب، والذين سبق وأن نصحهم عبد الناصر بمسايرة عبد الكريم قاسم نتيجة تدخلات الإقليميين العراقيين، كان الوقت قد فاتهم وفقدوا فرصة لا تعوّض للإجهاز على الشيوعيين وأصبح نضالهم مكلفاً جداً .

ولكن الشعب العراقي الذي حلم السنين الطويلة بعهد قومي متحرر وعانى من اضطهاد نوري السعيد وسجونه لم يكن ليستسلم لعبد الكريم قاسم والشيوعيين، فأخذ يستعيد أنفاسه، وتولّى حزب البعث مهمة قيادة العمل القومي وأخذ يعمل تحت الأرض، في حين سلك عبد الكريم معهم أبشع المسالك وأوكل إلى الشيوعيين التنكيل بهم حتّى صارت بغداد منقسمة إلى أحياء بعضها بعثي قومي عربي وبعضها شيوعي إلى أن انطلقت أول شرارة عنيفة هزّت عبد الكريم قاسم .

نظّم البعث هجوماً على عبد الكريم قاسم من عدد من الفتية الشجعان وعلى رأسهم صدام حسين التكريتي . هاجموا الموكب وتخصّص بعضهم بعبد الكريم نفسه فأعمل صدام ورفاقه الرشاشات بسيارته حتى جعلوها ثقوباً، ثم وصلوا إليه شخصياً فرأوه ميتاً غارقاً في دمائه وقد قتل معه مرافقه وسائقه ولم يدر في خلدهم أنه اصطنع الموت فغادروا شارع الرشيد حيث دارت المعركة واختفوا .

ولمّا تبيّن أن عبد الكريم حيّ ويعالج في المستشفى شن الجيش والشيوعيون حملة اعتقال وتعذيب على القوميين الشباب، واختفى قادة حزب البعث وأمين الحزب فؤاد الركابي وصدام حسين، ووصل أول المساهمين في تنظيم معركة شارع الرشيد فيصل حبيب الخيزران إلى دمشق ثم وصل بعده بفترة غير قصيرة صدام حسين التكريتي ومدحت جمعه وعبد الكريم الشيخلي .

كان نصيب عبد السلام عارف وغيره من الضباط الاعتقال والسجن . ولمّا أخذ الشيوعيون يضيقون الخناق على خصومهم خرج إلى دمشق والقاهرة عدد كبير، منهم فؤاد الركابي ومحمود الدّرة وسليمان الصفواني وعبد الرحمن البزّاز، كما استقال فائق السامرائي سفير العراق في القاهرة واعتبر لاجئاً سياسياً بينما ظل زميله وصديق عمره صدّيق شنشل وزيراً مع عبد الكريم قاسم .

وماذا كان أثر الثورة العراقية على الأردن والكويت وهما دولتان مجاورتان ؟

في يوم الثورة تواجد وفد أردني في بغداد مؤلّف من إبراهيم باشا هاشم وسليمان طوقان وخلوصي الخيري واللواء صادق الشرع في عمل يتعلق بالاتحاد العربي. هاجمت الجماهير الفندق وقتلت إبراهيم باشا وسليمان طوقان وجرحت خلوصي الخيري ونجا صادق الشرع الذي حماه مرافقه العسكري العراقي.

الجماهير التي فقدت عقلها كما يحدث في الثورات التي لا يضبطها قادتها لم ترعَ حرمة ضيافة لهؤلاء الضيوف ولم تفطن الثورة لحمايتهم، فكان أن ذهب إبراهيم باشا وهو شيخ كبير السن، ومن الذين أسهموا في بناء الدولة في الأردن، ضحية الجنون والفوضى.

صادق الشرع أُخذ إلى عبد الكريم قاسم الذي اعتذر له عمّا حدث وقد كانت بينهما معرفة سنة ١٩٤٨ عن طريق الدكتور رفعت عوده.

وعلى كلِّ حال فإن الحكم في العراق لم يكن مستقراً بما يمكنه من أي محاولات للتدخل في الأردن، وقد سحب قواته المرابطة فيها والتي دخلت لتعزيز الدفاع الأردني في فترة الاتحاد العربي.

أمّا الكويت فقصته مع العراق تاريخية وفي كل العهود. فالحدود العراقية الكويتية كانت وما زالت قضية مائعة بالرغم من اتفاق ١٩٧٣ حتى أيامنا هذه، وكذلك فإن الكويت وبالرغم من محاولاته الاستفادة من بعض المياه العراقية التي تصبّ في شط العرب لم تجد استجابة لذلك الطلب بما يحمّل الكويت تكاليف باهظة تصرفها في تحلية مياه البحر.

هذا وَقد وُجدتْ بعد الثورة خطة عراقية كاملة لاحتلال الكويت كان وضعها اللواء غازي الداغستاني بأمر من نوري السعيد، وما إن استقر الحكم لعبد الكريم قاسم حتى أعلن أن الكويت متصرفية عراقية ممّا أدى إلى حالة تأزم عربي.

لمواجهة موقف عبد الكريم قاسم هذا وبعد حشد قطعات من الجيش العراقي على حدود الكويت أرسلت بريطانيا قوات لحماية الكويت، كما أرسلت الأردن قوة من خيرة جيشها عبر الأراضي السعودية وتبعتها قوات سعودية ثم مصرية لتحل محلّ القوات البريطانية، وذلك بقرار من الجامعة العربية.

وقد تراجع عبد الكريم عن خططه أمام التصميم العربي الجماعي الذي كان أول الأعمال العربية لإيقاف السفاح عند حدّه وأصبح معزولاً عن الدول العربية عزلاً تامّاً بالرغم من قبضته الحديدية في داخل العراق، وقد أصبح أسيراً لأسلوب العنف

الذي سلكه وسجيناً باختياره في وزارة الدفاع ،التي قلّما خرج منها إلا لزيارة ما سمّي بحيّ الصيارفة وكلهم من الذين هجروا الريف إلى المدينة ليصبحوا من أنصاره .

والثورة التي انتظر العراقيون منها أن تكون انطلاقاً من القيود الأجنبية وعسف حكومة نوري السعيد انقلبت لتصبح نموذجاً للديكتاتورية وحكم الغوغاء والشعوبيين، إلى درجة جعلت الكثيرين يرون في الحكم السابق وعلى انحرافه نعمة ضائعة .

أصبح العنف والقتل الوسيلة الوحيدة للحكم وللمعارضة في العراق، وأدرك الذين قدّروا أنهم يستطيعون التعاون مع الحكم أي خطأ فاحش ارتكبوا، كما أدرك ضباط الجيش القوميون أن لا مناص من انقلاب دموي للخلاص من الظلمة التي خيّمت على حياة العراقيين .

لذا تكوّن تنظيم عسكري بقيادة ناظم الطبقجلي انضم إليه عدد عظيم من القادة والضباط الكبار والصغار في مختلف التشكيلات العسكرية، متربّصين الفرصة المناسبة للانقضاض على الحكم وإنهائه .

هؤلاء العسكريون كانوا على اتصال بالجمهورية العربية المتحدة وأسرارهم معروفة في دمشق وفي القاهرة، ويظهر أن الاتصال بهم كان موكلاً إلى عبد الحميد السرّاج.

وفي شباط ١٩٥٩ نظّم الشيوعيون العراقيون وأنصارهم اجتماعاً كبيراً حشدوا له من مختلف المناطق العراقية في مدينة الموصل وسموا الاجتماع بمسيرة (السلام) أو (الخير)، ولا أذكر تماماً أيّهما كانت التسمية. وعلى كل حال فإنها كانت مسيرة شرّ مستطير قاومها أهل الموصل. وفي الوقت نفسه جرت اتصالات من دمشق تحرّض العقيد عبد الوهاب الشواف على الثورة في الموصل دون الرجوع إلى الزعيم ناظم الطبقجلي، وأرسلوا له جهاز إذاعة من دمشق مع وعد بمساعدة من سلاح الجو في الجمهورية المتحدة إذا احتاج الشواف لها .

ثار الشواف بقواته وهاجم التجمعات الشيوعية المسلّحة، فسارع عبد الكريم قاسم بإرسال قوات عسكرية كبيرة وضعت الشواف في موقف الدفاع حتى غلب على أمره، وقاتل حتى كاد يقع في الأسر فأطلق النار من مسدسه على نفسه ومات منتحراً.

سقطت مدينة الموصل بيد الجماهير الشيوعية وأنصارهم وقوات عبد الكريم قاسم، والشواف يذيع البيانات من الجهاز الذي أرسلته دمشق ولا يصل صوته إلاّ لماماً لضعف الجهاز ومداه القصير .

وكان أول الذين وصلوا إلى الحدود السورية ضابط اسمه سعيد وقد أثخن بالجراح، ثم تتابعت أفواج من اللاجئين يصفون الكارثة في الموصل.

القتل الجماعي ومحاكم الجزارين (الجزارين مهنة) الذين يذبحون القوميين دون محاكمة، وتعليق الرجال والنساء عراة على مصابيح الكهرباء وكل ما لا يخطر على بال من أعمال الوحشية البربرّية التي لا يمكن أن تصدر عن أناس يعرفون للإنسان قيمة أو للإنسانية معنى. كل هذا من أجل الحكم الذي تمسّك به مجنون العظمة في بغداد الذي ذهب بعقله لقب الزعيم الأوحد.

وفي بغداد، وضباط التنظيم القومي في حيرة ممّا حدث من انفراد الشواف دون الرجوع إليهم، يعتقلهم عبد الكريم قاسم ويعذبهم ويمثلون أمام محكمة عسكرية تحكم عليهم بالإعدام وفي مقدمتهم الزعيم ناظم الطبقجلي، ثم يذهب عبدالكريم ليطلق النار على جثثهم بعد أن نفذ فيهم الحكم ليتأكد من موتهم.

أثناء ثورة الشواف كان عبد الناصر في زيارة لدمشق يوم ٨ / ١٩٥٨/٣، وقد اجتمع حوله المجلس التنفيذي في الإقليم الشمالي يتلقفون الأخبار من الحدود ومن وصل إليها من الموصل، والشعب في دمشق لا يدري عن مصير ثورة الشواف لضعف إذاعتها وانعدام وضوح البيانات.

وأخيراً جاء الخبر اليقين أن العقيد عبد الوهاب الشواف انتحر قبل أن يأسره الشيوعيون، وانتهت ثورته خلال ثمانٍ وأربعين ساعة.

في حوالي الساعة العاشرة ليلاً اتّصلت بأكرم الحوراني، فدعاني لزيارته في منزله وسألته عمّا جرى وعن سبب وجوده في منزله.

أكرم الحوراني الرجل الصلب كان يغالب الدمع وهو يصف القلق الذي خيّم على الحضور في قصر الضيافة مع عبد الناصر، حتى وصلت الأنباء المؤلمة عن مصير ثورة الشواف وعن خذلان الجمهورية العربية له وإغفالها ما تعهّدت به للشواف عن طريق عبد الحميد السراج الذي كان يتآكل ألماً. أكرم الحوراني سبّب لي صدمة لم أعانِ من مثلها في حياتي عندما روى لي أن عبد الناصر ما إن سمع بانتحار الشواف حتى طلب فيلماً سينمائياً ليعرض لتسليته والحضور، الأمر الذي حمله على مغادرة الجلسة وهو يكاد يجنّ من الغضب.

هل كان أحد يصدّق هذا لو نشر على الملأ أن عبد الناصر يَعِد ولا يفي بإرسال قوات خاصة وبمساندة جوية، ثم بعد انتحار الرجل الذي خرج على قيادته القومية في

الجيش إيماناً بزعيم الأمة العربية، يطلب فيلماً سينمائياً. لو أعلن عبد الناصر نفسه هذا النبأ لتصوروا بأنه يمزح. ولكنها كانت الحقيقة التي أكّدها لي مصريون من أقرب الناس إليه مع التفسير الذي لم يكن ليخطر ببال عربي .

قال لي محدّثي المصري ومن أكثر المسؤولين التصاقاً به، أن ثورة الطبقجلي المنتظرة كانت تملك كل إمكانيات النجاح، ولم يكن عبد الناصر يريد ثورة ناجحة تفرض عليه انضمام العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة .

لماذا؟ لأن مصر لا تملك الأجهزة الكافية لضبط العراق بالإضافة إلى سوريا !! ولأن انضمام العراق يعني غربة مصر بين السوريين والعراقيين الذين تجمعهم بيئة جغرافية وحدود متلاصقة . ولأن المصالح السورية الاقتصادية التي تتحقّق بانضمام العراق تجعل الوحدة بينهما حقيقية وبينهما وبين مصر صوريّة .

ومن هنا فكان لا بد من إجهاض ثورة الطبقجلي بما يمكّن لعبد الكريم قاسم والشيوعيين أن يذبحوا القوميين ويحمل السوريين على الابتعاد عن العراقيين الدمويين.

منذ تلك اللحظة كفرتُ بعبد الناصر ولم أكن مفتوناً به فتنة بعض القادة السياسيين والعسكريين العرب منذ لقائي السرّي معه سنة ١٩٥٤ في القاهرة . ومع ذلك فقد كنت وبكل ما أملكه من حرارة أتمنّى استمرار الجمهورية العربية المتحدة كنواة للوحدة العربية بعبد الناصر أو بغيره .

هذا وقد حملت في نفسي حقداً على الشيوعيين العرب الذين ابتهجوا بانتصارهم في الموصل، وفرحوا ببشاعة تصرفاتهم بتعليق عذارى الموصل عاريات على أعمدة الكهرباء والتليفونات بعد قتلهن، وأعمالهم التي فاقت أعمال الصهيونية في دير ياسين.

أقول هذا وأنا أعلم أن الكثيرين سيوجهون النقد لما أقول، ولكن لا أُبالي بما يقولون. فالعربي الذي يغفر للشيوعيين والشعوبيين العراقيين ما فعلوا في الموصل لا يخرج عن كونه منافقاً كاللاعب على الأحبال لا يصدق عروبته مهما ادعى بها .

وكل المتشدّقين بالتقدمية والنظريات العقائدية الذين يتحالفون يوماً مع الشيوعيين العرب، ويتخاصمون معهم على مصالح مرحليّة متناسين قصة الموصل لا يختلفون عن الذين يعتقدون أن الحلّ في الصراع العربي الإسرائيلي هو الاشتراكية .

الاشتراكية إذا لم يكن لها نموذج إلّا ما صنعته ثورة ١٧ أكتوبر ونظريات ماركس

ولينين، فبئست تلك الاشتراكية التي لا تختلف في أهدافها ومصالحها عن الإمبريالية والاستعمارين القديم والجديد .

إذا كان العقائديون العرب قد ارتكبوا، وباسم التقدمية، خطأ النسخ عن ماركس ولينين ما يسمّى بالاشتراكية بإغفال تعاليم ديننا الإسلامي أو ما يمكن أن يوصلنا الاجتهاد فيه من اشتراكية، فإن هذا لا يعني إلاّ تقليداً خرج العقائديون العرب فيه عن تراثهم الديني القومي .

وإذا كان العقائديون العرب في مسالكهم السياسيّة للوصول إلى الحكم أو الاستمرار فيه غير قادرين على استيعاب الأكثرية من شعوبهم إلاّ بأسلوب الحديد والنار، فإنهم لن يحققوا الوحدة التي ينادون بها. وعلى العكس فإن أسلوب القمع والتقتيل الشيوعي الذي يمارسونه من أجل الاستئثار بالحكم يجعل قبول الوحدة معهم في أقطارهم وخارجها أمراً مستحيلاً . وبالتالي فإنهم ينقلبون عملياً إلى أعداء للعمل الوحدوي في حين يتفاخرون بالكلام والشعارات أنهم جنودها المخلصين . وللحديث في هذا بقية .

حرب الشعارات

الصراع العربي مع الاستعمار في الوطن كله ومع الصهيونية في المشرق في عقد الخمسينات صادف مرحلة الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشرقي . هذا التصادف كان نعمة على العرب لأنه فتح لهم ثغرة كبيرة في الطوق الاستعماري الذي أحكمه الغرب على رقابهم . ووجد العرب فرصة ليروا من خلال تلك الثغرة أن في الدنيا قوة أخرى عجزوا في الماضي حتى عن تصوّر وجودها كمؤثر هام على مستقبل الدول في العالم الثالث .

عجزوا عن التصوّر لأسباب كثيرة منها الإغراق الإعلامي الغربي للعالم الثالث بتشويه الاتحاد السوفييتي والشيوعية العالمية، وتصويرهما وكأنهما الطوفان الذي سينهي الإنسانية وأخلاقياتها عن وجه الأرض ليحلّ محلها عبادات لقيم لا قبل للبشر أن يتعايشوا معها. ورسخ في أذهان جماهير عظيمة أن الشيوعية لا تقتصر على إلغاء الملكية الفردية والحريات فحسب، بل تتعدّى إلى شيوع العلاقة بين الرجال والنساء وسلب الأطفال من أبويهم ليصبحوا أطفال الدولة .

وعجزوا عن التصوّر لأن الغرب المستعمر ملك العلاقات بين دول العالم الثالث ووضع حواجز لحدود تلك العلاقات، حتى عندما تكون دولة غربية متنافسة مع دولة غربية أخرى في بلد مستعمر أو في منطقة مستعمرة .

العرب كرهوا الاتحاد السوفييتي بسبب كراهيتهم للشيوعية، لأنها مذهب إلحادي من ناحية واشتراكي من ناحية أخرى وجمهوري سبباً ثالثاً. ولذا فإنهم استبعدوا أي صلة مع روسيا وفضّلوا التعامل مع الغرب إن صراعاً أو تفاوضاً أو تعاملاً .

وكرهوا الاتحاد السوفييتي والشيوعية بسبب أمميّة المذهب، وهذا المانع بالإضافة إلى الموانع السابقة أدّت إلى التصاق العرب بالغرب الذي لا ينكر الدين طالما لا يفجر عليه ثورة ولا يحارب الإعلان القومي طالما لا يتحول الإعلان إلى قوة مناهضة لهم .

ففي المغرب العربي كان الإسلام القوة المحرّكة لثورات التحرر والعروبة يتفاوت أثرها في ذلك بين قطر وآخر، بينما اختلف الأمر في المشرق حيث كان الإسلام والعروبة مقترنين في خلق ظروف وقوى الثورة على العثمانيين ومن ثم على بريطانيا وفرنسا .

وسبب هذا الاختلاف بين المغرب والمشرق هو قلة المسيحيين العرب في المغرب وكثرتهم في المشرق وغياب كل دواعي الخلاف بين المسلمين والمسيحيين في كل العهود، حتى في فترة الحروب الصليبية حين أخذت العصبية العربية المسيحيين لمحاربة الصليبيين الأجانب .

فضلاً عن ذلك فإن المسيحيين العرب ساهموا في الثورة العربية الكبرى بالفكر والعمل، وقاوموا المستعمر الغربي إلى جانب المسلمين في كل أقطار المشرق انطلاقاً من الوحدة القومية .

ومن هنا فإن التفاوت بين الشيوعية والاستعمار في النظرة للدين والقومية في الدول الضعيفة كان كبيراً. فالشيوعية التي قهرت المسلمين في بعض دول آسيا الإسلامية في فترة التوسع تمثّل عملها بعمل روسيا القيصرية وأعمال القهر البريطاني والفرنسي في العالم الثالث كلّه.

ودعوة الغرب لضرورة محاربة الإلحاد لم تمنع محالفتها لروسيا الشيوعية في صراعها مع النازيّة، وبالتالي فإن العالم القوي استخدم معايير متعدّدة تختلف في كل حالة عن حالة أخرى وتفرض ازدواجية تخالف صحّة العقل والمنطق .

ولما كانت معظم الأنظمة العربية ملكية فإنها حيثما قاومت المستعمر الغربي لم تدخل في اعتبارها الاستفادة من التنافس بين المعسكرين، حتى لا تخلص من مستعمر يعترف بالنظام الملكي ويتعامل مع مستعمر آخر ينكر النظام الملكي .

وبالرغم من القيود الماديّة والنفسيّة التي حالت دون الاتصال بين العرب وروسيا أو الشيوعيّة، إلاّ أن أفراداً درسوا في أوروبا وفرنسا بشكل خاص وآخرين اختلطوا بشيوعيين يهود في فلسطين اعتنقوا المذهب الجديد وشكلوا نواة الأحزاب الشيوعية العربية .

ومع استقلال سوريا أصبح الحزب الشيوعي ينتشر في سوريا ولبنان، كما صار له وجود في مصر والعراق أخذ يتنامى بعد الحرب العالمية الثانية. ورفعت تلك الأحزاب شعارات السلام في حين كان الاتجاه العربي العام صريحاً في شعارات التحرّر من الاستعمار والوحدة العربية .

لو أخذنا بالتحليل منابع الاتجاه العربي لوجدناه في أصوله الحديثة مرتبطاً بالثورة العربية الكبرى وما تمثّله من رفض للتجزئة وتعلّق بالاستقلال والحرّية، وفي أصوله البعيدة بقدسية الجهاد الذي فرضه الدين الإسلامي وإخلاص العرب المسيحيين لأوطانهم والمسيرة العربية بشمولها .

ولمّا ظهرت الحركات القومية الحديثة، وقد تشرّبت نظرات اجتماعية جديدة، أضافت إلى تراث الثورة العربية الكبرى اجتهادات ترتبط بين حرية الشعب وحقوق الإنسان الفرد. هذه النظرات جاءت من اطّلاعات على حياة المجتمعات في الدول الراقية أو من دراسات للاشتراكية، ومحاولات للجمع بينها وبين أهداف التحرر والوحدة بما يحفظ التركيز على الوجود القومي ويخفّف من أثر الدين على ذلك الوجود .

هذه النظرات والتطلّعات الجديدة حملت معها تعابير سياسية جديدة، من أبرزها وصف للأنظمة العربية القائمة بأنها رجعية وتمييز للأنظمة المرتجاة بوصف التقدمية.

ولمّا كسرت الثورة المصريّة الطوق الغربي واتّصلت بدول الكتلة الشرقية كما فعلت سوريّا أيضاً، قام وضع جديد على الصعيدين الدولي والعربي والشعبي. وبمقدار تزايد حدّة الصراع العربي مع المستعمر الغربي ازدادت العلاقات العربية في مصر وسوريا اضطراداً مع الكتلة الشرقية، ممّا أدّى إلى تقارب بين الأحزاب القومية والشيوعية واختلاطات أو نزاعات بينهما على أساس ازدواجية المسالك المرحلية.

الاتجاه القومي الجديد افترض ضرورة تحالفه مع الأحزاب الشيوعية في مجالين :

١ ـ مواجهة السيطرة والمؤامرات الاستعمارية .

٢ ـ مقاومة الأنظمة التقليدية على أساس أنها رجعية لا تصلح لصناعة المستقبل العربي .

وافترض كذلك أنه وبالرغم من تعاونه على ما تقدّم مع الأحزاب الشيوعية أن هذا التعاون مرحلي وسينتهي بتصادمه مع الشيوعيين. لذا فإنه عمل على دخول التنافس مع الشيوعيين في حلبة استقطاب الجماهير .

الشيوعيون من الناحية الأخرى استغلّوا الحاجة العربية إلى الاتحاد السوفييتي في الخمسينات لينشطوا في طرح أفكارهم المناهضة للأنظمة الرجعية، على حد التعبير الجديد، ومزاحمة الأحزاب القومية والدينيّة بطرح الاشتراكية الماركسيّة وحتمية انتصارها في العالم الذي قسّموه أفقيّاً إلى طبقية، ينحصر الصراع فيه بين الاحتكاريين والكادحين وعمودياً إلى دول استعماريّة وأخرى اشتراكية تدعو إلى السلم العالمي .

ثورة مصر استعارت تعابير قوميّة من البعثيين وأخرى اشتراكية من الماركسيين؛ ولمّا لم تكن للبعث دولة بعد، فقد نقل من التجربة الروسية نماذج تطبيقية لأسلوب تنظيم الحكم ومعالجة رأس المال ووسائل الإنتاج .

ولكن المثقفين العرب القوميين، سواء الاشتراكيين منهم دون فكر عملي ناضج في الاشتراكية، أو الليبراليين الذين وجدوا في بعض الأنظمة الرأسمالية الأوروبية أمثلة بديلة، دون اجتهاد كافٍ في تطويرها لتصلح للوطن العربي، وقفوا عند التجربة التطبيقية المصرية .

البعثيون وبعض اليساريين من القوميين العرب اعتبروا تجربة مصر متقدّمة على فكرهم ومنهاجهم النظري، والليبراليون اعتبروا تلك التجربة اتجاهاً خطيراً يؤثّر على التقدم الاقتصادي العربي بقتل الحوافز الفردية .

مصر من وجهة نظري تُمثّل حالة متفرّدة من الحالات العربية اجتماعياً واقتصادياً، وإذا تماثلت معها حالة دولة عربية أخرى فإن التماثل ذلك يصل إلى حدود محدودة لا تبلغ الشمول.

ومعاناة الملايين من الشعب المصري من الفقر واستغلال ذوي السلطة والنفوذ له، واحتكارهم لثروات الوطن المصري بالشراكة مع الأجنبي، لم تكن تشكل حالة عربية عامّة بالرغم من احتكارات في الوطن العربي لا ينكرها أحد .

الوطن العربي بيئات سياسية واجتماعية واقتصادية لا يجمعها تماثل كامل، ولكن يجمعها مصير أمني واحد وحاجة تحررية ووحدوية واحدة.

أثناء الخلاف بين عبد الناصر وخروشوف قال الثاني إنه أسهل على العرب التقدميين أن يبلعوا ملايين الأطنان من الملح من أن يتوصلوا إلى مفهوم مشترك مع الكويتيين. لقد اختار خروتشوف الكويت بشكل خاص لعظم دخلها الوطني مع قلة من السكان.

وطبعاً فإن أحداً من العرب اشتراكيين أو ليبراليين، وبالرغم من آرائهم المتجانسة أو المختلفة، لم يكن يرى رأي خروتشوف الأجنبي الغريب فكراً وانتماءات.

وعبد الناصر وفي أشد حالات حدّته في الهجوم على السعودية والأردن وغيرها من البلاد التي قاومت نفوذه، لم يقبل من خروتشوف نظرياته السياسية في الوطن العربي في فترة انفتاح الشهية السوفييتية على العراق أيام حكم عبد الكريم قاسم.

إلّا أن حرب شعارات قامت بين العرب، وخصوصاً بعد أن صادرت الثورة المصرية كل وسائل الإنتاج في مصر، وحذت حذوها سوريا كجزء من الجمهورية العربية المتحدة ثم تبعها العراق بعد الثورة.

دول الثورة وجماهيرها أطلقت على نفسها وصف التقدّمية وسمّت الدول الأخرى ومعظمها ملكية دولاً رجعيّة. ودول الثورة اختلفت في ما بينها على الألقاب والأوصاف، ومع أنها اجتمعت على حكم الفرد أو الحزب إلّا أن خلافاتها حملتها على التنابذ ودمغ كل واحدة منها الثانية بالديكتاتورية.

دول الثورة فسّرت الديموقراطية والحريّة بأنها ضمان كرامة العيش للطبقات الكادحة، على أساس إيمانها أن الارتفاع بالوضعين الاجتماعي والاقتصادي للملايين هو الحريّة الحقيقية، وأن التفاف تلك الملايين على الخيار الذي يقدّمه الحكم يجعله الخيار الوحيد.

ولذا وجدنا أن القائد في الدولة الثورية يحظى دائماً بـ ٩٩,٩٪ من أصوات الناخبين للرئاسة التي لا يتنافس عليها اثنان.

فالقاهرة رأت في عبد الكريم قاسم أنّه سفّاح وديكتاتور وشعوبي. هذا ما وصل إليه عبد الكريم فعلاً من ممارسات بعد فترة من حكمه. ولكن لا بدّ أن نتساءل في ما إذا كنّا نحن القوميين قد ساهمنا منذ الأشهر الأولى من حكمه لينشر غلواءه كسفّاح وديكتاتور وشعوبي !!.

ثم نأتي إلى الدول التي أطلق عليها لقب الرجعية ونتساءل في ما إذا وعى كل من نطق بالتقدمية والرجعية في الحديث والجدل السياسي معنى هاتين الكلمتين، أو

أنه ردّد كالببغاء ما أطلقه قادة الدول الثورية في فترة الخصومات .

وبعد هذا نتساءل في ما إذا كان المنظِّرون السياسيّون في الدولة أياً كانت الدولة قد درسوا مزايا الجمهورية ومزايا الملكية كنظامين موجودين في العالم. وهل ذهب المنظِّرون في تفضيل هذا النظام أو ذاك إلى فهم تاريخ التكوينات الاجتماعية في قرون بعيدة بمعطيات كل قرن وتمايز الحركة الإنسانية بين قرن وما يليه، وتجدُّد وتطوّر الأنظمة والمفاهيم للمجتمعات وحكام تلك المجتمعات؟

وبالتالي وبغض النظر عن النظام ملكياً أو جمهورياً، أوَليس الأجدى النظر في نظام في دولة ما وأوضاعه الاجتماعية والعلمية والصناعية والزراعية وظروفها السياسية الداخلية والخارجية قبل الحكم على صلاحه أو سقوط صلاحيته؟

فرنسا ثارت على الملكية وأنشأت جمهورية وكذلك روسيا وعلى سبيل الأمثلة، ولكن بريطانيا والسويد والدانمارك وهولندا وغيرها لا تزال ترى في ملكياتها نظاماً أمثل لها .

لو أقمنا ثورة على ملكية في وطن يعاني صعوبات داخلية وخارجية لا يملك الملك فيها الوسائل لمعالجتها، فهل يمكن للجمهورية الثورية أن تصلح أحوالها وبالوسائل نفسها التي توفّرت للنظام السابق؟ .

وكذلك لو غيّرنا نظاماً جمهورياً بمَلكيّة في دولة مماثلة فهل سيغني اسم الملكية لوحده لسد ما عجزت عنه الجمهورية. وبالتالي هل صدرت حرب الشعارات العربية عن حمّى الصراع مع الاستعمار متزامناً مع نظريات وشعارات، بعضها صالح وبعضها رديء، التصقت بحكم الاتصال مع حركات وأنظمة عالمية، نتماثل بعض الشيء مع حالاتها وحاجاتها ولكننا نختلف أكثر الشيء عنها .

سوريا ولبنان أقدم جمهوريتين عربيتين في الوطن العربي وقد أصابتا تقدماً علمياً وصناعياً واستقراراً في أوضاعهما الاقتصادية مع تخلف في المناطق البعيدة قليلاً عن العواصم. والحكم فيهما ديموقراطي إلى أبعد ما تسمح به الخيارات الشعبية وقدرة تنظيماتها السياسية على الاختيار .

إلا أن نفاذ المخابرات المركزية الأمريكية في أول تجاربها في الشرق الأوسط إلى حسني الزعيم ورهطه، أدخل السوريين في مرحلة ظهور العسكريين على الساحة السياسية بما أفسد حياتها، ووضع دور التنظيمات السياسية القديمة والجديدة في خدمتهم وظهور الديكتاتورية العسكرية كبديل مقبول من الديموقراطية البرلمانية .

ومع مرور سنين قليلة أدت حالة الاضطراب العربي ومداخلات أمريكا وبريطانيا وفرنسا إلى صراع في لبنان كان الدور العربي فيه ثانوياً ومؤقتاً .

الدساتير العربية جميعها تقريباً تنصّ على الديموقراطية وتمثيل الشعب، سواء كان النظام جمهورياً أم ملكياً، وتكفل أيضاً بالنص الحريات للمواطنين. إلاّ أن الديموقراطية والحرية التي وصفها فلاسفة العالم القدماء والحديثون تحمل معنى واحداً، ولكنها في العالم الثالث والوطن العربي تحوّل ذلك المعنى الإنساني ليفسّر رغبة الحاكم بالقدر الذي يريد أن يمارسه من السلطة نيابة عن المؤسسات الدستورية، معتمداً على قوى الجيش والأمن ومرتكزاً إلى أسباب تنافي الديموقراطية والحرية .

أصبحت الحرية شعاراً لا حياة والديمقراطية دعاية لا معنى لها، وتعدّدت أوصافها بين أنظمة وأخرى تصل في معظمها إلى ٩٩,٩٪ من تزوير إرادة الشعب لمصلحة الحاكم .

الحرية معنى سام شوّهته عوامل الخوف والتنازع بين الحكام العرب منذ أن خرج الثوار منهم على أكثر ما اعتقدوه قبل الاستيلاء على الحكم، ومنذ أن تشيّع الشعب متعلقاً بآمال الوحدة التي خانها أكثر دعاتها. وكذلك التحرير الذي انقلب إلى حدود قطرية دون فلاح منذ أن تعالت أصوات الأنظمة العربية المتصارعة بالمزاودة عليه، متزامناً مع ممارسة إماتة وحدة الفهم للتحرير عند جماهير الأمة .

كل حركة عالمية وفي مقدمتها الإسلام والمسيحية سلكت طريق النضال والمعاناة المريرة لتصل إلى ضمائر الشعوب وترتضيها ديناً وأسلوب حياة لا عوج فيهما، إلى أن تكوّنت في عالم الإسلام دول عديدة وفي عالم المسيحية دول عديدة تنافست في ما بينها، وتصارعت بما حرفها عن المبادىء القدسية بدرجة أو بأخرى لأن الأولويات تغيّرت مكاناتها .

ومع عدم صحّة القياس كلياً فإن حَمَلَة الدعوات العربية الحديثة لم يلتزموا بطبيعة ومقتضيات ما نادوا به دعوة وما ألزموا الشعوب به قهراً، وخلطوا بين المبادىء والنزعة إلى السلطة بحيث تاهت المبادىء في خضم الصراع على السلطة .

والإنسان يتساءل دائماً عن الأفضل الذي كان يمكن تحقيقه بانتشار الدعوة لمبدأ الوحدة والالتزام بها لتصبح حقيقة تعيش في ضمير الجماهير وواقعاً أنضجته الحركة الموزونة، مقابل ما حققته النزعة إلى القسرية في تطويع الأمة إلى مفاهيم تجزأت إلى فلسفات ابتدعها الحكام الجدد لتجعل التجزئة في الوطن العربي نظام الحياة العربية .

السوريّون القوميون نادوا بسوريا الكبرى، والبعثيون ومعهم القوميون العرب نادوا بوحدة من المحيط إلى الخليج، والإخوان المسلمون طالبوا بوحدة العالم الإسلامي، والشيوعيون بشّروا بحتمية انتصار الشيوعية لتشمل العالم كله وأصيبت كل أعمالهم بالإحباط .

وثورة مصر وما تبعها من ثورات اندثر كل ما رفعته من إعلانات. والأنظمة التقليدية وجدت نفسها تتصرف وكأنها ثورات، وعرف الإنسان العربي حدوداً جديدة فرضتها عليه وقائع تنازع الأنظمة فأخرجته عن أهدافه وأخلاقياته بضياع المثل والقياس .

وهكذا صار الشعب قطعاناً خائفة، والجُند شعباً مُسيّساً والحاكم يخشى هؤلاء وأولئك ولا يجد وسيلة لبقائه إلاّ بخلق موازين استقرار بقائه، وإلاّ في تصليب القطرية في مواجهة قطرية أخرى إلى درجة صار إليه اعتبار الجامعة العربية منتهى المطاف في قضية الوحدة .

حرب الشعارات والإعلام أوصلت الإنسان العربي إلى اليأس، وأوصلت الحاكم العربي إلى فقدان الثقة، فذهبت إنجازات الاستقلال العربي من سيطرة الأجنبي وكأنها لم تكن .

وغدت آمال التحرير لتصبح أسيرة الوهن والاستسلام. والأجيال الناشئة فقدت أسباب الحرارة وأُدخلت في متاهات الجهل بتاريخ أمته وأمانيها، دون أن يترك جيلنا لها بقية من أمل تتعلق به في مرحلة الهيمنة الاستعمارية والصهيونية الجديدة إلاّ الحجارة .

الفصل الثاني عشر
من انفصام الوحدة المصريّة السوريّة إلى مؤتمر القمة الثاني

الانفصال

منذ البداية من أيام الوحدة، عمل عبد الناصر على استبدال مراكز القوى السياسية بالعسكريين في سوريا، تمشياً مع الوضع في مصر التي جاء الحكم فيها عسكرياً بحكم ثورة الجيش.

ثم خطا الخطوة الثانية وهي إنهاء دور الأحزاب كلّها، سواء من رضي منها بحلّ ذاته ومن بقي يعارض الحلّ. الأحزاب القومية جميعها قبلت الحلّ ثمناً لهدف الوحدة العظيم، وتنافست جميعها لخدمة دولة الوحدة كأفراد تربط فئات منهم زمالة السنين في خطٍ سياسي وعقائدي.

ولكن عبد الناصر لم يكن ليقبل أعضاء الأحزاب شِللاً مترابطة متقاربة، بل أرادهم أفراداً وكأن لم يكن بينهم صلة سابقة، وكان هذا مستحيلاً.

هذه الوضعية تختلف عن الوضعية المصرية من رجال الحكم الذين وإن جمعت بعضهم صداقة، إلاّ أنهم في النهاية مكلّفون أفراداً مهما كانت مناصبهم ويرجّحون رأي الرئيس على آراء بعضهم البعض.

فضلاً عن ذلك فإن إنهاء الحزبيين من خدمة الجيش، وإن لم يكن إنهاءً كاملاً، فقد جعل قادة الأحزاب السابقين يرون في مجمل سياسة عبد الناصر اتجاهاً للقضاء على حلفائه الذين جعلوا الوحدة ممكنة، وتسليماً لمن لم يكن لهم وجود قبل الوحدة أو بعدها في السياسة أو الجيش.

ولمّا كان عبد الناصر يُلحّ في خطبه على شجب الأحزاب والحزبيين، فإن قادة الأحزاب السابقين، وهم صنّاع السياسة السوريّة إلى فترة قبل الوحدة، اعتبروا هذا الشجب تنكراً لهم وتشهيراً بهم.

كان في سوريا مجلس تنفيذي توالى على رئاسته أكرم الحوراني ثم نور الدين كحالة لفترة قصيرة، إلى أن وصل إلى ذلك المنصب عبد الحميد السراج، الأمر الذي أثار خواطر بعض العسكريين في المجلس التنفيذي ممن اعتبروا أنفسهم أعظم أهمية منه، وأثار مخاوف الزعماء السياسيين من أسباب هذا التعيين .

عبد الحميد السراج اعتبر نفسه منفِّذاً لسياسة عبد الناصر ووكيله في سوريا، فأخذ يراقب الحزبيين السابقين من كل الاتجاهات السياسية السابقة واستعمل بعضهم على بعض حيثما استطاع. وذهب إلى أبعد من هذا بأن مارس ضغوطاً على حزبيين عراقيين وأردنيين، فقرّب بعضهم واستبعد آخرين وأثار الشكوك في ما بينهم حتى أن وصل بنفوذه إلى داخل الأحزاب في الأردن والعراق .

وزاد نشاط مكاتب الاستخبارات في سوريّا ونفوذهم، إلى درجة أن أصبح الكثيرون منهم يجمحون بتصرفاتهم إلى أبعد ممّا هو مفروض فيهم .

وعندما أعلن عبد الناصر قرارات التأميم ذهب المجلس التنفيذي في تطبيقها إلى درجة تأميم المتاجر لأنها مسجلة باسم (شركة فلان وأولاده)، مع أنها متاجر لا توازي شيكوريل وأمثالها في القاهرة. وفي حالات كثيرة جداً كانت تعسّفية وجائرة على أصحاب المصانع الحرفية الصغيرة وأمثالهم.

وجد السوريون أنفسهم يُحكَمون من فئة عسكرية ومخابرات لا تعتبر قانوناً أو عُرفاً أو تقليداً، وزاد على ذلك كثرة الخبراء المصريين في بعض الوزارات والجيش، ممّا جعل السوريين ينظرون إلى ما يجري بالحيرة والدهشة .

لعلّ عبد الناصر أخذ بشعبيته الهائلة في سوريا، وفي أول زيارة له لدمشق حيث بات ما يقارب نصف مليون سوري لثلاثة أيام ولياليها في منطقة قصر الضيافة للاستماع إليه ورؤيته، حيث احتشدوا عفوياً وبدون أي دعوة من السلطة. فقد كان الشعب السوري مسحوراً بعبد الناصر وأعماله بخاصة في أسلوب مخاطبته للجماهير والذي أتقنه أيّما إتقان .

واعتقد عبد الناصر أنه بهذه الشعبية قادر أن يقلب كل موازين العلاقات في سوريّا رأساً على عقب، وبالطريقة التي اتبعها في مصر، وفاته أن سوريا ليست مصر .

في مصر، الولاء والإطاعة أمران طبيعيان أما في سوريا فإن الاتفاق هو أساس العلاقة بين الحاكم والمحكوم. وتطويع الشعب السوري تطويعاً كاملاً يتطلب إخضاعه للحديد والنار، وفي هذه الحالة تخرج الأمور عن طبيعتها في العلاقة بين الحكم والشعب .

أحد الوزراء المصريين وهو أستاذ سابق في الجامعة فسّر الفرق بين الشعبين المصري والسوري بما يلي :

سكان السهل طبيعتهم سهلة وسكان الأراضي ذات التضاريس المختلفة طبيعتهم صعبة. فنحن المصريين انتظمت حياتنا كانتظام عطاء النيل والحاكم هو الذي ينظّم الريّ للزراعة التي تشكل طعام الملايين ولذلك فإننا شعب سهل الانقياد. أما السوريون فطبيعتهم صعبة مثل أراضيهم ومزاجهم متقلب مثل الأمطار التي قد تفيض سنة وتضنّ أخرى، وما يصلح للمصريين من أسلوب تعامل لا يصلح للسوريين. وضرب الوزير المصري مثل معاوية بن أبي سفيان في حكمه .

ربما أصاب الوزير برأيه أو أخطأ ولكني أعلم أن الشعب أي شعب قادر أن يحبّ يوماً ويكره يوماً آخر إذا وجد سبباً، وأن استكانة الشعب لا تُظهر حقيقته خاصة إن كان مُكرهاً.

والشعب عامة تتكون آراؤه من طلائعه، فإذا أنكر حاكم تلك الطلائع في سبيل إخراج الأمور عن طبيعتها في علاقة الحكم بالشعب، فإنّما يضعف نفسه أكثر مما يقوّي وجوده .

كان فريق البعث من البعث العربي الاشتراكي أول من نقض اتفاقه مع عبد الناصر، بحجّة أن عبد الناصر حكّمَ العسكر في سوريا وأطلق يد المخابرات لمطاردتهم، وعاد كـل من ميشيل عفلق وصـلاح البيطار إلى إعـادة تنظيم الحـزب في سوريـا.

أكرم الحوراني زعيم الفريق الآخر، وأقوى رجال سوريا في التصدي لعبد الناصر وهو نائبه، عارض ميشيل وصلاح في ما ذهبا إليه باعتباره أن عملهما يعني قطيعة نهائية بينهم وبين عبد الناصر بما يشجع فئات أخرى على تشويه الوحدة .

حزب القوميين العرب استمرّ بالتصاقه بعبد الناصر ووكيله عبد الحميد السرّاج، ووقفوا من التكوين البعثي الجديد موقفاً عدائياً شجّعهم عليه كل من عبد الناصر والسراج، ولم يدُر في خلدهما أن حزب القوميين العرب سيُعاد تجميعه بحكم طبيعة مهمة قادته لمساندة العهد.

الشيوعيون والإخوان المسلمون وزعامات سياسية عديدة لم يروا في الوحدة مكسباً لهم، كما وأن أصحاب الثروات والإقـطاع كانوا سلفاً أعداء للوحدة وعبد الناصر وحلفائه بحكم أنه سلبهم كل ما يملكون .

ومع أن الحديث عن مساوىء الحكم كان ديدن أهل المدن في سوريا، فإن الشعب في الأرياف كان متعلقاً بعبد الناصر لبعده عن مراكز تكوين الرأي ولما أصابه من مكاسب الإصلاح الزراعي.

السياسيّون في سوريا، ومع تعالي نغمة الانتقاد، بدأوا باللائمة على عبد الحميد السراج ورهطه والوزراء العسكريين بصفتهم رجال عبد الناصر وبطانته. ومع تفاقم الانتقاد واتساع قاعدته صارت اللائمة تُلقى على عبد الناصر نفسه. هذه سُنّة عربية معروفة إذ يبتدىء الحديث عن البطانة والوزارة ثم ينتقل الحديث إلى مسؤولية الذي حمل البطانة والوزارة إلى مناصب المسؤولية. وهي سُنّة لا تكاد بوادرها تظهر حتى تنذر بالخطر.

عبد الحميد السرّاج كان رجلاً ذكياً ولكنه لم يكن سياسياً، ومسلكه في الجيش كمدير للاستخبارات العسكرية والمدنية جعلت نظرته إلى الحكم قريبة إلى القسوة في كل تصرفاته الإدارية مع التطرف في أحكامه على من يتوجّس فيهم عداءً للنظام. وكذلك كان بعض العسكريين الوزراء من زملائه قساة في تقييم الناس ويخلقون أجواء من الخوف بدلاً من الطمأنينة. وقد سمعته وغيره يقولون «فليفنَ نصف الشعب السوري ليظل النصف الباقي نظيفاً». مثل هذه العبارة لا يطلقها قادة مسؤولون لأن للشعب حقّاً أعظم من أشخاصهم ومسؤولياتهم، ولكنها تدلّ على ذهنية ضيقة وعاجزة عن استيعاب الشعب دون التفكير في إذلاله.

إلّا أن الحكم الفردي أياً كان صاحبه ومهما تعاظمت أعماله واتسعت آفاقه لا يجد لاستمراريته وسيلة إلّا رجالاً يضعون السيف في غير موضعه والحكمة في غير موضعها. وعندما تتكوّن لهؤلاء مصالح سياسيّة ومراكز قوة، تصرفوا وكأنهم قدر أبديّ لا بديل له ولا مثيل له.

هذا لا يعني أن السوريين كانوا أنبياء وليس فيهم مخطىء أو حاقد على النظام أو متشكّك في صلاحيته لحفظ الوحدة. ولا يعني أن السلطة غير مسؤولة عن الحفاظ على أمن وصحة الدولة، ولكنه يعني أن الحكم إذا صار إلى العسكريين فسدت المقاييس والموازين.

في العالم الثالث والوطن العربي منه حيث لم تستقر قواعد سياسية واجتماعية واقتصادية وقوالب إدارية يسودها القانون، فإن حكم العسكريين شأنه شأن حكم الحزب الواحد ينجح في نواحٍ ولكنه يدمر الحريّة ويعتدي على مسيرة التطور الطبيعي والصحي للمجتمع ليحلّ التآمر للوصول إلى التغيير محلّ الديموقراطية والشرعيّة.

الوحدة بين مصر وسوريا كانت عملاً تاريخياً عظيماً، وقد قامت وبشرعية كاملة ومرّت إجراءاتها بكل الخطوات الدستورية للبلدين، فضلاً عن التأييد الشعبي في البلدين والتأييد العربي العام المنقطع النظير. إلاّ أن ممارسات حكم الوحدة جاءت بما لا يكفل لها الضمانة الكافية للاستمرار .

كان الإلغاء لكل ما هو قائم في سوريا من تاريخ ورجال هدفاً واضحاً من أهداف عبد الناصر، إلى درجة أن أحـد تعليقات صوت العرب وصف شكري القوتلي وحزب الكتلة الوطنية بورثة امتيازات الاستعمار الفرنسي في سوريا .

نهج الإلغاء هذا ذهب إلى مدى تصوير أن التاريخ العربي والحركة القومية العربية ولدت يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأن كل ما قبل ذلك اليوم لا قيمة له. وكان طبيعياً أن يثير هذا الادعاء السوريين والعرب اللاجئين في الجمهورية العربية المتحدة .

فقيام الوحدة نفسها كان نجاحاً هائلاً جديداً لعبد الناصر، ولكنه كان عملاً سورياً حرّكته القيادات والشعب في سوريا بينما كان الشعب المصري متلقّياً للحدث العظيم دون فعالية فيه. وإذا كان السوريون هم حملة لواء الوحدة فلأنهم كانوا وعرب المشرق يجدّدون انتماء للوحدة العربية التي ساهموا في النضال من أجلها في الثورة العربية الكبرى. السوريـون وصـلوا مـا انقطع من أمـاني الأمـة بعد الثورة العربية ومـع مصـر دون دول المشرق، لأن الأحـداث فتحـت لهم السبيل إلى مصـر. وذلك السبيل مهّده عبد الناصر بأعماله العظيمة.

الإلغاء للحاضر والماضي القريب لتاريخ شرق السويس مع إحياء التراث الفرعوني مثّلا اتجاهين متعاكسين في أذهان العرب.ومع أن مصر لا يُعاب عليها الاهتمام بتاريخها الفرعوني القديم وآثاره ومنها تمثال رمسيس، فإن التاريخ الإسلامي والعربي الماضي فيهما ما يمكن لمصر أن تخلّده لو أرادت ما هو أعظم من الحضارة الفرعونية وأبرز من ملوكها .

وإذا أرادت الثورة المصرية أن تمسح من التاريخ الثورة العربية الكبرى وثورة فلسطين وثورة المغرب والجزائر وليبيا والسودان وسوريا لتصبح هي نقطة بدء التاريخ العربي التحرري الحديث، تكون بهذا اقترفت عدواناً على حركة التاريخ في المشرق والمغرب بما لا يخدم غرضاً .

فثورة عرابي التي يحترمها الجميع لم تكن تعادل أكثر من شرارة من نيران الثورات العربية تلك. وثورة ٢١ يوليو كتب لها النجاح في حين فشلت سابقاتها، لأنها

جاءت في أعقاب الحرب العالمية الثانية وفترة تراجع قوة الاستعمار القديم واشتعال الضمير العربي لمساندة ثورة مصر .

فالحركة العسكرية التي أطاحت بفاروق لم تكن أكثر من انقلاب عسكري سلمي جاء في الوقت الملائم، والعمل الثوري الهام الذي تمثّل في تأميم قناة السويس وما تبعه من عدوان ثلاثي، ساعد على انتصار مصر فهما الموقفان الحاسمان للاتحاد السوفييتي وأمريكا وتأييد العرب الذي لم يسبق له نظير. هذا في حين أن الثورات العربية التي سبقت ٢٣ يوليو لم يتوفر لها أي ظرف إقليمي أو عالمي مماثل ليحول دون قمعها أو تقييدها بما يعجزها عن بلوغ أهدافها .

هذه بعض من أحاديث كانت تدور بين العرب عندما بدأت أحوال الوحدة تتردّى ولا ينصت عبد الناصر ومساعدوه لأي رأي أو نصيحة.

ولما تعاظمت قوى المعارضة السوريّة لأسلوب تسيير الوحدة لم يكن عبد الناصر كمعاوية بن أبي سفيان، ولكنه وصل اللاذقية ليخاطب السوريين بلغة الحجاج بن يوسف الثقفي وذهب ليقول إنه سيدوس رؤوسهم بالأقدِام؛ رؤوس القيادات السورية !.

في هذه الزيارة لم تتحشد الجموع السورية لاستقباله عفوياً أو طوعياً، وإنما جلبوا إلى الساحات في العواصم بالحافلات العسكرية وعن طريق المحافظين وقادة الشرطة ليصفقوا لعبد الناصر دون حماس واضح .

في اللاذقية وحلب ثمّ حماه حيث اصطدم أتباع أكرم الحوراني مع الشرطة وسقط قتلى وجرحى ففضّل عبد الناصر أن يبيت في دمشق بدلاً من حماه .

حشد عبد الحميد الطلاب والجماهير من ضواحي دمشق وحوران والعمال من المصانع لاستقبال الرئيس إلاّ أن حماسة الحشود كانت فاترة. وزاد في الطين بلّة أن الرئيس أعاد خطبته في اللاذقية في جماهير دمشق ووقف أنور السادات ليخطب ويقول « مُرْنا يا سيدي الرئيس وسوف ندوسهم بالأقدام » .

في اليوم نفسه هاتفني الأستاذ حسنين هيكل وزارني ليستفسر عن رأيي وما أراه من أمور الوحدة، وأدركت أنه مكلّف من الرئيس عبد الناصر الذي بلغه رأيي قبل أشهر عن الممارسات الخاطئة ونتائجها المنتظرة .

كنت ربما الوحيد من خارج الجمهورية المتّحدة الذي جاهر برأيه في دمشق

والقاهرة، وسبّبت لي صراحتي بعض المتاعب فضلاً عن انزعاج عبدالناصر منّي ولكنه في زيارته الأخيرة هذه لدمشق تذكّرني .

قلت لحسنين هيكل إن الأوضاع النفسية في سوريا وصلت من طريقة الإدارة لسوريا إلى درجة الانفصال، وأنا شخصياً خلافاً لكل الآخرين أحمّل عبد الناصر المسؤولية دون السرّاج أو غيره. وإنني أرى السوريين في قناعتي ينتظرون فرصة الفصل بين الإقليمين ولن يحول أحد دون ذلك إلاّ إعادة النظر والإجراء السريع لمشاركة السوريين في القرار سواء في سوريا أو مصر كدولة واحدة. وأن حكم العسكريين لم يكن صالحاً لاستمرار الحماسة السورية للوحدة .

لقد كنت قاسياً في انتقاد الرئيس، وقد نبّهني الأستاذ حسنين إلى أنه سيكون أميناً في نقل كلماتي فأكّدت له أنني أعني كل كلمة أقولها. وختاماً قلت له أرجوك أن تبلغ سيادة الرئيس « ما هكذا يُساس العرب » .

كنت مخلصاً بكل وجداني لوحدة سوريا ومصر، وتمنّيت أن تعطى فرصة البقاء، بالرغم من كل ملاحظاتي على العلاقات التي لم يحكمها توازن بين الإقليمين ومأخذي على أسلوب العمل العربي الذي انتهجته الجمهورية العربية المتحدة. ولكن الإخلاص الصادق لا يستوي مع تبرير الأخطاء ولا يصادف على الغالب الرضا من الحاكم .

لذا فيمكنني أن أقول إنني كنت أشعر أحياناً بالغربة حتى مع الكثيرين من إخواني الأردنيين في دمشق والقاهرة، وظلّ القلة منهم ملتصقين بي ولم تغيّرهم محاولات المكتب الخاص السوري أو المخابرات العامّة المصريّة.

وفي الأسبوع الأخير من أيلول وصل المشير عبد الحكيم عامر وكمال رفعت ووزراء مصريون آخرون للاستطلاع والتدارس مع الوزراء السوريين والجيش الأول في سبل إصلاح الأوضاع التي أدركت القاهرة بأنها متردّية .

اجتمعت إلى كمال رفعت في ٢٨/ ٩/ ١٩٦١ وسألني: ماذا أرى؟

قلت له: أرى حركة انفصال يقوم بها الجيش .

قال : هل هذا تقدير أم معلومات ؟

قلت : بل هو تقدير أراهن على صحته .

قال : ومن أين سيتحرك الجيش ؟

قلت : طبعاً من أقرب معسكر لسلاح المدرعات إلى دمشق وهو معسكر قطنا .

قال : لقد أقسم قادة الجيش أمام عبد الحكيم عامر الولاء لعبد الناصر .
قلت : إمّا أن ألغي عقلي وإمّا أنهم كاذبون في قسمهم .
قال : وما العمل ؟
قلت : حكومة في الإقليم الشمالي تجمع رجال السياسة البارزين وأعضاء في الحكومة المركزية في القاهرة من السوريين يشاركون مع المصريين مشاركة كاملة في صنع السياسة والقرار .

في فجر يوم ٩/٣٠ أيقظني ضابطان أردنيان ليبلغاني أن معركة دارت حول نزل المشير عبد الحكيم عامر وأن القوات السورية أخذت تتدفق على دمشق. ثم صدر البلاغ العسكري الأول من إذاعة دمشق وتتابعت البلاغات، وأفاد أحدها أن مفاوضات تجري بين قادة الجيش والمشير عبد الحكيم حول إصلاح الأوضاع .

الشعب أخذ يلقي بصور عبد الناصر على الأرصفة بعد أن نزعوها من المتاجر والمنازل، وقد شاهدت هذا بعيني حتى أذيع البلاغ التاسع والذي أعلن اتفاق المشير مع قادة الانقلاب الانفصالي على إصلاحات. وفجأة بدأ الذين ألقوا بصور عبد الناصر إلى الشارع يجمعونها ويعلّقونها من جديد .

كنت أجلس على شرفة منزلي في حيّ القصّاع أرقب ما يجري وجهاز الراديو إلى جانبي، محاولاً عن بعد استقراء ما يدور في قيادة الجيش الأول من مفاوضات وما يمكن أن يكون قرار عبد الناصر .

قرار عبد الناصر كان أمراً لعبد الحكيم بالعودة إلى القاهرة، ثم أمراً آخر بإخلاء آلاف المصريين من مدنيين وعسكريين من سوريا عن طريق لبنان وإعلاناً لرفضه أي مفاوضة مع السوريين. وهكذا تمّ الانفصال.

لست أريد أن أذهب في الحديث عن تفاصيل ما رأيت من تصرفات من بعض أهل القصّاع مع بعض المصريين العسكريين، إذ اندفعت كالمجنون أقفز درجات طابقين إلى الشارع لأنقذ وكيلاً من سلاح الجو المصري من فئة من الغوغاء الذين ألقوا القبض عليه وأرادوا قتله. حوادث كثيرة سمعت بها وأخرى شاهدتها تبعث في النفس الألم والأسى على كيف ينقلب الناس بين عشيّة وضحاها وقد فقدوا العقل والبصيرة.

في اليوم الثاني للانقلاب أرسل الأستاذ سليمان الحديدي زوجته لتبلغني بضرورة الخروج سراً إلى لبنان، إذ بلغه من أحد الضباط البعثيين في المكتب الخاص أن النيّة تتجه إلى تسليمي إلى الأردن وأن الأستاذ سليمان الحديدي قد اختفى. منذ تلك اللحظة أصاب زوجتي صداع نصفي لازمها ستاً وعشرين سنة إلى أن شفاها الله .

ولكنني صمّمت ألاّ أخرج حتى بعد أن بلغني بأن ضابطاً من قيادة الانقلاب اجتمع إلى كبار اللاجئين الأردنيين باستثنائي وأبلغهم أنهم آمنون في سوريا بلدهم الثاني .

قسم من الضباط الشباب الأردنيين ألحّوا على خروجي بحراستهم إلى لبنان سيراً على الأقدام بعد بلودان فرفضت قائلاً: للسلطة أن تُسلمني إلى الأردن أو تلقيني بالسجن ولكني لن أهرب. ومضى أربعة عشر يوماً حتى جاءني الضابط مصطفى الحافي، وهو أحد الضباط المهمّين في المكتب الخاص، ليعتذر لي عن استثنائي من الاجتماع الذي ضم اللاجئين قائلاً :

كنّا في مجلس الثورة على خلاف بشأنك. فريق يرى تسليمك تلبية لرغبة حيدر الكزبري ورئيس الوزراء مأمون الكزبري وفريق يعتبر تسليمك عاراً لا تتحمله سوريا. واليوم انتهينا من حيدر بوضعه في سجن المزّة وإخوانك الضباط القادة من مجلس الثورة يرسلون إليك التحية مع الاعتذار ويرجونك أن تكون ضيف سوريا المكرّم .

قلت له : يا أخ مصطفى أبلغ إخوانك أنني أرفض قبول ضيافتهم وأي علاقة معهم وأريد مغادرة سوريّا .

قال : إلى أين؟
قلت : إلى عبد الناصر .

عاد مصطفى لزيارتي مرة ثانية ليلحّ عليّ باسم مجلس الثورة البقاء فرفضت. وإذ به يقول: سيادة اللواء نحن نعلم آراءك وقد نقلها إلينا الكثيرون، وقد كنت ترى سوء إدارة الوحدة فلماذا ترفض ؟

أغلظت الكلام واتّهمت مجلس قيادة الانفصال وبشدّة، وانتهى الحديث بتطوّعه لاتخاذ كل إجراءات التسهيل لخروجي حتى الحدود اللبنانية .

وفي يوم المغادرة جاءني مصطفى الحافي ليودّعني ثم يرجوني تفسيراً لموقفي . قلت له: كي تذكروا يا مصطفى أن رجلاً مرّ بسوريا اسمه علي أبو نوار لا يقبل أن يقول فيه أحد أنه استرخص وتقلّب بما تأتي به الرياح .

وهكذا خرجت ووصلت بيروت ليلاً ونزلت وعيالي في فندق الريڤييرا على طريق المطار ، وفي الصباح طرق باب غرفتي السيد أديب خليف مدير محاسب الفندق، وقد بدا عليه الهلع ليُنذرني بضرورة الاتصال مع الرئيس شهاب أو الرئيس صائب سلام ليرسل حِراسة مستعجلة تحميني من زمرة مسلّحة من السوريين القوميين جاءت تبحث

عني في الفندق. وكذلك رفضت. ثم لجأ إلي ضابط مصري مقيم في الفندق ويشرف على ترحيل المصريين القادمين من سوريا إلى القاهرة عن طريق بيروت وهو المقدّم زغلول عبد الرحمن .

اتصل الضابط المصري بالرئيس صائب سلام الذي أرسل على الفور مفرزة كبيرة من الفرقة (١٦) طاردت السوريين القوميين وحرست الفندق، ثم رافقتني في اليوم التالي حتى سُلّم الطائرة التي نقلتني إلى القاهرة. لن أنسى ما حييت فضل الرئيس صائب سلام وحرص السيد أديب خليف واهتمام الضابط المصري وكذلك السيد إدموند خليف شقيق أديب .

في مطار القاهرة استقبلني مدير عمليات قيادة القوات المسلّحة مع مدير أمن المطار وأوصلني الأول إلى فندق ميناهاوس مع عائلتي، ثم رجاني أن أرافقه لاجتماع في مصر الجديدة نُظّم للاستماع لرأيي في الوضع الراهن في سوريا .

التقيت بأربعة ضباط بمن فيهم مدير العمليات ومدير الاستخبارات العسكريّة واثنان من المخابرات العامّة، الذين بدأوا في بحث أسباب الانفصال واحتمال تحركات سوريّة لمقاومة الانفصال .

قلت لهم: أسباب الانفصال زُرعت بذورها منذ قيام الوحدة وهي سياسية وكنت أفضل أن أتحدّث في هذا إلى سياسيين في الحكومة، لأن الموضوع أصلاً بعيد عن العسكرية وإن كان الجيش السوري شكل قوة الانفصال التنفيذية .

فهمت من استفسارات الضباط رغبة في معرفة نفسية الشعب السوري ومدى استجابته لحركة تعيد الوحدة، فشرحت لهم أن أي حركة لن يُكتب لها النجاح بالرغم من أن الوحدة وعبد الناصر لم يفقدا أنصاراً لهما فقداناً كاملاً . وأوضحت لهم أن رفض عبد الناصر لاتفاق عبد الحكيم عامر مع قادة الانفصال كان بالنسبة للوحدويين ضياع أمل وللانفصاليين توكيد أمل، وأن الظروف الراهنة لا تفسح مجالاً لتسوية الخلاف إلا بالطرق السياسيّة والمفاوضة على مبدأ قبول الإصلاح .

كان بعض العرب اللاجئين وبعض السوريين ينصحون بالتدخل العسكري المصري تحقيقاً للشرعية، وظهر أن هذه النصيحة وجدت استحساناً لدى عبد الناصر فأرسل قوة مظليّة هبطت في شمال سوريّا وحرّك قوة بحرية تحمل جيشاً في ذلك الاتجاه. إلاّ أن حامية الشمال أسرت القوة المظلية بعد تطويقها بالدبابات، فأمر عبد الناصر القوة البحرية بالعودة إلى قواعدها.

الشرعية كانت من حق عبد الناصر ولكنَّ الشرعية أمر له معطيات لا تعرفها أمتنا وتنكر أسسها وجذورها في مفاهيم العالم المتحضر. والشرعية ليست سلاحاً يحكمه الجهل بحيث يستعمله صاحبها دون تبصّر.

ولهذا فإن شرعية الوحدة لم تحفظها من الأخطاء وما تراكم عليها من أعمال خاطئة في الإقليمين، بما نقل الأمة العربية من حالة التطلع إلى الوحدة إلى حالة تكريس الإقليمية.

إذا كنا ندرس لنستفيد للمستقبل فإنّ أول درس يجدر بنا أن نحفظه في ذاكرة أمتنا هو ألّا نذهب في الانبهار في القادة إلى درجة فقدان العقل، وألّا نذهب في سبيل أهدافها النبيلة إلى القسرية التي تخرجها عن سلامة تلك الأهداف.

لقد أخطأ بحق الوحدة صُنّاعها بداية وأخطأ بحقّها خصومها أيضاً، وأُلبست الوحدة كمبدأ أثواباً وصُبغت بألوان شوّهتها وأضاعت معالم جمالها وأصابت قُدسيتها في مُقلتها.

وإذا كان المستعمر البريطاني والفرنسي أجهز على الوحدة التي قامت الثورة العربية الكبرى من أجلها فقد عجزا عن القضاء على فكرها. أما العرب وبعد أن تعاظم شأنهم في منتصف القرن وتمكنوا من إزالة الحدود التي وضعها المستعمر، ما إن باشروا بتلبية الحاجة القومية حتى وأدوا حدث الوحدة العظيم بأيديهم ونجحت جهالتهم في تكريس ما عجز عنه المستعمر.

لا يتّهمني أحد بقسوة الحكم، فإن ما صرنا إليه نحن العرب من حال الاستجداء لحقوقنا من أعدائنا يستوجب المحاكمة والعقاب.

لو لم نكن نحن العرب قاصري الفكر، يذهب بأحلامنا الحماس في الرغبة أو الصدود، لاستأنفنا عمل الوحدة مستفيدين من الدروس بما يجعلها ثابتة الخطى مستقرة الرؤية ومثمرة النتائج.

نحن أمة عريقة في تاريخ البشرية إذا رسخ في نفوسنا احترام يتساوى مع قيمها ومكانتها وتراثها، أفسحنا لها المقام الرحب في ساحة الأمم، وإذا انتقصنا من احترامنا لها رإحت في الإغراق في الضعف والتخلّف وزاد استبداد الأمم الاخرى بمقدراتنا والاستهانة بحقوقنا. وأعظم واجباتنا الملحّة تنحصر في إعطاء الأجيال الصاعدة حقائق حياتنا دون زيف أو تزوير ليستقيم فكرها وعملها علّه يسعد بما نفتقر إليه ونفتقده من القوة والتقدّم.

استقلال الجزائر

بينما كان المشرق العربي يمرّ في تجربة الخطأ والصواب استمرت الثورة الجزائرية بعزم وتصميم لا مثيل لهما وباتساع شمل كل الجزائريين وكل أرض الجزائر المعمورة. وبلغت التضحيات حدوداً قلّ مثلها في حروب التحرير من الاستعمار، وظل لهيبها مشتعلاً ما يقارب ثماني سنوات بالرغم من إغارات الإبادة البشرية وسياسة الأرض المحروقة التي مارستها فرنسا.

واجه الشعب الجزائري كل قوة فرنسا العسكرية التي تمثّلت في جيش قوامه نصف مليون عدا عن قوات الحصار البحرية. وأدّى كل رجل وكل امرأة في الجزائر ضريبة الجهاد، وكان مهر استقلال الجزائر عظيماً بلغ مليون شهيد.

ساهمت الدول العربية وفي مقدمتها مصر في مساعدة الثورة بالمال والسلاح، وساهمت الصين الشعبية مساهمة محمودة بالسلاح والمعدّات ووجدت الثورة في المغرب وتونس وليبيا السند القوي.

ولمّا كانت القيادة الجزائرية، ومع عرفانها الأكبر لمصر، مصمّمة أن تصرف كل همّها لإنجاح الكفاح دون الدخول في المنازعات العربية، فقد تمكّنت من كسب السند العربي كله على الأصعدة الحكومية والشعبية.

ثورة الجزائر انتقلت حرارتها إلى قلب العاصمة الفرنسية، وحملت الكثيرين من الفرنسيين على تغيير النظرية الاستعمارية القائلة بأن الجزائر امتداد جغرافي لفرنسا. وغدت الخلافات في فرنسا تأخذ في الاتساع على القضية الجزائرية بحيث انقسم الرأي الفرنسي وأصبح للثوار أنصار في فرنسا، وفي مقدمتهم الحزب الشيوعي الفرنسي والكثيرون من المثقفين ورجال السياسة من بعيدي النظر والذين تحولت قناعتهم إلى أن الجزائر في طريقها إلى الاستقلال.

في الفترة نفسها كان أنصار ديجول قد بدأوا في الدعوة لعودته لإصلاح أوضاع فرنسا المتردّية اقتصادياً وإدارياً، وقد نهشها الفساد وجعلتها صناعتها المتخلّفة في ذيل الدول الصناعية في العالم. فقامت تشكيلات من الجيش وسلاح الجو الفرنسي بمظاهرات علنيّة اضطر الحكم بسببها وبسبب فشله في إخماد ثورة الجزائر المُكْلفة أن يتنحى لديجول.

الجنرال ديجول زار الجزائر وشاهد بعينه مئات الآلاف من الجزائريين الذين تجمهروا في العاصمة ينادون بالاستقلال، فاعتبر أن ما رآه يعتبر استفتاءً للجزائريين

لا يمكن تجاهله. وقد رأى ديجول أن إصلاح أمر فرنسا يتطلّب وقف الحرب والخروج من المأزق الذي يتشبّث الفرنسيون المستعمرون والأجانب إبقاء فرنسا فيه مهما كان الثمن.

ومن هذا المنطلق دخل ديجول الصراع الذي فرضه عليه الجنرالات وانتصر عليهم وقدّم قادتهم للمحاكمة، ثم دخل مرحلة المفاوضات مع قادة الثورة الأسرى في فرنسا وفي مقدمتهم أحمد بن بيلاّ.

حصلت الجزائر على استقلالها في ١٩٦٢/٧/٥، وكادت تقوم حرب أهلية بسبب خروج فريق من رجال الثورة على القادة الذين أشعلوا نارها وحشدوا لها السند العربي والدولي لولا أن الشعب الجزائري فرش طرق العاصمة وما حولها بأجسادهم ونجح في إيقاف الفتنة.

وبالانتخاب تولّى الرئاسة لجمهورية الجزائر أحمد بن بيلاّ وانتخب الشعب مجلسه، وتولّت جبهة التحرير الجزائرية قيادة الوطن الذي خرج من الحرب الطويلة منهكاً ولا تتوفر له أدوات الإدارات الفنيّة بأدنى حدودها.

هذا واحتفلت الجزائر من أول استقلالها ودعت المئات من ممثلي الدول العربية، وقد تشرفت بأن أكون أحد المدعوين من اللاجئين السياسيين في مصر مع عبد الله التل وسليمان الحديدي وكمال ناصر. وكانت لي لقاءات عديدة مع الرئيس بن بيلاّ ومحمد خيضر والوزراء ومنهم العقيد هواري بومدين وصالح (صوت العرب)، وبعض المثقفين ومنهم الأخضر الإبراهيمي وأعضاء تحرير جريدة المجاهد.

كما والتقيت بزملاء من اللاجئين في مصر من مختلف الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط، وكذلك كان لي حديث طويل مع سماحة الحاج أمين الحسيني الذي سبق وأن التقيت به لماماً في دمشق والقاهرة.

ولكن لقائي بالوفد الأردني الرسمي كان طريفاً، ففي حين أبدى الشيخ عبد الله غوشه والعقيد تركي بعاره فرحتهما بلقائي كان رئيس الوفد يعتزم الاحتجاج على دعوة حكومة الجزائر لي كما علمت من مدير مكتب السيد أحمد بن بيّلا، فنصحت العقيد تركي بعاره أن يُثنيه عن عزمه كي لا يحرج رئيس الوفد نفسه. وبصعوبة تمكّن تركي والشيخ عبد الله إقناعه بالعدول عن الاحتجاج وخيراً فعلا. فمناسبة الاحتفال كانت لا تفسح مجالاً لتعكيرها بأي سبب، كما وأن علاقتي ببعض رجال الثورة كانت وثيقة لا ينفع معها احتجاج رئيس الوفد.

وفود المدعوين من مختلف فئات المعارضة من البلاد العربية جاءت لتعبّر عن فرحتها وتتعرّف إلى الشعب الجزائري العظيم وتشاركه بهجة النصر، إلّا أنها ومع اختلاف أسباب معارضتها وتفاوت وحدة الخصومة مع حكوماتها لم تطرح في الجزائر موضوعاً إلا موضوع فلسطين. وسبب ذلك هو أن هذا البلد الذي خرج شعبه من معركة التحرير بتضحيات عظيمة تسامت الفرحة باستقلاله على كل الخصومات والمهاترات السياسية. أمّا موضوع فلسطين فكان الحديث فيه طبيعياً لتماثل مصيبة الاستعمار والاستيطان الصهيوني فيها مع الاستعمار والاستيطان الفرنسي في الجزائر.

والجزائريون حكومة وشعباً بدأوا يحملون الهمّ الفلسطيني منذ أول يوم في استقلالهم بالرغم من تراكم الصعاب عليهم في تكوين الدولة بداية من الصفر، فضلاً عن مهمّات جلاء القوات الفرنسية وتصفية الوجود الاستيطاني الفرنسي الذي بلغ مليوني شخص تقريباً.

وبالرغم من الافتقار الشديد إلى الكوادر القادرة على ملء الفراغ الذي تركه الفرنسيون، فإن العناية والحماس من المكلّفين الجزائريين بالخدمة المدنية، وعلى قلة خبرتهم، كانت تسدّ الفراغ في الإدارات الرئيسية إلى درجة معقولة.

واستعانت الجزائر منذ بداية الاستقلال بشبان من ذوي العلم في مجالات مختلفة تطوعوا لخدمتها، منهم عدد كبير من المغاربة والتونسيين والمصريين.

غادرت الوفود الجزائر وعدت إلى القاهرة ممتلئاً بالسعادة بتلك الزيارة التي جمعتني إلى العديد من الجزائريين ومن أبناء المغرب العربي، والذين تبادلوا كثيراً من النظرات والأفكار مع أبناء المشرق العربي بما فتح نوافذ وأبواب واسعة للالتقاء على آمال موحّدة في الوحدة والتحرير.

الثورة اليمنيّة

في ١٩٦٢/٩/٢٦ قام عدد من الضباط بانقلاب على النظام في اليمن، بعد فترة قصيرة من تولّي الإمام البدر الحكم إثر وفاة والده الإمام أحمد، ولم يكن هذا الانقلاب أول محاولة للتخلّص من الأسرة الحاكمة سواء بغرض الإصلاح أو الثأر من جرائم ارتكبها الإمام أحمد.

واليمن الذي كان مغلقاً عن العالم وما يجري فيه من تقدّم من نواحي الحياة كان أقرب ما يكون إلى عصر القرون الوسطى أو ما قبلها، حيث ساد التخلف عليه وأقفل الإمام كل مغاليق الأبواب في وجه اليمنيين، وفرض عليهم البقاء في دائرة

التخلف والجهل، وقبل أن يظل هو نفسه في مركز تلك الدائرة.

ومع ذلك فإن اليمنيين الذين أصابوا درجة من العلم والاطلاع على ما يجري من حولهم في الوطن العربي من خطوات التقدم والازدهار أدركوا درجة الحرمان التي فرضها الحكم على الشعب اليمني، وبدأوا يتململون بالمعارضة لما هو قائم ومنهم من كان منتسباً إلى عائلة الإمام نفسه.

وبدلاً من أن يفتح الإمام عينيه على العالم ويعمل على قيادة الوطن إلى رحاب أوسع، قصد إلى التضييق على دعاة الإصلاح وقطع الأعناق. ومارس الإمام كل أنواع القسوة والوحشيّة ونشر الرعب في نفوس أهل الفكر الديني والسياسي ورؤساءالقبائل، بحيث استحالت الحياة في اليمن الذي صار إلى سجن كبير ارتفع فيه سيف الإمام كقدر بشع على رقاب الشعب.

في ظل هذه الظروف القاسية كانت الثورة أمراً حتمياً تتعطش إليه اليمن أكثر ممّا تعطّشت إليه أمة في العالم. كانت الثورة حاجة إنسانية مُلحّة قبل أي اعتبار آخر، وكانت ضرورة سياسية واقتصادية واجتماعية لا مناص منها إن عاجلاً أو آجلاً.

كان الحكم في اليمن مثلاً صارخاً للجهل والإغراق في الجهالة والوحشيّة وإلى درجة لم يعرف العالم لها مثيلاً، ساعد على استمرارها تمكّن القبليّة من صياغة طبيعة العلاقات في المجتمع الذي لم توحّده أهداف تشمل مصلحته بمقدار ما وحّدت الأهداف القبليّة وتنافساتها والتي كانت تصبّ بالتالي في وعاء تركيز السلطة النهائية للإمام الحاكم.

ومع ذلك كلّه وبالرغم من تأييد معظم الجيش اليمني الصغير بحجمه والمثقفين وعدد من القبائل للانقلاب، فإن قبائل أخرى انضمت إلى الإمام البدر الذي أفلت من الانقلابيين ليقاتلهم في سبيل استعادة السلطة.

الإمام البدر لم يكن كوالده، وبالرغم من أنه محدود الآفاق إلاّ أنه كان يعتقد بضرورة الإصلاح والتغيير إلى الحدود التي تحفظ له سلطة الإمامة المطلقة. لذا فإن بيانه الأول للشعب اختلط بالوعود مع التهديد. وفي قراراته الإصلاحية التي توالت بسرعة كبيرة كان ملبّياً للكثير من الرغبات والحاجات الوطنية. أمّا الضباط الذين انتظروا الفرصة طويلاً فقد أعرضوا عن إيجابيات سياسة البدر وأخذوا منها السلبيات، ولم يكونوا مستعدين للتنازل عن هدف التغيير بسبب تأثّرهم العميق بمساوىء الإمام أحمد التي لم تُجْدِها أي محاسن أظهرها الإمام البدر للنسيان.

كان الضباط قد اتصلوا بعبد الناصر قبل الانقلاب بشهور وحصلوا منه على وعد بمساعدتهم، فلمّا تعثّر الانقلاب وعجز قادته عن السيطرة الكاملة على اليمن ناشدوه المساعدة وبهذا خطت مصر الخطوة الأولى على طريق مغامرة لم تحسب لها حساباً.

بدأت المساعدة المصرية بكتيبة وانتهت بما يقارب الفرقتين من القوات البريّة بالإضافة إلى سلاح الجو، وساهم الاتحاد السوفييتي بإنشاء جسر جوّي لنقل القوات والمعدات المصرية وعلى مرأى من بريطانيا وأمريكا.

هذا العمل المصري أثار المملكة السعودية فتدخلت لمساعدة البدر ببعض القوات، وتكفّلت بإمداد القوات المناهضة للثورة بكل المتطلبات الماديّة، كما ساهمت الأردن بوحدات صغيرة لأغراض التدريب على الحدود اليمنية السعودية وبعض المتطوعين الذين دخلوا الأراضي اليمنيّة.

تمكّنت القوات المصرية من التمركز في المدن الرئيسية بالاشتراك مع الجيش اليمني والحرس الوطني، وسقط ضحايا من قوات مصر واليمن وقوات البدر يصعب تقديرها إذ ضرب الفريقان ستاراً من الكتمان على الخسائر.

أحد الضباط الثوار قدّر أن خسائر المدنيين من قوات البدر والمواطنين بلغت اثنا عشر ألف قتيل، وقوات الجيش اليمني والحرس الوطني فقدت حوالى خمسة آلاف قتيل، أمّا القوات المصرية فتقديره أن خسائرها بلغت خمسمئة جندي وضابط.

لست في مكان الحكم على ضرورة الثورة بعد وفاة الإمام أحمد، كما وأنني لم أكن قادراً على التنبؤ بما سينتهي إليه الإمام البدر من سياسات لو كتب له الاستمرار في الحكم، ولذا فإن كل تقدير يعاكس ما صارت إليه الأمور لا يغدو كونه سفسطة.

والنظر اليوم إلى الجمهورية العربية اليمنيّة وقد أصبحت دولة منفتحة على العرب والعالم، وقد أصابها نصيب كبير من التقدم والطمأنينة، يجعل أي مفكر يعتقد أن الثورة حقّقت ما لم يكن لذهنية الحكم القديم تحقيقها حتى مع الإمام البدر.

لقد كان الثمن غالياً ولكن الدفع كان اختياراً يمنيّاً بالدرجة الأولى ومصرياً بالدرجة الثانية، وإن تولت مصر مسؤولية تثبيت الثورة بدم أبنائها دون أيّ مغنم من الحرب الطويلة.

وبغض النظر عن الدوافع المصريّة التي قد يختلف فيها الاجتهاد إلّا أنها بالتالي أدّت غرضاً نبيلاً بكل المقاييس الإنسانية والقوميّة، إذ لم يكن ممكناً لأمتنا أن تفخر بماضٍ أو حاضر مع وجود دولة من دولها في الوضع اليمني البائس المتخلّف عن كل أسباب الحضارة والتقدّم.

لو علمت مصر عظم المهمّة التي تنتظرها في اليمن لتقاعست عن اقتحامها بالقوة التي انتهت إليها، ولكنها لم تعلم فساور عبد الناصر ورجاله القلق والهمّ على أبناء مصر بعيدين عن أرض الوطن تسيل دماؤهم في ثورة يمنية في حين لم يُصابوا في ثورة مصر نفسها بخسائر.

قدّر عبد الناصر أنّ الشعب اليمني سيؤيد بمجموعه الثورة عندما يرون الوجود العسكري المصري. فضلاً عن ذلك فإنه وجد في ثورة اليمن ومساندتها تعويضاً للانفصال ومجالاً يثبت فيه للعالم أن مصر هي مركز القوة العربية.

أمّا وقد طالت الحرب وصارت السعودية طرفاً فعّالاً فيها مع حدود مشتركة مع اليمن وبُعدٍ جغرافي بينها وبين مصر، وجد عبد الناصر نفسه مضطراً للاستمرار في ما بدأ به حتى النهاية بالرغم ممّا تشكله هذه الحرب من استنزاف للرجال والمواد.

في إحدى جلسات البحث التي ضمّت وزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية والسلطان علي عبد الكريم سلطان لحج السابق والسيد علي الجفري رئيس رابطة أبناء الجنوب العربي، لبحث أثر الثورة في اليمن والحرب الدائرة فيها على المملكة السعودية، طرح الوزير السؤال التالي:

ماذا لو قام انقلاب في السعودية؟

السلطان علي عبد الكريم والسيد الجفري كانا في غاية الحرج والاندهاش لهذا السؤال، لأنهما كانا يعتمدان على مصر والسعودية في مساندة الرابطة لمقاومة بريطانيا في الجنوب العربي، ولم يكونا مستعدين لإبداء رأي معادٍ للسعوديّة لحساب مصر. كانت الرابطة توازن بين التأثير الإعلامي المصري على المقاومة في الجنوب وبين المساندة المادية التي تقدّمها السعودية. وقد حافظت الرابطة على هذا التوازن بصعوبة كبيرة تطلّبت من الرجلين ورفاقهما دبلوماسية وصبراً عظيمين. وكانت الرابطة تدرك أن وجود مصر بثقلها العسكري في اليمن عامل مساعد أكبر في إذكاء وتزايد قوة المقاومة لبريطانيا مرحلياً، ولكنها كانت تدرك أيضاً أن مصر ستعجز عن إخضاع اليمن بالقوة العسكرية.

كانت الرابطة تحرص على أن تحافظ على صداقة السعودية ومصر في آن واحد، وتتحاشى أن يُسمع عنها ما يسيء إلى إحداهما حتى ولو بإبداء الرأي.

ولما أصبحت السعودية طرفاً في النزاع في اليمن وتساعد خصوم الثورة اليمنية والوجود المصري بالمال والسلاح والخبرة دون حدود، فإن المعادلة غدت صعبة ولا تضمن بقاء مصر في اليمن.

السيدالجفري رئيس الرابطة كان محنّكاً وذا دهاء، فبدلاً من إفادة وزير الدولة برأيه أخذ يوجّه أسئلة عديدة إلى الوزير ليخرج من الحرج، وراح يطرح قضية المقاومة في الجنوب كموضوع بديل. فتحوّل الوزير إليّ وأعطيته رأيي بكل صراحة وأمانة.

قلت له: إن أي انقلاب عسكري في السعودية سيواجه عجزاً عن السيطرة على المناطق السعودية كلها لاتساعها، ولن يكون عملاً ناجزاً شأنه شأن الانقلاب اليمني. عدا عن ذلك فإن عناية أمريكا وأوروبا بمصادر النفط واحتكاراتها لها لا تقارن بأدنى الدرجات مع إهمالها لما يجري في اليمن.

الانقلاب في السعودية إذا أنهى قبضة آل سعود على الرياض فإنه لن ينهيها في مناطق أخرى، فضلاً عن حتمية تجزئة السعودية إلى دويلات بعضها إمارات وبعضها مشيخات. ولكي تتوفر أدنى الضمانات لسلامة نتائج الانقلاب فإنه على مصر أن تملك أمرين:

أوّلهما، اتفاق مع أمريكا على هذا التغيير؛ وثانيهما، نقل القوات المصريّة من اليمن إلى السعودية.

أمريكا وبالرغم من حسن العلاقات المصرية معها بعد الانفصال لا يمكن أن تقبل وضعاً في السعودية تستفيد منه مصر مع أدنى احتمال لتأميم شركات النفط. وأمريكا أيضاً ستبادر فوراً إلى احتلال منابع النفط وتقيم فيها إمارة تخضع لها خضوعاً كاملاً بما يجعل باقي المناطق السعودية تفتقر إلى كل موارد العيش، إذ لا زراعة كبيرة فيها ولا صناعات والنفط هو شريان الحياة الوحيد.

قال الوزير وما هو الحلّ لما نحن فيه في اليمن؟

قلت له: المخرج الوحيد الكريم أن تجدوا وساطة صالحة للتفاوض مع السعودية، بحيث تصلون إلى صلح داخلي في اليمن على أساس إبقاء اليمن

جمهورية تشترك جميع الأطراف اليمنية في تشكيل الحكم فيها وخروج القوات المصريّة وعودتها إلى مصر.

كان هذا الحديث سنة ١٩٦٤، وقد صارت الأمور إلى ما تصوّرته في تلك الجلسة وثبتت الجمهورية العربية اليمنية سنة ١٩٦٧.

زيارة إلى الجزائر

في أيار ١٩٦٣ تلقيت دعوة من الرئيس أحمد بن بيلاّ والسيد محمد خيضر لزيارة الجزائر، وشملت الدعوة زوجتي وأولادي فقبلت شاكراً. وكنت بأمسّ الحاجة للتغيير إذ أصبحت أحسّ بأن جواً من الجفاء يسود علاقتي بالرئيس عبد الناصر منذ فترة غير قصيرة.

سبب هذا الجفاء كان الحملات المتبادلة بين الرئيس وبين أكرم الحوراني إثر مؤتمر شتورة بعد الانفصال، إذ أبلغني السيد سامي شرف رغبة السيد الرئيس أن أردّ بالإذاعة والصحافة على السيد الحوراني.

اعتذرت أن أتولّى هذه المهمة بسبب عدم قناعتي بالخلاف أصلاً، وأن رأيي إذا أبديته لن يكون مرْضياً لأي منهما. وذكرت للسيد سامي شرف أنني مستعدّ للقول والكتابة في الوحدة والانفصال دون تحيّز لأي طرف، ولكنني لا أقبل لنفسي التهجّم على صديقي إرضاءً لصديق آخر.

في اليوم التالي زارني السيد عبد الله الريماوي وفؤاد الركابي، وقد تحدث إليهما سامي شرف في الموضوع نفسه وبالصدفة، كان ردّهما يتّفق مع ردّي ولكن بدبلوماسية لطيفة.

هذا الحادث مضافاً لما نُقل عنّي من أقوال بعضها صحيح وبعضها مزوّر إلى رئاسة الجمهورية، حمل السيد سامي شرف على تحريض بعض اللاجئين السياسيين بالتهجم عليّ بأنني ضد الناصرية. وفي الحقيقة فإنني لم أكن أعترف أو أرى مذهباً أو حزباً أو تكويناً يمكن إطلاق اسم الناصرية عليه. محبّو عبد الناصر رأى بعضهم أن يقولوا أنهم ناصريّون، فانتشر هذا الاسم ليصبح إعلاناً عاماً يشمل كل المعجبين بعبد الناصر. لقد كنت أحد المعجبين بأعمال عبد الناصر الوطنية والقومية، ولكنني أيضاً كنت اختلف معه ببعض آرائه وأعماله، وليس في هذا ما يعيب عبد الناصر لي أو لغيري كما لا يستوجب الإعجاب التبعية وإلغاء حرية الاجتهاد. فضلاً عن أنني قائد ولست جندياً وذو رأي ولست مُصفّقاً للخطأ والصواب.

جاءت دعوة الجزائر في أنسب الوقت، فسافرت مع زوجتي واستقبلني السيد محمد خيضر وعقيلته ووجدنا من الحفاوة العفوية والإكرام غير المتكلّف ما أسعدني وزوجتي. وبعد ثلاثة أيام قال لي خيضر « الأخ أحمد وأنا نريد قضاء بعض الوقت معك في أحاديث هامّة، وستهتمّ زوجتي والسيدة حرم وزير الخارجية بعائلتك». قلت خيراً إن شاء الله وأنا جاهز.

أول جلسة كانت طَرحٌ للتسيير الذاتي في الزراعة والمصانع وتأميم الممتلكات.

التسيير الذاتي يعني ببساطة تسليم مزارع الإفرنسيين العظيمة لإدارة الشعب في المناطق المختلفة وبمشاركة الحكومة في الإدارة والإشراف والمنفعة بدلاً من تقسيم المزارع على الفلاحين. وهذا الطراز من التنظيم مقتبس من يوغسلافيا ووضع دراسته للجزائر اختصاصيون يوغسلافيون، كمااشترك بعض المنظّرين المغاربة ومصري واحد في الرأي والدراسات النظرية.

أما بالنسبة للمصانع فكان القرار أيضاً مماثلاً للتنظيم الزراعي على أن يكون العمّال هم الشركاء الأساسيون في الإدارة.

تأميم الممتلكات الفرنسية من عقارات وشركات وبنوك كان أمراً سهلاً ولاخلاف عليه. الخلاف الذي ذكره أحمد بن بيلاّ بينه وبين السيد محمد خيضر كان ذا شقين:

أولهما : إمكانية التطبيق للتسيير الذاتي بنجاعة من الفلاحين والعمال.

وثانيهما : خلاف حاد على تأميم المقاهي والمطاعم وما ماثلها من ممتلكات اشتراها الجزائريون القادرون من الفرنسيين قبل رحيلهم.

السيد بن بيلاّ مصرّ على التسيير الذاتي دون تحفّظ بينما السيد خيضر يرى ضرورة التمليك للجزائريين لبعض المزارع التي صادرتها الثورة من الفرنسيين، وتطوير نظرية التسيير الذاتي بما يتناسب مع قدرة الجزائريين على إنجاحها، آخذاً بالاعتبار أن الشعب الجزائري لم يتعوّد على أي درجة من المسؤولية الكبيرة المماثلة.

بن بيلاّ يقول إن الشعب الذي مارس الكفاح واستخلاص الاستقلال قادر على التكيف والإبداع السريع، بينما يقول خيضر إن الجهاد بالسلاح شيء ومسؤولية إدارة ثروة الدولة شيء آخر وبمتطلبات مختلفة.

أمّا العقارات والمقاهي والمطاعم وهي استثمارات لايبلغ حجم أي منها درجة المزارع والمصانع، فإن خيضر كان يرى توزيعها بالمقابل والذين اشتروها أصبحوا مالكين لا يجوز للدولة أن تنزع ملكيتهم.

ومن النقاشات العديدة وضح لي أن بين الرجلين تفاوت وخلاف، تدخل السيكولوجية الفردية لكل منهما كأحد عوامل تكوين النظرة الاقتصادية الاجتماعية .

مثلاً، بن بيلاّ لا يـريد أرباب عملٍ وأجـراء وقناعته هذه راسخـة كالجبـال، ويريد أن يشعر الجزائريـون بالتساوي أيـاً كانت مواقعهم. ويدل أحـد قراراته على هذا المنحى الفكري عندما ألغى مهنة ماسحـي الأحذية لأنها عمل يمسّ كرامة ممتهنها.

خيضر يرى أن أي تكوين اجتماعي لا يمكن أن يلغي درجات المسؤولية وارتفاع بعضها على بعض، ولكن كرامة الأجراء يمكن تحصينها بالقوانين الصارمة. أمّا إلغاء درجات المسؤولية فيعني ضياع المصلحة الاقتصادية الوطنية بانتفاء الجزاء والعقاب في المجتمع المتساوي المسؤولية دون قيادات .

بن بيلاّ وخيضر كلاهما اشتراكي، والأول طوبائي بينما الثاني عملي، وقد تمكّن المنظّرون من ميول بن بيلا بما جعله غيرقابل للنقاش في غير قناعته الشخصيّة .

كانت دعوتهما إليّ لزيارة الجزائر أملاً في أن أجد حلاًّ لخلافهما، إمّا بتغليب رأي أو اقتراح مقبول لكليهما.

وبعد الاستماع الطويل لساعات يومياً أو يوماً بعد يوم، ومناقشتهما منفردين ومجتمعين تمنّيت لو لم يدعواني .

مضى أسبوعان فلجأت إلى هواري بومدين وهو رجل متعلّم ومثقف، فضلاً عن أهميته في قيادة الدولة، وطلبت مساعدته إمّا بالاشتراك في الأبحاث أو إعطائي آراءه .

في تلك المقابلة في وزارة الدفاع قدّرت أنه سينفتح لي وقد عرفته في مناسبات العشاء في ڤيلا جولي منزل بن بيلاّ رجلاً صموتاً ومستمعاً. وقد أزعجني برودة وطول أناته في انتقاء الكلمات التي لم تكن تعبّر عمّا في نفسه، وكأنما هو راضٍ عن الخلاف بين الرجلين ولا يبغي إصلاح الأمر بينهما.

ثم تحوّل إلى موضوع يختلف تماماً وهو الجيش الجزائري قائلاً: لقد تباحثت مع الأخ أحمد وسوف يباحثك بطلب أعتقد أنك لن تبخل به على الجزائر وأفضّل أن يبادئك هو به.

في آخـر جلسة مع بن بيلاّ وخيضر طرحت عليهما حلاًّ يتلخّص في ما يلي :

١ ـ الأخذ بسياسة التسيير الذاتي للمزارع شريطة:

أ ـ إشراف الدولة الكلي على الإدارة لفترة من الزمن.

ب ـ الاستعانة بمهندسين ومشرفين زراعيين عرب وغير عرب لضمان صحة العمل وفتح مدارس زراعية فوراً لتدريب إداريين ومحاسبين ومشرفين زراعيين وكادر متخصّص وقادر في وزارة الزراعة. وبعدها تولية الفلاحين تدريجياً المسؤولية من خلال لجان ينتخبونها للقيادة الفلاحية.

٢ ـ الأخذ بسياسة التسيير الذاتي في المصانع والاستعانة بمهندسين وفنيين عرب وأجانب حسبما يتوفّر لهم من أعداد، إلى حين تخريج مهندسين وفنيين جزائريين وفتح مدارس فنيّة وإرسال بعثات لدراسة الهندسة الميكانيكية والكهربائية والصناعات الزراعية. على أن تشرف الدولة على تسيير المصانع إلى حين اكتمال الكادر الكفؤ في وزارة الصناعة والمصانع من الخريجين الجدد ليحلوا محلّ المستعارين.

٣ ـ عدم تأميم المقاهي والمطاعم وبيوت السكن بل تمليكها للجزائريين بالمقابل.

بن بيلّا قال: ولكن هذا البرنامج يأخذ وقتاً طويلاً ويخشى أن تتميّع المقاصد وتتحوّل إلى غير ما أريد.

بن خيضر قال: يا أخي أنت كسبت اثنتين وأنا كسبت واحدة صغيرة وجميعنا في خط واحد، الآن وبضمانة النجاعة لسياستنا فارضَ الله يرضى عليك.

بن بيلا شكرني على اهتمامي، وكذلك خيضر، ثم رجاني أن أضع دراسة استراتيجية للدفاع عن الجزائر ودراسة لتحويل جيش المجاهدين إلى جيش نظامي. وتعهّدت له بذلك.

باشرت برحلة من الجزائر إلى تلمسان على حدود المغرب ومن الجزائر حتى قرب الحدود التونسيّة سالكاً طريق السهل الأخضر، ثم زرت بعض المناطق الساحلية على طرفي مدينة الجزائر، وأخيراً بعض المناطق الجبلية جنوب المدينة لكي أتعرف على طبيعة الجزائر الجغرافية، ولكني لم أصل إلى الصحراء.

ثم عكفت على دراسة الخرائط التي تمكّنت من الحصول عليها ولم تكن كافية، واستغرق هذا بين جولات ودراسات واستفسارات أسبوعاً بكامله دون راحة. وأمضيت اليوم الثامن في معسكر يضم قيادة منطقة ووحدة كبيرة من جيش التحرير، واطّلعت على أسلحتها ومعداتها التي كان قسم كبير منها من الصين الشعبية.

في اليوم التاسع زرت وزارة الدفاع والتقيت بضابط برتبة رائد من خريجي

المدرسة الحربية الفرنسية والتحق بالثورة، وضباط آخرين برتبة ملازم أول وملازم ثانٍ من خريجي الكليات العسكرية العراقية والسوريّة .

ذلك الرائد كان اسمه على ما أعتقد هوفمان، وبالرغم من أن العقيد بومدين أشعره بزيارتي وضرورة تقديم كل عون ومعلومة لي إلّا أنه لم يكن متعاوناً أبداً خلافاً للضباط الصغار، وأخصّ بالذكر منهم الملازم العربي وهذا اسمه .

كنت قد جهّزت قوائم من الأسئلة عن التنظيمات الحالية عن جيش التحرير والقادة، وكادر الضباط والمؤهلات العلمية والقتالية والأسلحة والتجهيزات وورش التصليح والخدمات الطبية ووسائل الاتصالات وكل ما يقيم تكوين ذلك الجيش بما يمكن البناء عليه.

وجهّزت نماذج للإحصاء في الجمهورية الجزائرية لمعرفة أعداد المهندسين والأطباء والفنيين في مختلف الميادين، لمعرفة أوليات البدء في تكوين الجيش الحديث ومدارسه وقواعده .

لكن الرائد هوفمان لم يكن راغباً في المساعدة بأقل الجهد، وكأنما يريد بقاء كل شيء على حاله. ولما عيل صبري معه أوضحت له أنني متطوّع لخدمة الجزائر ولست مستخدماً علّه يغيّر مسلكه ولكن دون جدوى. ولما ضاق صدري به أبلغته رأيي فيه بصراحة أزعجته وانقطعت عن الحديث معه .

لم أكن غريباً عن الجزائريين وما يظهر على قشرتهم من خشونة في الطبع خادعة، لأنهم في الحقيقة من أكثر الشعوب العربية حرارة ومودّة للصديق في طويّتهم، وهم أقرب إلى العراقيين في هذه الصفة. ولذلك وطّدت نفسي على الصبر كي أنجز ما تطوعت له. وطلبت من السيد بومدين تعيين الملازم العربي سكرتيراً لي ليعينني في جمع المعلومات ففعل. ولمّا بلغه عن مسلك الرائد هوفمان اعتذر لي بحرارة ووعد بتربيته.

مع انشغالي بإجراء الدراسة أعدت زوجتي إلى القاهرة لرعاية الأولاد وبقيت في الجزائر فترة تزيد عن الشهر، أنهيت فيها الدراسة التي عنيت أن تكون سهلة الفهم، وتعتمد على مراحل عديدة لتكوين الجيش الحديث متزامنة مع وضع الجزائر الحالي ومما تتوفر فيه من أعداد صالحة من المتعلمين والمهنيين، بالإضافة إلى الاستعانة بالمدارس العسكرية العربية مع برنامج للتسليح .

كان الهدف هو الوصول إلى تشكيل فرقتي مشاة وفرقة دروع ووحدات صحراوية

وثلاثة أسراب مقاتلة لسلاح الجو خلال خمس سنوات مع كامل إسنادها الإداري والفني .

هذا البرنامج الطموح كان أملاً ولكنه أكبر من القدرة الجزائرية مع كل المساعدة العربية، إلّا أنني توقّعت بالنتيجة الوصول إلى معظم البرنامج وخصوصاً في الكوادر الأساسيّة. قد لا يعلم الكثيرون أن مجموع المهندسين الجزائريين لم يتجاوز أصابع اليدين وكذلك الأطباء، أمّا الفنيون فقد كانوا في المصانع وليس من فائض يصب في الجيش .

لقد تركت فرنسا الجزائر بعد مئة سنة من الاستعمار حتى دون عدد كافٍ من جباة الكهرباء القادرين على قراءة عدادات الكهرباء في المدن .

الرئيس بن بيلّا قال لي مزهواً: إن أحد السفراء الأجانب أثنى على كفاءة وزارة الخارجية الجزائرية ودبلوماسييها، مضيفاً: ياسي علي، الفرنسيين تركونا بلا شيء لا علم ولا إدارة ولكن الجزائر ستنهض.

بعد إنهاء الدراسة أصرّ بن بيلّا أن أمضي بضعة أيام للاستمتاع بجمال الجزائر، فبقيت أربعة أيام في صحبته وصحبة خيضر وكثيرين من المجاهدين وأعضاء البرلمان والسفير المصري. صرت لشدة ابتهاجي بما أرى وأسمع وكأني ولدت من جديد .

روح الثورة الجزائرية التي تمثّلت في القادة والشعب كانت شيئاً جديداً في خبرتي العربية، وبن بيلا بالذات كان رجلاً فريداً في براءته بالرغم من تطرّفه ومثالاً في تواضعه وحبه الطبيعي لشعبه دون تزيين أو تزييف.

ربما لم يكن بن بيلّا الحاكم الذي يقتضيه العصر للجزائر، ولكنه حتماً كان أصدق من صادفت من رجال وأخلص من التقيت بهم من ثوّار. ومع أنني اختلفت معه في بعض نظراته للمشرق العربي، ولا ألومه لنقص في معرفته بالمشرق، واختلفت معه في بعض نظراته الاقتصادية والاجتماعية وليس كلها، إلّا أن بن بيلّا في نظري وكثيرين من رجال الجزائر أمثولات نادرة في طهارة الضمير وإنكار الذات .

في ليلة وبعد العشاء في شقته رغب في أن يوصلني إلى الفندق، وتولّى قيادة السيارة وبدون سائق. ما إن دخلنا الفندق حتى وجدنا الأستاذ إبراهيم طوبال صديق بن بيلا وصديقي فجلسنا معه، وفي لحظة اجتمع حولنا موظفو الاستقبال ثم الندلاء والطهاة فدعاهم للجلوس وطلب قهوة .

أخذ الندلاء والطهاة يناقشونه في قضايا الوطن والثورة وحقوق العمال بدون

كلفة، بحيث لا تسمع من أحدهم حمداً أو تبجيلاً للرئيس وكلمة « ياسي أحمد» هي بداية المخاطبة، ولكني كنت أرى في عيونهم الحب واضحاً. وسي أحمد يكلمهم ويناقشهم ويمازحهم وإذا لم يعجب أحدهم رأيه جادله. تلك رابطة بين القائد والشعب قلّ أن نراها في أيامنا هذه أو أيامنا تلك، لأن الثوار خرجوا عن براءتهم ليصيروا حكاماً تعاظمت بهم مناصبهم وضاقت بالناس صدورهُم وأعملوا السلطة بكل جورها فيمن يخالفهم .

عدت إلى القاهرة، وكان أول من استمع لي إلى ما شهدت ورأيت في الجزائر السادة: محمد علي الجفري والسلطان علي عبد الكريم وعبد الله الريماوي وكمال رفعت، ومدير العمليات الحربية في القوات المصرية الذي أراد أن يستفسر عن ملخّص الدراسة التي جهزتها للجيش، وكذلك السيد محمد الخطيب ويوسف البندك واللذان أحتفظ لهما بمودّة كبيرة، إذ لم يقاطعاني في الظروف التي اعتبرها الكثيرون غير مناسبة بسبب الجفاء بيني وبين الرئيس عبد الناصر .

قصّة الجفاء هذه أشغلتني من ناحية واحدة وهي المبالغة في تقدير أثرها في نفس عبد الناصر قياساً على تصرفات أو نصائح بعض الأصدقاء. وذلك لأنني لا أقبل أن أكون ضيفاً على دولة يتصوّر رئيسها أنني أناصبه عداءً. كما وأنني لست على استعداد للذهاب في مجاملة مضيفي على حساب ضميري في قضايا عامة، ولم أعتقد أن عبد الناصر يفترض في أحد من ضيوفه اللاجئين السياسيين أن يصبح موظفاً متقيداً بالسياسة التي ينتهجها دون عقل أو تفكير.

ومع ذلك فقد حاولت أن أقنع إخواني الأردنيين قبل غيرهم بصحة موقفي الذي لا أتنازل عنه. وقد ذهب بعضهم في تحذيري إلى درجة إمكانية قتلي من الأجهزة المصريّة فلم أصدّق ذلك، وعلى العكس فإن هذه التحذيرات في تقديري لم تتعدَّ في أسبابها عن إظهار الضيق من مصادر الاستخبارات التي فسُرّت تهديداتها إلى ما لم تقصده أو يقصده المسؤولون الكبار في الدولة .

في هذه الأثناء كان لي لقاءان أولهما مع المشير عبد الحكيم عامر في منزله والثاني مع الأستاذ حسنين هيكل .

عبد الحكيم عامر سألني عن رأيي في الناصرية مع عتاب لطيف، فأبديت له رأيي بأن عبد الناصر وكل ما يمثّله من آراء في القضية العربية يقعان في محل التقدير والاحترام مني وإن اختلفت معه في بعض ما يعلنه وبعض ما يفعله. أمّا الناصرية فهي

شيء آخر لا أعرفه ولا اعترف به. إذا كان الإسلام ديناً وهو ذلك والعروبة هوية وهي ذلك فإن الناصرية لاهي هذا ولا ذاك .

قال عبد الحكيم: والله أنا يشرفني أن أكون ناصرياً. قلت له: يؤسفني أن لا أكون مثلك ولكن هذا خيار وليس فرض.

وفي مقابلتي مع الأستاذ حسنين هيكل واجهت أسلوباً يختلف عن عبد الحكيم، إذ بدأ بالهجوم على ميشيل عفلق وصلاح البيطار منتظراً مني موقفاً يحكم منه عليّ. قلت له: الرجلان غائبان وأنا لست وكيلهما لأدافع عنهما ولست شريكك في الرأي فيهما لأؤيّدك.

ثم انتقل إلى دفاعي عن محمود المعايطة بعد تعليق نشرته الأهرام وسأل: يعني إيه محمود المعايطة ده حتى تهاجمه الجريدة لما نشرته عنه؟

قلت له: محمود المعايطة ضابط باسل ومتميّز وهو تلميذي وصديقي وشريكي في الجيش الأردني للتحرر من القيادة البريطانية، فإذا كنت أنت صاحب قلم فمحمود صاحب سيف ولا قياس بينكما.

قال: يعني ضابط شجاع والجيوش فيها شجعان كثيرون، فلماذا أخذتك العصبية إلى هذه الدرجة؟

قلت : لأن ما ورد في الأهرام عنه كذب واختلاق، ولأن محمود عندي أهم من كثيرين ممن عندكم وهو معتقل في الجفر وواجبي أن أدافع عنه وعن أمثاله.

لاحظت من الأستاذ نبرة تهكّم فرغبت أن أقطعها وقلت: لو كان محمود المعايطة ضابطاً في الجيش المصري أيام ثورته لكان الاحتمال أن يظهر على عبد الناصر، فلا تجادلني كثيراً في رجل اتهمتوه زوراً بدلاً من أن تكرّموه.

محمود المعايطة كان بعثياً وهيكل يعلم ذلك، فلمّا أسقط في يده أن يدخل في جدال حول ميشيل عفلق وصلاح البيطار تحوّل إلى محمود .

المشكلة هي أن الإنجليز قدّروا أنني منتم إلى حزب البعث، والآن وبحكم الخلاف بين البعثيين وعبد الناصر يجد الإخوان المصريون أن أي شخص يختلف مع عبد الناصر في قضية واحدة لا بد وأن يكون بعثياً وهذا غير صحيح .

ولكن الدفاع عن رجل أحبه وأحترمه حزبياً كان أو غير حزبي لا يوجب انتمائي إلى ما ينتمي إليه من تنظيم وإلاّ ألصقت بي بطاقات عديدة بانتماءات مختلفة .

واجب الوفاء للرجال الذين احترم فيهم صفاتهم يفرض عليّ وبحكم صداقتهم لي أن أدفع الأذى عنهم ما استطعت، والرجال بدون الوفاء في نظري لا قيمة لهم ولما يدّعونه من مبادىء أياً كانت.

عدت من الجزائر إلى القاهرة لأصادف النقاش والجدل من جديد وقد زهدت في كل ذلك، ولم يعد يعنيني ما يفعله عبد الناصر وما يفعله البعث في حُمّى الصراع بينهما، واستقرّ في ذهني أن أسجل ذكرياتي عن مرحلة عشتها من تاريخ أمتنا حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

بعد الانفصال

بعد الانفصال دخلت سوريا مرحلة التخبط في الاتجاهات. فالحكومة التي رأسها مأمون الكزبري اتجهت نحو إلغاء الإجراءات الاشتراكية بينما تخالفها الأكثرية من الشعب والجيش في ذلك. والحكومة وكثيرون من السياسيين يرون أن الانفصال عن مصر نهائي في حين يرى الكثيرون من السياسيين والعسكريين أن العودة إلى الوحدة مع مصر أمر مطلوب، ولكن تحت ظروف وشروط تختلف عن سابقتها.

عبد الناصر، وبعد محاولته العسكرية، أعاد النظر في أمر الوحدة واتخذ سياسة جديدة ملخّصها بناء مصر واقتصادها وإفساد خطط الانفصاليين في سوريا.

أعلن عبد الناصر عن نيّته في جعل مصر بلداً عربياً نموذجاً لكي تحذو الدول العربية حذوها إذا أرادت، وكذلك أعلن أن مصر لن تحاول فرض الوحدة على سوريا.

هذا الإعلان صادف قبولاً من موسكو وواشنطن، فوصلت مساعدات غذائية وفنيّة من أمريكا تبلغ ستمئة مليون دولار شكّل القمح أكبر جزء منها. والشعب المصري رحّب بالسياسة الجديدة بعدما اعتبر أن الانفصال كان طعنة لعبد الناصر ومصر.

يجدر بنا أن نذكر أن بعض المصريين فلسفوا الانفصال بأن السوريين وضعوا وديعة عند عبد الناصر عند الوحدة ثم سحبوا هذه الوديعة، بينما ذهب البعض إلى الغضب وفقدان الثقة بكل العرب.

رجل واحد انفعل برفض عبد الناصر للتسوية التي وصل إليها عبد الحكيم عامر مع السوريين، ووزّع منشوراً على القوات المسلّحة المصرية ملخّصه أن الوحدة أهمّ من عبد الناصر وإذا كان استمرارها يقتضي تنحيته فإن التنحية واجب. هذا الرجل كان

لطفي واكد أحد ضباط ثورة مصر ورئيس جريدة الشعب وكان حاكماً عسكرياً لبيت لحم سنة ١٩٤٨ .

أُجريت للطفي واكد محاكمة عسكرية وأودع السجن لسنتين، وقد رغبت في زيارته لما بيننا من صداقة وطيدة ولكن لم يسمح لي بزيارته. وبعد الإفراج عنه بعد سنتين تقريباً زرته والسيد محمد الخطيب في شقته في مصر الجديدة في حين تحاشى الكثيرون من أصدقائه زيارته، وخرجت والسيد الخطيب بعد ساعتين وكأنما جرح أصابني لما وجدت عليه حال لطفي واكد الذي يدلّ على الفقر وضيق ذات اليد .

وفي اليوم التالي زرت السيد كمال رفعت وزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية لأعيب على مصر أن يكون حال لطفي واكد على ما رأيت وأن عليه واجباً شخصياً نحو صديقه. كمال رفعت رجل ذو شهامة تأثّر لقولي ووعد أن يفعل شيئاً بعد زوال حدة غضب عبد الناصر. قال: لطفي لا يمكن نسيانه فهو رجل شجاع ومخلص للمبدأ ولكن صادفه سوء الحظ .

كنت أعرف مدى محبة لطفي لعبد الناصر التي لا يحدّها حدود، ولكن إيمانه بالوحدة العربية تعدّى علاقته الشخصية بالرئيس .

مضت أيام حتى قامت حركة عسكرية في حلب وأعلنت عودة وحدة سوريا مع مصر، إلّا أنها أُخمدت بقوة الجيش وذهب في الحركة ضحايا، ولكنها كانت بداية النهاية لحكومة الانفصال إذ وقع الانقسام بين قادة الانفصاليين العسكريين وبين الحكومة، ممّا أدى إلى ضياع مركزية الحكم وتزايد قوة البعثيين والقوميين العرب .

أخذ السوريون يراجعون الحساب وقد تمكّنت من تفكيرهم قضيتان:

١ ـ الصراع العربي الإسرائيلي وأهمية العلاقة مع مصر لضرورات المواجهة.
٢ ـ الإنجازات الاشتراكية التي قصدت حكومة الانفصال إلغاءها مع تمسك العمال والفلاحين بها .

وذلك لأن الانفصال لم يقع أصلاً للمساس بهاتين القضيتين إلّا في ذهن الأقلية، وإنما وقع لسوء إدارة الوحدة وضعف المشاركة السوريّة في القرارات.

وفي الثامن من شباط ١٩٦٣ ثار الجيش والشعب في العراق على عبد الكريم قاسم وأجهزوا عليه وعلى كل أنصاره، وانتقموا من الشيوعيين على ما ارتكبوه في العراق وبشكل خاص في الموصل ممّا أعطى الشيوعيين العرب درساً لن ينسوه .

اختارت الثورة عبد السلام عارف وهو في السجن ليكون رئيساً للجمهورية

والسيد طاهر يحيى رئيساً لهيئة أركان الجيش، وكان لحزب البعث الحصة الكبرى في الحكم إذ إنهم كانوا يشكّلون القوة الرئيسية المنظمة في الثورة من عسكريين ومدنيين.

وقد ساعدت ثورة العراق على إضعاف حكم الانفصال في سوريا بحيث قام السوريون البعثيون يناصرهم ضباط قوميون بالانقلاب على حكومة الانفصال في الثامن من آذار سنة ١٩٦٣. ولكن قوى الانقلاب السوري لم تكن منسجمة بسبب اختلاف الآراء على عودة الوحدة بين مصر وسوريا. فبينما كان البعثيون يخططون للاستئثار بالحكم كاملاً قبل طرح موضوع الوحدة كان الفرقاء الآخرون يحثّون على إعلان فوري لعودة الوحدة .

كان فريق من البعث يجتهد بضرورة الإسراع في مفاوضة عبد الناصر لإعادة الوحدة متضامنين بذلك مع الفرقاء الآخرين، ممّا أدى إلى انشقاق هذا الفريق على البعث وتسمية أنفسهم بـ الوحدويين الاشتراكيين ومن أبرزهم سامي صوفان والعقاد ويلتف حولهم البعثيون الأردنيون المقيمون في سوريا ومصر .

المنادون بالوحدة الفوريّة لم يكونوا يعلمون أن عبد الناصر قد قرر مسلكاً قومياً جديداً، يستبعد الوحدة من ناحية ويخطّط للقضاء على حكم البعث في العراق وسوريا .

أحرز عبد الناصر نجاحاً في العراق باستمالة عبد السلام عارف الذي عمل على استقطاب الجيش والاختلاف مع البعثيين الذين جاءوا به إلى كرسي الرئاسة .

في هذه الأثناء زرت سوريا واجتمعت إلى ميشيل عفلق وصلاح البيطار ولؤي الأتاسي رئيس الجمهورية، وسامي صوفان وقيادته من الوحدويين الاشتراكيين وكذلك اللواء أمين الحافظ .

نصحت ميشيل وصلاح البيطار بأن يستوعبوا القوميين العرب كافة في سوريا، وأن يتّسعوا للشعب السوري بالمشاركة كي لا تعاني سوريا من متاعب جديدة لا تجديهم نفعاً. وأعطيتهما اجتهادي بأن عبد الناصر غير حريص على عودة الوحدة بمقدار اهتمامه بمعاقبة حزب البعث الذي ساند الانفصال، حتى ولو أدّى ذلك إلى استمرار الفوضى والضعف في سوريا إلاّ في حالة واحدة هي وصول الناصريين إلى الحكم ويعقد معهم علاقة لا تصل إلى درجة الوحدة .

الناصريون كانوا تياراً وليس حزباً يجمع الضباط والسياسيين المستقلين وبعض

البعثيين مثل الوحدويين الاشتراكيين وحزب القوميين العرب. وبالرغم من مآخذهم على سياسة إدارة الإقليم السوري أيام الوحدة إلّا أن تلك المآخذ تفاوتت في حجمها وتفسيرها بين فئة وأخرى ولا تصل في حدّتها إلى موقف حزب البعث.

وإضافة إلى أسباب رغبة الناصريين في استعجال عودة الوحدة فإن صيرورة الحكم إلى سيطرة البعث زادتهم استعجالاً للعمل على حث عبدالناصر لمناهضة البعثيين وحث الشعب السوري على الالتفاف حول شعاراتهم، وهنا اختلطت المبادىء بمصالح الحكم والأنانية الحزبية وزادت الصراع على الحكم اشتعالاً بين القوى السورية كافة، حتىّ حاول فريق من الضباط الاستيلاء على السلطة فوقعت معركة انتهت بهزيمة الناصريين ولكن بثمن باهظ جعل البعث السوريّ يبدأ عهداً دموياً ليستأثر بالحكم وحده.

أنا كنت صديقاً لبعض قادة حزب البعث على المستوى الشخصي، وكنت أجد في دعوتهم وفي مسالكهم السياسيّة كثيراً من المثالية قبل أن يصبحوا حكّاماً. وقبل أن يدخلوا المعارك المسلّحة كنت أجد فيهم أمثولة متميّزة عن الحركات السياسية الأخـرى.

ومع أني كنت أقدّر استحالة ابتعاد البعث في العراق عن المعارك الدموية بسبب التعقيدات الخاصة بالشعب العراقي، إلا أنني قدّرت أن البعث السوري لم يكن بالضرورة بحاجة لدخول معارك مماثلة.

فالاستئثار من حزب واحد في الحكم يعني بالتالي ديكتاتورية لا يتحمّلها الشعب ولا مبرر لها إذا كنا نهدف إلى الوحدة العربية. إذ لا يمكن تحقيق وحدة عربية إذا ذهب كل بلد عربي في منحى الديكتاتورية الفردية أو الحزبية التي لا تحترم لمجموع الشعب حقوقاً في المواطنة والوطنيّة.

وإذا خرجت الأحزاب القومية عن كونها طلائع العمل الوحدوي وتصوّرت وصاية كاملة على الغالبية العظمى من الأمة، فإنها بذلك تحاول أن تلغي الحرية والديموقراطية التي تبشّر بها، وتفرض على المواطنين قوالب ضيقة لا تتسع للحياة الطبيعيّة. فليس يملك شخص أو حزب القدرة على صياغة الحياة العربية منطلقاً من رغباته لوحده أو فكـره لوحده. والسوريّون، وبالأخص حزب البعث الذي عاش فترة الديموقراطية المفرطة قبل الوحدة ثم عاب على عبد الناصر ديكتاتوريته في الحكم، يُفترض فيهم أن يعطوا مثلاً جديداً في العمل السياسي الذي يحترم الرأي الآخر وحقوق الآخرين بالمشاركة.

لكن دعوتي لقادة البعث بتوسيع قاعدة الحكم لم تعجبهم، وقد تصوّر بعضهم أنهم قاموا بثورة مع أن العمل لم يتجاوز كونه انقلاباً على حكم انفصالي فقد قدرة الاستمرار.

وكذلك دعوتي للوحدويين الاشتراكيين وغيرهم بضرورة التعاون لدولة سورية متوازنة ومن ثم بحث موضوع الوحدة، لم يعجبهم أيضاً، ولم يصدّقوا أبداً أن عبد الناصر غيّر أولوياته.

وقبل أن أنهي زيارتي لدمشق وجّهت إليّ وزارة الدفاع دعوة لزيارة العراق فلبّيت الدعوة.

ماذا وجدت؟ وجدت رئيساً للجمهورية مخيباً للأمل لضحالة فكره واعتداد بالغ بشجاعته. ووجدت رئيس الأركان يتأرجح بين رئيس الجمهورية والحزب الذي ينتمي إليه بانتظار الكفّة الراجحة، ووجدت قادة الحزب حائرين بين استمرار ثقتهم برئيس الجمهورية الذي جاءوا به من السجن وبين حجب الثقة.

هذا الوضع الجديد عزل دول المشرق عن بعضها البعض وبالتالي عزل مصر عنها. خلق وضعاً جديداً لا يتّسم بأي صفة للتعادل مع إسرائيل وبهذا تحقق الأمن لها والاضطراب للدول العربية وضياع آمال الأمة العربية.

أصبح التنازع العربي بين أكثر من معسكرين: تنازع بين الدول ذات الأنظمة التقليدية والدول الثوريّة، وتنازع بين الدول الثوريّة حتى غدت الثورة أمراً مشكوكاً بصلاحيته لصنع المستقبل العربي فضلاً عن أنها غرقت في حمامات الدّم.

منذ أن خرج استعمال السلاح عن هدف التحرّر من الأجنبي وتحرير فلسطين إلى هدف الاقتتال العربي من أجل السلطة، وضُح أن المسار خاطىء عن الاتجاه الطبيعي للأمة العربية، وغدت كل المعالجات بعيدة عن تحقيق الأمن العربي، وتأكّد للعدو الإسرائيلي وحلفائه المستعمرين استطاعتهم أن يهيمنوا على الساحة السياسية والاقتصادية في المنطقة العربية كلّها.

لمصر دَيْن شخصيّ عليّ حاولت أن أفيه سنة ١٩٦٧ ولم أستطع ذلك، ولكنه دَيْنٌ لا أستطيع أن أحمّله على القضية العربيّة. ولعبد الناصر نفسه احترام أحفظه لأعماله الجليلة في السنين الأولى من ثورة مصر التي تشرّف بقيادتها وما زلت أنكر على خلفائه نسيانهم لتلك الأعمال. ولكن التاريخ لا يُسقط سلبيات القادة لحساب إيجابيّاتهم. فثورة مصر بيضاء إلى درجة كبيرة قياساً على الثورات المزعومة الأخرى

والتي لم تخرج عن كونها انقلابات دمويّة، ثورة مصر بيضاء في مصر ولكنها حمراء قانية أشبعتها دماء عربية خارج مصر .

ثورة مصر ومع كل الصدق في ما أعلنته عن نفسها في مقاومة الفساد وإسقاطه ومحاربة الاستعمار والقضاء على احتكاراته وإنصاف مجتمع الفقراء من استغلال ذوي النفوذ، تلك الثورة غالطت في كل دعاواها ودعاياتها عن مقاصدها العربية . ولم يجن العرب منها إلّا دروساً إعلامية حفظتها الأنظمة العربية لتغالط شعوبها في الحقائق، ودروساً أخرى في علم المخابرات التي صرفت الأجهزة العربية عن إسرائيل لمتابعة نشاطات ارتبطت بمصر وبدون وعي لأهداف لم تقصدها مصر وإن توهّم العرب أنها قصدتها .

والصراعات داخل الوطن العربي التي أدخلت على الخلق العربي أساليب العنف والتعذيب الوحشي ،كانت ابتكارات جديدة لا يمارسها الإنسان السويّ حتى مع الأعداء الأسرى، هذه الصراعات لا تزال مستمرة وضحاياها بالمفهوم العربي الجديد شهداء .

أنا أقول إن أي ضحية بشرية في غير قتال العدو المستمر أو إسرائيل هي قربان لعظمة الحاكم أو الطامح بالحكم في أي بقعة من الوطن العربي ولا يكتسب صفة الشهيد .

وفي أكثر المقاييس مرونة فالجاهل الذي يدفع حياته في ذلك الصراع ضحية مسكينة، أمّا إذا كانت الضحيّة أحد القادة وقلّما يحدث ذلك، فإنه مغامر دفع ثمن طموحه وما أكثر المساكين وما أقلّ المغامرين الذين دفعوا الثمن وهم أعظم المزوّرين لإرادة الشعب العربي. وبالتالي تكون الحرية والتحرير أعظم ضحايا أولئك الذين غيّبوا الضمير في حمأة الصراع على السلطة باسم حرية الإنسان العربي وتحرير فلسطين.

لقد توحّد أسلوب الدعوة والدعاية عند كل الأنظمة العربية لحماية نفسها من بعضها البعض، ورفعت جميعها علم تحرير الوطن الفلسطيني لتمارس في ظلّه كل أنواع الخداع والعسف. وفي كل مناسبة تتبارى تلك القوى في دورها للتحرير والتباكي على الوطن السليب، ولكنها في الحقيقة كانت تخرج الجثة من مدفنها كي تزيد في تعميق الحفرة أمتاراً جديدة ثم تردمها بالتراب مخلوطاً بدموع التماسيح .

الوحدة تارة تكون الوحدة العضوية وتارة وحدة الهدف وتارة ثالثة وحدة الصف. والشعب وقد اختلطت عليه كثرة التعابير أصبح لا يعي الحق من الباطل.

والتحرير كان يعني ما أُخذ بالقوة لا يُستعاد إلاّ بالقوة. ولكن تلك القوة نفسها توزّعت بين الثورة المصريّة والثورات الكثيرة بمسمّياتها المختلفة. فتارة هي ثورة وتارة هي ثورة تصحيحية وكلّها تنادي بالوحدة دون وحدة في داخلها أو الإخلاص لهدف عربي. وقد تاه الهدف العربي في صحارى ومحيطات صانعي الشعارات الذين حكمهم الحقد على كل شيء ما عدا السلطة التي أصبحت جزءاً من حياتهم الشخصية.

حلم التحرير العظيم بعد سنة ١٩٤٨، الذي أرّق الأمة العربية حتى تمثّل في كل شهقة أو زفرة من أبنائها، حُرِّفَ عن التصوُّر الصحيح والمسار المستقيم ليتعرّج في طرقات الظلمة والتضليل. فطريقه مرة يمرّ في عمّان وأخرى في دمشق وثالثة في صنعاء ورابعة في بغداد ثم بيروت ثم الرياض، وأغفلت سيناء والجولان والضفة الغربية من علامات طريق التحرير.

ولما عاود الصحو العرب على العلامات الصحيحة دخلوا في الفخ الإسرائيلي ليفقدوا كل فلسطين وسيناء والجولان سنة ١٩٦٧، لافتقارهم إلى الجدية في تقدير المعركة بظروفها ونتائجها المحتملة.

ثم لمّا عاودت مصر وسوريا الهمة والحمية تحالفتا وحدهما دون الدول العربية الأخرى سنة ١٩٧٣ لخوض معركة تحرير سيناء والجولان دون فلسطين، واعتبر العرب وببساطة أنهم انتصروا في حين وصلت طلائع القوات الإسرائيلية أبواب دمشق، ووقع جيش مصري كامل في طوق إسرائيلي وصار وقف إطلاق النار عند الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة. وعجيب أن يفسّر التراجع في الحرب انتصاراً على أساس نظرية فاسدة مفادها أن الجندي العربي قاتل في هذه الحرب منتصراً على خوفه بعد ١٩٦٧.

الجندي العربي لم يكن يوماً ناقص الشجاعة، ولكنه لم يقاتل معركة واحدة حكم ظروفها جدية في سياسات القادة الذين دفعوا الجندي للقتال.

مباحثات الوحدة بين مصر وسوريا والعراق

بعد ثورة العراق على عبد الكريم قاسم والانقلاب السوري على الانفصاليين أصبح الحكم في كل من البلدين تغلب عليه صبغة حزب البعث، الذي كان قوامه الأساسي في العراق الضباط البعثيين والحرس الوطني. الضباط لم يكونوا يشكّلون أكثرية في الجيش أمّا الحرس القومي فكانت سيطرة الحزب عليه كاملة، وقد كانت بغداد مركز تجمّعه الرئيسي وتولّى مسؤولية الثورة فيها ممّا أدى إلى ازدواجية في السلطة أثارت حفيظة الضباط غير البعثيين ونقمة المدنيين.

ذلك لأن الحرس القومي جمع في ما جمع شريحة من الشعب لا ترى في نفسها إلّا وسيلة قمع وإرهاب، لا تتناسب مع ضرورات الفهم السياسي التي وعتها قيادات البعث المثقّفة. ولمّا كان الموجّه الرئيسي لقوات الحرس الوطني رجلاً عانى العسف والاضطهاد سنين طويلة من كل العهود، فإنه من طبيعة الأمور أن ينطلق ذلك الرجل في توجيهاته للحرس القومي من تكوينه ومزاجه.

علي صالح السعدي إنسان من عامة الشعب عاش حياته مناضلاً في سبيل التحرر والوحدة بمثالية نادرة، ولكنه لم يسعد بتعليم عالٍ، وثقافته انحصرت في المثالية الانتحارية في نشاطاته الوطنية. لم يكن يؤمن بنظام تتداخل فيه أفكار واتجاهات، بل يرى الأمور من خلال تصور مطلق هو أن الشعب هو البداية والنهاية وأن البعث هو وحده ضمير الشعب وإرادته.

لذا فإن الحرس القومي لم يكن تنظيماً مسلّحاً تحكمه أنظمة بمقدار ما كان قوة تتجاوز في تصرفاتها كل الحدود.

قال البعض إن الثورة لها مقتضياتها وإن بقاءها يبرّر كل وسائل البطش حتى ولو أصابت بعض الثوار، واختلف مع ذلك البعض آخرون بالقول إن الثورة إن عميت عن كل مصلحة ما عدا مصلحة فريق واحد فإن النظرة إلى مجموع الشعب تتناقض مع النظرة المبدئية للثورة.

للثورة قوى وأنصار تحالفت على إزالة حكم عبد الكريم قاسم وليست جميعها موحّدة في تفكيرها للحكم وأساليبه وتشكيلاته، وليس من الطبيعي أن تنقسم بسبب ذلك. لمّا كانت تلك القوى وأنصارها تعرف اتجاهات بعضها قبل الثورة، فإن مصلحة العراق كانت تقتضي بالضرورة أن تتّسع لبعضها وتستمرّ معاً لتمثّل في تعاونها مجموع جماهير الشعب بتطلعاتها العريضة.

ذلك لأن الاستئثار من فريق يؤدي إلى إسقاط الديموقراطية وتحكيم الديكتاتورية، وبالتالي إسقاط كل أسباب الثورة حيث تفرغ الشعارات والمبادىء من مضامينها.

ولا بد من التساؤل إذا كان من حقّ الأقلية أن تغامر بالحق العام وتستهين به حيثما لا توجد خلافات أساسيّة بينها وبين الأكثرية، بحيث تُساق الأمور إلى عودة الأسباب التي قامت عليها الثورة مع الاختلاف في الشعارات.

الثورة تحمل دائماً في بطنها نزعة إلى العنف، وهذا أمر طبيعي، ولكن هذه

النزعة إذا لم يحكمها عقل متفتّح وضمير منصف فإنها تتحوّل إلى غربة عن الشعب ووحشية في التصرف، وتفتح أبواب الصراع بين متماثلي الأهداف بما يضيع الأهداف أو يشوّهها.

للبعث في العراق فضل متميّز في إزالة الظلمة التي فرضها الشيوعيون والشعوبيون وعلى رأسهم عبد الكريم قاسم على العراق. ولكن فصائل القوميين الآخرين لا ينكر فضلها، وبالتالي فجميعهم أبناء شعب واحد حمل من المظالم والعنت إلى أبعد حدود التحمّل وبصبر الأبطال على مدى خمس سنوات طويلة امتلأت بالعذاب .

وللبعث حقّ في صنع مستقبل العراق وبمشاركة رفاقهم في النضال من الفئات الأخرى؛ حق لا ينفرد ولا ينفصل عن حقّ غيرهم ولا يضيع بين الفرقاء حق الشعب كله .

والعراق وطن عرف العرقيّة وأثرها على مسيرته، وعرف الاستعمار وتأثيره في تحريك العرقية للمساس بوحدة الوطن وقوّته، وهو محاط كما كان دائماً بدولتين لهما مطامع في العراق وجاراتها العربيات .

والعراق فوق ذلك كلّه الوطن العربي ذو الاكتفاء بالقدرة البشرية والطاقة الاقتصادية، وهو مقرّ الخبرة العسكرية في المشرق، وهو فوق ذلك كله درع حماية دول الخليج الصغيرة وعروبتها والنجدة الفعّالة لتحرير فلسطين .

هذا العراق محطّة عظمى من محطات الأمل العربي للدفاع عن الأرض والهوية العربية مثله مثل مصر. فإذا ما استقرت فيه وحدة في شعبه بالتئام قياداته على تعدّدها على طريق الإخلاص الديني والقومي انتفت كل أسباب الفرقة وسار العراق في مساره الصحيح .

الأكراد في العراق منذ الثلاثينات وبفعل بريطانيا ثم بعد فترة بفعل روسيا وبعدها بفعل إيران، تحركوا للانفصال تارة صراحة وتارة أخرى بدعوى الحكم الذاتي. وفي كل مرة يثورون ويحرفون جهد الدولة عمّا يجب أن تتّجه إليه .

والأكراد الذين يحتلّون مكانة تاريخية جليلة في الضمير العربي منذ ظهر صلاح الدين الأيوبي نسوا أن العرب قبلوا قيادته دون تعقيدات. ولكنهم في مراحل تاريخية لاحقة، وعندما كانوا يعانون الاضطهاد من إيران وتركيا وينعمون بالمساواة الوطنية مع عرب العراق، خرجوا عن الولاء الوطني وأثاروا النعرة العرقية والإقليمية .

تاريخ الثورات الكردية لم يعطِ العرب فرصة التعامل معهم بالأخوّة الإسلامية والوطنية، وهكذا ظلت المنطقة الكردية مركز انفجار مجهول التوقيت وعاملاً معيقاً للوحدة الوطنية وحاجزاً بين العراق وواجباته القومية واتجاهه الوحدوي العربي حتى في مرحلة الخمسينات والستينات. تلك صورة للعراق عند بدء مباحثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق .

ماذا عن سوريا التي تخلّصت من حكم الانفصال؟

البعثيون، وهم القوة الأقرب إلى السيطرة في سوريّا من الفئات القومية الأخرى، كانوا مصمّمين على الزحف إلى مراكز السلطة كافة بطريقة أو بأخرى. إلّا أنهم في بداية الأمر تظاهروا بغير ما يخطّطون له ليخففوا من ضغط الفئات الأخرى للتسليم بوحدة فورية لعبد الناصر. وقد نجح البعثيون في إقناع المتعجّلين بأهمية تفادي الأخطاء التي أصابت الوحدة الأولى بالطعنة القاسية، وذلك عن طريق الوحدة الثلاثية التي تضمن التراضي والمشاركة .

في سبيل كسب قبول عبد الناصر لبحث الوحدة تبرّأ البعث والفئات الأخرى من الانفصاليين، وذهبوا إلى درجة فصل أشخاص باركوا الانفصال أو خاصموا عبد الناصر، ولم يعدموا وسيلة لإلصاق التهم في بعض رجالهم إذ إن الغاية تبرّر الوسيلة. وكان أكبر كبش فداء اختاره البعثيون هو أكرم الحوراني، لا لسبب إلّا لأنه ملك الشجاعة للتعبير عن آرائهم بعد الانفصال بينما كان دور زملائه في خلق جوّ الانفصال أكثر فعالية .

كان ميشيل عفلق وصلاح البيطار أول من ناديا بإعادة تشكيل حزب البعث، ودون تظاهر بخصومة واضحة أو خلاف شديد مع عبد الناصر. أما أكرم الحوراني فإنه لم يحاول المراوغة، فلما فاض به الكيل اختلف مع عبد الناصر مواجهة وصراحة ثم أعلن عن عيوب الحكم في الجمهورية المتحدة في مؤتمر شتورة .

بين ليلة وضحاها تبرّأت قيادة البعث من أي علاقة بالانفصال، وأوقعت بفارسها أكرم الحوراني في قفص الاتهام، ووقف رفاقه البادئين بالتشهير سراً في مساوىء الحكم الوحدوي، وقف رفاقه يوجهون إليه سهام الاتهامات. وهؤلاء أنفسهم سبق وأن وجّهوا تهماً معاكسة لعبد الله الريماوي لأنه رفض إعادة الحزب بعد حلّه، وقالوا عنه أقوالاً تنعته بالعمالة لعبد الناصر في حين كان عبد الله الريماوي يجاهد لمنع القطيعة بين حزب البعث وعبد الناصر.

الوحدة التي لم يكن يقبلها عبد الناصر ولم يكن يقبلها البعث السوري، وبالتأكيد لم تكن مقبولة من بعث العراق.

ماذا عن مصر وعبد الناصر؟

مصر وبعد تجريد خصوم الثورة من كلّ أسلحتهم الماديّة والمعنوية استكانت وبقبول الغالبية العظمى بحكم عبد الناصر، ووجدت فيه قائدها ومنقذها المنتظر. فهو صديق الفلاحين والعمال ومخلّصهم من الاستغلال الطبقي وهو صديق المثقّفين الوطنيين، وكذلك فإنه الذي فتح للقوات المسلّحة مصادر التسليح الحرّ وبدون قيود.

عبد الناصر مثّل للمصريين العدل وطهارة المسلك والأمن، وصارت حياة الملايين متعلّقة بالأمل العظيم الذي نشدوه قروناً وانتظروه بالصبر والعذاب حتى وضعهم عبد الناصر على طريقه.

من هنا فإن قبول المصريين كشعب بعبد الناصر اقترن بالرضى والحب وساروا وراءه في كل معارك الحرية والاستقلال دون مناقشة، لأنه سبقهم في الإنجازات التي حلموا بها أو لم تطلهـا أحلامهم.

حالة استقرار الذهنية المصرية على قيادة عبد الناصر لم تتماثل معها حالة عربية أخرى وعلى الأخص في سوريا والعراق. وهذه مسألة حيوية قامت عليها الأسس الرئيسية للحكم في مصر. ولم يكن عبد الناصر مستعداً للمقامرة بهذا الاستقرار في سبيل أي هدف كان خارج حدود مصر.

لهذا السبب كان إصراره على حلّ الأحزاب السوريّة في وحدة ١٩٥٨ وفي ذهنه خلق ظروف سوريّة تتلاءم مع الظروف السائدة في مصر، حتى يكون النموذج المصري هو النموذج بديلاً عن النماذج السوريّة إذا صحّ التعبير.

لذلك فإن ما سبق وأن ذكرته عن اتجاه عبد الناصر لتعريب مصر وتمصير العرب يكاد يكون أدق تعبير.

السوريّون وبغضّ النظر عن اعتقاد القوميين بضرورة الوحدة، وهم الأكثرية الساحقة، ومجافاة الأقلية لمبدأ الوحدة مع مصر، فإن النظرة الشاملة للسوريين إلى الوحدة مع مصر وبين ١٩٥٨ و١٩٦١ اعتورتها أسباب جعلت البعض يصابون بخيبة أمل اتصلت بأسلوب عبد الناصر في سياسة الوحدة، بينما وجد البعض في خيبة أمل أولئك تبريراً وسنداً للانفصال.

عندما نتحدّث عن مباحثات الوحدة سنة ١٩٦٣ فإننا نتحدث عن تجربة جديدة

في الأسباب والموجبات وشكل الوحدة الثلاثية المطروحة .

بعدَ الانفصال اتّجه عبد الناصر بكليته إلى مصر ومعالجة قضاياها الكثيرة وأهمها القضية الاقتصادية، وفي تقديري أنه كان أبعد عن الرغبة في الوحدة وأقرب إلى التضامن ولكن بشرط أن يكون التضامن مع حكام في سوريا والعراق يرون فيه وفي مصر مركز القيادة المسلَّم لها .

وفي تقدير عبد الناصر فإن أي حكم بعثي في العراق وسوريا سيكون مثار إشكالات وإضعاف لشخصيته في الوطن العربي. إذا قبل الوحدة معهما عرّض مصر لتيارات جديدة قد تؤثر في الولاء المصري المطلق له، وإذا تضامن معهما كان هذا التضامن مؤثّراً على سياساته أكثر من تأثيره على سياستهما. تلك وضعية لم يكن عبد الناصر مستعداً للتعايش معها ولكنه لو رفض المباحثات لتحوّلت تهمة الانفصالية إليه بدلاً من السوريين.

ولكن بين الوحدة والتضامن درجة أخرى هي الاتحاد. ومع أن مصر لها وزنها في الاعتبارات السوريّة والعراقية في قضية الحرية والتحرير، ولكن المهم في اعتبار الأطراف الثلاثة هو من الذي يقرّر موضع هذا الوزن في القضايا العربية أولاً وفي القضايا الدولية ثانياً، وكذلك من الذي يقرّر وضع تأثير العراق وسوريا في تلك القضايا .

نظرياً فإن القيادة لمصر وعبد الناصر، ولكن تجربة الوحدة ١٩٥٨ رسّخت في القيادتين السورية والمصرية الاعتقاد القاضي بالمشاركة في قيادة الوحدة .

في اجتماع جماهيري في القاهرة قال علي صالح السعدي في جملة خطابه كلمة: الشعب هو البداية وهو النهاية. وطبيعي أنه قصد أن يقول: ليس عبد الناصر هو البداية والنهاية. وليس من الممكن أن يناقش انكاراً لحقيقة تاريخيّة منذ أن أصبح للشعب كلمة في تقرير حياته .

ولكنها كلمة فلسفية تقتضي أكثر من منطوقها في تفسير العلاقات المجتمعة في أي شعب كان، وأدوار المفكرين والمناضلين والقادة في تكوين فكر وإرادة الشعب .

السوريون والعراقيون، في رأيي الذي تكوّن نتيجة لمتابعتي الحثيثة للمباحثات الوحدوية كافة، أرادوا اتحاداً عاصمته القاهرة مع التساوي مع الثورة المصرية في القرار، وهذا ما كان يتحاشاه عبد الناصر.

وهكذا كانت المباحثات عملية تسوية سلبية عنوانها الوحدة الثلاثية وحقيقتها

قبول بإعلان وحدوي، وتغيير عدد النجوم في أعلام الدول دون الوصول إلى نتيجة جدية ولو بأدنى حدود التفاهم على المستقبل .

لماذا أصيبت المباحثات بالفشل؟ سؤالٌ الإجابة عنه بسيطة إذا ابتعدنا عن الغرض والتحيّز.

الحكام عادة، وبالأخص في وطننا العربي ومهما بلغ إخلاصهم، تسيطر عليهم نظرية الرؤية من خلال أشخاصهم ومناهجهم إلى درجة تصوّر أن الزمن يتوقف على مدى بقائهم في الحكم. هم ينشدون الأفضل وبأنانية تجعلهم يعلقون الأفضل لأوطانهم وشعوبهم على أعمالهم مع إنكار لحتمية الحركة والتغيير في الظروف والأشخاص والأحداث والعصر .

عملية ممارسة التفوق في ما بين الحكام، سواء بالنوايا أو الاتجاهات الفكرية أو الوسائل المادية، تخضع المبادىء الواحدة إلى التمزّق بين شدّ وجذب الإرادات والأساليب المختلفة التي يمارسونها. فضلاً عن ذلك فإنهم ينطلقون من اعتقاد الديمومة وكأنها قدر اختصوا به بما يمنع عليهم الاتفاق والتراضي لمصلحة الأمة التي لا ديمومة لغيرها .

قدر الأمة بالديمومة دون الأشخاص أو الأحزاب وقدسية المبادىء التي تعلو قدسية الرجال أمران غابا في المباحثات الثلاثية كما غابا في المسيرة العربية الحديثة عن ساحة الحكم في ما يجوز وفي ما لا يجوز، في ما هو حق القادة وحدود ذلك الحق وفي ما هو الحق الأبدي للأمة. وتفاعلات الأمة وما يتعامل مع ضميرها إلى جانب حركة العصر والبشريّة تتنافى مع ثبات أي فكر وأي منهج حياتي يضعه الإنسان من أي أمة كانت، لأن مصلحة الأمة هي الثابت الوحيد الذي يفرض الفكر والعمل الصالحين لكل مرحلة من مراحل وجود تلك الأمة .

القيد على مستقبل الأمة بحياة رجل أو حزب وحيد يعني المجهول بعد ذلك الحزب، لأن ذلك القيد يفرض الجمود على فكر الأمة وحركتها ويحكم بالإعدام على قدرة الإنسان على الإبداع .

ولهذا فإن تنافس أو صراع القادة والقيادات المختلفة في الأمة بدلاً من اتساعهم لبعضهم ولأفكارهم، في حين أنهم احتكروا حرية الفكر لذاتهم، لا يعدو كونه إنكاراً لحقوق الشعب في المشاركة لصنع المستقبل. وكذلك لا يخرج عن كونه تضييعاً لأمانة المسؤولية التاريخية لما افترضوه من مسؤولياتهم دون غيرهم .

وبالتالي فإن الديكتاتورية أيّاً كان صاحبها لا توصل الأماني إلى مبتغاها مهما تنافس أصحابها بالشعارات الجميلة، بل تغرقها بالإحباطات في محيط من التيه العظيم .

لست بصدد إحالة اللوم على فريق دون آخر في أسباب فشل الوحدة الثلاثية وتحوّلها إلى دواعي الخصام بين أطرافها، ولكني حاولت في ما تقدّم وصف حالة مرضيّة لا تزال الأمة العربية تعاني منها، وهي حالة مرضية لا تقتصر على أطراف المباحثات الثلاثية وحدهم .

المفروض أنني أكتب مذكراتي لا فلسفاتي، ولكن الأحداث العربية التي أكتب عنها تحتاج إلى تفسير على الأقل ليطّلع الجيل الناشىء على رأي من الآراء في الأسباب والمسببات التي حُملت إليه وحملته ليواجه أوضاعاً أقل ما يُقال فيها إنها تثقله بأعباء أورثناها لـه .

ولكي أسهّل عليه فهم ما قصدته من أوصاف للذهنية التي أفشلت الوحدة الثلاثية فلا بدّ وأن أعود إلى بعض الممارسات التي تسهّل الفهم .

انقلبت الأمور من أبحاث للوحدة إلى إعلان فارغ من المضمون، ثم تحوّلت إلى خلافات شديدة وتهجمات وتحريضات صدرت من مصر على الحكم في العراق وسوريا وأخرى من سوريا والعراق على مصر .

أدّى هذا الخلافُ إلى تغيير في الحكم في العراق، وأصبحت مقاليد الأمور بيد الرئيس عبد السلام عارف بعد أن قام بانقلاب عسكري أزال به حكم البعث. وعبد السلام من أشد أنصار عبد الناصر، ولكنه لم يطالب بوحدة العراق مع مصر، واكتفى القائدان بتركيز حملة عدائية على البعث الحاكم في سوريا .

هذا يعني حرب الثورات المتماثلة الأهداف والشعارات، فلا وحدة أقاموا ولا تضامن، وغرقت سوريّا في صراع دموي خرج فيها البعث منتصراً على خصومه وخاسراً، مثل العراق ومصر، لهويته الوحدوية .

لو توقّفت النزعة الديكتاتورية على مصر وسوريّا والعراق لكانت المصيبة محدودة، ولكنها توسّعت ولأسباب الخوف من التغيير لتشمل كل الوطن العربي بدرجة أو أخرى، ولتفتح مدارس جديدة ونظريات مختلفة في الحكم ينتج عنها تكريس الإقليمية الضيقة، حتى في الظروف التي أصبح العرب فيها بأشدّ الحاجة إلى نوع من الوحدة السليمة .

يتصوّر الكثيرون أن أمر الوحدة العربية انتهى، وأن التعاون العربي في إطار الجامعة العربية أو المجالس الإقليمية هما الطريقان السويّان لصنع المستقبل. ولكني لا أرى ذلك ممكناً بالرغم ممّا صادف محاولات الوحدة من إحباطات، ذلك لأن حاجات الأمة الملحّة والتي تتزايد في حجمها الأمني أسقطت قدرة الجامعة والمجالس على صنع المستقبل.

ذلك التصوّر نابع من تقدير خاطىء للصراع العربي الإسرائيلي، وانصياع العرب لما يفرضه العجز من محاولات للسلام وما يفرضه أصحاب المصالح المتماثلة لفترات زمنيّة محدودة من حلول لقضية أمنها.

فالاعتماد على الجامعة العربية والمجالس التعاونية هو بمثابة ترقيع العباءة العربية المهترئة، التي ستنتهي إلى أن تصير مجموعة رقع من أقمشة ضعيفة الخيوط ومتنافرة الألوان وتخرج عن كونها عباءة.

الدول العربية لا ترى ولا تريد أن ترى العلّة في كل منها، وتكره أن تدرك أن داخل كل منها قنبلة قابلة للتفجير في أي وقت، وأن الشعب يحمل في باطنه من أسباب التفجير ما تعجز العين عن رؤيته. والحكومات العربية تفسّر ما يجري حولها، ومعها التفسير الذي يلائم هواها.

نزعة العالم إلى السِّلم ترى الحكومات العربية فيه الأمل دون نظرة إلى أن ذلك العالم ليس عالمها وقضايا ذلك العالم منفصلة عن قضايانا، إذ لم نسهم في صنعها أو جلّها ولم نصل إلى أي درجة من القدرة لإقحام دولنا فيها أو وَصل قضايانا بأي نوع من الارتباط الجدي بقضاياهم. فأين نحن من العالم؟ اللهمّ إلّا أننا سوق له أو ميدان تأثير ونفوذ لدولة.

نحن نحاول الهروب من واقعنا بخيالنا الخصب دون الرجوع إلى دروس التاريخ القديم والحديث لأمتنا، ونحن نزيّن ونُزيف إمكانات مستقبلنا بما يصنعه الآخرون في العالم دون النظر في ما يتوجّب علينا عمله.

العالم القوي الذي يصنع مستقبله ومستقبلنا منصف لشعوبه ومستغل لنا بسبب ضعفنا. فهو إذا توحّد لا ندخل في حساباته وإذا انقسم تسارعت أطرافه لِجرِّنا إلى معسكراته، وإذا جنح إلى السلم بين الأقوياء كنّا ومن هم مِثلنا في قائمة مقايضاته.

وماذا أخذنا عن ذلك العالم وبماذا أبدعنا؟ لم نأخذ من العالم القوي إلّا القشور كما وأننا لم نبدع في شيء. كيف يمكن لأمة أن تبدع شيئاً وقد أمضت ما يقارب أربعة أجيال في تنافسات وصراعات داخلية لم يحكمها إلا الجهل؟

إذا كنّا حتى يومنا هذا نجهل شعوبنا التي دفعناها إلى طرق من التيه والتخبط في ما هو صحيح أو ما هو خاطىء حتى وجدت نفسها يائسة من مستقبل مأمون، ولا نزال نمارس التزييف لتثبيت الإقليميات التي لن تغني أمتنا عن وحدتها.

إذا كنّا نتخذ من فشل الوحدة في مرحلة من تاريخنا ذريعة للتنكّر للمبدأ كله، وكأنما العيب في الوحدة وليس فيمن عابوها.

إذا كنّا عاجزين كدولة عربيّة في المشرق والمغرب أن نرى أن الوحدة لها أكثر من شكل وأكثر من أسلوب يُنجيها من الانفصال.

إذا كنّا نجزّىء الوحدة إلى أقاليم عديدة تحت أعلام المجالس التي لن تسدّ الحاجة للأمن القومي.

وإذا كنّا نتصوّر تجزئة القوة العربية إلى عينيّات تحكم الضرورة بتكاملها. إذا كنّا كذلك فأين الوحدة وأين الأمن القومي؟

لم يرد في الوحدة سِفْر مقدس يفرض على العرب الالتزام به، ولكن قدسية الوحدة نابعة من حاجة الأمة إلى استكمال ضروراتها غير منقوصة لتثبت أمام التحديات ولتصنع مستقبل الأمن للأجيال القادمة.

ورؤية الأنظمة العربية القائمة بأن قدر الأمة أسير بقائها ستكون هي أعظم أسباب زوال الأنظمة وعودة الصراع الداخلي في المشرق والمغرب.

هذه آراء يحسن بالحكام أن يتدبروها وليست مهاترة أو سفسطة. وهي أقوال عربي أمضى عمره يرقب الأحداث ويعيدها إلى أصولها وأسبابها، وهي أيضاً صادرة عن هوى واحد هو التطلّع إلى سيادة الأمة العربية على قدرها وكرامة الإنسان العربي.

ولا يَفرحنّ من سكنت عواصمهم جرثومة التجزئة بما صار إليه أمر الوحدة، وذهبوا في اختلاق البدائل أو سَلّموا للأجنبي بقيادة القافلة فلن تطول فرحتهُم.

والليالي حبالى مثْقلات يلِدنَ كُلّ عجيبةٍ

مقابلة مع عبد الناصر

على إثر الثورة العراقية جاء وفد عراقي يضمّ علي صالح السعدي وصالح مهدي عمّاش، وهو صديقي، ووزراء آخرون، فأقام اتحاد المحامين العرب حفل عشاء على شرف الوفد وحضره الرئيس عبد الناصر، ودُعي إليه ما يقارب الألف من الشخصيات المصرية واللاجئين السياسيين وكنت واحداً منهم.

صادفني صديقي المحامي فاروق غلّاب عضو الاتحاد، وكان معنيّاً أن يجلسني على مائدة قريبة من عبد الناصر. وبالرغم من إلحاحه شكرته وجلست على مائدة متوسّطة وجلس فاروق ومحمد علي الجفري إلى جانبي . كان فاروق على علم بما يأخذه عليّ بعض أعضاء مكتب الرئيس، وتصوّر أن اقترابي من مائدته قد يؤدي إلى حديث يزيل سوء التفاهم، وأنا بطبيعتي لا أحبّ الحفلات الكبيرة ولا أحب التزاحم على الاقتراب من صاحب السلطة في مثل هذه المناسبات .

بعد العشاء انتقل عبد الناصر والضيوف إلى إحدى قاعات نقابة المحامين مروراً بقاعة كبيرة مستديرة ليسلّم عليه وعلى ضيوفه الحضور، وكان الزحام على باب قاعة السلام شديداً فانتحيت جانباً أراقب تزاحم الأكتاف على الباب .

مرَّ بي من جملة من مرّ أحد الأردنيين وكان سكرتيراً لمجلس الوزراء الأردني وصحفياً في الأصل ولم يكلف نفسه السلام عليّ، كما مرّ آخرون مصريون وسلكوا مثل الأردني. وكنت أعرف السبب الداعي لتصرفهم ذلك، وعقلت المصريين بينما لم أعقل الأردني الذي كان يتبرّك بمجرد أن ابتسم له .

الاعتقاد بأني أعارض الرئيس عبد الناصر في نقطة بقدر حبّة السمسم كانت باعتقاد أولئك الصغار وإن علت ألقابهم كأنها الكفر بالدين .

انتظرت السيد الجفري وهو صديقي وجاري لإنهاء ضريبة السلام لأعود به إلى داره، ولكن عبد الناصر وبعد السلام على عدد كبير من المدعوين اختصر تلك المهمة وخرج منَ القاعة ووراءه ضيوفه، بينما احتشد البقية من الراغبين بالسّلام عليه عند الباب في زحام شديد .

مدّ الرئيس يده لمن يواتيه الحظ أن يلامسها وعيناه تنظر من فوق رؤوسهم فوقع نظره عليّ من بعيد .

أنزل يده وشق الزحام متّجهاً نحوي وسلّم عليّ بحرارة قائلاً: زمان ما التقيناش وازيّك وازاي الصحّة. ثم ودعني وسار نحو بوابة الخروج .

الدنيا تغيّرت وكان أول من هجم عليّ ذلك الأردني يغمرني بالقبلات وآخرون خلفه بالصف يبغون تحيتي وفاروق غلاب ينظر إليهم والجفري يبتسم .

قلت وأنا أنظر إلى الأردني وبصوت عالٍ: لم أنقص شبراً قبلاً ولم أزد شبراً، فأنا علي أبو نوار نفسه في عين عبد الناصر أمّا أنتم فقد أصابكم خداع البصر، ولست

بحاجة إلى مجاملاتكم ونفاقكم، وانصرفت مع فاروق والسيد محمد علي الجفري رحمه الله وأدخله جنّته .

فاروق غلاب أراد ما كرهته ولكن عبد الناصر كان رجلاً عظيماً ويعرف قيمة الرجال، فحقق بعفويته وكرم أخلاقه ما أجهد فاروق نفسه في تحقيقه. هذا الصديق المصري الذي أحبّني دون أي سبب يتعلق بأيّ مصلحة، وأنا ضيف على بلاده، وحافظ على صداقته لي في حين تنكر لي بعض أبناء وطني الأردن وقد صنعت لهم مجداً وطنياً. فاروق غلاب لن أنساه ما حييت .

والسيد محمد علي الجفري من السادة في الجنوب العربي والذي ما إن يراني ولده الذي يرصدني وهو جاري في فترة ما تصوّره البعض أن حياتي مهدّدة. وما إن أخرج من منزلي حتى يلقاني الجفري على الشارع ليقترح عليّ أن نزور السلطان علي عبد الكريم لنخرج سوية إلى فندق سميراميس أثار انتباهي بعد مرات من اللقاء هذا وسألته: كيف تعرف يا أيها القاضي موعد خروجي ؟

وفي نهاية الجدل يقول لي هو والسلطان علي عبدالكريم بأن مرافقتك عند خروجك كان قراراً من قيادة رابطة أبناء الجنوب إذ بلغنا بأن حياتك مهدّدة !! .

لقد فصل عبد الناصر يوم الاحتفاء بالوفد العراقي هذه المسألة والتي صارت اقتناعاً، حتى عند عبد الله الريماوي الذي كان يرجوني أن ألزم الصمت عند الحديث عن عبد الناصر والوحدة لأنه يخشى عليّ من القتل .

وهكذا ارتاح السيد محمد علي الجفري وولده من مهمة المراقبة .

في ظلّ هذه الظروف وجدت أنه من الأفضل أن أتّصل بالملك حسين كي يسمح لي بالعودة إلى الأردن والاستئذان من الرئيس عبد الناصر بذلك لما تقتضيه واجبات الضيافة . فطلبت مقابلته وتحدّدت مساء اليوم التالي .

استقبلني الرئيس بالترحيب الحار معتذراً عن طول الانقطاع بمشاغله الكثيرة مضيفاً: ولكن أخبارك تصلني دائماً من الإخوان عبد الحكيم وزكريّا وكمال رفعت. ثم قال: واليوم فرصتنا للحديث ومناقشة آرائك.

قال : أنت تُحمّلني مسؤولية الانفصال .

قلت : بالتأكيد .

قال : ولكن هاني الهندي يقول إن عبد الحكيم هو المسؤول .

قلت : يريد حظوة عندك أو أنه وبحكم قلة خبرته يخطىء في ما ذهب إليه . أنت رئيس الجمهورية وصاحب القرار بالسياسة التي سيّرت سوريا أثناء الوحدة ولا يجوز أنْ يكون عبد الحكيم كبش فداء .

قال : وماذا أيضاً؟

قلت : ثورة الشواف والإعلام المصري في القضايا العربية وتراجعك عن الوحدة، بينما تتخذها سبباً في إثارة الشعوب في المشرق دون هدف إلاّ إثبات الوجود .

قال : ولكن السوريين هم قاموا بعمل الانفصال .

قلت : هذا صحيح. ولكنك أردت أن تحكم سوريا وكأن ثورتك سنة ١٩٥٢ قامت في سوريّا أيضاً، ومارست فيها أسلوبك نفسه في مصر مع اختلاف البيئتين سياسياً قبل الوحدة. أنت تعلم أن المشارقة من العرب تكوّنت أحوالهم السياسية في ظروف تختلف عن مصر في نواحٍ كثيرة سياسية واقتصادية واجتماعية، فضلاً عن زعامات لها جذورها ورموز وطنية لها وجودها .

ولنأخذ سوريّا على سبيل المثال الأقرب؛ فأنت لم تترك مكاناً لأحدٍ فيها واستبدلت الرموز بموظفين أو عسكريين وكأنك تريد الشعب سهلاً ممهداً مثل زجاج هذه المنضدة وليس فيها إلا نتوء واحد هو عبد الناصر .

بالإضافة إلى ذلك فالشعب السوري لم تعطَ قياداته أي دور في صنع القرار لكامل الجمهورية العربية المتحدة، فصارت سوريا إقليماً تابعاً لمصر وبمركزية في القاهرة .

سيادة الرئيس، لو كان العرب يقبلون بمثل هذه المركزية لما قامت ثورتهم على الدولة العثمانية، وكذلك لو كانت سوريّا تقبل لما قام الانفصال. أنا لا مصلحة لي في معارضتك لمجرد المعارضة في حين أكرمت وفادتي إلى أبعد حدود كرم الضيافة، ولكني أرى من واجبي أن أصارحك وإلاّ كنت متنكراً لذاتي .

نحن العرب نريد الوحدة للتحرير بينما كل الدلائل تشير إلى أن هدف التحرير قد أرجىء.

سأل الرئيس: كيف أرجىء؟

قلت: أرجىء بتعديل الأوليات والنظر إلى الوحدة كأسلوب حكم مركزي بدلاً من اتحاد الأرض والشعب والإرادة. فنهاية المباحثات الثلاثية لكي لا تقع بين البعثين

العراقي والسوري على حد تعبيرك يعني بالنسبة لفهمي تقليص مبدأ الوحدة بما يتناسب مع سُلطتك. وإرسال الجيش إلى اليمن هو تبديل لأولوية فلسطين.

قال الرئيس: وماذا تقترح؟

قلت: إذا كان ما أعلنته أكثر من مرة، أن مصر تملك أقوى جيش وأسطول بحري وسلاح جو في المنطقة، دقيقاً فأنت تملك زمام الموقف في الصراع العربي الإسرائيلي. والأمة العربية على قناعة بأنك قائد التحرير، فإذا كنت قادراً على قهر إسرائيل والوصول إلى بئر السبع، عندئذٍ سيحني كل قادة العرب في المشرق والمغرب رؤوسهم لك ويخضعون لمركزية القيادة في القاهرة. وبغير ذلك فإن العرب لن يسلموا لك قيادهم.

قال الرئيس: وماذا عن الاشتراكية؟

قلت: الاشتراكية ليست بديلة عن الوحدة، ومن باب أولى فهي ليست بديلة عن التحرير.

قال الرئيس: يظهر أن الخلاف في الرأي بيننا عميق وأنا عاتب عليك أن أحاديثك علنية وغير محصورة مع أننا جميعاً إخوانك، وبإمكانك أن تحصرها في عبد الحكيم وكمال وزكريا.

قلت: أعرف ذلك. لك الحق في العتب ولي الحق في رأيي. ولما كنت لا أريد أن أصير ناكراً لحق الضيافة فقد قصدت أن أقابلك لأبلغك أنني سأحاول الحصول من الملك حسين على إذن بعودتي إلى الأردن.

قال: هذه مخاطرة وأخشى أن يشنقك الملك حسين.

قلت: سيادة الرئيس، تأكّد أنه لن يشنقني وعلى الأقل فلن تكون قيود على حرية رأيي تفرضها الضيافة.

حاول عبد الناصر وبحرص شديد أن يثنيني عن محاولة العودة ولكني أبلغته أنني سأباشر الاتصال بالملك حسين في أول فرصة أجد فيها الرسول المناسب.

العودة إلى الأردن

أرسلت خطاباً لجلالة الملك حسين مع شخصية أردنية معروفة رجوته بها أن يسمح لي بالعودة إلى الوطن، ولم يمضِ على وصولها إليه غير أسبوعين حتى تفضّل بالرّد.

أوفد جلالته إليّ صديقي الشريف زيد بن شاكر، وقد أصبح ضابطاً كبيراً في الجيش، ليبلغني ترحيب جلالته بعودتي ورغبته في لقائي في أول زيارة له إلى القاهرة تلبية لدعوة الرئيس عبد الناصر.

وصل الملك إلى القاهرة ومعه حاشيته، فاتّصلت برئيس الديوان بهجت بك التلهوني مذكّراً بالموعد بعد أيام، فأبلغني أنه كان من المقرّر أن ألتقي بجلالته غداً لولا دعوة مفاجئة طرأت على البرنامج لزيارة الغردقة مع الرئيس. إلاّ أن الملك سيزور الإسكندرية قريباً لقضاء أسبوع ويرغب أن يتمّ اللقاء هناك.

تلك كانت مصادفة جيدة لأني كنت قد استأجرت منزلاً لقضاء فترة الصيف في الإسكندرية إلى جوار منزل السيد زكريّا الطاهر الذي كان نِعمَ الصديق ونِعمَ الجار، إذ كنّا نُمضي أمسيات طويلة معاً نتحدّث عن ذكريات تعود إلى صداقتنا التي بدأت في باريس عندما كنت ملحقاً عسكرياً في سفارتنا، وقد زارها بحثاً لعلاج طبيعي في بواتييه المشهورة بمعركتها التي دارت بين الفرنجة والعرب، والتي قاد الجيش العربي فيها القائد المشهور عبد الرحمن الغافقي.

حضر جلالة الملك إلى الإسكندرية وجرى له استقبال رسمي ونزل في قصر رأس التين، وكنت أستمع إلى الإذاعة التي وصفت الاستقبال في المطار وفي شوارع الإسكندرية حتى وصوله والرئيس ثم مغادرة الرئيس القصر.

بعد ساعة اتّصلت بقصر رأس التين هاتفياً وطلبت إيصالي بالملك، وطال الانتظار دون أي ردّ وقُطعَ الخط، فعاودت الاتصال، فأوصلني عامل الهاتف بالرائد نور المرافق العسكري المصري لجلالته والذي أبلغني أن الملك ذهب في جولة في أسواق الإسكندرية. استغربت أمر هذه الجولة ولكني لا أملك إلاّ أن أصدّقه فانتظرت ساعتين ثم اتصلت.

الرائد نور طلع هذه المرة بمانع جديد قائلاً إنه لا يعرف مكان وجود الملك في القصر ولم أتمالك من أن أقسو عليه قائلاً: أنت مهمل لواجبك إذا كنت تجهل مكان من ترافقه في مساحة القصر المحدودة.

استمهلني وعاد بعد دقيقتين ليقول إنه لا يقدر على إبلاغ الملك عن طلبي من قبيل البروتوكول. أدركت أن الإذن بمكالمتي مرتبط بناحية أهم من المرافق العسكري لا تسمح لي بالاتصال.

في اليوم التالي طلبت رئيس بعثة الشرف، وهو أحد مستشاري السيد الرئيس، فاعتذر بدوره عن إبلاغ الملك رغبتي في التحدث إليه متحججاً بالبروتوكول. وهنا

انفجرت وقلت له: لا توجد قوة تمنعني من اللقاء مع الملك، وأرجو أن تنقل هذا إلى مصدر الأمر بالمنع. فأنا ضيفكم ولست سجينكم فلا تفسدوا الضيافة بعد سبع سنوات ونيّف. ردّ المستشار، ياسيادة اللواء لماذا لا تكلّم رئاسة الجمهورية، سامي شرف مثلاً وتعفيني؟ وهنا وضح الموضوع. وضح أمر زيارة الغردقة التي أقحمت في البرنامج في زيارة الملك الأولى ووضح أمر البروتوكول.

عصر اليوم الثالث زارني السيد هاني الخصاونة سكرتير السفارة الأردنية ليمضي بعض الوقت معي، وهو يحمل برقية إلى الملك الذي كان يستمتع بالبحر بعيداً عن القصر، فأعطيته رقم هاتفي. ولم تمضِ نصف ساعة من مغادرته لبيتي حتى كان الشريف زيد يكلمني ليقول إن جلالة الملك بانتظارك فطلبت إليه انذار حرس بوابة القصر بقدومي.

ذهبت إلى القصر وسألني قائد حرس البوابة عن اسمي فاستأذنني وذهب إلى التليفون وطال انتظاري له، فأدخلت سيارتي البوابة وانطلقت تتابعني صفارات الحرس ولم ألقِ إليها بالاً حتى وصلت، وإذ بالشريف زيد والمرافق العسكري والرائد نور بانتظاري. أخذني الشريف إلى ردهة القصر وقال سيحضر جلالة الملك بعد لحظات. وفعلاً لم تمض دقيقة حتى دخل الردهة مقبلاً عليّ وقد فتح ذراعاه، وكان لقاء الأخوّة بعد طول غياب، وبدأنا حديثاً طويلاً وكأننا لم نفترق لحظة واحدة منذ سنة ١٩٥٧.

المرافقون المصريّون وقفوا عند مدخل الردهة مندهشين والوفد المرافق لجلالته، في ما عدا الشريف زيد بن شاكر، لا يبدو عليهم الارتياح إذ كنت أراهم يتناوبون على نافذة تطلّ على مكان الجلسة.

لا هؤلاء ولا أولئك يعلمون ما اتّصل بيني وبين جلالته أو ما تصوّروه من أسباب قطيعة. لم يعلموا أن علاقتنا أصابها الاستهتار العربي والهجمة الأجنبية التي فتح لها الاستهتار ذلك أوسع الأبواب.

لم يكن جلالة الملك راغباً في ما حدث كما لم أكن راغباً فيه، ولكنها الحياة وضرورات تفرضها الظروف تغلب كل المنى والأماني الشخصية والعامّة.

قال الملك: ليس أعزّ منك عليّ وعلى الوطن، وأنت محلّ ترحيبي ومحبتي وأنا أخوك، ولكني أريد أن تعود إلى عمان قبل عودتي إليها لأسباب لا مجال للحديث عنها.

قلت لجلالته: كل الأمور مرهونة بإرادة الله ولا بدّ لي من وداع أصدقائي وكذلك من جواز سفر، وسأصل عمان بعد أيام من عودتكم إن شاء الله.

ولكن الملك أصرّ أن أصل عمان قبله، وأمر بجواز سفر فوراً واستدعى خاله الشريف ناصر بن جميل رئيس الأركان، وأصدر إليه أمراً لكل فئات الأمن بعدم التعرّض لي، وكذلك أصدر أمراً بإذاعة مرسوم العفو عمّا صدر بحقي من أحكام وكان قد جهّزه قبل قدومه إلى الإسكندرية.

لنعد قليلاً إلى جلسة قصر رأس التين التي طالت عن ساعتين، ولكن جلالته أراد استمرارها قائلاً: بعد هذه السنين الطويلة فلا تكفي ساعات لقاء قليلة.

طبعاً ازداد حب الاستطلاع مع الاستغراب عند المرافقين المصريين ورئيس بعثة الشرف الذين ظلّوا واقفين عند مدخل الردهة. واقترحت على الملك أن نتناول العشاء في فندق بوريفاج تغييراً للجو إذا كان باستطاعة الفندق استقبالنا في تلك الساعة التي تجاوزت الساعة العاشرة ليلاً.

استحسن جلالته الفكرة فناديت الرائد نور وكلّفته الاتصال مع مدير الفندق باسمي وسؤاله، فالتفت نور إلى الملك ينتظر موافقته وحصل عليها. غاب نور ثم عاد ليبلغنا اعتذار مدير الفندق بين همهمة على باب الردهة وأخرى عند النافذة، واستأنفنا الحديث حتى الساعة الثانية عشرة بين مقاطعات عديدة من المرافق نور الذي يُذكّر الملك بالمناورة البحرية في الصباح الباكر، وأن السيد الرئيس مستعد لتأجيلها حتى لا تتسبّب المناورة بإرهاق لجلالة الملك إذا أطال السهرة.

رجوت جلالة الملك أن يأذن لي بالانصراف ليأخذ قسطه من الراحة، ولكي انتقل إلى القاهرة وتهيئة أمور سفري إلى عمان وودّعته شاكراً كرمه وأريحيته.

في تلك الأيام كانت أخلاقيات الملك حسين التي يتعامل بها مع القريب أو البعيد نادرة مهما اختلف معه الرجال أو اتفقوا معه. أمّا في أيامنا هذه التي تعطلت فيها كل ما افتخرنا به من تقاليد شرف عربية عند الكثيرين من الحكام الذين اتخذوا القتل والحيلة وسيلتي قضاء على الخصوم، فإن أخلاقيات الملك حسين لم تصبح ندرة فحسب ولكنها صفة تفرّد بها وتفرّدت به.

بعض الناس يقولون هذه براعة سياسيّة وذكاء وأنا اختلف معهم في ذلك، فالملك حسين ليس الوحيد في البراعة السياسية والذكاء. وماذا يكسب الملك من سياسة أو ذكاء معي وأنا لاجىء في بلد اختلفت مع قائده بينما استجدّت الصداقة بينه وبين الملك؟ لم أكن ذا نفوذ أو قوة تأثير، ولكن كان لي متّسع في وفاء جلالته لرفقة في رحلة العمل الوطني تشرّفت بها ولم ينكرها، وكانت لي مكانة الصديق الذي

حكمت الظروف القاسية في ابتعاده. أين من حاكم يغلب النبل في صفاته على كل الضعف والقوة في نفوس البشر ؟

ودّعت أصدقائي المصريين بالهاتف لضيق الوقت، وكلّمتُ وزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية راجياً نقل تحيتي وعرفاني بالجميل للسيد الرئيس عبد الناصر ومصر، وأخذت زوجتي وولدّي خلدون ووائل إلى مطار القاهرة حيث فوجئت .

الرئيس عبد الناصر أوفد مدير مكتبه وضابطاً عسكرياً لتوديعي باسمه، وكان جمع ضمّ سليمان الحديدي ومحمد الخطيب وعدداً من الضباط الأردنيين ووزير الوحدة السابق جمال صوفي والفريق صالح مهدي عماش وعدداً من العراقيين والسيد إبراهيم طوبال من تونس والسلطان علي عبد الكريم والسيد محمد علي الجفري وشقيقه من رابطة أبناء الجنوب العربي .

وسعدت بوداع العرب في مطار القاهرة ويؤسفني أن غابت عني أسماء بعضهم وعرفت أني لست أردنياً فحسب وإنما عربي من الأردن .

خرجت من الأردن وحدي وباختياري وعدت إليه وحدي وباختياري.

وفي مطار عمان التقيت بكل أهلي : والدي وأبناء عمومتي وعشيرة العطيات ورياض المفلح وإخوته وأبناء عمه وعشيرة النجداوي وعلى رأسهم أحمد النجداوي وصديقي الصدوق قاسم الناصر وإخوته وكثيرون غيرهم، عجّ بهم المطار في ساحته وقاعاته. ورجال الأمن في المطار يُسهّلون الدخول والخروج تنفيذاً لأمر جلالة الملك .

أحسست أني في حضن وطني الذي أحببت طوال عمري ولكني افتقدت والدتي التي انتقلت إلى دار الآخرة دون أن أراها . تلك غصة في قلبي ستلازمني حتى ألحق بها رحمها الله وأكرمها بجنته .

المحتويات

صفحة

صفحة

يبحث الكتاب تاريخ فترة تمتد من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٦٤، ويختصّ بالدرجة الأولى بالأردن وفلسطين وسوريا ومصر والعراق.

وهو بحث مستفيض عن الأحداث التي أصابت المنطقة ودولها، وأدوار قادة هذه الدول ورجالها في تلك الأحداث.

وهو عرض أمين للحرب العربية الإسرائيلية وتفسير للإخفاقات العربيّة عسكرياً وسياسياً.

ويظهر الكتاب الكفاح العربي للخلاص من الاستعمار ونتائج ذلك الخلاص، كما ويركز على القضية العربيّة بمجملها وظروف الأمن القومي الناجمة عن غياب العمل الجدّي للوحدة العربية.

ويعرض الكتاب للذهنية العربية في بدايات الخمسينات والآمال التي تعلّقت بها، ويقارنها بالذهنية العربية في السبعينات وما بعدها، ويثير السؤال عن مدى استقلال الإرادة العربية في مواجهة مستقبلها.

ISBN 1 85516 811 1



DAR AL SAQI
26 Westbourne Grove, London W2 5RH